

كتاب

عِلمُ الأَدَبِ

مقالاتٌ

لِمَشاهِيرِ العَرَبِ

على الجزء الاول

من

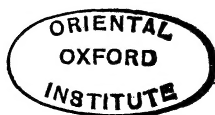
عِلمِ الأَدَبِ

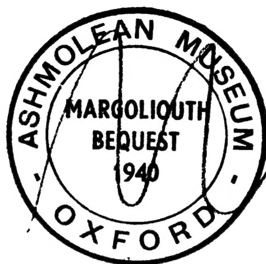
جمع الاب لويس شيخو اليسوعي



طُبع في مطبعة الاباء المرسلين اليسوعيين

بيروت سنة ١٨٨٧


ORIENTAL
OXFORD
INSTITUTE


ASHMOLEAN MUSEUM
MARGOLIOUTH
BEQUEST
1940
OXFORD

مقالات

لبعض مشاهير كتّاب العرب

في الانشاء

توطئة

فصل في حقيقة علم الادب واقسامهِ واركانهِ

البحث الاوّل

في حدّ علم الادب

(عن الزمخشريّ والجرجانيّ والحاج خلفا بتصرف)

(راجع الجزء الاوّل من علم الادب صفحة ١ من التمهيد)

عِلْمُ ٱلْأَدَبِ عِلْمٌ يُحْتَرَزُ بِهِ عَنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِ ٱلْخَطَإِ فِي كَلَامِ ٱلْعَرَبِ لَفْظًا وَكِتَابَةً. وَذٰلِكَ أَنَّ فَائِدَةَ ٱلتَّخَاطُبِ وَٱلْمُحَاوَرَاتِ فِي إِفَادَةِ ٱلْعُلُومِ وَٱسْتِفَادَتِهَا لَمَّا لَمْ تَتَبَيَّنْ لِلطَّالِبِينَ إِلَّا بِٱلْأَلْفَاظِ وَٱلْكِتَابَةِ وَأَحْوَالِهِمَا كَانَ ضَبْطُ أَحْوَالِهِمَا مِمَّا ٱعْتَنَى بِهِ ٱلْعُلَمَاءُ. فَٱسْتَخْرَجُوا مِنْ أَحْوَالِهِمَا عُلُومًا سَمَّوْهَا بِٱلْعُلُومِ ٱلْأَدَبِيَّةِ لِتَوَقُّفِ أَدَبِ ٱلدَّرْسِ عَلَيْهَا بِٱلذَّاتِ وَأَدَبِ ٱلنَّفْسِ بِٱلْوَاسِطَةِ يُتَعَرَّفُ مِنْهَا ٱلتَّفَاهُمُ عَمَّا فِي ٱلضَّمَائِرِ

البحث الثاني

في تقسيم الادب وانواع العلوم الادبيَّة

(عن الوطواط والجرجاني)

(راجع صفحة ٢ و٣ من تمهيد علم الادب)

اَلْأَدَبُ نَوْعَانِ نَفسِيٌّ وَكَسْبِيٌّ. فَالنَّفْسِيُّ بِتَوْفِيقِ ٱللهِ يَهَبُهُ لِمَنْ يُرِيدُ وَهُوَ مَا كَانَ مِنْ مَحَاسِنِ ٱلْأَفعَالِ ٱلدَّالَّةِ عَلَى كَرَمِ ٱلطِّبَاعِ . وَٱلْكَسْبِيُّ مَا ٱستَفَادَتْهُ ٱلْأَنفُسُ مِنْ احَاسِنِ ٱلْأَقْوَالِ ٱلْآخِذَةِ بِاَعِنَّةِ ٱلْقُلُوبِ وَٱلْأَسْمَاعِ وَهُوَ ٱلَّذِي تَرْجَمتُ عَلَيْهِ فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ لِيَقَعَ ذِكْرُهُ فِي ٱلنُّفُوسِ اَحْسَنَ مَوْقِعٍ لِتَرْمُقَهُ لِأَجْلِهِ ٱلْعُيُونُ بِٱلْإِجْلَالِ وَتَتَحَمَّلَ ٱلنُّفُوسُ بِهِ لِمَيْلِهَا اِلَيهِ بِتَتَابُعِ ٱلْاِذْلَالِ

وَامَّا تَقْسِيمُ ٱلْأَدَبِ ٱلْكَسْبِيِّ فَاِنَّهُمُ ٱخْتَلَفُوا فِي اَقْسَامِهِ فَذَكَرَ ٱبْنُ ٱلْأَنبَارِيِّ اَنَّهَا ثَمَانِيَةٌ وَقَسَّمَهُ ٱلْعَلَّامَةُ ٱلْجُرْجَانِيُّ اِلَى ٱثْنَي عَشَرَ قِسْمًا قَالَ: لِعِلْمِ ٱلْأَدَبِ اُصُولٌ وَفُرُوعٌ. امَّا ٱلْأُصُولُ فَٱلْبَحْثُ فِيهَا: (١) اِمَّا (عَنِ ٱلْمُفْرَدَاتِ) مِنْ حَيْثُ جَوَاهِرِهَا وَمَوَادِّهَا وَهَيْئَاتِهَا فَعِلْمُ ٱللُّغَةِ. اَوْ مِنْ حَيْثُ صُوَرِهَا وَهَيْئَاتِهَا فَقَطْ فَعِلْمُ ٱلصَّرْفِ . اَوْ مِنْ حَيْثُ ٱنْتِسَابِ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ بِٱلْأَصَالَةِ وَٱلْفَرْعِيَّةِ فَعِلْمُ ٱلِاشْتِقَاقِ. (٢) وَامَّا (عَنِ ٱلْمُرَكَّبَاتِ عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ). فَاِمَّا بِٱعْتِبَارِ هَيْئَاتِهَا ٱلتَّرْكِيبِيَّةِ وَتَأْدِيَتِهَا لِمَعَانِيهَا ٱلْأَصْلِيَّةِ فَعِلْمُ ٱلنَّحْوِ. وَامَّا بِٱعْتِبَارِ افَادَتِهَا لِمَعَانٍ مُغَايِرَةٍ لِأَصْلِ ٱلْمَعْنَى فَعِلْمُ ٱلْمَعَانِي. وَامَّا بِٱعْتِبَارِ كَيْفِيَّةِ تِلْكَ ٱلْإِفَادَةِ فِي مَرَاتِبِ ٱلْوُضُوحِ فَعِلْمُ

ٱلبيانِ.وعِلمُ ٱلبَدِيعِ ذَيلٌ لِعِلمَيِ ٱلمَعانِي وٱلبيانِ دَاخِلٌ تحتَهُما .(٣) وأمَّا (عَنِ ٱلمُرَكَّباتِ ٱلمَوزُونَةِ) . فأمَّا مِن حَيثُ وَزنِها فعِلمُ ٱلعرُوضِ او مِن حَيثُ اوَاخِرِها فعِلمُ ٱلقوَافِي

وَامَّا ٱلفُرُوعُ فَٱلبَحثُ فِيها إمَّا ان يتعَلَّقَ بِنُقُوشِ ٱلكِتابَةِ فَعِلمُ ٱلخطِّ او يَختصُّ بِٱلمَنظُومِ فَٱلعِلمُ ٱلمُسمَّى بِقَرضِ ٱلشِّعرِ . او بِٱلنَّثرِ فعِلمُ ٱلإنشاءِ .او لَايختصُّ بِشَيْءٍ فعِلمُ ٱلمُحاضَراتِ ومِنهُ ٱلتَّوارِيخُ

البحث الثالث

في موضوع علم الادب واركانهِ

(مقدمة ابن خلدون)

(راجع صفحة ٣ من تمهيد علم الادب)

هٰذا ٱلعِلمُ لَا موضوعَ لَهُ يُنظَرُ في إثباتِ عوارِضهِ او نفيِها وإنَّما ٱلمَقصُودُ مِنهُ عِندَ اهلِ ٱللِّسانِ ثمرَتُهُ وهِيَ ٱلإجادَةُ في فَنَّيِ ٱلمَنظُومِ وٱلمَنثُورِ عَلَى اساليبِ ٱلعَرَبِ ومَناحِيهِم . فيَجمَعُونَ لِذٰلكَ مِن كَلامِ ٱلعَرَبِ ما عَساهُ تحصُلُ بهِ ٱلكَلِمَةُ مِن شِعرٍ عَالِي ٱلطَّبَقَةِ وسَجعٍ مُتَساوٍ في ٱلإجادَةِ ومَسائِلَ مِنَ ٱللُّغَةِ وٱلنَّحوِ مَبثُوثَةٍ اثناءَ ذٰلِكَ مُتفَرِّقَةٍ يَستَقرِي مِنها ٱلنَّاظِرُ في ٱلغالِبِ مُعظَمَ قوَانِينِ ٱلعرَبِيَّةِ مَعَ ذِكرِ بَعضٍ مِن ايَّامِ ٱلعَرَبِ لِيُفهَمَ بِهِ ما يقَعُ في اشعارِهِم مِنها وكَذٰلِكَ ذِكرُ ٱلمُهِمِّ مِنَ ٱلانسابِ ٱلشَّهِيرَةِ وٱلاخبارِ ٱلعامَّةِ . وٱلمَقصُودُ بذٰلِكَ كُلِّهِ ان لَايخفَى عَلَى ٱلنَّاظِرِ فيهِ شَيْءٌ مِن كَلامِ ٱلعَرَبِ وَاسالِيبِهِم

ومَناحِي بلاغَتِهِمْ إذا تَصفَّحَهُ . لِأنَّهُ لَا تَحْصُلُ ٱلْمَلَكَةُ مِنْ حِفْظِهِ إِلَّا
بَعْدَ فَهْمِهِ فيَحتاجُ إِلَى تَقْدِيمِ جَمِيعِ مَا يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ فَهْمُهُ . ثُمَّ إِنَّهُمْ
إِذَا أَرَادُوا حَدَّ هٰذَا ٱلْفَنِّ قَالُوا : ٱلْأَدَبُ هُوَ حِفْظُ أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ
وَأَخْبَارِهَا وَٱلْأَخْذُ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ بِطَرَفٍ يُرِيدُونَ مِنْ عُلُومِ ٱللِّسَانِ
أَوِ ٱلْعُلُومِ ٱلشَّرْعِيَّةِ مِنْ حَيْثُ مُتُونِهَا فَقَطْ إِذْ لَا مَدْخَلَ بِغَيْرِ ذٰلِكَ
مِنَ ٱلْعُلُومِ فِي كَلَامِ ٱلْعَرَبِ إِلَّا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ عِنْدَ كَلَفِهِمْ
بِصِنَاعَةِ ٱلْبَدِيعِ مِنَ ٱلتَّوْرِيَةِ فِي أَشْعَارِهِمْ وَتَرَسُّلِهِمْ بِٱلْاِصْطِلَاحَاتِ
ٱلْعِلْمِيَّةِ. فَٱحْتَاجَ صَاحِبُ هٰذَا ٱلْفَنِّ إِلَى ٱصْطِلَاحَاتِ ٱلْعُلُومِ لِيَكُونَ قَائِمًا
عَلَى فَهْمِهَا : وَسَمِعْنَا مِنْ شُيُوخِنَا فِي مَجَالِسِ ٱلتَّعْلِيمِ أَنَّ أُصُولَ هٰذَا ٱلْفَنِّ
وَأَرْكَانَهُ أَرْبَعَةُ دَوَاوِينَ وَهِيَ : أَدَبُ ٱلْكَاتِبِ لِٱبْنِ قُتَيْبَةَ وَكِتَابُ
ٱلْكَامِلِ لِلْمُبَرِّدِ وَكِتَابُ ٱلْبَيَانِ وَٱلتَّبْيِينِ لِلْجَاحِظِ وَكِتَابُ ٱلنَّوَادِرِ
لِأَبِي عَلِيٍّ ٱلْقَالِي ٱلْبَغْدَادِيِّ وَمَا سِوَى هٰذِهِ ٱلْأَرْبَعَةِ فَتَبَعٌ لَهَا وَفَرْعٌ
عَنْهَا وَكُتُبُ ٱلْمُحْدَثِينَ فِي ذٰلِكَ كَثِيرَةٌ . وَكَانَ ٱلْغِنَاءُ فِي ٱلصَّدْرِ ٱلْأَوَّلِ
مِنْ أَجْزَاءِ هٰذَا ٱلْفَنِّ لِمَا هُوَ تَابِعٌ لِلشِّعْرِ إِذِ ٱلْغِنَاءُ إِنَّمَا هُوَ تَلْحِينُهُ .
وَكَانَ ٱلْكُتَّابُ وَٱلْفُضَلَاءُ مِنَ ٱلْخَوَاصِّ فِي ٱلدَّوْلَةِ ٱلْعَبَّاسِيَّةِ يَأْخُذُونَ
أَنْفُسَهُمْ بِهِ حِرْصًا عَلَى تَحْصِيلِ أَسَالِيبِ ٱلشِّعْرِ وَفُنُونِهِ فَلَمْ يَكُنِ ٱنْتِحَالُهُ
قَادِحًا فِي ٱلْعَدَالَةِ وَٱلْمُرُوءَةِ وَقَدْ أَلَّفَ ٱلْقَاضِي أَبُو ٱلْفَرَجِ ٱلْأَصْبَهَانِيُّ
كِتَابَهُ فِي ٱلْأَغَانِي جَمَعَ فِيهِ أَخْبَارَ ٱلْعَرَبِ وَأَشْعَارَهُمْ وَأَنْسَابَهُمْ
وَأَيَّامَهُمْ وَدُوَلَهُمْ . وَجَعَلَ مَبْنَاهُ عَلَى ٱلْغِنَاءِ فِي ٱلْمِائَةِ صَوْتًا ٱلَّتِي ٱخْتَارَهَا
ٱلْمُغَنُّونَ لِلرَّشِيدِ فَٱسْتَوْعَبَ فِيهِ ذٰلِكَ أَتَمَّ ٱسْتِيعَابٍ وَأَدْنَاهُ . وَلَعَمْرِي

إِنَّهُ دِيوَانُ ٱلْعَرَبِ وَجَامِعُ أَشْتَاتِ ٱلْمَحَاسِنِ وَٱلتَّارِيخِ وَٱلْغِنَاءِ وَسَائِرِ ٱلْأَحْوَالِ . وَلَا يُعْدَلُ بِهِ كِتَابٌ فِي ذٰلِكَ فِيمَا نَعْلَمُهُ وَهُوَ ٱلْغَايَةُ ٱلَّتِي يَسْمُو إِلَيْهَا ٱلْأَدَبُ وَيَقِفُ عِنْدَهَا

البحث الرابع

في شرف الادب ومنافعهِ

(عن الثعالبي وابن عبد ربّهِ والوطواط)

(راجع صفحة ٢ من تمهيد علم الادب) .

قَالَ أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ : ٱلرَّجُلُ بِلَا أَدَبٍ شَخْصٌ بِغَيْرِ آلَةٍ وَجَسَدٌ بِلَا رُوحٍ . وَقِيلَ : ٱلْأَدَبُ أَكْرَمُ ٱلْجَوَاهِرِ طَبِيعَةً وَأَنْفَسُهَا قِيمَةً فَٱطْلُبُوهُ فَإِنَّهُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْفَضْلِ وَٱلنَّبَاهَةِ وَمَادَّةٌ لِلْعَقْلِ وَدَلِيلٌ عَلَى ٱلْمُرُوءَةِ وَمَنْبَهَةٌ لِلرَّأْيِ وَلِلصَّوَابِ وَصَاحِبٌ فِي ٱلْغُرْبَةِ وَأَنِيسٌ فِي ٱلْوَحْدَةِ وَجَمَالٌ فِي ٱلْمَحَافِلِ وَصِلَةٌ فِي ٱلْمَجَالِسِ . وَإِذَا أَكْرَمَكَ ٱلنَّاسُ لِمَالٍ أَوْ سُلْطَانٍ فَلَا يُعْجِبْكَ ذٰلِكَ فَإِنَّ ٱلْكَرَامَةَ تَزُولُ بِزَوَالِهِمَا وَلْيُعْجِبْكَ إِذَا أَكْرَمُوكَ لِدِينٍ أَوْ أَدَبٍ . قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

إِذَا ٱلْفَتَى فَاتَهُ مَالٌ يُجَمِّلُهُ ... فَفِي ٱلتَّأَدُّبِ مِمَّا فَاتَهُ خَلَفُ
هُوَ ٱللِّبَاسُ ٱلَّذِي لَا شَيْءَ يَعْدِلُهُ ... وَٱلْمَفْخَرُ ٱلدَّيِّنُ فِيهِ ٱلْفَضْلُ وَٱلشَّرَفُ

قَالَ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ لِبَنِيهِ : تَأَدَّبُوا فَإِنْ كُنْتُمْ مُلُوكًا بَرَزْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ أَوْسَاطًا فُقْتُمْ وَإِنْ أَعْوَزَكُمُ ٱلْمَعَاشُ عِشْتُمْ . وَقِيلَ : إِنَّ ٱلْأَدَبَ يُفِيدُ ٱلرَّغَائِبَ ٱلْجَلِيلَةَ وَيُعِزُّ بِلَا عَشِيرَةٍ وَيُكْثِرُ ٱلْأَنْصَارَ لِغَيْرِ

رَزِيَّتِهِ. قَالَ بُزُرْجُمْهُر : مَنْ كَثُرَ ادَبُهُ كَثُرَ شَرَفُهُ وَإِنْ كَانَ وَضِيعًا . وَبَعُدَ صِيتُهُ وَإِنْ كَانَ خَامِلاً . وَسَادَ وَإِنْ كَانَ غَرِيبًا وَكَثُرَتْ حَوائِجُ ٱلنَّاسِ إِلَيْهِ وَإِنْ كَانَ فَقِيرًا . وَقَالُوا : مَنْ دَأَبَ فِي طَرِيقِ ٱلْأَدَبِ ادْرَكَ حَاجَتَهُ وَمَلَكَ نَاصِيَتَهُ وَنَبُلَ قَدْرُهُ وَنَبُهَ ذِكْرُهُ . يَنُوبُ ٱلْأَدَبُ عَنِ ٱلنَّسَبِ وَلَا يَنْفَعُ نَسَبٌ بِلَا ادَبٍ وَقَالَ ٱلشَّاعِرُ :

كَمْ مِنْ خَسِيسٍ وَضِيعِ ٱلْقَدْرِ لَيْسَ لَهُ فِي ٱلْعِزِّ بَيْتٌ وَلَا يُنْمَى إِلَى نَسَبِ
قَدْ صَارَ بِٱلْأَدَبِ ٱلْمَحْمُودِ ذَا شَرَفٍ غَالٍ وَذَا حَسَبٍ مَحْضٍ وَذَا نَشَبِ
يُعْلِي ٱلتَّأَدُّبُ اقْوَامًا وَيَرْفَعُهُمْ حَتَّى يُسَاوُوا ذَوِي ٱلْعَلْيَاءِ فِي ٱلرُّتَبِ

وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ بَعْضِ ٱلْأَعَاجِمِ يَفْتَخِرُ وَيَعْتَذِرُ :

مَالِي عَقْلِي وَهِمَّتِي حَسَبِي مَا انَا مَوْلًى وَلَا انَا عَرَبِي
وَإِذَا ٱنْتَمَى مُنْتَمٍ إِلَى احَدٍ فَإِنَّنِي مُنْتَمٍ إِلَى ادَبِي

فَٱلْبَسُوا إِذًا ٱلْأَدَبَ حُلَّةً وَتَزَيَّنُوهُ حِلْيَةً فَإِنَّهُ انْفَقُ مَعَاشٍ وَاجْمَلُ رِيَاشٍ إِنِ ٱحْتَجْتُمْ إِلَيْهِ كَانَ لَكُمْ مَالًا وَإِنِ ٱسْتَغْنَيْتُمْ عَنْهُ كَانَ لَكُمْ جَمَالًا



فصلٌ في قوى العقل الغريزيَّة

البحث الاوَّل

في العقل وشرفهِ واصل تسميتهِ وتقسيمهِ

(عن الماوردي باختصار وتصرُّف)

(راجع صفحة ٣ من توطئة علم الادب)

اِعلَمْ اَنَّ لِكُلِّ فَضِيلَةٍ أُسًّا وَلِكُلِّ أَدَبٍ يَنْبُوعًا. وَاُسُّ ٱلْفَضَائِلِ وَيَنْبُوعُ ٱلْآدَابِ هُوَ ٱلْعَقْلُ ٱلَّذِي جَعَلَهُ ٱللهُ تَعَالَى لِلدِّينِ اَصْلًا وَلِلدُّنْيَا عِمَادًا فَاَوْجَبَ ٱلدِّينَ بِكَمَالِهِ وَجَعَلَ ٱلدُّنْيَا مُدَبَّرَةً بِاَحْكَامِهِ وَاَلَّفَ بِهِ بَيْنَ خَلْقِهِ مَعَ ٱخْتِلَافِ هِمَمِهِمْ وَمَآرِبِهِمْ. قَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ: ٱلْعَقْلُ خَيْرُ ٱلْمَوَاهِبِ وَٱلْجَهْلُ شَرُّ ٱلْمَصَائِبِ. قَالَ اِبْرَاهِيمُ بْنُ حَسَّانَ:

يَزِينُ ٱلْفَتَى فِي ٱلنَّاسِ صِحَّةُ عَقْلِهِ ... وَاِنْ كَانَ مَحْظُورًا عَلَيْهِ مَكَاسِبُهْ
يَشِينُ ٱلْفَتَى فِي ٱلنَّاسِ قِلَّةُ عَقْلِهِ ... وَاِنْ كَرُمَتْ اَعْرَاقُهُ وَمَنَاسِبُهْ
يَعِيشُ ٱلْفَتَى بِٱلْعَقْلِ فِي ٱلنَّاسِ اِنَّهُ ... عَلَى ٱلْعَقْلِ يَجْرِي عِلْمُهُ وَتَجَارِبُهْ
وَاَفْضَلُ قَسْمِ ٱللهِ لِلْمَرْءِ عَقْلُهُ ... فَلَيْسَ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ شَيْءٌ يُقَارِبُهْ
اِذَا اَكْمَلَ ٱلرَّحْمَانُ لِلْمَرْءِ عَقْلَهُ ... فَقَدْ كَمُلَتْ اَخْلَاقُهُ وَمَآرِبُهْ

وَقَالَ مُطَرِّفٌ: مَا اُوتِيَ ٱلْعَبْدُ بَعْدَ ٱلْاِيمَانِ بِٱللهِ تَعَالَى اَفْضَلَ مِنَ ٱلْعَقْلِ. وَيُقَالُ: مَا تَمَّ دِينُ ٱمْرِئٍ حَتَّى يَتِمَّ عَقْلُهُ. قَالَ بُزُرْجُمْهُرُ: ٱلْعَقْلُ كَٱلْمِسْكِ اِنْ خَبَأْتَهُ عَبِقَ وَاِنْ بِعْتَهُ نَفَقَ. وَقَالُوا: ٱلْعَقْلُ كَنُورٍ وَضَعَهُ ٱللهُ طَبْعًا وَغَرَزَهُ فِي ٱلْقَلْبِ كَٱلنُّورِ فِي ٱلْعَيْنِ وَهُوَ ٱلْبَصَرُ.

وَكَمَا يُدرَكُ بِٱلْبَصَرِ شَوَاهِدُ ٱلأُمُورِ كَذٰلِكَ يُدرَكُ بِنُورِ ٱلْعَقْلِ كَثِيرٌ مِنَ ٱلْمَحْجُوبِ وَٱلْمَسْتُورِ . وَعَمَى ٱلْقَلْبِ كَعَمَى ٱلْبَصَرِ . قَالَ بُزُرْجُمْهُرُ : ٱلإِنْسَانُ صُورَةٌ فِيهَا عَقْلٌ فَإِنْ أَخْطَأَهُ ٱلْعَقْلُ وَلَزِمَتْهُ ٱلصُّورَةُ فَلَيْسَ بِإِنْسَانٍ . قَالَ ٱلْمُتَنَبِّي :

لَوْلَا ٱلْعُقُولُ لَكَانَ أَدْنَى ضَيْغَمٍ   أَدْنَى إِلَى شَرَفٍ مِنَ ٱلإِنْسَانِ

وَسُمِّيَ ٱلْعَقْلُ عَقْلًا تَشْبِيهًا بِعَقْلِ ٱلنَّاقَةِ (١) لِأَنَّ ٱلْعَقْلَ يَمْنَعُ ٱلإِنْسَانَ مِنَ ٱلإِقْدَامِ عَلَى شَهَوَاتِهِ إِذَا قَبُحَتْ كَمَا يَمْنَعُ ٱلْعَقْلُ ٱلنَّاقَةَ مِنَ ٱلشُّرُودِ إِذَا نَفَرَتْ . وَلِذٰلِكَ قَالَ عَامِرُ بْنُ قَيْسٍ : إِذَا عَقَلَكَ عَقْلُكَ عَمَّا لَا يَنْبَغِي فَأَنْتَ عَاقِلٌ

البحث الثاني

في تقسيم العقل الى غريزيّ ومكتسَب

(عن الوطواط والماوردي)

إِعْلَمْ أَنَّ بِٱلْعَقْلِ تُعْرَفُ حَقَائِقُ ٱلأُمُورِ وَيُفْصَلُ بَيْنَ ٱلْحَسَنَاتِ وَٱلسَّيِّئَاتِ وَقَدْ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ غَرِيزِيٌّ وَمُكْتَسَبٌ . قَالَ ٱلْعُتْبِيُّ : ٱلْعَقْلُ عَقْلَانِ عَقْلٌ تَفَرَّدَ ٱللّٰهُ بِصُنْعِهِ وَهُوَ ٱلأَصْلُ . وَعَقْلٌ يَسْتَفِيدُهُ ٱلْمَرْءُ بِهِ وَهُوَ ٱلْفَرْعُ فَإِذَا ٱجْتَمَعَا قَوَّى كُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ تَقْوِيَةَ ٱلنَّارِ فِي ٱلظُّلْمَةِ . وَلِذٰلِكَ قَالَ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ :

رَأَيْتُ ٱلْعَقْلَ عَقْلَيْنِ   فَمَطْبُوعٌ   وَمَسْمُوعٌ

---

١ يُقال عَقَل الناقة عقلًا اي ربطها في وسط ذراعها بحبل ويُسمَّى الحبل عقالًا

فَلَا يَنْفَعُ مَسْمُوعٌ ... إِذَا لَمْ يَكُ مَطْبُوعُ
كَمَا لَا تَنْفَعُ ٱلشَّمْسُ ... وَضَوْءُ ٱلْعَيْنِ مَمْنُوعُ *

البحث الثالث

في العقل الغريزيّ وتعريفهِ

(عن الماوردي باختصار)

إِنَّ ٱلْعَقْلَ ٱلْغَرِيزِيَّ هُوَ ٱلْعَقْلُ ٱلْحَقِيقِيُّ وَلَهُ حَدٌّ يَتَعَلَّقُ بِهِ ٱلتَّكْلِيفُ لَا يُجَاوِزُهُ إِلَى زِيَادَةٍ وَلَا يَقْصُرُ عَنْهُ إِلَى نُقْصَانٍ • وَبِهِ

* قد قسّم القزوينيُّ القوى العقلية الى اربعة اقسام مرجعها الى هذين القسمين قال: القوى العقلية اربعة اقسام. (الاول) القوة التي بها يفارق الانسان البهائم وهي التي بها استعدّ لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الفكريّة فيقال انها القوة الغريزيّة بها يستعدّ الانسان لادراك العلوم النظريّة. فكما ان الحياة هي الجسم للحركات الاختياريّة والادراكات الحسيّة فكذلك هذه القوّة الغريزيّة تهيئة الانسان للعلوم النظريّة والصناعات الفكريّة والحكماء يقولون لها العقل الهيولاني وهي مجرّد الاستعداد الذي هو موجود في الطفل وغير موجود في ولد البهيمة. (الثاني) القوّة التي تخرج الى الوجود في ذات الطفل المميّز جواز الجائزات واستحالة المستحيلات كالعلم بأن الاثنين اكثر من الواحد والشخص الواحد لا يكون في مكانين فيقال له التصوُّرات والتصديقات الحاصلة للنفس بالفطرة والحكماء يسمونهُ العقل بالملكة . (والثالث) قوّة تحصل بها العلوم المستفادة من التجارب بمجاري الاحوال فمن اتّصف بها يقال انهُ عاقل في العادة ومن لم يتّصف بها يقال انهُ غبيٌّ غمر. فيقال لها معانٍ مجتمعة في الذهن من مقدّمات تستنبط بها المصالح في الاعراض . (والرابع) قوّة بها تُعرف حقائق الامور وعواقبها فتقمع الشهوة الداعية الى اللذة العاجلة وتحتمل المكروه العاجل لسلامة الآجل . فاذا حصلت هذه القوّة يسمّى صاحبها عاقلًا من حيث ان اقدامهُ واحجامهُ بحسب ما يقتضيهِ النظر في العواقب لا بحكم الشهوة العاجلة. والأوّلان بالطبع والأخيران بالاكتساب

يمتازَ ٱلإنسانُ عَنْ سائِرِ ٱلحَيوانِ فَإذا تمَّ في ٱلإنسانِ سُمّيَ عاقِلًا وَخرجَ بِهِ إلى حدِّ ٱلكَمالِ كَما قالَ صالحُ بنُ عَبدِ ٱلقُدُّوسِ:

اذا تمَّ عقلُ ٱلمَرءِ تمّتْ أُمورُهُ وتمّتْ أَمانيهِ وتمَّ بِناؤُهُ

وَٱختلفَ ٱلنَّاسُ في حدِّ ٱلعقلِ وفي صِفتهِ عَلى مَذاهبَ شتّى فقالَ قَومٌ: هُوَ جَوهرٌ لَطيفٌ يُفصَلُ بِهِ بَينَ ٱلحقائِقِ ٱلمَعلوماتِ .. وَهٰذا ٱلقَولُ في ٱلعقلِ بِأنَّهُ جَوهرٌ لَطيفٌ فاسِدٌ مِنْ وَجهَينِ: (أَحدُهُما) أَنَّ ٱلجَواهِرَ مُتَماثِلَةٌ فَلا يَصِحُّ أَنْ يُوجِبَ بَعضُها ما لا يُوجِبُ سائِرُها وَلَوْ أَوجبَ سائِرُها ما يُوجِبُ بَعضُها لَٱستَغنَى ٱلعاقِلُ بِوُجودِ نَفسِهِ عَنْ وُجودِ عَقلِهِ(١). (وَٱلثَّاني) أَنَّ ٱلجَوهرَ يَصِحُّ قِيامُهُ بِذاتِهِ فَلَوْ كانَ ٱلعَقلُ جَوهرًا لَجازَ أَنْ يَكونَ عَقلٌ بِغَيرِ عاقِلٍ كَما جازَ أَنْ يَكونَ جِسمٌ بِغَيرِ عَقلٍ. فَٱمتَنعَ بِهٰذَينِ أَنْ يَكونَ ٱلعَقلُ جَوهرًا. وَقالَ آخَرونَ: ٱلعَقلُ هُوَ ٱلمُدرِكُ لِلأَشياءِ عَلى ما هِيَ عَلَيهِ مِنْ حَقائِقِ ٱلمَعنَى. وَهٰذا ٱلقَولُ وَإِنْ كانَ أَقرَبَ مِمّا قَبلَهُ فَبَعيدٌ مِنَ ٱلصَّوابِ مِنْ وَجهٍ واحِدٍ وَهُوَ: أَنَّ ٱلإدراكَ مِنْ صِفاتِ ٱلحَيِّ (٢) وَٱلعَقلُ عَرَضٌ يَستَحيلُ ذٰلِكَ مِنهُ كَما يَستَحيلُ أَنْ يَكونَ مُتَلَذِّذًا أَوْ آلِمًا أَوْ مُشتَهِيًا (٣). وَقالَ آخَرونَ مِنَ

(١) يُريد انهُ لو كان العقل جوهراً مختلفاً عن جوهر النفس ملازماً لها لاتّفقا في جميع اجزائها لان النفس والعقل بسيطان متماثلان في ذلك واذا تمَّ الاتفاق كان جوهر النفس وجوهر العقل واحدًا فيستغني الانسان عن عقلهِ بوجود نفسهِ وهذا باطلٌ

(٢) يُريد هنا بالادراك على ما حدّهُ الحكماء تمثيل حقيقة الشيء وحدهُ من غير حكم عليهِ او اثبات ويُسمَّى ايضًا التصوُّر وهذا يعمُّ كل حيّ لا يختص بالانسان فقط

(٣) اي ان العقل لا يمكنهُ ادراك هذه الجزئيات كما يستحيل عليهِ ان يكون ملتذذًا او آلمًا او مشتهيًا. لان اللذّة والألم والشهوة من الانفعالات الطارئة على المركّب

ٱلْمُتَكَلِّمِينَ : ٱلْعَقْلُ هُوَ جُمْلَةُ عُلُومٍ ضَرُورِيَّةٍ . وَهٰذَا ٱلْحَدُّ غَيْرُ مَحْصُورٍ لِمَا تَضَمَّنَهُ مِنَ ٱلْإِجْمَالِ وَيَتَأَوَّلُهُ مِنَ ٱلْإِحْتِمَالِ . وَٱلْحَدُّ إِنَّمَا هُوَ بَيَانُ ٱلْمَحْدُودِ بِمَا يَنْفِي عَنْهُ ٱلْإِجْمَالَ وَٱلْإِحْتِمَالَ . وَقَالَ آخَرُونَ وَهُوَ ٱلْقَوْلُ ٱلصَّحِيحُ : إِنَّ ٱلْعَقْلَ هُوَ ٱلْعِلْمُ بِٱلْمُدْرَكَاتِ ٱلضَّرُورِيَّةِ . وَذٰلِكَ نَوْعَانِ : أَحَدُهُمَا مَا وَقَعَ عَنْ دَرْكِ ٱلْحَوَاسِّ وَٱلثَّانِي مَا كَانَ مُبْتَدِئًا فِي ٱلنُّفُوسِ . فَأَمَّا مَا كَانَ وَاقِعًا عَنْ دَرْكِ ٱلْحَوَاسِّ فَمِثْلُ ٱلْمَرْئِيَّاتِ ٱلْمُدْرَكَةِ بِٱلنَّظَرِ وَٱلْأَصْوَاتِ ٱلْمُدْرَكَةِ بِٱلسَّمْعِ وَٱلطُّعُومِ ٱلْمُدْرَكَةِ بِٱلذَّوْقِ وَٱلرَّوَائِحِ ٱلْمُدْرَكَةِ بِٱلشَّمِّ وَٱلْأَجْسَامِ ٱلْمُدْرَكَةِ بِٱللَّمْسِ . فَإِذَا كَانَ ٱلْإِنْسَانُ مِمَّنْ لَوْ أَدْرَكَ بِحَوَاسِّهِ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءَ ثَبَتَ لَهُ هٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْعِلْمِ . لِأَنَّ خُرُوجَهُ فِي حَالِ تَغْمِيضِ عَيْنَيْهِ مِنْ أَنْ يُدْرِكَ بِهِمَا وَيَعْلَمَ لَا يُخْرِجُهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ كَامِلَ ٱلْعَقْلِ مِنْ حَيْثُ عَلِمَ مِنْ حَالِهِ أَنْ لَوْ أَدْرَكَ لَعَلِمَ . وَأَمَّا مَا كَانَ مُبْتَدِئًا فِي ٱلنُّفُوسِ فَكَٱلْعِلْمِ بِأَنَّ ٱلشَّيْءَ لَا يَخْلُو مِنْ وُجُودٍ أَوْ عَدَمٍ . وَأَنَّ ٱلْمَوْجُودَ لَا يَخْلُو مِنْ حُدُوثٍ أَوْ قِدَمٍ . وَأَنَّ مِنَ ٱلْمُحَالِ ٱجْتِمَاعَ ٱلضِّدَّيْنِ . وَأَنَّ ٱلْوَاحِدَ أَقَلُّ مِنَ ٱلْاِثْنَيْنِ . وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْعِلْمِ لَا يَجُوزُ أَنْ يَنْتَفِيَ عَنِ ٱلْعَاقِلِ مَعَ سَلَامَةِ حَالِهِ وَكَمَالِ عَقْلِهِ . فَإِذَا صَارَ عَالِمًا بِٱلْمُدْرَكَاتِ ٱلضَّرُورِيَّةِ مِنْ هٰذَيْنِ ٱلنَّوْعَيْنِ فَهُوَ كَامِلُ ٱلْعَقْلِ

الانساني . ولإدراك العقل يقتضي ان تجرّد مادّتهُ عن المحسوسات وهذا ما يصنعهُ العقل بالفعل فتنتقل المفردات بذلك الى حالة الكليّات

البحث الرابع

في العقل المكتسب

(عن الماوردي)

إنَّ ٱلْعَقْلَ ٱلْمُكْتَسَبَ هُوَ نَتِيجَةُ ٱلْعَقْلِ ٱلْغَرِيزِيِّ وَهُوَ نِهَايَةُ ٱلْمَعْرِفَةِ وَصِحَّةُ ٱلسِّيَاسَةِ وَإِصَابَةِ ٱلْفِكْرَةِ وَلَيْسَ لِهٰذَا حَدٌّ لِأَنَّهُ يَنْمِي إِنِ ٱسْتُعْمِلَ وَيَنْقُصُ إِنْ أُهْمِلَ . وَنَمَاؤُهُ يَكُونُ بِأَحَدِ وَجْهَيْنِ : (ٱلْوَجْهُ ٱلْأَوَّلُ) بِكَثْرَةِ ٱلِاسْتِعْمَالِ إِذَا لَمْ يُعَارِضْهُ مَانِعٌ مِنْ هَوًى وَلَا صَادٌّ مِنْ شَهْوَةٍ كَالَّذِي يَحْصُلُ لِذَوِي ٱلْأَسْنَانِ مِنَ ٱلْحُنْكَةِ وَصِحَّةِ ٱلرَّوِيَّةِ لِكَثْرَةِ ٱلتَّجَارِبِ وَمُمَارَسَةِ ٱلْأُمُورِ . وَلِذٰلِكَ حَمِدَتِ ٱلْعَرَبُ آرَاءَ ٱلشُّيُوخِ حَتَّى قَالَ بَعْضُهُمْ : ٱلْمَشَايِخُ أَشْجَارُ ٱلْوَقَارِ . وَمَنَاجِعُ ٱلْأَخْبَارِ . لَا يَطِيشُ لَهُمْ سَهْمٌ . وَلَا يَسْقُطُ لَهُمْ وَهْمٌ . إِنْ رَأَوْكَ فِي قَبِيحٍ صَدُّوكَ . وَإِنْ أَبْصَرُوكَ عَلَى جَمِيلٍ أَمَدُّوكَ . وَقِيلَ : عَلَيْكُمْ بِآرَاءِ ٱلشُّيُوخِ فَإِنَّهُمْ إِنْ فَقَدُوا ذَكَاءَ ٱلطَّبْعِ فَقَدْ مَرَّتْ عَلَى عُيُونِهِمْ وُجُوهُ ٱلْعِبَرِ . وَتَصَدَّتْ لِأَسْمَاعِهِمْ آثَارُ ٱلْغِيَرِ . وَقِيلَ فِي مَنْثُورِ ٱلْحِكَمِ : مَنْ طَالَ عُمْرُهُ نَقَصَتْ قُوَّةُ بَدَنِهِ وَزَادَتْ قُوَّةُ عَقْلِهِ : وَقَالَ فِيهِ : لَا تَدَعُ ٱلْأَيَّامُ جَاهِلًا إِلَّا أَدَّبَتْهُ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : كَفَى بِٱلتَّجَارِبِ تَأَدُّبًا وَبِتَقَلُّبِ ٱلْأَيَّامِ عِظَةً . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : ٱلتَّجْرِبَةُ مِرْآةُ ٱلْعَقْلِ . وَٱلْغِرَّةُ ثَمَرَةُ ٱلْجَهْلِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْأُدَبَاءِ : كَفَى مُخْبِرًا عَمَّا بَقِيَ مَا مَضَى وَكَفَى عِبَرًا لِأُولِي ٱلْأَلْبَابِ مَا جَرَّبُوا . وَقَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ :

اَلَمْ تَرَ اَنَّ ٱلْعَقْلَ زَيْنٌ لِاَهْلِهِ   وَلٰكِنْ تَمَامُ ٱلْعَقْلِ طُولُ ٱلتَّجَارِبِ

وَقَالَ آخَرُ:

اِذَا طَالَ عُمْرُ ٱلْمَرْءِ فِي غَيْرِ آفَةٍ   اَفَادَتْ لَهُ ٱلْاَيَّامُ فِي كَرِّهَا عَقْلَا

(وَاَمَّا ٱلْوَجْهُ ٱلثَّانِي) فَقَدْ يَكُونُ بِفَرْطِ ٱلذَّكَاءِ وَحُسْنِ ٱلْفِطْنَةِ وَذٰلِكَ جُودَةُ ٱلْحَدْسِ فِي زَمَانٍ غَيْرِ مُهْمَلٍ لِلْحَدْسِ . فَاِذَا ٱمْتَزَجَ بِٱلْعَقْلِ ٱلْغَرِيزِيِّ صَارَتْ نَتِيجَتُهُمَا نُمُوُّ ٱلْعَقْلِ ٱلْمُكْتَسَبِ . كَٱلَّذِي يَكُونُ فِي ٱلْاَحْدَاثِ مِنْ وُفُورِ ٱلْعَقْلِ وَجُودَةِ ٱلرَّأْيِ حَتَّى قَالَ هَرِمُ بْنُ قُطْبَةَ حِينَ تَنَافَرَ اِلَيْهِ عَامِرُ بْنُ ٱلطُّفَيْلِيِّ وَعَلْقَمَةُ بْنُ عَلَاثَةَ : عَلَيْكُمْ بِٱلْحَدِيثِ ٱلسِّنِّ . ٱلْحَدِيدِ ٱلذِّهْنِ . وَلَعَلَّ هَرِمًا اَرَادَ اَنْ يَدْفَعَهُمَا عَنْ نَفْسِهِ فَٱعْتَذَرَ بِمَا قَالَ . لٰكِنْ لَمْ يُنْكِرَا قَوْلَهُ اِذْعَانًا لِلْحَقِّ فَصَارَا اِلَى اَبِي جَهْلٍ لِحَدَاثَةِ سِنِّهِ وَحِدَّةِ ذِهْنِهِ . فَاَبَى اَنْ يَحْكُمَ بَيْنَهُمَا فَرَجَعَا اِلَى هَرِمٍ فَحَكَمَ بَيْنَهُمَا . وَفِيهِ قَالَ لَبِيدٌ :

يَا هَرِمُ ٱبْنَ ٱلْاَكْرَمِينَ مَنْصِبَا   اِنَّكَ قَدْ اُوتِيتَ حُكْمًا مُعْجِبَا

وَقَدْ قَالَتِ ٱلْعَرَبُ : عَلَيْكُمْ بِمُشَاوَرَةِ ٱلشَّبَابِ فَاِنَّهُمْ يُنْتِجُونَ رَأْيًا لَمْ يَنَلْهُ طُولُ ٱلْقِدَمِ . وَلَا ٱسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ رُطُوبَةُ ٱلْهَرَمِ . وَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

رَاَيْتُ ٱلْعَقْلَ لَمْ يَكُنِ ٱنْتِهَابًا   وَلَمْ يُقْسَمْ عَلَى عَدَدِ ٱلسِّنِينَا

وَلَوْ اَنَّ ٱلسِّنِينَ تَقَاسَمَتْهُ   حَوَى ٱلْآبَاءُ اَنْصِبَةَ ٱلْبَنِينَا

وَحَكَى ٱلْاَصْمَعِيُّ قَالَ : قُلْتُ لِغُلَامٍ حَدَثٍ مِنْ اَوْلَادِ ٱلْعَرَبِ كَانَ يُحَادِثُنِي فَاَمْتَعَنِي بِفَصَاحَةٍ وَمَلَاحَةٍ : اَيَسُرُّكَ اَنْ يَكُونَ لَكَ

مِئَةُ أَلفِ دِرْهَمٍ وَأَنتَ أَحمَقُ. قالَ: لا. قالَ: فَقُلتُ: وَلِمَ. قالَ: أَخافُ أَنْ يَجنيَ عَلَيَّ حُمقي جِنايَةً تَذهَبُ بِمالي وَيَبقى عَلَيَّ حُمقي. فَانظُرْ إِلى هٰذا الصَّبيِّ كَيفَ استَخرَجَ بِفَرطِ ذَكائِهِ وَاستَنبَطَ بِجَودَةِ قَريحَتِهِ ما لَعَلَّهُ يَدِقُّ عَلى مَنْ هُوَ أَكبَرُ مِنهُ سِنًّا وَأَكثَرُ تَجرِبَةً. وَأَحسَنُ مِنْ هٰذا الذَّكاءِ وَالفِطنَةِ ما حَكى ابنُ قُتَيبَةَ: إِنَّ عُمَرَ بنَ الخَطّابِ مَرَّ بِصِبيانٍ يَلعَبونَ وَفيهِم عَبدُ اللهِ بنُ الزُّبَيرِ فَهَرَبوا مِنهُ إِلّا عَبدَ اللهِ فَقالَ لَهُ عُمَرُ: مالَكَ لا تَهرُبُ مَعَ أَصحابِكَ. فَقالَ: يا أَميرَ المُؤمِنينَ لَمْ أَكُنْ عَلى رِيبَةٍ فَأَخافَكَ وَلَمْ يَكُنِ الطَّريقُ ضَيِّقًا فَأُوسِعَ لَكَ. فَانظُرْ ما تَضَمَّنَهُ هٰذا الجَوابُ مِنَ الفِطنَةِ وَقُوَّةِ المُنَّةِ وَحُسنِ البَديهَةِ كَيفَ نَفى عَنهُ اللَّومَ وَأَثبَتَ لَهُ الحُجَّةَ فَلَيسَ لِلذَّكاءِ غايَةٌ. وَلا لِجَودَةِ القَريحَةِ نِهايَةٌ

البحث الخامس

في التصوُّر والتمثُّل

(من كتاب زجر النفس لهرمس)

يا نَفسُ إِنَّ مُبدِعَ الأَشياءِ وَمُنشِئَها جَلَّ جَلالُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسماؤُهُ أَبدَعَكِ وَجَعَلَكِ ذاتَ التَّصَوُّرِ وَالتَّمَثُّلِ. فَأَمّا التَّصَوُّرُ فَتَصَوُّرُكِ الشَّيءَ عَلى حَقيقَةِ ما أَبدَعَهُ مُبدِعُهُ. وَأَمّا التَّمَثُّلُ فَتَمَثُّلُكِ ما خَفِيَ عَنكِ مِنْ عالَمِ العَقلِ بِما شاهَدتِهِ في عالَمِ الحِسِّ مِثلًا بِمِثلٍ وَمَعنًى بِمَعنًى كَما أَنْ تَدُلُّ ذاتُ الصُّورَةِ المَطبوعَةِ في الشَّمعِ عَلى مَعناها وَحَقيقَتِها في الطّابِعِ وَكَما تَدُلُّ الصُّورَةُ المُمَثَّلَةُ في الطّابِعِ عَلى مَعنى حَقيقَتِها في نَفسِ مُمَثِّلِها وَمُصَوِّرِها وَكَما يُؤَثِّرُ الماءُ في الرَّملِ مَعانيَ حَرَكاتِهِ وَتَموُّجِهِ

البحث السادس

الخيال والخيالي

(عن الحاج خلفا بتصرُّف)

(راجع صفحة ٥ من توطئة علم الادب)

اَلْخَيَالُ فِي اللُّغَةِ بِمَعْنَى الشَّخْصِ وَعِنْدَ الْحُكَمَاءِ يُطْلَقُ عَلَى إِحْدَى الْحَوَاسِّ الْبَاطِنَةِ . وَهُوَ قُوَّةٌ تَحْفَظُ الصُّوَرَ الْمُرْتَسِمَةَ فِي الْحِسِّ الْمُشْتَرَكِ إِذَا غَابَتْ تِلْكَ الصُّوَرُ عَنِ الْحَوَاسِّ الْبَاطِنَةِ . وَمَحَلُّهُ مُؤَخَّرُ التَّجْوِيفِ الْاَوَّلِ مِنَ التَّجَاوِيفِ الثَّلَاثَةِ لِلدِّمَاغِ عِنْدَ الْجُمْهُورِ(١).وَاسْتَدَلُّوا عَلَى وُجُودِ الْخَيَالِ بِاَنَّا إِذَا شَاهَدْنَا صُورَةً ثُمَّ ذَهِلْنَا عَنْهَا زَمَانًا ثُمَّ نُشَاهِدُ مَرَّةً أُخرَى نَحْكُمُ عَلَيْهَا بِاَنَّهَا هِيَ الَّتِي شَاهَدْنَاهَا قَبْلَ ذٰلِكَ . فَلَوْ لَمْ تَكُنْ تِلْكَ الصُّورَةُ مَحْفُوظَةً فِينَا زَمَانَ الذُّهُولِ لَامْتَنَعَ الْحُكْمُ بِاَنَّهَا هِيَ الَّتِي شَاهَدْنَاهَا قَبْلَ ذٰلِكَ.(وَالْخَيَالِيُّ) يُطْلَقُ عَلَى الصُّورَةِ الْمُرْتَسِمَةِ فِي الْخَيَالِ الْمُتَأَدِّيَةِ إِلَيْهِ مِنْ طُرُقِ الْحَوَاسِّ.وَقَدْ يُطْلَقُ عَلَى الْمَعْدُومِ الَّذِي اخْتَرَعَتْهُ الْمُتَخَيِّلَةُ وَرَكَّبَتْهُ مِنَ الْاُمُورِ الْمَحْسُوسَةِ اَيِ الْمُدْرَكَةِ بِالْحَوَاسِّ الظَّاهِرَةِ . وَبِقَوْلِنَا مِنَ الْاُمُورِ الْمَحْسُوسَةِ خَرَجَ الْوَهْمِيُّ بِمَعْنَى مَا اخْتَرَعَتْهُ الْقُوَّةُ الْمُتَخَيِّلَةُ اخْتِرَاعًا صِرْفًا عَلَى نَحْوِ الْمَحْسُوسَاتِ وَبِهٰذَا الْمَعْنَى يُسْتَعْمَلُ فِي بَابِ التَّشْبِيهِ كَمَا فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ :

وَكَاَنَّ مُحْمَرَّ الشَّقِيقِ م إِذَا تَصَوَّبَ اَوْ تَصَعَّدْ
اَعْلَامُ يَاقُوتٍ نُشِرْ نَ عَلَى رِمَاحٍ مِنْ زَبَرْجَدْ

(١) ليس هذا الرأي بمقرَّر

فَإِنَّ ٱلْأَعْلَامَ ٱلْيَاقُوتِيَّةَ ٱلْمَنْشُورَةَ عَلَى ٱلرِّمَاحِ ٱلزَّبَرْجَدِيَّةِ مِمَّا لَا يُدْرِكُهُ ٱلْحِسُّ لِأَنَّ ٱلْحِسَّ إِنَّمَا يُدْرِكُ مَا هُوَ مَوْجُودٌ فِي ٱلْمَادَّةِ حَاضِرَةً عِنْدَ ٱلْمُدْرِكِ عَلَى هَيْئَاتٍ مَحْسُوسَةٍ مَخْصُوصَةٍ بِهِ. لٰكِنَّ مَادَّتَهُ ٱلَّتِي يَتَرَكَّبُ هُوَ مِنْهَا كَٱلْأَعْلَامِ وَٱلْيَاقُوتِ وَٱلرِّمَاحِ وَٱلزَّبَرْجَدِ كُلٌّ مِنْهَا مَحْسُوسٌ بِٱلْبَصَرِ

البحث السابع

في الحافظة

(عن الماوَردي باختصار)

(راجع صفحة ٥و٦ من توطئة علم الادب)

رُبَّمَا ٱسْتَثْقَلَ ٱلْمُتَعَلِّمُ ٱلدَّرْسَ وَٱلْحِفْظَ وَٱتَّكَلَ بَعْدَ فَهْمِ ٱلْمَعَانِي عَلَى ٱلرُّجُوعِ إِلَى ٱلْكُتُبِ وَٱلْمُطَالَعَةِ فِيهَا عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ فَلَا يَكُونُ إِلَّا كَمَنْ أَطْلَقَ مَا صَادَهُ ثِقَةً بِٱلْقُدْرَةِ عَلَيْهِ بَعْدَ ٱلِٱمْتِنَاعِ مِنْهُ فَلَا تُعْقِبُهُ ٱلثِّقَةُ إِلَّا خَجَلًا وَٱلتَّفْرِيطُ إِلَّا نَدَمًا . وَهٰذِهِ حَالٌ قَدْ يَدْعُو إِلَيْهَا أَحَدُ ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ : ٱلضَّجَرُ مِنْ مُعَانَاةِ ٱلْحِفْظِ وَمُرَاعَاتِهِ وَطُولُ ٱلْأَمَلِ فِي ٱلتَّوَفُّرِ عَلَيْهِ عِنْدَ نَشَاطِهِ وَفَسَادُ ٱلرَّأْيِ فِي عَزِيمَتِهِ وَلَيْسَ يَعْلَمُ أَنَّ ٱلضَّجُورَ خَائِبٌ وَأَنَّ ٱلطَّوِيلَ ٱلْأَمَلِ مَغْرُورٌ وَأَنَّ ٱلْفَاسِدَ ٱلرَّأْيِ مُصَابٌ. وَٱلْعَرَبُ تَقُولُ فِي أَمْثَالِهَا: حَرْفٌ فِي قَلْبِكَ خَيْرٌ مِنْ أَلْفٍ فِي كُتُبِكَ. وَقَالُوا : لَا خَيْرَ فِي عِلْمٍ لَا يَعْبُرُ مَعَكَ ٱلْوَادِي وَلَا يَعْمُرُ بِكَ ٱلنَّادِي. وَأُنْشِدْتُ عَنِ ٱلرَّبِيعِ لِلشَّافِعِيِّ :

عِلْمِي مَعِي حَيْثُ مَا يَمَّمْتُ يَنْفَعُنِي
قَلْبِي وِعَاءٌ لَهُ لَا بَطْنُ صُنْدُوقِي
إِنْ كُنْتُ فِي ٱلْبَيْتِ كَانَ ٱلْعِلْمُ فِيهِ مَعِي
أَوْ كُنْتُ فِي ٱلسُّوقِ كَانَ ٱلْعِلْمُ فِي ٱلسُّوقِ

وَرُبَّمَا ٱعْتَنَى ٱلْمُتَعَلِّمُ بِٱلْحِفْظِ مِنْ غَيْرِ تَصَوُّرٍ وَلَا فَهْمٍ حَتَّى يَصِيرَ حَافِظًا لِأَلْفَاظِ ٱلْمَعَانِي قَيِّمًا بِتِلَاوَتِهَا وَهُوَ لَا يَتَصَوَّرُهَا وَلَا يَفْهَمُ مَا تَضَمَّنَهَا يَرْوِي بِغَيْرِ رَوِيَّةٍ وَيُخْبِرُ عَنْ غَيْرِ خِبْرَةٍ فَهُوَ كَٱلْكِتَابِ ٱلَّذِي لَا يَدْفَعُ شُبْهَةً وَلَا يُؤَيِّدُ حُجَّةً وَقَدْ جَاءَ فِي ٱلْحَدِيثِ: هِمَّةُ ٱلسُّفَهَاءِ ٱلرِّوَايَةُ. وَهِمَّةُ ٱلْعُلَمَاءِ ٱلرِّعَايَةُ . وَرَوَى ٱبْنُ مَسْعُودٍ : كُونُوا لِلْعِلْمِ رُعَاةً . وَلَا تَكُونُوا لَهُ رُوَاةً . فَقَدْ يَرْعَوِي مَنْ لَا يَرْوِي . وَيَرْوِي مَنْ لَا يَرْعَوِي. وَحَدَّثَ ٱلْحَسَنُ ٱلْبَصْرِيُّ بِحَدِيثٍ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ : يَا أَبَا سَعِيدٍ عَمَّنْ. قَالَ: مَا تَصْنَعُ بِعَمَّنْ . أَمَّا أَنْتَ فَقَدْ نَالَتْكَ عِظَتُهُ وَقَامَتْ عَلَيْكَ حُجَّتُهُ

وَرُبَّمَا ٱعْتَمَدَ عَلَى حِفْظِهِ وَتَصَوُّرِهِ وَأَغْفَلَ تَقْيِيدَ ٱلْعِلْمِ فِي كُتُبِهِ ثِقَةً بِمَا ٱسْتَقَرَّ فِي ذِهْنِهِ وَهٰذَا خَطَأٌ مِنْهُ لِأَنَّ ٱلشَّكَّ مُعْتَرِضٌ وَٱلنِّسْيَانَ طَارِقٌ. وَقَالَ ٱلْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ: اِجْعَلْ مَا فِي ٱلْكُتُبِ رَأْسَ ٱلْمَالِ وَمَا فِي ٱلْقَلْبِ ٱلنَّفَقَةَ. وَقَالَ مَهْبُودٌ : لَوْلَا مَا عَقَدَتْهُ ٱلْكُتُبُ مِنْ تَجَارِبِ ٱلْأَوَّلِينَ لَانْحَلَّ مَعَ ٱلنِّسْيَانِ عُقُودُ ٱلْآخِرِينَ



البحث الثامن

في تفسير الذوق في مصطلح اهل البيان

(مقدمة ابن خلدون)

(راجع صفحة ٦ من توطئة علم الادب)

اِعلَمْ انَّ لَفظَةَ ٱلذَّوقِ يَتَداوَلُها ٱلمُعتَنُونَ بِفُنُونِ ٱلبيانِ. ومَعناها حُصُولُ مَلَكَةِ ٱلبَلاغَةِ لِلِسانِ ٱلَّتي هِيَ مُطابَقَةُ ٱلكَلامِ لِلمَعنَى مِنْ جَميعِ وُجُوهِهِ بِخَواصَّ تَقعُ لِلتَّراكِيبِ فِي اِفادَةِ ذٰلِكَ. فَٱلمُتَكَلِّمُ بِلِسانِ ٱلعَرَبِ وَٱلبَليغُ فِيهِ يَتَحَرَّى ٱلهَيئَةَ ٱلمُفِيدَةَ لِذٰلِكَ عَلَى اَساليبِ ٱلعَرَبِ وَانحاءِ مُخاطَباتِهِمْ وَيَنظِمُ ٱلكَلامَ عَلَى ذٰلِكَ ٱلوَجهِ جُهدَهُ. فَاِذا ٱتَّصلَتْ مَقاماتُهُ بِمُخالَطَةِ كَلامِ ٱلعَرَبِ حَصلَتْ لَهُ ٱلمَلَكَةُ فِي نَظْمِ ٱلكَلامِ عَلَى ذٰلِكَ ٱلوَجهِ وَسَهلَ عَلَيهِ اَمرُ ٱلتَّركِيبِ حَتَّى لا يَكادُ يَنحُو فِيهِ غَيرَ مَنحَى ٱلبَلاغَةِ ٱلَّتي لِلعَرَبِ. وَاِنْ سَمِعَ تَركِيباً غَيرَ جارٍ عَلَى ذٰلِكَ ٱلمَنحَى مَجَّهُ وَنَبا عَنهُ سَمعُهُ بادنَى فِكرٍ بَلْ وَبِغَيرِ فِكرٍ اِلَّا بِما ٱستَفادَهُ مِنْ حُصُولِ هٰذِهِ ٱلمَلَكَةِ. فَاِنَّ ٱلمَلَكاتِ اِذا ٱستَقَرَّتْ وَرَسَخَتْ فِي مَحالِّها ظَهَرَتْ كَأَنَّها طَبيعَةٌ وَجِبلَّةٌ لِذٰلِكَ ٱلمَحَلِّ. وَلِذٰلِكَ يَظُنُّ كَثيرٌ مِنَ ٱلمُغَفَّلِينَ مِمَّنْ لَمْ يَعرِفْ شَأنَ ٱلمَلَكاتِ اَنَّ ٱلصَّوابَ لِلعَرَبِ فِي لُغَتِهِمْ اِعراباً وَبَلاغَةً اَمرٌ طَبِيعِيٌّ وَيَقُولُ: كانَتِ ٱلعَرَبُ تَنطِقُ بِٱلطَّبعِ. وَلَيسَ كَذٰلِكَ. وَاِنَّما هِيَ مَلَكَةٌ لِسانِيَّةٌ فِي نَظمِ ٱلكَلامِ تَمَكَّنَتْ وَرَسَخَتْ فَظَهَرَتْ فِي بادِي ٱلرَّأيِ اَنَّها جِبلَّةٌ وَطَبعٌ وَهٰذِهِ

ٱلْمَلَكَةُ كَمَا تَقَدَّمَ إِنَّمَا تَحْصُلُ بِمُمَارَسَةِ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ وَتَكَرُّرِهِ عَلَى ٱلسَّمْعِ وَٱلتَّفَطُّنِ لِخَوَاصِّ تَرَاكِيبِهِ . وَلَيْسَتْ تَحْصُلُ بِمَعْرِفَةِ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْعِلْمِيَّةِ فِي ذٰلِكَ ٱلَّتِي ٱسْتَنْبَطَهَا أَهْلُ صِنَاعَةِ ٱللِّسَانِ . فَإِنَّ هٰذِهِ ٱلْقَوَانِينَ إِنَّمَا تُفِيدُ عِلْمًا بِذٰلِكَ ٱللِّسَانِ وَلَا تُفِيدُ حُصُولَ ٱلْمَلَكَةِ بِٱلْفِعْلِ فِي مَحَلِّهَا . وَإِذَا تَقَرَّرَ ذٰلِكَ فَمَلَكَةُ ٱلْبَلَاغَةِ فِي ٱللِّسَانِ تَهْدِي ٱلْبَلِيغَ إِلَى وُجُوهِ ٱلنَّظْمِ وَحُسْنِ ٱلتَّرْكِيبِ ٱلْمُوَافِقِ لِتَرَاكِيبِ ٱلْعَرَبِ فِي لُغَتِهِمْ وَنَظْمِ كَلَامِهِمْ . وَلَوْ رَامَ صَاحِبُ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ حَيْدًا عَنْ هٰذِهِ ٱلسَّبِيلِ ٱلْمُعَيَّنَةِ وَٱلتَّرَاكِيبِ ٱلْمَخْصُوصَةِ لَمَا قَدَرَ عَلَيْهِ وَلَا وَافَقَهُ عَلَيْهِ لِسَانُهُ لِأَنَّهُ لَا يَعْتَادُهُ وَلَا تَهْدِيهِ إِلَيْهِ مَلَكَتُهُ ٱلرَّاسِخَةُ عِنْدَهُ . وَإِذَا عُرِضَ عَلَيْهِ ٱلْكَلَامُ حَائِدًا عَنْ أُسْلُوبِ ٱلْعَرَبِ وَبَلَاغَتِهِمْ فِي نَظْمِ كَلَامِهِمْ أَعْرَضَ عَنْهُ وَمَجَّهُ وَعَلِمَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ ٱلَّذِينَ مَارَسَ كَلَامَهُمْ . وَرُبَّمَا يَعْجِزُ عَنِ ٱلِٱحْتِجَاجِ لِذٰلِكَ كَمَا تَصْنَعُ أَهْلُ ٱلْقَوَانِينِ ٱلنَّحْوِيَّةِ وَٱلْبَيَانِيَّةِ . فَإِنَّ ذٰلِكَ ٱسْتِدْلَالٌ بِمَا حَصَلَ مِنَ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْمُفَادَةِ بِٱلِٱسْتِقْرَاءِ وَهٰذَا أَمْرٌ وِجْدَانِيٌّ حَاصِلٌ بِمُمَارَسَةِ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ حَتَّى يَصِيرَ كَوَاحِدٍ مِنْهُمْ . وَمِثَالُهُ لَوْ فَرَضْنَا صَبِيًّا مِنْ صِبْيَانِهِمْ نَشَأَ وَرَبِيَ فِي جِيلِهِمْ فَإِنَّهُ يَتَعَلَّمُ لُغَتَهُمْ وَيُحْكِمُ شَأْنَ ٱلْإِعْرَابِ وَٱلْبَلَاغَةِ فِيهَا حَتَّى يَسْتَوْلِيَ عَلَى غَايَتِهَا وَلَيْسَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ٱلْقَانُونِيِّ فِي شَيْءٍ وَإِنَّمَا هُوَ بِحُصُولِ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ فِي لِسَانِهِ وَنُطْقِهِ . وَكَذٰلِكَ تَحْصُلُ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةُ لِمَنْ بَعْدَ ذٰلِكَ ٱلْجِيلِ بِحِفْظِ كَلَامِهِمْ وَأَشْعَارِهِمْ وَخُطَبِهِمْ وَٱلْمُدَاوَمَةِ عَلَى ذٰلِكَ بِحَيْثُ يُحَصِّلُ ٱلْمَلَكَةَ وَيَصِيرُ كَوَاحِدٍ مِمَّنْ نَشَأَ فِي جِيلِهِمْ وَرَبِيَ بَيْنَ

اَحْيائِهِمْ. وَٱلْقَوانِينُ بِمَعزِلٍ عَنْ هٰذا. وَٱسْتُعِيرَ لِهٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ عِنْدَما تَرْسَخُ وَتَسْتَقِرُّ ٱسْمُ ٱلذَّوْقِ ٱلَّذِي ٱصْطَلَحَ عَلَيْهِ اَهْلُ صِناعَةِ ٱلْبَيانِ. وَٱلذَّوْقُ اِنَّما هُوَ مَوْضُوعٌ لِإِدْراكِ ٱلطُّعُومِ لَكِنْ لَمَّا كانَ مَحَلُّ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ فِي ٱللِّسانِ مِنْ حَيْثُ ٱلنُّطْقِ بِٱلْكَلامِ كَما هُوَ مَحَلٌّ لِإِدْراكِ ٱلطُّعُومِ ٱسْتُعِيرَ لَها ٱسْمُهُ وَاَيْضًا فَهُوَ وِجْدانِيٌّ لِلِّسانِ كَما اَنَّ ٱلطُّعُومَ مَحْسُوسَةٌ لَهُ فَقِيلَ لَهُ ذَوْقٌ. وَاِذا تَبَيَّنَ لَكَ ذٰلِكَ عَلِمْتَ مِنْهُ اَنَّ ٱلْاَعاجِمَ ٱلدّاخِلِينَ فِي ٱللِّسانِ ٱلْعَرَبِيِّ ٱلطّارِئِينَ عَلَيْهِ ٱلْمُضْطَرِّينَ اِلى ٱلنُّطْقِ بِهِ لِمُخالَطَةِ اَهْلِهِ كَٱلْفُرْسِ وَٱلرُّومِ وَٱلتُّرْكِ بِٱلْمَشْرِقِ وَكَٱلْبَرْبَرِ بِٱلْمَغْرِبِ فَاِنَّهُ لَا يَحْصُلُ لَهُمْ هٰذا ٱلذَّوْقُ لِقُصُورِ حَظِّهِمْ فِي هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ ٱلَّتِي قَرَّرْنا اَمْرَها. لِاَنَّ قُصاراهُمْ بَعْدَ طائِفَةٍ مِنَ ٱلْعُمْرِ وَسَبْقِ مَلَكَةٍ اُخْرى اِلى ٱللِّسانِ وَهِيَ لُغاتُهُمْ اَنْ يَعْتَنُوا بِما يَتَداوَلُهُ اَهْلُ ٱلْمِصْرِ(١) بَيْنَهُمْ فِي ٱلْمُحاوَرَةِ مِنْ مُفْرَدٍ وَمُرَكَّبٍ لِما يَضْطَرُّونَ اِلَيْهِ مِنْ ذٰلِكَ وَهٰذِهِ ٱلْمَلَكَةُ قَدْ ذَهَبَتْ لِاَهْلِ ٱلْاَمْصارِ وَبَعُدُوا عَنْها كَما تَقَدَّمَ. وَاِنَّما لَهُمْ فِي ذٰلِكَ مَلَكَةٌ اُخْرى وَلَيْسَتْ هِيَ مَلَكَةَ ٱللِّسانِ ٱلْمَطْلُوبَةَ. وَمَنْ عَرَفَ تِلْكَ ٱلْمَلَكَةَ مِنَ ٱلْقَوانِينِ ٱلْمُسَطَّرَةِ فِي ٱلْكُتُبِ فَلَيْسَ مِنْ تَحْصِيلِ ٱلْمَلَكَةِ فِي شَيْءٍ اِنَّما حَصَّلَ اَحْكامَها كَما عَرَفْتَ وَاِنَّما تَحْصُلُ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةُ بِٱلْمُمارَسَةِ وَٱلْاِعْتِيادِ وَٱلتَّكَرُّرِ لِكَلامِ ٱلْعَرَبِ. فَاِنْ عَرَضَ لَكَ ما تَسْمَعُهُ مِنْ اَنَّ سِيبَوَيْهِ وَٱلْفارِسِيَّ وَٱلزَّمَخْشَرِيَّ وَاَمْثالَهُمْ مِنْ فُرْسانِ ٱلْكَلامِ كانُوا اَعْجامًا مَعَ حُصُولِ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ لَهُمْ فَٱعْلَمْ اَنَّ اُولٰئِكَ ٱلْقَوْمَ

(١) وفي نسخة: اهل المُضَر

الَّذِينَ تَسمَعُ عَنهُم إِنَّمَا كَانُوا عَجَمًا فِي نَسَبِهِمْ فَقَطْ وَأَمَّا الْمَرْبَى وَالنَّشأَةُ فَكَانَتْ بَيْنَ أَهلِ هٰذِهِ الْمَلَكَةِ مِنَ الْعَرَبِ وَمَنْ تَعَلَّمَهَا مِنْهُمْ فَاستَوْلَوْا بِذٰلِكَ مِنَ الْكَلَامِ عَلَى غَايَةٍ لَا وَرَاءَهَا . وَكَأَنَّهُم فِي أَوَّلِ نَشأَتِهِمْ مِنَ الْعَرَبِ الَّذِينَ نَشَأُوا فِي أَحيَائِهِمْ(١) حَتَّى أَدرَكُوا كُنهَ اللُّغَةِ وَصَارُوا مِنْ أَهلِهَا. فَهُمْ وَإِنْ كَانُوا عَجَمًا فِي النَّسَبِ فَلَيسُوا بِأَعجَامٍ فِي اللُّغَةِ وَالْكَلَامِ لِأَنَّهُمْ أَدرَكُوا الْمِلَّةَ فِي عُنفُوَانِهَا وَاللُّغَةَ فِي شَبَابِهَا وَلَمْ تَذهَبْ آثَارُ الْمَلَكَةِ وَلَا مِنْ أَهلِ الْأَمصَارِ. ثُمَّ عَكَفُوا عَلَى الْمُمَارَسَةِ وَالْمُدَارَسَةِ لِكَلَامِ الْعَرَبِ حَتَّى استَوْلَوْا عَلَى غَايَتِهِ. وَالْوَاحِدُ الْيَوْمَ مِنَ الْعَجَمِ إِذَا خَالَطَ أَهلَ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ بِالْأَمصَارِ فَأَوَّلُ مَا يَجِدُ تِلْكَ الْمَلَكَةَ الْمَقصُودَةَ مِنَ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ مُمتَحِيَةَ الْآثَارِ وَيَجِدُ مَلَكَتَهُمُ الْخَاصَّةَ بِهِمْ مَلَكَةً أُخرَى مُخَالِفَةً لِمَلَكَةِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ. ثُمَّ إِذَا فَرَضْنَا أَنَّهُ أَقبَلَ عَلَى الْمُمَارَسَةِ لِكَلَامِ الْعَرَبِ وَأَشعَارِهِمْ بِالْمُدَارَسَةِ وَالْحِفظِ يَستَفِيدُ تَحصِيلَهَا فَقَلَّ أَنْ يَحصُلَ لَهُ مَا قَدَّمنَاهُ مِنْ أَنَّ الْمَلَكَةَ إِذَا سَبَقَتهَا مَلَكَةٌ أُخرَى فِي الْمَحَلِّ فَلَا تَحصُلُ إِلَّا نَاقِصَةً مَخدُوشَةً . وَإِنْ فَرَضْنَا عَجَمِيًّا فِي النَّسَبِ سَلِمَ مِنْ مُخَالَطَةِ اللِّسَانِ الْعَجَمِيِّ بِالْكُلِّيَّةِ وَذَهَبَ إِلَى تَعَلُّمِ هٰذِهِ الْمَلَكَةِ بِالْحِفظِ وَالْمُدَارَسَةِ فَرُبَّمَا يَحصُلُ لَهُ ذٰلِكَ لٰكِنَّهُ مِنَ النُّدُورِ بِحَيْثُ لَا يَخفَى عَلَيكَ بِمَا تَقَرَّرَ. وَرُبَّمَا يَدَّعِي كَثِيرٌ مِمَّنْ يَنظُرُ فِي هٰذِهِ الْقَوَانِينِ الْبَيَانِيَّةِ حُصُولَ هٰذَا الذَّوقِ لَهُ بِهَا وَهُوَ غَلَطٌ أَوْ مُغَالَطَةٌ وَإِنَّمَا حَصَلَتْ لَهُ الْمَلَكَةُ إِنْ حَصَلَتْ فِي تِلْكَ الْقَوَانِينِ الْبَيَانِيَّةِ

---

(١) وفي نسخة : في اجيالهم

وَلَيستْ مِنْ مَلَكَةِ ٱلعِبَارَةِ فِي شَيْءٍ وَٱللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

البحث التاسع

في المطالعة

(المثل السائر لابي الفتح بن الاثير الموصلي)

(راجع صفحة ٨ من توطئة علم الادب)

إِنَّ فِي ٱلِاطِّلَاعِ عَلَى كَلَامِ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ مِنَ ٱلْمَنظُومِ وَٱلْمَنثُورِ فَوَائِدَ جَمَّةً لِأَنَّهُ يُعْلَمُ مِنْهُ اغرَاضُ ٱلنَّاسِ وَنَتَائِجُ أَفْكَارِهِمْ وَيُعْرَفُ بِهِ مَقَاصِدُ كُلِّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ وَإِلَى ايْنَ تَرَامَتْ بِهِ صَنْعَتُهُ فِي ذٰلِكَ . فَإِنَّ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءَ مِمَّا تَشْحَذُ ٱلْقَرِيحَةَ وَتُذَكِّي ٱلْفِطْنَةَ . وَإِذَا كَانَ صَاحِبُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ عَارِفًا بِهَا تَصِيرُ ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي ذُكِرَتْ وَتَعِبَ فِي ٱسْتِخْرَاجِهَا كَٱلشَّيْءِ ٱلْمُلْقَى بَيْنَ يَدَيْهِ يَأْخُذُ مِنْهُ مَا ارَادَ . وَايضًا فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ مُطَّلِعًا عَلَى ٱلْمَعَانِي ٱلْمَسْبُوقِ إِلَيْهَا قَدْ يَنْقَدِحُ لَهُ مِنْ بَيْنِهَا مَعْنًى غَرِيبٌ لَمْ يُسْبَقْ إِلَيْهِ. وَمِنَ ٱلْمَعْلُومِ انَّ خَوَاطِرَ ٱلنَّاسِ وَإِنْ كَانَتْ مُتَفَاوِتَةً فِي ٱلْجُودَةِ وَٱلرَّدَاءَةِ فَإِنَّ بَعْضَهَا لَا يَكُونُ عَالِيًا عَلَى بَعْضٍ اوْ مُنْحَطًّا عَنْهُ إِلَّا بِشَيْءٍ يَسِيرٍ . وَكَثِيرًا مَا تَتَسَاوَى ٱلْقَرَائِحُ وَٱلْأَفْكَارُ فِي ٱلْإِتْيَانِ بِٱلْمَعَانِي حَتَّى إِنَّ بَعْضَ ٱلنَّاسِ قَدْ يَأْتِي بِمَعْنًى مَوْضُوعٍ بِلَفْظٍ ثُمَّ يَأْتِي ٱلْآخَرُ بَعْدَهُ بِذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى وَٱللَّفْظِ بِعَيْنِهِمَا مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ مِنْهُ بِمَا جَاءَ بِهِ ٱلْأَوَّلُ وَهٰذَا ٱلَّذِي يُسَمِّيهِ ارْبَابُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وُقُوعَ ٱلْحَافِرِ عَلَى ٱلْحَافِرِ

البحث العاشر

في الارتياض والممارسة

(المثل السائر والوشي المرقوم لابن الاثير)

(راجع صفحة ٩ و ١٠ من توطئة علم الادب)

اِعلَمْ اَيُّهَا ٱلنَّاظِرُ فِي كِتَابِي اَنَّ مَدَارَ عِلمِ ٱلْبَيَانِ عَلَى حَاكِمِ ٱلذَّوْقِ ٱلسَّلِيمِ ٱلَّذِي هُوَ اَنْفَعُ مِنْ ذَوْقِ ٱلتَّعْلِيمِ . وَهٰذَا ٱلْكِتَابُ وَاِنْ كَانَ فِيمَا يُلْقِيهِ اِلَيْكَ اُسْتَاذًا اَوْ اِذَا سَأَلْتَ عَمَّا يُنْتَفَعُ بِهِ فِي فَنِّهِ قِيلَ لَكَ هٰذَا فَاِنَّ ٱلدُّرْبَةَ وَٱلْاِدْمَانَ اَجْدَى عَلَيْكَ نَفْعًا وَاَهْدَى بَصَرًا وَسَمْعًا . وَهُمَا يُرِيَانِكَ ٱلْخَبَرَ عِيَانًا وَيَجْعَلَانِ عُسْرَكَ مِنَ ٱلْقَوْلِ اِمْكَانًا وَكُلَّ جَارِحَةٍ مِنْكَ قَلْبًا وَلِسَانًا . فَخُذْ مِنْ هٰذَا ٱلْكِتَابِ مَا اَعْطَاكَ وَٱسْتَنْبِطْ بِاِدْمَانِكَ مَا اَخْطَاكَ . وَمَا مَثَلِي فِيمَا مَهَّدْتُهُ لَكَ مِنْ هٰذَا ٱلطَّرِيقِ اِلَّا كَمَنْ طَبَعَ سَيْفًا وَوَضَعَهُ فِي يَمِينِكَ لِتُقَاتِلَ بِهِ وَلَيْسَ عَلَيْهِ اَنْ يَخْلُقَ لَكَ قَلْبًا فَاِنَّ حَمْلَ ٱلنِّصَالِ غَيْرُ مُبَاشَرَةِ ٱلْقِتَالِ

وَاِنَّمَا يَبْلُغُ ٱلْاِنْسَانُ غَايَتَهُ ‍ ‍ ‍ مَا كُلُّ مَاشِيَةٍ بِٱلرَّحْلِ شِمْلَالُ

وَاِنَّ صَاحِبَ ٱلْكِتَابَةِ لَا يَرَى فِي اَمْرِهِ اِلَّا صُعُوبَةً وَوُعُورَةً وَطَرِيقًا مُشْكِلَةَ ٱلْمَذَاهِبِ كَثِيرَةَ ٱلشِّعَابِ . فَاِذَا اَكْرَهَ خَاطِرَهُ عَلَى سُلُوكِهَا وَشَجَّعَهُ عَلَى تَوَرُّدِهَا فَمَا مَضَى بِهِ هُنَيْهَةٌ حَتَّى يَسْتَمِرَّ بِهِ ٱلطَّرِيقُ وَيَتَّضِحَ لَدَيْهِ . وَٱلتَّعَبُ عَلَى مَنَازِلِ ٱلْعَلْيَاءِ اِمَارَةٌ

البحث الحادي عشر

في طرائق مختلفة من الممارسة والتمرين

(المثل السائر باختصار)

(راجع صفحة ١٠ من توطئة علم الادب)

هٰذَا ٱلْفَصْلُ هُوَ كَنْزُ ٱلْكِتَابَةِ وَمَنْبَعُهَا وَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا يَتَكَلَّمُ فِيهِ بِشَيْءٍ وَلَمَّا حُبِّبَتْ إِلَيَّ هٰذِهِ ٱلْفَضِيلَةُ وَبَلَّغَنِي ٱللهُ مِنْهَا مَا بَلَّغَنِي وَجَدتُّ ٱلطَّرِيقَ يَنْقَسِمُ فِيهَا إِلَى ثَلَاثِ شُعَبٍ : (ٱلْأُولَى) أَنْ يَتَصَفَّحَ ٱلْكَاتِبُ كِتَابَةَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ وَيَطَّلِعَ عَلَى أَوْضَاعِهِمْ فِي ٱسْتِعْمَالِ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱلْمَعَانِي ثُمَّ يَحْذُو حَذْوَهُمْ . وَهٰذِهِ أَدْنَى ٱلطَّبَقَاتِ عِنْدِي . (ٱلثَّانِيَةُ) أَنْ يَمْزُجَ كِتَابَةَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ بِمَا يَسْتَجِيدُهُ لِنَفْسِهِ مِنْ زِيَادَةٍ حَسَنَةٍ إِمَّا فِي تَحْسِينِ ٱلْأَلْفَاظِ أَوْ فِي تَحْسِينِ ٱلْمَعَانِي. وَهٰذِهِ ٱلطَّبَقَةُ ٱلْوُسْطَى وَهِيَ أَعْلَى مِنَ ٱلَّتِي قَبْلَهَا . (ٱلثَّالِثَةُ) أَنْ لَا يَتَصَفَّحَ كِتَابَةَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ وَلَا يَطَّلِعَ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا بَلْ يَصْرِفَ هَمَّهُ إِلَى حِفْظِ ٱلْحَدِيثِ وَٱلْأَخْبَارِ وَعِدَّةٍ مِنْ دَوَاوِينِ فُحُولِ ٱلشُّعَرَاءِ مِمَّنْ غَلَبَ عَلَى شِعْرِهِ ٱلْإِجَادَةُ فِي ٱلْمَعَانِي وَٱلْأَلْفَاظِ . ثُمَّ يَأْخُذُ فِي ٱلِٱقْتِبَاسِ مِنْ هٰذِهِ فَيَقُومُ وَيَقَعُ وَيُخْطِئُ وَيُصِيبُ وَيَضِلُّ وَيَهْتَدِي حَتَّى يَسْتَقِيمَ عَلَى طَرِيقَةٍ يَفْتَتِحُهَا لِنَفْسِهِ. وَأَخْلِقْ بِتِلْكَ ٱلطَّرِيقِ أَنْ تَكُونَ مُبْتَدَعَةً غَرِيبَةً لَا شِرْكَةَ لِأَحَدٍ مِنَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ فِيهَا . وَهٰذِهِ ٱلطَّرِيقُ هِيَ طَرِيقُ ٱلِٱجْتِهَادِ وَصَاحِبُهَا يُعَدُّ إِمَامًا فِي فَنِّ ٱلْكِتَابَةِ. إِلَّا أَنَّهَا مُسْتَوْعِرَةٌ جِدًّا وَلَا يَسْتَطِيعُهَا إِلَّا مَنْ رَزَقَهُ ٱللهُ

تَعَالَى لِسَانًا هجَّامًا وَخَاطِرًا رَقَّامًا وَإِنَّمَا تَكُونُ نَفَاسَةُ ٱلْأَشْيَاءِ بِعِزَّةِ حُصُولِهَا وَمَشَقَّةِ وُصُولِهَا :

لَيْسَ حُلْوًا وُجُودُكَ ٱلشَّيْءَ تَبْغِيهِ م طِلَابًا حَتَّى يَعِزَّ طِلَابُهْ

وَهٰذِهِ ٱلطَّرِيقُ يَجْهَلُهَا كَثِيرٌ مِنْ مُتَعَاطِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وَٱلَّذِي يَعْلَمُهَا مِنْهُمْ يَرْضَى بِٱلْحَوَاشِي وَٱلْأَطْرَافِ وَيَقْنَعُ مِنْ لَآلِيهَا بِمَعْرِفَةِ مَا فِي ٱلْأَصْدَافِ . وَلَا أُرِيدُ بِهٰذِهِ ٱلطَّرِيقَةِ أَنْ يَكُونَ ٱلْكَاتِبُ مُرْتَبِطًا فِي كِتَابَتِهِ بِمَا يَسْتَخْرِجُهُ بِحَيْثُ أَنَّهُ لَا يُنْشِئُ كِتَابًا إِلَّا مِنْ ذٰلِكَ بَلْ أُرِيدُ أَنَّهُ إِذَا حَفِظَ مِمَّا قَدَّمْنَا شَيْئًا ثُمَّ نَقَّبَ عَنْ ذٰلِكَ تَنْقِيبَ مُطَّلِعٍ عَلَى مَعَانِيهِ مُفَتِّشٍ عَنْ دَفَائِنِهِ وَقَلَّبَهُ ظَهْرًا لِبَطْنٍ عَرَفَ حِينَئِذٍ مِنْ أَيْنَ تُؤْكَلُ ٱلْكَتِفُ فِيمَا يُنْشِئُهُ مِنْ ذَاتِ نَفْسِهِ وَٱسْتَعَانَ بِٱلْمَحْفُوظِ عَلَى ٱلْغَرِيزَةِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ . أَلَا تَرَى صَاحِبَ ٱلِٱجْتِهَادِ مِنَ ٱلْفُقَهَاءِ يَفْتَقِرُ إِلَى مَعْرِفَةِ أَخْبَارِ ٱلْأَحْكَامِ وَإِلَى مَعْرِفَةِ عِلْمِ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَٱلْفَرَائِضِ وَٱلْحِسَابِ مِنَ ٱلْمَعْلُومِ وَٱلْمَجْهُولِ . وَكَذٰلِكَ يَجْرِي ٱلْحُكْمُ فِي ٱلْكَاتِبِ إِذَا أَحَبَّ ٱلتَّرَقِّي إِلَى دَرَجَةِ ٱلِٱجْتِهَادِ فِي ٱلْكِتَابَةِ فَإِنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى أَدَوَاتٍ كَثِيرَةٍ سَنَذْكُرُهَا



فصلٌ في صفة الكاتب وما يحتاج اليهِ من المعارف

البحث الاوَّل

في صفة الكاتب الظاهرة

(عن ابراهيم الشيباني وآثار الاول للحسن بن عبدالله)

قِيلَ إِنَّهم قَدِ ٱستَحسَنُوا فِي ٱلكَاتِبِ ٱعتِدَالَ ٱلقَامَةِ وَصِغَرَ ٱلهَامَةِ وَخِفَّةَ ٱللَّهَازِمِ وَصِدقَ ٱلحِسِّ وَلُطفَ ٱلمَذهَبِ وحَلَاوَةَ ٱلشَّمَائِلِ وَحُسنَ ٱلاِشَارَةِ ومَلَاحَةَ ٱلزِّيِّ حَتَّى قَالَ بَعضُ ٱلمَهَالِبَةِ لِوُلدِهِ : تَزَيَّوا بِزِيِّ ٱلكُتَّاب فَاِنَّ فِيهِم ادبَ ٱلمُلُوكِ وَتَوَاضُعَ ٱلسُّوقَةِ . وَقِيلَ : اِنَّ مِنْ كَمَالِ آلَةِ ٱلكِتَابَةِ اَنْ يَكُونَ ٱلكَاتِبُ نَقِيَّ ٱلمَلبَسِ نَظِيفَ ٱلمَجلِسِ ظَاهِرَ ٱلمُرُوَّةِ دَقِيقَ ٱلذِّهنِ حَسَنَ ٱلفَهمِ وَافِرَ ٱلعِلمِ وَٱلعَقلِ صَادِقَ ٱلحِسِّ حَسَنَ ٱلبَيَانِ صَحِيحَ ٱلرَّأْيِ وَٱلعِبَارَةِ مَلِيحَ ٱلتَّأَتِّي فِي نَظمِ ٱلمَعَانِي وَنَثرِهَا دَقِيقَ حَوَاشِي ٱللِّسَانِ حُلوَ ٱلاِشَارَةِ مَلِيحَ ٱلاِستِعَارَةِ لَطِيفَ ٱلمَسَالِكِ مُستَقِرَّ ٱلتَّركِيبِ . وَلَا يَكُونَ مَعَ ذٰلِكَ فَدمَ ٱلمَنظَرِ مُتَفَاوِتَ ٱلاَجزَاءِ مُضطَرِبَ ٱلخَلقِ . فَاِنَّهُم زَعَمُوا اَنَّ هٰذِهِ ٱلصُّورَةَ لَا يَلِيقُ بِصَاحِبِهَا ٱلذَّكَاءُ وَٱلفِطنَةُ. وَاِنِ ٱتَّفَقَ اَنْ يَكُونَ حَسَنَ ٱلخَطِّ فَهُوَ كَمَالُهُ وَاِلَّا فَيَكُونُ هُوَ ٱلمُنشِئَ وَغَيرُهُ ٱلكَاتِبَ . وَنَظَرَ احمَدُ ٱبنُ خَصِيبٍ اِلَى رَجُلٍ مِنَ ٱلكُتَّابِ عَلَى هٰذِهِ ٱلهَيئَةِ فَقَالَ : لَاَنْ يَكُونَ هٰذَا فِنطَاسَ مَرْكَبٍ اَشبَهُ مِنْ اَنْ يَكُونَ كَاتِبًا . قَالَ بَعضُهُم :

عَلَيكَ بِكَاتِبٍ لَبِقٍ رَشِيقٍ ذَكِيٍّ فِي شَمَائِلِهِ حَذَارَه

تُنَاجِيهِ بِطَرْفِكَ مِنْ بَعِيدٍ فَيَفْهَمُ رَجْعَ لَحْظِكَ بِالْإِشَارَهْ

فَإِذَا ٱجْتَمَعَتْ لِلْكَاتِبِ هٰذِهِ ٱلْخِلَالُ وَٱنْتَظَمَتْ فِيهِ هٰذِهِ ٱلْخِصَالُ فَهُوَ ٱلْكَاتِبُ ٱلْبَلِيغُ وَٱلْأَدِيبُ ٱلنِّحْرِيرُ وَإِنْ قَصُرَتْ بِهِ آلَةٌ مِنْ هٰذِهِ ٱلْآلَاتِ وَقَعَدَتْ بِهِ أَدَاةٌ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَدَوَاتِ فَهُوَ مَنْقُوصُ ٱلْجَمَالِ مُنْكَسِفُ ٱلْحِسِّ مَنْحُوسُ ٱلنَّصِيبِ

البحث الثاني

في ادوات علم الكتابة

(عن المثل السائر لابن الاثير الموصلي باختصار)

اِعْلَمْ أَنَّ صِنَاعَةَ تَأْلِيفِ ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلْمَنْظُومِ وَٱلْمَنْثُورِ تَفْتَقِرُ إِلَى آلَاتٍ كَثِيرَةٍ . وَقَدْ قِيلَ : يَنْبَغِي لِلْكَاتِبِ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِكُلِّ عِلْمٍ حَتَّى قِيلَ : كُلُّ ذِي عِلْمٍ يَسُوغُ لَهُ أَنْ يَنْسُبَ نَفْسَهُ إِلَيْهِ فَيَقُولَ : فُلَانٌ ٱلنَّحْوِيُّ وَفُلَانٌ ٱلْفَقِيهُ وَلَا يَسُوغُ لَهُ أَنْ يَنْسُبَ نَفْسَهُ إِلَى ٱلْكِتَابَةِ فَيَقُولَ : فُلَانٌ ٱلْكَاتِبُ وَذٰلِكَ لِمَا يَفْتَقِرُ إِلَيْهِ مِنَ ٱلْخَوْضِ فِي كُلِّ فَنٍّ . وَمِلَاكُ هٰذَا كُلِّهِ ٱلطَّبْعُ فَإِنَّهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ ثَمَّ طَبْعٌ فَإِنَّهُ لَا تُغْنِي تِلْكَ ٱلْآلَاتُ شَيْئًا . وَمِثَالُ ذٰلِكَ كَمَثَلِ ٱلنَّارِ ٱلْكَامِنَةِ فِي ٱلزِّنَادِ وَٱلْحَدِيدَةِ ٱلَّتِي يُقْدَحُ بِهَا . أَلَا تَرَى أَنَّهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي ٱلزِّنَادِ نَارٌ لَا تُفِيدُ تِلْكَ ٱلْحَدِيدَةُ شَيْئًا . وَكَثِيرًا مَا رَأَيْنَا مِنْ غَرَائِبِ ٱلطِّبَاعِ فِي تَعَلُّمِ ٱلْعُلُومِ حَتَّى إِنَّ بَعْضَ ٱلنَّاسِ يَكُونُ لَهُ نَفَاذٌ فِي تَعَلُّمِ عِلْمٍ مُشْكِلِ ٱلْمَسْلَكِ صَعْبِ ٱلْمَأْخَذِ فَإِذَا كُلِّفَ تَعَلُّمَ مَا هُوَ دُونَهُ مِنْ سَهْلِ ٱلْعُلُومِ نَكَسَ

عَلَى عَقِبَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ فِيهِ نَفَاذٌ . وَأَغْرَبُ مِنْ ذٰلِكَ أَنَّ صَاحِبَ الطَّبْعِ فِي ٱلْمَنْظُومِ يُجِيدُ فِي ٱلْمَدِيحِ دُونَ ٱلْهِجَاءِ أَوْ فِي ٱلْهِجَاءِ دُونَ ٱلْمَدِيحِ أَوْ يُجِيدُ فِي ٱلْمَرَاثِي دُونَ ٱلتَّهَانِي أَوْ فِي ٱلتَّهَانِي دُونَ ٱلْمَرَاثِي. وَكَذٰلِكَ صَاحِبُ الطَّبْعِ فِي ٱلْمَنْثُورِ. هٰذَا ٱبْنُ ٱلْحَرِيرِيِّ صَاحِبُ ٱلْمَقَامَاتِ قَدْ كَانَ عَلَى مَا ظَهَرَ عَنْهُ مِنْ تَنْمِيقِ ٱلْمَقَامَاتِ وَاحِدًا فِي فَنِّهِ فَلَمَّا حَضَرَ بِبَغْدَادَ وَوُقِفَ عَلَى مَقَامَاتِهِ قِيلَ هٰذَا يَسْتَصْلِحُ لِكِتَابَةِ ٱلْإِنْشَاءِ فِي دِيوَانِ ٱلْخِلَافَةِ وَيَحْسُنُ أَثَرُهُ فِيهِ . فَأُحْضِرَ وَكُلِّفَ كِتَابَةَ كِتَابٍ فَأُفْحِمَ وَلَمْ يَجْرِ لِسَانُهُ فِي طَوِيلَةٍ وَلَا قَصِيرَةٍ . . . . وَبَلَغَنِي عَنِ ٱلشَّيْخِ أَبِي مُحَمَّدٍ أَحْمَدَ بْنِ ٱلْخَشَّابِ ٱلنَّحْوِيِّ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : ٱبْنُ ٱلْحَرِيرِيِّ رَجُلُ مَقَامَاتٍ أَيْ إِنَّهُ لَمْ يُحْسِنْ مِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْمَنْثُورِ سِوَاهَا وَإِنْ أَتَى بِغَيْرِهَا لَا يَقُولُ شَيْئًا . فَٱنْظُرْ أَيُّهَا ٱلْمُتَأَمِّلُ إِلَى هٰذَا ٱلتَّفَاوُتِ فِي ٱلصِّنَاعَةِ ٱلْوَاحِدَةِ مِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْمَنْثُورِ وَمِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ قِيلَ : شَيْئَانِ لَا نِهَايَةَ لَهُمَا ٱلْبَيَانُ وَٱلْجَمَالُ

البحث الثالث

فيما يجب على الكاتب معرفته

(عن صناعة الترسُّل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

وَمِمَّا يَجِبُ عَلَى ٱلْكَاتِبِ أَنْ يَتَرَشَّحَ بِهِ لِلْكِتَابَةِ قِرَاءَةُ مَا يَتَّفِقُ مِنْ (كُتُبِ ٱلنَّحْوِ) ٱلَّتِي يَحْصُلُ بِهَا ٱلْمَقْصُودُ مِنْ مَعْرِفَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ بِحَيْثُ يَجْمَعُ بَيْنَ طَرَفَيِ ٱلْكِتَابِ ٱلَّذِي يَقْرَأُهُ وَيَسْتَكْمِلُ ٱسْتِشْرَاحَهُ وَيُكِبُّ عَلَى

ٱلْإِعْرَابِ وَيُلَازِمُهُ وَيَجْعَلُهُ دَأْبَهُ لِيَرْتَسِمَ فِي فِكْرِهِ وَيَدُورَ عَلَى لِسَانِهِ وَيَنْطَلِقَ بِهِ عِقَالُ قَلْبِهِ وَكَلِمِهِ وَيَزُولَ بِهِ ٱلْوَهْمُ عَنْ سَجِيَّتِهِ وَيَكُونَ عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ عِبَارَتِهِ. فَإِنَّهُ لَوْ أَتَى مِنَ ٱلْبَلَاغَةِ بِأَتَمِّ مَا يَكُونُ وَلَحَنَ ذَهَبَتْ مَحَاسِنُ مَا أَتَى بِهِ وَٱنْهَدَّتْ طَبَقَةُ كَلَامِهِ وَأُلْغِيَ جَمِيعُ مَا يُحْسِنُهُ وَوُقِفَ بِهِ عِنْدَ مَا جَهِلَهُ . وَيَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ قِرَاءَةُ مَا تَهَيَّأَ مِنْ مُخْتَصَرَاتِ (كُتُبِ ٱللُّغَةِ) كَالْفَصِيحِ لِثَعْلَبٍ وَكِفَايَةِ ٱلْمُتَحَفِّظِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ كُتُبِ ٱلْأَلْفَاظِ لِيَتَّسِعَ عَلَيْهِ نِطَاقُ ٱلنُّطْقِ وَيَنْفَسِحَ لَهُ مَجَالُ ٱلْعِبَارَةِ وَيَنْفَتِحَ لَهُ بَابُ ٱلْأَوْصَافِ فِيمَا يَحْتَاجُ إِلَى وَصْفِهِ مِنْ خَيْلٍ أَوْ سِلَاحٍ أَوْ حَرْبٍ أَوْ سَيْرٍ أَوْ قِتَالٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَى وَصْفِهِ وَيُضْطَرُّ إِلَى نَعْتِهِ . وَيَتَّصِلُ بِذَلِكَ حِفْظُ (خُطَبِ ٱلْبُلَغَاءِ) مِنَ ٱلصَّحَابَةِ وَغَيْرِهِمْ وَمُخَاطَبَاتِهِمْ وَمُحَاوَرَاتِهِمْ وَمُرَاجَعَاتِهِمْ وَمَا ٱدَّعَاهُ كُلٌّ مِنْهُمْ لِنَفْسِهِ أَوْ لِقَوْمِهِ وَمَا نَقَضَهُ عَلَيْهِ خَصْمُهُ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ مَعْرِفَةِ ٱلْوَقَائِعِ بِنَظَائِرِهَا وَتَلَقِّي ٱلْحَوَادِثِ بِمَا شَاكَلَهَا وَٱلِٱقْتِدَاءِ بِطَرِيقَةِ مَنْ فَلَجَ عَلَى خَصْمِهِ وَٱقْتِفَاءِ آثَارِ مَنِ ٱضْطُرَّ إِلَى عُذْرٍ أَوْ إِبْطَالِ دَعْوَى أَوْ إِثْبَاتِهَا فَلَحَنَ بِحُجَّتِهِ وَتَخَلَّصَ بِلُطْفِ مَأْخَذِهِ وَدِقَّةِ مَسْلَكِهِ وَحُسْنِ عِبَارَتِهِ . . . فَٱنْظُرْ فِي هٰذَا وَأَمْثَالِهِ وَٱلْحِفْظُ مِنْهُ وَٱلْإِكْثَارُ مِنْ مُطَالَعَتِهِ مِمَّا يَشْحَذُ ٱلْقَرَائِحَ وَيَفْتُقُ ٱلْأَذْهَانَ وَيَرْتَسِمُ فِي ٱلْخَوَاطِرِ وَيَكْمُنُ فِي ٱلْأَفْكَارِ حَتَّى يَفِيضَ مَا غَاضَ مِنْهُ عَلَى لِسَانِ ٱلْقَلَمِ وَيَبْدُو مِنْهُ لِكُلِّ وَاقِعَةٍ مِنْوَالٌ يُنْسَجُ عَلَيْهِ وَمِثَالٌ يُنْظَرُ فِي نَظَائِرِ ٱلْأُمُورِ إِلَيْهِ

ثُمَّ ٱلنَّظَرُ فِي (أَيَّامِ ٱلْعَرَبِ) وَوَقَائِعِهِمْ وَحُرُوبِهِمْ وَتَسْمِيَةِ ٱلْأَيَّامِ

ٱلَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمْ وَمَعْرِفَةِ يَوْمِ كُلِّ قَبِيلَةٍ عَلَى ٱلْأُخْرَى وَمَا جَرَى بَيْنَهُمْ فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْأَشْعَارِ وَٱلْمُنَاقَضَاتِ . لِمَا فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ بِمَا يُسْتَشْهَدُ بِهِ مِنْ وَاقِعَةٍ قَدِيمَةٍ اَوْ يَرِدُ عَلَيْهِ فِي مُكَاتَبَةٍ مِنْ ذِكْرِ اَيَّامٍ مَشْهُورَةٍ اَوْ ذِكْرِ فَارِسٍ مُعَيَّنٍ . . . وَامْثَالُ ذٰلِكَ فِي نَظَائِرِهِ كَثِيرَةٌ فِي ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ فَاِذَا لَمْ يَكُنْ صَاحِبُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ عَارِفًا بِكُلِّ يَوْمٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْاَيَّامِ عَالِمًا بِمَا جَرَى فِيهَا لَمْ يَدْرِ كَيْفَ يُجِيبُ عَمَّا يَرِدُ اِلَيْهِ مِنْ مِثْلِهَا وَلَا مَا يَقُولُ اِذَا سُئِلَ عَنْهَا وَحَسْبُهُ ذٰلِكَ نَقْصًا فِي صِنَاعَتِهِ وَقُصُورًا عَمَّا يَتَحَتَّمُ عَلَيْهِ مِنْ مَعْرِفَتِهِ وَحُسْنِ ٱلْجَوَابِ فِيهِ عِنْدَ ٱلسُّؤَالِ عَنْهُ

ثُمَّ (ٱلنَّظَرُ فِي ٱلتَّوَارِيخِ) وَمَعْرِفَةُ اَخْبَارِ ٱلدُّوَلِ مِنَ ٱلْاِطِّلَاعِ عَلَى سِيَرِ ٱلْمُلُوكِ وَسِيَاسَاتِهِمْ وَذِكْرِ وَقَائِعِهِمْ وَمَكَائِدِهِمْ فِي حُرُوبِهِمْ وَمَا اتَّفَقَ لَهُمْ مِنَ ٱلتَّجَارِبِ ٱلَّتِي بَلَغُوا بِهَا اَقْصَى ٱلْمَآرِبِ وَغَدَتْ لِمَنْ بَعْدَهُمْ كَٱلْمِرْآةِ ٱلَّتِي تُصَوِّرُ لَهُمْ وُجُودَ ٱلتَّدْبِيرِ وَتُرِيهِمْ مَا ٱسْتَتَرَ عَنْهُمْ مِنْ صَغِيرِ اَحْوَالِهِمْ وَٱلْكَبِيرِ . فَاِنَّهُ قَدْ يُضْطَرُّ اِلَى ٱلسُّؤَالِ عَنْ اَحْوَالِ مَنْ سَلَفَ مِنْ اَوَّلِ ٱلْعَصْرِ وَاِلَى ٱلْآنَ وَيُسْتَخْبَرُ كَيْفَ كَانَ ٱلْاَمْرُ بَيْنَ زَيْدٍ وَعَمْرٍو وَكَيْفَ ٱنْتَصَرَ فُلَانٌ عَلَى فُلَانٍ . اَوْ يَرِدُ عَلَيْهِ فِي كِتَابٍ ذِكْرُ وَاقِعَةٍ بِعَيْنِهَا اَوْ يُحْتَجُّ عَلَيْهِ بِصُورَةٍ قَدِيمَةٍ فَلَا يَعْرِفُ حَقِيقَتَهَا مِنْ مَجَازِهَا وَلَا صِدْقَهَا مِنْ مَيْنِهَا

ثُمَّ (حِفْظُ اَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ) وَمُطَالَعَةُ شُرُوحِهَا وَٱسْتِكْشَافُ غَوَامِضِهَا وَٱلتَّوَفُّرُ عَلَى مَا ٱخْتَارَهُ ٱلْعُلَمَاءُ مِنْهَا كَٱلْحَمَاسَةِ وَٱلْمُفَضَّلِيَّاتِ وَٱلْاَصْمَعِيَّاتِ وَدِيوَانِ ٱلْهُذَلِيِّينَ وَمَا اَشْبَهَ ذٰلِكَ لِمَا فِي

ذٰلِكَ مِنْ غَزَارَةِ ٱلْمَوَادِّ وَصِحَّةِ ٱلِٱسْتِشْهَادِ وَكَثْرَةِ ٱلنَّقْلِ وَصَقْلِ مِرْآةِ ٱلْعَقْلِ وَٱنْتِزَاعِ ٱلْأَمْثَالِ وَٱلْأَخْذِ فِي ٱخْتِرَاعِ ٱلْمَعَانِي عَلَى أَصَحِّ مِثَالٍ وَٱلِٱطِّلَاعِ عَلَى أُصُولِ ٱللُّغَةِ وَشَوَاهِدِهَا وَٱلِٱضْطِلَاعِ مِنْ نَوَادِرِ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَشَوَارِدِهَا . وَقَدْ كَانَ ٱلصَّدْرُ ٱلْأَوَّلُ يَعْتَنُونَ بِذٰلِكَ غَايَةَ ٱلِٱعْتِنَاءِ . فَذُكِرَ أَنَّ عُمَرَ كَانَ يُقَدِّمُ زُهَيْرَ بْنَ أَبِي سُلْمَى فِي ٱلشِّعْرِ فَقِيلَ لَهُ : بِمَ ٱسْتَحَقَّ ذٰلِكَ عِنْدَكَ . فَقَالَ : كَانَ لَا يُعَاظِلُ بَيْنَ ٱلْقَوْلِ وَلَا يَتَّبِعُ حُوشِيَّ ٱلْكَلَامِ وَلَا يَصِفُ ٱلرَّجُلَ إِلَّا بِمَا يَكُونُ فِي ٱلرِّجَالِ . فَإِذَا أَكْثَرَ ٱلْمُتَرَشِّحُ لِلْكِتَابَةِ مِنْ حِفْظِ خِيَارِ ٱلشِّعْرِ وَتَدَبَّرَ مَعَانِيَهُ يَسْهُلُ عَلَيْهِ حَلُّهُ وَظَهَرَتْ لَهُ مَوَاضِعُ ٱلِٱسْتِشْهَادِ بِهِ وَسَاقَهُ ٱلْكَلَامُ إِلَى إِبْرَازِ مَا فِي ذَخِيرَةِ حِفْظِهِ وَوَضْعِهِ فِي مَكَانِهِ وَنَقْلِهِ فِي ٱلِٱسْتِشْهَادِ أَوِ ٱلتَّضْمِينِ إِلَى مَا كَأَنَّهُ وُضِعَ لَهُ . . . .

وَكَذٰلِكَ حِفْظُ جَانِبٍ جَيِّدٍ مِنْ شِعْرِ ٱلْمُحْدَثِينَ كَأَبِي تَمَّامٍ وَمُسْلِمِ ٱبْنِ ٱلْوَلِيدِ وَٱلْبُحْتُرِيِّ وَٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ وَٱلْمُتَنَبِّي لِلُطْفِ مَأْخَذِهِمْ وَدَوَرَانِ ٱلصِّنَاعَةِ فِي كَلَامِهِمْ وَدِقَّةِ تَوْلِيدِ ٱلْمَعَانِي فِي أَشْعَارِهِمْ وَقُرْبِ أُسْلُوبِهِمْ مِنْ أُسْلُوبِ ٱلْخِطَابَةِ وَٱلْكِتَابَةِ وَخُصُوصًا ٱلْمُتَنَبِّي ٱلَّذِي كَأَنَّهُ يَنْطِقُ عَنْ أَلْسِنَةِ ٱلنَّاسِ فِي مُحَاوَرَاتِهِمْ . وَكَثُرَ ٱلِٱسْتِشْهَادُ لِشِعْرِهِ حَتَّى قَلَّ مَنْ يَجْهَلُهُ وَحَتَّى ٱكْتُفِيَ بِٱلْبَيْتِ ٱلْوَاحِدِ فِي ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلْقَصْدِ وَبُلُوغِ ٱلْغَرَضِ فِي ٱلْجَوَابِ كَمَا كَتَبَ بَعْضُ مُلُوكِ ٱلْعَرَبِ إِلَى مَنْ كَرَّرَ كُتُبَهُ وَأَرْسَلَهُ إِلَيْهِ بِقَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي :

وَلَا كُتْبَ إِلَّا ٱلْمَشْرَفِيَّةُ عِنْدَهُ ... وَلَا رُسُلٌ إِلَّا ٱلْخَمِيسُ ٱلْعَرَمْرَمُ

وَكَذٰلِكَ ٱلنَّظَرُ فِي رَسَائِلِ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ دُونَ حِفْظِهَا لِمَا فِي ٱلنَّظَرِ فِيهَا مِنْ تَنْقِيحِ ٱلْقَرِيحَةِ وَإِرْشَادِ ٱلْخَاطِرِ وَتَسْهِيلِ ٱلطُّرُقِ وَٱلنَّسْجِ عَلَى مِنْوَالِ ٱلْمُجِيدِ وَٱلِٱقْتِدَاءِ بِطَرِيقَةِ ٱلْمُحْسِنِ وَٱسْتِجْلَاءِ مَا ٱنْتَجَتْهُ ٱلْقَرَائِحُ مِنْ أَبْكَارِ ٱلْأَفْكَارِ وَٱسْتِجْلَاءِ مَا رَوَّقَتْهُ ٱلْخَوَاطِرُ مِنْ حِيَاضِ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱسْتِدْرَاكِ مَا فَاتَ ٱلْقَاصِرَ وَٱلِٱحْتِرَازِ مِمَّا أَظْهَرَهُ ٱلنَّقْدُ وَرَدِّ مَا بَهْرَجَهُ ٱلسَّبْكُ . فَأَمَّا ٱلنَّهْيُ عَنْ حِفْظِ ذٰلِكَ فَلِئَلَّا يَكِلَّ ٱلْخَاطِرُ عَمَّا فِي حَاصِلِهِ وَيَسْتَنِدَ ٱلْفِكْرُ إِلَى مَا فِي مُودَعِهِ وَيَكْتَفِيَ بِمَا لَيْسَ لَهُ وَيَتَلَبَّسَ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ ....

وَكَذٰلِكَ (ٱلنَّظَرُ فِي كُتُبِ ٱلْأَمْثَالِ) ٱلْوَارِدَةِ عَنِ ٱلْعَرَبِ نَظْمًا وَنَثْرًا كَأَمْثَالِ ٱلْمَيْدَانِيِّ وَٱلْفَضْلِ بْنِ سَلَمَةَ ٱلضَّبِّيِّ وَحَمْزَةَ ٱلْأَصْبَهَانِيِّ وَغَيْرِهِمْ وَأَمْثَالِ ٱلْمُحْدَثِينَ ٱلْوَارِدَةِ فِي أَشْعَارِهِمْ كَأَبِي ٱلْعَتَاهِيَةِ وَأَبِي تَمَّامٍ وَٱلْمُتَنَبِّي وَأَمْثَالِ ٱلْمُوَلَّدِينَ وَٱلْأَمْثَالِ ٱلْمَوْضُوعَةِ عَلَى أَلْسُنِ ٱلْحَيَوَانِ لِلْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ لِيَسْتَشْهِدَ بِٱلْمَثَلِ فِي مَوْضِعِهِ وَيُورِدَهُ فِي مَكَانِهِ وَيَكُونَ مِنْ وَرَاءِ ٱلْمَعْرِفَةِ بِأَصْلِهِ وَأَوَّلِ مَنْ أَرْسَلَهُ مَثَلًا وَمَنِ ٱسْتَشْهَدَ بِهِ وَذِكْرِ سَبَبِهِ ....

وَأَمَّا (ٱلتَّمَثُّلُ بِٱلشِّعْرِ) فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ عُمَرَ تَمَثَّلَ يَوْمًا بِقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ :

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أَخًا لَا تَلُمُّهُ عَلَى شَعَثٍ أَيُّ ٱلرِّجَالِ ٱلْمُهَذَّبُ

ثُمَّ قَالَ : لِمَنْ هٰذَا . فَقِيلَ لَهُ : لِلنَّابِغَةِ . فَقَالَ : ذَاكَ أَشْعَرُ شُعَرَائِكُمْ . وَسَأَلَ عُمَرُ ٱبْنَ عَبَّاسٍ عَنْ شَيْءٍ فَأَجَابَهُ عَنْهُ فَأَعْجَبَهُ جَوَابُهُ فَقَالَ :

شِنْشِنَةٌ أَعرِفُهَا مِنْ أَخزَمِ . وَأَمثَالُ ذٰلِكَ مِمَّا تَمَثَّلَ بِهِ ٱلصَّحَابَةُ كَثِيرٌ .

وَكَذٰلِكَ ٱلنَّظَرُ فِي (ٱلأَحكَامِ ٱلسُّلطَانِيَّةِ) فَإِنَّهُ قَدْ يُؤمَرُ بِأَمرٍ فَيَعرِفُ بِهَا كَيفَ يُخَلِّصُ قَلَمَهُ عَلَى حُكْمِ ٱلشَّرِيعَةِ ٱلْمُطَهَّرَةِ مِنْ وِلَايَةِ ٱلْقَضَاءِ وَٱلْحِسبَةِ وَغَيرِ ذٰلِكَ . فَهٰذِهِ أُمُورٌ كُلِّيَّةٌ لَا بُدَّ لِلْمُتَرَشِّحِ لِهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مِنَ ٱلتَّصَدِّي لِلاِطِّلَاعِ عَلَيهَا وَٱلْإِكبَابِ عَلَى مُطَالَعَتِهَا وَٱلِاستِكثَارِ مِنهَا. يُنفِقُ مِنْ تِلكَ ٱلْمَوَادِّ وَيَسلُكُ فِي ٱلْوُصُولِ إِلَى تِلكَ ٱلصِّنَاعَةِ بِذٰلِكَ ٱلْجَوَادِ وَإِلَّا فَلْيَعلَمْ أَنَّهُ فِي وَادٍ وَٱلْكِتَابَةُ فِي وَادٍ

وَأَمَّا ٱلْأُمُورُ ٱلْخَاصَّةُ ٱلَّتِي تَزِيدُ مَعرِفَتُهَا قَدْرَهُ وَيُزَيِّنُ ٱلعِلْمُ بِهَا نَظْمَهُ وَنَثْرَهُ فَإِنَّهَا مِنَ ٱلْمُكَمِّلَاتِ لِهٰذَا ٱلْفَنِّ وَإِنْ لَمْ يُضْطَرَّ إِلَيهَا ذُو ٱلذِّهْنِ ٱلثَّاقِبِ وَٱلطَّبْعِ ٱلسَّلِيمِ وَٱلْقَرِيحَةِ ٱلْمُطَاوِعَةِ وَٱلْفِكْرَةِ ٱلْمُنَقَّحَةِ وَٱلْبَدِيهَةِ ٱلْمُجِيبَةِ وَٱلرَّوِيَّةِ ٱلْمُتَصَرِّفَةِ. لٰكِنَّ ٱلْعَالِمَ بِهَا مُتَمَكِّنٌ مِنْ أَزِمَّةِ ٱلْمَعَانِي يَقُولُ عَنْ عِلْمٍ وَيَتَصَرَّفُ عَنْ مَعْرِفَةٍ وَيَنْتَقِدُ بِحُجَّةٍ وَيَتَخَيَّرُ بِدَلِيلٍ وَيَسْتَحْسِنُ بِبُرْهَانٍ وَيَصُوغُ ٱلْكَلَامَ بِتَرْتِيبٍ

فَمِنْ ذٰلِكَ (عِلْمُ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانُ وَٱلْبَدِيعُ) وَمَا يَلْحَقُ بِهَا وَأَنَا أُشِيرُ ٱلْآنَ إِلَى نُكَتٍ مِنْهَا تَدُلُّ عَلَى جَلَالَةِ قَدْرِ هٰذَا ٱلْعِلْمِ وَعِظَمِ ٱلْفَائِدَةِ بِهِ وَأَنَّ ٱلْأَدِيبَ وَٱلْكَاتِبَ ٱلْعَارِيَيْنِ مِنْهُ قَاصِرَانِ عَنْ أَدْنَى رُتَبِ ٱلْكَمَالِ يُجِيدَانِ وَلَا يَدْرِيَانِ كَيفَ يُجِيبَانِ . فَلَوْ سُئِلَ عَنْ عِلَّةِ مَعْنًى ٱسْتَحْسَنَهُ أَوْ لَفْظٍ ٱسْتَحْلَاهُ أَوْ تَرْكِيبٍ ٱسْتَجَادَهُ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى ٱلْإِتْيَانِ بِدَلِيلٍ عَلَى ذٰلِكَ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ :

يَا أَبَا جَعْفَرٍ أَتَحْكُمُ فِي ٱلشِّعْرِ م وَمَا فِيكَ آلَةُ ٱلْحُكَّامِ

إِنَّ نَقْدَ ٱلدِّينَارِ إِلَّا عَلَى ٱلصَّرْ فِي صَعْبٌ فَكَيْفَ نَقْدُ ٱلْكَلَامِ
قَدْ رَأَيْنَاكَ لَسْتَ تَفْرِقُ فِي ٱلأَ م شْعَارِ بَيْنَ ٱلْأَرْوَاحِ وَٱلْأَجْسَامِ

وَحَكَى ٱلْإِمَامُ عَبْدُ ٱلْقَاهِرِ ٱلْجُرْجَانِيُّ قَالَ : رَكِبَ ٱلْكِنْدِيُّ ٱلْمُتَفَلْسِفُ إِلَى أَبِي ٱلْعَبَّاسِ وَقَالَ لَهُ : إِنِّي أَجِدُ فِي كَلَامِ ٱلْعَرَبِ حَشْوًا . فَقَالَ لَهُ أَبُو ٱلْعَبَّاسِ : فِي أَيِّ مَوْضِعٍ وَجَدتَّ ذٰلِكَ . قَالَ : وَجَدتُّ ٱلْعَرَبَ تَقُولُ : عَبْدُ ٱللهِ قَائِمٌ . ثُمَّ يَقُولُونَ : إِنَّ عَبْدَ ٱللهِ قَائِمٌ . ثُمَّ يَقُولُونَ : إِنَّ عَبْدَ ٱللهِ لَقَائِمٌ . فَٱلْأَلْفَاظُ مُتَكَرِّرَةٌ وَٱلْمَعْنَى وَاحِدٌ . فَقَالَ أَبُو ٱلْعَبَّاسِ : بَلِ ٱلْمَعَانِي مُخْتَلِفَةٌ لِٱخْتِلَافِ ٱلْأَلْفَاظِ . فَقَوْلُهُمْ : عَبْدُ ٱللهِ قَائِمٌ إِخْبَارٌ عَنْ قِيَامِهِ . وَقَوْلُهُمْ : إِنَّ عَبْدَ ٱللهِ قَائِمٌ جَوَابٌ عَنْ سُؤَالِ سَائِلٍ . وَقَوْلُهُمْ : إِنَّ عَبْدَ ٱللهِ لَقَائِمٌ جَوَابٌ عَنْ إِنْكَارِ مُنْكِرٍ قِيَامَهُ . فَمَا أَحَارَ ٱلْمُتَفَلْسِفُ جَوَابًا . فَإِذَا ذَهَبَ مِثْلُ هٰذَا عَلَى ٱلْكِنْدِيِّ فَمَا ٱلظَّنُّ بِغَيْرِهِ . وَإِنْ كَانَ مِنْ مَحَاسِنِ ٱلْكَلَامِ مَا لَا يَحْكُمُ فِي ٱمْتِزَاجِهِ بِٱلْقُلُوبِ غَيْرُ ٱلذَّوْقِ ٱلسَّلِيمِ كَمَا قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

شَيْءٌ بِهِ فُتِنَ ٱلْوَرَى غَيْرُ ٱلَّذِي يُدْعَى ٱلْجَمَالَ وَلَسْتُ أَدْرِي مَا هُوَ

لٰكِنَّ ٱلْغَالِبَ فِي ٱلْكَلَامِ يُعْلَمُ سَبَبُ تَحْسِينِهِ وَتُعَلَّلُ مَوَادُّ تَمْكِينِهِ وَيُجَابُ عَنِ ٱلْعِلَّةِ فِي ٱنْحِطَاطِهِ وَٱرْتِفَاعِهِ وَيُذْكَرُ ٱلْمَعْنَى فِي ٱرْتِقَائِهِ مِنْ حَضِيضِ ٱلْقَوْلِ إِلَى أَيْفَاعِهِ



ألجزء الأول

في علم الانشاء

بحث في تعريف الانشاء

(عن ابي الخير وعن آداب المنشئ لابن صدر الدين)

(راجع الجزء الاول من علم الادب صفحة ١)

إنَّ ٱلإِنْشَاء عِلْمٌ يُبْحَثُ فِيهِ عَنِ ٱلْمَنْثُورِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ بَلِيغٌ وَفَصِيحٌ وَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى ٱلْآدَابِ ٱلْمُعْتَبَرَةِ عِنْدَهُمْ فِي ٱلْعِبَارَاتِ ٱلْمُسْتَحْسَنَةِ وَٱللَّائِقَةِ بِٱلْمَقَامِ . وَمَوْضُوعُهُ وَغَرَضُهُ وَغَايَتُهُ ظَاهِرَةٌ مِمَّا ذُكِرَ وَمَبَادِيهِ مَأْخُوذَةٌ مِنْ تَتَبُّعِ ٱلْخُطَبِ وَٱلرَّسَائِلِ بَلْ لَهُ ٱسْتِمْدَادٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلْعُلُومِ سِيَّمَا ٱلْحِكْمَةِ ٱلْعَمَلِيَّةِ وَٱلْعُلُومِ ٱلشَّرْعِيَّةِ وَسِيَرِ ٱلْمُلُوكِ وَوَصَايَا ٱلْعُقَلَاءِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلْغَيْرِ ٱلْمُتَنَاهِيَةِ . هٰذَا مَا ذَكَرَهُ أَبُو ٱلْخَيْرِ . وَيَنْدَرِجُ فِيهِ مَا أَوْرَدَهُ فِي عِلْمِ مَبَادِئِ ٱلْإِنْشَاء وَأَدَوَاتِهِ فَلَا وَجْهَ لِجَعْلِهِ عِلْمًا آخَرَ . وَأَمَّا ٱبْنُ صَدْرِ ٱلدِّينِ فَإِنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ سِوَى مَعْرِفَةِ ٱلْمَحَاسِنِ وَٱلْمَعَايِبِ وَنُبْذَةً مِنْ آدَابِ ٱلْمُنْشِئِ . وَزُبْدَةُ كَلَامِهِ أَنَّ لِلنَّثْرِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ نَثْرٌ مَحَاسِنُ وَمَعَايِبُ يَجِبُ عَلَى ٱلْمُنْشِئِ أَنْ يَفْرِقَ بَيْنَهُمَا فَيَتَحَرَّزَ عَنِ ٱلْمَعَايِبِ . وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ أَعْلَى كَعْبًا فِي ٱلْعَرَبِيَّةِ مُحْتَرِزًا عَنِ ٱسْتِعْمَالِ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْغَرِيبَةِ وَمَا يُخِلُّ لَهُ بِفَهْمِ ٱلْمُرَادِ وَيُوجِبُ

صُعُوبَتَهُ وَانْ يَتَحرَّزَ عَنِ ٱلتَّكْرَارِ وَانْ يَجْعَلَ ٱلْالْفَاظَ تَابِعَةً لِلْمَعَانِي دُونَ ٱلْعَكْسِ . اِذِ ٱلْمَعَانِي اِذَا تَرَكَّبَتْ عَلَى سَجِيَّتِهَا طَلَبَتْ لِأَنْفُسِهَا ٱلْفَاظًا تَلِيقُ بِهَا فَيَحْسُنُ ٱللَّفْظُ وَٱلْمَعْنَى جَمِيعًا . وَامَّا جَعْلُ ٱلْأَلْفَاظِ مُتَكَلِّفَةً وَٱلْمَعَانِي تَابِعَةً لَهَا فَهُوَ كَلِبَاسٍ مَلِيحٍ عَلَى مَنْظَرٍ قَبِيحٍ فَيَجِبُ اَنْ يَجْتَنِبَ عَمَّا يَفْعَلُهُ بَعْضُ مَنْ لَهُمْ شَغَفٌ بِايرَادِ شَيْءٍ مِنَ ٱلْمُحَسِّنَاتِ ٱللَّفْظِيَّةِ فَيَصْرِفُونَ ٱلْعِنَايَةَ اِلَى ٱلْمُحَسِّنَاتِ وَيَجْعَلُونَ ٱلْكَلَامَ كَأَنَّهُ غَيْرُ مَسُوقٍ لِإِفَادَةِ ٱلْمَعْنَى فَلَا يُبَالُونَ بِخَفَاءِ ٱلدَّلَالَاتِ وَرَكَاكَةِ ٱلْمَعْنَى . وَمِنْ اَعْظَمِ مَا يَلِيقُ لِمَنْ يَتَعَاطَى ٱلْإِنْشَاءَ اَنْ يَكْتُبَ مَا يُرَادُ لَا مَا يُرِيدُ . كَمَا قِيلَ فِي ٱلصَّاحِبِ وَٱلصَّابِئِ : اِنَّ ٱلصَّابِئَ يَكْتُبُ مَا يُرَادُ وَٱلصَّاحِبُ يَكْتُبُ مَا يُرِيدُ . وَلَا بُدَّ اَنْ يُلَاحَظَ فِي كِتَابِ ٱلنَّثْرِ حَالُ ٱلْمُرْسِلِ وَٱلْمُرْسَلِ اِلَيْهِ وَيُعَنْوِنَ ٱلْكِتَابُ بِمَا يُنَاسِبُ ٱلْمَقَامَ



الفصل الاول

في الفصاحة

البحث الاوَّل

في تحديد الفصاحة

(عن الفصاحة والبلاغة للامام السيوطي باختصار)

(راجع صفحة ٣ من الجزء الاول من علم الادب)

اَلْفَصَاحَةُ لُغَةً تُنبِئُ عَنِ ٱلْإِبَانَةِ وَٱلظُّهُورِ يُقَالُ: فَصُحَ ٱلْأَعْجَمِيُّ وَأَفْصَحَ إِذَا ٱنْطَلَقَ لِسَانُهُ وَخَلَصَتْ لُغَتُهُ مِنَ ٱللُّكْنَةِ وَجَادَتْ فَلَمْ يَلْحَنْ. وَأَفْصَحَ بِهِ أَيْ صَرَّحَ. وَعِنْدَ أَهْلِ ٱلْمَعَانِي تُطْلَقُ عَلَى مَعَانٍ مِنْهَا: وَصْفٌ فِي ٱلْكَلَامِ بِهِ يَقَعُ ٱلتَّفَاضُلُ وَيَثْبُتُ ٱلْإِعْجَازُ. قَالَ ٱلْإِمَامُ فَخْرُ ٱلدِّينِ ٱلرَّازِيُّ: ٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْفَصَاحَةَ خُلُوصُ ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلتَّعْقِيدِ. وَأَصْلُهَا مِنْ قَوْلِهِمْ: أَفْصَحَ ٱللَّبَنُ إِذَا ذَهَبَتْ عَنْهُ ٱلرَّغْوَةُ. وَهِيَ بِٱلِٱصْطِلَاحِ: عِبَارَةٌ عَنِ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْبَيِّنَةِ ٱلظَّاهِرَةِ ٱلْمُتَبَادِرَةِ إِلَى ٱلْفَهْمِ وَٱلْمَأْنُوسَةِ ٱلِٱسْتِعْمَالِ لِمَكَانِ حُسْنِهَا

البحث الثاني

في الفرق بين الفصاحة والبلاغة وموضوعهما

(عن كتاب الصناعتين الكتابة والانشاء لابي هلال العسكري باختصار)

اَلْبَلَاغَةُ مِنْ قَوْلِهِمْ: بَلَغْتُ ٱلْغَايَةَ إِذَا ٱنْتَهَيْتُ إِلَيْهَا وَبَلَّغْتُهَا

غيري. ومبلغ الشيء منتهاه . والمبالغة في الشيء الانتهاء الى غايته. فسميت البلاغة بلاغة لأنها تنهي المعنى الى قلب السامع فيفهمه وسميت البلغة بلغة لأنك تتبلغ بها فتنتهي بك الى ما فوقها وهي البلاغ ايضاً. ويقال: الدنيا بلاغ لانها تؤديك الى الآخرة. والبلاغ ايضاً التبليغ . ومنه : هذا بلاغ للناس اي تبليغ. ويقال: بلغ الرجل بلاغة اذا صار بليغاً كما يقال نبل نبالة اذا صار نبيلاً. وكلام بليغ وبلغ (بالفتح) كما يقال وجيز ووجز . ورجل بلغ (بالكسر) يبلغ ما يريد وفي مثل لهم: احمق بلغ . ويقال : ابلغت في الكلام اذا اتيت بالبلاغة فيه كما تقول : ابرحت اذا اتيت بالبرحاء وهو الامر الجسيم . والبلاغة من صفة المتكلم فلهذا لا يجوز ان يسمى الله عز وجل بانه بليغ اذ لا يجوز ان يوصف بصفة كان موضوعها للكلام وتسميتنا المتكلم بانه بليغ توسع وحقيقته ان كلامه بليغ كما تقول : فلان رجل محكم وتعني ان افعاله محكمة . وكذلك كثرة الاستعمال جعلت تسمية المتكلم بانه بليغ كالحقيقة

اما الفصاحة فقد قال قوم انها من قولهم : افصح فلان عما في نفسه اذا اظهره . والشاهد على انها هي الاظهار قول العرب افصح الصبح اذا اضاء وفصح ايضاً . وافصح الاعجمي اذا ابان بعد ان لم يكن يبين وفصح اللحان اذا عبر عما في نفسه واظهره على جهة الصواب دون الخطإ . واذا كان الامر على هذا فالفصاحة

وَٱلْبَلَاغَةُ بِمَعْنًى وَاحِدٍ إِذَا كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِنَّمَا هُوَ ٱلْإِبَانَةُ عَنِ ٱلْمَعْنَى وَٱلْإِظْهَارُ لَهُ . وَقَالَ بَعْضُ عُلَمَائِنَا: ٱلْفَصَاحَةُ تَمَامُ آلَةِ ٱلْبَيَانِ . فَلِهٰذَا لَا يَجُوزُ أَنْ يُسَمَّى ٱللّٰهُ تَعَالَى فَصِيحًا إِذَا كَانَتِ ٱلْفَصَاحَةُ تَتَضَمَّنُ مَعْنَى ٱلْآلَةِ وَلَا يَجُوزُ عَلَى ٱللّٰهِ تَعَالَى ٱلْآلَةُ . وَيُوصَفُ كَلَامُهُ بِٱلْفَصَاحَةِ لِمَا يَتَضَمَّنُ مِنْ تَمَامِ ٱلْبَيَانِ . وَٱلدَّلِيلُ عَلَى ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْأَلْثَغَ وَٱلتَّمْتَامَ لَا يُسَمَّيَانِ فَصِيحَيْنِ لِنُقْصَانِ آلَتِهِمَا عَنْ إِقَامَةِ ٱلْحُرُوفِ . وَقِيلَ: زِيَادٌ ٱلْأَعْجَمُ . لِنُقْصَانِ آلَةِ نُطْقِهِ عَنْ إِقَامَةِ ٱلْحُرُوفِ وَكَانَ يُعَبِّرُ عَنِ ٱلْحِمَارِ بِٱلْهِمَارِ فَهُوَ أَعْجَمُ وَشِعْرُهُ فَصِيحٌ لِتَمَامِ بَيَانِهِ . فَعَلَى هٰذَا تَكُونُ ٱلْفَصَاحَةُ وَٱلْبَلَاغَةُ مُخْتَلِفَتَيْنِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْفَصَاحَةَ تَمَامُ آلَةِ ٱلْبَيَانِ فَهِيَ مَقْصُورَةٌ عَلَى ٱللَّفْظِ لِأَنَّ ٱلْآلَةَ تَتَعَلَّقُ بِٱللَّفْظِ دُونَ ٱلْمَعْنَى . وَٱلْبَلَاغَةُ إِنَّمَا هِيَ إِنْهَاءُ ٱلْمَعْنَى فِي ٱلْقَلْبِ فَكَأَنَّهَا مَقْصُورَةٌ عَلَى ٱلْمَعْنَى . وَمِنَ ٱلدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ ٱلْفَصَاحَةَ تَتَضَمَّنُ ٱللَّفْظَ وَٱلْبَلَاغَةَ تَتَنَاوَلُ ٱلْمَعْنَى أَنَّ ٱلْبَبْغَاءَ يُسَمَّى فَصِيحًا وَلَا يُسَمَّى بَلِيغًا إِذْ هُوَ مُقِيمُ ٱلْحُرُوفِ وَلَيْسَ لَهُ قَصْدٌ إِلَى ٱلْمَعْنَى ٱلَّذِي يُؤَدِّيهِ . وَقَدْ يَجُوزُ مَعَ هٰذَا أَنْ يُسَمَّى ٱلْكَلَامُ ٱلْوَاحِدُ فَصِيحًا بَلِيغًا إِذَا كَانَ وَاضِحَ ٱلْمَعْنَى سَهْلَ ٱللَّفْظِ وَجَيِّدَ ٱلسَّبْكِ غَيْرَ مُسْتَكْرَهٍ فَجٍّ وَلَا مُتَكَلَّفٍ وَخِمٍ وَلَا يَمْنَعُهُ مِنْ أَحَدِ ٱلْإِسْمَيْنِ شَيْءٌ لِمَا فِيهِ مِنْ إِيضَاحِ ٱلْمَعْنَى وَتَقْوِيمِ ٱلْحُرُوفِ . وَشَهِدْتُ قَوْمًا يَذْهَبُونَ إِلَى أَنَّ ٱلْكَلَامَ لَا يُسَمَّى فَصِيحًا حَتَّى يَجْمَعَ مَعَ هٰذِهِ ٱلنُّعُوتِ فَخَامَةً وَشِدَّةَ جَزَالَةٍ فَيَكُونَ مِثْلَ كَلَامِ ٱلْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ : إِنَّ ٱلنَّاسَ عَبِيدُ ٱلْأَمْوَالِ وَٱلدِّينُ لَغْوٌ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ يَحُوطُونَهُ مَا دَرَّتْ بِهِ مَعَايِشُهُمْ فَإِذَا

مُحِّصوا بِالْابتلاءِ قلَّ الدَّيَّانونَ . ومثلُ المنظومِ قولُ الشاعرِ :

تَرى غابَةَ الخَطِّيِّ فوقَ رؤوسِهِمْ ... كما اشرقَتْ فوقَ الصِّوارِ قرونُها

(قالوا) وإذا كانَ الكلامُ يجمعُ نعوتَ الجودةِ ولمْ يكنْ فيهِ فخامةٌ وفضلُ جزالةٍ سُمِّيَ بليغًا ثمَّ فصيحًا كقولِ بعضِهِمْ وقدْ سُئِلَ عنْ حالِهِ عندَ الوفاةِ فقالَ : ما حالُ منْ يريدُ سفرًا بعيدًا بلا زادٍ ويُقدِمُ على مَلِكٍ عادلٍ بغيرِ حُجَّةٍ ويسكنُ قبرًا موحشًا بلا انيسٍ . وقولِ آخرَ لِأخٍ لهُ : مددتَ الى المودَّةِ يدًا فشكرناكَ وشفعتَ ذلكَ بشيءٍ منَ الجفاءِ فعذرناكَ والرجوعُ الى محمودِ الودِّ أولى بكَ منَ المقامِ على مكروهِ الصدِّ . واستدلُّوا على صحَّةِ هذا المذهبِ بقولِ العاصي بنِ عديٍّ : الشجاعةُ قلبٌ ركينٌ والفصاحةُ لسانٌ رزينٌ . واللسانُ ها هنا الكلامُ . والرزينُ الذي فيهِ فخامةٌ وجزالةٌ وليسَ الغرضُ في هذا الكتابِ سلوكَ مذهبِ المتكلِّمينَ . وإنَّما قصدتُ فيهِ مقصدَ صُنَّاعِ الكلامِ منَ الشعراءِ والكُتَّابِ فلهذا لمْ أُطِلِ الكلامَ في هذا الفصلِ

البحث الثالث

في حقيقة الفصاحة

(عن المثل السائر)

(راجع صفحة ٣ من علم الادب)

إعلمْ أنَّ هذا بابٌ متعذِّرٌ على الوالجِ ومسلكٌ متوعِّرٌ على

ٱلنَّاهِجِ وَلَمْ يَزَلِ ٱلْعُلَمَاءُ مِنْ قَدِيمِ ٱلْوَقْتِ وَحَدِيثِهِ يُكْثِرُونَ ٱلْقَوْلَ فِيهِ وَٱلْبَحْثَ عَنْهُ وَلَمْ اجِدْ مِنْ ذٰلِكَ مَا يُعَوَّلُ عَلَيْهِ اِلَّا ٱلْقَلِيلَ . وَغَايَةُ مَا يُقَالُ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ انَّ ٱلْفَصَاحَةَ هِيَ ٱلظُّهُورُ وَٱلْبَيَانُ فِي اَصْلِ ٱلْوَضْعِ ٱللُّغَوِيِّ يُقَالُ: اَفْصَحَ ٱلصُّبْحُ اِذَا ظَهَرَ ثُمَّ اِنَّهُمْ يَقِفُونَ عِنْدَ ذٰلِكَ وَلَا يَكْشِفُونَ عَنِ ٱلسِّرِّ فِيهِ . وَبِهٰذَا ٱلْقَوْلِ لَا تَتَبَيَّنُ حَقِيقَةُ ٱلْفَصَاحَةِ لِاَنَّهُ يُعْتَرَضُ عَلَيْهِ بِوُجُوهٍ مِنَ ٱلِاعْتِرَاضَاتِ . (اَحَدُهَا) : اَنَّهُ اِذَا لَمْ يَكُنِ ٱللَّفْظُ ظَاهِرًا بَيِّنًا لَمْ يَكُنْ فَصِيحًا ثُمَّ اِذَا ظَهَرَ وَتَبَيَّنَ صَارَ فَصِيحًا. (ٱلْوَجْهُ ٱلثَّانِي) : اَنَّهُ اِذَا كَانَ ٱللَّفْظُ ٱلْفَصِيحُ هُوَ ٱلظَّاهِرَ ٱلْبَيِّنَ فَقَدْ صَارَ ذٰلِكَ بِٱلنِّسَبِ وَٱلْاِضَافَاتِ اِلَى ٱلْاَشْخَاصِ فَاِنَّ ٱللَّفْظَ قَدْ يَكُونُ ظَاهِرًا لِزَيْدٍ وَلَا يَكُونُ ظَاهِرًا لِعَمْرٍو فَهُوَ اِذَنْ فَصِيحٌ عِنْدَ هٰذَا وَغَيْرُ فَصِيحٍ عِنْدَ هٰذَا . وَلَيْسَ كَذٰلِكَ بَلِ ٱلْفَصِيحُ هُوَ فَصِيحٌ عِنْدَ ٱلْجَمِيعِ لَا خِلَافَ فِيهِ بِحَالٍ مِنَ ٱلْاَحْوَالِ لِاَنَّهُ اِذَا تَحَقَّقَ حَدُّ ٱلْفَصَاحَةِ وَعُرِفَ مَا هِيَ لَمْ يَبْقَ فِي ٱللَّفْظِ ٱلَّذِي يَخْتَصُّ بِهِ خِلَافٌ . (ٱلْوَجْهُ ٱلثَّالِثُ) : اَنَّهُ اِذَا جِيءَ بِلَفْظٍ قَبِيحٍ يَنْبُو عَنْهُ ٱلسَّمْعُ وَهُوَ مَعَ ذٰلِكَ ظَاهِرٌ بَيِّنٌ يَنْبَغِي اَنْ يَكُونَ فَصِيحًا وَلَيْسَ كَذٰلِكَ لِاَنَّ ٱلْفَصَاحَةَ وَصْفُ حُسْنٍ لِلَّفْظِ لَا وَصْفُ قُبْحٍ . فَهٰذِهِ ٱلِاعْتِرَاضَاتُ ٱلثَّلَاثَةُ وَارِدَةٌ عَلَى قَوْلِ ٱلْقَائِلِ اِنَّ ٱللَّفْظَ ٱلْفَصِيحَ هُوَ ٱلظَّاهِرُ ٱلْبَيِّنُ مِنْ غَيْرِ تَفْصِيلٍ . وَلَمَّا وَقَفْتُ عَلَى اَقْوَالِ ٱلنَّاسِ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ مَلَكَتْنِي ٱلْحَيْرَةُ فِيهَا وَلَمْ يَثْبُتْ عِنْدِي مِنْهَا مَا اُعَوِّلُ عَلَيْهِ وَلِكَثْرَةِ مُلَابَسَتِي هٰذَا ٱلْفَنَّ وَمُعَارَكَتِي اِيَّاهُ ٱنْكَشَفَ لِيَ ٱلسِّرُّ فِيهِ وَسَاُوضِحُهُ فِي كِتَابِي هٰذَا

وَاحقق القول فيه فاقول : ان الكلام الفصيح هو الظاهر البين واعني بالظاهر البين ان تكون الفاظه مفهومة لايحتاج في فهمها الى استخراج من كتاب لغة . وانما كانت بهذه الصفة لانها تكون مألوفة الاستعمال بين ارباب النظم والنثر دائرة في كلامهم . وانما كانت مألوفة الاستعمال دائرة في الكلام دون غيرها من الالفاظ لمكان حسنها . وذلك ان ارباب النظم والنثر غربلوا اللغة باعتبار الفاظها وسبروا وقسموا فاختاروا الحسن من الالفاظ فاستعملوه ونفوا القبيح منها فلم يستعملوه فحسن الاستعمال سبب استعمالها دون غيرها واستعمالها سبب ظهورها وبيانها . فالفصيح اذن من الالفاظ هو الحسن . فان قيل : من اي وجه علم ارباب النظم والنثر الحسن من الالفاظ حتى استعملوه وعلموا القبيح منها حتى نفوه ولم يستعملوه . قلت في الجواب : ان هذا من الامور المحسوسة التي شاهدها من نفسها لان الالفاظ داخلة في حيز الاصوات فالذي يستلذه السمع منها ويميل اليه هو الحسن والذي يكرهه وينفر عنه القبيح . الا ترى ان السمع يستلذ صوت البلبل من الطير وصوت الشحرور ويميل اليهما ويكره صوت الغراب وينفر عنه وكذلك يكره نهيق الحمار ولا يجد ذلك في صهيل الفرس . والالفاظ جارية هذا المجرى . فانه لا خلاف في ان لفظة المزنة والديمة حسنة يستلذها السمع . وان لفظة البعاق قبيحة يكرهها السمع . وهذه اللفظات الثلاث من صفة المطر وهي تدل على معنى واحد . ومع هذا فانك ترى لفظتي المزنة

وَالدِّيمَةِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهُمَا مَأْلُوفَتَيِ الْاِسْتِعْمَالِ وَتَرَى لَفْظَ الْبُعَاقِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهُ مَتْرُوكًا لَا يُسْتَعْمَلُ . وَإِنِ اسْتُعْمِلَ فَإِنَّمَا يَسْتَعْمِلُهُ جَاهِلٌ بِحَقِيقَةِ الْفَصَاحَةِ اوْ ذَوْقُهُ غَيْرُ ذَوْقٍ سَلِيمٍ وَإِنْ كَانَ عَرَبِيًّا مَحْضًا مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأَقْدَمِينَ فَإِنَّ حَقِيقَةَ الشَّيْءِ إِذَا عُلِمَتْ وَجَبَ الْوُقُوفُ عِنْدَهَا وَلَمْ يُعَرَّجْ عَلَى مَا خَرَجَ عَنْهَا . وَإِذَنْ ثَبَتَتْ انَّ الْفَصِيحَ مِنَ الْأَلْفَاظِ هُوَ الظَّاهِرُ الْبَيِّنُ وَإِنَّمَا كَانَ ظَاهِرًا بَيِّنًا لِأَنَّهُ مَأْلُوفُ الْاِسْتِعْمَال وَإِنَّمَا كَانَ مَأْلُوفَ الْاِسْتِعْمَالِ لِمَكَانِ حُسْنِهِ وَحُسْنُهُ مُدْرَكٌ بِالسَّمْعِ . وَالَّذِي يُدْرَكُ بِالسَّمْعِ إِنَّمَا هُوَ اللَّفْظُ لِأَنَّهُ صَوْتٌ يَأْتَلِفُ عَنْ مَخَارِجِ الْحُرُوفِ فَمَا اسْتَلَذَّهُ السَّمْعُ مِنْهُ فَهُوَ الْحَسَنُ وَمَا كَرِهَهُ فَهُوَ الْقَبِيحُ وَالْحَسَنُ هُوَ الْمَوْصُوفُ بِالْفَصَاحَةِ وَالْقَبِيحُ غَيْرُ مَوْصُوفٍ بِفَصَاحَةٍ لِأَنَّهُ ضِدُّهَا لِمَكَانِ قُبْحِهِ . وَقَدْ مَثَّلْتُ الْمِثَالَ الْمُتَقَدِّمَ بِلَفْظَةِ الْمُزْنَةِ وَالدِّيمَةِ وَلَفْظَةِ الْبُعَاقِ وَلَوْ كَانَتِ الْفَصَاحَةُ لِأَمْرٍ يَرْجِعُ إِلَى الْمَعْنَى لَكَانَتْ هٰذِهِ الْأَلْفَاظُ فِي الدَّلَالَةِ عَلَيْهِ سَوَاءٌ لَيْسَ مِنْهَا حَسَنٌ وَمِنْهَا قَبِيحٌ . وَلَمَّا لَمْ يَكُنْ كَذٰلِكَ عَلِمْنَا انَّهَا تَخُصُّ اللَّفْظَ دُونَ الْمَعْنَى . وَلَيْسَ لِقَائِلٍ هٰهُنَا انْ يَقُولَ لَا لَفْظَ إِلَّا بِمَعْنًى فَكَيْفَ فَصَلْتَ أَنْتَ بَيْنَ اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى . قُلْتُ : لَمْ افْصِلْ بَيْنَهُمَا وَإِنَّمَا خَصَّصْتُ اللَّفْظَ بِصِفَةٍ هِيَ لَهُ وَالْمَعْنَى يَجِيءُ فِيهِ ضِمْنًا وَتَبَعًا



البحث الرابع

في احكام الفصاحة وشروطها

(عن المثل السائر)

(راجع صفحة ٣و٤ من علم الادب)

اِعلَمْ انَّهُ يَحتاجُ صَاحِبُ هٰذِهِ الصِّناعَةِ في تأليفِهِ الى ثلاثةِ اشياءَ : (الاوّلُ) مِنها اختيارُ الالفاظِ المُفردةِ . وحُكمُ ذٰلكَ حُكمُ اللآلئِ المبدَّدةِ فانها تُتَخيَّرُ وتُنتقَى قبلَ النظمِ . (الثاني) نظمُ كلِّ كلمةٍ معَ اختها في المشاكلةِ لها لئلَّا يجيءَ الكلامُ قلقًا نافرًا عن مواضعهِ وحُكمُ ذٰلكَ حُكمُ العقدِ المنظومِ في اقترانِ كلِّ لؤلؤةٍ منهُ باختها المشاكلةِ لها . (الثالثُ) الغرضُ المقصودُ من ذٰلكَ الكلامِ على اختلافِ انواعهِ وحُكمُ ذٰلكَ حُكمُ الموضعِ الذي يوضعُ فيهِ العقدُ المنظومُ فتارةً يُجعلُ اكليلًا على الرأسِ وتارةً يُجعلُ قلادةً في العُنقِ وتارةً يُجعلُ شَنفًا في الأذنِ ولكلِّ موضعٍ من هٰذهِ المواضعِ هيئةٌ من الحُسنِ تخصُّهُ . فهٰذهِ ثلاثةُ اشياءَ لا بُدَّ للخطيبِ والشاعرِ من العنايةِ بها وهي الاصلُ المُعتمَدُ عليهِ في تأليفِ الكلامِ من النظمِ والنثرِ . فالاوَّلُ والثاني من هٰذهِ الثلاثةِ المذكورةِ هما المرادُ بالفصاحةِ . والثلاثةُ بجملتها هي المرادُ بالبلاغةِ. وهٰذا الموضعُ يَضِلُّ في سلوكِ طريقهِ العلماءُ بصناعةِ صوغِ الكلامِ من النظمِ والنثرِ فكيفَ الجهّالُ الذينَ لم تنفحهم رائحتُهُ . ومن

ٱلَّذِي يُؤْتِيهِ ٱللهُ فِطْرَةً نَاصِعَةً يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى مَا يَسْتَعْمِلُهُ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ فَيَضَعَهَا فِي مَوَاضِعِهَا

وَقَدْ ذَكَرَ مَنْ تَقَدَّمَنِي مِنْ عُلَمَاءِ ٱلْبَيَانِ لِلْأَلْفَاظِ ٱلْمُفْرَدَةِ خَصَائِصَ وَهَيْئَاتٍ تَتَّصِفُ بِهَا وَٱخْتَلَفُوا فِي ذٰلِكَ وَٱسْتَحْسَنَ أَحَدُهُمْ شَيْئًا فَخُولِفَ فِيهِ وَكَذٰلِكَ ٱسْتَقْبَحَ ٱلْآخَرُ شَيْئًا فَخُولِفَ فِيهِ . وَلَوْ حَقَّقُوا ٱلنَّظَرَ وَوَقَفُوا عَلَى ٱلسِّرِّ فِي ٱتِّصَافِ بَعْضِ ٱلْأَلْفَاظِ بِٱلْحُسْنِ وَبَعْضِهَا بِٱلْقُبْحِ لَمَا كَانَ بَيْنَهُمْ خِلَافٌ فِي شَيْءٍ مِنْهَا

وَقَدْ رَأَيْتُ جَمَاعَةً مِنَ ٱلْجُهَّالِ إِذَا قِيلَ لِأَحَدِهِمْ إِنَّ هٰذِهِ ٱللَّفْظَةَ حَسَنَةٌ وَهٰذِهِ قَبِيحَةٌ أَنْكَرَ ذٰلِكَ وَقَالَ: كُلُّ ٱلْأَلْفَاظِ حَسَنٌ وَٱلْوَاضِعُ لَمْ يَضَعْ إِلَّا حَسَنًا . وَمَنْ يَبْلُغْ جَهْلُهُ إِلَى أَنْ لَا يُفَرِّقَ بَيْنَ لَفْظَةِ ٱلْغُصْنِ وَلَفْظَةِ ٱلْعُسْلُوجِ وَبَيْنَ لَفْظَةِ ٱلْمُدَامَةِ وَلَفْظَةِ ٱلْإِسْفَنْطِ وَبَيْنَ لَفْظَةِ ٱلسَّيْفِ وَلَفْظَةِ ٱلْخَنْشَلِيلِ وَبَيْنَ لَفْظَةِ ٱلْأَسَدِ وَلَفْظَةِ ٱلْفَدَوْكَسِ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُخَاطَبَ بِخِطَابٍ وَيُجَاوَبَ بِجَوَابٍ

وَقَدْ بَقِيَتْ هُنَاكَ أَوْصَافٌ أُخَرُ يَنْبَغِي أَنْ يُنَبَّهَ عَلَيْهَا . فَمِنْهَا أَنْ لَا تَكُونَ ٱلْكَلِمَةُ وَحْشِيَّةً . وَقَدْ خَفِيَ ٱلْوَحْشِيُّ عَلَى جَمَاعَةٍ مِنَ ٱلْمُنْتَمِينَ إِلَى صِنَاعَةِ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ وَظَنُّوهُ ٱلْمُسْتَقْبَحَ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَلَيْسَ كَذٰلِكَ بَلِ ٱلْوَحْشِيُّ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ أَحَدُهُمَا غَرِيبٌ حَسَنٌ وَٱلْآخَرُ غَرِيبٌ قَبِيحٌ . وَذٰلِكَ أَنَّهُ مَنْسُوبٌ إِلَى ٱسْمِ ٱلْوَحْشِ ٱلَّذِي يَسْكُنُ ٱلْقِفَارَ وَلَيْسَ بِأَنِيسٍ وَكَذٰلِكَ ٱلْأَلْفَاظُ ٱلَّتِي لَمْ تَكُنْ مَأْنُوسَةَ ٱلْاِسْتِعْمَالِ . وَلَيْسَ مِنْ شَرْطِ ٱلْوَحْشِ أَنْ يَكُونَ مُسْتَقْبَحًا بَلْ أَنْ يَكُونَ نَافِرًا لَا يَأْلَفُ

ٱلإِنس فتارةً يكونُ حسنًا وتارةً يكون قبيحًا . وعلى هذا فإنَّ احد قسمي ٱلوحشيِّ وهو ٱلغريبُ ٱلحسنُ يختلفُ باختلافِ ٱلنِّسبِ وٱلإِضافاتِ . وامَّا ٱلقسمُ ٱلآخرُ من ٱلوحشيِّ ٱلَّذي هو قبيحٌ فإنَّ ٱلنَّاسَ في ٱستقباحِهِ سواءٌ ولا يختلفُ بهِ عربيٌّ بادٍ ولا قرويٌّ متحضرٌ. واحسنُ ٱلألفاظِ ما كانَ مألوفًا متداولًا لِأنَّهُ لم يكنْ مألوفًا متداولًا إِلَّا لِمكانِ حُسنِهِ وقد تقدَّمَ ٱلكلامُ على ذلكَ في بابِ ٱلفصاحةِ . فإنَّ اربابَ ٱلخطابةِ وٱلشِّعرِ نظروا إِلى ٱلألفاظِ ونقَّبوا عنها ثُمَّ عدلوا إِلى ٱلأحسنِ منها فاستعملوهُ وتركوا ما سواهُ وهو ايضًا يتفاوتُ في درجاتِ حُسنِهِ فالألفاظُ إِذن تنقسمُ ثلاثةَ اقسامٍ : قسمانِ حسنانِ وقسمٌ قبيحٌ . فالقسمانِ ٱلحسنانِ احدُهما ما تداولَ ٱستعمالَهُ ٱلأوَّلُ وٱلآخرُ من ٱلزَّمنِ ٱلقديمِ إِلى زمانِنا هذا ولا يُطلقُ عليهِ انَّهُ وحشيٌّ. وٱلآخرُ ما تداولَ ٱستعمالَهُ ٱلأوَّلُ دونَ ٱلآخرِ ويختلفُ في ٱستعمالِهِ بالنِّسبةِ إِلى ٱلزَّمنِ واهلِهِ وهذا هو ٱلَّذي لا يُعابُ ٱستعمالُهُ عندَ ٱلعربِ لِأنَّهُ لم يكنْ عندهم وحشيًّا وهو عندنا وحشيٌّ

ولا يَسبقْ وهمكَ ايُّها ٱلمتأمّلُ إِلى قولِ ٱلقائلِ ٱلَّذي غلبَ عليهِ غلظُ ٱلطَّبعِ وفجاجةُ ٱلذِّهنِ بأنَّ ٱلعربَ كانت تستعملُ من ٱلألفاظِ كذا وكذا فهذا دليلٌ على انَّهُ حسنٌ . بل ينبغي ان تعلمَ انَّ ٱلَّذي نستحسنُهُ نحنُ في زمانِنا هذا هو ٱلَّذي كانَ عندَ ٱلعربِ مستحسنًا وٱلَّذي نستقبحُهُ هو ٱلَّذي كانَ عندهم مستقبحًا . وٱلإِستعمالُ ليسَ بدليلٍ على ٱلحسنِ فإِنَّا نحنُ نستعملُ ٱلآنَ من ٱلكلامِ ما

ليس بحسن وانما نستعمله لضرورة فليس استعمال الحسن بممكن في كل الاحوال . وهذا طريق يضل بغير العارف بمسالكه ومن لم يعرف صناعة النظم والنثر وما يجده صاحبها من الكلفة في صوغ الالفاظ واختيارها فانه معذور في ان يقول ما قال :

لا يعرف الحزن الا من يكابده ولا الصبابة الا من يعانيها

ومع هذا فان قول القائل : بان العرب كانت تستعمل من الالفاظ كذا وكذا وهذا دليل على انه حسن. قول فاسد لا يصدر الا عن جاهل. فان استحسان الالفاظ واستقباحها لا يؤخذ بالتقليد من العرب لانه شيء ليس التقليد فيه مجال وانما هو شيء له خصائص وهيئات وعلامات اذا وجدت علم حسنه من قبحه. واما الذي نقلد العرب فيه من الالفاظ فانما هو الاستشهاد باشعارها على ما ينقل من لغتها والاخذ باقوالها في الاوضاع النحوية في رفع الفاعل ونصب المفعول وجر المضاف اليه وجزم الشرط واشباه ذلك وما عداه فلا . وحسن الالفاظ وقبحها ليس اضافيا الى زيد دون عمرو او الى عمرو دون زيد لانه وصف ذوقي لا يتغير الا بالاضافة . الا ترى ان لفظة المزنة مثلا حسنة عند الناس كافة من العرب وغيرهم وهلم جرا لا يختلف احد في حسنها . وكذلك لفظة البعاق فانها قبيحة عند الناس كافة من العرب وغيرهم فاذا استعملتها العرب لا يكون استعمالهم اياها مخرجا لها عن القبح ولا يلتفت اذن الى استعمالهم اياها بل يعاب مستعملها ويغلظ له النكير حيث استعملها

فَلَا تَظُنَّ اَنَّ ٱلْوَحْشِيَّ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ مَا يَكْرَهُهُ سَمْعُكَ وَيَثْقُلُ عَلَيْكَ ٱلنُّطْقُ بِهِ وَإِنَّمَا هُوَ ٱلْغَرِيبُ ٱلَّذِي يَقِلُّ ٱسْتِعْمَالُهُ فَتَارَةً يَخِفُّ عَلَى سَمْعِكَ وَلَا تَجِدُ بِهِ كَرَاهَةً وَتَارَةً يَثْقُلُ عَلَى سَمْعِكَ وَتَجِدُ مِنْهُ ٱلْكَرَاهَةَ . وَذٰلِكَ فِي ٱللَّفْظِ عَيْبَانِ : (اَحَدُهُمَا) اَنَّهُ غَرِيبُ ٱلِاسْتِعْمَالِ (وَٱلْآخَرُ) اَنَّهُ ثَقِيلٌ عَلَى ٱلسَّمْعِ كَرِيهٌ عَلَى ٱلذَّوْقِ . وَإِذَا كَانَ ٱللَّفْظُ بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ فَلَا مَزِيدَ عَلَى فَظَاظَتِهِ وَغَلَاظَتِهِ وَهُوَ ٱلَّذِي يُسَمَّى ٱلْوَحْشِيَّ ٱلْغَلِيظَ وَيُسَمَّى اَيْضًا ٱلْمُتَوَعِّرَ وَلَيْسَ وَرَاءَهُ فِي ٱلْقُبْحِ دَرَجَةٌ اُخْرَى وَلَا يَسْتَعْمِلُهُ إِلَّا اَجْهَلُ ٱلنَّاسِ مِمَّنْ لَمْ يَخْطُرْ بِبَالِهِ شَيْءٌ مِنْ مَعْرِفَةِ هٰذَا ٱلْفَنِّ اَصْلًا . فَإِنْ قِيلَ : فَمَا هٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ . قُلْتُ : قَدْ ثَبَتَ لَكَ اَنَّهُ مَا كَرِهَهُ سَمْعُكَ وَثَقُلَ عَلَى لِسَانِكَ ٱلنُّطْقُ بِهِ . وَسَاَضْرِبُ لَكَ فِي ذٰلِكَ مِثَالًا فَمِنْهُ مَا وَرَدَ لِتَاَبَّطَ شَرًّا فِي كِتَابِ ٱلْحَمَاسَةِ :

يَظَلُّ بِمَوْمَاةٍ وَيُمْسِي بِغَيْرِهَا   جَحِيشًا وَيَعْرَوْرِي ظُهُورَ ٱلْمَسَالِكِ

فَإِنَّ لَفْظَةَ (جَحِيشٍ) مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُنْكَرَةِ ٱلْقَبِيحَةِ . وَيَا لِلّٰهِ ٱلْعَجَبُ اَلَيْسَ اَنَّهَا بِمَعْنَى (فَرِيدٍ) وَفَرِيدٌ لَفْظَةٌ حَسَنَةٌ رَائِقَةٌ وَلَوْ وُضِعَتْ فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ مَوْضِعَ جَحِيشٍ لَمَا اخْتَلَّ شَيْئًا مِنْ وَزْنِهِ . فَتَاَبَّطَ شَرًّا مَلُومٌ مِنْ وَجْهَيْنِ فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ : اَحَدُهُمَا اَنَّهُ ٱسْتَعْمَلَ ٱلْقَبِيحَ . وَٱلْآخَرُ اَنَّهُ كَانَتْ لَهُ مَنْدُوحَةٌ عَنِ ٱسْتِعْمَالِهِ فَلَمْ يَعْدِلْ عَنْهُ . وَمِمَّا هُوَ اَقْبَحُ مِنْهَا مَا وَرَدَ لِاَبِي تَمَّامٍ قَوْلُهُ :

قَدْ قُلْتُ لَمَّا اَطْلَخَمَّ ٱلْأَمْرُ وَٱنْبَعَثَتْ   عَشْوَاءُ تَالِيَةٌ غُبْسًا دَهَارِيسَا

فلفظة (اطلخمّ) من الألفاظ المنكرة التي جمعت الوصفين القبيحين في انها غريبة وانها غليظة في السمع كريهة على الذوق وكذلك لفظة (دهاريس) ايضاً . وعلى هذا ورد قوله من ابيات يصف فرساً من جملتها :

نِعمَ متاعُ الدنيا حباكَ بهِ ... اروعُ لا جيدرٌ ولا جِبسُ

فلفظة (جيدر) غليظة . واغلظ منها قول ابي الطيّب المتنبي :

جفخت وهم لا يجفخون بها بهم ... شيمٌ على الحسب الاغرّ دلائلُ

فانّ لفظة (جفخ) مرّة الطعم واذا مرّت على السمع اقشعرّ منها وابو الطيّب في استعمالها كاستعمال تأبط شرًّا لفظة جحيش . فانّ تأبط شرًّا كانت له مندوحة عن استعمال تلك اللفظة كما اشرنا فيما تقدّم . وكذلك ابو الطيّب في استعمال هذه اللفظة التي هي جفخت فانّ معناها فخرت والجفخ الفخر يقال : جفخ فلانٌ اذا فخر . ولو استعمل عوضاً عن جفخت فخرت لاستقام البيت وحظي في استعماله بالاحسن . وما اعلم كيف يذهب هذا وامثاله على مثل هؤلاء الفحول من الشعراء . وهذا الذي ذكرته وما يجري مجراه من الالفاظ هو الوحشيّ الغليظ الذي ليس له ما يدانيه في قبحه وكراهته . وهذه الامثلة دليلٌ على ما اوردناه . والعرب اذن لا تلام على استعمال الغريب الحسن من الالفاظ وانما تلام على الغريب القبيح . واما الحضريّ فانه على استعمال القسمين معاً وهو في احدهما اشدّ ملامةً منه في الآخر

البحث الخامس

في الالفاظ المترادفة والاسماء المشتركة

(عن المثل السائر لابن الاثير)

(راجع صفحة ٦ من علم الادب)

وَيفتقِرُ مُؤَلِّفُ ٱلكَلَامِ إِلَى معرِفَةِ عِدَّةِ أَسْمَاءٍ لِمَا يَقَعُ ٱسْتِعْمَالُهُ فِي ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ لِيَجِدَ إِذَا ضَاقَ بِهِ مَوْضِعٌ فِي كَلَامِهِ بِإِيرَادِ بَعْضِ ٱلأَلْفَاظِ فِيهِ ٱلعُدُولَ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ مِمَّا هُوَ فِي مَعْنَاهُ . وَهٰذِهِ ٱلأَسْمَاءُ تُسَمَّى ٱلمُتَرَادِفَةَ وَهِيَ ٱتِّحَادُ ٱلمُسَمَّى وَٱخْتِلَافُ أَسْمَائِهِ كَقَوْلِنَا: ٱلخَمْرُ وَٱلرَّاحُ وَٱلمُدَامُ . فَإِنَّ ٱلمُسَمَّى بِهٰذِهِ ٱلأَسْمَاءِ شَيْءٌ وَاحِدٌ وَأَسْمَاؤُهُ كَثِيرَةٌ . وَكَذٰلِكَ يَحْتَاجُ إِلَى مَعْرِفَةِ ٱلأَسْمَاءِ ٱلمُشْتَرَكَةِ لِيَسْتَعِينَ بِهَا عَلَى ٱسْتِعْمَالِ ٱلتَّجْنِيسِ فِي كَلَامِهِ وَهِيَ ٱتِّحَادُ ٱلِٱسْمِ وَٱخْتِلَافُ ٱلمُسَمَّيَاتِ . كَٱلعَيْنِ فَإِنَّهَا تُطْلَقُ عَلَى ٱلعَيْنِ ٱلنَّاظِرَةِ وَعَلَى يَنْبُوعِ ٱلمَاءِ وَعَلَى ٱلمَطَرِ وَغَيْرِهِ . إِلَّا أَنَّ ٱلمُشْتَرَكَةَ تَفْتَقِرُ فِي ٱلِٱسْتِعْمَالِ إِلَى قَرِينَةٍ تُخَصِّصُهَا كَيْ لَا تَكُونَ مُبْهَمَةً . لِأَنَّا إِذَا قُلْنَا: عَيْنٌ . ثُمَّ سَكَتْنَا وَقَعَ ذٰلِكَ عَلَى مُحْتَمَلَاتٍ كَثِيرَةٍ مِنَ ٱلعَيْنِ ٱلنَّاظِرَةِ وَٱلعَيْنِ ٱلنَّابِعَةِ وَٱلمَطَرِ وَغَيْرِهِ مِمَّا هُوَ مَوْضُوعٌ بِإِزَاءِ هٰذَا ٱلِٱسْمِ . وَإِذَا قُرِنَ إِلَيْهِ قَرِينَةٌ تُخَصِّصُهُ زَالَ ذٰلِكَ ٱلإِبْهَامُ بِأَنْ تَقُولَ: عَيْنٌ حَسْنَاءُ أَوْ عَيْنٌ نَضَّاخَةٌ أَوْ غَيْرَ ذٰلِكَ . وَهٰذَا مَوْضِعٌ لِلْعُلَمَاءِ فِيهِ مُجَاذَبَاتٌ جَدَلِيَّةٌ . فَمِنْهُمْ مَنْ يُنْكِرُ أَنْ يَكُونَ ٱللَّفْظُ ٱلمُشْتَرَكُ حَقِيقَةً فِي ٱلمَعْنَيَيْنِ جَمِيعًا وَيَقُولُ :

إنَّ ذٰلكَ يُخِلُّ بفائدةِ وَضعِ ٱللُّغَةِ لِأنَّ ٱللُّغَةَ إنَّمَا هِيَ وَضعُ ٱلألفاظِ في دَلَالَتِهَا عَلَى ٱلمعاني اي وَضعُ ٱلأسماءِ عَلى ٱلمُسمَّيَاتِ لِتَكُونَ مُنبِئةً عنها عِندَ إطلاقِ ٱللَّفظِ وَٱلإشتِرَاكِ لا بَيَانَ فِيهِ وَإنَّمَا هُوَ ضِدُّ ٱلبَيَانِ. لَكِنَّ طَرِيقَ ٱلبَيَانِ انْ يُجعَلَ احدُ ٱلمَعنيَينِ في ٱللَّفظِ ٱلمُشتَرَكِ حَقِيقَةً وَٱلآخرُ مجَازِيًا. فَإذَا قُلنَا: هٰذِهِ كَلِمَةٌ. وَاطلَقنَا ٱلقَولَ فُهِمَ مِنهُ ٱللَّفظَةُ ٱلوَاحِدَةُ. وَإذَا قَيَّدنَا ٱللَّفظَ فَقُلنَا: هٰذِهِ كَلِمَةٌ شَاعِرَةٌ. فُهِمَ مِنهُ ٱلقَصِيدَةُ ٱلمُقَصَّدَةُ مِنَ ٱلشِّعرِ وَهِيَ مَجمُوعُ كَلِمَاتٍ كَثِيرَةٍ. وَلَو اطلَقنَا مِنْ غَيرِ تَقيِيدٍ وَارَدنَا ٱلقَصِيدَةَ مِنَ ٱلشِّعرِ لَمَا فُهِمَ مُرَادُنَا ٱلبَتَّةَ. هٰذَا خُلَاصَةُ مَا ذَهَبَ إلَيهِ مَن يُنكِرُ وُقُوعَ ٱللَّفظِ ٱلمُشتَرَكِ في ٱلمَعنيَينِ حَقِيقَةً. وَفي ذٰلِكَ مَا فِيهِ. وَسَأُبَيِّنُ مَا يَدخُلُهُ مِنَ ٱلخَلَلِ فَأقُولُ في ٱلجَوَابِ عَن ذٰلِكَ مَا ٱستَخرَجتُهُ بِفِكرِي وَلَم يَكُنْ لِأحَدٍ فِيهِ قَولٌ مِن قَبلِي وَهُوَ: امَّا قَولُكَ: إنَّ فَائدَةَ وَضعِ ٱللُّغَةِ إنَّمَا هُوَ ٱلبَيَانُ عِندَ إطلَاقِ ٱللَّفظِ وَٱللَّفظُ ٱلمُشتَرَكُ يُخِلُّ بِهٰذِهِ ٱلفَائدَةِ. فَهٰذَا غَيرُ مُسَلَّمٍ بَلْ فَائدَةُ وَضعِ ٱللُّغَةِ هُوَ ٱلبَيَانُ وَٱلتَّحسِينُ

(امَّا ٱلبَيَانُ) فَقَدْ وَفَى ٱلأسمَاءُ ٱلمُتَبَايِنَةُ ٱلَّتِي كُلُّ ٱسمٍ وَاحِدٍ دَلَّ عَلَى مُسَمًّى وَاحِدٍ. فَإذَا أُطلِقَ ٱللَّفظُ في هٰذِهِ ٱلأسمَاءِ كَانَ بَيِّنًا مَفهُومًا لَا يَحتَاجُ إلَى قَرِينَةٍ وَلَو لَم يَضَعِ ٱلوَاضِعُ مِنَ ٱلأسمَاءِ شَيئًا غَيرَهَا لَكَانَ كَافِيًا في ٱلبَيَانِ

(وَامَّا ٱلتَّحسِينُ) فَإنَّ ٱلوَاضِعَ لِهٰذِهِ ٱللُّغَةِ ٱلعَرَبِيَّةِ ٱلَّتِي هِيَ احسَنُ ٱللُّغَاتِ نَظَرًا إلَى مَا يَحتَاجُ إلَيهِ ارْبَابُ ٱلفَصَاحَةِ وَٱلبَلَاغَةِ فِيمَا يَصُوغُونَهُ

مِنْ نَظْمٍ وَنَثْرٍ ورَأَى أَنَّ مِنْ مُهِمَّاتِ ذٰلِكَ ٱلتَّجْنِيسَ وَلَا يَقُومُ بِهِ إِلَّا ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْمُشْتَرَكَةُ ٱلَّتِي هِيَ كُلُّ ٱسْمٍ وَاحِدٍ دَلَّ عَلَى مُسَمَّيَيْنِ فَصَاعِدًا فَوَضَعَهَا مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ . وَهٰذَا ٱلْمَوْضِعُ يَتَجَاذَبُهُ جَانِبَانِ يَتَرَجَّحُ أَحَدُهُمَا عَلَى ٱلْآخَرِ . وَبَيَانُهُ أَنَّ ٱلتَّحْسِينَ يَقْضِي بِوَضْعِ ٱلْأَسْمَاءِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ وَوَضْعُهَا يَذْهَبُ بِفَائِدَةِ ٱلْبَيَانِ عِنْدَ إِطْلَاقِ ٱللَّفْظِ . وَعَلَى هٰذَا فَإِنْ وَضَعَهَا ٱلْوَاضِعُ ذَهَبَ بِفَائِدَةِ ٱلْبَيَانِ وَإِنْ لَمْ يَضَعْ ذَهَبَ بِفَائِدَةِ ٱلتَّحْسِينِ. لٰكِنَّهُ إِنْ وَضَعَ ٱسْتَدْرَكَ مَا ذَهَبَ مِنْ فَائِدَةِ ٱلْبَيَانِ بِٱلْقَرِينَةِ وَإِنْ لَمْ يَضَعْ لَمْ يَسْتَدْرِكْ مَا ذَهَبَ مِنْ فَائِدَةِ ٱلتَّحْسِينِ فَتَرَجَّحَ حِينَئِذٍ جَانِبُ ٱلْوَضْعِ فَوُضِعَ

البحث السادس

في فصاحة المفرد وفصاحة المركّب

(من شرح بديعيَّة العميان لابن جابر الاندلسي باختصار)

(راجع صفحة ٥٩٤ من علم الادب)

اَلْفَصَاحَةُ فِي ٱلْمُفْرَدِ هِيَ أَنْ تَكُونَ مِمَّا ٱسْتَعْمَلَتِ ٱلْعَرَبُ ٱلْفُصَحَاءُ كَثِيرًا وَدَارَ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ فَسَلِمَ مِنْ سِتَّةِ أَشْيَاءَ . (ٱلْأَوَّلُ) : أَنْ لَا يَتَرَكَّبَ مِنْ حُرُوفٍ مُتَنَافِرَةٍ كَلَفْظَةِ (ٱلْعُخْعُخِ) وَهُوَ نَبْتٌ .سُئِلَ أَعْرَابِيٌّ عَنْ نَاقَتِهِ فَقَالَ : تَرَكْتُهَا تَرْعَى ٱلْعُخْعُخَ .وَإِنَّمَا تَنَافَرَتْ حُرُوفُ هٰذِهِ ٱلْكَلِمَةِ لِكَوْنِهَا مِنْ مَخْرَجٍ وَاحِدٍ وَهُوَ ٱلْحَلْقُ . (ٱلثَّانِي) : أَنْ لَا تَتَوَالَى فِيهِ أَكْثَرُ مِنْ حَرَكَتَيْنِ يَحْدُثُ بِسَبَبِهِمَا ثِقْلٌ . (ٱلثَّالِثُ) :

انْ لَا يَكُونَ مُتَنَاهِيًا فِي كَثْرَةِ ٱلْحُرُوفِ بِلَا زِيَادَةِ مَعْنًى نَحْوُ: خَنْدَرِيسٍ. وَلَا فِي قِلَّتِهَا نَحْوُ: حِدْ عَنْ ذَا ٱلْمَرْءِ. وَخَيْرُ ٱلْأُمُورِ اوْسَطُهَا وَهُوَ ٱلثُّلَاثِيُّ اِذْ لَا فَضْلَةَ فِيهِ عَمَّا يُحْتَاجُ اِلَيْهِ مِنْ حَرْفِ ٱلْاِبْتِدَاءِ وَحَرْفِ ٱلْوَقْفِ وَحَرْفٍ فَاصِلٍ بَيْنَ ٱلْوَقْفِ وَٱلْاِبْتِدَاءِ. امَّا لَوْ كَانَتْ زِيَادَةُ ٱلْحُرُوفِ تَدُلُّ عَلَى مَعْنًى زَائِدٍ لَكَانَتِ ٱللَّفْظَةُ فَصِيحَةً نَحْوُ: اَخْشَوْشَنَ. مَعْنَاهُ ازْيَدُ مِنْ خَشُنَ. (ٱلرَّابِعُ): انْ لَا يَكُونَ وَحْشِيًّا غَيْرَ مَأْلُوفٍ نَحْوُ: ٱلْاِسْفِنْطِ لِلْخَمْرِ وَٱلْخَنْشَلِيلِ لِلسَّيْفِ وَٱلْفَدَوْكَسِ لِلْاَسَدِ. فَهٰذِهِ ٱلْاَلْفَاظُ غَرِيبَةٌ يَمُجُّهَا ٱلطَّبْعُ وَلَا يُطَّلَعُ عَلَى مَعْنَاهَا اِلَّا بَعْدَ بَحْثٍ فِي كُتُبِ ٱللُّغَةِ. (ٱلْخَامِسُ): انْ لَا يَكُونَ مَبْذُولًا وَذٰلِكَ نَحْوُ انْ يَخْرُجَ ٱللَّفْظُ عَنْ اصْلِ وَضْعِهِ وَيُسْتَعْمَلُ فِي شَيْءٍ مُسْتَقْبَحٍ. (ٱلسَّادِسُ): انْ لَا يَكُونَ مُشْتَرَكًا بَيْنَ مَعْنَيَيْنِ احَدُهُمَا مَكْرُوهٌ كَمَا لَوْ قُلْتَ: لَقِيتُ فُلَانًا فَعَزَرْتُهُ. فَاِنَّهُ يَحْتَمِلُ ٱلْاِكْرَامَ وَٱلْاِهَانَةَ. فَلَوْ كَانَ فِي ٱلْكَلَامِ قَرِينَةٌ تَدُلُّ عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلْحَسَنِ لَكَانَ ٱللَّفْظُ فَصِيحًا كَقَوْلِكَ: لَقِيتُ فُلَانًا فَعَزَرْتُهُ وَنَصَرْتُهُ. فَلَفْظُ (نَصَرْتُهُ) يُعَيِّنُ فِيهِ ٱلْمَعْنَى ٱلْحَسَنَ. وَعَلَيْهِ يَكُونُ ٱللَّفْظُ حَسَنًا فِي نَفْسِهِ فَيُعَدُّ قَبِيحًا بِسَبَبِ مَحَلِّهِ مِنَ ٱلْكَلَامِ وَمَوْقِعِهِ مِنْهُ

وَامَّا ٱلْفَصَاحَةُ فِي ٱلتَّرْكِيبِ فَهُوَ انْ يَسْلَمَ مِنْ خَمْسَةِ اشْيَاءَ. (ٱلْاَوَّلُ): سَلَامَةُ مُفْرَدَاتِهِ مِنَ ٱلسِّتَّةِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْمُتَقَدِّمَةِ ٱلذِّكْرِ فِي ٱلْمُفْرَدِ لِاَنَّ لِلْمُرَكَّبِ حُكْمُ مَا تَرَكَّبَ مِنْهُ. (ٱلثَّانِي): انْ يَسْلَمَ مِنْ ضُعْفِ ٱلتَّأْلِيفِ وَهُوَ خُرُوجُهُ عَنْ قَوَاعِدِ ٱلْعَرَبِيَّةِ كَقَوْلِهِ:

جَزَا رَبُّهُ عَنِّي عَدِيَّ بْنَ حَاتِمٍ   جَزَاءَ ٱلْكِلَابِ ٱلْعَاوِيَاتِ وَقَدْ فَعَلْ

فَإِنَّهُ خَالَفَ ٱلْقِيَاسَ فِي إِعَادَةِ ٱلضَّمِيرِ فِي (رَبِّهِ) إِلَى عَدِيٍّ وَهُوَ مُتَأَخِّرٌ لَفْظًا وَمَعْنًى . وَٱلْقَاعِدَةُ ٱلْعَرَبِيَّةُ أَنْ يَعُودَ ٱلضَّمِيرُ عَلَى مَا قَبْلَهُ أَوْ عَلَى مَا بَعْدَهُ لَفْظًا لَا مَعْنًى . (ٱلثَّالِثُ) : أَنْ يَسْلَمَ مِنْ تَنَافُرِ ٱلْكَلِمَةِ وَذٰلِكَ أَنْ تَكُونَ ٱلْكَلِمَةُ حَالَ ٱلْإِفْرَادِ غَيْرَ مُتَنَافِرَةٍ فَإِذَا رُكِّبَتْ حَصَلَ ٱلتَّنَافُرُ نَحْوُ قَوْلِهِ :

وَقَبْرُ حَرْبٍ (١) بِمَكَانٍ قَفْرُ   وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ

قِيلَ : إِنَّ هٰذَا ٱلْبَيْتَ لَا يُمْكِنُ إِنْشَادُهُ فِي ٱلْغَالِبِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مُتَوَالِيَةٍ إِلَّا وَيَغْلَطُ ٱلْمُنْشِدُ فِيهِ لِأَنَّ نَفْسَ ٱجْتِمَاعِ ٱلْكَلَامِ وَٱلْقُرْبِ فِي ٱلْخَارِجِ يُحْدِثَانِ ثِقَلًا . وَإِذَا كَانَ ٱلتَّنَافُرُ فِي حُرُوفِ ٱلْكَلِمَةِ فَهُوَ رَاجِعٌ إِلَى عَدَمِ فَصَاحَةِ ٱلْمُفْرَدِ وَلَا يَسْلَمُ ٱلْمُرَكَّبُ مِنَ ٱلتَّنَافُرِ مَتَى تَسْلَمُ مُفْرَدَاتُهُ كَقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ :

كَرِيمٌ مَتَى أَمْدَحْهُ أَمْدَحْهُ وَٱلْوَرَى   مَعِي وَإِذَا مَا لُمْتُهُ لُمْتُهُ وَحْدِي

فَٱلتَّنَافُرُ فِيهِ مِنْ وَجْهِ تَكْرَارِ (أَمْدَحْهُ) لَا مِنْ وَجْهِ أَنَّ حُرُوفَ (أَمْدَحْهُ) مُتَنَافِرَةٌ لِٱجْتِمَاعِ حَرْفَيِ ٱلْحَلْقِ . (ٱلرَّابِعُ) : أَنْ يَسْلَمَ مِنَ ٱلتَّعْقِيدِ وَهُوَ إِيرَادُ كَلَامٍ خَفِيِّ ٱلدَّلَالَةِ عَلَى مَعْنَاهُ وَهُوَ مِنْ جِهَةِ ٱللَّفْظِ وَمِنْ جِهَةِ ٱلْمَعْنَى . فَمِنْ جِهَةِ ٱللَّفْظِ كَتَأْخِيرِ ٱلْأَلْفَاظِ وَتَقْدِيمِهَا عَلَى مَوَاضِعِهَا وَحُصُولِ ٱلْفَصْلِ إِذْ ذَاكَ بَيْنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُتَلَازِمَةِ كَقَوْلِ ٱلْفَرَزْدَقِ يَمْدَحُ إِبْرَاهِيمَ خَالَ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ :

---

(١) حرب اسم رجل

وَمَا مِثْلُهُ فِي ٱلنَّاسِ إِلَّا مُمَلَّكًا   أَبُو أُمِّهِ حَيٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهُ (١)

ٱلتَّقْدِيرُ: وَمَا مِثْلُهُ فِي ٱلنَّاسِ حَيٌّ يُقَارِبُهُ فِي ٱلشَّرَفِ إِلَّا مُمَلَّكٌ أَبُو أُمِّ ذٰلِكَ ٱلْمُمَلَّكِ أَبُو هٰذَا ٱلْمَمْدُوحِ. فَتَأَمَّلْ مَا فِيهِ مِنَ ٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ ٱلْمُؤْذِنِ بِٱلتَّعْقِيدِ ٱللَّفْظِيِّ . وَأَمَّا مِنْ جِهَةِ ٱلْمَعْنَى فَهُوَ أَنْ يُرِيدَ ٱلْمُتَكَلِّمُ ٱلدَّلَالَةَ فِي ٱللَّفْظِ عَلَى لَازِمِ مَعْنَاهُ فِي ٱعْتِقَادِهِ وَلَيْسَ كَذٰلِكَ فِي ٱلْمَشْهُورِ مِنْ كَلَامِ ٱلْفُصَحَاءِ كَقَوْلِ ٱلْعَبَّاسِ بْنِ ٱلْأَحْنَفِ :

سَأَطْلُبُ بُعْدَ ٱلدَّارِ عَنْكُمْ لِتَقْرُبُوا   وَتَسْكُبُ عَيْنَايَ ٱلدُّمُوعَ لِتَجْمُدَا (٢)

فَجَعَلَ سَكْبَ ٱلدُّمُوعِ كِنَايَةً عَمَّا يَلْزَمُ فِرَاقُ ٱلْأَحِبَّةِ مِنَ ٱلْكَآبَةِ وَٱلْحُزْنِ وَأَصَابَ . لٰكِنَّهُ أَخْطَأَ فِي جَعْلِ جُمُودِ ٱلْعَيْنِ كِنَايَةً عَمَّا يُوجِبُهُ دَوَامُ ٱلتَّلَاقِي مِنَ ٱلْفَرَحِ وَٱلسُّرُورِ لِأَعْتِقَادِهِ أَنَّ ٱلسُّرُورَ بِمَعْنَى ٱلْجُمُودِ . لِأَنَّ جُمُودَ ٱلْعَيْنِ عِنْدَ ٱلْفُصَحَاءِ إِنَّمَا يَلْزَمُ بُخْلَهَا بِٱلدُّمُوعِ عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ إِلَيْهِ لَا ٱلسُّرُورَ . وَٱعْلَمْ أَنَّ شَرَفَ ٱلدِّينِ ٱلطِّيبِيَّ جَعَلَ بَيْتَ ٱلْعَبَّاسِ (سَأَطْلُبُ بُعْدَ ٱلدَّارِ) مِنَ ٱلْمُطَابَقَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَلَيْسَ فِيهِ عِنْدَهُ تَعْقِيدٌ مَعْنَوِيٌّ لِأَنَّهُ رَأَى أَنَّ سَكْبَ ٱلدُّمُوعِ فِي ٱلْبَيْتِ عِبَارَةٌ عَنِ ٱلْحُزْنِ . وَٱلْجُمُودَ عِبَارَةٌ عَنِ ٱلسُّرُورِ فَحَصَلَتْ بَيْنَهُمَا مُطَابَقَةٌ بِهٰذَا ٱللَّفْظِ . وَجَعَلَ ٱلتَّعْقِيدَ ٱللَّفْظِيَّ فِيمَا يَحْدُثُ مِنَ ٱلثِّقَلِ مِنْ تَوَالِي ٱلْمُضَافَاتِ وَٱلضَّمَائِرِ وَٱلصِّفَاتِ وَٱلْأَفْعَالِ مِنْ غَيْرِ عَطْفٍ وَتَكْرَارِ ٱلْأَلْفَاظِ وَمَا جَرَى مَجْرَى

---

(١) اي ليس في الناس مثل الممدوح حيٌّ يقاربهُ الَّا ابن اختهِ وهو هشام المملَّك اي المعطى الملك

(٢) المعنى : اني اطيب نفساً بالبعد والفراق واوطنها على مقاساة الحزن واتجرع غصصاً تفيض لاجلها الدموع من عيني الى ان يأتي بعد العسر يسرٌ

ذٰلكَ . (اَلْخَامِسُ) اَنْ يَسْلَمَ مِنَ ٱلتَّكْرَارِ ٱلْمُوجِبِ فِي ٱلثِّقَلِ كَتَكْرَارِ ٱللَّفظَةِ ذَاتِهَا وَتَوَالِي ٱلْاِضَافَاتِ وَٱلصِّفَاتِ وَلَا يُخِلُّ بِٱلفَصَاحَةِ قَطْعًا تَكْرَارُ ٱللَّفظَةِ لِلتَّوكِيدِ وَاِنَّمَا يُعَابُ قُبْحُ ٱلتَّكْرَارِ بِلَا فَائِدَةٍ كَقَوْلِ بَعْضِهِم :

كُنْتُ كُنْتُ كَتَمْتُ ٱلسِّرَّ كُنْتُ كَمَا
كُنَّا وَكُنْتَ وَلٰكِنْ ذَاكَ لَمْ يَكُنِ

فَجَاءَتِ ٱلْحُرُوفُ قَلِقَةً مَكْدُودَةً غَيْرَ مُتَمَكِّنَةٍ فِي مَوَاضِعِهَا . (وَتَتَابُعِ ٱلاِضَافَاتِ) مِثْلُ قَوْلِ اَبِي فَائِدٍ :

حَمَامَةَ جَرْعَا حَوْمَةِ ٱلْجَنْدَلِ ٱسْجَعِي فَاَنْتِ بِمَرْأًى مِنْ سُعَادَ وَمَسْمَعِ (١)

فَفِيهِ اِضَافَةُ حَمَامَةٍ اِلَى جَرْعَا وَجَرْعَا اِلَى حَوْمَةٍ وَحَوْمَةٍ اِلَى ٱلْجَنْدَلِ . وَلَيْسَ هٰذَا بِفَصِيحٍ مَأْنُوسٍ

(وَتَوَالِي ٱلصِّفَاتِ) ذَكَرَهُ ٱلطِّيبِيُّ ذٰلِكَ مِمَّا يُحْدِثُ فِي ٱلْكَلَامِ ثِقَلًا وَٱسْتَشْهَدَ عَلَى ذٰلِكَ بِقَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي :

دَانٍ بَعِيدٌ مُحِبٌّ مُبْغِضٌ بَهِجٌ اَغَرُّ حُلْوٌ مُمِرٌّ لَيِّنٌ شَرِسُ

---

(١) الجرعا تخفيف الجرعاء ومؤنث الاجرع وهي ارض ذات رمل لا تنبت شيئًا . والحومة معظم الشيء . والجندل ارض ذات حجارة يقول : اسجعي يا حمامة ارضٍ قفرةٍ سبخة فان سعاد تراك وتسمعك



الفصل الثاني

في البلاغة

البحث الاول

في الابانة عن حدّ البلاغة

(من كتاب الصناعتين للعسكري)

(راجع صفحة ٩ من علم الادب)

اَلْبَلَاغَةُ كُلُّ مَا تُبَلِّغُ بِهِ ٱلْمَعْنَى قَلْبَ ٱلسَّامِعِ فَتُمَكِّنُهُ فِي نَفْسِهِ كَتَمَكُّنِهِ فِي نَفْسِكَ مَعَ صُورَةٍ مَقْبُولَةٍ وَمَعْرِضٍ حَسَنٍ . وَإِنَّمَا جَعَلْنَا حُسْنَ ٱلْمَعْرِضِ وَقَبُولَ ٱلصُّورَةِ شَرْطًا فِي ٱلْبَلَاغَةِ لِأَنَّ ٱلْكَلَامَ إِذَا كَانَتْ عِبَارَتُهُ رَثَّةً وَمَعْرِضُهُ خَلَقًا لَمْ يُسَمَّ بَلِيغًا وَإِنْ كَانَ مَفْهُومَ ٱلْمَعْنَى مَكْشُوفَ ٱلْمَغْزَى . أَلَا تَرَى إِلَى مَعْنَى ٱلْكَاتِبِ ٱلَّذِي كَتَبَ إِلَى بَعْضِ مُعَامِلِيهِ : ‹ قَدْ تَأَخَّرَ ٱلْأَمْرُ فِيمَا وَعَدْتَ حَمْلَهُ ضَحْوَةَ ٱلنَّهَارِ وَٱلْقَوْمُ غَيْرُ مُقِيمِينَ لَيْسَ لَهُمْ صَبْرٌ . فَإِنْ رَأَيْتَ فِي إِزَاحَةِ ٱلْعِلَّةِ مَعَ ٱلْجَهْدِ فَعَلْتَ إِنْ شَاءَ ٱللهُ › . فَمَعْنَاهُ مَفْهُومٌ وَمَغْزَاهُ مَعْلُومٌ وَلَيْسَ كَلَامُهُ بِبَلِيغٍ فَهٰذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مِنْ شَرْطِ ٱلْبَلَاغَةِ أَنْ يَكُونَ ٱلْمَعْنَى مَفْهُومًا وَٱللَّفْظُ مَقْبُولًا عَلَى مَا قَدَّمْنَاهُ . وَمَنْ قَالَ إِنَّ ٱلْبَلَاغَةَ إِنَّمَا هِيَ إِفْهَامُ ٱلْمَعْنَى فَقَطْ فَقَدْ جَعَلَ ٱلْفَصَاحَةَ وَٱللُّكْنَةَ وَٱلْخَطَأَ وَٱلصَّوَابَ وَٱلْإِغْلَاقَ

وَٱلْإِبَانَةَ سَوَاءٌ . وَأَيضًا فَلَوْ كَانَ ٱلْكَلَامُ ٱلْوَاضِحُ ٱلسَّهلُ وَٱلْقَرِيبُ ٱلسَّلِسُ ٱلْحُلْوُ بَلِيغًا وَمَا خَالَفَهُ مِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُسْتَبْهِمِ ٱلْمُسْتَغْلَقِ وَٱلْمُتَكَلِّفِ ٱلْمُتَعَقِّدِ أَيضًا بَلِيغًا لَكَانَ كُلُّ ذٰلِكَ مَحْمُودًا وَمَمْدُوحًا مَقْبُولًا لِأَنَّ ٱلْبَلَاغَةَ ٱسْمٌ يُمْدَحُ بِهِ ٱلْكَلَامُ . فَلَمَّا رَأَينَا أَحَدَهُمَا مُسْتَحْسَنًا وَٱلْآخَرَ مُسْتَهْجَنًا عَلِمْنَا أَنَّ ٱلَّذِي يُسْتَحْسَنُ هُوَ ٱلْبَلِيغُ وَٱلَّذِي يُسْتَهْجَنُ لَيسَ بِبَلِيغٍ . وَقَالَ ٱلْعَتَابِيُّ : كُلُّ مَنْ أَفْهَمَكَ حَاجَتَهُ فَهُوَ بَلِيغٌ . وَإِنَّمَا عَنَى أَنَّ مَنْ أَفْهَمَكَ حَاجَتَهُ بِٱلْأَلْفَاظِ ٱلْحَسَنَةِ وَٱلْعِبَارَةِ ٱلنَّيِّرَةِ فَهُوَ بَلِيغٌ . وَلَوْ حَمَلْنَا هٰذَا ٱلْكَلَامَ عَلَى ظَاهِرِهِ لَلَزِمَ أَنْ يَكُونَ ٱلْأَلْكَنُ بَلِيغًا لِأَنَّهُ يُفْهِمُنَا حَاجَتَهُ بَلْ يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ كُلُّ ٱلنَّاسِ بُلَغَاءَ حَتَّى ٱلْأَطْفَالُ لِأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ لَا يَعْدَمُ أَنْ يَدُلَّ عَلَى غَرَضِهِ بِعُجْمَتِهِ وَلُكْنَتِهِ وَإِيمَائِهِ وَإِشَارَتِهِ بَلْ لَزِمَ أَنْ يَكُونَ ٱلسِّنَّوْرُ بَلِيغًا لِأَنَّا نَسْتَدِلُّ بِضُغَائِهِ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ إِرَادَتِهِ وَهٰذَا ظَاهِرُ ٱلْإِحَالَةِ . وَنَحْنُ نَفْهَمُ رَطَانَةَ ٱلسُّوقِيِّ وَجَمْجَمَةَ ٱلْأَعْجَمِيِّ لِلْعَادَةِ ٱلَّتِي جَرَتْ لَنَا فِي سَمَاعِهَا لَا لِأَنَّ تِلْكَ بَلَاغَةٌ . أَلَا تَرَى أَنَّ ٱلْأَعْرَابِيَّ إِنْ سَمِعَ ذٰلِكَ لَمْ يَفْهَمْهُ إِذْ لَا عَادَةَ لَهُ بِسَمَاعِهِ . وَأَرَادَ رَجُلٌ أَنْ يَسْأَلَ بَعْضَ ٱلْأَعْرَابِ عَنْ أَهْلِهِ فَقَالَ : كَيفَ أَهْلِكَ (بِٱلْكَسْرِ) . فَقَالَ لَهُ ٱلْأَعْرَابِيُّ : صَلْبًا . إِذْ لَمْ يَشُكَّ أَنَّهُ إِنَّمَا يَسْأَلُهُ عَنِ ٱلسَّبَبِ ٱلَّذِي يَهْلِكُ بِهِ . وَسَمِعَ أَعْرَابِيٌّ قَصِيدَةَ أَبِي تَمَّامٍ فِي خَالِدِ بْنِ يَزِيدَ :

طَلَلَ ٱلْجَمِيعِ لَقَدْ عَفَوْتَ حَمِيدَا

فَقَالَ : إِنَّ فِي هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ أَشْيَاءَ أَفْهَمُهَا وَأَشْيَاءَ لَا أَفْهَمُهَا

فإمَّا أنْ يكونَ قائلُها أشعرَ مِنْ جميعِ النَّاسِ وإمَّا أنْ يكونَ جميعُ النَّاسِ أشعرَ منهُ . ونحنُ نفهمُ معانيَ هذهِ القصيدةِ بأسرِها لعادتِنا لِسَماعِ مثلِها لا لأنَّا أعرفُ بالكلامِ مِنَ الأعرابِ . وممَّا يؤيِّدُ ما قلنا مِنْ أنَّ البلاغةَ إنَّما هيَ إيضاحُ المعنى وتحسينُ اللَّفظِ قولُ بعضِ الحكماءِ : البلاغةُ تصحيحُ الأقسامِ واختيارُ الكلامِ إلى غيرِ ذلكَ . وقالَ محمَّدُ بنُ الحنفيَّةِ : البلاغةُ قولٌ يضطرُّ العقولَ إلى فهمِهِ بأسهلِ العبارةِ . فقولُهُ : (يضطرُّ العقولَ إلى فهمِهِ) عبارةٌ عنْ إيضاحِ المعنى . وقولُهُ : (بأسهلِ العبارةِ) تنبيهٌ على تسليسِ اللَّفظِ وتركِ تنقيحِهِ

البحث الثاني

اقوال في تحديد البلاغة

(ملخَّص عن زهر الاداب للحصري وكتاب الصناعتين للعسكري)

قالَ أعرابيٌّ : البلاغةُ التقرُّبُ مِنَ البعيدِ والتباعدُ مِنَ الكلفةِ والدَّلالةُ بقليلٍ على كثيرٍ . قالَ عبدُ الحميدِ بنُ يحيى : البلاغةُ تقريرُ المعنى في الأفهامِ مِنْ أقربِ وجوهِ الكلامِ . قالَ ابنُ المعتزِّ : البلاغةُ البلوغُ إلى المعنى ولم يطُلْ سفرُ الكلامِ . قالَ سهلُ بنُ هارونَ : البيانُ ترجمانُ العقولِ وروضُ القلوبِ . وقالَ أيضاً : العقلُ رائدُ الرُّوحِ والعلمُ رائدُ العقلِ والبيانُ ترجمانُ العلمِ . قالَ إبرهيمُ الإمامُ : يكفي مِنَ البلاغةِ أنْ لا يؤتى السَّامعُ مِنْ سوءِ فهمِ النَّاطقِ ولا يؤتى النَّاطقُ مِنْ سوءِ فهمِ السَّامعِ . قالَ العتابيُّ : البلاغةُ مدُّ

ٱلْكَلَامِ بِمَعَانِيهِ اذا قَصُرَ وَحُسْنُ ٱلتَّأْلِيفِ اِذا طَالَ . قَالَ اعْرَابِيٌّ :
ٱلْبَلَاغَةُ اِيجَازٌ فِي غَيْرِ عَجْزٍ وَاِطْنَابٌ فِي غَيْرِ خَطَلٍ . وَقَدْ قِيلَ لِلْيُونَانِيّ :
مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : تَصْحِيحُ ٱلْأَقْسَامِ وَٱخْتِيَارُ ٱلْكَلَامِ . وَقِيلَ لِلرُّومِيّ :
مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : حُسْنُ ٱلِاقْتِضَابِ عِنْدَ ٱلْبَدَاهَةِ وَٱلْغَزَارَةُ يَوْمَ
ٱلْإِطَالَةِ . وَقِيلَ لِلْهِنْدِيّ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : وُضُوحُ ٱلدَّلَالَةِ وَٱنْتِهَازُ
ٱلْفُرْصَةِ وَحُسْنُ ٱلْإِشَارَةِ . وَقِيلَ لِلْفَارِسِيّ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : مَعْرِفَةُ
ٱلْفَصْلِ مِنَ ٱلْوَصْلِ . وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ عِيسَى ٱلرُّمَّانِيُّ : ٱلْبَلَاغَةُ اِيصَالُ
ٱلْمَعْنَى اِلَى ٱلْقَلْبِ فِي حُسْنِ صُورَةٍ مِنَ ٱللَّفْظِ . وَسُئِلَ بَعْضُهُمْ عَنِ
ٱلْبَلَاغَةِ قَالَ : ابْلَغُ ٱلْكَلَامِ مَا حَسُنَ اِيجَازُهُ . وَقَلَّ مَجَازُهُ . وَكَثُرَ
اعْجَازُهُ . وَتَنَاسَبَتْ صُدُورُهُ وَاعْجَازُهُ . وَقِيلَ لِجَعْفَرِ بْنِ خَالِدٍ : مَا
ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : ٱلتَّقَرُّبُ مِنَ ٱلْمَعْنَى ٱلْبَعِيدِ وَٱلدَّلَالَةُ بِٱلْقَلِيلِ عَلَى
ٱلْكَثِيرِ . وَقِيلَ لِآخَرَ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : تَطْوِيلُ ٱلْقَصِيرِ وَتَقْصِيرُ
ٱلطَّوِيلِ . وَقِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : حَذْفُ ٱلْفُضُولِ
وَتَقْرِيبُ ٱلْبَعِيدِ وَحُسْنُ ٱلِاسْتِعَارَةِ . وَقِيلَ لِجَالِينُوسَ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ .
قَالَ : اِيضَاحُ ٱلْمُعْضِلِ وَفَكُّ ٱلْمُشْكِلِ . وَقِيلَ لِلْخَلِيلِ بْنِ احْمَدَ : مَا
ٱلْبَلَاغَةُ . فَقَالَ : مَا قَرُبَ طَرَفَاهُ وَبَعُدَ مُنْتَهَاهُ . وَقِيلَ لِخَالِدِ بْنِ صَفْوَانَ :
مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : اِصَابَةُ ٱلْمَعْنَى وَٱلْمَقْصَدُ اِلَى ٱلْحُجَّةِ . وَقِيلَ لِآخَرَ :
مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : تَصْوِيرُ ٱلْحَقِّ فِي صُورَةِ ٱلْبَاطِلِ وَتَصْوِيرُ ٱلْبَاطِلِ فِي
صُورَةِ ٱلْحَقِّ (١) . وَقِيلَ لِإِبْرٰهِيمَ ٱلْإِمَامِ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . فَقَالَ : ٱلْجَزَالَةُ وَٱلْإِصَالَةُ

(١) لا يجوز ذلك الّا على طريقة المغايرة في الامور القابلة المدح والذمّ

قَالَ إِسْحَاقُ بْنُ حَسَّانٍ: لَمْ يُفَسِّرْ أَحَدٌ ٱلْبَلَاغَةَ تَفْسِيرَ ٱبْنِ ٱلْمُقَفَّعِ إِذْ قَالَ: ٱلْبَلَاغَةُ لِمَعَانٍ تَجْرِي فِي وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ: فَمِنْهَا مَا يَكُونُ فِي ٱلْإِشَارَةِ. وَمِنْهَا مَا يَكُونُ فِي ٱلْحَدِيثِ. وَمِنْهَا مَا يَكُونُ فِي ٱلْإِسْتِمَاعِ. وَمِنْهَا مَا يَكُونُ فِي ٱلْإِحْتِجَاجِ. وَمِنْهَا مَا يَكُونُ شِعْرًا. وَمِنْهَا مَا يَكُونُ ٱبْتِدَاءً. وَمِنْهَا مَا يَكُونُ جَوَابًا. وَمِنْهَا مَا يَكُونُ سَجْعًا. وَمِنْهَا مَا يَكُونُ خُطَبًا. وَمِنْهَا رُبَّمَا كَانَتْ رَسَائِلَ. فَغَايَةُ (١) هٰذِهِ ٱلْأَبْوَابِ ٱلْوَحْيُ فِيهَا وَٱلْإِشَارَةُ إِلَى ٱلْمَعْنَى أَبْلَغُ وَٱلْإِيجَازُ هُوَ ٱلْبَلَاغَةُ. فَٱلسُّكُوتُ يُسَمَّى بَلَاغَةً مَجَازًا وَهُوَ فِي حَالَةٍ لَا يَنْجَعُ فِيهَا ٱلْقَوْلُ وَلَا يَنْفَعُ فِيهَا إِقَامَةُ ٱلْحُجَجِ إِمَّا عِنْدَ جَاهِلٍ لَا يَفْهَمُ ٱلْخِطَابَ أَوْ عِنْدَ وَضِيعٍ لَا يَرْهَبُ ٱلْجَوَابَ. أَوْ ظَالِمٍ سَلِيطٍ يَحْكُمُ بِٱلْهَوَى وَلَا يَرْتَدِعُ بِكَلِمَةِ ٱلتَّقْوَى وَإِذَا كَانَ ٱلْكَلَامُ يُعْرَى مِنَ ٱلْخَيْرِ أَوْ يَجْلِبُ ٱلشَّرَّ فَٱلسُّكُوتُ أَوْلَى كَمَا قَالَ أَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ:

مَا كُلُّ نُطْقٍ لَهُ جَوَابٌ   جَوَابُ مَا يُكْرَهُ ٱلسُّكُوتُ

وَرُبَّمَا كَانَ صَمْتُكَ فِي حَالٍ أَرْفَقَ مِنْ كَلَامِكَ وَلَهُ وَجْهٌ آخَرُ وَهُوَ قَوْلُهُمْ: كُلُّ صَامِتٍ نَاطِقٌ مِنْ جِهَةِ ٱلدَّلَالَةِ. وَذٰلِكَ أَنَّ دَلَائِلَ ٱلصَّنْعَةِ فِي جَمِيعِ ٱلْأَشْيَاءِ وَاضِحَةٌ. وَٱلْمَوْعِظَةُ فِيهَا قَائِمَةٌ. وَقَدْ قَالَ ٱلرَّقَاشِيُّ: سَلِ ٱلْأَرْضَ مَنْ شَقَّ أَنْهَارَكِ وَغَرَسَ أَشْجَارَكِ وَجَنَى ثِمَارَكِ. فَإِنْ لَمْ تُجِبْكَ حِوَارًا أَجَابَتْكَ ٱعْتِبَارًا. وَقَوْلُ ٱبْنِ ٱلْمُقَفَّعِ: (رُبَّمَا كَانَتِ ٱلْبَلَاغَةُ بِٱلْإِسْتِمَاعِ) فَلِأَنَّ ٱلْمُخَاطَبَ إِذَا لَمْ يُحْسِنِ ٱلْإِسْتِمَاعَ لَمْ

---

(١) وفي نسخة: غاية

يَقِفُ عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلْمُؤَدِّي إِلَى ٱلْخِطَابِ . فَٱلِٱسْتِمَاعُ ٱلْحَسَنُ عَوْنٌ لِلْبَلِيغِ عَلَى إِفْهَامِ ٱلْمَعْنَى

وَقَدْ جَاءَ لِلْبَلَاغَةِ تَعْرِيفَاتٌ أُخَرُ مِنْهَا قَوْلُ بَعْضِ حُكَمَاءِ ٱلْهِنْدِ : جِمَاعُ ٱلْبَلَاغَةِ ٱلْبَصَرُ بِٱلْحُجَّةِ وَٱلْمَعْرِفَةُ بِمَوَاقِعِ ٱلْفُرْصَةِ وَمِنَ ٱلْبَصَرِ بِٱلْحُجَّةِ أَنْ تَدَعَ ٱلْإِفْصَاحَ بِهَا إِلَى ٱلْكِنَايَةِ عَنْهَا إِذَا كَانَ طَرِيقُ ٱلْإِفْصَاحِ وَعْرًا وَكَانَتِ ٱلْكِنَايَةُ أَحْضَرَ نَفْعًا . قَالَ آخَرُ : أَبْلَغُ ٱلْكَلَامِ مَا يُؤْنِسُ مَسْمَعُهُ . وَيُؤْيِسُ مَصْنَعُهُ . وَٱلْبَلِيغُ مَنْ يَجْتَنِي مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ أَنْوَارَهَا . وَمِنَ ٱلْمَعَانِي ثِمَارَهَا . لَيْسَتِ ٱلْبَلَاغَةُ أَنْ يُطَالَ عِنَانُ ٱلْقَلَمِ أَوْ سِنَانُهُ . أَوْ يُبْسَطَ رِهَانُ ٱلْقَوْلِ وَمَيْدَانُهُ . بَلْ هِيَ أَنْ يَبْلُغَ أَمَدَ ٱلْمُرَادِ بِأَلْفَاظٍ أَعْيَانٍ وَمَعَانٍ أَفْرَادٍ مِنْ حَيْثُ لَا تَزِيدُ عَلَى ٱلْحَاجَةِ وَلَا إِخْلَالٌ يُفْضِي إِلَى ٱلْفَاقَةِ . وَصَفَ بَعْضُهُمُ ٱلْبَلَاغَةَ قَالَ : هِيَ مَيْدَانٌ لَا يُقْطَعُ إِلَّا بِسَوَابِقِ ٱلْأَذْهَانِ . وَلَا يُسْلَكُ إِلَّا بِبَصَائِرِ ٱلْبَيَانِ . يَعْبَثُ صَاحِبُهَا بِٱلْكَلَامِ . وَيَقُودُهُ بِأَلْيَنِ زِمَامٍ . حَتَّى كَأَنَّ ٱلْأَلْفَاظَ تَتَحَاشَدُ فِي ٱلتَّسَابُقِ إِلَى خَوَاطِرِهِ وَٱلْمَعَانِي تَتَغَايَرُ فِي ٱلِٱنْثِيَالِ عَلَى أَنَامِلِهِ كَقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ ٱلطَّائِيِّ :

تَغَايَرَ ٱلشِّعْرُ فِيهِ إِذْ سَهِرْتُ لَهُ ⁂ حَتَّى ظَنَنْتُ قَوَافِيهِ سَتَقْتَتِلُ

وَقِيلَ فِي بَلِيغٍ : فُلَانٌ مَشْرَفِيُّ ٱلْمَشْرِقِ . وَصَيْرَفِيُّ ٱلْمَنْطِقِ . ٱلْبَيَانُ أَصْغَرُ صِفَاتِهِ . وَٱلْبَلَاغَةُ عَفْوُ خَطَرَاتِهِ . كَأَنَّهُ أُوحِيَ بِٱلتَّوْفِيقِ إِلَى صَدْرِهِ . وَحُسْنُ ٱلصَّوَابِ بَيْنَ طَبْعِهِ وَفِكْرِهِ . يَحُزُّ مَفَاصِلَ ٱلْكَلَامِ . وَيَسْبِقُ فِيهَا إِلَى دَرْكِ ٱلْمَرَامِ . كَأَنَّمَا جَمَعَ ٱلْكَلَامَ حَوْلَهُ حَتَّى ٱنْتَقَى مِنْهُ وَٱنْتَخَبَ . وَتَنَاوَلَ مِنْهُ مَا طَلَبَ . وَتَرَكَ بَعْدَ ذٰلِكَ أَذْنَابًا لَا رُؤُسًا .

وَاَجسَادًا لَا نُفُوسًا . وَقِيلَ فِي آخَرَ : يَرْضَى بِعَفْوِ ٱلطَّبْعِ . وَيَقْنَعُ بِمَا خَفَّ عَلَى ٱلسَّمْعِ . وَيُوجِزُ فَلَا يُخِلُّ . وَيُطْنِبُ فَلَا يُمِلُّ. فَلِلَّهِ فُلَانٌ اَخَذَ بِاَزِمَّةِ ٱلْقَوْلِ يَقُودُهَا كَيْفَ اَرَادَ وَيَجْذُبُهَا اَنَّى شَاءَ فَلَا تَعْصِيهِ بَيْنَ ٱلصَّعْبِ وَٱلذَّلُولِ . وَلَا تُسْلِمُهُ عِنْدَ ٱلْحُزُونِ وَٱلسُّهُولِ. كَلَامُهُ يَشْتَدُّ مَرَّةً حَتَّى تَقُولَ : ٱلصَّخْرُ ٱلْاَمْلَسُ . وَيَلِينُ تَارَةً حَتَّى تَقُولَ : ٱلْمَاءُ اَوْ اَسْلَسُ . يَقُولُ : فَيَصُولُ. وَيُجِيبُ. فَيُصِيبُ. وَيَكْتُبُ فَيُطَبِّقُ ٱلْمَفْصِلَ. وَيَنْسُقُ ٱلدُّرَّ ٱلْمُفَصَّلَ. وَيَرِدُ مَشَارِعَ ٱلْكَلَامِ وَهِيَ صَافِيَةٌ لَمْ تُطْرَقْ. وَجَامَّةٌ لَمْ تُرْتَقْ . خَاطِرُهُ ٱلْبَرْقُ اَوْ اَسْرَعُ لَمْعًا. وَٱلسَّيْفُ اَوْ اَحَدُّ قَطْعًا. وَٱلْمَاءُ اَوْ اَسْلَسُ جَرْيًا. وَٱلْفَلَكُ اَوْ اَقْوَمُ هَدْيًا . يَسْهُلُ ٱلْكَلَامُ عَلَى لَفْظِهِ وَتَتَزَاحَمُ ٱلْمَعَانِي عَلَى طَبْعِهِ فَيَتَنَاوَلُ ٱلْمَرْمَى ٱلْبَعِيدَ بِقَرِيبِ سَعْيِهِ. وَيَسْتَنْبِطُ ٱلْمَشْرَعَ ٱلْعَمِيقَ بِيَسِيرِ جَرْيِهِ. لِسَانُهُ يَفْلِقُ ٱلصُّخُورَ . وَيُغِيضُ ٱلْبُحُورَ. خَطِيبٌ لَا تَنَالُهُ حُبْسَةٌ وَلَا تَرْتَهِنُهُ لُكْنَةٌ وَلَا تَتَحَيَّفُ بَيَانَهُ عُجْمَةٌ وَلَا تَعْتَرِضُ لِسَانَهُ عُقْدَةٌ يُحْسِنُ ٱلسِّفَارَةَ . وَيَسْتَوْفِي ٱلْعِبَارَةَ. وَيُؤَدِّي ٱلْاَلْفَاظَ. وَيَسْتَغْرِقُ ٱلْاَغْرَاضَ . قَالَ حَتَّى قَالَ ٱلْكَلَامُ : لَوْ اَعْفَيْتَ. وَكَتَبَ حَتَّى قَالَتِ ٱلْاَقْلَامُ : قَدْ اَحْفَيْتَ

البحث الثالث

في أوصاف البلاغات على السنة اقوام من اهل البلاغات

(عن زهر الاداب للقيرواني)

قَالَ بَعْضٌ مِنْ وُلْدِ عَقَائِلِ هٰذَا ٱلْمَنْثُورِ . وَاِلْفِ فَوَاصِلِ هٰذِهِ

الشذور: تجمع قوم من أهل الصناعات فوصفوا بلاغاتهم من طريق صناعاتهم. (فقال الجوهري): أحسن الكلام نظاما ما ثقبته يد الفكرة ونظمته الفطنة ووصل جوهر معانيه في سموط ألفاظه فاحتملته نحور الرواة. (وقال العطار): أطيب الكلام ما عجن عنبر ألفاظه بمسك معانيه ففاح نسيم نشقه. وسطعت رائحة عبقه. فتعلقت به الرواة. وتعطرت به السراة. (وقال الصائغ): خير الكلام ما أحميته بكير الفكر. وسبكته بمشاعل النظر. وخلصته من خبث الاطناب فبرز بروز الابريز. في معنى وجيز. (وقال الصيرفي): خير الكلام ما نقدته يد البصيرة وجلته عين الروية ووزنته بمعيار الفصاحة فلا نظر يزيفه ولا سماع يبهرجه. (وقال الحداد): أحسن الكلام ما نصبت عليه منفخة القريحة وأشعلت عليه نار البصيرة ثم أخرجته من فحم الافحام. ورققته بفطيس الافهام. (وقال النجار): خير الكلام ما أحكمت نجر معناه بقدوم التقدير. ونشرته بمنشار التدبير. فصار بابا لبيت البيان. وعارضة لسقف اللسان. (وقال النجاد): أحسن الكلام ما لطفت رفاف ألفاظه وحسنت طارح معانيه فتنزهت في زرابي محاسنه عيون الناظرين. وأصاخت لنمارق بهجته آذان السامعين. (وقال الماتح): أبين الكلام ما علقت وذم ألفاظه ببكرة معانيه ثم أرسلته في قليب الفطن رياً فامتحت به سقاء يكشف الشبهات. واستنبطت به معنى يروي من ظماء المشكلات. (وقال الخياط): البلاغة رداء فجربانه البيان

وَجَبِينُهُ ٱلْمَعْرِفَةُ وَكُمَّاهُ ٱلْوَجَازَةُ وَدَخَارِيصُهُ ٱلْإِفْهَامُ وَدُرُوزُهُ ٱلْحَلَاوَةُ وَلَابِسُهُ جَسَدُ ٱللَّفْظِ وَرُوحُ ٱلْمَعْنَى . (وَقَالَ ٱلصَّبَّاغُ) : أَحْسَنُ ٱلْكَلَامِ مَا لَمْ تَنْضُ بَهْجَةُ إِيجَازِهِ . وَلَمْ تُكْشَفْ صِبْغَةُ إِعْجَازِهِ . قَدْ صَقَلَتْهُ يَدُ ٱلرَّوِيَّةِ مِنْ كُمُودِ ٱلْإِشْكَالِ فَرَاعَ كَوَاعِبَ ٱلْآدَابِ . وَأَلِفَ عَذَارَى ٱلْأَلْبَابِ . (وَقَالَ ٱلْحَائِكُ) : أَحْسَنُ ٱلْكَلَامِ مَا ٱتَّصَلَتْ لُحْمَةُ أَلْفَاظِهِ بِسَدَى مَعَانِيهِ فَخَرَجَ مُفَوَّفًا مُنَيَّرًا وَمُوَشًّى مُحَبَّرًا . (وَقَالَ ٱلْبَزَّازُ) : أَحْسَنُ ٱلْكَلَامِ مَا صَدَقَ رَقْمُ أَلْفَاظِهِ وَحَسُنَ نَشْرُ مَعَانِيهِ فَلَمْ يُسْتَعْجَمْ عَنْكَ نَشْرٌ وَلَمْ يُسْتَبْهَمْ عَلَيْكَ طَيٌّ . (وَقَالَ ٱلرَّائِضُ) : خَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا لَمْ يَخْرُجْ عَنْ حَدِّ ٱلتَّخْلِيعِ إِلَى مَنْزِلَةِ ٱلتَّقْرِيبِ إِلَّا بَعْدَ ٱلرِّيَاضَةِ وَكَانَ كَٱلْمُهْرِ ٱلَّذِي أَطْمَعَ أَوَّلُ رِيَاضَتِهِ فِي تَمَامِ ثَقَافَتِهِ . (وَقَالَ ٱلْجَمَّالُ) : ٱلْبَلِيغُ مَنْ أَخَذَ بِخِطَامِ كَلَامِهِ فَأَنَاخَهُ فِي مَبْرَكِ ٱلْمَعْنَى ثُمَّ جَعَلَ ٱلِٱخْتِصَارَ لَهُ عِقَالًا . وَٱلْإِيجَازَ لَهُ مَجَالًا . فَلَمْ يَنِدَّ عَنِ ٱلْآذَانِ . وَلَمْ يَشُذَّ عَنِ ٱلْأَذْهَانِ . (وَقَالَ ٱلْخَمَّارُ) : أَبْلَغُ ٱلْكَلَامِ مَا طَبَخَتْهُ مَرَاجِلُ ٱلْعِلْمِ وَصَفَّاهُ رَاوُوقُ ٱلْفَهْمِ . وَضَمَّنَتْهُ دِنَانُ ٱلْحِكْمَةِ فَتَمَشَّتْ فِي ٱلْمَفَاصِلِ عُذُوبَتُهُ وَفِي ٱلْأَفْكَارِ دِقَّتُهُ وَفِي ٱلْعُقُولِ حِدَّتُهُ . (وَقَالَ ٱلْفُقَّاعِيُّ) : خَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا رَوَّحَتْ أَلْفَاظُهُ غَبَاوَةَ ٱلشَّكِّ وَدَفَعَتْ دِقَّتُهُ فَظَاظَةَ ٱلْجَهْلِ فَطَابَ جُشَاءُ قِطَعِهِ وَعَذُبَ مَصُّ جُرَعِهِ . (وَقَالَ ٱلطَّبِيبُ) : خَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا إِذَا بَاشَرَ دَوَاءُ بَيَانِهِ سُقْمَ ٱلشُّبْهَةِ ٱسْتُطْلِقَتْ طَبِيعَةُ ٱلْغَبَاوَةِ فَشَفَى مِنْ سُوءِ ٱلتَّفَهُّمِ وَأَوْرَثَ صِحَّةَ ٱلتَّوَهُّمِ . (قَالَ ٱلْكَحَّالُ) : كَمَا أَنَّ ٱلرَّمَدَ قَذَى ٱلْأَبْصَارِ فَٱلشُّبْهَةُ قَذَى ٱلْبَصَائِرِ

فَٱلْحَلْ عَيْنَ ٱلْلُّكْنَةِ بِمِيلِ ٱلْبَلَاغَةِ وَٱجْلُ رَمَصَ ٱلْغَفْلَةِ بِمِرْوَدِ ٱلْيَقْظَةِ .

(ثُمَّ قَالَ): اَجْمَعُوا كُلُّهُمْ عَلَى اَنَّ اَبْلَغَ ٱلْكَلَامِ مَا اِذَا اَشْرَقَتْ شَمْسُهُ ٱنْكَشَفَ لَبْسُهُ وَاِذَا صَدَقَتْ اَنْوَاؤُهُ اَخْضَرَّتْ اَحْمَاؤُهُ

الفصل الثالث

في المعاني

البحث الاوّل

في حقيقة المعاني

(عن كشّاف اصطلاحات الفنون بتصرّف)

(راجع صفحة ١٠ من علم الادب)

اَلْمَعْنَى لُغَةً ٱلْمَقْصُودُ وَفِي ٱلِٱصْطِلَاحِ هُوَ ٱلصُّورَةُ ٱلذِّهْنِيَّةُ مِنْ حَيْثُ اِنَّهُ وُضِعَ بِإِزَائِهَا ٱللَّفْظُ اَيْ مِنْ حَيْثُ اِنَّهَا تُقْصَدُ مِنْهُ. وَذٰلِكَ اِنَّمَا يَكُونُ بِٱلْوَضْعِ فَاِنْ عُبِّرَ عَنْهَا بِلَفْظٍ مُفْرَدٍ يُسَمَّى مَعْنًى مُفْرَدًا . وَاِنْ عُبِّرَ عَنْهَا بِلَفْظٍ مُرَكَّبٍ سُمِّيَ مَعْنًى مُرَكَّبًا . فَٱلْاِفْرَادُ وَٱلتَّرْكِيبُ صِفَتَانِ لِلْاَلْفَاظِ حَقِيقَةً وَيُوصَفُ بِهِمَا ٱلْمَعَانِي تَبَعًا . وَعِلْمُ ٱلْمَعَانِي عِلْمٌ يُحْتَرَزُ بِهِ عَنِ ٱلْخَطَاِ فِي تَأْدِيَةِ ٱلْمُرَادِ وَتُعْرَفُ اَحْوَالُ ٱللَّفْظِ ٱلْعَرَبِيِّ ٱلَّتِي بِهَا يُطَابِقُ ٱللَّفْظُ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ وَهُوَ مِنْ اُصُولِ ٱلْعُلُومِ ٱلْعَرَبِيَّةِ يَبْحَثُ عَنِ ٱلْمُرَكَّبَاتِ عَلَى ٱلْاِطْلَاقِ بِٱعْتِبَارِ اِفَادَتِهَا لِمَعَانٍ زَائِدَةٍ عَلَى اَصْلِ ٱلْمَعْنَى . قَالَ بَعْضُ اَهْلِ ٱلْمَعَانِي : ٱلْكَلَامُ ٱلَّذِي يُوصَفُ

بِالْبَلَاغَةِ هُوَ الَّذِي يَدُلُّ بِلَفْظِهِ عَلَى مَعْنَاهُ اللُّغَوِيِّ اوِ الْعُرْفِيِّ اوِ الشَّرْعِيِّ . ثُمَّ تَجِدُ لِذٰلِكَ الْمَعْنَى دَلَالَةً ثَانِيَةً عَلَى الْمَعْنَى الْمَقْصُودِ الَّذِي يُرِيدُ الْمُتَكَلِّمُ اِثْبَاتَهُ اَوْ نَفْيَهُ فَهُنَاكَ اَلْفَاظٌ وَمَعَانٍ اُوَلٌ وَمَعَانٍ ثَوَانٍ . فَالْمَعَانِي الْاُوَلُ هِيَ مَدْلُولَاتُ التَّرَاكِيبِ وَالْاَلْفَاظِ الَّتِي تُسَمَّى فِي عِلْمِ النَّحْوِ اَصْلَ الْمَعْنَى . وَالْمَعَانِي الثَّوَانِي الْاَغْرَاضُ الَّتِي يُسَاقُ لَهَا الْكَلَامُ . وَلِذَا قِيلَ : مُقْتَضَى الْحَالِ هُوَ الْمَعْنَى الثَّانِي . كَرَدِّ الْاِنْكَارِ وَدَفْعِ الشَّكِّ مَثَلًا اِذَا قُلْنَا : اِنَّ زَيْدًا قَائِمٌ . فَالْمَعْنَى الْاَوَّلُ هُوَ الْقِيَامُ الْمُؤَكَّدُ وَالْمَعْنَى الثَّانِي رَدُّ الْاِنْكَارِ وَدَفْعُ الشَّكِّ . وَاِذَا قُلْنَا : هُوَ اَسَدٌ فِي صُورَةِ الْاِنْسَانِ . فَالْمَعْنَى الْاَوَّلُ هُوَ مَدْلُولُ هٰذَا الْكَلَامِ وَالْمَعْنَى الثَّانِي هُوَ اَنَّهُ شُجَاعٌ . فَالْمَعْنَى الثَّانِي هُوَ الَّذِي يُرَادُ اِيرَادُهُ فِي الطُّرُقِ الْمُخْتَلِفَةِ وَالْمَفْهُومُ مِنْ تِلْكَ الطُّرُقِ هُوَ الْمَعْنَى الْاَوَّلُ.

وَتَسْمِيَتُهُ بِالْمَعْنَى الثَّانِي لِكَوْنِ اللَّفْظِ دَالًّا عَلَيْهِ بِوَاسِطَةِ الْمَعْنَى الْاَوَّلِ. فَدَلَالَةُ الْمَعْنَى الْاَوَّلِ عَلَى الثَّانِي عَقْلِيَّةٌ قَطْعًا وَاَمَّا دَلَالَةُ اللَّفْظِ عَلَى الْمَعْنَى الْاَوَّلِ فَقَدْ تَكُونُ وَضْعِيَّةً وَقَدْ تَكُونُ عَقْلِيَّةً . وَقَدْ تُسَمَّى الْمَعَانِي الْاُوَلُ بِالْخُصُوصِيَّاتِ وَالْكَيْفِيَّاتِ الزَّائِدَةِ عَلَى اَصْلِ الْمَعْنَى وَبِالصُّوَرِ وَالْخَوَاصِّ وَالْمَزَايَا مَجَازًا . ثُمَّ اِنَّهُمْ سَمَّوْا تَرْتِيبَ الْمَعَانِي الْاُوَلِ وَكَذَا الْمَعَانِي الْاُوَلَ اَلْفَاظًا . وَفَضِيلَةَ الْكَلَامِ بِاعْتِبَارِ هٰذَا التَّرْتِيبِ لِكَوْنِ الْمَعْنَى الْاَوَّلِ مَحَلَّ الْفَضِيلَةِ لِاَنَّ تَرْتِيبَ الْمَعَانِي الْاَصْلِيَّةِ فِي النَّفْسِ ثُمَّ تَرْتِيبَ الْاَلْفَاظِ فِي النُّطْقِ عَلَى حَذْوِهَا عَلَى وَجْهٍ يَنْتَقِلُ مِنْهَا الذِّهْنُ بِتَوَسُّلِهَا اِلَى الْخَوَاصِّ فِي الْاِفَادَةِ بِلَا اِخْلَالٍ وَلَا تَعْقِيدٍ هُوَ

ٱلْبَلَاغَةُ. فَيَكُونُ تَرْتِيبُ ٱلْمَعَانِي ٱلْأُوَلِ عَلَى ٱلْوَجْهِ ٱلْمَخْصُوصِ مَنْشَأَ ٱلْفَضِيلَةِ وَمَنَاطَ ٱلْبَرَاعَةِ بِلَا شَكٍّ . قَالَ ٱلشَّيْخُ : وَلَمَّا كَانَتِ ٱلْمَعَانِي تَتَبَيَّنُ بِٱلْأَلْفَاظِ وَلَمْ يَكُنْ لِتَرْتِيبِ ٱلْمَعَانِي سَبِيلٌ إِلَّا بِتَرْتِيبِ ٱلْأَلْفَاظِ فِي ٱلنُّطْقِ تَجَوَّزُوا فَعَبَّرُوا عَنْ تَرْتِيبِ ٱلْمَعَانِي بِتَرْتِيبِ ٱلْأَلْفَاظِ ثُمَّ بِٱلْأَلْفَاظِ بِحَذْفِ ٱلتَّرْتِيبِ . وَإِذَا وَصَفُوا ٱللَّفْظَ بِمَا يَدُلُّ عَلَى تَفْخِيمِهِ كَانَ يُقَالُ ٱلْبَلَاغَةُ رَاجِعَةٌ إِلَى ٱللَّفْظِ. اَوْ هُوَ مَحَلُّ ٱلْفَضِيلَةِ ٱلَّتِي بِهَا يَسْتَحِقُّ ٱلِٱتِّصَافَ بِٱلْفَصَاحَةِ وَنَحْوِهَا لَمْ يُرِيدُوا ٱللَّفْظَ ٱلْمَنْطُوقَ وَلٰكِنْ اَرَادُوا مَعْنَى ٱللَّفْظِ ٱلَّذِي دَلَّ عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلثَّانِي

البحث الثاني

في صحَّة المعاني

(عن ادب الدنيا والدين للماوردي)

(راجع صفحة ١٠٠ و١١ من علم الادب)

اَمَّا صِحَّةُ ٱلْمَعَانِي فَتَكُونُ مِنْ ثَلَاثَةِ اَوْجُهٍ : (اَحَدُهَا) إِيضَاحُ تَفْسِيرِهَا حَتَّى لَا تَكُونَ مُشْكِلَةً وَلَا مُجْمَلَةً. (وَٱلثَّانِي) ٱسْتِيفَاءُ تَقْسِيمِهَا حَتَّى لَا يَدْخُلَ فِيهَا مَا لَيْسَ مِنْهَا وَلَا يَخْرُجَ عَنْهَا مَا هُوَ فِيهَا . (وَٱلثَّالِثُ) صِحَّةُ مُقَابَلَاتِهَا. وَٱلْمُقَابَلَةُ تَكُونُ مِنْ وَجْهَيْنِ: (اَحَدُهُمَا) مُقَابَلَةُ ٱلْمَعْنَى بِمَا يُوَافِقُهُ وَحَقِيقَةُ هٰذِهِ ٱلْمُقَارَبَةِ لِاَنَّ ٱلْمَعَانِيَ تَصِيرُ مُتَشَاكِلَةً . وَٱلثَّانِي مُقَابَلَتُهُ بِمَا يُضَادُّهُ وَهُوَ حَقِيقَةُ ٱلْمُقَابَلَةِ. وَلَيْسَ لِلْمُقَابَلَةِ إِلَّا اَحَدُ هٰذَيْنِ ٱلْوَجْهَيْنِ: ٱلْمُوَافَقَةِ فِي ٱلِٱئْتِلَافِ وَٱلْمُضَادَّةِ مَعَ ٱلِٱخْتِلَافِ. فَاَمَّا فَصَاحَةُ

ٱلأَلفاظِ فتكونُ بثلاثةِ اوجهٍ :(احدُها) مجانبةُ ٱلغريبِ ٱلوحشيّ حتّى لا يمجّهُ سمعٌ ولا ينفرَ منهُ طبعٌ .(وٱلثاني) تنكُّبُ ٱللفظِ ٱلمبتذلِ وٱلعدولُ عنِ ٱلكلامِ ٱلمسترذلِ حتّى لا يستسقطهُ خاصيٌّ ولا ينبو عنهُ فهمُ عامّيٍ كما قالَ ٱلجاحظُ في كتابِ ٱلبيانِ : امّا انا فلم ارَ قومًا امثلَ طريقةً في ٱلبلاغةِ منَ ٱلكتّابِ وذلكَ انّهم قدِ ٱلتمسوا منَ ٱلألفاظِ ما لم يكنْ متوعّرًا وحشيا ولا ساقطًا عاميًّا .(وٱلثالثُ) انْ يكونَ بينَ ٱلألفاظِ ومعانيها مناسبةٌ ومطابقةٌ . امّا ٱلمطابقةُ فهيَ انْ تكونَ ٱلألفاظُ كالقوالبِ لمعانيها فلا تزيدُ عليها ولا تنقصُ عنها . وقالَ بشرُ بنُ ٱلمعتمرِ في وصيّتهِ في ٱلبلاغةِ : اذا لم تجدِ ٱللفظةَ واقعةً موقعها ولا صائرةً الى مستقرّها ولا حالّةً في مركزها بل وجدتَها قلقةً في مكانها نافرةً عن موضعها فلا تكرهها على ٱلقرارِ في غيرِ موضعها فانّكَ ان لم تتعاطَ قرضَ ٱلشعرِ ٱلموزونِ ولم تتكلّفِ ٱختيارَ ٱلمنثورِ لم يعبكَ بتركِ ذلكَ احدٌ واذا انتَ تكلّفتهما ولم تكنْ حاذقًا فيهما عابكَ مَنْ انتَ اقلّ عيبًا منهُ وازرى عليكَ من انتَ فوقهُ . وامّا ٱلمناسبةُ فهيَ انْ يكونَ ٱلمعنى يليقُ ببعضِ ٱلألفاظِ امّا لعرفٍ مستعملٍ اوْ لاتفاقٍ مستحسنٍ حتّى اذا ذُكرتَ تلكَ ٱلمعاني بغيرِ تلكَ ٱلألفاظِ كانتْ نافرةً عنها وانْ كانتْ افصحَ واوضحَ لاعتيادِ ما سواها . وقالَ بعضُ ٱلبلغاء : لا يكونُ ٱلبليغُ بليغًا حتّى يكونَ معنى كلامهِ اسبقَ الى فهمكَ منْ لفظهِ الى سمعكَ . وامّا معاطاةُ ٱلإعرابِ وتجنُّبُ ٱللحنِ فانّما هوَ منَ

صِفَاتِ ٱلصَّوَابِ . وَٱلْبَلَاغَةُ أَعْلَى مِنْهُ رُتْبَةً وَأَشْرَفُ مَنْزِلَةً وَلَيْسَ لِمَنْ لَحَنَ فِي كَلَامِهِ مَدْخَلٌ فِي ٱلْأُدَبَاءِ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ فِي عِدَادِ ٱلْبُلَغَاءِ

البحث الثالث

في انواع المعاني

(ملخّص عن زهر الاداب للقيرواني)

(راجع صفحة ١٢ من علم الادب)

قَالَ أَبُو عُثْمَانَ عَمْرُو بْنُ بَحْرٍ ٱلْجَاحِظُ : قَالَ بَعْضُ جَهَابِذَةِ ٱلْأَلْفَاظِ وَنُقَّادِ ٱلْمَعَانِي : ٱلْمَعَانِي ٱلْقَائِمَةُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ٱلْمُتَصَوَّرَةُ فِي أَذْهَانِهِمْ ٱلْمُخْتَلِجَةُ فِي نُفُوسِهِمْ ٱلْمُتَّصِلَةُ بِخَوَاطِرِهِمْ وَٱلْحَادِثَةُ عَنْ فِكْرِهِمْ مَسْتُورَةٌ خَفِيَّةٌ وَبَعِيدَةٌ وَحْشِيَّةٌ وَمَحْجُوبَةٌ مَكْنُونَةٌ وَمَوْجُودَةٌ فِي مَعْنَى مَعْدُومَةٌ لَا يَعْرِفُ ٱلْإِنْسَانُ ضَمِيرَ صَاحِبِهِ وَلَا حَاجَةَ أَخِيهِ وَخَلِيطِهِ وَلَا مَعْنَى شَرِيكِهِ وَٱلْمُعَاوِنِ لَهُ عَلَى أَمْرِهِ وَعَلَى مَا لَا يَبْلُغُهُ مِنْ حَاجَاتِ نَفْسِهِ إِلَّا بِغَيْرِهِ . وَإِنَّمَا يُحْيِي تِلْكَ ٱلْمَعَانِي ذِكْرُهُمْ لَهَا وَإِخْبَارُهُمْ عَنْهَا وَٱسْتِعْمَالُهُمْ إِيَّاهَا . وَهٰذِهِ ٱلْخِصَالُ هِيَ ٱلَّتِي تُقَرِّبُهَا مِنَ ٱلْفَهْمِ وَتُجَلِّيهَا لِلْعَقْلِ وَتَجْعَلُ ٱلْخَفِيَّ مِنْهَا ظَاهِرًا وَٱلْغَائِبَ شَاهِدًا وَٱلْبَعِيدَ قَرِيبًا . وَهِيَ ٱلَّتِي تُلَخِّصُ ٱلْمُلْتَبِسَ وَتَحُلُّ ٱلْمُنْعَقِدَ وَتَجْعَلُ ٱلْمُهْمَلَ مُقَيَّدًا وَٱلْمُقَيَّدَ مُطْلَقًا وَٱلْمَجْهُولَ مَعْرُوفًا وَٱلْوَحْشِيَّ مَأْلُوفًا . وَعَلَى قَدْرِ وُضُوحِ ٱلدَّلَالَةِ وَصَوَابِ ٱلْإِشَارَةِ وَحُسْنِ ٱلِٱخْتِصَارِ وَدِقَّةِ ٱلْمَدْخَلِ يَكُونُ ظُهُورُ ٱلْمَعْنَى . وَكُلَّمَا

كَانَتِ ٱلدَّلَالَةُ اوضَحَ وَافصَحَ وَكَانَتِ ٱلْإِشَارَةُ ابيَنَ وَانور كَانَتْ انفَعَ وَانجَعَ فِي ٱلْبَيَانِ . ثُمَّ اعلَمْ حَفِظَكَ ٱللهُ انَّ حُكمَ ٱلْمَعَانِي خِلَافُ حُكمِ ٱلْأَلفَاظِ لِأَنَّ ٱلْمَعَانِيَ مَبسُوطَةٌ إِلَى غَايَةٍ وَمُمتَدَّةٌ إِلَى غَيرِ نِهَايَةٍ وَلِأَسماءِ ٱلْمَعَانِي مَحْصُورَةٌ مَعدُودَةٌ وَمُحَصَّلَةٌ مَحْدُودَةٌ. وَجَمِيعُ اصنَافِ ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلْمَعَانِي مِنْ لَفظٍ اوْ غَيرِ لَفظٍ خَمسَةُ اشيَاءَ لَا تَنقُصُ وَلَا تَزِيدُ : اوَّلُهَا ٱللَّفظُ. ثُمَّ ٱلْإِشَارَةُ. ثُمَّ ٱلْعَقدُ. ثُمَّ ٱلْخَطُّ. ثُمَّ ٱلْحَالُ ٱلَّتِي تُسَمَّى نُصبَةً. وَٱلنُّصبَةُ هِيَ ٱلْحَالُ ٱلدَّالَّةُ ٱلَّتِي تَقُومُ مَقَامَ تِلكَ ٱلْأَصنَافِ وَلَا تُقَصِّرُ عَنْ تِلكَ ٱلدَّلَالَاتِ . وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلدَّلَائِلِ ٱلْخَمسَةِ صُورَةٌ بَائِنَةٌ مِنْ صُورَةِ صَاحِبَتِهَا وَحِليَةٌ مُخَالِفَةٌ لِحِليَةِ أُختِهَا . وَهِيَ ٱلَّتِي تَكْشِفُ لَكَ عَنْ اعيَانِ ٱلْمَعَانِي فِي ٱلْجُملَةِ وَعَنْ حَقَائِقِهَا فِي ٱلتَّفسِيرِ وَعَنْ اجنَاسِهَا وَاقدَارِهَا وَعَنْ خَاصِّهَا وَعَامِّهَا وَعَنْ طَبَقَاتِهَا فِي ٱلسَّارِّ وَٱلضَّارِّ وَعَمَّا يَكُونُ مِنهَا لَغوًا مُبَهرَجًا وَسَاقِطًا مُطَّرَحًا . وَفِي نَحوِ قَولِ ابِي عُثمَانَ (إِنَّ ٱلْمَعَانِيَ غَيرُ مَقصُورَةٍ وَلَا مَحْصُورَةٍ) يَقُولُ ابُو تَمَّامٍ ٱلطَّائِيُّ لِأَبِي دُلَفَ بنِ عِيسَى ٱلْعِجلِيِّ :

وَلَوْ كَانَ يَفنَى ٱلشِّعرُ افنَتهُ مَا قَرَتْ   حِيَاضُكَ مِنهُ فِي ٱلْعُصُورِ ٱلذَّوَاهِبِ
وَلٰكِنَّهُ فَيضُ ٱلْعُقُولِ إِذَا ٱنجَلَتْ   سَحَائِبُ مِنهُ أُعقِبَتْ بِسَحَائِبِ

وَقَالَ ابُو ٱلْعَبَّاسِ بنُ ٱلْمُعتَزِّ : لَحظَةُ ٱلْقَلبِ اسرَعُ مِنْ لَحظَةِ ٱلْعَينِ وَابعَدُ مَجَالًا وَهِيَ ٱلْغَائِصَةُ فِي اعمَاقِ اودِيَةِ ٱلْفِكرِ وَٱلْمُتَأَمِّلَةُ لِوُجُوهِ ٱلْعَوَاقِبِ وَٱلْجَامِعَةُ بَيْنَ مَا غَابَ وَحَضَرَ وَٱلْمِيزَانُ ٱلشَّاهِدُ عَلَى مَا نَفَعَ وَضَرَّ . وَٱلْقَلبُ كَٱلْمُمْلِي لِلْكَلَامِ عَلَى ٱللِّسَانِ إِذَا نَطَقَ وَٱلْيَدِ

إِذَا كَتَبْتَ . وَٱلْعَاقِلُ يَكْسُو ٱلْمَعَانِيَ وَشْيَ ٱلْكَلَامِ فِي قَلْبِهِ ثُمَّ يُبْدِيهَا بِأَلْفَاظٍ كَوَاسٍ فِي أَحْسَنِ زِينَةٍ . وَٱلْجَاهِلُ يَسْتَعْجِلُ بِإِظْهَارِ ٱلْمَعَانِي قَبْلَ ٱلْعِنَايَةِ بِتَزْيِينِ مَعَارِضِهَا وَٱسْتِكْمَالِ مَحَاسِنِهَا . قِيلَ لِبَشَّارِ ابْنِ بُرْدٍ : بِمَا فُقْتَ أَهْلَ عَصْرِكَ وَسَبَقْتَ أَهْلَ عَصْرِكَ فِي حُسْنِ مَعَانِي ٱلشِّعْرِ وَتَهْذِيبِ أَلْفَاظِهِ . فَقَالَ : لِأَنِّي لَمْ أَقْبَلْ كُلَّ مَا تُورِدُهُ عَلَيَّ قَرِيحَتِي وَيُنَاجِينِي بِهِ طَبْعِي وَيَبْعَثُهُ فِكْرِي . وَنَظَرْتُ إِلَى مَغَارِسِ ٱلْفِطَنِ وَمَعَادِنِ ٱلْحَقَائِقِ وَلَطَائِفِ ٱلتَّشْبِيهَاتِ فَسِرْتُ إِلَيْهَا بِفَهْمٍ جَيِّدٍ وَغَرِيزَةٍ قَوِيَّةٍ فَأَحْكَمْتُ سَبْرَهَا وَٱنْتَقَيْتُ حُرَّهَا وَكَشَفْتُ عَنْ حَقَائِقِهَا وَٱحْتَرَزْتُ مِنْ مُتَكَلَّفِهَا وَمَا مَلَكَ قِيَادِي قَطُّ ٱلْإِعْجَابُ بِشَيْءٍ مِمَّا آتِي بِهِ

البحث الرابع

في الحكم على المعاني

(من المثل السائر لابن الاثير باختصار وتصرّف)

فَائِدَةُ هٰذَا ٱلْفَصْلِ ٱلْإِحَاطَةُ بِأَسَالِيبِ ٱلْمَعَانِي عَلَى ٱخْتِلَافِهَا وَتَبَايُنِهَا . وَصَاحِبُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مُفْتَقِرٌ إِلَى هٰذَا ٱلْفَصْلِ وَٱلَّذِي يَلِيهِ بِخِلَافِ غَيْرِهِمَا مِنْ هٰذِهِ ٱلْفُصُولِ ٱلْمَذْكُورَةِ لَا سِيَّمَا مُفَسِّرِي ٱلْأَشْعَارِ فَإِنَّهُمْ بِهِ أَعْنَى . وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْأَصْلَ فِي ٱلْمَعْنَى أَنْ يُحْمَلَ عَلَى ظَاهِرِ لَفْظِهِ وَمَنْ يَذْهَبُ إِلَى ٱلتَّأْوِيلِ يَفْتَقِرُ إِلَى دَلِيلٍ كَقَوْلِ ٱلْقَائِلِ : وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . فَٱلظَّاهِرُ مِنْ لَفْظِ (ٱلثِّيَابِ) هُوَ مَا يُلْبَسُ وَمَنْ تَأَوَّلَ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ ٱلْمُرَادَ هُوَ ٱلْقَلْبُ لَا ٱلْمَلْبُوسُ . وَهٰذَا لَا بُدَّ لَهُ مِنْ

دَلِيلٍ لِأَنَّهُ عُدُولٌ عَنْ ظَاهِرِ ٱللَّفظِ . وَكَذٰلِكَ وَرَدَ عَنْ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ عَلَيهِ ٱلسَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ : إِذَا أَرَدتَّ أَنْ تُصَلِّيَ فَٱدْخُلْ بَيْتَكَ وَأَغْلِقْ بَابَكَ . فَٱلظَّاهِرُ مِنْ هٰذَا هُوَ ٱلْبَيْتُ وَٱلْبَابُ . وَمَنْ تَأَوَّلَ ذَهَبَ إِلَى أَنَّهُ أَرَادَ أَنَّكَ تَجْمَعُ عَلَيكَ هَمَّ قَلْبِكَ وَتَمْنَعُ أَنْ يَخْطُرَ بِهِ سِوَى أَمْرِ ٱلصَّلَاةِ . فَعَبَّرَ عَنِ ٱلْقَلْبِ بِٱلْبَيْتِ وَعَنْ مَنْعِ ٱلْخَوَاطِرِ ٱلَّتِي تَخْطُرُ لَهُ بِإِغْلَاقِ ٱلْبَابِ . وَهٰذَا يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ لِأَنَّهُ عُدُولٌ عَنْ ظَاهِرِ ٱللَّفظِ . فَٱلْمَعْنَى ٱلْمَحْمُولُ عَلَى ظَاهِرِهِ لَا يَقَعُ فِي تَفْسِيرِهِ خِلَافٌ وَٱلْمَعْنَى ٱلْمَعْدُولُ عَنْ ظَاهِرِهِ إِلَى ٱلتَّأْوِيلِ يَقَعُ فِيهِ ٱلْخِلَافُ إِذْ بَابُ ٱلتَّأْوِيلِ غَيْرُ مَحْصُورٍ . وَٱلْعُلَمَاءُ مُتَفَاوِتُونَ فِي هٰـذَا فَإِنَّهُ قَدْ يَأْخُذُ بَعْضُهُمْ وَجْهًا ضَعِيفًا مِنَ ٱلتَّأْوِيلِ فَيَكْسُوهُ بِعِبَارَتِهِ قُوَّةً تُمَـيِّزُهُ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ ٱلْوُجُوهِ ٱلْقَوِيَّةِ فَإِنَّ ٱلسَّيفَ بِضَارِبِهِ

إِنَّ ٱلسُّيُوفَ مَعَ ٱلَّذِينَ قُلُوبُهُمْ   كَقُلُوبِهِنَّ إِذَا ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ
تَلْقَى ٱلْحُسَامَ عَلَى جَرَاءَةِ حَدِّهِ   مِثْلَ ٱلْجَبَانِ بِكَفِّ كُلِّ جَبَانِ

وَهٰذَا ٱلْفَصْلُ ٱلَّذِي نَحْنُ بِصَدَدِ ذِكْرِهِ هَاهُنَا يَرْجِعُ أَكْثَرُهُ إِلَى ٱلتَّأْوِيلِ لِأَنَّهُ أَدَقُّ وَلَا يَخْلُو تَأْوِيلُ ٱلْمَعْنَى مِنْ ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ : إِمَّا أَنْ يُفْهَمَ مِنْهُ شَيْءٌ وَاحِدٌ لَا يُحْتَمَلُ غَيْرُهُ . وَإِمَّا أَنْ يُحْتَمَلَ ٱلشَّيْءُ وَغَيْرُهُ . وَتِلْكَ ٱلْغَيْرِيَّةُ إِمَّا أَنْ تَكُونَ ضِدًّا أَوْ لَا تَكُونَ ضِدًّا وَلَيسَ لَنَا قِسْمٌ رَابِعٌ . (فَٱلْأَوَّلُ) يَقَعُ عَلَيهِ أَكْثَرُ ٱلْأَشْعَارِ وَلَا يَجْرِي فِي ٱلدِّقَّةِ وَٱللَّطَافَةِ مَجْرَى ٱلْقِسْمَيْنِ ٱلْآخَرَيْنِ . (وَأَمَّا ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي) فَإِنَّهُ قَلِيلُ ٱلْوُقُوعِ جِدًّا وَهُوَ مِنَ ٱلتَّأْوِيلَاتِ ٱلْمَعْنَوِيَّةِ . لِأَنَّ

دَلَالَةَ ٱللَّفظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى وَضِدِّهِ اَغْرَبُ مِنْ دَلَالَتِهِ عَلَى ٱلْمَعْنَى وَغَيْرِهِ. فَمِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُهُ: اِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ. وَهٰذَا يَشْتَمِلُ عَلَى مَعْنَيَيْنِ ضِدَّيْنِ: (اَحَدُهُمَا) اَنَّ ٱلْمُرَادَ بِهِ اِذَا لَمْ تَفْعَلْ فِعْلاً تَسْتَحِي مِنْهُ فَافْعَلْ مَا شِئْتَ. (وَٱلْآخَرُ) اَنَّ ٱلْمُرَادَ بِهِ اِذَا لَمْ يَكُنْ لَكَ حَيَاءٌ يَنْزَعُكَ عَنْ فِعْلِ مَا يُسْتَحَى مِنْهُ فَافْعَلْ مَا شِئْتَ. وَهٰذَانِ مَعْنَيَانِ ضِدَّانِ اَحَدُهُمَا مَدْحٌ وَٱلْآخَرُ ذَمٌّ. وَيَجْرِي عَلَى هٰذَا ٱلنَّهْجِ مِنَ ٱلشِّعْرِ قَوْلُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ فِي قَصِيدَةٍ يَمْدَحُ بِهَا كَافُورًا:

وَاَظْلَمُ اَهْلِ ٱلظُّلْمِ مَنْ بَاتَ حَاسِدًا　　لِمَنْ بَاتَ فِي نَعْمَائِهِ يَتَقَلَّبُ

وَهٰذَا ٱلْبَيْتُ يُسْتَخْرَجُ مِنْهُ مَعْنَيَانِ ضِدَّانِ: (اَحَدُهُمَا) اَنَّ ٱلْمُنْعَمَ عَلَيْهِ يَحْسُدُ ٱلْمُنْعِمَ. (وَٱلْآخَرُ) اَنَّ ٱلْمُنْعِمَ يَحْسُدُ ٱلْمُنْعَمَ عَلَيْهِ. وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَوْلُهُ اَيْضًا مِنْ قَصِيدَةٍ يَمْدَحُهُ:

فَاِنْ نِلْتُ مَا اَمَّلْتُ مِنْكَ فَرُبَّمَا　　شَرِبْتُ بِمَاءٍ يُعْجِزُ ٱلطَّيْرَ وِرْدُهُ

فَاِنَّ هٰذَا ٱلْبَيْتَ يَحْتَمِلُ مَدْحًا وَذَمًّا وَاِذَا اُخِذَ بِمُفْرَدِهِ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ اِلَى مَا قَبْلَهُ فَاِنَّهُ يَكُونُ بِٱلذَّمِّ اَوْلَى مِنْهُ بِٱلْمَدْحِ لِاَنَّهُ يَتَضَمَّنُ وَصْفَ نَوَالِهِ بِٱلْبُعْدِ وَٱلشُّذُوذِ. وَصَدْرُ ٱلْبَيْتِ مُفْتَتَحٌ (بِإِنْ) ٱلشَّرْطِيَّةِ وَقَدْ اُجِيبَ بِلَفْظَةِ (رُبَّ) ٱلَّتِي مَعْنَاهَا ٱلتَّقْلِيلُ اَيْ: لَسْتُ مِنْ نَوَالِكَ عَلَى يَقِينٍ فَاِنْ نِلْتُهُ فَرُبَّمَا وَصَلْتُ اِلَى مَوْرِدٍ لَا يَصِلُ اِلَيْهِ ٱلطَّيْرُ لِبُعْدِهِ. وَاِذَا نُظِرَ اِلَى مَا قَبْلَ هٰذَا ٱلْبَيْتِ دَلَّ عَلَى ٱلْمَدْحِ خَاصَّةً لِاَرْتِبَاطِهِ بِٱلْمَعْنَى ٱلَّذِي قَبْلَهُ. وَكَثِيرًا مَا كَانَ يَقْصِدُ ٱلْمُتَنَبِّي هٰذَا ٱلْقِسْمَ فِي شِعْرِهِ كَقَوْلِهِ مِنْ قَصِيدَةٍ اَوَّلُهَا:

عَدُوُّكَ مَذْمُومٌ بِكُلِّ لِسَانِ وَلَوْ كَانَ مِنْ أَعْدَائِكَ ٱلْقَمَرَانِ
وَلِلّٰهِ سِرٌّ فِي عُلَاكَ وَإِنَّمَا كَلَامُ ٱلْعِدَى ضَرْبٌ مِنَ ٱلْهَذَيَانِ

ثُمَّ قَالَ :

فَمَا لَكَ تُعْنِي بِٱلْأَسِنَّةِ وَٱلْقَنَا وَجَدُّكَ طَعَّانٌ بِغَيْرِ سِنَانِ

فَإِنَّ هٰذَا بِٱلذَّمِّ أَشْبَهُ مِنْهُ بِٱلْمَدْحِ لِأَنَّهُ يَقُولُ : لَمْ تَبْلُغْ مَا بَلَغْتَهُ بِسَعْيِكَ وَاهْتِمَامِكَ بَلْ بِجَدٍّ وَسَعَادَةٍ . وَهٰذَا لَا فَضْلَ فِيهِ لِأَنَّ ٱلسَّعَادَةَ تَنَالُ ٱلْخَامِلَ وَٱلْجَاهِدَ وَمَنْ لَا يَسْتَحِقُّهَا . وَأَكْثَرُ مَا كَانَ ٱلْمُتَنَبِّي يَسْتَعْمِلُ هٰذَا ٱلْقِسْمَ فِي قَصَائِدِهِ ٱلْكَافُورِيَّاتِ . . . وَهٰذَا ٱلْقِسْمُ مِنَ ٱلْكَلَامِ يُسَمَّى ٱلْمُوَجَّهَ أَيْ لَهُ وَجْهَانِ وَهُوَ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى بَرَاعَةِ ٱلشَّاعِرِ وَحُسْنِ تَأَتِّيهِ . (وَأَمَّا ٱلْقِسْمُ ٱلثَّالِثُ) فَإِنَّهُ يَكُونُ أَكْثَرَ وُقُوعًا مِنَ ٱلْقِسْمِ ٱلثَّانِي وَهُوَ وَاسِطَةٌ بَيْنَ طَرَفَيْنِ . لِأَنَّ ٱلْقِسْمَ ٱلْأَوَّلَ كَثِيرُ ٱلْوُقُوعِ . وَٱلْقِسْمَ ٱلثَّانِي قَلِيلُ ٱلْوُقُوعِ . وَهٰذَا ٱلْقِسْمُ ٱلثَّالِثُ وَسَطٌ بَيْنَهُمَا فَمِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُهُ : وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ . فَإِنَّ هٰذَا لَهُ وَجْهَانِ مِنَ ٱلتَّأْوِيلِ أَحَدُهُمَا ٱلْقَتْلُ ٱلْحَقِيقِيُّ ٱلَّذِي هُوَ مَعْرُوفٌ وَٱلْآخَرُ هُوَ ٱلْقَتْلُ ٱلْمَجَازِيُّ وَهُوَ ٱلْإِكْبَابُ عَلَى ٱلْمَعَاصِي فَإِنَّ ٱلْإِنْسَانَ إِذَا أَكَبَّ عَلَى ٱلْمَعَاصِي قَتَلَ نَفْسَهُ فِي ٱلْآخِرَةِ . . . . وَمِمَّا يَجْرِي عَلَى هٰذَا ٱلنَّهْجِ مَا يُحْكَى عَنْ أَفْلَاطُونَ أَنَّهُ قَالَ : تَرْكُ ٱلدَّوَاءِ دَوَاءٌ . فَذَهَبَ بَعْضُ ٱلْأَطِبَّاءِ إِلَى أَنَّهُ أَرَادَ : إِنْ لَطُفَ ٱلْمِزَاجُ وَٱنْتَهَى إِلَى غَايَةٍ لَا يَحْتَمِلُ ٱلدَّوَاءَ فَتَرْكُهُ حِينَئِذٍ وَٱلْإِضْرَابُ عَنْهُ دَوَاءٌ . وَذَهَبَ آخَرُونَ إِلَى أَنَّهُ أَرَادَ بِٱلتَّرْكِ ٱلْوَضْعَ أَيْ : وَضْعُ ٱلدَّوَاءِ عَلَى ٱلدَّاءِ دَوَاءٌ . يُشِيرُ بِذٰلِكَ

إِلَى حِذْقِ ٱلطَّبِيبِ فِي اوقَاتِ عِلَاجِهِ. وَمِثْلُهُ فِي ٱلشِّعْرِ قَوْلُ ٱلفَرَزْدَقِ:

إِذَا جَعْفَرٌ مَرَّتْ عَلَى هَضْبَةِ ٱلْحِمَى فَقَدْ لَخَذَ ٱلْاَحْيَاءَ مِنْهَا قُبُورُهَا

وَهٰذَا يَدُلُّ عَلَى مَعْنَيَيْنِ: (اَحَدُهُمَا) ذَمُّ ٱلْاَحْيَاءِ وَٱلْآخَرُ ذَمُّ ٱلْاَمْوَاتِ. اَمَّا (ذَمُّ ٱلْاَحْيَاءِ) فَهُوَ اَنَّهُمْ خَذَلُوا ٱلْاَمْوَاتَ يُرِيدُ اَنَّهُمْ تَلَاقَوْا قِتَالَهُمْ وَقَوْمًا آخَرِينَ فَفَرَّ ٱلْاَحْيَاءُ عَنْهُمْ وَاَسْلَمُوهُمْ اَوْ اِنَّهُمُ ٱسْتَنْجَدُوهُمْ فَلَمْ يُنْجِدُوهُمْ. وَاَمَّا (ذَمُّ ٱلْاَمْوَاتِ) فَهُوَ اَنَّ لَهُمْ مَخَازِيَ وَفَضَائِحَ تُوجِبُ عَارًا وَشَنَارًا فَهُمْ يَعُدُّونَ بِهَا ٱلْاَحْيَاءَ وَيُلْصِقُونَهَا بِهِمْ. وَعَلَى هٰذَا وَرَدَ قَوْلُ اَبِي تَمَّامٍ:

بِٱلشِّعْرِ طُولٌ إِذَا ٱصْطَكَّتْ قَصَائِدُهُ
فِي مَعْشَرٍ وَبِهِ عَنْ مَعْشَرٍ قِصَرُ

فَهٰذَا ٱلْبَيْتُ يَحْتَمِلُ تَأْوِيلَيْنِ. (اَحَدُهُمَا) اَنَّ ٱلشِّعْرَ يَتَّسِعُ مَجَالُهُ بِمَدْحِكَ وَيَضِيقُ بِمَدْحِ غَيْرِكَ. يُرِيدُ بِذٰلِكَ اَنَّ مَآثِرَهُ كَثِيرَةٌ وَمَآثِرَ غَيْرِهِ قَلِيلَةٌ. (وَٱلْآخَرُ) اَنَّ ٱلشِّعْرَ يَكُونُ ذَا فَخْرٍ وَنَبَاهَةٍ بِمَدْحِكَ وَذَا خُمُولٍ بِمَدْحِ غَيْرِكَ. فَلَفْظَةُ ٱلطُّولِ: يُفْهَمُ مِنْهَا ضِدُّ ٱلْقِصَرِ وَيُفْهَمُ مِنْهَا ٱلْفَخْرُ مِنْ قَوْلِنَا: طَالَ فُلَانٌ عَلَى فُلَانٍ اَيْ فَخَرَ عَلَيْهِ. وَمِمَّا يَنْتَظِمُ بِهٰذَا ٱلسِّلْكِ قَوْلُ اَبِي كَبِيرٍ ٱلْهُذَلِيِّ:

عَجِبْتُ لِسَعْيِ ٱلدَّهْرِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَلَمَّا ٱنْقَضَى مَا بَيْنَنَا سَكَنَ ٱلدَّهْرُ

وَهٰذَا يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ مِنَ ٱلتَّأْوِيلِ. (اَحَدُهُمَا) اَنَّهُ اَرَادَ بِسَعْيِ ٱلدَّهْرِ سُرْعَةَ تَقَضِّي ٱلْاَوْقَاتِ مُدَّةَ ٱلْوِصَالِ. فَلَمَّا ٱنْقَضَى ٱلْوَصْلُ عَادَ ٱلدَّهْرُ إِلَى حَالَتِهِ فِي ٱلسُّكُونِ وَٱلْبُطْءِ. (وَٱلْآخَرُ) اَنَّهُ اَرَادَ بِسَعْيِ

ٱلدَّهْرِ بِٱلنَّمَائِمِ وَٱلْوِشَايَاتِ فَلَمَّا ٱنْقَضَى مَا كَانَ بَيْنَهُمَا مِنَ ٱلْوَصْلِ سَكَنُوا أَوْ تَرَكُوا ٱلسِّعَايَةَ . وَهٰذَا مِنْ بَابِ وَضْعِ ٱلْمُضَافِ إِلَيْهِ مَكَانَ ٱلْمُضَافِ كَقَوْلِهِ : وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ أَيْ أَهْلَ ٱلْقَرْيَةِ . وَمِنَ ٱلدَّقِيقِ ٱلْمَعْنَى فِي هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي فِي عَضُدِ ٱلدَّوْلَةِ مِنْ جُمْلَةِ قَصِيدَتِهِ ٱلَّتِي أَوَّلُهَا (أَوْهِ بَدِيلٌ مِنْ قَوْلَتِي وَاهَا) فَقَالَ :

لَوْ فَطِنَتْ خَيْلُهُ لِنَائِـلِهِ　　　لَمْ يُرْضِهَا أَنْ تَرَاهُ يَرْضَاهَا

وَهٰذَا يُسْتَنْبَطُ مِنْهُ مَعْنَيَانِ . (أَحَدُهُمَا) أَنَّ خَيْـلَهُ لَوْ عَلِمَتْ مِقْدَارَ عَطَايَاهُ ٱلنَّفِيسَةِ لَمَا رَضِيَتْ لَهُ بِأَنْ تَكُونَ مِنْ جُمْلَةِ عَطَايَاهُ لِأَنَّ عَطَايَاهُ أَنْفَسُ مِنْهَا . (ٱلْآخَرُ) أَنَّ خَيْلَهُ لَوْ عَلِمَتْ أَنَّهُ يَهَبُهَا مِنْ جُمْلَةِ عَطَايَاهُ لَمَا رَضِيَتْ ذٰلِكَ إِذْ تَكْرَهُ خُرُوجَهَا عَنْ مُلْكِهِ . وَهٰذَانِ ٱلْوَجْهَانِ أَنَا ذَكَرْتُهُمَا وَإِنَّمَا ٱلْمَذْكُورُ مِنْهُمَا أَحَدُهُمَا . وَهٰذَا ٱلَّذِي أَشَرْتُ إِلَيْهِ مِنَ ٱلْكَلَامِ عَلَى ٱلْمَعَانِي وَتَأْوِيلَاتِهَا كَافٍ لِمَنْ عِنْدَهُ ذَوْقٌ وَلَهُ قُوَّةٌ عَلَى حَمْلِهَا عَلَى أَشْبَاهِهَا وَنَظَائِرِهَا

البحث الخامس

في التَّرجيح بين المعاني

(عن المثل السائر باختصار)

هٰذَا ٱلْفَصْلُ هُوَ مِيزَانُ ٱلْخَوَاطِرِ ٱلَّذِي يُوزَنُ بِهِ نَقْـدُ دِرْهَمِهَا وَدِينَارِهَا بَلِ ٱلْمِحَكُّ ٱلَّذِي يُعْلَمُ مِنْهُ مِقْدَارُ عِيَارِهَا وَلَا يَزِنُ بِهِ إِلَّا ذُو فِكْرَةٍ مُتَّقِدَةٍ وَلَمْحَةٍ مُنْتَقِدَةٍ . فَلَيْسَ كُلُّ مَنْ حَمَلَ مِيزَانًا سُمِّيَ صَرَّافًا .

وَلَا كُلُّ مَنْ وَزَنَ بِهِ سُمِّيَ عَرَّافًا . وَٱلْفَرْقُ بَيْنَ هٰذَا ٱلتَّرْجِيحِ وَٱلتَّرْجِيحِ ٱلْفِقْهِيِّ أَنَّ هُنَاكَ يُرَجِّحُ بَيْنَ دَلِيلَيِ ٱلْخَصْمَيْنِ فِي حُكْمٍ شَرْعِيٍّ وَهٰهُنَا يُرَجِّحُ بَيْنَ جَانِبَيْ فَصَاحَةٍ وَبَلَاغَةٍ فِي أَلْفَاظٍ وَمَعَانٍ خِطَابِيَّةٍ . وَبَيَانُ ذٰلِكَ أَنَّ صَاحِبَ ٱلتَّرْجِيحِ ٱلْفِقْهِيِّ يُرَجِّحُ بَيْنَ خَبَرِ ٱلتَّوَاتُرِ مَثَلًا وَبَيْنَ خَبَرِ ٱلْآحَادِ أَوْ بَيْنَ ٱلْمُسْنَدِ وَٱلْمُرْسَلِ أَوْ مَا جَرَى هٰذَا ٱلْمَجْرَى ; وَهٰذَا لَا يُعَرِّضُ إِلَيْهِ صَاحِبُ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ وَلٰكِنَّ ٱلَّذِي هُوَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُرَجِّحَ بَيْنَ حَقِيقَةٍ وَمَجَازٍ أَوْ بَيْنَ حَقِيقَتَيْنِ أَوْ بَيْنَ مَجَازَيْنِ وَيَكُونَ نَاظِرًا فِي ذٰلِكَ كُلِّهِ إِلَى ٱلصِّنَاعَةِ ٱلْخِطَابِيَّةِ . وَرُبَّمَا ٱتَّفَقَ هُوَ وَصَاحِبُ ٱلتَّرْجِيحِ ٱلْفِقْهِيِّ فِي بَعْضِ ٱلْمَوَاضِعِ كَٱلتَّرْجِيحِ بَيْنَ عَامٍّ وَخَاصٍّ أَوْ مَا شَابَهَ ذٰلِكَ . وَكُنَّا قَدْ قَدَّمْنَا ٱلْقَوْلَ فِي ٱلْحُكْمِ عَلَى ٱلْمَعَانِي وَأَقْسَامِهَا . وَلْنُبَيِّنْ فِي هٰذَا ٱلْفَصْلِ مَوَاضِعَ ٱلتَّرْجِيحِ بَيْنَ وُجُوهِ تَأْوِيلَاتِهَا فَنَقُولُ : (أَمَّا ٱلْقِسْمُ ٱلْأَوَّلُ) مِنَ ٱلْمَعَانِي فَلَا تَعَلُّقَ لِلتَّرْجِيحِ بِهِ إِذْ مَا دَلَّ عَلَيْهِ ظَاهِرُ لَفْظِهِ لَا يَحْتَمِلُ إِلَّا وَجْهًا وَاحِدًا فَلَيْسَ مِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ فِي شَيْءٍ . وَٱلتَّرْجِيحُ إِنَّمَا يَقَعُ بَيْنَ مَعْنَيَيْنِ يَدُلُّ عَلَيْهِمَا لَفْظٌ وَاحِدٌ وَلَا يَخْلُو ٱلتَّرْجِيحُ بَيْنَهُمَا مِنْ ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ إِمَّا أَنْ يَكُونَ ٱللَّفْظُ حَقِيقَةً فِي أَحَدِهِمَا مَجَازًا فِي ٱلْآخَرِ . أَوْ حَقِيقَةً فِيهِمَا جَمِيعًا أَوْ مَجَازًا فِيهِمَا جَمِيعًا وَلَيْسَ لَنَا قِسْمٌ رَابِعٌ . وَٱلتَّرْجِيحُ بَيْنَ ٱلْحَقِيقَتَيْنِ أَوْ بَيْنَ ٱلْمَجَازَيْنِ يَحْتَاجُ إِلَى نَظَرٍ . (وَأَمَّا ٱلتَّرْجِيحُ بَيْنَ ٱلْحَقِيقَةِ وَٱلْمَجَازِ) فَإِنَّهُ يُعْلَمُ بِبَدِيهَةِ ٱلنَّظَرِ لِمَكَانِ ٱلِٱخْتِلَافِ بَيْنَهُمَا . وَٱلشَّيْئَانِ ٱلْمُخْتَلِفَانِ يَظْهَرُ ٱلْفَرْقُ بَيْنَهُمَا بِخِلَافِ مَا يَظْهَرُ بَيْنَ ٱلشَّيْئَيْنِ ٱلْمُشْتَبِهَيْنِ . . . .

(وَامَّا مِثَالُ ٱلْمَعْنَيَيْنِ) إِذَا كَانَا حَقِيقِيَّيْنِ فَقَوْلُهُ : ٱلْتَمِسُوا ٱلرِّزْقَ فِي خَبَايَا ٱلْأَرْضِ وَٱلْخَبَايَا جَمْعُ خَبِيَّةٍ وَهُوَ كُلُّ مَا يُخْبَأُ كَائِنًا مَا كَانَ . وَهٰذَا يَدُلُّ عَلَى مَعْنَيَيْنِ حَقِيقِيَّيْنِ : (احَدُهُمَا) ٱلْكُنُوزُ ٱلْمَخْبُوءَةُ فِي بُطُونِ ٱلْأَرْضِ. (وَٱلْآخَرُ) ٱلْحَرْثُ وَٱلْغِرَاسُ. وَجَانِبُ ٱلْحَرْثِ وَٱلْغِرَاسِ ارْجَحُ لِأَنَّ مَوَاضِعَ ٱلْكُنُوزِ لَا تُعْلَمُ حَتَّى تُلْتَمَسَ وَهُوَ لَا يَأْمُرُ بِذٰلِكَ لِأَنَّهُ شَيْءٌ مَجْهُولٌ غَيْرُ مَعْلُومٍ فَبَقِيَ ٱلْمُرَادُ بِخَبَايَا ٱلْأَرْضِ مَا يُحْرَثُ وَيُغْرَسُ.

(وَامَّا مِثَالُ ٱلْمَجَازِيَّيْنِ) فَقَوْلُ ابِي تَمَّامٍ :

قَدْ بَلَوْنَا ابَا سَعِيدٍ حَدِيثًا   وَبَلَوْنَا ابَا سَعِيدٍ قَدِيمَا

وَوَرَدْنَاهُ سَاحِلًا وَقَلِيبًا   وَرَعَيْنَاهُ بَارِضًا وَجَمِيمَا

فَعَلِمْنَا انْ لَيْسَ إِلَّا بِشَقِّ ٱلنَّفْـ   ـسِ صَارَ ٱلْكَرِيمُ يُدْعَى كَرِيمَا

فَٱلسَّاحِلُ وَٱلْقَلِيبُ يُسْتَخْرَجُ مِنْهُمَا تَأْوِيلَانِ مَجَازِيَّانِ : (احَدُهُمَا) انَّهُ ارَادَ بِهِمَا ٱلْكَثِيرَ وَٱلْقَلِيلَ بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلسَّاحِلِ وَٱلْقَلِيبِ . (وَٱلْآخَرُ) انَّهُ ارَادَ بِهِمَا ٱلسَّبَبَ وَغَيْرَ ٱلسَّبَبِ . فَإِنَّ ٱلسَّاحِلَ لَا يُحْتَاجُ فِي وِرْدِهِ إِلَى سَبَبٍ وَٱلْقَلِيبُ يُحْتَاجُ فِي وِرْدِهِ إِلَى سَبَبٍ. وَكِلَا هٰذَيْنِ ٱلْمَعْنَيَيْنِ مَجَازٌ . فَإِنَّ حَقِيقَةَ ٱلسَّاحِلِ وَٱلْقَلِيبِ غَيْرُهُمَا وَٱلْوَجْهُ هُوَ ٱلثَّانِي لِأَنَّهُ هُوَ ادَلُّ عَلَى بَلَاغَةِ ٱلْقَائِلِ وَمَدْحِ ٱلْمَقُولِ فِيهِ. امَّا بَلَاغَةُ ٱلْقَائِلِ فَٱلسَّلَامَةُ مِنْ هُجْنَةِ ٱلتَّكْرِيرِ بِٱلْمُخَالَفَةِ بَيْنَ صَدْرِ ٱلْبَيْتِ وَعَجُزِهِ . فَإِنَّ عَجُزَهُ يَدُلُّ عَلَى ٱلْقَلِيلِ وَٱلْكَثِيرِ لِأَنَّ ٱلْبَارِضَ هُوَ اوَّلُ ٱلنَّبْتِ حِينَ يَبْدُو فَإِذَا كَثُرَ وَتَكَاثَفَ سُمِّيَ جَمِيمًا. فَكَأَنَّهُ قَالَ : اخَذْنَا مِنْهُ تَبَرُّعًا وَمَسْئَلَةً وَقَلِيلًا وَكَثِيرًا . وَامَّا مَدْحُ ٱلْمَقُولِ

فِيهِ فَلِتَعْدَادِ حَالَاتِهِ ٱلْأَرْبَعِ فِي تَبَرُّعِهِ وَسُؤَالِهِ وَإِكْثَارِهِ وَإِقْلَالِهِ وَمَا فِي مُعَانَاةِ هٰذِهِ ٱلْأَحْوَالِ مِنَ ٱلْمَشَاقِّ . فَهٰذَا إِمَّا يَتَعَلَّقُ بِٱلتَّرْجِيحِ ٱلْبَلَاغِيِّ بَيْنَ ٱلْحَقِيقَةِ وَٱلْحَقِيقَةِ وَبَيْنَ ٱلْمَجَازِ وَٱلْمَجَازِ وَبَيْنَ ٱلْحَقِيقَةِ وَٱلْمَجَازِ

البحث السادس

في الفصل والوصل

(عن صناعة الترسُّل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

(راجع صفحة ١٨ من علم الادب)

ٱلْفَصْلُ وَٱلْوَصْلُ هُوَ ٱلْعِلْمُ بِمَوَاضِعِ ٱلْعَطْفِ وَٱلِٱسْتِئْنَافِ وَٱلْهُدَى إِلَى كَيْفِيَّةِ إِيقَاعِ حُرُوفِ ٱلْعَطْفِ فِي مَوَاضِعِهَا. وَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ أَرْكَانِ ٱلْبَلَاغَةِ حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ حَدَّ ٱلْبَلَاغَةَ بِأَنَّهَا مَعْرِفَةُ ٱلْفَصْلِ وَٱلْوَصْلِ. وَقَالَ عَبْدُ ٱلْقَاهِرِ : إِنَّهُ لَا يَكْمُلُ لِإِحْرَازِ ٱلْفَضِيلَةِ فِيهِ أَحَدٌ إِلَّا كَمَلَ لِسَائِرِ مَعَانِي ٱلْبَلَاغَةِ . اِعْلَمْ أَنَّ فَائِدَةَ ٱلْعَطْفِ ٱلتَّشْرِيكُ بَيْنَ ٱلْمَعْطُوفِ وَٱلْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ . ثُمَّ مِنَ ٱلْحُرُوفِ ٱلْعَاطِفَةِ مَا لَا يُفِيدُ إِلَّا هٰذَا ٱلْقَدْرَ وَهُوَ ٱلْوَاوُ. وَمِنْهَا مَا يُفِيدُ فَائِدَةً زَائِدَةً كَٱلْفَاءِ وَثُمَّ وَأَوْ. وَغَرَضُنَا هَا هُنَا مُتَعَلِّقٌ بِمَا لَا يُفِيدُ إِلَّا ٱلِٱشْتِرَاكَ فَنَقُولُ : ٱلْعَطْفُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي ٱلْمُفْرَدَاتِ كَقَوْلِكَ : مَرَرْتُ بِرَجُلٍ خَلْقُهُ حَسَنٌ وَخُلُقُهُ قَبِيحٌ . فَقَدْ أَشْرَكْتَ بَيْنَهُمَا فِي ٱلْإِعْرَابِ وَٱلْمَعْنَى لِٱشْتِرَاكِهِمَا فِي كَوْنِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُقَيِّدًا لِلْمَوْصُوفِ . وَلَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ مَعْنًى يَقَعُ ذٰلِكَ ٱلِٱشْتِرَاكُ فِيهِ وَحَتَّى يَكُونَا كَٱلنَّظِيرَيْنِ وَٱلشَّرِيكَيْنِ بِحَيْثُ إِذَا عَرَفَ

ٱلسَّامِعِ حَالَةَ ٱلْأَوَّلِ عَسَاهُ يَعْرِفُ حَالَةَ ٱلثَّانِي. يَدُلُّكَ عَلَى ذٰلِكَ أَنَّكَ إِذَا عَطَفْتَ عَلَى ٱلْأَوَّلِ شَيْئًا لَيْسَ مِنْهُ سَبَبٌ وَلَا هُوَ مِمَّا يُذْكَرُ بِذِكْرِهِ لَمْ يَسْتَقِمْ. فَلَوْ قُلْتَ: (خَرَجْتُ ٱلْيَوْمَ مِنْ دَارِي وَأَحْسَنَ ٱلَّذِي يَقُولُ بَيْتَ كَذَا) قُلْتَ مَا يُضْحِكُ مِنْهُ. وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي قُوَّةِ ٱلْمُفْرَدِ فَهُوَ عَلَى قِسْمَيْنِ: (ٱلْأَوَّلُ) أَنْ يَكُونَ مَعْنَى إِحْدَى ٱلْجُمْلَتَيْنِ لِذَاتِهِ مُتَعَلِّقًا بِمَعْنَى ٱلْأُخْرَى كَمَا إِذَا كَانَتْ كَالتَّوْكِيدِ لَهَا أَوْ كَالصِّفَةِ فَلَا يَجُوزُ إِدْخَالُ ٱلْعَاطِفِ عَلَيْهِ لِأَنَّ ٱلتَّوْكِيدَ وَٱلصِّفَةَ مُتَعَلِّقَانِ بِٱلْمُؤَكَّدِ وَٱلْمَوْصُوفِ لِذَاتَيْهِمَا. وَٱلتَّعَلُّقُ ٱلذَّاتِيُّ يُغْنِي عَنْ لَفْظٍ يَدُلُّ عَلَى ٱلتَّعَلُّقِ. فَمِثَالُ ٱلتَّوْكِيدِ قَوْلُهُ: وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِٱللهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُونَ ٱللهَ. وَلَمْ يَقُلْ: (وَيُخَادِعُونَ) لِأَنَّ ٱلْمُخَادَعَةَ لَيْسَتْ شَيْئًا غَيْرَ قَوْلِهِمْ: آمَنَّا مَعَ أَنَّهُمْ غَيْرُ مُؤْمِنِينَ. وَمِمَّا جَاءَ فِيهِ ٱلْإِثْبَاتُ (بِإِنْ وَإِلَّا) عَلَى هٰذَا ٱلْحَدِّ قَوْلُهُ: إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى. فَٱلْإِثْبَاتُ فِي قَوْلِهِ تَأْكِيدٌ لِنَفْيِ مَا يُنْفَى. (ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي) أَنْ يَكُونَ بَيْنَ ٱلْجُمْلَتَيْنِ تَعَلُّقٌ ذَاتِيٌّ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا مُنَاسَبَةٌ فَيَجِبُ تَرْكُ ٱلْعَاطِفِ أَيْضًا لِأَنَّ ٱلْعَطْفَ لِلتَّشْرِيكِ وَلَا تَشْرِيكَ. وَمِنْ هَا هُنَا عَابُوا عَلَى أَبِي تَمَّامٍ قَوْلَهُ:

لَا وَٱلَّذِي عَالِمٌ أَنَّ ٱلنَّوَى   مُرٌّ وَأَنَّ أَبَا ٱلْحُسَيْنِ كَرِيمُ

إِذْ لَا مُنَاسَبَةَ بَيْنَ مَرَارَةِ ٱلنَّوَى وَبَيْنَ كَرَمِ أَبِي ٱلْحُسَيْنِ. وَلِذٰلِكَ لَمْ يُحْسِنْ جَوَازَ ٱلْعَاطِفِ. وَإِنْ كَانَ بَيْنَهُمَا مُنَاسَبَةٌ فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ بِٱلَّذِي أُخْبِرَ بِهِمَا أَوْ بِٱلَّذِي أُخْبِرَ عَنْهُمَا أَوْ بِهِمَا كِلَيْهِمَا. وَهٰذَا ٱلْأَخِيرُ

هُوَ ٱلْمُعْتَبَرُ فِي ٱلعطْفِ ومَعْنَى ٱلْمُنَاسَبَةِ انْ يَكُونَا مُتَشَابِهَيْنِ كَقَوْلِكَ : زَيْدٌ كَاتِبٌ وَعَمْرٌو . اوْ مُتَضَادَّيْنِ تَضَادًّا عَلَى ٱلْخُصُوصِ كَقَوْلِكَ : زَيْدٌ طَوِيلٌ وَعَمْرٌو قَصِيرٌ . وَكَقَوْلِكَ : ٱلعِلْمُ حَسَنٌ وَٱلْجَهْلُ قَبِيحٌ . فَلَوْ قُلْتَ : زَيْدٌ طَوِيلٌ وعَمْرٌو شَاعِرٌ لَٱخْتَلَّ إِذْ لَا مُنَاسَبَةَ بَيْنَ طُولِ ٱلْقَامَةِ وَٱلشِّعْرِ . وَإِنْ كَانَ ٱلْمُحَدَّثُ عَنْهُ فِي ٱلْجُمْلَتَيْنِ شَيْئًا وَاحِدًا كَقَوْلِكَ : فُلَانٌ يَقُولُ وَيَفْعَلُ وَيَضُرُّ وَيَنْفَعُ وَيَأْمُرُ وَيَنْهَى وَيُسِيءُ وَيُحْسِنُ . يَجِبُ إِدْخَالُ ٱلْعَاطِفِ فَإِنَّ ٱلْغَرَضَ جَعْلُهُ فَاعِلًا لِلْأَمْرَيْنِ . فَلَوْ قُلْتَ : يَقُولُ يَفْعَلُ بِلَا عَاطِفٍ لَتُوُهِّمَ انَّ ٱلثَّانِيَ رُجُوعٌ عَنِ ٱلْأَوَّلِ . وَإِذَا افَادَ ٱلْعَاطِفُ ٱلِٱجْتِمَاعَ ٱزْدَادَ ٱلِٱشْتِرَاكُ كَقَوْلِكَ : ٱلْعَجَبُ مِنْ انَّكَ احْسَنْتَ وَاسَأْتَ . وَٱلْعَجَبُ مِنْ انَّكَ تَنْهَى عَنْ شَيْءٍ تَأْتِي مِثْلَهُ . وَكَقَوْلِهِ :

لَا تَطْمَعُوا انْ تُهِينُونَا وَنُكْرِمَكُمْ وَانْ نَكُفَّ ٱلْأَذَى عَنْكُمْ وَتُؤْذُونَا

فَإِنَّ ٱلْمَعْنَى جَعْلَ ٱلْفِعْلَيْنِ فِي حُكْمٍ وَاحِدٍ اي لَا تَطْمَعُوا انْ تَرَوْا إِكْرَامَنَا إِيَّاكُمْ يُوجَدُ مَعَ إِهَانَتِكُمْ إِيَّانَا . وَٱعْلَمْ انَّهُ قَدْ يَجِبُ إِسْقَاطُ ٱلْعَاطِفِ فِي بَعْضِ ٱلْمَوَاضِعِ لِٱخْتِلَالِ ٱلْمَعْنَى عِنْدَ إِثْبَاتِهِ كَقَوْلِهِ : وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوا : إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ . فَقَوْلُهُ : (أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ) كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ وَهُوَ إِخْبَارٌ مِنْهُ . فَلَوْ اتَى بِٱلْوَاوِ لَكَانَ إِخْبَارًا عَنِ ٱلْيَهُودِ بِأَنَّهُمْ وَصَفُوا انْفُسَهُمْ بِأَنَّهُمْ مُفْسِدُونَ فَيَخْتَلُّ ٱلْمَعْنَى . قَالَ عَبْدُ ٱلْقَاهِرِ : وَإِذَا ٱسْتَقْرَيْتَ وَجَدْتَ هٰذَا ٱلَّذِي ذَكَرْتُ لَكَ مِنْ تَنْزِيلِهِمِ ٱلْكَلَامَ إِذَا جَاءَ بِعَقِبِ مَا يَقْتَضِي سُؤَالًا تَنْزِلَتَهُ إِذَا صُرِّحَ بِذٰلِكَ ٱلسُّؤَالِ

كَثِيرًا. فَمِنْ لَطِيفِ ذٰلِكَ قَوْلُهُ :

زَعَمَ ٱلْعَوَاذِلُ أَنَّنِي فِي غَمْرَةٍ صَدَقُوا وَلٰكِنْ غَمْرَتِي لَا تَنْجَلِي

لَمَّا حَكَى عَنِ ٱلْعَوَاذِلِ قَوْلَهُمْ إِنَّهُ فِي غَمْرَةٍ وَكَانَ ذٰلِكَ مِمَّا يُحَرِّكُ ٱلسَّامِعَ عَلَى أَنْ يَسْأَلَهُ: فَمَا جَوَابُكَ عَنْ ذٰلِكَ. أَخْرَجَ ٱلْكَلَامَ مُخْرَجَهُ إِذَا كَانَ قَدْ قِيلَ فَقَالَ: أَقُولُ صَدَقُوا. أَنَا كَمَا قَالُوا وَلٰكِنْ لَا مَطْمَعَ لَهُمْ فِي فَلَاحِي. وَلَوْ قَالَ : وَصَدَقُوا لٰكِنْ لَمْ يَضَعْ نَفْسَهُ فِي أَنَّهُ مَسْئُولٌ. وَأَمْثَالُ ذٰلِكَ كَثِيرَةٌ. وَإِذَا كَانَ كَذٰلِكَ فَلَا حَاجَةَ إِلَى ٱلْعَاطِفِ بِخِلَافِ قَوْلِهِ : يُخَادِعُونَ ٱللّٰهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ. وَمَكَرُوا وَمَكَرَ ٱللّٰهُ : فَإِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْجُمْلَتَيْنِ خَبَرٌ

(وَمِمَّا يَجِبُ) ذِكْرُهُ هَا هُنَا ٱلْجُمْلَةُ إِذَا وَقَعَتْ حَالًا فَإِنَّهَا تَجِيءُ مَعَ ٱلْوَاوِ تَارَةً وَبِدُونِهَا أُخْرَى. فَنَقُولُ ٱلْجُمْلَةُ إِذَا وَقَعَتْ حَالًا فَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ خَبَرِيَّةً تَحْتَمِلُ ٱلصِّدْقَ وَٱلْكَذِبَ وَهُوَ عَلَى قِسْمَيْنِ: (ٱلْأَوَّلُ) وَلَهُ أَحْوَالٌ: (ٱلْأُولَى) أَنْ يُجْمَعَ لَهَا بَيْنَ ٱلْوَاوِ وَضَمِيرِ صَاحِبِ ٱلْحَالِ كَقَوْلِكَ: جَاءَ زَيْدٌ وَمَعَهُ غُلَامُهُ وَلَقِيتُ زَيْدًا وَفَرَسُهُ سَابِقُهُ. وَهٰذِهِ ٱلْوَاوُ تُسَمَّى وَاوَ ٱلْحَالِ. (ٱلثَّانِيَةُ) أَنْ تَجِيءَ بِٱلضَّمِيرِ مِنْ غَيْرِ وَاوٍ كَقَوْلِكَ : كَلَّمْتُهُ فُوهُ إِلَى فِيَّ. وَهُوَ فِي مَعْنَى مُشَافِهًا وَٱلرَّابِطُ ٱلضَّمِيرُ. (ٱلثَّالِثَةُ) أَنْ تَجِيءَ بِٱلْوَاوِ مِنْ غَيْرِ ضَمِيرٍ وَهُوَ كَثِيرٌ كَقَوْلِكَ : لَقِيتُكَ وَٱلْجَيْشُ قَادِمٌ. وَزُرْتَنَا وَٱلشِّتَاءُ خَارِجٌ. قَالَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ :

وَقَدْ أَغْتَدِي وَٱلطَّيْرُ فِي وُكُنَاتِهَا بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ ٱلْأَوَابِدِ هَيْكَلِ

وَيَجُوزُ أَنْ يُجْمَعَ بَيْنَ حَالَيْنِ: مُفْرَدٍ وَجُمْلَةٍ. إِذَا أَجَزْنَا وُقُوعَ حَالَيْنِ

كَقَوْلِكَ : لَقِيتُكَ رَاكِبًا وَٱلْحَسَنُ قَادِمٌ . فَٱلْجُمْلَةُ حَالٌ مِنَ ٱلتَّاءِ اَوْ مِنَ ٱلْكَافِ وَٱلْعَامِلُ فِيهَا (لَقِيتُ) اَوْ مِنْ ضَمِيرِ (رَاكِبٍ) وَرَاكِبٌ هُوَ ٱلْعَامِلُ فِيهَا . (اَلْقِسْمُ ٱلثَّانِي) اَلْجُمْلَةُ ٱلْفِعْلِيَّةُ . وَلَا بُدَّ اَنْ تَكُونَ مَاضِيًا اَوْ مُضَارِعًا . اَمَّا ٱلْمَاضِي فَلَا بُدَّ مَعَهُ مِنَ ٱلْاِتْيَانِ بِٱلْوَاوِ وَقَدْ اَوْ بِاَحَدِهِمَا كَقَوْلِكَ : تَكَلَّمْتُ وَقَدْ عَجِلْتُ . وَجَاءَ زَيْدٌ قَدْ ضَرَبَ عَمْرًا . وَجِئْتُ وَاَسْرَعْتُ فِي ٱلْمَجِيءِ . وَلَمْ يُجِزِ ٱلْبَصْرِيُّونَ خُلُوَّهُ عَنْهُمَا وَقَالُوا فِي قَوْلِ اَبِي صَخْرٍ ٱلْهُذَلِيِّ :

وَاِنِّي لَتَعْرُونِي لِذِكْرَاكِ هِزَّةٌ ... كَمَا ٱنْتَفَضَ ٱلْعُصْفُورُ بَلَّلَهُ ٱلْقَطْرُ

اِنَّ (قَدْ) مُقَدَّرَةٌ فِيهَا فَاِنَّ ٱلشَّيْءَ اِذَا عُرِفَ مَوْضِعُهُ جَازَ حَذْفُهُ .

وَاَمَّا ٱلْمُضَارِعُ فَاِنْ كَانَ مُوجَبًا فَلَا يُؤْتَى مَعَهُ بِٱلْوَاوِ تَقُولُ : جَاءَنِي زَيْدٌ يَضْحَكُ وَجَاءَ عَمْرٌو يُسْرِعُ وَجَلَسَ يُحَدِّثُنَا (بِٱلرَّفْعِ) اَيْ مُحَدِّثًا لَنَا بِتَجَرُّدِهِ عَمَّا يُغَيِّرُ مَعْنَاهُ اَشْبَهَ ٱسْمَ ٱلْفَاعِلِ اِذَا وَقَعَ حَالًا . وَاِنْ كَانَ مَنْفِيًّا جَازَ حَذْفُ ٱلْوَاوِ مُرَاعَاةً لِاَصْلِ ٱلْفِعْلِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْاِيجَابُ وَجَازَ اِثْبَاتُهَا لِاَنَّ ٱلْفِعْلَ لَيْسَ هُوَ ٱلْحَالَ . فَاِنَّ مَعْنَى قَوْلِكَ : (جَلَسَ زَيْدٌ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ) جَلَسَ زَيْدٌ غَيْرَ مُتَكَلِّمٍ . فَجَرَى مَجْرَى ٱلْجُمْلَةِ ٱلْاِسْمِيَّةِ . فَٱلْحَذْفُ كَقَوْلِكَ : جَاءَ زَيْدٌ مَا يَفُوهُ بِبِنْتِ شَفَةٍ . وَكَقَوْلِهِ : اَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ. فَقَوْلُهُ : (لَا يَمَسُّنَا) فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ عَلَى ٱلْحَالِ مِنْ ضَمِيرِ ٱلْمَرْفُوعِ فِي اَحَلَّنَا . وَٱلْاِثْبَاتُ كَقَوْلِكَ : جَلَسَ زَيْدٌ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ . وَقَالَ : اَفَلَا يَرَوْنَ اَلَّا يَرْجِعُ اِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا . وَشَبَّهُوا بِهِ ٱلْفِعْلَ

اَلْمَاضِي فَقَالُوا : جَاءَ زَيْدٌ مَا ضَرَبَ عَمْرًا . وَجَاءَ زَيْدٌ وَمَا ضَرَبَ عَمْرًا

البحث السابع

في تأكيد الكلام وقصره وتعزيزه بانَّ وانَّما

(عن صناعة الترسل ايضاً)

(راجع صفحة ١٩ من علم الادب)

اَمَّا (اِنَّ) فَلَهَا فَوَائِدُ : (اَلْأُولَى) اَنَّهَا تَرْبِطُ اَلْجُمْلَةَ اَلثَّانِيَةَ بِالْأُولَى وَبِسَبَبِهَا يَحْصُلُ اَلتَّأْلِيفُ بَيْنَهُمَا حَتَّى كَانَّ اَلْكَلَامَيْنِ اُفْرِغَا اِفْرَاغًا وَاحِدًا وَلَوْ اَسْقَطْتَهَا كَانَ اَلثَّانِي نَائِبًا عَنِ اَلْاَوَّلِ كَقَوْلِهِ : يَا اَيُّهَا اَلنَّاسُ اَتَّقُوا رَبَّكُمْ اِنَّ زَلْزَلَةَ اَلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ . (اَلثَّانِيَةُ) اَنَّكَ تَرَى لِضَمِيرِ اَلشَّأْنِ وَاَلْقِصَّةِ فِي اَلْجُمْلَةِ اَلشَّرْطِيَّةِ مَعَ (اِنَّ) مِنَ اَلْحُسْنِ وَاَللُّطْفِ مَا لَا تَرَاهُ اِذَا هِيَ لَمْ تَدْخُلْ عَلَيْهَا كَقَوْلِهِ : اِنَّهُ مَنْ يَتَّقِي وَيَصْبِرْ فَاِنَّ اَللّٰهَ لَا يُضِيعُ اَجْرَ اَلْمُحْسِنِينَ . (اَلثَّالِثَةُ) اَنَّهَا تُهَيِّئُ اَلنَّكِرَةَ وَتُصْلِحُهَا لِاَنْ يُحَدَّثَ عَنْهَا وَاِنْ كَانَتِ اَلنَّكِرَةُ مَوْصُوفَةً جَازَ حَذْفُهَا وَلٰكِنَّ دُخُولَهَا اَصْلَحُ كَقَوْلِ حَسَّانٍ :

اِنَّ دَهْرًا يَلُفُّ شَمْلِي بِجُمْلٍ ... لَزَمَانٌ يَهُمُّ بِالْاِحْسَانِ

(اَلرَّابِعَةُ) اَنَّهَا تُغْنِي عَنِ اَلْخَبَرِ كَمَا اِذَا قِيلَ لَكَ : اَلنَّاسُ اَلْبُوا عَلَيْكُمْ فَهَلْ لَكُمْ اَحَدٌ . فَقُلْتُ : اِنَّ زَيْدًا اَوْ اِنَّ عَمْرًا . اَيْ لَنَا . قَالَ اَلْاَعْشَى :

اِنَّ مَحَلًّا وَاِنَّ مُرْتَحَلًا ... وَاِنَّ فِي اَلسَّفْرِ اِذْ مَضَوْا مَهَلَا

(اَلْخَامِسَةُ) قَالَ ٱلْمُبَرِّدُ اِذَا قُلْتَ : اِنَّ عَبْدَ ٱللّٰهِ قَائِمٌ . فَهُوَ جَوَابٌ عَنْ سُؤَالِ سَائِلٍ . فَاِذَا قُلْتَ : اِنَّ عَبْدَ ٱللّٰهِ لَقَائِمٌ . فَهُوَ جَوَابٌ عَنْ اِنْكَارِ مُنْكِرٍ لِقِيَامِهِ سَوَاءٌ كَانَ ٱلْمُنْكِرُ هُوَ ٱلسَّائِلَ اَوِ ٱلْحَاضِرِينَ

(وَاَمَّا اِنَّمَا) فَتَارَةً تَجِيءُ لِلْحَصْرِ بِمَعْنَى اَنَّ هٰذَا ٱلْحُكْمَ لَا يُوجَدُ فِي غَيْرِ ٱلْمَذْكُورِ وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ (لَيْسَ اِلَّا) كَقَوْلِهِ : اِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ . وَقَوْلِهِ : اِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ . وَقَوْلِهِ : اِنَّمَا اَنْتَ مُنْذِرٌ مَنْ يَخْشَاهَا . وَتَارَةً تَجِيءُ لِبَيَانِ اَنَّ هٰذَا ٱلْاَمْرَ ظَاهِرٌ عِنْدَ كُلِّ اَحَدٍ سَوَاءٌ كَانَ كَذٰلِكَ اَوْ فِي زَعْمِ ٱلْمُتَكَلِّمِ . وَمِنْهُ قَوْلُ ٱلشَّاعِرِ :

اِنَّمَا مُصْعَبٌ شِهَابٌ مِنَ ٱللّٰهِ تَجَلَّتْ مِنْ وَجْهِهِ ٱلظَّلْمَاءُ

مُدَّعِيًا اَنَّ ذٰلِكَ مِمَّا لَا يُنْكِرُهُ اَحَدٌ مِنَ ٱلنَّاسِ . (فَائِدَةٌ) اِذَا دَخَلَ (مَا وَاِلَّا) عَلَى ٱلْجُمْلَةِ ٱلْمُشْتَمِلَةِ عَلَى ٱلْمَنْصُوبِ كَانَ ٱلْمَقْصُودُ بِٱلذِّكْرِ مَا ٱتَّصَلَ (بِاِلَّا) مُتَاَخِّرًا عَنْهُ . فَاِذَا قُلْتَ : مَا ضَرَبَ عَمْرًا اِلَّا زَيْدٌ . فَٱلْمَقْصُودُ ٱلْمَرْفُوعُ . وَاِذَا قُلْتَ : مَا ضَرَبَ زَيْدٌ اِلَّا عَمْرًا . فَٱلْمَقْصُودُ ٱلْمَنْصُوبُ . وَاِذَا قُلْتَ : مَا ضَرَبَ زَيْدٌ اِلَّا عَمْرًا . فَٱلِاخْتِصَاصُ بِٱلضَّارِبِ . وَاِذَا قُلْتَ : مَا ضَرَبَ اِلَّا زَيْدًا عَمْرٌو . فَٱلِاخْتِصَاصُ بِٱلْمَضْرُوبِ . وَاِذَا قُلْتَ : لَمْ اَكْسُ اِلَّا زَيْدًا جُبَّةً . فَٱلْمَعْنَى تَخْصِيصُ كُسْوَةِ ٱلْجُبَّةِ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِزَيْدٍ . وَكَذٰلِكَ ٱلْحُكْمُ حَيْثُ يَكُونُ يَدُلُّ اَحَدُ ٱلْمَفْعُولَيْنِ جَارًّا وَمَجْرُورًا كَقَوْلِ ٱلسَّيِّدِ ٱلْحِمْيَرِيِّ :

لَوْ خُيِّرَ ٱلْمِنْبَرُ فُرْسَانَهُ مَا ٱخْتَارَ اِلَّا مِنْكُمُ فَارِسَا

وَكَذٰلِكَ حُكْمُ ٱلْمُبْتَدَإِ وَٱلْخَبَرِ وَٱلْفِعْلِ وَٱلْفَاعِلِ كَقَوْلِكَ : مَا

زَيدٌ إِلَّا قَائِمٌ وَمَا قَائِمٌ إِلَّا زَيدٌ. وَأَمَّا (إِنَّمَا) فَٱلِاخْتِصَاصُ فِيهَا يَقَعُ مَعَ ٱلْمُتَأَخِّرِ. فَإِذَا قُلْتَ: إِنَّمَا ضَرَبَ زَيدًا عَمْرٌو. فَٱلِاخْتِصَاصُ فِي ٱلضَّارِبِ. وَقَوْلُهُ: (إِنَّمَا يَخْشَى ٱللهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ) فَٱلْغَرَضُ بَيَانُ ٱلْمَرْفُوعِ وَهُوَ أَنَّ ٱلْخَاشِينَ هُمُ ٱلْعُلَمَاءُ. وَلَوْ قُدِّمَ ٱلْمَرْفُوعُ لَصَارَ ٱلْمَقْصُودُ بَيَانَ ٱلْمَخْشِيِّ مِنْهُ فَٱلْأَوَّلُ أَتَمُّ. وَمِنْهُ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ:

أَنَا ٱلذَّائِدُ ٱلْحَامِي ٱلذِّمَارَ وَإِنَّمَا   يُدَافِعُ عَنْ أَحْسَابِكُمْ أَنَا أَوْ مِثْلِي

فَإِنَّ غَرَضَهُ أَنْ يَحْصُرَ ٱلْمُدَافِعَ بِأَنَّهُ هُوَ لَا ٱلْمُدَافَعَ عَنْهُ. وَلَوْ قَالَ: إِنَّمَا أَنَا أُدَافِعُ عَنْ أَحْسَابِكُمْ. تَوَجَّهَ ٱلتَّخْصِيصُ إِلَى ٱلْمُدَافَعِ عَنْهُ. إِذَا أَدْخَلْتَ عَلَيْهِمَا (إِنَّمَا) فَإِنْ قَدَّمْتَ ٱلْخَبَرَ فَٱلِاخْتِصَاصُ لِلْمُبْتَدَإِ. وَإِنْ لَمْ تُقَدِّمْهُ فَلِلْخَبَرِ. فَإِذَا قُلْتَ: إِنَّمَا هٰذَا لَكَ فَٱلِاخْتِصَاصُ فِي (لَكَ) بِدَلِيلِ أَنَّكَ تَقُولُ بَعْدَهُ: لَا لِغَيْرِكَ. وَإِنْ قُلْتَ: إِنَّمَا لَكَ هٰذَا. فَٱلِاخْتِصَاصُ فِي هٰذَا بِدَلِيلِ أَنَّكَ تَقُولُ بَعْدَهُ لَا ذَاكَ. ثُمَّ قَدْ يَجْتَمِعُ مَعَهُ حَرْفُ ٱلنَّفْيِ إِمَّا مُتَأَخِّرًا كَقَوْلِكَ: إِنَّمَا يَجِيءُ زَيدٌ لَا عَمْرٌو. وَقَالَ لَبِيدٌ:

وَإِذَا جُوزِيتَ قَرْضًا فَٱجْزِهِ   إِنَّمَا يَجْزِي ٱلْفَتَى لَيْسَ ٱلْجَمَلْ

وَإِمَّا مُقَدَّمًا عَلَيْهِ كَقَوْلِكَ: مَا جَاءَنِي زَيدٌ وَإِنَّمَا جَاءَنِي عَمْرٌو. فَهَاهُنَا لَوْ لَمْ تَقُلْ: (إِنَّمَا). وَقُلْتَ: مَا جَاءَنِي زَيدٌ وَجَاءَنِي عَمْرٌو. لَكَانَ ٱلْكَلَامُ مَعَ مَنْ ظَنَّ أَنَّهُمَا جَاءَا جَمِيعًا. وَإِذَا أَدْخَلْتَهَا كَانَ ٱلْكَلَامُ مَعَ مَنْ غَلِطَ فِي ٱلْجَائِي أَنَّهُ زَيدٌ لَا عَمْرٌو. وَٱعْلَمْ أَنَّ أَقْوَى مَا يَكُونُ إِنَّمَا إِذَا كَانَ لَا يُرَادُ بِٱلْكَلَامِ ٱلَّذِي بَعْدَهَا نَفْسُ مَعْنَاهَا

وَلٰكِنَّ ٱلتَّعْرِيضَ بِأَمْرٍ هُوَ مُقْتَضَاهُ . وَهٰذَا ٱلْغَرَضُ لَا يَحْصُلُ بِدُونِ (إِنَّمَا) لِأَنَّ مِنْ إِثْبَاتِهَا تَضْمِينَ ٱلْكَلَامِ مَعْنَى ٱلنَّفْيِ بَعْدَ ٱلْإِثْبَاتِ . فَإِذَا أَسْقَطْتَ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا إِثْبَاتُ ٱلْحُكْمِ لِلْمَذْكُورِينَ فَلَا يَدُلُّ عَلَى نَفْيِ غَيْرِهِمْ إِلَّا أَنْ يُذْكَرَ فِي مَعْرِضِ مَدْحِ ٱلْإِنْسَانِ بِالتَّيَقُّظِ وَٱلْكَرَمِ وَأَمْثَالِهِمَا كَمَا يُقَالُ : كَذٰلِكَ يَفْعَلُ ٱلْعَاقِلُ وَهٰكَذَا يَفْعَلُ ٱلْكَرِيمُ

البحث الثامن

في التقديم والتأخير

(عن صناعة الترسل ايضاً)

(راجع علم الادب صفحة ١٩)

إِذَا قُدِّمَ ٱلشَّيْءُ عَلَى غَيْرِهِ فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي نِيَّةِ ٱلتَّأْخِيرِ كَمَا إِذَا قُدِّمَ ٱلْخَبَرُ عَلَى ٱلْمُبْتَدَإِ . وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي نِيَّةِ ٱلتَّأْخِيرِ وَلٰكِنِ ٱنْتَقَلَ ٱلشَّيْءُ مِنْ حُكْمٍ إِلَى آخَرَ . كَمَا إِذَا جِئْتَ إِلَى ٱسْمَيْنِ جَازَ أَنْ يَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُبْتَدَأً فَجَعَلْتَ أَحَدَهُمَا مُبْتَدَأً كَقَوْلِكَ : زَيْدٌ ٱلْمُنْطَلِقُ وَٱلْمُنْطَلِقُ زَيْدٌ . قَالَ ٱلْجُرْجَانِيُّ : كَأَنَّهُمْ يُقَدِّمُونَ ٱلَّذِي بَيَانُهُ أَهَمُّ لَهُمْ وَهُمْ بِبَيَانِهِ أَعْنَى وَإِنْ كَانَا جَمِيعًا يُهِمَّانِهِمْ وَيَعْنِيَانِهِمْ . مِثَالُهُ إِنَّ ٱلنَّاسَ إِذَا تَعَلَّقَ غَرَضُهُمْ بِقَتْلِ خَارِجِيٍّ مُفْسِدٍ وَلَا يَعْلَمُونَ مَنْ صَدَرَ ٱلْقَتْلُ مِنْهُ وَأَرَادَ مُرِيدٌ ٱلْإِخْبَارَ بِذٰلِكَ فَإِنَّهُ يُقَدِّمُ ذِكْرَ ٱلْخَارِجِيِّ فَيَقُولُ : قَتَلَ ٱلْخَارِجِيَّ زَيْدٌ . وَلَا يَقُولُ : قَتَلَ زَيْدٌ ٱلْخَارِجِيَّ . لِأَنَّهُ يَعْلَمُ

انَّ قتلَ الخارجيِّ هُوَ الَّذي يَعنيهِم . وإنْ كانَ قد وقعَ قتلٌ مِن رجلٍ يَبعُدُ في اعتقادِ النَّاسِ وُقوعُ القتلِ مِن مِثلِهِ قدَّمَ الخبرُ ذِكرَ الفاعِلِ فيقولُ : قتلَ زيدٌ رجُلًا . لِاعتقادِ النَّاسِ في المذكورِ خِلافَ ذلِكَ (اه). ولنذكُرْ مِنهُ ثلاثةَ مواضِعَ يُعرَفُ بِها ما لم يُذكَرْ :

(الأوَّلُ الاستِفهامُ) فإذا ادخلتَهُ على الفِعلِ وقُلتَ : اضَرَبتَ زيدًا . كانَ الشكُّ في وُجودِ الفِعلِ مُحقَّقًا والشكُّ في تعيينِ الفاعِلِ وهكذا حُكمُ النَّكِرةِ . فإذا قُلتَ : اجاءكَ رجُلٌ فإنَّ المقصودَ هل وُجِدَ المجيءُ مِن رجُلٍ . فإذا قُلتَ : ارجُلٌ جاءكَ كانَ ذلكَ سُؤالًا عن جِنسِ مَن جاءَ بعدَ الحكمِ بوجودِ المجيءِ مِن إنسانٍ . وقِس عليهِ الخبرَ في قولِكَ : ضرَبتُ زيدًا وزيدًا ضرَبتُ . وجاءَني رجُلٌ تميميٌّ . ورجُلٌ تميميٌّ جاءني . ثُمَّ الاستِفهامُ قد يجيءُ للإنكارِ : وهُوَ إمَّا للتقريرِ والتوبيخِ وعليهِ قولُهُ : أأنتَ فعلتَ هذا بآلِهتِنا . وإمَّا لِإنكارِ انَّهُ الفاعِلُ مع تحقيقِ الفِعلِ كقولِكَ لِمَنِ انتَحَلَ شِعرًا : أأنتَ قُلتَ هذا . وإنْ كانَ الفِعلُ مُضارِعًا فإنْ ادخلتَ حرفَ الاستِفهامِ عليهِ كانَ إمَّا لِإنكارِ وُجودِهِ كقولِهِ : أنُلزِمُكُمُوها وأنتُم لها كارِهُونَ . او لِإنكارِ انَّهُ يقدِرُ على الفِعلِ كقولِ امرِئِ القيسِ :

أيقتُلُني والمشرَفيُّ مُضاجِعي ومسنونةٌ زُرقٌ كأنيابِ اغوالِ

او لِإزالةِ طمعِ مَن طمِعَ في امرٍ لا يكونُ فيُجهِّلُهُ في طبعِهِ كقولِكَ : ايرضى عنكَ فُلانٌ وأنتَ على ما يكرَهُ . او لتعنيفِ مَن يُضيعُ الحقَّ كقولِ الشاعِرِ :

أَأَتْرُكُ إِنْ قَلَّتْ دَرَاهِمُ خَالِدٍ زِيَارَتَهُ إِنِّي إِذًا لَلَئِيمُ

أَوْ لِتَقْدِيمِ ٱلْفِعْلِ كَمَا تَقُولُ لِمَنْ يَرْكَبُ ٱلْخَطَرَ : أَتَرْكَبُ فِي هٰذَا ٱلْوَقْتِ . وَإِنْ أَدْخَلْتَهُ عَلَى ٱلِٱسْمِ فَهُوَ لِإِنْكَارِ صُدُورِ ٱلْفِعْلِ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْفَاعِلِ إِمَّا لِلِٱسْتِحْقَارِ كَقَوْلِكَ : أَأَنْتَ تَمْنَعُنِي . أَوْ لِلتَّعْظِيمِ كَقَوْلِكَ : أَهُوَ يَسْأَلُ ٱلنَّاسَ . أَوْ لِلْمُبَالَغَةِ إِمَّا فِي كَرَمِهِ كَقَوْلِكَ : أَهُوَ يَمْنَعُ سَائِلَهُ . وَإِمَّا فِي خَسَاسَتِهِ كَقَوْلِكَ : أَهُوَ يَسْمَحُ بِمِثْلِ هٰذَا . وَقَدْ يَكُونُ لِبَيَانِ ٱسْتِحَالَةِ فِعْلٍ ظُنَّ مُمْكِنًا كَقَوْلِهِ : أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِي ٱلْعُمْيَ . وَكَذٰلِكَ إِذَا أَدْخَلْتَهُ عَلَى ٱلْمَفْعُولِ كَقَوْلِهِ : أَغَيْرَ ٱللّٰهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا وَأَغَيْرَ ٱللّٰهِ تَدْعُونَ . وَأَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ . بَنَوْا كُفْرَهُمْ عَلَى أَنَّ ٱلْبَشَرَ لَيْسَ بِمَثَابَةِ أَنْ يُتَّبَعَ وَيُطَاعَ

(فِي ٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ فِي ٱلنَّفْيِ) إِذَا أَدْخَلْتَ ٱلنَّفْيَ عَلَى ٱلْفِعْلِ فَقُلْتَ : مَا ضَرَبْتُ زَيْدًا . فَقَدْ نَفَيْتَ عَنْ زَيْدٍ ضَرْبًا وَاقِعًا بِزَيْدٍ وَهٰذَا لَا يَقْتَضِي كَوْنَ زَيْدٍ مَضْرُوبًا . وَإِذَا أَدْخَلْتَهُ عَلَى ٱلِٱسْمِ فَقُلْتَ : مَا أَنَا ضَرَبْتُ زَيْدًا . ٱقْتَضَى مِنْ بَابِ دَلِيلِ ٱلْخِطَابِ كَوْنُ زَيْدٍ مَضْرُوبًا وَعَلَيْهِ قَوْلُ ٱلْمُتَنَبِّي :

وَمَا أَنَا وَحْدِي قُلْتُ ذَا ٱلشِّعْرَ كُلَّهُ وَلٰكِنْ لِشِعْرِي فِيكَ مِنْ نَفْسِهِ شِعْرُ

وَكَذٰلِكَ (حُكْمُ ٱلْجَارِّ وَٱلْمَجْرُورِ وَحُكْمُ ٱلْمَفْعُولِ) . فَإِذَا قُلْتَ : مَا أَمَرْتُكَ بِهٰذَا . لَمْ يَقْتَضِ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَمَرْتَهُ بِشَيْءٍ غَيْرِ هٰذَا . وَإِذَا قُلْتَ : مَا بِهٰذَا أَمَرْتُكَ . ٱقْتَضَاهُ . وَإِذَا قَدَّمْتَ صِفَةَ ٱلْعُمُومِ عَلَى ٱلسَّلْبِ وَقُلْتَ : كُلُّ ذٰلِكَ لَمْ أَفْعَلْهُ بِرَفْعِ (كُلّ) كَانَ نَفْيًا عَامًّا

وَيُنَاقِضُهُ ٱلْإِثْبَاتُ ٱلْخَاصُّ . فَلَوْ فَعَلْتَ بَعْضَهُ كُنْتَ كَاذِبًا . وَإِنْ قَدَّمْتَ ٱلسَّلْبَ وَقُلْتَ: لَمْ أَفْعَلْ كُلَّ ذٰلِكَ . كَانَ نَفْيًا لِلْعُمُومِ وَلَا يُنَافِي ٱلْإِثْبَاتَ ٱلْخَاصَّ فَلَوْ فَعَلْتَ بَعْضَهُ لَمْ تَكُنْ كَاذِبًا. (اَلثَّالِثُ فِي ٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ فِي ٱلْخَبَرِ ٱلْمُثْبَتِ) مَا تَقَدَّمَ فِي ٱلِٱسْتِفْهَامِ وَٱلنَّفْيِ قَائِمٌ هَاهُنَا فَإِذَا قَدَّمْتَ ٱلِٱسْمَ وَقُلْتَ : زَيْدٌ فَعَلَ وَأَنَا فَعَلْتُ . فَٱلْقَصْدُ أَنَّ ٱلْفَاعِلَ إِمَّا لِتَخْصِيصِ ذٰلِكَ ٱلْفِعْلِ بِهِ كَقَوْلِكَ : أَنَا شَفَعْتُ فِي شَأْنِهِ مُدَّعِيًا ٱلِٱنْفِرَادَ بِذٰلِكَ . أَوْ لِتَأْكِيدِ إِثْبَاتِ ٱلْفِعْلِ لَهُ لَا لِلْحَصْرِ كَقَوْلِكَ :هُوَ يُعْطِي ٱلْجَزِيلَ . لِيَتَمَكَّنَ فِي نَفْسِ ٱلسَّامِعِ أَنَّ ذٰلِكَ دَأْبُهُ دُونَ نَفْيِهِ عَنْ غَيْرِهِ كَقَوْلِ دُرْنَا بِنْتِ عَشْعَشَةَ :

هُمَا يَلْبَسَانِ ٱلْمَجْدَ أَحْسَنَ لِبْسَةٍ شَحِيحَانِ مَا ٱسْطَاعَا عَلَيْهِ كِلَاهُمَا

وَٱلسَّبَبُ فِي هٰذَا ٱلتَّأْكِيدِ إِذَا قُلْتَ مَثَلًا: (زَيْدٌ) . فَقَدْ أَشْعَرْتَ بِأَنَّكَ تُرِيدُ ٱلْحَدِيثَ عَنْهُ فَيَحْصُلُ لِلسَّامِعِ تَشَوُّقٌ إِلَى مَعْرِفَتِهِ . فَإِذَا ذَكَرْتَهُ قَبِلَتْهُ ٱلنَّفْسُ قَبُولَ ٱلصَّدِيقِ صَدِيقَهُ فَيَكُونُ ذٰلِكَ أَبْلَغَ فِي ٱلتَّحْقِيقِ وَنَفْيِ ٱلشَّكِّ وَٱلشُّبْهَةِ . وَلِهٰذَا تَقُولُ لِمَنْ تَعِدُهُ : أَنَا أُعْطِيكَ . أَنَا أَكْفِيكَ . أَنَا أَقُومُ بِهٰذَا ٱلْأَمْرِ . وَذٰلِكَ إِذَا كَانَ مِنْ شَأْنِ مَنْ سَبَقَ لَهُ وَعْدٌ أَنْ يَعْتَرِضَهُ ٱلشَّكُّ فِي وَفَائِهِ . وَلِذٰلِكَ يُقَالُ فِي ٱلْمَدْحِ : أَنْتَ تُعْطِي ٱلْجَزِيلَ . أَنْتَ تَجُودُ حِينَ لَا يَجُودُ أَحَدٌ . وَمِنْ هَاهُنَا تُعْرَفُ ٱلْفَخَامَةُ فِي ٱلْجُمَلِ ٱلَّتِي فِيهَا ضَمِيرُ ٱلشَّأْنِ وَٱلْقِصَّةِ كَقَوْلِهِ : فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَارُ وَلٰكِنْ تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ . وَكَقَوْلِهِ : إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَافِرُونَ . (وَإِنَّهَا) فِيهَا مَا لَيْسَ فِي قَوْلِكَ : فَإِنَّ

ٱلْأَبْصَارَ لَا تَعْمَى وَإِنَّ ٱلْكَافِرِينَ لَا يُفْلِحُونَ . وَهٰذَا ٱلْكَلَامُ فِي ٱلْخَبَرِ ٱلْمَنْفِيِّ . فَاذَا قُلْتَ . أَنْتَ لَا تُحْسِنُ هٰذَا . كَانَ أَبْلَغَ مِنْ أَنْ تَقُولَ : لَا تُحْسِنُ هٰذَا . فَٱلْأَوَّلُ لِمَنْ هُوَ أَشَدُّ إِعْجَابًا بِنَفْسِهِ وَأَكْثَرُ دَعْوَى بِأَنَّهُ يُحْسِنُ . وَٱعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ تَقْدِيمُ ٱلِٱسْمِ كَٱللَّازِمِ وَهُوَ : (كَمِثْلِ) فِي نَحْوِ قَوْلِهِ :

يَا عَاذِلِي دَعْنِي مِنْ عَذْلِكَ   مِثْلِي لَا يَقْبَلُ مِنْ مِثْلِكَ

وَقَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي :

مِثْلُكَ يَثْنِي ٱلْحُزْنَ عَنْ صَوْبِهِ   وَيَسْتَرِدُّ ٱلدَّمْعَ عَنْ غَرْبِهِ

وَكَقَوْلِ ٱلنَّاسِ: مِثْلُكَ يَرْعَى ٱلْحَقَّ وَٱلْحُرْمَةَ . وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ مِمَّا لَا يَقْصِدُ فِيهِ ٱلْإِنْسَانُ سِوَى ٱلَّذِي أُضِيفَ إِلَيْهِ وَجِيءَ بِهِ لِلْمُبَالَغَةِ . وَٱلْمَعْنَى إِنَّ مَنْ كَانَ مِثْلَهُ فِي ٱلْحَالِ وَٱلصِّفَةِ كَانَ مِنْ مُقْتَضَى ٱلْقِيَاسِ أَنْ يَفْعَلَ مَا ذُكِرَ فَكَيْفَ بِهِ . وَقَدْ عَبَّرَ ٱلْمُتَنَبِّي عَنْ هٰذَا ٱلْمَعْنَى فَقَالَ :

وَلَمْ أَقُلْ مِثْلُكَ أَعْنِي بِهِ   سِوَاكَ يَا فَرْدًا بِلَا مُشْبِهِ

وَكَذٰلِكَ حُكْمُ (غَيْرٍ) إِذَا سُلِكَ فِيهِ هٰذَا ٱلْمَسْلَكُ كَقَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي :

غَيْرِي بِأَكْثَرِ هٰذَا ٱلنَّاسِ يَنْخَدِعُ   إِنْ قَاتَلُوا جَبُنُوا أَوْ حَدَّثُوا شَجُعُوا

أَيْ لَسْتُ مِمَّنْ يَنْخَدِعُ وَيَغْتَرُّ . وَلَوْ لَمْ يُقَدَّمْ (مِثْلًا وَغَيْرًا) فِي هٰذِهِ ٱلصُّوَرِ لَمْ يُرَدْ هٰذَا ٱلْمَعْنَى

(أَمَّا مَوَاضِعُ ٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ) فَقَدْ يَحْسُنُ ٱلتَّقْدِيمُ فِي مَوَاضِعَ :
(ٱلْأَوَّلُ) أَنْ تَكُونَ ٱلْحَاجَةُ إِلَى ذِكْرِهِ أَشَدَّ كَقَوْلِكَ : قَطَعَ ٱللِّصَّ ٱلْأَمِيرُ . (ٱلثَّانِي) أَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ أَلْيَقَ بِمَا قَبْلَهُ مِنَ ٱلْكَلَامِ أَوْ

بِمَا بَعْدَهُ كَقَوْلِهِ: وَتُغَشِّي وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ. فَإِنَّهُ اَشْكَلُ بِمَا بَعْدَهُ. وَهُوَ قَوْلُهُ: إِنَّ ٱللهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ. وَبِمَا قَبْلَهُ وَهُوَ: مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْاَصْفَادِ. (اَلثَّالِثُ) اَنْ يَكُونَ اَعْرَفَ اَوْ اَشَدَّ تَعَلُّقًا بِمَا بَعْدَهُ كَقَوْلِكَ: زَيْدٌ قَامَ. وَقَامَ زَيْدٌ. وَزَيْدٌ ٱلطَّوِيلُ. (اَلرَّابِعُ) اَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلْحُرُوفِ ٱلَّتِي لَهَا صَدْرُ ٱلْكَلَامِ كَحُرُوفِ ٱلْاِسْتِفْهَامِ وَٱلنَّفْيِ فَإِنَّ ٱلْاِسْتِفْهَامَ طَلَبُ فَهْمِ ٱلشَّيْءِ وَهُوَ حَالَةٌ اِضَافِيَّةٌ فَلَا تَسْتَقِلُّ بِٱلْمَفْهُومِيَّةِ فَيَشْتَدُّ ٱتِّصَالُهُ بِمَا بَعْدَهُ. (اَلْخَامِسُ) تَقْدِيمُ ٱلْكُلِّيِّ عَلَى جُزْئِيَّاتِهِ. فَإِنَّ ٱلشَّيْءَ كُلَّمَا كَانَ اَكْثَرَ عُمُومًا كَانَ اَعْرَفَ فَإِنَّ ٱلْوُجُودَ لَمَّا كَانَ اَعَمَّ ٱلْأُمُورِ كَانَ اَعْرَفَهَا عِنْدَ ٱلْعَقْلِ. (اَلسَّادِسُ) تَقْدِيمُ ٱلدَّلِيلِ عَلَى ٱلْمَدْلُولِ

وَاَمَّا ٱلتَّأْخِيرُ فَيَحْسُنُ فِي مَوَاضِعَ: (اَلْاَوَّلُ) تَمَامُ ٱلْاِسْمِ كَٱلصِّلَةِ وَٱلْمُضَافِ اِلَيْهِ. (اَلثَّانِي) تَوَابِعُ ٱلْاَسْمَاءِ. (اَلثَّالِثُ) ٱلْفَاعِلُ. (اَلرَّابِعُ) ٱلْمُضْمَرُ وَهُوَ اِنْ كَانَ مُتَأَخِّرًا لَفْظًا وَتَقْدِيرًا كَقَوْلِكَ: ضَرَبَ زَيْدٌ غُلَامَهُ. اَوْ مُؤَخَّرًا فِي ٱللَّفْظِ مُقَدَّمًا فِي ٱلْمَعْنَى كَقَوْلِهِ: وَاِذَا ٱبْتَلَى اِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ. اَوْ بِٱلْعَكْسِ كَقَوْلِكَ: ضَرَبَ غُلَامَهُ زَيْدٌ. جَازَ. وَاِنْ تَقَدَّمَ لَفْظًا وَمَعْنًى لَمْ يَجُزْ كَقَوْلِكَ: ضَرَبَ غُلَامُهُ زَيْدًا. (اَلْخَامِسُ) مَا يُفْضِي اِلَى ٱللَّبْسِ كَقَوْلِكَ: ضَرَبَ مُوسَى عِيسَى. وَاَكْرَمَ هٰذَا هٰذَا. فَيَجِبُ فِيهِ تَقْدِيمُ ٱلْفَاعِلِ. (اَلسَّادِسُ) ٱلْعَامِلُ ٱلَّذِي يَضْعُفُ عَمَلُهُ كَٱلصِّفَةِ ٱلْمُشَبَّهَةِ وَٱلتَّمْيِيزِ وَمَا عَمِلَ فِيهِ حَرْفٌ اَوْ مَعْنًى كَقَوْلِكَ: هُوَ حَسَنٌ وَجْهًا. وَكَرِيمٌ اَبًا. وَتَصَبَّبَ عَرَقًا. وَخَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ دِرْهَمًا وَاِنَّ

زَيدًا قَائِمٌ . وَفِي ٱلدَّارِ سَعْدٌ جَالِسٌ . وَلَا يَجُوزُ ٱلْفَصْلُ بَيْنَ ٱلْعَامِلِ وَٱلْمَعْمُولِ بِمَا لَيسَ مِنْهُ فَلَا تَقُولُ : كَانَتْ زَيدًا ٱلْحُمَّى تَأْخُذُ . اِذَا رَفَعتَ ٱلْحُمَّى بِكَانَتْ لِلفَصْلِ بَيْنَ ٱلْعَامِلِ وَمَا عَمِلَ فِيهِ . فَاِنْ اَضْمَرتَ ٱلْحُمَّى فِي كَانَتْ صَحَّتِ ٱلْمَسْئَلَةُ

البحث التاسع

في الحذف والاضمار

(عن صناعة الترسل ايضاً)

(راجع صفحة ٢٠ من علم الادب)

اِعلَمْ اَنَّ ٱلْاَفعَالَ ٱلْمُتَعَدِّيَةَ ٱلَّتِي يُتْرَكُ ذِكْرُ مَفْعُولَاتِهَا عَلَى قِسْمَيْنِ : (ٱلْاَوَّلُ) اَنْ لَا يَكُونَ لَهُ مَفْعُولٌ مُعَيَّنٌ فَقَدْ يُتْرَكُ مَفْعُولُهُ لَفظًا وَتَقْدِيرًا وَيُجْعَلُ حَالُهُ كَحَالِ غَيْرِ ٱلْمُتَعَدِّي كَقَوْلِهِمْ : فُلَانٌ يَحُلُّ وَيَعقِدُ وَيَأْمُرُ وَيَنْهَى وَيَضِرُّ وَيَنفَعُ . وَٱلْمَقْصُودُ اِثْبَاتُ ٱلْمَعْنَى فِي نَفْسِهِ لِلشَّيْءِ مِنْ غَيْرِ تَعَرُّضٍ لِحَدِيثِ ٱلْمَفعُولِ فَكَأَنَّكَ قُلْتَ : بِحَيْثُ يَكُونُ مِنْهُ حَلٌّ وَعَقْدٌ وَاَمْرٌ وَنَهْيٌ وَضَرٌّ وَنَفْعٌ . وَبِٱلْجُمْلَةِ مَتَى كَانَ ٱلْغَرَضُ بَيَانَ حَالِ ٱلْفَاعِلِ فَقَطْ فَلَا تُعَدِّ ٱلْفِعْلَ فَاِنْ تَعْدِيَتَهُ تَنقُضُ ٱلْغَرَضَ . اَلَا تُرَى اَنَّكَ اِذَا قُلْتَ : فُلَانٌ يُعطِي ٱلدَّنَانِيرَ كَانَ ٱلْمَقْصُودُ بَيَانَ جِنْسِ مَا تَنَاوَلَهُ ٱلْاِعطَاءُ لَا بَيَانُ حَالِ كَوْنِهِ مُعْطِيًا . (ٱلثَّانِي) اَنْ يَكُونَ لَهُ مَفْعُولٌ مَعْلُومٌ اِلَّا اَنَّهُ يُحْذَفُ مِنَ ٱللَّفظِ لِاَغْرَاضٍ : (ٱلْاَوَّلُ) اَنْ يَكُونَ ٱلْمُرَادُ بَيَانَ حَالِ ٱلْفَاعِلِ وَاَنَّ ذٰلِكَ ٱلْفِعلَ دَأْبُهُ لَا بَيَانُ

ٱلْمَفعُولِ كَقَوْلِ طُفَيْلٍ :

جَزَى ٱللهُ عَنَّا جعفَرًا حِينَ ازْلَقَتْ ... بِنَا نَعْلُنَا فِي ٱلْوَاطِـئِينَ فَزَلَّتِ

اَبَوْا اَنْ يَمَلُّونَا وَلَوْ اَنَّ اُمَّنَا ... تُلَاقِي ٱلَّـذِي لَاقَوْهُ مِنَّا لَمَلَّتِ

هُمُ خَلَطُونَا بِٱلنُّفُوسِ وَاَلْجَأُوا ... اِلَى حُجُرَاتٍ اَدْفَاَتْ وَاَظَلَّتِ

وَٱلْاَصْلُ اَنْ يَقُولَ : لَمَلَّتْنَا وَاَلْجَأُونَا وَاَدْفَاَتْنَا وَاَظَلَّتْنَا فَحَذَفَ ٱلْمَفْعُولَ ٱلْمُعَيَّنَ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمَوَاضِعِ ٱلْاَرْبَعَةِ وَكَاَنَّهُ قَدْ اُبْهِمَ وَلَمْ يُقْصَدْ قَصْدَ شَيْءٍ يَقَعُ عَلَيْهِ كَمَا تَقُولُ : قَدْ مَلَّ فُلَانٌ . تُرِيدُ قَدْ دَخَلَ عَلَيْهِ ٱلْمَلَالُ مِنْ غَيْرِ اَنْ تَخُصَّ شَيْئًا بَلْ لَا تُرِيدُ عَلَى اَنْ تَجْعَـلَ ٱلْمَلَالَ مِنْ صِفَتِهِ . فَكَذٰلِكَ ٱلشَّاعِرُ جَعَلَ هٰذِهِ ٱلْاَوْصَافَ مِنْ ذَاتِهِمْ وَلَوْ اَضَافَ اِلَى مَفْعُولٍ مُعَيَّنٍ لَبَطَلَ هٰذَا ٱلْغَرَضُ. (اَلثَّانِي) اَنْ يَكُونَ ٱلْمَقْصُودُ ذِكْرَهُ اِلَّا اَنَّكَ لَا تَذْكُرُهُ اِيهَامًا لِاَنَّكَ لَا تَقْصِدُ ذِكْرَهُ كَقَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

شَجْوُ حُسَّـادِهِ وَغَيْظُ عِدَاهُ ... اَنْ يَرَى مُبْصِرٌ وَيَسْمَعَ وَاعٍ

ٱلْمَعْنَى اَنْ يَرَى مُبْصِرٌ مَحَاسِنَهُ وَاَنْ يَسْمَعَ وَاعٍ اَخْبَارَهُ . وَلٰـكِنَّهُ تَغَافَلَ عَنْ ذٰلِـكَ اِيذَانًا بِاَنَّ فَضَائِلَهُ يَكْفِي فِيهَا اَنْ يَقَعَ عَلَيْهَا بَصَرٌ وَيَعِيهَا سَمْعٌ حَتَّى يُعْلَمَ اَنَّهُ ٱلْمُنْفَرِدُ بِٱلْفَضَائِـلِ فَلَيْسَ لِحُسَّادِهِ وَعِدَاهُ اَشْجَى مِنْ عِلْمِهِمْ بِاَنَّ هَا هُنَا مُبْصِرًا وَسَامِعًا . (اَلثَّالِثُ) اَنْ يُحْذَفَ لِكَوْنِهِ بَيِّنًا كَقَوْلِهِمْ : اَصْغَيْتُ اِلَيْكَ . اَيْ اُذُنِي . وَاَغْضَيْتُ عَلَيْكَ . اَيْ جَفْنِي

(فَصْلٌ فِي حَذْفِ ٱلْمُبْتَدَإِ وَٱلْخَبَرِ) قَدْ يَحْسُنُ حَذْفُ ٱلْمُبْتَدَإِ حَيْثُ يَكُونُ ٱلْغَرَضُ اَنَّهُ قَدْ بَلَغَ فِي ٱسْتِحْقَاقِ ٱلْوَصْفِ بِمَا جُعِـلَ وَصْفًا لَهُ

إلى حيث يُعلم بالضرورة أن ذلك ليس إلا له سواء كان في نفسه كذلك أو بحسب دعوى الشاعر على طريق المبالغة فذكره يبطل هذا الغرض. ولهذا قال عبد القاهر : ما من اسم يُحذف في الحالة ينبغي أن يُحذف فيها إلا وحذفه أحسن من ذكره فمن حذف المبتدإ قول الشاعر :

لا يبعد الله التلبب م والغارات إذ قال الخميس نعم

اي هذه نعم . قال عبد القاهر : ومن المواضع التي يطرد فيها حذف المبتدإ بالقطع والاستئناف انهم يبدأون بذكر الرجل ويقدمون بعض امره ثم يدعون الكلام الأول فيستأنفون كلاما آخر اذا فعلوا ذلك اتوا في اكثر الامر بخبر من غير مبتدإ مثال ذلك :

وعلمت أني يوم ذا ك منازل كعبا ونهدا

قوم إذا لبسوا الحديد م تنمروا حلقا وقدا

وقول الحطيئة :

هم حلوا من الشرف المعلى ومن حسب العشيرة حيث شاءوا

أساة مكارم وأساة كلم دماؤهم من الكلب الشفاء

وامثلته كثيرة . ومن حذف الخبر قوله : لولا انتم لكنا مؤمنين اي لولا انتم مضلونا . وقول عمر : لولا علي لهلك عمر . اي لولا علي حاضر او مفت . ومما يحتمل الامرين قوله : طاعة وقول معروف . وقوله : فصبر جميل

الاضمار على شريطة التفسير كقولك : اكرمني وا كرمت عبد الله اي

اَكْرَمَني عَبْدُاللهِ وَاَكْرَمتُ عَبْدَاللهِ. وَمِمَّا يُشْبِهُ ذٰلِكَ مَفْعُولُ ٱلْمَشِيئَةِ اِذَا جَاءَتْ بَعْدَ (لَوْ). فَإِنْ كَانَ مَفْعُولُهَا عَظِيماً اَوْ غَرِيباً فَالاَوْلَى ذِكْرُهُ كَقَوْلِهِ:

وَلَوْ شِئْتُ اَنْ اَبْكِي دَماً لَبَكَيْتُهُ عَلَيْهِ وَلٰكِنْ سَاحَةُ ٱلصَّبْرِ اَوْسَعُ

فَإِنَّ بُكَاءَ ٱلاِنْسَانِ دَماً عَجِيبٌ. وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَذٰلِكَ فَالاَوْلَى حَذْفُهُ كَقَوْلِهِ: وَلَوْ شَاءَ ٱللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَى. وَٱلتَّقْدِيرُ: وَلَوْ شَاءَ ٱللهُ اَنْ يَجْمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَى لَجَمَعَهُمْ. وَٱعْلَمْ اَنَّهُ قَدْ تُتْرَكُ ٱلْكِنَايَةُ اِلَى ٱلتَّصْرِيحِ لِمَا فِيهِ مِنْ زِيَادَةِ ٱلْفَخَامَةِ كَقَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ:

قَدْ طَلَبْنَا فَلَمْ نَجِدْ لَكَ فِي ٱلسُّؤْ دُدِ وَٱلْمَجْدِ وَٱلْمَكَارِمِ مِثْلَا

ٱلْمَعْنَى قَدْ طَلَبْنَا لَكَ مِثْلاً. ثُمَّ حُذِفَ لِاَنَّ هٰذَا ٱلْمَدْحَ اِنَّمَا يَتِمُّ بِنَفْيِ ٱلْمِثْلِ فَلَوْ قَالَ: قَدْ طَلَبْنَا لَكَ مِثْلاً فِي ٱلسُّؤْدُدِ وَٱلْمَجْدِ فَلَمْ نَجِدْ لَكَانَ قَدْ اَوْقَعَ نَفْيَ ٱلْوُجُودِ عَلَى ضَمِيرِ (ٱلْمِثْلِ) فَلَمْ يَكُنْ فِيهِ مِنَ ٱلْمُبَالَغَةِ مَا اِذَا اَوْقَعَهُ عَلَى صَرِيحِ ٱلْمِثْلِ. فَإِنَّ ٱلْكِنَايَةَ لَا تَبْلُغُ مَبْلَغَ ٱلصَّرِيحِ. وَعَلَى ذٰلِكَ قَوْلُ ٱلشَّاعِرِ:

لَا اَرَى ٱلْمَوْتَ يَسْبِقُ ٱلْمَوْتَ شَيْءٌ نَغَّصَ ٱلْمَوْتُ ذَا ٱلْغِنَى وَٱلْفَقِيرَا

البحث العاشر

في جوامع الكلم

(عن المثل السائر لابن الاثير باختصار)

اِنَّ ٱلْكَلِمَ جَمْعُ كَلِمَةٍ. وَٱلْجَوَامِعِ جَمْعُ جَامِعَةٍ. وَٱلْجَامِعَةُ ٱسْمُ فَاعِلَةٍ مِنْ جَمَعَتْ فَهِيَ جَامِعَةٌ. كَمَا يُقَالُ فِي ٱلْمُذَكَّرِ جَمَعَ فَهُوَ جَامِعٌ

وَٱلْمُرَادُ بِجَوَامِعِ ٱلْكَلِمِ ٱلْكَلِمُ ٱلْجَوَامِعُ لِلْمَعَانِي. وَهُوَ عِنْدِي يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ: (ٱلْقِسْمُ ٱلْأَوَّلُ) مِنْهُمَا هُوَ مَا ٱسْتَخْرَجْتُهُ وَنَبَّهْتُ عَلَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ فِيهِ قَوْلٌ سَابِقٌ وَهُوَ اَنَّ لَنَا اَلْفَاظًا تَتَضَمَّنُ مِنَ ٱلْمَعْنَى مَا لَا تَتَضَمَّنُهُ اَخَوَاتُهَا مِمَّا يَجُوزُ اَنْ يُسْتَعْمَلَ فِي مَكَانِهَا. فَمِنْ ذٰلِكَ مَا يَأْتِي عَلَى حُكْمِ ٱلْمَجَازِ. وَمِنْهُ مَا يَأْتِي عَلَى حُكْمِ ٱلْحَقِيقَةِ. وَقَدْ وَرَدَ شَيْءٌ مِنْ ذٰلِكَ فِي اَقْوَالِ ٱلشُّعَرَاءِ ٱلْمُفْلِقِينَ. وَلَقَدْ تَصَفَّحْتُ ٱلْأَشْعَارَ قَدِيمَهَا وَحَدِيثَهَا وَحَفِظْتُ مَا حَفِظْتُ مِنْهَا وَكُنْتُ اِذَا مَرَرْتُ بِنَظَرِي فِي دِيوَانٍ مِنَ ٱلدَّوَاوِينِ وَيَلُوحُ لِي فِيهِ مِثْلُ هٰذِهِ ٱلْأَلْفَاظِ اَجِدُ لَهَا نَشْوَةً كَنَشْوَةِ ٱلْخَمْرِ وَطَرَبًا كَطَرَبِ ٱلْأَلْحَانِ. وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاظِمِينَ وَٱلنَّاثِرِينَ يَمُرُّ عَلَى ذٰلِكَ وَلَا يَتَفَطَّنُ لَهُ سِوَى اَنَّهُ يَسْتَحْسِنُهُ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ فِيمَا نَظَرْتُ اَنَا فِيهِ وَيَظُنُّهُ كَغَيْرِهِ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُسْتَحْسَنَةِ. فَمِمَّا جَاءَ مِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ اَبِي تَمَّامٍ:

كَمْ صَارِمٍ عَضْبٍ اَنَافَ عَلَى قَفًا ... مِنْهُمْ لِأَعْبَاءِ ٱلْوَغَى حَمَّالِ
سَبَقَ ٱلْمَشِيبَ اِلَيْهِ حَتَّى ٱبْتَزَّهُ ... وَطَنَ ٱلنُّهَى مِنْ مَفْرِقٍ وَقَذَالِ

فَقَوْلُهُ: (وَطَنُ ٱلنُّهَى) مِنَ ٱلْكَلِمَاتِ ٱلْجَامِعَةِ وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنِ ٱلرَّأْسِ وَلَا يُجَاءُ بِمِثْلِهَا فِي مَعْنَاهَا مِمَّا يَسُدُّ مَسَدَّهَا. وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَوْلُ ٱلْبُحْتُرِيِّ:

قَلْبٌ يُطِلُّ عَلَى اَفْكَارِهِ وَيَدٌ ... تُمْضِي ٱلْأُمُورَ وَنَفْسٌ لَهْوُهَا ٱلتَّعَبُ

فَقَوْلُهُ: (قَلْبٌ يُطِلُّ عَلَى اَفْكَارِهِ) مِنَ ٱلْكَلِمَاتِ ٱلْجَوَامِعِ. وَمُرَادُهُ بِذٰلِكَ اَنَّ قَلْبَهُ لَا تَمْلَأُهُ ٱلْأَفْكَارُ وَلَا تُحِيطُ بِهِ وَاِنَّمَا هُوَ عَالٍ

عليها يصف بذلك عدم احتفاله بالفوادح وقلة مبالاته بالخطوب التي تحدث افكارا تستغرق القلوب وهذه عبارة عجيبة لا يؤتى بمثلها مما يسد مسدها . (واما) ما يأتي على حكم الحقيقة فكقول ابن الرومي :

سقى الله اوطارا لنا ومآربا تقطع من اقرانها ما تقطعا
ليال تنسيني الليالي حسابها بلهنية اقضي بها الحول اجمعا
سوى عزة لا اعرف اليوم باسمه واعمل فيه اللهو مرأى ومسمعا

فقوله : (لا اعرف اليوم باسمه) من الكلمات الجامعة اي اني قد شغلت باللذات عن معرفة الليالي والايام ولو وصف اشتغاله باللذات مهما وصف لم يأت بمثل قوله : (لا اعرف اليوم باسمه) . (واما القسم الثاني) من جوامع الكلم فالمراد به الايجاز الذي يدل به بالالفاظ القليلة على المعاني الكثيرة اي تكون الالفاظ جامعة للمعاني المقصودة على ايجازها واختصارها . وسيأتي في باب الايجاز منه ما فيه كفاية ومقنع . (فان قيل) : فما الفرق بين هذين القسمين اللذين ذكرتهما فانهما بالنظر سواء . (قلت في الجواب) : ان الايجاز هو ان يؤتى بالفاظ دالة على معنى من غير ان تزيد على ذلك المعنى ولا يشترط في تلك الالفاظ انها لا نظير لها فانها تكون قد اتصفت بوصف آخر خارج عن وصف الايجاز . وحينئذ يكون ايجازا او زيادة . واما هذا القسم الآخر فانه الفاظ افراد في حسنها لا نظير لها . فتارة تكون موجزة وتارة لا تكون

مُوجَزَةً . وَلَيسَ ٱلغَرَضُ مِنهَا ٱلإِيجَازَ وَإِنَّمَا ٱلغَرَضُ مَكَانُهَا مِنَ ٱلحُسْنِ ٱلَّذِي لَا نَظِيرَ لَهَا فِيهِ . أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِ أَبِي تَمَّام : (وَطَنَ ٱلنُّهَى) فَإِنَّ ذٰلِكَ عِبَارَةٌ عَنِ ٱلرَّأْسِ وَلَاشَكَّ أَنَّ ٱلرَّأْسَ أَوجَزُ لِأَنَّ ٱلرَّأْسَ لَفظَةٌ وَاحِدَةٌ .وَوَطَنَ ٱلنُّهَى لَفظَتَانِ . إِلَّا إِنَّ(وَطَنَ ٱلنُّهَى) أَحْسَنُ فِي ٱلتَّعبِيرِ عَنِ ٱلرَّأْسِ . فَبَانَ بِهٰذَا أَنَّ أَحَدَ هٰذَينِ ٱلقِسمَينِ غَيرُ ٱلآخَرِ

البحث الحادي عشر

في الانسجام

(عن شرح بديعية العميان لابن جابر وبديعية الحموي)

(راجع صفحة ٢١ من علم الادب)

اَلإِنْسِجَامُ لُغَةً جَرَيَانُ ٱلمَاءِ وَعِندَ أَهلِ ٱلبَلَاغَةِ هُوَ أَنْ يَأْتِيَ ٱلنَّاظِمُ أَوِ ٱلنَّاثِرُ بِكَلَامٍ خَالٍ مِنَ ٱلتَّعقِيدِ ٱللَّفظِيِّ وَٱلمَعنَوِيِّ بَسِيطًا مَفهُومًا دَقِيقَ ٱلأَلفَاظِ جَلِيلَ ٱلمَعنَى لَا تَكَلُّفَ فِيهِ وَلَا تَعَسُّفَ يَتَحَدَّرُ كَتَحَدُّرِ ٱلمَاءِ ٱلمُنسَجِمِ فَيَكَادُ لِسُهُولَةِ تَرْكِيبِهِ وَعُذُوبَةِ أَلفَاظِهِ أَنْ يَسِيلَ رِقَّةً . وَلَا يَكُونُ ذٰلِكَ إِلَّا فِي مَنْ هُوَ مَطبُوعٌ عَلَى سَلَامَةِ ٱلذَّوقِ وَتَوَقُّدِ ٱلفِكرَةِ وَبَرَاعَةِ ٱلإِنشَاءِ وَحُسْنِ ٱلأَسَالِيبِ . فَإِنْ كَانَ مَصْنُوعًا فَلَا بُدَّ أَنْ يَقَعَ فِيهِ غَالِبًا مَا يُظهِرُ صِنَاعَتَهُ مَعَ مُقَابَلَتِهِ بِغَيرِهِ مِنْ نَفسِ صَانِعِهِ . وَإِنَّ فُحُولَ هٰذَا ٱلمَيدَانِ مَا ٱتَّقَلُوا كَاهِلَ سُهُولَتِهِ بِنَوعٍ مِنْ أَنوَاعِ ٱلبَدِيعِ ٱللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَ عَفوًا مِنْ غَيرِ قَصْدٍ . وَعَلَى هٰذَا أَجمَعَ عُلَمَاءُ ٱلبَدِيعِ فِي حَدِّ هٰذَا ٱلنَّوعِ فَإِنَّهُمْ قَرَّرُوا : أَنْ يَكُونَ بَعِيدًا فِي ٱلتَّصَنُّعِ خَالِيًا مِنَ ٱلأَنوَاعِ ٱلبَدِيعِيَّةِ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَ

فِي ضِمْنِ ٱلسُّهُولَةِ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ. وَإِنْ كَانَ ٱلْإِنْسِجَامُ فِي ٱلنَّثْرِ تَكُونُ غَالِبُ فَقَرَاتِهِ مَوْزُونَةً مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ لِقُوَّةِ ٱنْسِجَامِهِ . وَإِنْ كَانَ فِي ٱلنَّظْمِ فَتَكَادُ ٱلْأَبْيَاتُ أَنْ تَسِيلَ رِقَّةً وَعُذُوبَةً . وَرُبَّمَا دَخَلَتْ فِي ٱلْمُطْرِبِ وَٱلْمُرْقِصِ

البحث الثاني عشر

في القول في النظم

(عن صناعة الترسل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

(راجع صفحة ٢٤ من علم الادب)

اَلنَّظْمُ عِبَارَةٌ عَنْ تَوَاخِي مَعَانِي ٱلنَّحْوِ فِيمَا بَيْنَ ٱلْكَلَامِ . وَذٰلِكَ أَنْ تَضَعَ كَلَامَكَ ٱلْوَضْعَ ٱلَّذِي يَقْتَضِيهِ عِلْمُ ٱلنَّحْوِ بِأَنْ تَنْظُرَ فِي كُلِّ بَابٍ إِلَى قَوَانِينِهِ وَٱلْفُرُوقِ ٱلَّتِي بَيْنَ مَعَانِي ٱخْتِلَافِ صِيَغِهِ وَتَضَعَ ٱلْحُرُوفَ مَوَاضِعَهَا وَتُرَاعِيَ شَرَائِطَ ٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ وَمَوَاضِعَ ٱلْفَصْلِ وَٱلْوَصْلِ وَمَوَاضِعَ حُرُوفِ ٱلْعَطْفِ عَلَى ٱخْتِلَافِ مَعَانِيهَا وَتَعْتَبِرَ ٱلْإِصَابَةَ فِي طَرِيقِ ٱلتَّشْبِيهِ وَٱلتَّمْثِيلِ . وَقَدْ أَطْبَقَ ٱلْعُلَمَاءُ عَلَى تَعْظِيمِ شَأْنِ ٱلنَّظْمِ وَأَنْ لَا فَضْلَ مَعَ عَدَمِهِ وَلَوْ بَلَغَ ٱلْكَلَامُ فِي غَرَابَةِ مَعْنَاهُ إِلَى مَا بَلَغَ . وَأَنَّ سَبَبَ فَسَادِهِ تَرْكُ ٱلْعَمَلِ بِقَرَائِنِ ٱلنَّحْوِ وَٱسْتِعْمَالُ شَيْءٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ . ثُمَّ ٱلْجُمَلُ ٱلْكَثِيرَةُ إِذَا نُظِمَتْ نَظْمًا وَاحِدًا فَهِيَ عَلَى قِسْمَيْنِ : (ٱلْأَوَّلُ) أَنْ يَتَعَلَّقَ ٱلْبَعْضُ بِٱلْبَعْضِ فَلَا يَحْتَاجُ وَاضِعُهُ إِلَى فِكْرٍ وَرَوِيَّةٍ فِي ٱسْتِخْرَاجِهِ بَلْ هُوَ كَمَنْ عَمَدَ إِلَى ٱللَّآلِئِ

يَنظِمُها في سِلكٍ . ومِثالُهُ قولُ الجاحظِ : جَنَّبَكَ اللهُ الشُّبهَةَ وعَصَمَكَ مِنَ الحَيرَةِ وجَعَلَ بَينَكَ وبَينَ المَعروفِ نَسَباً وبَينَكَ وبَينَ الصِّدقِ سَبَباً . وكَقَولِ النّابِغَةِ لِلنُّعمانِ : يُفاخِرُكَ ابنُ أَبي جَفنَةٍ وإِنَّ لَقَفاكَ خَيرٌ مِن وَجهِهِ ولَشِمالُكَ خَيرٌ مِن يَمِينِهِ ولَأَخمَصُكَ خَيرٌ مِن رَأسِهِ ولَخَطَأُكَ خَيرٌ مِن صَوابِهِ ولَخَدَمُكَ خَيرٌ مِن قَومِهِ . وهذا النَّظمُ لا يَستَحِقُّ الفَضلَ إِلّا بِسَلامَةِ مَعناهُ وسَلامَةِ أَلفاظِهِ إِذ لَيسَ فيهِ مَعنًى دَقيقٌ لا يُدرِكُ إِلّا بِثاقِبِ الفِكرِ . ورُبَّما ظُنَّ بِالكَلامِ أَنَّهُ مِن هذا الجِنسِ ولا يَكونُ مِنهُ . (الثّاني) أَن تَكونَ الجُمَلُ المَذكورَةُ يَتَعَلَّقُ بَعضُها بِبَعضٍ وهُناكَ تَظهَرُ قُوَّةُ الطَّبعِ وجُودَةُ القَريحَةِ واستِقامَةُ الذِّهنِ . ثُمَّ لَيسَ لِهذا البابِ قانونٌ يُحفَظُ فَإِنَّما يَجيءُ عَلى وُجوهٍ شَتّى :

(فَمِنها الإِيجازُ) وهُوَ التَّعبيرُ عَنِ الغَرَضِ بِأَقَلِّ ما يُمكِنُ مِنَ الحُروفِ وهُوَ عَلى ضَربَينِ : (أَحَدُهُما) إِيجازُ قِصَرٍ وهُوَ تَقليلُ اللَّفظِ وتَكثيرُ المَعنى . (والثّاني) إِيجازُ حَذفٍ وهُوَ الاستِغناءُ بِالمَذكورِ عَمّا لَم يُذكَر . (ومِنها التَّأكيدُ) وهُوَ تَقوِيَةُ المَعنى وتَقريرُهُ إِمّا بِإِظهارِ البُرهانِ كَقَولِ قابوسَ :

يا ذا الَّذي بِصُروفِ الدَّهرِ عَيَّرَنا ... هَل عانَدَ الدَّهرُ إِلّا مَن لَهُ خَطَرُ
أَما تَرى البَحرَ يَعلو فَوقَهُ جِيَفٌ ... وتَستَقِرُّ بِأَقصى قَعرِهِ الدُّرَرُ
وفي السَّماءِ نُجومٌ غَيرُ ذي عَدَدٍ ... ولَيسَ يُكسَفُ إِلّا الشَّمسُ والقَمَرُ

(أَو بِالعَزيمَةِ) كَقَولِهِ : فَوَرَبِّ السَّماءِ والأَرضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ .

(أَو بِالتَّكرارِ) كَقَولِهِم : اللهَ اللهَ والأَسَدَ الأَسَدَ

الفصل الرابع

في البيان

البحث الاوّل

في تحديد البيان على وجه الاجمال

(من كتاب البيان والتبيين للجاحظ وغرر الخصائص للوطواط بتصرُّف)

(راجع صفحة ٢٧ و٢٨ من علم الادب)

اَلْبَيَانُ اسْمٌ لِكُلِّ شَيْءٍ كَشَفَ لَكَ عَلَى بَيَانِ ٱلْمَعْنَى وَهَتَكَ لَكَ ٱلْحُجُبَ دُونَ ٱلضَّمِيرِ حَتَّى يُفْضِيَ ٱلسَّامِعُ إِلَى حَقِيقَتِهِ وَيَهْجُمَ عَلَى مَحْصُولِهِ كَائِنًا مَا كَانَ ذٰلِكَ ٱلْبَيَانُ وَمِنْ اَيِّ جِنْسٍ كَانَ ذٰلِكَ ٱلدَّلِيلُ. لِاَنَّ مَدَارَ ٱلْاَمْرِ وَٱلْغَايَةَ ٱلَّتِي يَجْرِي إِلَيْهَا ٱلْقَائِلُ وَٱلسَّامِعُ إِنَّمَا هُوَ ٱلْفَهْمُ وَٱلْإِفْهَامُ فَبِاَيِّ شَيْءٍ بَلَغْتَ ٱلْإِفْهَامَ وَاَوْضَحْتَ عَنِ ٱلْمَعْنَى فَذٰلِكَ هُوَ ٱلْبَيَانُ فِي ذٰلِكَ ٱلْمَوْضِعِ. وَقِيلَ لِجَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى ٱلْبَرْمَكِيِّ: مَا ٱلْبَيَانُ. قَالَ: اَنْ يَكُونَ ٱلِاسْمُ يُحِيطُ بِمَعْنَاكَ وَيَكْشِفُ عَنْ مَغْزَاكَ وَيُخْرِجُهُ مِنَ ٱلشِّرْكَةِ وَلَا يُسْتَعَانُ عَلَيْهِ بِٱلْفِكْرَةِ وَيَكُونَ سَلِيمًا مِنَ ٱلتَّكَلُّفِ بَعِيدًا مِنَ ٱلصَّنْعَةِ بَرِيئًا مِنَ ٱلتَّعْقِيدِ غَنِيًّا عَنِ ٱلتَّأْوِيلِ. وَقَالُوا: ٱلْبَيَانُ بَصَرٌ وَٱلْعِيُّ عَمًى كَمَا اَنَّ ٱلْعِلْمَ بَصَرٌ وَٱلْجَهْلَ عَمًى وَٱلْبَيَانُ مِنْ نَتَائِجِ ٱلْعِلْمِ وَٱلْعِيُّ مِنْ نَتَائِجِ ٱلْجَهْلِ. وَقَالُوا: حَيَاةُ ٱلْمُرُوءَةِ ٱلصِّدْقُ وَحَيَاةُ ٱلرُّوحِ ٱلْعَفَافُ وَحَيَاةُ ٱلْحِلْمِ ٱلْعِلْمُ وَحَيَاةُ ٱلْعِلْمِ

ٱلْبَيَانُ . وَقَالَ ٱبْنُ ٱلتَّوْأَمِ : ٱلرُّوحُ عِمَادُ ٱلْبَدَنِ وَٱلْعِلْمُ عِمَادُ ٱلرُّوحِ وَٱلْبَيَانُ عِمَادُ ٱلْعِلْمِ . وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّ ٱلْكَلَامَ إِذَا كَثُرَ عَنْ قَدْرِ ٱلْحَاجَةِ وَزَادَ عَلَى حَدِّ ٱلْكِفَايَةِ وَكَانَ صَوَابًا لَا يَشُوبُهُ خَطَلٌ وَسَلِيمًا لَا يَتَنَقَّصُهُ زَلَلٌ فَهُوَ ٱلْبَيَانُ وَٱلسِّحْرُ ٱلْحَلَالُ . (وَفِي كُتُبِ ٱلْحُكَمَاءِ) : ٱلْبَيَانُ هُوَ أَنْ يُحْسِنَ ٱلْعِبَارَةَ عَنِ ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي تَهْجِسُ فِي ٱلضَّمِيرِ فَيَحْتَاجُ إِلَى نَقْلِ صُوَرِهَا ٱلْمُتَخَيَّلَةِ أَوِ ٱلْمَعْقُولَةِ إِلَى ضَمِيرِ مَنْ يُخَاطِبُهُ . وَقَالَ آخَرُ : خَيْرُ ٱلْبَيَانِ مَا كَانَ مُصَرِّحًا عَنِ ٱلْمَعْنَى لِيُسْرِعَ إِلَى ٱلْفَهْمِ تَلَقُّنُهُ وَمُوجَزًا لِيَخِفَّ عَلَى ٱللِّسَانِ تَعَاهُدُهُ . قَالَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ : ٱلْبَيَانُ تَرْجُمَانُ ٱلْقُلُوبِ وَصَيْقَلُ ٱلْعُقُولِ . وَقَالَ سَهْلُ بْنُ هَارُونَ : ٱلْبَيَانُ تَرْجُمَانُ ٱللِّسَانِ وَرَوْضُ ٱلْقُلُوبِ

البحث الثاني

في تعريف علم البيان

(عن الكشّاف للتهانوي وكشف الظنون للحاجّ خلفا)

(راجع صفحة ٢٧ من علم الادب)

ٱلْبَيَانُ لُغَةً ٱلْكَشْفُ وَٱلتَّوْضِيحُ وَٱلظُّهُورُ وَهُوَ فِي ٱلِٱصْطِلَاحِ عِبَارَةٌ عَنِ ٱلْمَنْطِقِ ٱلْفَصِيحِ ٱلْمُعْرِبِ عَمَّا فِي ٱلضَّمِيرِ . وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى ٱلْإِثْبَاتِ بِٱلدَّلِيلِ . وَقِيلَ : ٱلْفَرْقُ بَيْنَ ٱلْبَيَانِ وَٱلتِّبْيَانِ بِأَنَّ ٱلْبَيَانَ هُوَ إِظْهَارُ ٱلْمُرَادِ . وَٱلتِّبْيَانَ يَحْتَوِي عَلَى كَدِّ ٱلْخَاطِرِ وَإِعْمَالِ ٱلْقَلْبِ . وَقَرِيبٌ مِنْهُ مَا قِيلَ : ٱلتِّبْيَانُ بَيَانٌ مَعَ دَلِيلٍ وَبُرْهَانٍ .

وَٱلْبَيَانُ عِنْدَ ٱلْبُلَغَـاءِ : هُوَ عِلْمٌ يُعْرَفُ بِهِ إِيرَادُ ٱلْمَعْنَى ٱلْوَاحِدِ بِتَرَاكِيبَ مُخْتَلِفَةٍ فِي وُضُوحِ ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلْمَقْصُودِ بِأَنْ يَكُونَ دَلَالَةُ بَعْضِهَا أَجْلَى مِنْ بَعْضٍ . وَمَوْضُوعُهُ ٱللَّفْظُ ٱلْبَلِيغُ مِنْ حَيْثُ وُضُوحِ ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلْمُرَادِ . وَغَرَضُهُ تَحْصِيلُ مَلَكَةِ ٱلْإِفَادَةِ بِٱلدَّلَالَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ وَفَهْمِ مَدْلُولَاتِهَا . وَغَايَتُهُ ٱلِٱحْتِرَازُ عَنِ ٱلْخَطَإِ فِي تَعْيِينِ ٱلْمَعْنَى ٱلْمُرَادِ . وَمَبَادِئُهُ بَعْضُهَا عَقْلِيَّةٌ كَأَقْسَامِ ٱلدَّلَالَةِ وَٱلتَّشْبِيهَاتِ وَٱلْعَلَاقَاتِ . وَبَعْضُهَا وِجْدَانِيَّةٌ ذَوْقِيَّةٌ كَوُجُوهِ ٱلتَّشْبِيهَاتِ وَأَقْسَامِ ٱلِٱسْتِعَارَاتِ وَكَيْفِيَّةِ حُسْنِهَا . وَإِنَّمَا ٱخْتَارُوا فِي عِلْمِ ٱلْبَيَانِ وُضُوحَ ٱلدَّلَالَـةِ لِأَنَّ بَحْثَهُمْ لَمَّا ٱقْتَصَرَ عَلَى ٱلدَّلَالَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ أَعْنِي ٱلتَّضَمُّنِيَّـةَ وَٱلِٱلْتِزَامِيَّةَ وَكَانَتْ تِلْكَ ٱلدَّلَالَةُ خَفِيَّـةً سِيَّمَا إِذَا كَانَ ٱللُّزُومُ بِحَسَبِ ٱلْعَادَاتِ وَٱلطَّبَائِعِ فَوَجَبَ ٱلتَّعْبِيرُ عَنْهَا بِلَفْظٍ أَوْضَحَ . مَثَلًا : إِذَا كَانَ ٱلْمَرْئِيُّ دَقِيقًا فِي ٱلْغَايَةِ تَحْتَاجُ ٱلْحَاسَّةُ فِي إِبْصَارِهَا إِلَى شُعَاعٍ قَوِيٍّ بِخِلَافِ ٱلْمَرْئِيِّ إِذَا كَانَ جَلِيلًا . وَكَذَا ٱلْحَالُ فِي ٱلرُّؤْيَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ أَعْنِي ٱلْفَهْمَ وَٱلْإِدْرَاكَ . وَٱلْحَاصِلُ أَنَّ ٱلْمُعْتَبَرَ فِي عِلْمِ ٱلْبَيَانِ دِقَّةُ ٱلْمَعَانِي ٱلْمُعْتَبَرَةِ فِيهَا مِنَ ٱلِٱسْتِعَارَاتِ وَٱلْكِنَايَاتِ مَعَ وُضُوحِ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلدَّالَّةِ عَلَيْهَا



البحث الثالث

في الحقيقة والمجاز

(من المثل السائر لابن الاثير)

(راجع صفحة ٢٩ من علم الادب)

هٰذَا ٱلْفَصْلُ مُهِمٌّ كَبِيرٌ مِنْ مُهِمَّاتِ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ لَا بَلْ هُوَ عِلْمُ ٱلْبَيَانِ بِأَجْمَعِهِ. فَإِنَّ فِي تَصْرِيفِ ٱلْعِبَارَاتِ عَلَى ٱلْأُسْلُوبِ ٱلْمَجَازِيِّ فَوَائِدَ كَثِيرَةً. وَٱلْكَلَامُ فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ عَلَى جُمْلَتِهَا دُونَ تَفْصِيلِهَا. فَأَمَّا ٱلْحَقِيقَةُ فَهِيَ ٱللَّفْظُ ٱلدَّالُّ عَلَى مَوْضُوعِهِ ٱلْأَصْلِيِّ. وَأَمَّا ٱلْمَجَازُ فَهُوَ مَا أُرِيدَ بِهِ غَيْرُ ٱلْمَعْنَى ٱلْمَوْضُوعِ لَهُ مِنْ أَصْلِ ٱللُّغَةِ وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ جَازَ مِنْ هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ إِلَى هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ إِذَا تَخَطَّاهُ إِلَيْهِ. فَٱلْمَجَازُ إِذًا ٱسْمٌ لِلْمَكَانِ ٱلَّذِي يُجَازُ فِيهِ كَٱلْمَعَاجِ وَٱلْمَزَارِ وَأَشْبَاهِهِمَا. وَحَقِيقَتُهُ هِيَ ٱلِٱنْتِقَالُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ. فَجُعِلَ ذٰلِكَ لِنَقْلِ ٱلْأَلْفَاظِ مِنْ مَحَلٍّ إِلَى مَحَلٍّ كَقَوْلِنَا: زَيْدٌ أَسَدٌ. فَإِنَّ زَيْدًا إِنْسَانٌ وَٱلْأَسَدَ هُوَ هٰذَا ٱلْحَيَوَانُ ٱلْمَعْرُوفُ. وَقَدْ جُزْنَا مِنَ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ إِلَى ٱلْأَسَدِيَّةِ. أَيْ عَبَرْنَا مِنْ هٰذِهِ إِلَى هٰذِهِ لِوُصْلَةٍ بَيْنَهُمَا وَتِلْكَ ٱلْوُصْلَةُ هِيَ صِفَةُ ٱلشَّجَاعَةِ. وَقَدْ يَكُونُ ٱلْعُبُورُ لِغَيْرِ وُصْلَةٍ. وَذٰلِكَ هُوَ ٱلِٱتِّسَاعُ كَقَوْلِهِمْ فِي كِتَابِ كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ: قَالَ ٱلْأَسَدُ. قَالَ ٱلثَّعْلَبُ. فَإِنَّ ٱلْقَوْلَ لَا وُصْلَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ هٰذَيْنِ بِحَالٍ مِنَ ٱلْأَحْوَالِ. وَإِنَّمَا أُجْرِيَ عَلَيْهِمَا ٱتِّسَاعًا مَحْضًا لَا غَيْرُ . . . . وَقَدْ ذَهَبَ قَوْمٌ إِلَى أَنَّ ٱلْكَلَامَ كُلَّهُ حَقِيقَةٌ لَا مَجَازَ فِيهِ. وَذَهَبَ آخَرُونَ: إِلَى أَنَّهُ كُلَّهُ مَجَازٌ لَا حَقِيقَةَ فِيهِ. وَكِلَا هٰذَيْنِ

المذهبين فاسدٌ عندي . وساُجيبُ الخصمَ عمّا ادّعاه فيهما فاقولُ : محلُّ النزاع هو انَّ اللغةَ كلَّها حقيقةٌ او انها كلَّها مجازٌ . ولا فرق عندي بين قولك انها كلَّها حقيقةٌ او انها مجازٌ . فانَّ كلا الطرفين عندي سواءٌ . لانَّ منكرَهما غيرُ مسلِّمٍ لهما . وانا بصددِ ان اُبيِّنَ انَّ في اللغةِ حقيقةً ومجازًا . والحقيقةُ اللغويّةُ هي حقيقةُ الالفاظِ في دلالتِها على المعاني وليست بالحقيقةِ التي هي ذاتُ الشيءِ اي نفسُهُ وعينُهُ . فالحقيقةُ اللفظيّةُ اذا هي دلالةُ اللفظِ على المعنى الموضوعِ لهُ في اصلِ اللغةِ . والمجازُ هو نقلُ المعنى عن اللفظِ الموضوعِ لهُ الى لفظٍ آخرَ غيرِهِ . وتقريرُ ذلكَ بانْ اقولَ : المخلوقاتُ كلُّها تفتقرُ الى اسماءٍ يُستدلُّ بها عليها ليُعرفَ كلٌّ منها باسمهِ من اجلِ التفاهمِ بينَ الناسِ . وهذا يقعُ ضرورةً لا بُدَّ منها . فالاسمُ الموضوعُ بازاءِ المسمّى هو حقيقةٌ لهُ فاذا نُقلَ الى غيرِهِ صارَ مجازًا . ومثالُ ذلكَ انا اذا قلنا : شمسٌ . اردنا بهِ هذا الكوكبَ العظيمَ الكثيرَ الضوءِ . وهذا الاسمُ لهُ حقيقةٌ لانَّهُ وُضعَ بازائهِ . وكذلكَ اذا قلنا : بحرٌ . اردنا بهِ هذا الماءَ العظيمَ المجتمعَ الذي طعمُهُ ملحٌ . وهذا الاسمُ لهُ حقيقةٌ لانَّهُ وُضعَ بازائهِ . فاذا نقلنا الشمسَ الى الوجهِ المليحِ استعارةً كانَ لهُ ذلكَ مجازًا لا حقيقةً . وكذلكَ اذا نقلنا البحرَ الى الرجلِ الجوادِ استعارةً كانَ ذلكَ لهُ مجازًا لا حقيقةً . (فانْ قيلَ) : انَّ الوجهَ المليحَ يُقالُ لهُ شمسٌ وهو حقيقةٌ فيهِ . وكذلكَ يُقالُ للرجلِ الجوادِ بحرٌ وهو حقيقةٌ فيهِ . (فالجوابُ) عن ذلكَ من وجهينِ : (احدُهما)

نَظَرِيٌّ وَٱلْآخَرُ وَضعِيٌّ . (اَمَّا ٱلنَّظَرِيُّ) فَهُوَ اَنَّ ٱلْأَلفَاظَ اِنَّمَا جُعِلَتْ اَدِلَّةً عَلَى اِفهَامِ ٱلْمَعَانِي وَلَوْ كَانَ مَا ذَهَبْتَ اِلَيْهِ صَحِيحًا لَكَانَ ٱلبَحْرُ يُطلَقُ عَلَى هٰذَا ٱلْمَاءِ ٱلعَظِيمِ ٱلمِلْحِ وَعَلَى ٱلرَّجُلِ ٱلْجَوَادِ بِٱلِاشْتِرَاكِ . وَكَذٰلِكَ ٱلشَّمْسُ اَيضًا فَإِنَّهَا كَانَتْ تُطلَقُ عَلَى هٰذَا ٱلكَوْكَبِ ٱلعَظِيمِ ٱلكَثِيرِ ٱلضَّوْءِ وَعَلَى هٰذَا ٱلْوَجْهِ ٱلمَلِيحِ بِٱلِاشْتِرَاكِ . وَحِينَئِذٍ فَإِذَا وَرَدَ اَحَدُ هٰذَيْنِ ٱللَّفظَيْنِ مُطلَقًا بِغَيْرِ قَرِينَةٍ تُخَصِّصُهُ فَلَا يُفهَمُ ٱلْمُرَادُ بِهِ مَا هُوَ مِنْ اَحَدِ ٱلْمَعنَيَيْنِ ٱلْمُشتَرَكَيْنِ ٱلْمُندَرِجَيْنِ تَحتَهُ وَنَحْنُ نَرَى ٱلْأَمرَ بِخِلَافِ ذٰلِكَ فَإِنَّا اِذَا قُلْنَا : شَمْسٌ اَوْ بَحْرٌ . وَاَطلَقْنَا ٱلْقَوْلَ لَا يُفهَمُ مِنْ ذٰلِكَ وَجْهٌ مَلِيحٌ وَلَا رَجُلٌ جَوَادٌ . وَاِنَّمَا يُفهَمُ مِنْهُ ذٰلِكَ ٱلكَوْكَبُ ٱلْمَعْلُومُ وَذٰلِكَ ٱلْمَاءُ ٱلْمَعْلُومُ لَا غَيْرُ فَبَطَلَ اِذًا مَا ذَهَبْتَ اِلَيْهِ بِمَا بَيَّنَّاهُ وَاَوْضَحْنَاهُ . (فَإِنْ قُلْتَ) : اِنَّ ٱلْعُرْفَ يُخَالِفُ مَا ذَهَبْتَ اِلَيْهِ فَإِنَّ مِنَ ٱلْأَلفَاظِ مَا اِذَا اُطلِقَ لَمْ يَذْهَبِ ٱلْفَهْمُ مِنْهُ اِلَّا اِلَى ٱلْمَجَازِ دُونَ ٱلْحَقِيقَةِ . (قُلْتُ فِي ٱلْجَوَابِ) : هٰذَا شَيْءٌ ذَهَبَ اِلَيْهِ بَعْضُهُمْ وَلَيْسَ ٱلْأَمْرُ كَمَا ذَهَبُوا اِلَيْهِ . لِأَنَّهُ اِنْ كَانَ اِطْلَاقُ ٱللَّفظِ فِيهِ بَيْنَ عَامَّةِ ٱلنَّاسِ فَهٰؤُلَاءِ لَا يَفهَمُونَ اِلَّا ٱلْمَعْنَى ٱلْمَجَازِيَّ . لِأَنَّهُمْ لَمْ يَعْلَمُوا اَصْلَ وَضْعِ ٱلكَلِمَةِ . وَاَمَّا خَاصَّةُ ٱلنَّاسِ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ اَصْلَ ٱلْوَضْعِ فَإِنَّهُمْ لَا يَفهَمُونَ عِندَ اِطْلَاقِ ٱللَّفظِ اِلَّا ٱلْحَقِيقَةَ لَا غَيْرُ . . . (وَاَمَّا ٱلْوَجْهُ ٱلْوَضعِيُّ) فَهُوَ اَنَّ ٱلْمَرْجِعَ فِي هٰذَا وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهُ اِلَى اَصْلِ ٱللُّغَةِ ٱلَّتِي هِيَ وَضْعُ ٱلْأَسْمَاءِ عَلَى ٱلْمُسَمَّيَاتِ وَلَمْ يُوجَدْ فِيهَا اَنَّ ٱلْوَجْهَ ٱلْمَلِيحَ يُسَمَّى شَمْسًا وَلَا اَنَّ ٱلرَّجُلَ ٱلْجَوَادَ يُسَمَّى بَحْرًا . وَاِنَّمَا اَهْلُ

ٱلْخِطَابَةِ وَٱلشِّعْرِ تَوَسَّعُوا فِي ٱلْأَسَالِيبِ ٱلْمَعْنَوِيَّةِ فَنَقَلُوا ٱلْحَقِيقَةَ إِلَى ٱلْمَجَازِ وَلَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ مِنْ وَاضِعِ ٱللُّغَةِ فِي أَصْلِ ٱلْوَضْعِ وَلِهٰذَا ٱخْتَصَّ كُلٌّ مِنْهُمْ بِشَيْءٍ ٱخْتَرَعَهُ فِي ٱلتَّوَسُّعَاتِ ٱلْمَجَازِيَّـةِ . هٰذَا ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ قَدِ ٱخْتَرَعَ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ قَبْلَهُ . فَمِنْ ذٰلِكَ أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ عَبَّرَ عَنِ ٱلْفَرَسِ بِقَوْلِهِ : (قَيْدُ ٱلْأَوَابِدِ) . وَلَمْ يُسْمَعْ ذٰلِكَ لِأَحَدٍ مِنْ قَبْلِهِ . . . وَوَاضِعُ ٱللُّغَةِ مَا ذَكَرَ شَيْئًا مِنْ ذٰلِكَ فَعَلِمْنَا حِينَئِذٍ أَنَّ مِنَ ٱللُّغَـةِ حَقِيقَةً بِوَضْعِهِ وَمَجَازًا بِتَوَسُّعَاتِ أَهْلِ ٱلْخِطَابَةِ وَٱلشِّعْرِ . وَفِي زَمَانِنَا هٰذَا قَدْ يَخْتَرِعُونَ أَشْيَاءَ مِنَ ٱلْمَجَازِ عَلَى حُكْمِ ٱلْإِسْتِعَـارَةِ لَمْ تَـكُنْ مِنْ قَبْلُ . وَلَوْ كَانَ هٰذَا مَوْقُوفًا مِنْ جِهَةِ وَاضِعِ ٱللُّغَـةِ لَمَا ٱخْتَرَعَهُ أَحَدٌ مِنْ بَعْدِهِ وَلَا زِيدَ فِيهِ وَلَا نَقَصَ مِنْهُ . وَأَمَّا ٱلْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْحَقِيقَةِ فَهُوَ أَنَّ ٱلْحَقِيقَةَ جَارِيَةٌ عَلَى ٱلْعُمُومِ فِي نَظَائِرِ . أَلَا تَرَى إِذَا قُلْنَا : فُلَانٌ عَالِمٌ .صَدَقَ عَلَى كُلِّ ذِي عِلْمٍ . بِخِلَافِ (وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ) . لِأَنَّهُ لَا يَصِحُّ إِلَّا فِي بَعْضِ ٱلْجَمَادَاتِ دُونَ بَعْضٍ إِذِ ٱلْمُرَادُ أَهْلُ ٱلْقَرْيَةِ لِأَنَّهُمْ مِمَّنْ يَصِحُّ ٱلسُّؤَالُ لَهُمْ . وَلَا يَجُـوزُ أَنْ يُقَالَ : وَٱسْأَلِ ٱلْحَجَرَ وَٱلتُّرَابَ . وَقَدْ يَحْسُنُ أَنْ يُقَالَ : وَٱسْأَلِ ٱلرَّبْعَ وَٱلطَّلَلَ . (وَٱعْلَمْ) أَنَّ كُلَّ مَجَازٍ فَلَهُ حَقِيقَةٌ لِأَنَّهُ لَمْ يَصِحَّ أَنْ يُطْلَقَ عَلَيْهِ ٱسْمُ ٱلْمَجَازِ إِلَّا عَنْ حَقِيقَةٍ مَوْضُوعَةٍ لَهُ إِذِ ٱلْمَجَازُ هُوَ ٱسْمٌ لِلْمَوْضُوعِ ٱلَّذِي يُنْتَقَلُ فِيهِ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ فَجُعِلَ ذٰلِكَ لِنَقْلِ ٱلْأَلْفَاظِ مِنَ ٱلْحَقِيقَةِ إِلَى غَيْرِهَا . وَإِذَا كَانَ كُلُّ مَجَازٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ حَقِيقَةٍ نُقِلَ عَنْهَا إِلَى حَالَةٍ ٱلْمَجَازِيَّةِ فَكَذٰلِكَ لَيْسَ مِنْ ضَرُورَةِ كُلِّ حَقِيقَةٍ أَنْ يَكُونَ لَهَا مَجَازٌ . فَإِنَّ

مِنَ ٱلْأَسماء بِمَا لَا مجازَ لَهُ كَأَسْمَاء ٱلْأَعْلَامِ لِأَنَّهَا وُضِعَتْ لِلْفَرْقِ بَيْنَ ٱلذَّوَاتِ لَا لِلْفَرْقِ بَيْنَ ٱلصِّفَاتِ

وَكَذَلِكَ فَٱعْلَمْ انَّ ٱلْمَجَازَ اوْلَى بِٱلِاسْتِعْمَالِ مِنَ ٱلْحَقِيقَةِ فِي بَابِ ٱلْفَصَاحَةِ وَٱلْبَلَاغَةِ لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ لَكَانَتِ ٱلْحَقِيقَةُ ٱلَّتِي هِيَ ٱلْأَصْلُ اوْلَى مِنْهُ حَيْثُ هُوَ فَرْعٌ عَلَيْهَا . وَلَيْسَ ٱلْأَمْرُ كَذَلِكَ لِأَنَّهُ ثَبَتَ وَتَحَقَّقَ انَّ فَائِدَةَ ٱلْكَلَامِ ٱلْخَطَابِيِّ هُوَ اِثْبَاتُ ٱلْغَرَضِ ٱلْمَقْصُودِ فِي نَفْسِ ٱلسَّامِعِ بِٱلتَّخْيِيلِ وَٱلتَّصْوِيرِ حَتَّى يَكَادَ يَنْظُرُ اِلَيْهِ عِيَانًا . اَلَا تُرَى انَّ حَقِيقَةَ قَوْلِنَا : زَيْدٌ اَسَدٌ . هِيَ قَوْلُنَا: زَيْدٌ شُجَاعٌ . لَكِنْ فُرِقَ بَيْنَ ٱلْقَوْلَيْنِ فِي ٱلتَّصْوِيرِ وَٱلتَّخْيِيلِ وَاِثْبَاتِ ٱلْغَرَضِ ٱلْمَقْصُودِ فِي نَفْسِ ٱلسَّامِعِ . لِأَنَّ قَوْلَنَا: زَيْدٌ شُجَاعٌ. لَا يَتَخَيَّلُ مِنْهُ ٱلسَّامِعُ سِوَى اَنَّهُ رَجُلٌ جَرِيءٌ مِقْدَامٌ . فَاِذَا قُلْنَا : زَيْدٌ اَسَدٌ . يُخَيَّلُ عِنْدَ ذَلِكَ صُورَةُ ٱلْأَسَدِ وَهَيْئَتُهُ وَمَا عِنْدَهُ مِنَ ٱلْبَطْشِ وَٱلْقُوَّةِ وَدَقِّ ٱلْفَرَائِسِ . وَقَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ فِي ٱلْفَرَسِ :(قَيْدُ ٱلْأَوَابِدِ) هُوَ اَبْلَغُ مِنْ قَوْلِهِ لَوْ قَالَ : مَانِعُ ٱلْأَوَابِدِ عَنِ ٱلذَّهَابِ وَٱلْإِفْلَاتِ . وَٱلْقَيْدُ مِنْ اَعْلَى مَرَاتِبِ ٱلْمَنْعِ عَنِ ٱلتَّصَرُّفِ لِأَنَّكَ تُشَاهِدُ مَا فِي ٱلْقَيْدِ مِنَ ٱلْمَنْعِ فَلَا تَشُكُّ فِيهِ . وَكَقَوْلِهِمْ : هٰذَا مِيزَانُ ٱلْقِيَاسِ اَيْ تَعْدِيلُهُ . وَٱلْمَجَازُ اَبْلَغُ لِأَنَّ ٱلْمِيزَانَ يُصَوِّرُ لَكَ ٱلتَّعْدِيلَ حَتَّى تُعَايِنَهُ وَلِلْعِيَانِ فَضْلٌ عَلَى مَا سِوَاهُ . وَكَذَلِكَ :ٱلْعَرُوضُ مِيزَانُ ٱلشِّعْرِ اَيْ حَقِيقَةُ تَقْوِيمِهِ . وَهٰذَا لَا نِزَاعَ فِيهِ . وَاَعْجَبُ مَا فِي ٱلْعِبَارَةِ ٱلْمَجَازِيَّةِ اَنَّهَا تَنْقُلُ ٱلسَّامِعَ عَنْ خُلُقِهِ ٱلطَّبِيعِيِّ فِي بَعْضِ ٱلْأَحْوَالِ حَتَّى اِنَّهَا يَسْمَحُ بِهَا ٱلْبَخِيلُ

وَيُشَجَّعُ بِهَا ٱلْجَبَانُ وَيُحْكِمُ بِهَا ٱلطَّائِشُ ٱلْمُتَسَرِّعُ وَيَجِدُ ٱلْمُخَاطَبُ بِهَا عِنْدَ سَمَاعِهَا نَشْوَةً كَنَشْوَةِ ٱلْخَمْرِ حَتَّى إِذَا قُطِعَ عِنْدَ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامِ أَفَاقَ وَنَدِمَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ مِنْ بَذْلِ مَالٍ . أَوْ تَرْكِ عُقُوبَةٍ . أَوْ إِقْدَامٍ عَلَى أَمْرٍ مَهُولٍ وَهٰذَا هُوَ فَحْوَى ٱلسِّحْرِ ٱلْحَلَالِ ٱلْمُسْتَغْنِي مِنْ إِلْقَاءِ ٱلْعَصَا وَٱلْحِبَالِ . (وَٱعْلَمْ) أَنَّهُ إِذَا وَرَدَ عَلَيْكَ كَلَامٌ . يَجُوزُ أَنْ يُحْمَلَ مَعْنَاهُ عَلَى طَرِيقِ ٱلْحَقِيقَةِ وَعَلَى طَرِيقِ ٱلْمَجَازِ بِٱخْتِلَافِ لَفْظِهِ فَٱنْظُرْ فَإِنْ كَانَ لَا مَزِيَّةَ لِمَعْنَاهُ فِي حَمْلِهِ عَلَى طَرِيقِ ٱلْمَجَازِ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُحْمَلَ إِلَّا عَلَى طَرِيقِ ٱلْحَقِيقَةِ لِأَنَّهَا هِيَ ٱلْأَصْلُ وَٱلْمَجَازُ هُوَ ٱلْفَرْعُ وَلَا يُعْدَلُ عَنِ ٱلْأَصْلِ إِلَى ٱلْفَرْعِ إِلَّا لِفَائِدَةٍ

البحث الرابع

في الاستعارة

(عن صناعة الترسّل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

(راجع صفحة ٢٩ من علم الادب)

هِيَ ٱدِّعَاءُ مَعْنَى ٱلْحَقِيقَةِ فِي ٱلشَّيْءِ لِلْمُبَالَغَةِ فِي ٱلتَّشْبِيهِ مَعَ طَرْحِ ذِكْرِ ٱلْمُشَبَّهِ مِنَ ٱلْبَيْنِ لَفْظًا وَتَقْدِيرًا . وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ : هُوَ جَعْلُ ٱلشَّيْءِ لِلشَّيْءِ لِأَجْلِ ٱلْمُبَالَغَةِ فِي ٱلتَّشْبِيهِ . فَٱلْأَوَّلُ كَقَوْلِكَ : لَقِيتُ أَسَدًا تَعْنِي ٱلرَّجُلَ ٱلشُّجَاعَ . وَٱلثَّانِي كَقَوْلِ لَبِيدٍ :

إِذْ أَصْبَحَتْ بِيَدِ ٱلشَّمَالِ زِمَامُهَا

اثبت اليد للشمال مبالغة في تشبيهها بالقادر في التصرف فيه .
وحدّ الرماني الاستعارة فقال : هي تعليق العبارة على غير ما وضعت له في اصل اللغة على سبيل النقل للابانة . وقال ابن المعتز : هي استعارة الكلمة من شيء قد عرف بها الى شيء لم يعرف بها .
وذكر الخفاجي كلام الرماني وقال : وتفسير هذه الجملة ان قوله مثلًا : (واشتعل الرأس شيبًا) . استعارة لان الاشتعال للنار ولم توضع في اصل اللغة للشيب فلما نقل اليه بان المعنى لما اكتسبه من التشبيه . لان الشيب لما كان نافذًا في الرأس شيئًا فشيئًا حتى يحيله الى غير لونه الاول كان بمنزلة النار التي تسري في الخشب حتى تحيله الى غير حالته المتقدمة . فهذا من نقل العبارة عن الحقيقة في الوضع للبيان ولا بد ان يكون اوضح من الحقيقة لاجل التشبيه العارض فيها . لان الحقيقة لو قامت مقامها لكانت اولى بها لانها الاصل وليس يخفى على المتأمل ان قوله : (واشتعل الرأس شيبًا) . ابلغ من : كثر شيب الرأس . وهو حقيقة هذا المعنى . وقوله : (يوم يكشف عن ساقٍ) . احسن وابلغ في ما قصد له من قوله لو قال : يوم يكشف عن شدة الامر . وان كان المعنيان واحدًا . الا ترى انك تقول لمن يحتاج الى الجد في امره : شمّر عن ساقك . فيكون هذا القول منك ازكر في نفسه من قولك : جدّ في امرك . وقال دريد بن الصمة :

كميش الازار خارج نصف ساقه　　صبور على الضراء طلاع انجد

وَقَالَ ٱلْهُذَلِيُّ :

وَكُنْتُ إِذَا جَارٌ دَعَا بِغُومِهِ ... أُشَمِّرُ حَتَّى يَنْصِفَ ٱلسَّاقَ مِئْزَرِي

وَلَا بُدَّ لِلِاسْتِعَارَةِ مِنْ حَقِيقَةٍ هِيَ أَصْلُهَا وَهِيَ : مُسْتَعَارٌ مِنْهُ . وَمُسْتَعَارٌ بِهِ . وَمُسْتَعَارٌ لَهُ . فَٱلنَّارُ فِي قَوْلِهِ : (اشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا) . مُسْتَعَارٌ مِنْهَا . وَٱلِاشْتِعَالُ مُسْتَعَارٌ . وَٱلشَّيْبُ مُسْتَعَارٌ لَهُ . وَأَمَّا قَوْلُنَا : (مَعَ طَرْحِ ذِكْرِ ٱلْمُشَبَّهِ) . فَٱعْلَمْ أَنَّنَا إِذَا طَرَحْنَاهُ كَقَوْلِنَا : رَأَيْتُ أَسَدًا . وَأَرَدْنَا ٱلرَّجُلَ ٱلشُّجَاعَ فَهُوَ ٱسْتِعَارَةٌ بِٱلِاتِّفَاقِ وَإِنْ ذَكَرْنَا مَعَهُ ٱلْمُشَبَّهَ وَقُلْنَا : زَيْدٌ أَسَدٌ . فَٱلْمُخْتَارُ أَنَّهُ لَيْسَ بِٱسْتِعَارَةٍ إِذْ فِي ٱللَّفْظِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ بِأَسَدٍ فَلَمْ تَحْصُلِ ٱلْمُبَالَغَةُ . وَإِذَا قُلْتَ : زَيْدٌ ٱلْأَسَدُ . فَهُوَ أَبْعَدُ عَنِ ٱلِاسْتِعَارَةِ فَإِنَّ ٱلْأَوَّلَ خَرَجَ بِٱلتَّنْكِيرِ مِنْ أَنْ يَحْسُنَ فِيهِ كَافُ ٱلتَّشْبِيهِ . فَإِنَّ قَوْلَكَ : زَيْدٌ كَأَسَدٍ . كَلَامٌ نَازِلٌ بِخِلَافِ ٱلثَّانِي . قَالَ ضِيَاءُ ٱلدِّينِ بْنُ ٱلْأَثِيرِ : وَهٰذَا ٱلتَّشْبِيهُ ٱلْمُضْمَرُ ٱلْأَدَاةِ قَدْ خَلَطُوهُ بِٱلِاسْتِعَارَةِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَهُمَا وَذٰلِكَ خَطَأٌ مَحْضٌ . وَسَأُوضِحُ وَجْهَ ٱلْخَطَإِ فِيهِ وَأُحَقِّقُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلْفَرْقِ بَيْنَهُمَا فَأَقُولُ : إِنَّ ٱلتَّشْبِيهَ ٱلْمُظْهَرَ ٱلْأَدَاةِ فَلَا حَاجَةَ لِبَيَانِ ذِكْرِهِ لِأَنَّهُ لَا خِلَافَ فِيهِ وَلٰكِنْ نَذْكُرُ ٱلتَّشْبِيهَ ٱلْمُضْمَرَ ٱلْأَدَاةِ فَنَقُولُ : إِذَا ذُكِرَ ٱلْمَنْقُولُ وَٱلْمَنْقُولُ إِلَيْهِ عَلَى أَنَّهُ تَشْبِيهٌ ٱلْمُضْمَرِ ٱلْأَدَاةِ قِيلَ فِيهِ : زَيْدٌ أَسَدٌ . أَيْ كَٱلْأَسَدِ . فَأَدَاةُ ٱلتَّشْبِيهِ فِيهِ مُضْمَرَةٌ مُقَدَّرَةٌ . وَإِذَا أُظْهِرَتْ حَسُنَ ظُهُورُهَا وَلَمْ تَقْدَحْ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلَّذِي أُظْهِرَتْ فِيهِ وَلَمْ تُزِلْ عَنْهُ فَصَاحَتَهُ وَبَلَاغَتَهُ وَهٰذَا بِخِلَافِ مَا إِذَا ذُكِرَ ٱلْمَنْقُولُ إِلَيْهِ دُونَ ٱلْمَنْقُولِ فَإِنَّهُ لَا يَحْسُنُ

فِيهِ ظُهُورُ اَدَاةِ ٱلتَّشْبِيهِ وَإِذَا اُظْهِرَتْ اَزَالَتْ عَنْ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامِ مَا كَانَ مُتَّصِفًا بِهِ مِنَ ٱلْحُسْنِ وَٱلْفَصَاحَةِ... فَٱلْفَرْقُ إِذًا بَيْنَ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْمُضْمَرِ ٱلْاَدَاةِ وَبَيْنَ ٱلِاسْتِعَارَةِ اَنَّ ٱلتَّشْبِيهَ ٱلْمُضْمَرَ ٱلْاَدَاةِ يَحْسُنُ إِظْهَارُ اَدَاةِ ٱلتَّشْبِيهِ فِيهِ وَٱلِاسْتِعَارَةُ لَا يَحْسُنُ ذٰلِكَ فِيهَا . وَٱلِاسْتِعَارَةُ اَخَصُّ مِنَ ٱلْمَجَازِ إِذْ قَصْدُ ٱلْمُبَالَغَةِ شَرْطٌ فِي ٱلِاسْتِعَارَةِ دُونَ ٱلْمَجَازِ . وَاَيْضًا فَكُلُّ اسْتِعَارَةٍ مِنَ ٱلْبَدِيعِ وَلَيْسَ كُلُّ مَجَازٍ مِنْهُ وَٱلْحَقُّ اَنَّ ٱلْمَعْنَى يُعَارُ اَوَّلًا ثُمَّ بِوَاسِطَتِهِ يُعَارُ ٱللَّفْظُ . وَلَا تَحْسُنُ ٱلِاسْتِعَارَةُ إِلَّا حَيْثُ كَانَ ٱلتَّشْبِيهُ مُقَرَّرًا بَيْنَهُمَا ظَاهِرًا اَوَّلًا فَلَا بُدَّ مِنَ ٱلتَّصْرِيحِ بِٱلتَّشْبِيهِ . فَلَوْ قُلْتَ: رَاَيْتُ نَخْلَةً اَوْ خَامَةً . وَاَنْتَ تُرِيدُ مُؤْمِنًا إِشَارَةً إِلَى قَوْلِهِ : مَثَلُ ٱلْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ ٱلنَّخْلَةِ اَوْ مَثَلِ ٱلْخَامَةِ . لَكُنْتَ كَٱلْمُلْغِزِ ٱلتَّارِكِ لِمَا يُفْهَمُ وَكُلَّمَا زَادَ ٱلتَّشْبِيهُ خَفَاءً زَادَتِ ٱلِاسْتِعَارَةُ حُسْنًا بِحَيْثُ يَكُونُ اَلْطَفَ مِنَ ٱلتَّصْرِيحِ بِٱلتَّشْبِيهِ. وَرُبَّمَا جُمِعَ بَيْنَ عِدَّةِ اسْتِعَارَاتٍ إِلْحَاقًا لِلشَّكْلِ بِٱلشَّكْلِ لِإِتْمَامِ ٱلتَّشْبِيهِ فَتَزِيدُ ٱلِاسْتِعَارَةُ بِهِ حُسْنًا كَقَوْلِ امْرِئِ ٱلْقَيْسِ فِي صِفَةِ ٱللَّيْلِ :

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ ... وَاَرْدَفَ اَعْجَازًا وَنَاءَ بِكَلْكَلِ

وَٱعْلَمْ اَنَّهُ لَا بُدَّ اَيْضًا مِنْ مَعْنًى يَشْتَرِكُ بَيْنَ ٱلْمُسْتَعَارِ وَٱلْمُسْتَعَارِ مِنْهُ . فَٱلْمَعْنَى ٱلْمُشْتَرَكُ بَيْنَ قَيْدِ ٱلْاَوَابِدِ مَثَلًا وَمَانِعِ ٱلْاَوَابِدِ هُوَ ٱلْحَبْسُ وَعَدَمُ ٱلْإِفْلَاتِ . وَبَيْنَ مِيزَانِ ٱلْقِيَاسِ وَتَعْدِيلِ حُصُولِ ٱلِاسْتِقَامَةِ هُوَ ٱرْتِفَاعُ ٱلْحَيْفِ وَٱلْمَيْلِ إِلَى اَحَدِ ٱلْجَانِبَيْنِ . وَهٰكَذَا جَمِيعُ ٱلِاسْتِعَارَاتِ وَٱلْمَجَازَاتِ

البحث الخامس

فيما تدخله الاستعارة وما لا تدخله

(عن صناعة الترسل ايضاً)

الأعلامُ لا يدخلها الاستعارةُ لِما تقدَّم في المجاز . وأمَّا الفعلُ فالاستعارةُ تقعُ اوَّلًا في المصدرِ ثمَّ تقعُ بواسطةِ ذلك في الفعلِ . فإذا قلتَ : نطقتِ الحالُ بكذا . فهذا انَّما يصحُّ لأنَّك وجدتَ الحالَ مُشابِهةً للنُّطقِ في الدَّلالةِ على الشَّيْء فلا جرمَ استعرتَ النُّطقَ لتلك الحالةِ ثمَّ نقلتَهُ الى الفعلِ . والأسماءُ المُشتقَّةُ في ذلك كالفعلِ . فظهرَ انَّ الاستعارةَ انَّما تقعُ وقوعًا اوَّليًّا في اسماءِ الأجناسِ . ثمَّ الفعلُ اذا كان مُستعارًا فاستعارتُهُ إمَّا من جهةِ فاعلِهِ كقولِهِ : نطقتِ الحالُ بكذا او لعبت بهِ الهمومُ . وكقولِ جريرٍ :

يحْشَى الرَّوامِسَ رَبعُها فتُجِدُّهُ بعدَ البِلَى وتُميتُهُ الأمطارُ

او من جهةِ مفعولِهِ كقولِ ابنِ المُعتزّ :

جُمِعَ الحقُّ لنا في إمامٍ قتلَ الجورَ وأحيا السَّماحا

او من جهةِ الفاعلِ والمفعولِ كقولِهِ : يكادُ البرقُ يخطفُ ابصارَهُم . ويتَّصِلُ بهذا ترشيحُ الاستعارةِ وتجريدُها . امَّا ترشيحُها فهو ان تنظرَ فيها الى المُستعارِ وتُراعِيَ جانبَهُ وتُوليَهُ ما تستدعِيهِ وتضُمَّ اليهِ ما تقتضيهِ كقولِ النَّابغةِ :

وصدرٍ ازاحَ اللَّيلُ عازِبَ همِّهِ تضاعفَ فيهِ الحُزنُ من كلِّ جانبِ

ٱلْمُسْتَعَارُ فِيهِ وَهُوَ ٱلْإِزَاحَةُ مَنظُورٌ إِلَيْهِ فِي لَفظِ ٱلْعَازِبِ . وَأَمَّا تَجْرِيدُهَا فَهُوَ أَنْ يَكُونَ ٱلْمُسْتَعَارُ لَهُ مَنظُورًا إِلَيْهِ كَقَوْلِهِ: فَأَذَاقَهَا ٱللهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ . فَإِنَّ ٱلْإِذَاقَةَ وَقَعَتْ عِبَارَةً عَمَّا يُدْرَكُ مِنْ أَثَرِ ٱلضَّرَرِ وَٱلْأَلَمِ تَشْبِيهًا لَهُ بِمَا يُدْرَكُ مِنْ طَعْمِ ٱلْمُرِّ. ٱلشَّبَعُ وَٱللِّبَاسُ عِبَارَةٌ عَمَّا يَغْشَى مِنْهُمَا وَيُلَابِسُ فَكَأَنَّهُ قَالَ : فَأَذَاقَهَا مَا غَشِيَهَا مِنْ أَلَمِ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ . وَكَقَوْلِ زُهَيْرٍ :

لَدَى أَسَدٍ شَاكِي ٱلسِّلَاحِ مُقَذَّفٍ   لَهُ لِبَدٌ أَظْفَارُهُ لَمْ تُقَلَّمِ

فَلَوْ نَظَرَ إِلَى ٱلْمُسْتَعَارِ لَقَالَ : لَدَى أَسَدٍ دَامِي أَوْ دَامِي ٱلْبَرَاثِنِ مَثَلًا. وَنَظَرَ زُهَيْرٌ فِي آخِرِ ٱلْبَيْتِ إِلَى ٱلْمُسْتَعَارِ . وَمِنْهُ قَوْلُ كُثَيِّرٍ :

غَمْرُ ٱلرِّدَاءِ إِذَا تَبَسَّمَ ضَاحِكًا   غَلِقَتْ لِضَحْكَتِهِ رِقَابُ ٱلْمَالِ

ٱسْتَعَارَ ٱلرِّدَاءَ لِلْمَعْرُوفِ لِأَنَّهُ يَصُونُ عِرْضَ صَاحِبِهِ صَوْنَ ٱلرِّدَاءِ لِمَا يُلْقَى عَلَيْهِ . وَوَصَفَهُ بِٱلْغَمْرِ ٱلَّذِي هُوَ وَصْفُ ٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّوَالِ لَا وَصْفُ ٱلرِّدَاءِ

وَيَقْرُبُ مِنْ ذٰلِكَ ٱلِٱسْتِعَارَةُ بِٱلْكِنَايَةِ وَهُوَ أَنْ لَا يُصَرِّحَ بِذِكْرِ ٱلْمُسْتَعَارِ بَلْ يَذْكُرُ بَعْضَ لَوَازِمِهِ تَنْبِيهًا بِهِ كَقَوْلِهِ : شُجَاعٌ يَفْتَرِسُ أَقْرَانَهُ وَعَالِمٌ يَغْتَرِفُ مِنْهُ ٱلنَّاسُ . وَكَقَوْلِ أَبِي ذُؤَيْبٍ :

وَإِذَا ٱلْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا   أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ

تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ ٱلشُّجَاعَ أَسَدٌ وَٱلْعَالِمَ بَحْرٌ وَٱلْمَنِيَّةَ سَبُعٌ . وَهٰذَا وَإِنْ كَانَ يُشْبِهُ ٱلِٱسْتِعَارَةَ ٱلْمُجَرَّدَةَ إِلَّا أَنَّهُ أَغْرَبُ وَأَعْجَبُ. وَيَقْرُبُ مِنْهُ قَوْلُ زُهَيْرٍ :

وَمَنْ يَعصِ أَطْرَافَ ٱلزِّمَاحِ فَإِنَّهُ يُطِيعُ ٱلْعَوَالِيَ رُكِّبَتْ كُلَّ لَهْذَمِ

أَرَادَ أَنْ يَقُولَ : مَنْ لَمْ يَرْضَ بِأَحْكَامِ ٱلصُّلْحِ رَضِيَ بِأَحْكَامِ ٱلْحَرْبِ أَيْ أَشْرَعُوا ٱلْأَسِنَّةَ وَأَخَّرُوا ٱلرِّمَاحَ . وَقَدْ يُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعُ ٱلْمُمَاثَلَةَ أَيْضًا . وَقَدْ يُنْزِلُونَ ٱلِٱسْتِعَارَةَ مَنْزِلَةَ ٱلْحَقِيقَةِ وَذٰلِكَ أَنَّهُمْ يَسْتَعِيرُونَ ٱلْوَصْفَ ٱلْمَحْسُوسَ لِلشَّيْءِ ٱلْمَعْقُولِ . وَيَجْعَلُونَ كَأَنَّ تِلْكَ ٱلصِّفَةَ ثَابِتَةٌ لِذٰلِكَ ٱلشَّيْءِ فِي ٱلْحَقِيقَةِ وَأَنَّ ٱلِٱسْتِعَارَةَ لَمْ تُوجَدْ أَصْلًا . مِثَالُهُ ٱسْتِعَارَتُهُمُ ٱلْعُلُوَّ لِزِيَادَةِ ٱلرَّجُلِ عَلَى غَيْرِهِ فِي ٱلْفَضْلِ وَٱلْقَدْرِ وَٱلسُّلْطَانِ ثُمَّ وَضْعُهُمُ ٱلْكَلَامَ وَضْعَ مَنْ يَذْكُرُ عُلُوًّا مَكَانِيًّا . كَقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ :

وَيَصْعَدُ حَتَّى يَظُنَّ ٱلْحَسُودُ بِأَنَّ لَـهُ حَاجَةً فِي ٱلسَّمَاءِ

وَكَقَوْلِهِ أَيْضًا :

مَكَارِمُ لَجَّتْ فِي عُلُوٍّ كَأَنَّمَا تُحَاوِلُ ثَأْرًا عِنْدَ بَعْضِ ٱلْكَوَاكِبِ

البحث السادس

في اقسام الاستعارة

(عن صناعة الترسل ايضاً)

(راجع صفحة ٣٢ من علم الادب)

هِيَ عَلَى نَوْعَيْنِ : (ٱلْأَوَّلُ) أَنْ يُعْتَمَدَ نَفْسُ ٱلتَّشْبِيهِ وَهُوَ أَنْ يَشْتَرِكَ شَيْئَانِ فِي وَصْفٍ وَأَحَدُهُمَا أَنْقَصُ مِنَ ٱلْآخَرِ . فَيُعْطَى ٱلنَّاقِصُ

اسْمَ الزَّائِدِ مُبالَغَةً فِي تحقيقِ ذلِكَ الْوَصْفِ لَهُ كقولِكَ: رَأَيْتُ أَسَدًا. وَأَنتَ تعْنِي رجُلًا شُجاعًا. (وَالثَّانِي) تُعْتَمَدُ لَوازِمُهُ عِنْدَمَا يَكُونُ جِهَةُ الِاشْتِرَاكِ وَصْفًا وَإِنَّمَا ثَبَتَ كَمَالُهُ فِي الْمُسْتَعَارِ فِي وَاسِطَةِ شَيْءٍ آخَرَ فَتُثْبِتُ ذلِكَ الشَّيْءَ لِلْمُسْتَعَارِ لَهُ مُبالَغَةً فِي إِثْبَاتِ الْمُشْتَرَكِ. كَقَوْلِ تَأَبَّطَ شَرًّا:

إِذَا هَزَّهُ فِي عَظْمِ قِرْنٍ تَهَلَّلَتْ   نَوَاجِذُ أَفْوَاهِ الْمَنَايَا الضَّوَاحِكُ

لَمَّا شَبَّهَ الْمَنَايَا عِنْدَ هَزَّةِ السَّيْفِ بِالسُّرُورِ وَكَمَالُ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ إِنَّمَا يَظْهَرُ بِالضَّحِكِ الَّذِي يَتَهَلَّلُ بِهِ النَّوَاجِذُ أَثْبَتَهُ تَحْقِيقًا لِلْوَصْفِ الْمَقْصُودِ وَإِلَّا فَلَيْسَ لِلْمَنَايَا مَا يُنْقَلُ إِلَيْهِ اسْمُ النَّوَاجِذِ. وَهٰكَذَا الْكَلَامُ فِي قَوْلِ الْحَمَاسِيِّ:

سَقَاهُ الرَّدَى سَيْفٌ إِذَا سُلَّ أَوْمَضَتْ   إِلَيْهِ مَنَايَا الْمَوْتِ مِنْ كُلِّ مَرْقَبِ

وَمِنْ هٰذَا الْبَابِ قَوْلُهُمْ: فُلَانٌ مُرْخَى الْعِنَانِ وَمُلْقَى الزِّمَامِ. وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْقِسْمَيْنِ أَنَّكَ إِنْ رَجَعْتَ فِي الْأَوَّلِ إِلَى التَّشْبِيهِ الَّذِي هُوَ الْمَقْصِدُ مِنْ كُلِّ اسْتِعَارَةٍ مُقَيَّدَةٍ وَجَدْتَهُ يَأْتِيكَ عَفْوًا كَقَوْلِكَ: رَأَيْتُ رَجُلًا كَالْأَسَدِ أَوْ مِثْلَهُ أَوْ شِبْهَهُ. وَإِنْ رُمْتَهُ فِي الثَّانِي لَا يُؤَاتِيكَ تِلْكَ الْمُؤَاتَاةَ إِذْ لَا وَجْهَ أَنْ تَقُولَ: شَيْءٌ مِثْلُ الْيَدِ لِلشِّمَالِ. وَإِنَّمَا تَهَيَّأَ لَكَ التَّشْبِيهُ بَعْدَ أَنْ تَخْرُقَ إِلَيْهِ سِتْرًا أَوْ تَعْمَلَ تَأَمُّلًا وَفِكْرًا. وَفِي إِغْفَالِ هٰذَا الْأَصْلِ وُقُوعٌ فِي التَّشْبِيهِ. وَذٰلِكَ أَنَّ مَنْ وَضَعَ فِي نَفْسِهِ أَنَّ كُلَّ اسْمٍ يُسْتَعَارُ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ شَيْءٌ يُمْكِنُ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ تَتَنَاوَلُهُ فِي حَالَةِ الْمَجَازِ كَمَا تَتَنَاوَلُ مُسَمَّاهُ فِي حَالَةِ

ٱلْحَقِيقَةِ . ثُمَّ نَظَرَ إِلَى قَوْلِهِ : وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي . وَقَوْلِهِ : تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا . ٱرْتَبَكَ فِي ٱلشَّكِّ وَحَامَ حَوْلَ ٱلظَّاهِرِ وَوَقَعَ فِي ٱلتَّشْبِيهِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلضَّلَالُ ٱلْبَعِيدُ . فَفِي مَعْرِفَةِ هٰذَا إِخْلَاصٌ مِنْ ذٰلِكَ ٱلتَّشْبِيهِ وَيُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعُ ٱسْتِعَارَةً تَخْيِيلِيَّةً وَهُوَ كَإِثْبَاتِ ٱلْجَنَاحِ لِلذُّلِّ فِي قَوْلِهِ : وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ . إِذَا عُرِفَ هٰذَا فَٱلنَّوْعُ ٱلْأَوَّلُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ : (ٱلْأَوَّلُ) أَنْ يُسْتَعَارَ ٱلْمَحْسُوسُ لِلْمَحْسُوسِ . وَذٰلِكَ إِمَّا أَنْ يَشْتَرِكَا فِي ٱلذَّاتِ وَيَخْتَلِفَا فِي ٱلصِّفَاتِ كَٱسْتِعَارَةِ ٱلطَّيَرَانِ لِغَيْرِ ذِي جَنَاحٍ فِي ٱلسُّرْعَةِ . فَإِنَّ ٱلطَّيَرَانَ وَٱلْعَدْوَ يَشْتَرِكَانِ فِي ٱلْحَقِيقَةِ وَهِيَ ٱلْحَرَكَةُ ٱلْمَكَانِيَّةُ إِلَّا أَنَّ ٱلطَّيَرَانَ أَسْرَعُ . أَوْ بِأَنْ يَخْتَلِفَا فِي ٱلذَّاتِ وَيَشْتَرِكَا فِي صِفَةٍ إِمَّا مَحْسُوسَةٍ كَقَوْلِهِمْ : رَأَيْتُ شَمْسًا . وَيُرِيدُونَ إِنْسَانًا يَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ . وَكَقَوْلِهِ : وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا . فَٱلْمُسْتَعَارُ مِنْهُ ٱلنَّارُ . وَٱلْمُسْتَعَارُ لَهُ ٱلشَّيْبُ . وَٱلْجَامِعُ ٱلِٱنْبِسَاطُ وَلٰكِنَّهُ فِي ٱلنَّارِ أَقْوَى . وَإِمَّا غَيْرِ مَحْسُوسَةٍ كَقَوْلِهِ : إِذَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمِ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ . ٱلْمُسْتَعَارُ لَهُ ٱلرِّيحُ وَٱلْمُسْتَعَارُ مِنْهُ ٱلْمَرْءُ وَٱلْجَامِعُ ٱلْمَنْعُ مِنْ ظُهُورِ ٱلنَّتِيجَةِ . (ٱلثَّانِي) أَنْ يُسْتَعَارَ شَيْءٌ مَعْقُولٌ لِشَيْءٍ مَعْقُولٍ لِٱشْتِرَاكِهِمَا فِي وَصْفٍ عَدَمِيٍّ أَوْ ثُبُوتِيٍّ وَأَحَدُهُمَا أَكْمَلُ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْوَصْفِ فَيُنَزَّلُ ٱلنَّاقِصُ مَنْزِلَةَ ٱلْكَامِلِ كَٱسْتِعَارَةِ ٱسْمِ ٱلْعَدَمِ لِلْوُجُودِ إِذَا ٱشْتَرَكَا فِي عَدَمِ ٱلْفَائِدَةِ أَوِ ٱسْتِعَارَةِ ٱسْمِ ٱلْوُجُودِ لِلْعَدَمِ إِذَا بَقِيَتْ آثَارُهُ ٱلْمَطْلُوبَةُ مِنْهُ كَتَشْبِيهِ ٱلْجَهْلِ بِٱلْمَوْتِ لِٱشْتِرَاكِ ٱلْمَوْصُوفِ بِهِمَا فِي عَدَمِ ٱلْإِدْرَاكِ وَٱلْعَقْلِ . وَكَقَوْلِهِمْ : فُلَانٌ لَقِيَ ٱلْمَوْتَ إِذَا لَقِيَ

ٱلشَّدَائِدَ لِٱشْتِرَاكِهِمَا فِي ٱلْمَكْرُوهِيَّةِ . وَقَوْلِهِ: وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى ٱلْغَضَبُ . وَٱلسُّكُوتُ وَٱلزَّوَالُ أَمْرَانِ مَعْقُولَانِ . (ٱلثَّالِثُ) أَنْ يُسْتَعَارَ ٱلْمَحْسُوسُ لِلْمَعْقُولِ كَٱسْتِعَارَةِ ٱلنُّورِ ٱلَّذِي هُوَ مَحْسُوسٌ وَٱسْتِعَارَةِ ٱلْقِسْطَاسِ لِلْعَدْلِ . وَكَقَوْلِهِ: بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ . فَٱلْقَذْفُ وَٱلدَّمْغُ مُسْتَعَارَانِ . وَقَوْلِهِ: فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ . وَقَوْلِهِ : أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . ٱلْوَادِي وَٱلْهَيَمَانُ مُسْتَعَارَانِ . (ٱلرَّابِعُ) أَنْ يُسْتَعَارَ ٱسْمُ ٱلْمَعْقُولِ لِلْمَحْسُوسِ عَلَى ٱلتَّأْوِيلِ ٱلْمَذْكُورِ فِي ٱلتَّشْبِيهِ كَقَوْلِهِ: إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ . فَٱلشَّهِيقُ وَٱلْغَيْظُ مُسْتَعَارَانِ . وَقَوْلِهِ: حَتَّى تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا

البحث السابع

في جيد الاستعارة ورديئها ومتوسطها

(عن كتاب الصناعتين وصناعة الترسل)

قَالَ مُحَمَّدٌ أَبُو عَبْدِ ٱللهِ بْنِ سِنَانٍ ٱلْخَفَاجِيُّ: وَقَدِ ٱخْتَارَ أَبُو ٱلْقَاسِمِ ٱبْنُ بِشْرٍ ٱلْآمِدِيُّ مِنْ جُمْلَةِ ٱلِٱسْتِعَارَةِ قَوْلَ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ :

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ ... وَأَرْدَفَ أَعْجَازًا وَنَاءَ بِكَلْكَلِ

وَقَالَ : إِنَّ هٰذِهِ ٱلِٱسْتِعَارَةَ فِي غَايَةِ ٱلْحُسْنِ . لِأَنَّهُ إِنَّمَا قَصَدَ وَصْفَ أَحْوَالِ ٱللَّيْلِ فَذَكَرَ ٱمْتِدَادَ وَسْطِهِ وَتَثَاقُلَ صَدْرِهِ لِلذَّهَابِ وَٱلِٱنْبِعَاثِ وَتَرَادُفَ أَعْجَازِهِ وَأَوَاخِرِهِ شَيْئًا فَشَيْئًا . وَقَالَ ٱلْخَفَاجِيُّ :

وَهٰذَا ٱلَّـذِي ذَكَرَهُ ابُو ٱلْقَاسِمِ لا ارضى بِهِ غَايَةَ ٱلرِّضَى وَلَوْ كُنْتُ أَسْكُنُ إِلَى تَقْلِيدِ احَدٍ مِنْ عُلَمَاءِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ لَقَـلَّدْتُهُ لِحُسْنِ نَظَرِهِ وَصِحَّةِ فِكْرِهِ وَهُوَ عِنْدِي مِنَ ٱلْوَسَطِ لَيْسَ مِنْ جَيِّدِ ٱلِاسْتِعَارَةِ وَلَا مِنْ رَدِيئِهَا . وَإِنَّمَا قُلْتُ ذٰلِكَ لِأَنَّ ابَا ٱلْقَاسِمِ قَدْ افْصَحَ بِأَنَّ امْرَءَ ٱلْقَيْسِ لَمَّا جَعَلَ لِلَّيْلِ وَسَطًا وَعَجُزًا ٱسْتَعَارَ لَهُ ٱسْمَ ٱلصُّلْبِ وَجَعَلَهُ مُتَمَطِّيًا مِنْ اجْلِ ٱمْتِدَادِهِ وَجَعَلَ ٱلْـكَلْـكَلَ مِنْ اجْلِ نُهُوضِهِ وَكُلُّ هٰذَا إِنَّمَا يَحْسُنُ بَعْضُهُ لِأَجْلِ بَعْضٍ . فَذِكْرُ ٱلصُّلْبِ إِنَّمَا حَسُنَ لِأَجْلِ ٱلْعَجُزِ . وَٱلتَّمَطِّي لِأَجْلِ ٱلصُّلْبِ . وَٱلْـكَلْـكَلُ لِمَجْمُوعِ ذٰلِكَ . وَهٰذِهِ ٱلِاسْتِعَارَةُ ٱلْمَبْنِيَّةُ عَلَى غَيْرِهَا فَلِذٰلِكَ لَمْ ارَ انْ تُجْعَلَ مِنْ ابْلَغِ ٱلِاسْتِعَارَاتِ وَكَانَتِ ٱسْتِعَارَةُ طُفَيْلٍ ٱلْغَنَوِيِّ فِي قَوْلِهِ :

وَجَعَلْتُ رَحْلِي فَوْقَ نَاجِيَةٍ ... يَقْتَاتُ شَحْمَ سَنَامِهَا ٱلرَّحْلُ

اوْفَقَ وَاوْضَحَ . لِأَنَّهَا غَنِيَّةٌ بِنَفْسِهَا غَيْرُ مُفْتَقِرَةٍ إِلَى مُقَدَّمَةٍ حِلْيَتِهَا .

(وَقَالَ) وَقَدْ كُنْتُ مَثَّلْتُ فِي بَعْضِ مَوَاضِعِ ٱلِاسْتِعَارَةِ ٱلْمَحْمُودَةِ وَٱلْمَذْمُومَةِ بِبَيْتَيْنِ احَدُهُمَا قَوْلُ ٱبْنِ نُبَاتَةَ :

حَتَّى إِذَا بَهَرُوا ٱلْأَبَاطِحَ وَٱلثَّرَى ... نَظَرُوا إِلَيْكَ بِأَعْيُنِ ٱلنُّوَّارِ

فَنَظَرُ اعْيُنِ ٱلنُّوَّارِ مِنْ اشْبَهِ ٱلِاسْتِعَارَاتِ وَالْيَقِهَا . لِأَنَّ ٱلنُّوَّارَ يُشْبِهُ ٱلْعُيُونَ إِذَا كَانَ مُقَابِلًا لِمَنْ يَمُرُّ بِهِ كَأَنَّهُ مُنَاظِرٌ إِلَيْهِ . وَٱلْبَيْتُ ٱلثَّانِي بَيْتُ ابِي تَمَّامٍ :

قَرَّتْ بِقُرَّانَ عَيْنُ ٱلدِّينِ وَٱسْتَتَرَتْ ... بِالْأَشْتَرَيْنِ عُيُونُ ٱلشِّرْكِ فَٱصْطُلِمَا

وَقُرَّةُ عَيْنِ ٱلدِّينِ وَٱسْتِتَارُ عُيُونِ ٱلشِّرْكِ مِنْ اقْبَحِ ٱلِاسْتِعَارَاتِ

لِعدمِ الشَّبهِ الَّذي لِأجلِهِ جعلَ لِلشّركِ عيونًا . ومَن تأمّلَ هذينِ البيتينِ لا يفهمْ معنى الاستعارةِ لِأنَّ النُّوّارَ والشّركَ لا عيونَ لهما على الحقيقةِ . وقد قبُحتِ استعارةُ العيونِ لِأحدِهما وحسُنتْ لِلآخرِ . والعلّةُ فيهِ أنَّ النُّوّارَ يشبِهُ العيونَ . والدّينُ والشّركُ ليسَ فيهما ما يشبِهُها ولا يقارِبُها . ومِنْ أحسنِ الاستعاراتِ كقولِ الشّريفِ الرّضيِّ :

رَبا النّسيمُ بِواديكمْ ولا برِحتْ　　حوامِلُ المُزنِ في أجداثِكمْ تضَعُ
ولا يزالُ جنينُ النّبتِ يرضِعُهُ　　على قبورِكمُ العرّاصةُ الهمِعُ

لِأنَّ المُزنَ تحمِلُ الماءَ وإذا حملتْ تضعُهُ فاستعارةُ الحملِ لها والوضعِ المعروفَينِ مِنْ أقربِ شيءٍ وأشبهِهِ . وكذلكَ جنينُ النّبتِ لِأنَّ الجنينَ المستورَ مأخوذٌ مِنَ الجُنّةِ . وإذا كانَ النّبتُ مستورًا والغيثُ يسقيهِ كانَ ذلكَ بمنزلةِ الرّضاعِ

وأمثالُ المحاسنِ في ذلكَ والمساوئِ كثيرةٌ وقد أخذَ القولُ في هذا البابِ حقَّهُ . معَ أنَّ أقوالَ العلماءِ بهذا الفنِّ فيهِ أكثرُ مِنْ ذلكَ



البحث الثامن

في ما جاء من الاستعارات في كلام العرب

(عن كتاب الصناعتين للعسكري وسر العربيَّة للثعالبي)

وَامَّا مَا جَاءَ فِي قَوْلِ ٱلعَرَبِ مِنَ ٱلِاسْتِعَارَاتِ فَكَثِيرٌ مِنْهُ قَوْلُهُمْ : هٰذَا رَأْسُ ٱلْأَمْرِ وَوَجْهُهُ وَرَأْسُ ٱلْمَالِ . وَهٰذَا ٱلْأَمْرُ فِي جَنْبِ غَيْرِهِ يَسِيرٌ . وَيَقُولُونَ : هٰذَا جَنَاحُ ٱلْحَرْبِ وَقَلْبُهَا وَجَنَاحُ ٱلطَّرِيقِ . وَهٰؤُلَاءِ رُؤُوسُ ٱلْقَوْمِ وَجَمَاجِمُهُمْ وَعُيُونُهُمْ . وَفُلَانٌ ظَهْرُ فُلَانٍ وَلِسَانُ قَوْمِهِ وَنَابُهُمْ وَعَضُدُهُمْ . وَهٰذَا كَلَامٌ لَهُ ظَهْرٌ وَبَطْنٌ . وَفِي ٱلعَرَبِ : ٱلْجَمَاجِمُ . وَٱلْقَبَائِلُ . وَٱلْأَفْخَاذُ . وَٱلْبُطُونُ . وَخَرَجَ عَلَيْنَا عُنُقٌ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَهُ عِنْدِي يَدٌ بَيْضَاءُ . وَهٰذِهِ عَيْنُ ٱلْمَاءِ . وَحَاجِبُ ٱلشَّمْسِ . وَلِسَانُ ٱلنَّارِ . وَهٰذَا أَنْفُ ٱلْجَبَلِ . وَبَطْنُ ٱلْوَادِي . وَكَبِدُ ٱلسَّمَاءِ . وَسَاقُ ٱلشَّجَرَةِ . وَيَقُولُونَ فِي ٱلتَّفَرُّقِ : ٱنْشَقَّتْ عَصَاهُمْ . وَشَالَتْ نَعَامَتُهُمْ . وَمَرُّوا بَيْنَ سَمْعِ ٱلْأَرْضِ وَبَصَرِهَا . وَكَقَوْلِهِمْ فِي ٱشْتِدَادِ ٱلْأَمْرِ : كَشَفَتِ ٱلْحَرْبُ عَنْ سَاقِهَا . أَبْدَى ٱلشَّرُّ نَاجِذَيْهِ . حَمِيَ ٱلْوَطِيسُ . دَارَتْ رَحَى ٱلْحَرْبِ . وَكَقَوْلِهِمْ فِي ذِكْرِ ٱلْآثَارِ ٱلْعُلْوِيَّةِ : أَفْتَرَّ ٱلصُّبْحُ عَنْ نَوَاجِذِهِ . ضَرَبَ بِعَمُودِهِ . سُلَّ سَيْفُ ٱلصُّبْحِ مِنْ غِمْدِ ٱلظَّلَامِ . نَعَرَ ٱلصُّبْحُ فِي قَفَا ٱللَّيْلِ . بَاحَ ٱلصَّبَاحُ بِسِرِّهِ . وَهَى نِطَاقُ ٱلْجَوْزَاءِ . اِنْحَطَّ قِنْدِيلُ ٱلثُّرَيَّا . ذَرَّ قَرْنُ ٱلشَّمْسِ . اِرْتَفَعَ ٱلنَّهَارُ . تَرَجَّلَتِ ٱلشَّمْسُ بِجَمَرَاتِ ٱلظَّهِيرَةِ . بَقَّلَ وَجْهُ ٱلنَّهَارِ . خَفَقَتْ رَايَاتُ ٱلظَّلَامِ .

نَوَّرَتْ حَدَائِقُ ٱلْجَوِّ . شَابَ رَأْسُ ٱللَّيْلِ . لَبِسَتِ ٱلشَّمْسُ جِلْبَابَهَا . قَامَ خَطِيبُ ٱلرَّعْدِ . خَفَقَ قَلْبُ ٱلْبَرْقِ . اِنْحَلَّ عِقْدُ ٱلسَّمَاءِ . وَهَى عِقْدُ ٱلْأَنْدَاءِ . اِنْقَطَعَ شِرْيَانُ ٱلْغَمَامِ . تَنَفَّسَ ٱلرَّبِيعُ . تَعَطَّرَ ٱلنَّسِيمُ . تَبَرَّجَتِ ٱلْأَرْضُ . قَوِيَ سُلْطَانُ ٱلْحَرِّ . آنَ أَنْ يَجِيشَ مِرْجَلُهُ . وَيَثُورَ قَسْطَلُهُ . اِنْحَسَرَ قِنَاعُ ٱلصَّيْفِ . جَاشَتْ جُيُوشُ ٱلْخَرِيفِ . حَلَّتِ ٱلشَّمْسُ ٱلْمِيزَانَ . وَعَدَلَ ٱلزَّمَانُ . دَبَّتْ عَقَارِبُ ٱلْبَرْدِ . أَقْدَمَ ٱلشِّتَاءُ كَلْكَلَهُ . شَابَتْ مَفَارِقُ ٱلْجِبَالِ . يَوْمٌ عَبُوسٌ قَمْطَرِيرٌ . كَشَّرَ عَنْ نَابِ ٱلزَّمْهَرِيرِ . وَكَقَوْلِهِمْ فِي مَحَاسِنِ ٱلْكَلَامِ : ٱلْأَدَبُ غِذَاءُ ٱلرُّوحِ . ٱلشَّبَابُ بَاكُورَةُ ٱلْحَيَاةِ . ٱلنَّارُ فَاكِهَةُ ٱلشِّتَاءِ . ٱلْعِيَالُ سُوسُ ٱلْمَالِ . ٱلنَّبِيذُ كِيمِيَاءُ ٱلْفَرَحِ . ٱلْوَحْدَةُ قَبْرُ ٱلْحَيِّ . ٱلصَّبْرُ مِفْتَاحُ ٱلْفَرَجِ . ٱلدَّيْنُ دَاءُ ٱلْكِرَامِ . ٱلنَّمَّامُ جِسْرُ ٱلشَّرِّ . ٱلْإِرْجَافُ زَنْدُ ٱلْفِتْنَةِ . ٱلشُّكْرُ نَسِيمُ ٱلنَّعِيمِ . ٱلرَّبِيعُ شَبَابُ ٱلزَّمَانِ . ٱلْوَلَدُ رَيْحَانَةُ ٱلرُّوحِ . ٱلشَّمْسُ قَطِيفَةُ ٱلْمَسَاكِينِ . ٱلطِّيبُ لِسَانُ ٱلْمُرُوءَةِ . وَيُسَمُّونَ ٱلنَّبَاتَ نَوًّا . قَالَ : وَجَفَّ أَنْوَاءُ ٱلسَّحَابِ . أَيْ جَفَّ ٱلْبَقْلُ . وَيَقُولُونَ لِلْمَطَرِ سَمَاءٌ . قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

إِذَا سَقَطَ ٱلسَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ ... رَعَيْنَاهَا وَإِنْ كَانُوا غِضَابَا

وَيَقُولُونَ : ضَحِكَتِ ٱلْأَرْضُ إِذَا أَنْبَتَتْ لِأَنَّهَا تُبْدِي عَنْ حُسْنِ ٱلنَّبَاتِ كَمَا يَفْتَرُّ ٱلضَّاحِكُ عَنِ ٱلثَّغْرِ . وَيُقَالُ : ضَحِكَتِ ٱلظُّلْمَةُ . وَٱلنَّوْرُ يُضَاحِكُ ٱلشَّمْسَ . قَالَ ٱلْأَعْشَى :

يُضَاحِكُ ٱلشَّمْسَ مِنْهُ كَوْكَبٌ شَرِقٌ ... مُؤَزَّرٌ بِعَمِيمِ ٱلنَّبْتِ مُكْتَهِلُ

وَيقُولُونَ : ضَحِكَ ٱلسَّحابُ بِٱلبَرقِ وَحنَّ بِٱلرَّعدِ وَبَكَى بِٱلقَطرِ . وَيقُولُونَ : لَقِيتُ مِنْ فُلَانٍ عَرَقَ ٱلقِرْبَةِ اَيْ شِدَّةً وَمَشَقَّةً . (وَاصلُ هٰذَا اَنَّ حَامِلَ ٱلقِرْبَةِ يَتْعَبُ مِنْ ثِقْلِهَا حَتَّى يَعرَقَ) . وَيقُولُونَ اَيضًا : لَقِيتُ مِنهُ عَرَقَ ٱلجَبِينِ . وَٱلعَرَبُ تَقُولُ : بِاَرضِ فُلَانٍ شَجَرٌ قَدْ صَاحَ . وَذٰلِكَ اِذَا طَالَ فَتَبَيَّنَ لِلنَّاظِرِ بِطُولِهِ وَدَلَّ عَلَى نَفْسِهِ لِاَنَّ ٱلصَّائِحَ يَدُلُّ عَلَى نَفْسِهِ بِصَوْتِهِ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ ٱلعَجَّاجِ :

كَٱلكَرْمِ اِذْ نَادَى مِنَ ٱلكَافُورِ

وَمِمَّا جَاءَ اَيضًا فِي هٰذَا ٱلبَابِ فِي ٱلقُرْآنِ وَكَلَامِ ٱلصَّحَابَةِ وَغَيْرِهِمْ مَا نَصُّهُ : ٱلبَلَاءُ مُوَكَّلٌ بِٱلمَنطِقِ . وَقَوْلُهُ : اُذْكُرُوا هَادِمَ ٱللَّذَّاتِ . وَقَوْلُهُ : اِخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ . وَقَوْلُهُ : اَذَاقَهَا ٱللّٰهُ لِبَاسَ ٱلجُوعِ وَٱلخَوْفِ . وَقَوْلُهُ : اَشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا . وَقَوْلُهُ : وَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ ٱلعَذَابِ . وَقَوْلُهُ : لَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى ٱلغَضَبُ . وَقَالَ عَلِيٌّ : ٱلسَّفَرُ مِيزَانُ ٱلقَوْمِ . وَقَالَ : وَاَمَا وَقَدِ ٱتَّسَعَ نِطَاقُ ٱلِاسْلَامِ . وَلَهُ قَوْلُهُ لِاَبْنِ عَبَّاسٍ : اَرْغِبْ رَاغِبَهُمْ وَٱحْلُلْ عُقْدَةَ ٱلخَوْفِ عَنْهُمْ . وَقَوْلُهُ : ٱلعِلْمُ قُفْلٌ مِفْتَاحُهُ ٱلمَسْئَلَةُ . وَقَوْلُهُ : ٱلحِلْمُ وَٱلاَنَاةُ تَوْاَمَانِ يُنْتِجُهُمَا عُلُوُّ ٱلهِمَّةِ . وَقَالَ فِي بَعْضِ خُطَبِهِ يَصِفُ ٱلدُّنْيَا : اِنَّ ٱمْرَءًا لَمْ يَكُنْ مِنْهَا فِي فَرْحَةٍ اِلَّا اَعْقَبَتْهُ بَعْدَهَا تَرْحَةً وَلَمْ يَلْقَ مِنْ سَرَّائِهَا بَطْنًا اِلَّا مَنَحَتْهُ مِنْ ضَرَّائِهَا ظَهْرًا . وَلَمْ تُطِلَّهُ فِيهَا غَابَةُ رَخَاءٍ اِلَّا هَبَّتْ عَلَيْهِ مُزْنَةُ بَلَاءٍ . وَلَمْ يُمْسِ مِنْهَا فِي جَنَاحِ آمِنٍ اِلَّا اَصْبَحَ مِنْهَا عَلَى قَوَادِمِ خَوْفٍ . وَقَالَ اَبُو بَكْرٍ : اِنَّ ٱلمَلِكَ اِذَا مَلَكَ زَهَّدَهُ ٱللّٰهُ

فِي مَا لَهُ وَرَغْبَةُ فِيمَا فِي يَدِ غَيْرِهِ وَاشْرَبَ قَلْبَهُ الْاشْفَاقَ . فَهُوَ يَحْسِدُ عَلَى الْقَلِيلِ وَيَسْخَطُ عَلَى الْكَثِيرِ جَزْلُ الظَّاهِرِ حَزِينُ الْبَاطِنِ . فَإِذَا وَجَبَتْ نَفْسُهُ وَنَفِرَ عُمْرُهُ وَضَحَى ظِلُّهُ حَاسَبَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فَاشَدَّ حِسَابَهُ وَاقَلَّ عَفْوَهُ . وَكَتَبَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ إِلَى مَرَازِبَةِ فَارِسَ: الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي قَصَّرَ خِدْمَتَكُمْ وَفَرَّقَ كَلِمَتَكُمْ . وَقَالَ الْحَجَّاجُ : دُلُّونِي عَلَى رَجُلٍ سَمِينِ الْأَمَانَةِ اعْجَفِ الْخِيَانَةِ . وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ وَهْبٍ : الرَّأْيُ لِأَصْحَابِهِ لَا خَيْرَ فِي الرَّأْيِ الْفَطِيرِ وَالْكَلَامِ الْقَضِيبِ . فَلَمَّا بَايَعُوهُ قَالَ : دَعُوا الرَّأْيَ يَغِبُّ فَإِنَّ غُبُوبَهُ يَكْشِفُ لَكُمْ عَنْ مَحْلِهِ . وَقِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ : إِنَّكَ لَحَسَنُ الْكِدْيَةِ . قَالَ : عِنْوَانُ نِعْمَةِ اللهِ عِنْدِي . وَقَالَ اكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ : الْحِلْمُ دِعَامَةُ الْعَقْلِ . وَقَالَ خَالِدُ بْنُ صَفْوَانَ لِرَجُلٍ : رَحِمَ اللهُ اَبَاكَ فَإِنَّهُ كَانَ يَقْرِي الْعَيْنَ جَمَالًا وَالْأُذُنَ بَيَانًا . وَقِيلَ لِرُؤْبَةَ : كَيْفَ تَرَكْتَ مَا وَرَاءَكَ . قَالَ : التُّرَابُ يَابِسٌ وَالْمَالُ عَابِسٌ . وَقَالَ الْمَنْصُورُ لِبَعْضِهِمْ : بَلَغَنِي اَنَّكَ بَخِيلٌ : قَالَ مَا اَجْمُدُ فِي حَقٍّ وَلَا اَذُوبُ فِي بَاطِلٍ . وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ الْمَوْصِلِيُّ : قُلْتُ لِلْعَبَّاسِ ابْنِ الْحُسَيْنِ: إِنِّي لَأُحِبُّكَ . قَالَ: رَائِدُ ذَلِكَ عِنْدِي . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : الْاِسْتِطَالَةُ لِسَانُ الْجَهَالَةِ . وَقَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ: الشُّكْرُ كُفُوُ النِّعْمَةِ . وَقَالَ اَعْرَابِيٌّ : خَرَجْتُ فِي لَيْلَةٍ حِنْدِسٍ قَدْ اَلْقَتْ عَلَى الْأَرْضِ اَذْرَاعَهَا فَمَحَتْ صُورَةَ الْأَبْدَانِ فَمَا كُنَّا نَتَعَارَفُ إِلَّا بِالْآذَانِ . وَقَالَ اَعْرَابِيٌّ لِآخَرَ : يَسَارُ النَّفْسِ خَيْرٌ مِنْ يَسَارِ الْمَالِ وَرُبَّ شَبْعَانَ مِنَ النِّعَمِ غَرْثَانَ مِنَ الْكَرَمِ . وَقَالَ آخَرُ فِي حَرْبٍ : جَعَلُوا الْحَرْبَ

ارشية الموت واستقوا بها ارواح العدو . وقال آخر : فلان املس ليس فيه مستقر لخير ولا شر . وقال احمد بن يوسف وقد شتمه رجل بين يدي المأمون : رأيته يستملي ما يلقاني به من عينيك. وقيل لأعرابي : اي طعام اطيب . قال : الجوع ابصر . ومدح اعرابي رجلا قال : كان يفتح من الرأي ابوابًا منسدة ويغسل من العار وجوهًا مسودة. اذا عرضت له زينة الدنيا هجنتها صورة الحمد عنده وان للمصانع لغارة على امواله كغارة سيوفه على اعدائه . ومدح اعرابي قومًا فقال : اولائك غرر تضيء في ظلم الامور المشكلة قد صغت آذان المجد اليهم . وقال اعرابي يمدح رجلا : انه ليعطي عطاء من يعلم ان الله مادته . ومدح اعرابي رجلا فقال : لسانه احلى من الشهد وقلبه سجن الحقد. ان اسأت اليه احسن وكأنه المسيء. واذا اجرمت غفر وكأنه المجرم . اشترى بالمعروف عرضه من الاذى فهو وان كانت له الدنيا بأسرها فوهبها رأى بعد ذلك عليه حقوقًا لا يستعذب الخنى ولا يستحسن غير الوفاء. وقال اعرابي لرجل : لا تدنس شعرك بعرض فلان فانه سمين المال مهزول المعروف من المرزوقين فجاءة قصير عمر الغنى طويل حياة الفقر . وسأل اعرابي فقيل له : عليك بالصيارف . فقال : هناك والله وارة اللؤم . وذكر اعرابي قومًا فقال : اولائك قوم قد سلخت اقفاءهم بالهجاء ودبغت جلودهم باللوم . فلباسهم في الدنيا الملامة وزادهم في الآخرة الندامة . وذم اعرابي قومًا فقال : هم اقل ذنوبًا الى اعدائهم

وَأَكْثَرُ تَجَرُّمًا عَلَى أَصْدِقَائِهِمْ . يَصُومُونَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيُفْطِرُونَ عَلَى ٱلْفَحْشَاءِ . وَذَمَّ أَعْرَابِيٌّ رَجُلًا فَقَالَ : ذَاكَ رَجُلٌ تَغْدُو إِلَيْهِ مَوَاكِبُ ٱلضَّلَالَةِ وَتَرْجِعُ مِنْ عِنْدِهِ بُذُورُ ٱلْآثَامِ مُعْدِمٌ مِمَّا يُحِبُّ مُثْرٍ مِمَّا يُكْرَهُ . وَقَالَ آخَرُ : مَا رَأَيْتُ دَمْعَةً تَرَقْرَقُ فِي عَيْنٍ وَتَجْرِي عَلَى خَدٍّ أَحَرَّ مِنْ عَبْرَةٍ أَمْطَرَتْهَا عَيْنَاهُ وَأَعْشَبَ لَهَا قَلْبِي . وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ وَذَكَرَ زُهَّادًا : فَازَ قَوْمٌ أَدَّبَتْهُمُ ٱلْحِكْمَةُ وَأَحْكَمَتْهُمُ ٱلتَّجَارِبُ وَلَمْ تَغْرُرْهُمُ ٱلسَّلَامَةُ ٱلْمُنْطَوِيَةُ عَلَى ٱلْهَلَكَةِ . وَرَحَلَ عَنْهُمُ ٱلتَّسْوِيفُ ٱلَّذِي قَطَعَ بِهِ ٱلنَّاسُ مَسَافَةَ آجَالِهِمْ وَأَحْسَنُوا ٱلْمَقَالَ وَشَفَعُوهُ بِٱلْفِعَالِ تَرَكُوا ٱلنَّعِيمَ لِيَتَنَعَّمُوا . لَهُمْ عَبَرَاتٌ مُتَدَافِعَةٌ لَا يَرَاهُمْ إِلَّا فِي وَجْهٍ عِنْدَ ٱللهِ وَجِيهٍ . وَوَصَفَ أَعْرَابِيٌّ وَالِيًا فَقَالَ : كَانَ إِذَا وَلِيَ لَمْ يُطَابِقْ بَيْنَ جُفُونِهِ وَإِرْسَالِ ٱلْعُيُونِ عَلَى عُيُونِهِ . فَهُوَ شَاهِدٌ مَعَهُمْ غَائِبٌ عَنْهُمْ فَٱلْمُحْسِنُ آمِنٌ وَٱلْمُسِيءُ خَائِفٌ . وَذَكَرَ أَعْرَابِيٌّ رَجُلًا فَقَالَ : كَانَ ٱلْفَهْمُ مِنْهُ ذَا أُذُنَيْنِ وَٱلْجَوَابُ مِنْهُ ذَا لِسَانَيْنِ . لَمْ أَرَ أَحَدًا كَانَ أَرْتَقَ لِخَلَلِ ٱلسَّرَّاءِ مِنْهُ كَانَ بَعِيدَ مَسَافَةِ ٱلرَّأْيِ يَرْمِي بِطَرْفِهِ حَيْثُ أَشَارَ ٱلْكَرَمُ . وَمَا زَالَ يَتَحَسَّى مَرَارَةَ ٱلْإِخْوَانِ وَيُسِيغُهُمُ ٱلْعَذْبَ . وَوَصَفَ أَعْرَابِيٌّ قَوْمَهُ فَقَالَ : إِذَا ٱصْطَفُّوا تَحْتَ ٱلْقَتَامِ سَفَرَتْ بَيْنَهُمُ ٱلسِّهَامُ بِوُفُوفِ ٱلْحِمَامِ . وَإِذَا تَصَافَحُوا بِٱلسُّيُوفِ فَغَرَتِ ٱلْمَنَايَا بِأَفْوَاهِهَا . فَكَمْ مِنْ يَوْمٍ عَارِمٍ قَدْ أَحْسَنُوا أَدَبَهُ وَحَرْبٍ عَبُوسٍ قَدْ ضَاحَكَتْهَا أَسِنَّتُهُمْ وَخَطْبٍ قَدْ ذَلَّلُوا مَنَاكِبَهُ . إِنَّمَا كَانُوا كَٱلْبَحْرِ ٱلَّذِي لَا يَنْكَمِشُ غِمَارُهُ وَلَا يُنْهَنَهُ تَيَّارُهُ . وَقِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ : لِمَ لَا تَشْرَبُ ٱلنَّبِيذَ . فَقَالَ : لَا أَشْرَبُ مَا يَشْرَبُ عَقْلِي .

وَقَالَ آخَرُ : اَلْخَطُّ مَرْكَبُ ٱلْبَيَانِ . وَقَالَ غَيْرُهُ : اَلْقَلَمُ لِسَانُ ٱلْبَيَانِ . وَسَمِعْتُ بَعْضَ ٱلْأَطِبَّاءِ يَقُولُ : اَلْمَاءُ مَطِيَّةُ ٱلطَّعَامِ . وَقَالَ ٱلْحَسَنُ بْنُ وَهْبٍ لِكَاتِبِهِ : لَا تُكَدِّرْ مَاءَ مَعْرُوفِي بِٱلْمَنِّ فَإِنَّ ٱعْتِدَادَكَ بِٱلْمَعْرُوفِ يَعْقِلُ لِسَانَ ٱلشُّكْرِ . وَأَمْثَالُ هٰذَا كَثِيرٌ فِي مَنْثُورِ ٱلْكَلَامِ وَفِيمَا أَوْرَدْنَاهُ كِفَايَةٌ . وَأَمَّا ٱلْاسْتِعَارَةُ فِي أَشْعَارِ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ فَأَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى

البحث التاسع

في مراعاة النظير

(من شرح بديعية العميان لابن جابر الاندلسي باختصار)

(راجع صفحة ٣١ من علم الادب)

يُسَمَّى أَيْضًا هٰذَا ٱلنَّوْعُ ٱلتَّنَاسُبَ وَٱلِٱئْتِلَافَ وَٱلتَّوْفِيقَ وَٱلْمُؤَاخَاةَ . وَهُوَ فِي ٱصْطِلَاحِ ٱلْبَدِيعِيِّينَ أَنْ يُجْمَعَ بَيْنَ أَمْرٍ وَمَا يُنَاسِبُهُ لَا عَلَى جِهَةِ ٱلتَّضَادِّ . وَهُوَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ . (ٱلْأَوَّلُ) يُذْكَرُ فِيهِ ٱلشَّيْءُ مَعَ مَا يُنَاسِبُهُ فَقَطْ كَقَوْلِ ٱبْنِ ٱلْخَشَّابِ لِلْخَلِيفَةِ ٱلْمُسْتَضِيْ :

وَرَدَ ٱلْوَرَى سَلْسَالَ جُودِكَ فَٱرْتَوَوْا ... وَوَقَفْتُ دُونَ ٱلْوِرْدِ وِقْفَةَ حَائِمِ
ظَمْآنَ أَطْلُبُ خِفَّةً مِنْ زَحْمَةٍ ... وَٱلْوِرْدُ لَا يَزْدَادُ غَيْرَ تَزَاحُمِ

فَٱنْظُرْ حُسْنَ هٰذَيْنِ ٱلْبَيْتَيْنِ كَيْفَ جَرَيَا كَٱلْمَاءِ فِي طَلَاوَتِهِ . وَوَقَعَا مِنَ ٱلْقُلُوبِ كَٱلشَّهْدِ فِي حَلَاوَتِهِ . مَعَ أَنَّ نَاظِمَهُمَا مَا خَرَجَ عَنْ وَصْفِ ٱلْمَاءِ كَلَامُهُ . وَلَا تَعَدَّى ذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى نِظَامُهُ . فَأَوْدَعَهُمَا فِي عَشْرِ مَوَاضِعَ مُرَاعَاةَ ٱلنَّظِيرِ . فِيهَا مِنَ ٱلْحُسْنِ مَا لَيْسَ لَهُ مِنْ نَظِيرٍ . لٰكِنَّهُ مَا سَلِمَ

مَلِيحٌ مِنْ عَيْبٍ. وَلَا خَلَا مِنْ مَرْفُوعِ رَيْبٍ. فَمَعَ هٰذِهِ ٱلْمَحَاسِنِ ٱلظَّرِيفَةِ مَا سَلِمَ ٱلْبَيْتَانِ مِنْ عَيْبِ ٱلْقَافِيَةِ. فَقَدْ غَيَّرَ ٱلنَّاظِمُ كَسْرَةَ ٱلدَّخِيلِ عَلَى ٱلضَّمَّةِ. وَجَاءَ فِي ذٰلِكَ بِمَا عَابَهُ كُلُّ اَدِيبٍ وَذَمَّهُ. وَمِنْهُ قَوْلُ ٱلسَّلَامِيِّ:

وَٱلنَّقْعُ ثَوْبٌ بِٱلنُّسُورِ مُطَرَّزٌ   وَٱلْأَرْضُ فَرْشٌ بِٱلْجِيَادِ مُخَمَّلُ
وَسُطُورُ خَيْلِكَ اِنَّمَا اَلِفَاتُهَا   سُمْرٌ تُنَقَّطُ بِٱلدِّمَاءِ وَتُشْكَلُ

نَاسَبَ بَيْنَ ٱلثَّوْبِ وَٱلتَّطْرِيزِ وَٱلْخَمْلِ وَبَيْنَ ٱلسُّطُورِ وَٱلْأَلِفَاتِ وَٱلنَّقْطِ وَٱلشَّكْلِ

(تَنْبِيهٌ) وَلَوْ ذُكِرَ ٱلشَّيْءُ مَعَ مَا لَا يُنَاسِبُهُ كَانَ ذٰلِكَ عِنْدَهُمْ عَيْبًا. كَقَوْلِ اَبِي نُوَاسٍ:

وَقَدْ حَلَفْتُ يَمِينًا   مَبْرُورَةً لَا تُكَذَّبْ
بِرَبِّ زَمْزَمَ وَٱلْحَوْ   ضِ وَٱلصَّفَا وَٱلْمُحَصَّبْ

عَابُوا عَلَيْهِ ذِكْرَ ٱلْحَوْضِ مَعَ زَمْزَمَ وَٱلصَّفَا وَٱلْمُحَصَّبِ. وَاِنَّهُ غَيْرُ مُنَاسِبٍ ذِكْرُهُ مَعَهَا. وَاِنَّمَا يُنَاسِبُ ذِكْرُ ٱلْحَوْضِ مَعَ ٱلْمِيزَانِ وَٱلصِّرَاطِ وَشِبْهِهِمَا مِمَّا هُوَ مَنُوطٌ بِيَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ

(تَنْبِيهٌ ثَانٍ) لَوْ جَاءَ ٱلْكَاتِبُ بِمُتَنَاسِبَيْنِ فَاَفْرَدَ اَحَدَهُمَا وَثَنَّى ٱلْآخَرَ اَوْ جَمَعَهُ وَمَا اَشْبَهَ ذٰلِكَ كَانَ عَيْبًا كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ:

اَلَا يَا ٱبْنَ ٱلَّذِينَ فَنُوا وَمَاتُوا   اَمَا وَٱللّٰهِ مَا مَاتُوا لِتَبْقَى
وَمَا لَكَ فَاعْلَمَنْ فِيهَا بَقَاءٌ   اِذَا ٱسْتَكْمَلْتَ آجَالًا وَرِزْقَا

فَجَمَعَ (ٱلْأَجَلَ) وَاَفْرَدَ (ٱلرِّزْقَ) مَعَ اَنَّهُمَا مُتَنَاسِبَانِ. (ٱلثَّانِي) اَنْ يُذْكَرَ شَيْءٌ اَوْ اَشْيَاءُ كُلُّ وَاحِدٍ مَعَ مَا يُنَاسِبُهُ فِي جُمَلٍ مُسْتَوِيَةٍ

ٱلْمِقْدَارِ . وَيُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعُ ٱلتَّفْوِيفَ لِشَبَهِهِ بِٱلثَّوْبِ ٱلْمُفَوَّفِ وَهُوَ ٱلَّذِي فِيهِ خُطُوطٌ مُسْتَوِيَةٌ وَتَشْبِيهُ ٱلْجُمَلِ بِٱسْتِوَاءِ تِلْكَ ٱلْخُطُوطِ . وَتَكُونُ هٰذِهِ ٱلْجُمَلُ طِوَالًا كُلُّهَا اَوْ مُتَوَسِّطَةً . وَكُلُّهَا اِمَّا اَنْ يَكُونَ آخِرُهَا فِي بَعْضِ جُزْءِ ٱلتَّفْعِيلِ وَهِيَ ٱلْمُدْمَجَةُ . وَاِمَّا اَنْ يُوَافِقَ آخِرُهَا آخِرَ جُزْءِ ٱلتَّفْعِيلِ وَهِيَ ٱلْغَيْرُ ٱلْمُدْمَجَةِ وَهُوَ ٱلْاَحْسَنُ . فَمِنْ قَوْلِ ٱبْنِ عُنَيْنٍ :

دَعَتْ فِي اَعَالِي ٱلسُّغْدِ يَوْمًا حَمَامَةٌ ... عَلَى فَنَنٍ مِنْ كُلِّ رَيَّانٍ كَالِمِ
فَهَاجَتْ مَشُوقًا وَٱسْتَفَزَّتْ مُتَيَّمًا ... وَاَبْكَتْ غَرِيبًا وَٱسْتَخَفَّتْ اَخَا عِلْمِ

(ٱلسُّغْدُ مَوْضِعٌ بِسَمَرْقَنْدَ قَدِ ٱتُّخِذَ لِلنَّزَاهَةِ يُضْرَبُ بِهِ ٱلْمَثَلُ فِي ٱلْحُسْنِ) . وَكَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ فِي مَدْحٍ :

وَٱلدَّهْرُ يُقْبِلُ اِنْ تُقْبِلْ وَيُعْرِضُ اِنْ ... تُعْرِضْ وَغَيْرُ ٱلَّذِي قَدْ رُمْتَ لَمْ يَرُمِ
اِنْ قُلْتَ يَسْمَعْ وَاِنْ تَأْمُرْ يُطِعْ وَمَتَى ... فَعَلْتَ تُسْعِدْ وَاِنْ لَاحَظْتَ تَحْتَرِمِ

وَقَدْ بَلَغَ بِهَا ٱلْمُتَنَبِّي اِلَى اَرْبَعَ عَشْرَةَ جُمْلَةً لٰكِنْ بِغَيْرِ حَرْفِ عَطْفٍ فَثَقُلَتْ وَخَرَجَتْ عَنْ سِلْكِ ٱلْبَلَاغَةِ . وَهِيَ قَوْلُهُ :

اَقِلْ اَنِلْ اَقْطِعِ ٱحْمِلْ عَلِّ سَلِّ اَعِدْ ... زِدْ هَشَّ بَشَّ تَفَضَّلْ اَدْنِ سُرَّ صِلِ

(ٱلثَّالِثُ) مِنْ مُرَاعَاةِ ٱلنَّظِيرِ اَنْ تَذْكُرَ شَيْئَيْنِ مُتَنَاسِبَيْنِ وَتَخْتِمَ ٱلْكَلَامَ بِشَيْئَيْنِ : اَحَدُهُمَا يُلَائِمُ وَاحِدًا مِمَّا تَقَدَّمَ . وَٱلْآخَرُ يُلَائِمُ ٱلْآخَرَ . وَيُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعُ تَنَاسُبَ ٱلْاَطْرَافِ . وَمِنْهُ قَوْلُهُ : لَا تُدْرِكُهُ ٱلْاَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْاَبْصَارَ . وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ . فَٱللَّطِيفُ يُنَاسِبُ مَا لَا يُدْرَكُ لِمَا فِيهِ مِنَ ٱلْخَفَاءِ . وَٱلْخَبِيرُ يُنَاسِبُ مَنْ هُوَ مُدْرِكٌ لِلطَّائِفِ

ٱلأَشياء . (ٱلرَّابع) أَنْ تَذكُرَ ٱلشَّيْءَ ثُمَّ تَذكُرَ مَعَهُ لَفظاً مُشتَرَكاً بَينَ أَمرَينِ: أَحدُهما يُلائِمُ ٱلأَوَّلَ وَٱلآخَرُ لَا يُلائِمُهُ فَيتَوهَّمُ ٱلسَّامِعُ أَنَّهُ مُرادِفُ ٱلمُلائِمِ وَلَيسَ كَذلِكَ . وَيُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوعُ إِيهامَ ٱلنَّظِيرِ . كَقَولِ ٱلقَائِلِ :ٱلشَّمسُ وَٱلقَمرُ بِحُسْبانٍ وَٱلنَّجمُ وَٱلشَّجَرُ يَسجُدانِ . فَيُتَوَهَّمُ مُرَاعَاةُ ٱلنَّظِيرِ وَلَيسَ كَذلِكَ لِأَنَّ ٱلمُرادَ بِٱلنَّجمِ ٱلنَّباتُ لَا ٱلكَوكَبُ لِعَطفِ ٱلشَّجَرِ عَلَيهِ

البحث العاشر

في المجاز المرسل

(من السكاكي والدسوقي والثعالبي باختصار)

(راجع صفحة ٣٣ من علم الادب)

إِنَّ عَلاقَةَ ٱلمَجازِ ٱلمُصَحِّحَةَ لَهُ إِمَّا أَنْ تَكُونَ مُشابَهَةَ ٱلمَنقُولِ إِلَيهِ بِٱلمَنقُولِ عَنهُ فِي شَيْءٍ فَيُسَمَّى ٱلمَجازُ ٱستِعارَةً كَمَا مَرَّ . وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ عَلاقَةُ ٱلمَجازِ غَيرَ ٱلمُشابَهَةِ فَيُسَمَّى مُرسَلًا كَلَفظِ ٱليَدِ إِذَا ٱستُعمِلَ فِي ٱلنِّعمَةِ وَٱلقُدرَةِ كَمَا يُقالُ : جَلَّتْ أَيادِيهِ عِندِي . أَيْ كَثُرَتْ نِعمَتُهُ لَدَيَّ. وَٱتَّسعَتِ ٱليَدُ فِي ٱلبَلَدِ . وَٱليَدُ فِي ٱللُّغَةِ ٱلعُضوُ ٱلمَخصُوصُ وَٱلعَلاقَةُ كَونُ ذٰلِكَ ٱلعُضوِ مَصدَرًا لِلنِّعمَةِ فَإِنَّها تَصِلُ إِلَى ٱلمُنعَمِ عَلَيهِ مِنَ ٱليَدِ فَتَكُونُ ٱلجَارِحَةُ ٱلمَخصُوصَةُ بِمَنزِلَةِ ٱلعِلَّةِ ٱلفَاعِلِيَّةِ لَها. وَأَيضاً بِٱليَدِ تَظهَرُ ٱلنِّعمَةُ فَتَكُونُ بِمَنزِلَةِ ٱلعِلَّةِ ٱلصُّورِيَّةِ لَها . وَإِذَا ٱستُعمِلَتْ لِلقُدرَةِ فَلِأَنَّ أَكثَرَ مَا يَظهَرُ سُلطَانُ ٱلقُدرَةِ فِي ٱليَدِ وَبِها تَكُونُ ٱلأَفعالُ ٱلدَّالَّةُ عَلَى ٱلقُدرَةِ مِنَ ٱلبَطشِ وَٱلضَّربِ

وَٱلْقطعِ وَٱلْأَخذِ وَغَيرِ ذٰلكَ . وَأَنواعُ ٱلعلاقةِ ٱلْمُعتبَرةِ كَثيرةٌ مِنها عائدةٌ إِلى (ٱلتَّضمنِ) وهيَ ٱلَّتي تدلُّ على زِيادةٍ أَو نُقصانٍ . (فَمِنَ ٱلنُّقصانِ) تسميةُ ٱلشيءِ بِٱسمِ جُزئِهِ وَإِطلاقُ ٱلخاصِّ لِلعامِّ . وهٰذا مِنْ سُنَنِ ٱلعربِ فَإِنَّهُمْ يقتصِرونَ على بعضِ ٱلشَّيءِ وَهُمْ يُريدونَ كُلَّهُ فيقولونَ : قعدَ على ظهرِ راحِلتِهِ . وكقولِ ٱلشاعِرِ :

ٱلْواطِئِينَ على صُدورِ نِعالِهِمْ

وكقولِ لَبيدٍ :

أَوْ يَرْبِطُ بَعضَ ٱلنُّفوسِ حِمامُها

وَفي ٱلقرآنِ : قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبصارِهِمْ . وَٱلمُرادُ يَغُضُّوا أَبصارَهُمْ كُلَّها . (وكذٰلكَ) يصِفونَ ٱلبعضَ بِصِفةِ ٱلكُلِّ كقولِهِ : نَاصِيَةٌ كاذِبةٌ خاطِئةٌ . فَٱلخطأُ صِفةُ ٱلكلِّ وُصِفَ بِهِ ٱلنَّاصِيةُ . وَمِثلُ ذٰلكَ إِطلاقُهُمْ لفظَ (بعضٍ) مُرادًا بِهِ ٱلكُلُّ كقولِهِ : لِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعضَ ٱلَّذي تختلِفونَ فِيهِ أَيْ كُلَّهُ . ومِنْ سُنَنِ ٱلعربِ أَنْ تُقيمَ ٱلْواحِدَ مَقامَ ٱلجمعِ فيقولونَ : قَرِرْنا بِهِ عَينًا . أَيْ أَعيُنًا . وكقولِهِ : لَا نُفرِّقُ بَيْنَ أَحدٍ مِنهُمْ . وَٱلتَّفريقُ لَا يكونُ إِلَّا بَيْنَ ٱثنَيْنِ . وَٱلتَّقديرُ : لا نُفرِّقُ بَيْنَهُمْ . وَمِنْ هٰذا ٱلبابِ سُنَّةُ ٱلعربِ أَنْ يقولوا لِلرَّجلِ ٱلعظيمِ وَٱلْمَلِكِ ٱلكبيرِ : ٱنظُروا في أَمري . وَلِأَنَّ ٱلسادةَ وَٱلْمُلوكَ يقولونَ : نَحْنُ فَعَلْنا وَإِنَّا أَمرْنا . فعلى قَضِيَّةِ هٰذا ٱلِٱبتداءِ يُخاطَبونَ في ٱلجوابِ . (وَمِنَ ٱلزِّيادةِ) وهوَ عكسُ ما قبلَهُ إِطلاقُ ٱسمِ ٱلعامِّ لِلخاصِّ وَمِنهُ بابُ ٱلتَّخصيصِ بِأَسرِهِ وَإِطلاقُ ٱسمِ ٱلكُلِّ على ٱلجُزءِ نحوُ : يَجعلونَ

اَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ ٱلصَّوَاعِقِ . يُرِيدُ ٱلأَنَامِلَ وَهِيَ جُزْءٌ مِنَ ٱلأَصَابِعِ . وَٱلغَرَضُ مِنْهُ ٱلمُبَالَغَةُ كَأَنَّهُ جَعَلَ جَمِيعَ ٱلأَصَابِعِ فِي ٱلأُذُنِ لِئَلَّا يَسْمَعَ شَيْئًا مِنَ ٱلصَّاعِقَةِ . (وَمِنْ سُنَنِهِمْ) اَيْضًا ٱلإِتْيَانُ بِٱلجَمْعِ وَيُرِيدُونَ بِهِ ٱلوَاحِدَ كَقَوْلِهِ : مَا كَانَ لَهُمْ اَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ ٱللهِ . وَإِنَّمَا اَرَادَ ٱلمَسْجِدَ ٱلحَرَامَ . وَتَقُولُ ٱلعَرَبُ: اَفْعَلَا ذٰلِكَ . وَٱلمُخَاطَبُ وَاحِدٌ . وَكَقَوْلِهِ : اَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ . وَهُوَ خِطَابٌ لِخَازِنِ ٱلنَّارِ وَحْدَهُ . وَكَمَا قَالَ ٱلأَعْشَى :

وَصَلِّ عَلَى خَيْرِ ٱلعَشِيَّاتِ وَٱلضُّحَى   وَلَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَانَ وَٱللهَ فَٱعْبُدَا

وَيُقَالُ اِنَّهُ اَرَادَ : وَٱللهَ فَٱعْبُدَنْ . فَقَلَبَ ٱلنُّونَ ٱلخَفِيفَةَ اَلِفًا . وَكَذٰلِكَ فِي قَوْلِهِ : اَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ . (وَمِنْ اَنْوَاعِ) ٱلعَلَاقَةِ ٱلمُعْتَبَرَةِ فِي ٱلمَجَازِ ٱلمُرْسَلِ مَا يَقُودُ اِلَى (ٱلاِسْتِلْزَامِ) وَهُوَ مَا ٱقْتَضَى مَعْنَاهُ مَعْنًى آخَرَ لِأَجْلِ عَلَاقَتِهِ . (فَمِنْ ذٰلِكَ) اِطْلَاقُ ٱسْمِ ٱلمَلْزُومِ عَلَى ٱللَّازِمِ وَٱللَّازِمِ عَلَى ٱلمَلْزُومِ نَحْوُ : هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ . اَيْ هَلْ يَفْعَلُ . اَطْلَقَ ٱلاِسْتِطَاعَةَ عَلَى ٱلفِعْلِ لِأَنَّهَا لَازِمَةٌ لَهُ . وَكَقَوْلِهِ : يُرْسِلُ ٱلسَّمَاءَ مِدْرَارًا . اَيِ ٱلمَطَرَ . لِأَنَّهُ مِنْهَا يَنْزِلُ . (وَمِنْهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ سَبَبِهِ . كَقَوْلِهِ : مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ . اَيِ ٱلقَبُولَ وَٱلعَمَلَ بِهِ لِأَنَّهُ يَتَسَبَّبُ عَنِ ٱلسَّمْعِ . وَكَقَوْلِهِ : رَعَيْنَا ٱلغَيْثَ . اَيِ ٱلنَّبَاتَ ٱلَّذِي سَبَبُهُ ٱلغَيْثُ . (وَعَكْسُهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ مُسَبَّبِهِ نَحْوُ : اَمْطَرَتِ ٱلسَّمَاءُ نَبَاتًا . اَيْ غَيْثًا يَكُونُ ٱلنَّبَاتُ مُسَبَّبًا عَنْهُ . وَكَقَوْلِهِ : يُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ رِزْقًا . اَيْ مَطَرًا وَهُوَ مِنْ تَوَابِعِهِ . (وَمِنْهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ مَا كَانَ

عليه نحو : آتوا ٱليتامى اموالهم . اي ٱلذين كانوا يتامى لانهم لا يؤتون اموالهم حتى يبلغوا ولا يتم بعد ٱلبلوغ . (ومنه) تسمية ٱلشيء باسم ما يؤول اليه نحو : اني اراني اعصر خمرا اي عنبا . يعصر فيؤول الى ٱلخمر . وكقوله : ولا يلدوا الا كفارا . اي صائرا الى ٱلكفر . (ومنه) تسمية ٱلشيء باسم محله نحو : فليدع ناديه اي اهل ناديه . اي مجلسه . وكقوله : اسال ٱلقرية ٱلتي كنا فيها . اي اهلها . (ومنه عكسه) اي اطلاق اسم ٱلحال على ٱلمحل . نحو : حلوا في رحمة الله اي في ٱلجنة لانها محل ٱلرحمة . (ومنه) تسمية ٱلشيء باسم آلته نحو : وٱجعل لي لسان صدق في ٱلآخرين . اي ٱجعل لي ثناء حسنا وٱللسان آلة ٱلصدق وٱلثناء . (ومنه) تسمية ٱلشيء باسم ضده نحو : فبشرهم بعذاب اليم . اي انذرهم وهددهم . وتقول ٱلعرب للرجل تستجهله : يا عاقل . وللمرأة تستقبحها : يا قمر . (وكذلك) يقلبون ٱلمعنى نحو : عرضت ٱلناقة على ٱلحوض . يريدون ٱلحوض على ٱلناقة . (ومنه) وصف ٱلشيء بما يقع فيه او يكون منه نحو : يوم عاصف . اي عاصف ٱلريح . وليل نائم وساهر وصائم اي ينام فيه ويسهر ويصام . (ومنه) اضافة ٱلفعل الى ما لا يصلح له تشبيها . كقوله : جدار يريد ان ينقض . ولا ارادة للجدار . ولكنه توسع ٱلعرب في ٱلمجاز فعبروا عن ٱلجماد بفعل ٱلانسان كما قال ٱلراجز :

امتلأ ٱلحوض وقال قطني

اي كَفَانِي وَلَيس لِلحَوضِ قَولٌ. وَمِثلُهُ قَولُ ٱلرَّاعِي ٱلشَّاعِرِ ٱلنَّصرَانِيِّ :

فِي مَهمَهٍ فُلِقَتْ بِهِ هَامَاتُهَا ... فَلْقَ ٱلفُؤُوسِ إِذَا ارَدْنَ نُصُولَا

وَٱلعَرَبُ تُسَمِّي ٱلتَّهَيُّوءَ لِلفِعلِ وَٱلِاحتِيَاجَ إِلَيهِ إِرَادَةً. وَكَذَلِكَ يَأْتُونَ بِلَفظِ ٱلمَاضِي وَهُوَ مُستَقبَلٌ وَبِلَفظِ ٱلمُستَقبَلِ وَهُوَ مَاضٍ كَقَولِهِ : لِمَ تَقتُلُونَ أَنبِيَاءَ ٱللهِ اي لِمَ قَتَلتُمْ . وَكَمَا قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

فَأَدرَكتُ مَن قَدْ كَانَ قَبلِي وَلَمْ أَدَعْ ... لِمَن كَانَ بَعدِي فِي ٱلقَصَائِدِ مُصنِفَا

اي لِمَن يَكُونُ بَعدِي . وَمِثلُهُ قَولُهُ : وَكَانَ ٱللهُ غَفُورًا . اي كَانَ وَيَكُونُ وَهُوَ كَائِنٌ ٱلآنَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ . وَكَذَلِكَ يَأْتُونَ بِٱلمَفعُولِ بِلَفظِ ٱلفَاعِلِ فَيَقُولُونَ : سِرٌّ كَاتِمٌ اي مَكتُومٌ . وَمَكَانٌ عَامِرٌ اي مَعمُورٌ. وَمَاءٌ دَافِقٌ اي مَدفُوقٌ . وَعِيشَةٌ رَاضِيَةٌ اي مَرضِيَّةٌ . وَحَرَمٌ آمِنٌ اي مَأْمُونٌ . وَقَالَ جَرِيرٌ :

إِنَّ ٱلبَلِيَّةَ مَن تُمَلُّ كَلَامُهُ ... فَأَنقَعْ فُؤَادَكَ مِن حَدِيثِ ٱلوَامِقِ

اي مِن حَدِيثِ ٱلمَومُوقِ . وَيَعكِسُونَ هَذَا ٱلعَمَلَ وَيَستَعمِلُونَ ٱلفَاعِلَ بِلَفظِ ٱلمَفعُولِ كَقَولِهِ : كَانَ وَعدُهُ مَأْتِيًّا اي آتِيًا. وَكَقَولِهِ: حِجَابٌ مَستُورٌ اي سَاتِرٌ . وَيُقِيمُونَ ٱلِاسمَ وَٱلمَصدَرَ مَقَامَ ٱلفَاعِلِ وَٱلمَفعُولِ. فَتَقُولُ ٱلعَرَبُ: رَجُلٌ عَدلٌ اي عَادِلٌ . وَرِضًى اي مَرضِيٌّ . وَبَنُو فُلَانٍ لَنَا سِلمٌ اي مُسَالِمُونَ . وَحَربٌ اي مُحَارِبُونَ . (وَكَذَلِكَ) يَحمِلُونَ ٱللَّفظَ عَلَى ٱلمَعنَى فِي تَذكِيرِ ٱلمُؤَنَّثِ وَتَأْنِيثِ ٱلمُذَكَّرِ فَيَترُكُونَ حُكمَ ظَاهِرِ ٱللَّفظِ وَيَحمِلُونَهُ عَلَى مَعنَاهُ كَمَا يَقُولُونَ: ثَلَاثَةُ أَنفُسٍ. وَٱلنَّفسُ مُؤَنَّثَةٌ وَإِنَّمَا حَمَلُوهُ عَلَى مَعنَى ٱلإِنسَانِ أَو مَعنَى ٱلشَّخصِ

قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

مَا عِنـدَنَا اِلَّا ثَلَاثَةُ اَنْفُسٍ مِثْلَ ٱلنُّجُومِ تَلَأْلَأَتْ فِي ٱلْحِنْدِسِ

وَكَمَا ذَكَّرَ بَعْضُهُمُ ٱلْكَفَّ وَهِيَ مُؤَنَّثَةٌ فِي قَوْلِهِ :

اَرَى رَجُلًا مِنْهُمْ اَسِيفًا كَأَنَّمَا يَضُمُّ اِلَى كَشْحَيْهِ كَفًّا مُخَضَّبَا

فَحَمَلَ ٱلْكَلَامَ عَلَى ٱلْعُضْوِ وَهُوَ مُذَكَّرٌ . وَكَمَا قَالَ ٱلْآخَرُ :

يَا اَيُّهَا ٱلرَّاكِبُ ٱلْمُزْجِي مَطِيَّتَهُ سَائِلْ بَنِي اَسَدٍ مَا هٰذِهِ ٱلصَّوْتُ

اَيْ مَا هٰذِهِ ٱلْجَلَبَةُ . وَفِي ٱلْقُرْآنِ : وَاَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا . وَلَمْ يَقُلْ : مَيْتَةً لِاَنَّهُ حَمَلَهُ عَلَى ٱلْمَكَانِ . وَقَالَ : ٱلسَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ . فَذَكَّرَ ٱلسَّمَاءَ وَهِيَ مُؤَنَّثَةٌ لِاَنَّهُ حَمَلَ ٱلْكَلَامَ عَلَى ٱلسَّقْفِ . وَكُلُّ مَا عَلَاكَ وَاَظَلَّكَ فَهُوَ سَمَاءٌ

البحث الحادي عشر

في القول عن الكناية

(عن كتاب صناعة الترسل والمثل السائر)

(راجع صفحة ٢٨ من علم الادب)

اَللَّفْظَةُ اِذَا اُطْلِقَتْ وَكَانَ ٱلْغَرَضُ ٱلْاَصْلِيُّ غَيْرَ مَعْنَاهَا فَلَا يَخْلُو اِمَّا اَنْ يَكُونَ مَعْنَاهَا مَقْصُودًا اَيْضًا لِيَكُونَ دَالًّا عَلَى ذٰلِكَ ٱلْغَرَضِ ٱلْاَصْلِيِّ . وَاِمَّا اَنْ لَا يَكُونَ كَذٰلِكَ . فَٱلْاَوَّلُ هُوَ ٱلْكِنَايَةُ وَيُقَالُ لَهُ : ٱلْاِرْدَافُ . وَٱلثَّانِي ٱلْمَجَازُ . فَٱلْكِنَايَةُ عِنْدَ عُلَمَاءِ ٱلْبَيَانِ اَنْ يُرِيدَ ٱلْمُتَكَلِّمُ اِثْبَاتَ مَعْنًى مِنَ ٱلْمَعَانِي فَلَا يَذْكُرُهُ بِٱللَّفْظِ ٱلْمَوْضُوعِ لَهُ فِي ٱللُّغَةِ وَلٰكِنْ يَجِيءُ اِلَى مَعْنًى هُوَ تَالِيهِ وَرِدْفُهُ فِي ٱلْوُجُودِ

فيومئ به إليه ويجعله دليلا عليه

واعلم أن الكناية مشتقة من الستر . يقال : كنيت الشيء إذا سترته . وأجري هذا الحكم في الألفاظ التي يستتر فيها المجاز بالحقيقة فتكون دالة على الساتر وعلى المستور معا . وذلك أن المستور فيها هو المجاز لأن الحقيقة تفهم أولا ويتسارع الفهم إليها قبل المجاز . لأن دلالة اللفظ عليها دلالة وضعية . وأما المجاز فإنه يفهم منه بعد فهم الحقيقة وإنما يفهم بالنظر والفكرة وبهذا يحتاج إلى دليل لأنه عدول عن ظاهر اللفظ . فالحقيقة أظهر والمجاز أخفى وهو مستور بالحقيقة . وقد تأولت الكناية بغير هذا وهي أنها مأخوذة من الكنية التي يقال فيها : أبو فلان . فإنا إذا نادينا رجلا اسمه عبد الله وله ولد اسمه محمد فقلنا : يا أبا محمد . كان ذلك مثل قولنا : يا عبد الله . فإن شئنا ناديناه بهذا وإن شئنا ناديناه بهذا وكلاهما واقع عليه . وكذلك يجري الحكم في الكناية فإنا إذا شئنا حملناها على جانب المجاز . وإن شئنا حملناها على الحقيقة . إلا أنه لا بد من الوصف الجامع بينهما لئلا يلحق بالكناية ما ليس منها

ومثال ذلك قولهم : هو طويل النجاد وكثير رماد القدر . يعنون به أنه طويل القامة كثير القرى فلم يذكر المراد بلفظه الخاص به ولكن توصلوا إليه بذكر معنى آخر هو ردفه في الوجود . ألا ترى أن القامة إذا طالت طال النجاد . وإذا كثر القرى كثر رماد القدر .

وكقول الحضرمي :

قَدْ كَانَ يُعْجِبُ بَعْضَهُنَّ بَرَاعَتِي حَتَّى رَأَيْنَ تَنَحْنُحِي وَسُعَالِي

كَنَى عَنْ كِبَرِ ٱلسِّنِّ بِتَوَابِعِهِ وَهِيَ ٱلتَّنَحْنُحُ وَٱلسُّعَالُ. وَٱلْكِنَايَةُ تَكُونُ فِي ٱلْمُثْبَتِ كَمَا ذَكَرْنَا وَقَدْ تَكُونُ فِي ٱلْاثْبَاتِ. وَهِيَ مَا إِذَا حَاوَلُوا إِثْبَاتَ مَعْنًى مِنَ ٱلْمَعَانِي لِشَيْءٍ فَيَتْرُكُونَ ٱلتَّصْرِيحَ بِإِثْبَاتِهِ لَهُ وَيُثْبِتُونَهُ لِمَا لَهُ بِهِ تَعَلُّقٌ كَقَوْلِهِمْ: ٱلْمَجْدُ بَيْنَ ثَوْبَيْهِ وَٱلْكَرَمُ بَيْنَ بُرْدَيْهِ. وَقَوْلِهِ:

إِنَّ ٱلْمُرُوءَةَ وَٱلسَّمَاحَةَ وَٱلنَّدَى فِي قُبَّةٍ ضُرِبَتْ عَلَى ٱبْنِ ٱلْحَشْرَجِ

وَنَظِيرُهُ قَوْلُ يَزِيدَ بْنِ ٱلْحَكَمِ يَمْدَحُ يَزِيدَ بْنَ ٱلْمُهَلَّبِ وَهُوَ فِي حَبْسِ ٱلْحَجَّاجِ:

أَصْبَحَ فِي قَيْدِكَ ٱلسَّمَاحَةُ م وَٱلْمَجْدُ وَفَضْلُ ٱلصَّلَاحِ وَٱلْحَسَبُ

وَقَالَ ٱلْجُرْجَانِيُّ: مَكَانُ ٱلْقَيْدِ هٰهُنَا هُوَ مَكَانُ ٱلْقُبَّةِ فِي ٱلْبَيْتِ ٱلْمُتَقَدِّمِ. وَقَدْ يَجْتَمِعُ بِٱلْبَيْتِ ٱلْوَاحِدِ كِنَايَاتَانِ: ٱلْغَرَضُ مِنْهُمَا وَاحِدٌ وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا أَصْلٌ بِنَفْسِهَا كَقَوْلِهِ:

وَمَا يَكُ فِيَّ مِنْ عَيْبٍ فَإِنِّي جَبَانُ ٱلْكَلْبِ مَهْزُولُ ٱلْفَصِيلِ

وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْكِنَايَةَ جُزْءٌ مِنَ ٱلْاسْتِعَارَةِ وَلَا تَأْتِي إِلَّا عَلَى حُكْمِ ٱلْاسْتِعَارَةِ خَاصَّةً لِأَنَّ ٱلْاسْتِعَارَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا بِحَيْثُ يُطْوَى ذِكْرُ ٱلْمُسْتَعَارِ لَهُ. وَكَذٰلِكَ ٱلْكِنَايَةُ فَإِنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا بِحَيْثُ يُطْوَى ذِكْرُ ٱلْمَكْنِيِّ عَنْهُ وَنِسْبَتُهَا إِلَى ٱلْاسْتِعَارَةِ نِسْبَةُ خَاصٍّ إِلَى عَامٍّ. فَيُقَالُ: كُلُّ كِنَايَةٍ ٱسْتِعَارَةٌ. وَلَيْسَ كُلُّ ٱسْتِعَارَةٍ كِنَايَةً. وَيُفَرَّقُ بَيْنَهُمَا مِنْ وَجْهٍ آخَرَ وَهُوَ: أَنَّ ٱلْاسْتِعَارَةَ لَفْظُهَا صَرِيحٌ. وَٱلصَّرِيحُ

هُوَ مَا دَلَّ عَلَيْهِ ظَاهِرُ لَفْظِهِ وَٱلْكِنَايَةُ ضِدُّ ٱلصَّرِيحِ لِأَنَّهَا عُدُولٌ عَنْ ظَاهِرِ ٱللَّفْظِ . وَهٰذِهِ ثَلَاثَةُ فُرُوقٍ أَحَدُهَا : ٱلْخُصُوصُ وَٱلْعُمُومُ . وَٱلْآخَرُ ٱلصَّرِيحُ . وَٱلْآخَرُ ٱلْحَمْلُ عَلَى جَانِبِ ٱلْحَقِيقَةِ وَٱلْمَجَازِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ ٱلْقَوْلُ فِي بَابِ ٱلْاِسْتِعَارَةِ أَنَّهَا جُزْءٌ مِنَ ٱلْمَجَازِ . وَعَلَى ذٰلِكَ فَتَكُونُ نِسْبَةُ ٱلْكِنَايَةِ إِلَى ٱلْمَجَازِ نِسْبَةَ جُزْءِ ٱلْجُزْءِ وَخَاصِّ ٱلْخَاصِّ وَقَدْ يَأْتِي فِي ٱلْكَلَامِ مَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ كِنَايَةً وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ٱسْتِعَارَةً . وَذٰلِكَ يَخْتَلِفُ بِٱخْتِلَافِ ٱلنَّظَرِ إِلَيْهِ فِي مُفْرَدِهِ وَٱلنَّظَرِ إِلَى مَا بَعْدَهُ كَقَوْلِ نَصْرِ بْنِ سَيَّارٍ فِي أَبْيَاتِهِ ٱلْمَشْهُورَةِ ٱلَّتِي يُحَرِّضُ بِهَا بَنِي أُمَيَّةَ عِنْدَ خُرُوجِ أَبِي مُسْلِمٍ :

أَرَى خَلَلَ ٱلرَّمَادِ وَمِيضَ جَمْرٍ ... وَيُوشِكُ أَنْ يَكُونَ لَهُ ضِرَامُ

البحث الثاني عشر

في التعريض

(من المثل السائر لابن الاثير بتصرّف)

(راجع صفحة ٣٧ من علم الادب)

قَدْ تَكَلَّمَ عُلَمَاءُ ٱلْبَيَانِ فِي ٱلتَّعْرِيضِ فَوَجَدْتُهُمْ قَدْ خَلَطُوا ٱلتَّعْرِيضَ بِٱلْكِنَايَةِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَهُمَا وَلَا حَدُّوا كُلًّا مِنْهُمَا بِحَدٍّ يَفْصِلُهُ عَنْ صَاحِبِهِ . بَلْ أَوْرَدُوا لَهُمَا أَمْثِلَةً مِنَ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ وَأَدْخَلُوا أَحَدَهُمَا فِي ٱلْآخَرِ . فَذَكَرُوا لِلْكِنَايَةِ أَمْثِلَةً مِنَ ٱلتَّعْرِيضِ وَلِلتَّعْرِيضِ أَمْثِلَةً مِنَ ٱلْكِنَايَةِ . فَمِمَّنْ فَعَلَ ذٰلِكَ ٱلْغَانِمِيُّ وَٱبْنُ سِنَانٍ وَٱلْخَفَاجِيُّ وَٱلْعَسْكَرِيُّ . وَسَأَذْكُرُ مَا عِنْدِي فِي ٱلْفَرْقِ بَيْنَهُمَا وَأُمَيِّزُ أَحَدَهُمَا

عَنِ ٱلآخَرِ لِيُعرَفَ كُلٌّ مِنهُما عَلَى ٱنفِرَادِهِ . وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلكِنَايَةَ إِذَا وَرَدَتْ تَجاذَبَها جَانِبا حَقيقَةٍ وَمَجَازٍ . وَجازَ حَمْلُها عَلَى ٱلجَانِبَينِ مَعًا فَيَصِحُّ بِكُلٍّ مِنهُما ٱلمَعنَى وَلَا يَختَلُّ . وَٱلدَّلِيلُ عَلَى ذٰلِكَ أَنَّ ٱلكِنَايَةَ فِي أَصلِ ٱلوَضعِ أَنْ تَتَكَلَّمَ بِشَيْءٍ وَتُرِيدَ غَيرَهُ . يُقَالُ : كَنَيتُ بِكَذَا عَنْ كَذَا . فَهِيَ تَدُلُّ عَلَى مَا تَكَلَّمْتَ بِهِ وَعَلَى مَا أَرَدتَّهُ مِنْ غَيرِهِ . وَأَمَّا ٱلتَّعرِيضُ فَهُوَ ٱللَّفظُ ٱلدَّالُّ عَلَى ٱلشَّيْءِ مِنْ طَرِيقِ ٱلمَفهُومِ لَا بِٱلوَضعِ ٱلحَقِيقِيِّ وَلَا ٱلمَجَازِيِّ . فَإِنَّكَ إِذَا قُلتَ لِمَنْ تَتَوَقَّعُ صِلَتَهُ وَمَعرُوفَهُ بِغَيرِ طَلَبٍ : إِنِّي لَمُحتَاجٌ وَلَيسَ فِي يَدِي شَيْءٌ وَأَنَا عُريَانٌ وَٱلبَردُ قَدْ آذَانِي . فَإِنَّ هٰذَا وَأَشبَاهَهُ تَعرِيضٌ بِٱلطَّلَبِ وَلَيسَ هٰذَا ٱللَّفظُ مَوضُوعًا فِي مُقَابَلَةِ ٱلطَّلَبِ لَا حَقِيقَةً بَلْ مَجَازًا . إِنَّمَا دَلَّ عَلَيهِ مِنْ طَرِيقِ ٱلمَفهُومِ بِخِلَافِ دَلَالَةِ ٱلكِنَايَةِ فَإِنَّهَا لَفظِيَّةٌ وَضعِيَّةٌ مِنْ جِهَةِ ٱلمَجَازِ . وَإِنَّمَا سُمِّيَ ٱلتَّعرِيضُ تَعرِيضًا لِأَنَّ ٱلمَعنَى فِيهِ يُفهَمُ مِنْ عُرضِهِ أَيْ مِنْ جَانِبِهِ . وَمِنْ لَطِيفِ ٱلتَّعرِيضَاتِ ٱلأَدَبِيَّةِ مَا يُروَى عَنْ عُمَرَ بنِ ٱلخَطَّابِ : أَنَّهُ كَانَ يَخطُبُ يَومَ جُمعَةٍ فَدَخَلَ عُثمَانُ ٱبنُ عَفَّانَ . فَقَالَ عُمَرُ : أَيَّةُ سَاعَةٍ هٰذِهِ . يُرِيدُ ٱلتَّعرِيضَ بِٱلإِنكَارِ عَلَيهِ لِتَأَخُّرِهِ عَنِ ٱلمَجِيءِ إِلَى ٱلصَّلَاةِ . وَهُوَ مِنَ ٱلتَّعرِيضِ ٱلمُعرِبِ عَنِ ٱلأَدَبِ . وَمِنْ أَمثِلَتِهِ ٱلشِّعرِيَّةِ قَولُ ٱلحَجَّاجِ يُعَرِّضُ بِمَنْ تَقَدَّمَهُ مِنَ ٱلأُمَرَاءِ :

لَستُ بِرَاعِي إِبِلٍ وَلَا غَنَمْ   وَلَا بِجَزَّارٍ عَلَى ظَهرِ وَضَمْ

البحث الثالث عشر

في ما ورد من الكنايات عن العرب

(عن كتاب الكناية للثعالبي وكتاب الصناعتين للعسكري)

اِعلَمْ انَّ ٱلعربَ يلتجئون اِلى ٱلكناية اِذا ما ارادوا ٱلتعريض عمّا يُستقبَح ذِكرُهُ فيكنون عن ٱلاعورِ بٱلممتَّع . وعن ٱلذي في عينيهِ نُكتةُ بياضٍ بٱلمكوكب . وعمَّنْ في وجههِ اثرُ ضربةٍ بٱلمشطَّب . ولبعضِهم في أبرص :

لَخو لَخمٍ اعارك منهُ ثوبًا هنيئًا بٱلقميصِ ٱلمستجدِّ

ارادَ بِاخي لخمٍ جذيمةَ ٱلابرص . وللصاحب في ٱلجرب :

ابا ٱلعلاء هِلالُ ٱلهزلِ وٱلجِـدِ كيفَ ٱلنجومُ ٱلّتي يطلُعنَ في ٱلجلدِ

ويُكنَّى عن ٱلحولِ بٱلتأخُّر . قالَ ٱلدُّؤَليُّ :

بيضُ ٱلمطابخِ لا تشكو اِماؤُهمُ طبخَ ٱلقدورِ ولا غسلَ ٱلمناديلِ

قالَ آخرُ :

ثيابُ طبَّاخٍ اِذا ٱتَّسخت انقى بياضًا مِنَ ٱلقراطيسِ

وقالَ ابو بكرٍ ٱلخوارزميُّ :

فتًى مختصِرُ ٱلمأكو لِ وٱلمشروبِ وٱلعطرِ
نقيُّ ٱلكأسِ وٱلقصعةِ مِ وٱلمنديـلِ وٱلقِدرِ

ويكنون عن ٱلجاهلِ بأنَّهُ من ٱلمستريحين . ويُروى انَّ خِلافًا وقعَ بينَ بعضِ ٱلخلفاء وبينَ نديمٍ لهُ في مسألةٍ . فٱتَّفقا على رأيِ بعضِ اهلِ ٱلعلمِ فأُحضِرَ . فوجدَ ٱلخليفةَ مخطِئًا فقالَ : ٱلقائلون

بِقَوْلِ اَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ اَكْثَرُ (يُرِيدُ ٱلْجُهَّالَ) . وَاِذَا كَانَ ٱلرَّجُلُ اَحْمَقَ قِيلَ : نَعْتُهُ لَا يَنْصَرِفُ . وَكَانَ قَابُوسُ بْنُ وَشْمَكِيرَ اِذَا وَصَفَ رَجُلًا بِٱلْبَلَهِ قَالَ : هُوَ مِنْ اَهْلِ ٱلْجَنَّةِ . وَيَقُولُونَ : فُلَانٌ خَفِيفٌ عَلَى ٱلْقَلْبِ يُرِيدُونَ مَقْلُوبًا وَهُوَ ٱلثَّقِيلُ . وَكَانَ ٱلنَّاصِرُ ٱلْعَلَوِيُّ ٱلْاُطْرُوشُ اِذَا خَاطَبَهُ اَحَدٌ فَلَمْ يَسْمَعْ قَالَ لَهُ : اِرْفَعْ صَوْتَكَ فَاِنَّ بِاُذُنِي بَعْضَ مَا بِرُوحِكَ . وَنَظَرَ ٱلْبَدِيعُ ٱلْهَمَذَانِيُّ اِلَى رَجُلٍ طَوِيلٍ بَارِدٍ فَقَالَ : قَدْ اَقْبَلَ لَيْلُ ٱلشِّتَاءِ . وَدَخَلَ رَجُلٌ عَلَى مَرِيضٍ يَعُودُهُ وَقَدِ اَقْشَعَرَّ . فَقَالَ : مَا تَجِدُ فَدَيْتُكَ . قَالَ : اَجِدُكَ (يَعْنِي ٱلْبَرْدَ) . وَاِنْ كَانَ ٱلرَّجُلُ كَذُوبًا قِيلَ : ٱلْفَاخِتَةُ عِنْدَهُ اَبُو ذَرٍّ (يُضْرَبُ ٱلْمَثَلُ بِٱلْفَاخِتَةِ فِي ٱلْكَذِبِ وَبِاَبِي ذَرٍّ فِي ٱلصِّدْقِ) . وَيَقُولُونَ اَيْضًا : فُلَانٌ يَلْطِمُ عَيْنَ مِيزَانٍ . (وَمِيزَانٌ رَجُلٌ يُضْرَبُ بِهِ ٱلْمَثَلُ فِي ٱلْكَذِبِ) . وَاِذَا كَانَ ٱلرَّجُلُ لُوطِيًّا قِيلَ : هُوَ مِنْ بَقِيَّةِ قَوْمِ مُوسَى . وَاِذَا كَانَ مُلْحِدًا قِيلَ : قَدْ عَبَرَ (يُرِيدُونَ جِسْرَ ٱلْاِيمَانِ) . قِيلَ لِبَعْضِهِمْ : هَلْ عَبَرْتَ . قَالَ : فِي ذٰلِكَ ٱلْجَانِبِ وُلِدْتُ . وَاِنْ كَانَ يُسِيءُ ٱلْاَدَبَ فِي ٱلْمُؤَاكَلَةِ قِيلَ : تُسَافِرُ يَدُهُ عَلَى ٱلْخِوَانِ وَيَرْعَى اَرْضَ ٱلْجِيرَانِ . فَاِنْ كَانَ خَفِيفَ ٱلْيَدِ فِي ٱلطَّرِّ وَٱلسَّرِقَةِ . قَالُوا : هُوَ اَحَذُّ يَدِ ٱلْقَمِيصِ (وَيَدُ ٱلْقَمِيصِ ٱلْكُمُّ وَٱلسَّارِقُ يُقَصِّرُهُ لِيَكُونَ اَقْدَرَ عَلَى مَا يُرِيدُ مِنْ سَرِقَةٍ) . فَاذَا كَانَ قَمِلَ ٱلثَّوْبِ قِيلَ : فُلَانٌ يَعْرِضُ ٱلصَّيْدَ . قَالَ ٱلصَّاحِبُ :

وُحُوشُهُ تَرْتَعُ فِي جَنْبِهِ وَظُفْرُهُ يَرْكَبُ لِلصَّيْدِ

وَإِذَا كَانَ ٱلرَّجُلُ يَتَشَاعَرُ وَلَيسَ يُجِيدُ قَالُوا: هُوَ نَبِيٌّ فِي ٱلشِّعْرِ.
قَالَ بَعْضُهُمْ:

يَا نَبِيَّ ٱللهِ فِي ٱلشِّعْـرِ م وَيَا مَنْ فِيـهِ يُكْرَمْ
أَنتَ مِنْ أَشْعَرِ خَلْقِ ٱللهِ م مَا لَمْ تَتَكَلَّمْ

وَيُقَالُ: فُلَانٌ رَابِعُ ٱلشُّعَرَاءِ. إِذَا كَانَ مُتَخَلِّفًا مُنْحَطَّ ٱلطَّبَقَةِ لِقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ:

اَلشُّعَرَاءُ فَاعْلَمَنَّ أَرْبَعَـهْ فَشَاعِرٌ يَجْرِي وَلَا يُجْرَى مَعَهْ
وَشَاعِرٌ يُنْشِدُ وَسْطَ ٱلْمَجْمَعَهْ وَشَاعِرٌ مِنْ حَقِّهِ أَنْ تَسْمَعَهْ
وَشَاعِرٌ مِنْ حَقِّهِ أَنْ تَصْفَعَهْ.

وَسُئِلَ حَائِكٌ عَنْ صِنَاعَتِهِ فَقَالَ: كُسْوَةُ ٱلْأَحْيَاءِ وَجِهَازُ ٱلْمَوْتَى.
وَيَكْنُونَ عَنِ ٱلْقَرَوِيِّ بِأَخْضَرِ ٱلْأَسْنَانِ مِنْ كَثْرَةِ أَكْلِ ٱلْبَقْلِ.
وَسُئِلَ حَجَّامٌ عَنْ صِنَاعَتِهِ. فَقَالَ: أَكْتُبُ بِٱلْحَدِيدِ وَأَخْتِمُ بِٱلزُّجَاجِ.
وَفِيهِ قِيلَ:

يَا ٱبْنَ ٱلَّذِي عَاشَ غَيْرَ مُضْطَهَدٍ بِرَحْمَـةِ ٱللهِ أَيُّمَا رَجُـلِ
أَبُوكَ أَوْهَى ٱلنِّجَادُ عَاتِقَـهُ كَمْ مِنْ كَمِيٍّ أَدْمَى وَكَمْ بَطَلِ
لَهُ رِقَابُ ٱلْمُلُوكِ خَاضِعَـةٌ مِنْ بَيْنِ حَافٍ وَبَيْنِ مُنْتَعِلِ
يَأْخُذُ مِنْ مَالِهِ وَمِنْ دَمِـهِ لَمْ يُمْسِ مِنْ ثَائِرٍ عَلَى وَجَلِ (١)

وَيُقَالُ عَمَّنْ يُكْثِرُ ٱلْأَسْفَارَ: فُلَانٌ لَا يَضَعُ ٱلْعَصَا عَنْ عَاتِقِهِ.
وَجَاءَ فِي ٱلْقُرْآنِ: أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ. فَإِنَّهُ

(١) راجع الجزء الثالث من مجاني الادب صفحة ١٥١

كَنَى عَنِ ٱلْغِيبَةِ بِأَكْلِ ٱلْإِنسَانِ لَحْمَ ٱلْإِنسَانِ . وَهٰذَا شَدِيدُ ٱلْمُنَاسَبَةِ لِأَنَّ ٱلْغِيبَةَ إِنَّمَا هِيَ ذِكْرُ مَثَالِبِ ٱلنَّاسِ وَتَمْزِيقُ أَعْرَاضِهِمْ وَتَمْزِيقُ ٱلْعِرْضِ مُمَاثِلٌ لِأَكْلِ ٱلْإِنسَانِ لَحْمَ مَنْ يَغْتَابُهُ . وَمِنْ أَمْثَالِ ٱلْعَرَبِ قَوْلُهُمْ : لَبِسَ لِفُلَانٍ جِلْدَ ٱلنَّمِرِ وَجِلْدَ ٱلْأَرْقَمِ . كِنَايَةً عَنِ ٱلْعَدَاوَةِ . وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُمْ : قَلَبَ لَهُ ظَهْرَ ٱلْمِجَنِّ كِنَايَةً عَنْ تَغْيِيرِ ٱلْمَوَدَّةِ . وَمِنْ ظَرِيفِ ٱلْكِنَايَاتِ مَا جَاءَ عَنِ ٱلْحَمَّازِ وَقَدْ قِيلَ لَهُ : أَيُّ ٱلْبُقُولِ أَحَبُّ إِلَيْكَ . فَقَالَ : بَقْلَةُ ٱلذِّئْبِ (يَعْنِي ٱللَّحْمَ) . وَرَأَى رَجُلٌ مِنْ أَضَافُوهُ يُطِيلُونَ ٱلْغِنَاءَ وَلَا يَأْتُونَ بِٱلْأَكْلِ فَقَالَ :

خَلِيلَيَّ دَاوَيْتُمَا ظَاهِرًا ... فَمَنْ ذَا يُدَاوِي جَوَى بَاطِنَا

فَعَلِمُوا أَنَّهُ جَائِعٌ . وَأُخْبِرَ عَنِ ٱلْجَاحِظِ أَنَّهُ أَكَلَ مَعَ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ ٱلزَّيَّاتِ فَالُوذَجَةً فَأَمَرَ ٱبْنُ ٱلزَّيَّاتِ أَنْ يُجْعَلَ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْجَاحِظِ مَا رَقَّ مِنَ ٱلْجَامِ . فَأَسْرَعَ فِي ٱلْأَكْلِ حَتَّى نَظَّفَ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ . فَقَالَ لَهُ مُحَمَّدٌ : يَا أَبَا عُثْمَانَ قَدْ تَقَشَّعَتْ سَمَاؤُكَ . فَقَالَ : أَصْلَحَكَ ٱللّٰهُ لِأَنَّ غَيْمَهَا كَانَ رَقِيقًا . وَكَذٰلِكَ يُقِيمُونَ وَصْفَ ٱلشَّيْءِ مَقَامَ ٱسْمِهِ كَمَا قَالَ : حَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ . يَعْنِي ٱلسَّفِينَةَ فَوَضَعَ صِفَتَهَا مَوْضِعَ تَسْمِيَتِهَا . وَقَالَ : إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّافِنَاتُ ٱلْجِيَادُ . يَعْنِي ٱلْخَيْلَ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ :

سَأَلَتْ قُتَيْبَةُ عَنْ أَبِيهَا صَحْبَهُ ... فِي ٱلرَّوْحِ هَلْ رَكِبَ ٱلْأَغَرَّ ٱلْأَشْقَرَا

يَعْنِي هَلْ قُتِلَ . وَٱلْأَغَرُّ ٱلْأَشْقَرُ وَصْفُ ٱلدَّمِ فَأَقَامَهُ مَقَامَ ٱسْمِهِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْمُحْدَثِينَ :

شِمتُ برقَ الوزيرِ فانهلَّ حتّى　　لم اجد مهربًا الى الاقدامِ
فكأنّي وقد تقاصر باعي　　خابطٌ في عبابِ اخضرَ طامي

يعني البحر. وقال الحجّاجُ لابن القبعثري: لأحملنّكَ على الادهمِ. يعني القتلَ. فتجاهل عليهِ وقال: مثلُ الامير يحملُ على الادهمِ والاشهبِ. يريدُ الخيلَ. ومن ذلكَ: انَّ المنصورَ كان في بستانٍ لهُ وهو في ايّام محاربتهِ ابراهيمَ بنَ عبدِ اللهِ بنِ الحسنِ ونظرَ الى شجرةِ خلافٍ فقال للربيعِ: ما هذهِ الشجرةُ. فقال: طاعةٌ يا اميرَ المؤمنينَ. فتفاءَلَ المنصورُ بهِ وعجبَ من ذكائهِ. ومثلُ ذلكَ: انَّ رجلًا مرَّ في صحنِ دارِ الرشيدِ ومعهُ حزمةُ خيزرانٍ. فقال الرشيدُ للفضلِ بنِ الربيعِ: ما ذاكَ. فقال: عروقُ الرماحِ يا اميرَ المؤمنينَ. وكرهَ ان يقولَ الخيزرانَ لموافقتهِ اسمَ والدةِ الرشيدِ. ومن كلامِ العربِ ايضًا في هذا البابِ قولهم: فلانٌ نقيُّ الثوبِ. يريدونَ بهِ انّهُ لاعيبَ فيهِ وليسَ بموضوعِ نقاءِ الثوبِ البراءةَ منَ العيبِ وانّما استُعمِلَ فيهِ تمثيلًا. وقال امرؤُ القيسِ:

ثيابُ بني عوفٍ طهارى نقيّةٌ　　واوجههم عندَ المشاهدِ غرّاتُ

وكذلكَ قولهم: فلانٌ طاهرُ الثوبِ. يريدونَ انّهُ ليسَ بخائنٍ ولا غادرٍ. وفلانٌ دنسُ الثوبِ اذا كانَ غادرًا فاجرًا. وقولهم: طيّبُ الحجزةِ اي عفيفٌ. قال النابغةُ يمدحُ بني غسّانَ النصارى:

رقاقُ النعالِ طيّبٌ حجزاتهم　　يحيّونَ بالريحانِ يومَ السباسبِ

وقال الاصمعيُّ: اذا قالتِ العربُ: الثوبَ والازارَ. فانّهم

يُرِيدُونَ ٱلْبَدَنَ. وَيَقُولُونَ: فُلَانٌ أَوْسَعُ بَنِي أُمَيَّةَ ثَوْبًا. أَيْ أَكْثَرُهُمْ مَعْرُوفًا. وَفُلَانٌ غَمْرُ ٱلرِّدَاءِ إِذَا كَانَ كَثِيرَ ٱلْمَعْرُوفِ. قَالَ كُثَيِّرٌ:

غَمْرُ ٱلرِّدَاءِ إِذَا تَبَسَّمَ ضَاحِكًا غَلِقَتْ لِضَحْكَتِهِ رِقَابُ ٱلْمَالِ

وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُمْ: فُلَانٌ رَحْبُ ٱلذِّرَاعِ. وَمِنَ ٱلْكِنَايَاتِ ٱللَّطِيفَةِ مَا ذَكَرَهَا ٱلْأُدَبَاءُ فِي ٱلشَّيْبِ وَٱلْكِبَرِ. فَيَقُولُونَ: عَرَضَتْ لِفُلَانٍ فَتْرَةٌ. عَرَضَ لَهُ مَا يَمْحُو ذُنُوبَهُ وَيُكَفِّرُ سَيِّئَاتِهِ. أَقْمَرَ لَيْلُهُ نَوَّرَ غُصْنُ شَبَابِهِ. فَضَّضَ ٱلزَّمَانُ أَبْنُوسَهُ. وَجَاءَهُ ٱلنَّذِيرُ. وَقَرَعَ نَاجِذَ ٱلْحُلُمِ. وَٱرْتَاضَ بِلِجَامِ ٱلدَّهْرِ. أَدْرَكَ زَمَانَ ٱلْحُنْكَةِ. رَفَضَ غِرَّةَ ٱلصِّبَى وَلَبَّى دَاعِيَ ٱلْحِجَى. وَمِنْ كِنَايَاتِهِمْ عَنِ ٱلْمَوْتِ: ٱسْتَأْثَرَ ٱللهُ بِهِ. أَسْعَدَهُ ٱللهُ بِجِوَارِهِ. نَقَلَهُ إِلَى دَارِ رِضْوَانِهِ. وَمَحَلِّ غُفْرَانِهِ. إِنْتَقَلَ إِلَى جِوَارِ رَبِّهِ وَٱنْقَلَبَ إِلَى مَحَلِّ عَفْوِهِ. ٱخْتَارَ لَهُ ٱلنُّقْلَةَ مِنْ دَارِ ٱلْبَوَارِ إِلَى دَارِ ٱلْأَبْرَارِ

البحث الرابع عشر

في المبالغة

(عن بديعية الحموي وكتاب الصناعتين للعسكري)

(راجع صفحة ٣٩ من علم الادب)

ٱلْمُبَالَغَةُ نَوْعٌ مَعْدُودٌ مِنْ مَحَاسِنِ فَنِّ ٱلْكِتَابَةِ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ وَٱسْتَدَلُّوا عَلَى ذٰلِكَ بِقَوْلِ مَنْ قَالَ: أَحْسَنُ ٱلشِّعْرِ أَكْذَبُهُ. وَبِقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ ٱلذُّبْيَانِيِّ: أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ مَنِ ٱسْتُجِيدَ كَذِبُهُ. وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَعُدَّ

ٱلْمُبَالَغَةَ مِنْ حَسَنَاتِ ٱلْكَلَامِ وَمَشَى فِي ذٰلِكَ عَلَى مَذْهَبِ حَسَّانِ ٱبْنِ ثَابِتٍ فَإِنَّهُ قَالَ :

وَإِنَّمَا ٱلشِّعْرُ عَقْلُ ٱلْمَرْءِ يَعْرِضُهُ عَلَى ٱلْأَنَامِ فَإِنْ كَيْسًا وَإِنْ حُمُقَا
وَإِنَّ أَشْعَرَ بَيْتٍ أَنْتَ قَائِلُهُ بَيْتٌ يُقَالُ إِذَا أَنْشَدْتَهُ صَدَقَا

وَعِنْدَ أَهْلِ هٰذَا ٱلْمَذْهَبِ أَنَّ ٱلْمُبَالَغَةَ لَمْ تُسْفِرْ عَنْ غَيْرِ ٱلتَّهْوِيلِ عَلَى ٱلسَّامِعِ وَلَمْ يَفِرَّ ٱلنَّاظِمُ إِلَى ٱلتَّخْيِيمِ عَلَيْهَا إِلَّا بِعَجْزِهِ وَقُصُورِ هِمَّتِهِ عَنِ ٱخْتِرَاعِ ٱلْمَعَانِي ٱلْمُبْتَكَرَةِ . لِأَنَّهَا فِي صِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ كَٱلِاسْتِرَاحَةِ مِنَ ٱلشَّاعِرِ إِذَا أَعْيَاهُ إِيرَادُ ٱلْمَعَانِي ٱلْغَرِيبَةِ فَيَشْغَلُ ٱلْأَسْمَاعَ بِمَا هُوَ مُحَالٌ وَتَهْوِيلٌ . وَقَالُوا : رُبَّمَا أَنَّهَا أَحَالَتِ ٱلْمَعَانِيَ فَأَخْرَجَتْهَا عَنْ حَدِّ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُمْكِنِ إِلَى حَدِّ ٱلِامْتِنَاعِ . وَٱلْمُبَالَغَةُ تُعَابُ فِي بَابِهَا إِذَا خَرَجَتْ عَنْ حَدِّ ٱلْإِمْكَانِ إِلَى ٱلِاسْتِحَالَةِ وَأَتَى ٱلْكَلَامُ عَلَى حَدِّهَا فِي مَوْضِعِهِ . وَٱلَّذِي أَقُولُهُ : إِنَّ ٱلْمُبَالَغَةَ مِنْ مَحَاسِنِ أَنْوَاعِ ٱلْبَدِيعِ وَلَمْ يَسْتَطْرِدْ فِي حَلَبَاتِ سَبْقِهَا إِلَّا فُحُولُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ . وَلَوْ سَلَّمْنَا إِلَى مَنْ يَهْضِمُ جَانِبَهَا وَلَمْ يَعُدَّهَا مِنْ حَسَنَاتِ ٱلْكَلَامِ بَطَلَتْ بَلَاغَةُ ٱلِاسْتِعَارَةِ وَٱنْحَطَّتْ رُتْبَةُ ٱلتَّشْبِيهِ . وَتَسْمِيَةُ ٱلْمُبَالَغَةِ مَنْسُوبَةٌ إِلَى قُدَامَةَ . وَمِنْهُمْ مَنْ سَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعَ ٱلتَّبْلِيغَ . وَسَمَّاهُ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ : ٱلْإِفْرَاطَ فِي ٱلصِّفَةِ . وَهٰذِهِ ٱلتَّسْمِيَةُ طَابَقَتِ ٱلْمُسَمَّى . وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ رَغِبُوا فِي تَسْمِيَةِ قُدَامَةَ لِخِفَّتِهَا . وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ أَعْنِي ٱلْمُبَالَغَةَ شَرِكَهُ قَوْمٌ مَعَ ٱلْإِغْرَاقِ وَٱلْغُلُوِّ لِعَدَمِ مَعْرِفَةِ ٱلْفَرْقِ وَهُوَ مِثْلَ ٱلصُّبْحِ ظَاهِرٌ . (وَٱلْمُبَالَغَةُ) فِي ٱلِاصْطِلَاحِ هِيَ إِفْرَاطُ وَصْفِ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُمْكِنِ ٱلْقَرِيبِ وُقُوعُهُ

عَادَةً . (وَٱلْإِغْرَاقُ) وَصْفُ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُمْكِنِ ٱلْبَعِيدِ وُقُوعُهُ عَادَةً . (وَٱلْغُلُوُّ)وَصْفُهُ بِمَا يَسْتَحِيلُ وُقُوعُهُ.وَيَأْتِي ٱلْكَلَامُ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلثَّلَاثَةِ فِي مَوْضِعِهِ . وَقَدْ تَقَرَّرَ أَوَّلًا أَنَّ ٱلْمُبَالَغَةَ نَوْعُهَا مَبْنِيٌّ عَلَى وَصْفِ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُمْكِنِ ٱلْقَرِيبِ وُقُوعُهُ . وَحَدَّ قُدَامَةُ ٱلْمُبَالَغَةَ فَقَالَ : هِيَ أَنْ يَذْكُرَ ٱلْمُتَكَلِّمُ حَالًا مِنَ ٱلْأَحْوَالِ لَوْ وُقِفَ عِنْدَهَا لَأَجْزَأَتْ فَلَا يَقِفُ حَتَّى يَزِيدَ فِي مَعْنَى مَا ذَكَرَهُ مَا يَكُونُ أَبْلَغَ مِنْ مَعْنًى قَصَدَهُ كَقَوْلِ عُمَيْرِ بْنِ كَرِيمٍ ٱلتَّغْلِبِيِّ :

وَنُكْرِمُ جَارَنَا مَا دَامَ فِينَا　　وَنُتْبِعُهُ ٱلْكَرَامَةَ حَيْثُ مَالَا

وَقَالَ : إِنَّ هٰذَا ٱلْبَيْتَ مِنْ أَحْسَنِ ٱلْمُبَالَغَةِ عِنْدَ ٱلْحُذَّاقِ . فَإِنَّ ٱلشَّاعِرَ بَلَغَ فِيهِ إِلَى أَقْصَى مَا يُمْكِنُ مِنْ وَصْفِ ٱلشَّيْءِ وَتَوَصَّلَ إِلَى أَكْثَرِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ فَتَعَاطَاهُ . وَلَخَّصَ بَعْضُهُمْ عِبَارَةَ ٱلْحَدِّ ٱلَّذِي حَدَّهُ قُدَامَةُ وَقَالَ : ٱلْمَعْنَى إِذَا زَادَ عَلَى ٱلتَّمَامِ سُمِّيَ مُبَالَغَةً . وَقَالَ ٱبْنُ رَشِيقٍ فِي ٱلْعُمْدَةِ : ٱلْمُبَالَغَةُ بُلُوغُ ٱلشَّاعِرِ أَقْصَى مَا يُمْكِنُ فِي وَصْفِ ٱلشَّيْءِ . قُلْتُ عَلَى هٰذَا ٱلتَّقْرِيرِ : فَجُلُّ ٱلْقَصْدِ فِي ٱلْمُبَالَغَةِ ٱلْإِمْكَانُ وَٱلْخُرُوجُ مِنَ ٱلْمُسْتَحِيلِ . وَٱلْمَذْهَبُ ٱلصَّحِيحُ فِيهَا أَنَّهَا ضَرْبٌ مِنَ ٱلْمَحَاسِنِ إِذَا بَعُدَتْ عَنِ ٱلْإِغْرَاقِ وَٱلْغُلُوِّ . وَإِنْ كَانَ ٱلْإِغْرَاقُ وَٱلْغُلُوُّ ضَرْبَيْنِ مِنَ ٱلْمَحَاسِنِ وَنَوْعَيْنِ مِنْ أَنْوَاعِ ٱلْبَدِيعِ . فَقَدْ شَرَطَ عُلَمَاؤُهُ أَنَّ ٱلنَّوْعَ لَا يَتَجَاوَزُ حَدَّهُ بِحَيْثُ يَزُولُ ٱلِٱلْتِبَاسُ وَيُعْجِبُنِي مِنْ أَمْثِلَةِ ٱلْمُبَالَغَةِ فِي ٱلْمَدِيحِ قَوْلُ ٱلْقَائِلِ :

أَضَاءَتْ لَهُمْ أَحْسَابُهُمْ وَوُجُوهُهُمْ　　دُجَى ٱللَّيْلِ حَتَّى نَظَّمَ ٱلْجَزْعَ ثَاقِبُهْ

فَٱلْمَعْنَى تَمَّ لِلنَّاظِمِ لَمَّا ٱنْتَهَى فِي بَيْتِهِ إِلَى قَوْلِهِ : دُجَى ٱللَّيْلِ وَلٰكِنْ زَادَ بِمَا هُوَ أَبْلَغُ وَأَبْدَعُ وَأَغْرَبُ فِي قَوْلِهِ : حَتَّى تَظَلَّمَ ٱلْجِزْعُ ثَاقِبُهُ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي فِي وَصْفِ جَوَادٍ :

وَأَصْرَعُ أَيَّ ٱلْوَحْشِ قَفَّيْتُهُ بِهِ وَأَنْزِلُ عَنْهُ مِثْلَهُ حِينَ أَرْكَبُ

قَالَ ذَكِيُّ ٱلدِّينِ بْنُ أَبِي ٱلْإِصْبَعِ فِي كِتَابِهِ ٱلْمُسَمَّى بِتَحْرِيرِ ٱلتَّحْبِيرِ : أَبْلَغُ شِعْرٍ سَمِعْتُهُ فِي بَابِ ٱلْمُبَالَغَةِ قَوْلُ شَاعِرِ ٱلْحَمَاسَةِ إِذْ بَالَغَ فِي مَدْحِ مَمْدُوحِهِ بِقَوْلِهِ :

رَهَنْتُ يَدِي بِٱلْعَجْزِ عَنْ شُكْرِ بِرِّهِ وَمَا فَوْقَ شُكْرِي لِلشَّكُورِ مَزِيدُ
وَلَوْ كَانَ مِمَّا يُسْتَطَاعُ ٱسْتَطَعْتُهُ وَلٰكِنَّ مَا لَا يُسْتَطَاعُ شَدِيدُ

فَٱنْظُرْ مَا أَحْلَى ٱحْتِرَاسَهُ عَنْ ذٰلِكَ بِقَوْلِهِ : وَمَا فَوْقَ شُكْرِي لِلشَّكُورِ مَزِيدُ . وَٱنْظُرْ كَيْفَ أَظْهَرَ عُذْرَهُ فِي عَجْزِهِ مَعَ قُدْرَتِهِ بِأَنْ قَالَ فِي ٱلْبَيْتِ ٱلثَّانِي : وَلَوْ كَانَ مِمَّا يُسْتَطَاعُ ٱسْتَطَعْتُهُ . ثُمَّ أَخْرَجَ بَقِيَّةَ ٱلْبَيْتِ لِلْمُبَالَغَةِ مُخْرَجَ ٱلْمَثَلِ ٱلسَّائِرِ حَيْثُ قَالَ : وَلٰكِنَّ مَا لَا يُسْتَطَاعُ شَدِيدُ . وَمِنْ هُنَا قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ :

لَا تُسْدِيَنَّ إِلَيَّ عَارِفَةً حَتَّى أَقُومَ بِشُكْرِ مَا سَلَفَا

وَمِنْ حَسَنِ ٱلْمُبَالَغَةِ قَوْلُ ٱلْحَكَمِ ٱلْحَضْرَمِيِّ :

وَأَقْبَحُ مِنْ قِرْدٍ وَأَبْخَلُ بِٱلْقِرَى
مِنَ ٱلْكَلْبِ أَمْسَى وَهُوَ غَرْثَانُ أَعْجَفُ

فَٱلْكَلْبُ بَخِيلٌ عَلَى مَا ظَفِرَ بِهِ وَهُوَ أَشَدُّ بُخْلًا إِذَا كَانَ جَائِعًا أَعْجَفَ أَمَّا (ٱلْإِغْرَاقُ) فَهُوَ فَوْقَ ٱلْمُبَالَغَةِ وَلٰكِنَّهُ دُونَ ٱلْغُلُوِّ . وَهُوَ

فِي ٱلِاصْطِلَاحِ اِفْرَاطُ وَصْفِ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُمْكِنِ ٱلْبَعِيدِ وُقُوعُهُ عَادَةً وَقَلَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَهُمَا . وَغَالِبُ ٱلنَّاسِ عِنْدَهُمُ ٱلْمُبَالَغَةُ وَٱلْإِغْرَاقُ وَٱلْغُلُوُّ نَوْعٌ وَاحِدٌ مَعَ انَّهَا تَخْتَلِفُ كَمَا سَبَقَ . وَكُلٌّ مِنَ ٱلْإِغْرَاقِ وَٱلْغُلُوِّ لَا يُعَدُّ مِنَ ٱلْمَحَاسِنِ اِلَّا اِذَا ٱقْتَرَنَ بِمَا يُقَرِّبُهُ اِلَى ٱلْقَبُولِ (كَقَدْ) لِلِاحْتِمَالِ . (وَلَوْلَا) لِلِامْتِنَاعِ . (وَكَادَ) لِلْمُقَارَبَةِ . وَمَا اشْبَهَ ذٰلِكَ مِنَ انْوَاعِ ٱلتَّقْرِيبِ . وَمَا وَقَعَ شَيْءٌ مِنَ ٱلْإِغْرَاقِ وَٱلْغُلُوِّ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلصَّحِيحِ اِلَّا مَقْرُونًا بِمَا يُخْرِجُهُ مِنْ بَابِ ٱلِاسْتِحَالَةِ وَيُدْخِلُهُ فِي بَابِ ٱلْاِمْكَانِ مِثْلُ : (كَادَ وَلَوْ) وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهُمَا كَقَوْلِهِ : يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يُذْهِبُ ٱلْأَبْصَارَ . اِذْ لَا يَسْتَحِيلُ فِي ٱلْعَقْلِ انَّ ٱلْبَرْقَ يَخْطَفُ ٱلْأَبْصَارَ وَلٰكِنَّهُ يَمْتَنِعُ عَادَةً . وَمَا زَادَ عَلَى وَجْهِ ٱلْإِغْرَاقِ هُنَا جَمَالًا اِلَّا بِتَقْرِيبِهِ (بِكَادَ) . وَٱقْتِرَانُ هٰذِهِ ٱلْجُمْلَةِ بِهَا هُوَ ٱلَّذِي صَرَفَهُ اِلَى ٱلْحَقِيقَةِ فَقُلِبَتْ مِنَ ٱلِامْتِنَاعِ اِلَى ٱلْاِمْكَانِ . وَمِنْ شَوَاهِدِ تَقْرِيبِ نَوْعِ ٱلْإِغْرَاقِ (بِلَوْ) قَوْلُ زُهَيْرٍ :

لَوْ كَانَ يَقْعُدُ فَوْقَ ٱلشَّمْسِ مِنْ كَرَمٍ
قَوْمٌ بِاَوَّلِهِمْ اَوْ مَجْدِهِمْ قَعَدُوا

فَٱقْتِرَانُ هٰذِهِ ٱلْجُمْلَةِ ايْضًا بِٱمْتِنَاعِ قُعُودِ ٱلْقَوْمِ فَوْقَ ٱلشَّمْسِ ٱلْمُسْتَفَادِ (بِلَوْ) هُوَ ٱلَّذِي اظْهَرَ بَهْجَةَ شَمْسِهَا فِي بَابِ ٱلْإِغْرَاقِ

وَرُبَّمَا جَاءَ دُونَ ذٰلِكَ كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ فِي رَجُلٍ طَوِيلِ ٱلْأَنْفِ :

لَكَ انْفٌ يَا ٱبْنَ حَرْبٍ   اَنِفَتْ مِنْهُ ٱلْأُنُوفُ
انْتَ فِي ٱلْبَيْتِ وَعِرْنِينُكَ م   فِي ٱلسُّوقِ يَطُوفُ

وَكَقَوْلِ ٱلطِّرِمَّاحِ يَهْجُو تَمِيمًا :

تَمِيمٌ بِطُرْقِ ٱللُّؤْمِ اَهْدَى مِنَ ٱلْقَطَا   وَلَوْ سَلَكَتْ سُبْلَ ٱلْمَكَارِمِ ضَلَّتِ
وَلَوْ اَنَّ بُرْغُوثًا عَلَى ظَهْرِ نَمْلَةٍ   يَكُرُّ عَلَى صَفَّيْ تَمِيمٍ لَوَلَّتِ
وَلَوْ اَنَّ اُمَّ ٱلْعَنْكَبُوتِ بَنَتْ لَهَا   مَظَلَّتَهَا يَوْمَ ٱلنَّدَى لَاسْتَظَلَّتِ
وَلَوْ جُمِعَتْ يَوْمًا تَمِيمٌ جُمُوعُهَا   عَلَى ذُرْوَةٍ مِنْ خَالَةٍ لَاسْتَقَلَّتِ

اَمَّا (ٱلْغُلُوُّ) فَهُوَ فَوْقَ ٱلْمُبَالَغَةِ وَٱلْاِغْرَاقِ فَاِنَّهُ ٱلْاِفْرَاطُ فِي وَصْفِ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُسْتَحِيلِ وُقُوعُهُ عَقْلًا وَعَادَةً وَهُوَ يَنْقَسِمُ اِلَى قِسْمَيْنِ : مَقْبُولٍ وَغَيْرِ مَقْبُولٍ . فَٱلْمَقْبُولُ لَا بُدَّ اَنْ يُقَرِّبَهُ ٱلنَّاظِمُ اِلَى ٱلْقَبُولِ بِاَدَاةِ ٱلتَّقْرِيبِ ٱللَّهُمَّ اِلَّا اَنْ يَكُونَ ٱلْغُلُوُّ فِي مَدِيحِ نَبِيٍّ فَلَا غُلُوَّ . وَيَجِبُ عَلَى صَاحِبِ ٱلْغُلُوِّ اَنْ يَسْبِكَهُ فِي قَوَالِبِ ٱلتَّخَيُّلَاتِ ٱلْحَسَنَةِ ٱلَّتِي يَدْعُو ٱلْعَقْلُ اِلَى قَبُولِهَا فِي اَوَّلِ وَهْلَةٍ كَقَوْلِهِ : يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ . فَاِنَّ اِضَاءَةَ ٱلزَّيْتِ مِنْ غَيْرِ مَسِّ نَارٍ مُسْتَحِيلَةٌ عَقْلًا وَلٰكِنَّ لَفْظَةَ (يَكَادُ) قَرَّبَتْهُ فَصَارَ مَقْبُولًا . وَمِنْهُ قَوْلُ اَبِي ٱلْعَلَاءِ ٱلْمَعَرِّيِّ :

تَكَادُ قِسِيُّهُ مِنْ غَيْرِ رَامٍ   تُمَكِّنُ فِي قُلُوبِهِمِ ٱلنِّبَالَا
تَكَادُ سُيُوفُهُ مِنْ غَيْرِ سَلٍّ   تَجِدُّ اِلَى رِقَابِهِمِ ٱنْسِلَالَا

وَيُعْجِبُنِي هُنَا قَوْلُ ٱبْنِ حَمْدِيسَ ٱلصِّقِلِّيِّ فِي وَصْفِ فَرَسٍ :

وَيَكَادُ يَخْرُجُ سُرْعَةً مِنْ ظِلِّهِ   لَوْ كَانَ يَرْغَبُ فِي فِرَاقِ رَفِيقِ

وَمِنْهُ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ فِي عَلِيِّ بْنِ ٱلْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ اَبِي طَالِبٍ :

يَكَادُ يُمْسِكُهُ عِرْفَانَ رَاحَتِهِ   رُكْنُ ٱلْحَطِيمِ اِذَا مَا جَاءَ يَسْتَلِمُ

وَمِنَ ٱلْغُلُوِّ ٱلْمَقْبُولِ بِغَيْرِ أَدَاةِ ٱلتَّقْرِيبِ قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي فِي مَمْدُوحِهِ :

عَقَدَتْ سَنَابِكُهَا عَلَيْهِ عِثْيَرًا لَوْ تَبْتَغِي عَنَقًا عَلَيْهِ لَأَمْكَنَا *

وَٱنْعِقَادُ ٱلْغُبَارِ فِي ٱلْهَوَاءِ حَتَّى يُمْكِنَ ٱلْمَشْيُ عَلَيْهِ مُسْتَحِيلٌ عَقْلًا وَعَادَةً إِلَّا إِنَّهُ تَخَيُّلٌ مَقْبُولٌ

وَكَقَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ فِي ٱلْخَلِيفَةِ ٱلْمُتَوَكِّلِ :

وَلَوْ أَنَّ مُشْتَاقًا تَكَلَّفَ غَيْرَ مَا فِي وُسْعِهِ لَسَعَى إِلَيْكَ ٱلْمِنْبَرُ

وَأَمَّا ٱلَّذِي هُوَ غَيْرُ مَقْبُولٍ فَكَقَوْلِ أَبِي نُوَاسٍ فِي ٱلْخَمْرَةِ :

فَلَمَّا شَرِبْنَاهَا وَدَبَّ دَبِيبُهَا إِلَى مَوْضِعِ ٱلْأَسْرَارِ قُلْتُ لَهَا قِفِي

مَخَافَةَ أَنْ يَسْطُو عَلَيَّ شُعَاعُهَا فَيَطَّلِعَ نُدْمَانِي عَلَى سِرِّيَ ٱلْخَفِي

قَالُوا : إِنَّ سَطْوَةَ شُعَاعِ ٱلْخَمْرِ بِحَيْثُ يَصِيرُ جِسْمُهُ شَفَّافًا يُظْهِرُ لِنَدِيمِهِ مَا فِي بَاطِنِهِ لَا يُمْكِنُ عَقْلًا وَلَا عَادَةً . قُلْتُ : وَمَرَاتِبُ ٱلْغُلُوِّ تَتَفَاوَتُ إِلَى أَنْ تَؤُولَ بِقَائِلِهَا إِلَى ٱلْكُفْرِ كَقَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي :

تَتَقَاصَرُ ٱلْأَفْهَامُ عَنْ إِدْرَاكِهِ مِثْلَ ٱلَّذِي ٱلْأَفْلَاكُ فِيهِ وَٱلدُّنَى

وَكَقَوْلِهِ :

كَأَنِّي دَحَوْتُ ٱلْأَرْضَ مِنْ خِبْرَتِي بِهَا كَأَنِّي بَنَى ٱلْإِسْكَنْدَرُ ٱلسَّدَّ مِنْ عَزْمِي

فَهٰذَا ٱلْغُلُوُّ يُؤَدِّي إِلَى سَخَافَةِ ٱلْعَقْلِ مَعَ مَا فِيهِ مِنْ قُبْحِ ٱلتَّرْكِيبِ وَلَوْلَا ٱلْإِطَالَةُ لَأَوْرَدْتُ كَثِيرًا مِنْ نَظْمِ ٱلَّذِينَ يَتَسَاهَلُونَ فِي هٰذَا ٱلنَّوْعِ كَأَبِي

* معنى هذا البيت ان سنابك الخيل وهي اطراف الحوافر عقدت على هذا الممدوح عثيرًا وهو الغبار حتى لو اراد ان يمشي عليه عنقًا لامكن . والعنق هو المشي السريع

نُؤاسٍ وَٱبْنِ هَانِئٍ ٱلأَنْدَلُسِيِّ وَٱلْمُتَنَبِّي وَأَبِي ٱلْعَلَاءِ ٱلْمَعَرِّيِّ وَغَيْرِهِمْ مِنَ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ كَٱبْنِ ٱلنَّبِيهِ وَمَنْ جَرَى مَجْرَاهُ . وَفِي مَا قَدَّمْنَا كِفَايَةٌ

البحث الخامس عشر

في التكرير

(عن المثل السائر لابن الاثير باختصار)

(راجع صفحة ٤٢ من علم الادب)

اِعْلَمْ أَنَّ هٰذَا ٱلنَّوْعَ مِنْ مَقَاتِلِ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ وَهُوَ دَقِيقُ ٱلْمَأْخَذِ وَحَدُّهُ هُوَ دَلَالَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى مُرَدَّدًا . وَهُوَ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : أَحَدُهُمَا يُوجَدُ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى وَٱلْآخَرُ يُوجَدُ فِي ٱلْمَعْنَى دُونَ ٱللَّفْظِ . فَأَمَّا ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى فَكَقَوْلِكَ لِمَنْ تَسْتَدْعِيهِ : أَسْرِعْ أَسْرِعْ . وَأَمَّا ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱلْمَعْنَى دُونَ ٱللَّفْظِ فَكَقَوْلِكَ : أَطِعْنِي وَلَا تَعْصِنِي . فَإِنَّ ٱلْأَمْرَ بِٱلطَّاعَةِ نَهْيٌ عَنِ ٱلْمَعْصِيَةِ . وَكُلٌّ مِنْ هٰذَيْنِ ٱلْقِسْمَيْنِ يَنْقَسِمُ إِلَى مُفِيدٍ وَغَيْرِ مُفِيدٍ . وَمَقْصُودِي مِنَ ٱلْمُفِيدِ أَنْ يَأْتِيَ لِمَعْنًى . وَغَيْرِ ٱلْمُفِيدِ أَنْ يَأْتِيَ لِغَيْرِ مَعْنًى . وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْمُفِيدَ مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ يَأْتِي فِي ٱلْكَلَامِ تَأْكِيدًا وَتَشْدِيدًا مِنْ أَمْرِهِ . وَإِنَّمَا يُفْعَلُ ذٰلِكَ لِلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلْعِنَايَةِ بِٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي كَرَّرْتَ فِيهِ كَلَامَكَ إِمَّا مُبَالَغَةً فِي مَدْحِهِ أَوْ فِي ذَمِّهِ أَوْ غَيْرِ ذٰلِكَ . وَلَا يَأْتِي إِلَّا فِي أَحَدِ طَرَفَيِ ٱلشَّيْءِ ٱلْمَقْصُودِ بِٱلذِّكْرِ . وَٱلْوَسَطُ عَارٌ مِنْهُ لِأَنَّ أَحَدَ ٱلطَّرَفَيْنِ هُوَ ٱلْمَقْصُودُ بِٱلْمُبَالَغَةِ إِمَّا بِمَدْحٍ أَوْ ذَمٍّ أَوْ غَيْرِهِمَا وَٱلْوَسَطُ لَيْسَ مِنْ شَرْطِ ٱلْمُبَالَغَةِ . وَغَيْرُ ٱلْمُفِيدِ لَا يَأْتِي فِي ٱلْكَلَامِ إِلَّا عِيًّا وَخَطَلًا مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَيْهِ

(فَأَمَّا ٱلْأَوَّلُ وَهُوَ ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى) فَإِنَّهُ يَنْقَسِمُ إِلَى ضَرْبَيْنِ : مُفِيدٍ وَغَيْرِ مُفِيدٍ . (فَٱلْأَوَّلُ ٱلْمُفِيدُ) وَهُوَ فَرْعَانِ : (ٱلْأَوَّلُ) إِذَا كَانَ ٱلتَّكْرِيرُ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ وَٱلْمَقْصُودُ بِهِ غَرَضَانِ مُخْتَلِفَانِ . فَمِمَّا يَجْرِي هٰذَا ٱلْمَجْرَى قَوْلُهُ : بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَانِ ٱلرَّحِيمِ ٱلْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ٱلرَّحْمَانِ ٱلرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ . فَكَرَّرَ (ٱلرَّحْمَانَ ٱلرَّحِيمَ) مَرَّتَيْنِ . وَٱلْفَائِدَةُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْأَوَّلَ يَتَعَلَّقُ بِأَمْرِ ٱلدُّنْيَا كَٱلْخَلْقِ وَٱلْعِنَايَةِ . وَٱلثَّانِي يَتَعَلَّقُ بِأَمْرِ ٱلْآخِرَةِ إِشَارَةً لِرَحْمَتِهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ . (ٱلْفَرْعُ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلضَّرْبِ ٱلْأَوَّلِ) إِذَا كَانَ ٱلتَّكْرِيرُ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ وَٱلْمُرَادُ بِهِ غَرَضٌ وَاحِدٌ كَقَوْلِهِ : فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . وَٱلتَّكْرِيرُ دَلَالَةُ ٱلتَّعَجُّبِ مِنْ تَقْرِيرِهِ وَإِصَابَتِهِ ٱلْغَرَضَ . وَهٰذَا كَمَا يُقَالُ : قَتَلَهُ ٱللهُ مَا أَشْجَعَهُ أَوْ مَا أَشْجَعَهُ . وَعَلَيْهِ وَرَدَ قَوْلُ ٱلشَّاعِرِ :

أَلَا يَا ٱسْلَمِي ثُمَّ ٱسْلَمِي ثُمَّتَ ٱسْلَمِي

وَهٰذَا مُبَالَغَةٌ فِي ٱلدُّعَاءِ لَهَا بِٱلسَّلَامَةِ . وَكُلُّ هٰذَا يُجَاءُ بِهِ لِتَقْرِيرِ ٱلْمَعْنَى ٱلْمُرَادِ وَإِثْبَاتِهِ . وَٱعْلَمْ أَنَّ مِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ قِسْمًا يَكُونُ ٱلْمَعْنَى مُضَافًا إِلَى نَفْسِهِ مَعَ ٱخْتِلَافِ ٱللَّفْظِ . وَذٰلِكَ يَأْتِي فِي ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُتَرَادِفَةِ . وَقَدْ وَرَدَ فِي ٱلْقُرْآنِ وَٱسْتُعْمِلَ فِي فَصِيحِ ٱلْكَلَامِ فَمِنْهُ قَوْلُهُ : وَٱلَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٍ . وَٱلرِّجْزُ هُوَ ٱلْعَذَابُ . وَعَلَيْهِ وَرَدَ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ :

نَهُوضٌ بِثِقْلِ ٱلْعِبْءِ مُضْطَلِعٌ بِهِ ... وَإِنْ عَظُمَتْ فِيهِ ٱلْخُطُوبُ وَجَلَّتِ

وَالثِقل هُوَ ٱلعِبۡ وَٱلعِبۡ هُوَ ٱلثِقلُ . وَرُبَّمَا اشكَلَ هٰذَا ٱلمَوضُوعُ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ يَتَعَاطَى هٰذِهِ ٱلصِنَاعَةَ وَظَنُّوهُ مِمَّا لَا فَائِدَةَ فِيهِ . وَلَيسَ كَذٰلِكَ بَل ٱلفَائِدَةُ فِيهِ هِيَ ٱلتَأكِيدُ لِلمَعنَى ٱلمَقصُودِ وَٱلمُبَالَغَةُ فِيهِ . امَّا ٱلمُرَادُ بِقَولِهِ : (عَذَابٌ مِن رِجزٍ) اي عَذَابٌ مُضَاعَفٌ مِن عَذَابٍ . وَامَا بَيتُ ابِي تَمَّامٍ فَانَّهُ تَضَمَّنَ ٱلمُبَالَغَةَ فِي وَصفِ ٱلمَمدُوحِ بِجُملَةِ الِلانفَالِ . وَهٰذَا ٱلمَوضِعُ لَم يُنَبِّه عَلَيهِ احَدٌ سِوَايَ . وَلَرُبَّمَا أُدخِلَ فِي ٱلتَّكرِيرِ مِنْ هٰذَا ٱلنَّوعِ مَا لَيسَ مِنهُ . فَمِنهُ قَولُهُ : ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا ٱلسُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعدِ ذٰلِكَ وَاصلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ . فَلَمَّا تَكَرَّرَ إِنَّ رَبَّكَ مَرَّتَينِ عُلِمَ أَنَّ ذٰلِكَ ادَلُّ عَلَى ٱلمَغفِرَةِ . . . وَهٰذِهِ ٱلأَقوَالُ يُظَنُّ انَّهَا مِنْ بَابِ ٱلتَّكرِيرِ وَلَيسَت كَذٰلِكَ . وَقَد أَنعَمتُ نَظَرِي فِيهَا فَرَأَيتُهَا خَارِجَةً عَنْ حُكمِ ٱلتَّكرِيرِ وَذَاكَ إِنَّهُ إِذَا طَالَ ٱلفَصلُ مِنَ ٱلكَلَامِ وَكَانَ أَوَّلُهُ يَفتَقِرُ إِلَى تَمَامٍ وَلَا يُفهَمُ إِلَّا بِهِ فَٱلأَولَى فِي بَابِ ٱلفَصَاحَةِ أَنْ يُعَادَ ٱللَّفظُ ٱلأَوَّلُ مَرَّةً ثَانِيَةً لِيَكُونَ مُقَارِنًا لِتَمَامِ ٱلفَصلِ كَي لَا يَجِيءَ ٱلكَلَامُ مَنثُورًا لَا سِيَّمَا فِي (إِنَّ وَأَخَوَاتِهَا) . فَإِذَا وَرَدَتْ (إِنَّ) وَكَانَ بَينَ أَسمِهَا وَخَبَرِهَا فُسحَةٌ طَوِيلَةٌ مِنَ ٱلكَلَامِ فَإِعَادَةُ (إِنَّ) أَحسَنُ فِي حُكمِ ٱلبَلَاغَةِ وَٱلفَصَاحَةِ كَمَا تَقَدَّمَ . وَعَلَيهِ وَرَدَ قَولُ بَعضِهِم مِن شُعَرَاءِ ٱلحَمَاسَةِ :

أَابجنًا وَقَيدًا وَٱشتِيَاقًا وَغُربَةً ... وَنَأيَ حَبِيبٍ إِنَّ ذَا لَعَظِيمُ
وَإِنَّ ٱمرَءًا دَامَت مَوَاثِيقُ عَهدِهِ ... عَلَى مِثلِ مَا قَاسَيتُهُ لَكَرِيمُ

فإنّه لمّا طال الكلام بين اسم (إنّ) وخبرها أعيدت (إنّ) مرّةً ثانيةً لأنّ تقدير الكلام : وإنّ امرءًا دامت مواثيق عهده على مثل هذا الكريم . لكن بين الاسم والخبر مدًى طويلٌ فإذا لم تعد (إنّ) مرّةً ثانيةً لم يأت على الكلام بهجة . وهذا لا يتنبّه لاستعماله إلّا الفصحاء إمّا طبعًا وإمّا علمًا . وكذلك يجري الأمر إذا كان خبر (إنّ) عاملًا في معمولٍ يطول ذكره فإنّ إعادة الخبر ثانيةً هو الأحسن . وعلى هذا جاء قوله في سورة يوسف إذ قال يوسف لأبيه : يا أبت إنّي رأيت أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين . فلمّا قال : إنّي رأيت ثمّ طال الفصل كان الأحسن أن يعيد لفظ (الرؤية) فيقول : رأيتهم لي ساجدين .

ومن باب (التكرير في اللفظ والمعنى) الدالّ على معنًى واحدٍ قوله : وقال الذي آمن يا قوم اتّبعوني أهدكم سبيل الرشاد . يا قوم إنّ هذه الدنيا متاعٌ وإنّ الآخرة هي دار القرار . فإنّه إنّما كرّر نداء قومه هاهنا لزيادة التنبيه لهم والإيقاظ عن سنة الغفلة ولأنّهم قومه وعشيرته فيتحزّن لهم ويتلطّف بهم فيستدعي بذلك أن ينزلوا على نصيحته . وهذا في التكرير الذي هو أبلغ من الإيجاز وأشدّ موقعًا من الاختصار . وممّا ورد من هذا النوع شعرًا قول بعض شعراء الحماسة :

إلى معدن العزّ المؤثّل والندى ‏ ‏ ‏ هناك هناك الفضل والخلق الجزل

فقوله : هناك هناك من التكرير الذي هو أبلغ من الإيجاز

لِأَنَّهُ فِي مَعرِضِ مَدحٍ فَهُوَ يُقَرِّرُ فِي نَفسِ ٱلسَّامِعِ مَا عِندَ ٱلمَمدُوحِ مِنْ هٰذِهِ ٱلأَوصَافِ ٱلمَذكُورَةِ مُشِيرًا إِلَيهَا كَأَنَّهُ قَالَ : أَدُلُّكُم عَلَى مَعدِنِ كَذَا وَكَذَا وَمَقَرِّهِ وَمَفَادِهِ . وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَولُ ٱلمُسَاوِرِ ٱبنِ هِندٍ :

جَزَى ٱللّٰهُ عَنِّي غَالِبًا مِنْ عَشِيرَةٍ ... إِذَا حَدَثَانُ ٱلدَّهرِ نَابَتْ نَوَائِبُهْ
فَكَمْ دَفَعُوا مِنْ كُرْبَةٍ قَدْ تَلَاحَمَتْ ... عَلَيَّ وَمَوجٍ قَدْ عَلَتْنِي غَوَارِبُهْ

فَصَدرُ ٱلبَيتِ ٱلثَّانِي وَعَجزُهُ يَدُلَّانِ عَلَى مَعنًى وَاحِدٍ لِأَنَّ تَلَاحُمَ ٱلكُرَبِ عَلَيهِ كَتَعَالِي ٱلمَوجِ مِنْ فَوقِهِ . وَإِنَّمَا نَوَّعَ ذٰلِكَ لِأَنَّهُ مَقَامُ مَدحٍ وَإِطرَاءٍ أَلَا تُرَى أَنَّهُ يَصِفُ إِحسَانَ هٰؤُلَاءِ ٱلقَومِ عِندَ حِدثَانِ دَهرِهِ فِي ٱلتَّكرِيرِ . وَفِي قُبَالَتِهِ لَو كَانَ ٱلقَائِلُ هَاجِيًا فَإِنَّ ٱلهِجَاءَ فِي هٰذَا كَالمَدحِ . (ٱلضَّربُ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلتَّكرِيرِ فِي ٱللَّفظِ وَٱلمَعنَى) وَهُوَ غَيرُ ٱلمُفِيدِ . فَمِنْ ذٰلِكَ قَولُ مَروَانَ ٱلأَصغَرِ :

سَقَى ٱللّٰهُ نَجدًا وَٱلسَّلَامُ عَلَى نَجدِ ... وَيَا حَبَّذَا نَجدٌ عَلَى ٱلقُربِ وَٱلبُعدِ
نَظَرتُ إِلَى نَجدٍ وَبَغدَادُ دُونَهَا ... لَعَلِّي أَرَى نَجدًا وَهَيهَاتَ مِنْ نَجدِ

وَهٰذَا مِنَ ٱلعِيِّ ٱلضَّعِيفِ فَإِنَّهُ كَرَّرَ ذِكرَ نَجدٍ فِي ٱلبَيتِ ٱلأَوَّلِ ثَلَاثًا . وَفِي ٱلبَيتِ ٱلثَّانِي ثَلَاثًا . وَمُرَادُهُ فِي ٱلأَوَّلِ ٱلثَّنَاءُ عَلَى نَجدٍ . وَفِي ٱلثَّانِي أَنَّهُ تَلَفَّتَ إِلَيهِ نَاظِرًا مِنْ بَغدَادَ وَذٰلِكَ مَرمًى بَعِيدٌ . ٱلمَعنَى لَا يَحتَاجُ إِلَى مِثلِ هٰذَا ٱلتَّكرِيرِ . أَمَّا ٱلبَيتُ ٱلأَوَّلُ فَيُحمَلُ عَلَى ٱلجَائِزِ مِنَ ٱلتَّكرِيرِ لِأَنَّهُ مَقَامُ تَشَوُّقٍ وَتَحَرُّقٍ وَمَوجِدَةٍ بِفِرَاقِ نَجدٍ . وَلَمَّا كَانَ كَذٰلِكَ أُجِيزَ فِيهِ ٱلتَّكرِيرُ عَلَى أَنَّهُ قَدْ كَانَ يُمكِنُهُ أَنْ

يُسَوِّغَ هٰذَا ٱلْمَعْنَى ٱلْوَارِدَ فِي ٱلْبَيْتَيْنِ مَعًا مِنْ غَيْرِ انْ يَأْتِيَ بِهٰذَا ٱلتَّكْرِيرِ ٱلْمُتَتَابِعِ سِتَّ مَرَّاتٍ . وَعَلَى هٰذَا ٱلْأُسْلُوبِ وَرَدَ قَوْلُ ابِي نُوَاس :

اَقَمْنَا بِهَا يَوْمًا وَيَوْمًا وَثَالِثًا ... وَيَوْمًا لَهُ يَوْمُ ٱلتَّرَحُّلِ خَامِسُ

وَمُرَادُهُ مِنْ ذٰلِكَ انَّهُمْ اَقَامُوا بِهَا ارْبَعَةَ اَيَّامٍ . وَيَاعَجَبًا لَهُ بِمِثْلِ هٰذَا ٱلْبَيْتِ ٱلسَّخِيفِ ٱلدَّالِّ عَلَى ٱلْعِيِّ ٱلْفَاحِشِ فِي ضِمْنِ ابْيَاتٍ عَجِيبَةِ ٱلْحُسْنِ تَتَقَدَّمُ هٰذَا ٱلْبَيْتَ . وَمِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ ايْضًا قَوْلُ ابِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

وَلَمْ ارَ مِثْلَ جِيرَانِي وَمِثْلِي ... لِمِثْلِي عِنْدَ مِثْلِهِمِ مُقَامُ

فَهٰذَا هُوَ ٱلتَّكْرِيرُ ٱلْفَاحِشُ ٱلَّذِي يُؤَثِّرُ فِي ٱلْكَلَامِ نَقْصًا . اَلَا تَرَى انَّهُ يَقُولُ : لَمْ ارَ مِثْلَ جِيرَانِي فِي سُوءِ ٱلْجِوَارِ وَلَا مِثْلِي فِي مُصَابَرَتِهِمْ وَمُقَامِي عِنْدَهُمْ . اِلَّا انَّهُ قَدْ كَرَّرَ هٰذَا ٱلْمَعْنَى فِي ٱلْبَيْتِ مَرَّتَيْنِ . وَعَلَى نَحْوٍ مِنْ ذٰلِكَ جَاءَ قَوْلُهُ :

وَقَلْقَلْتُ بِٱلْهَمِّ ٱلَّذِي قَلْقَلَ ٱلْحَشَى ... قَلَاقِلَ عِيسٍ كُلُّهُنَّ قَلَاقِلُ

(وَامَّا ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ وَهُوَ ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱلْمَعْنَى دُونَ ٱللَّفْظِ) فَذٰلِكَ ضَرْبَانِ : مُفِيدٌ وَغَيْرُ مُفِيدٍ . (اَلضَّرْبُ ٱلْاَوَّلُ) ٱلْمُفِيدُ وَهُوَ فَرْعَانِ : (اَلْاَوَّلُ) إِذَا كَانَ ٱلتَّكْرِيرُ فِي ٱلْمَعْنَى يَدُلُّ عَلَى مَعْنَيَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ وَهُوَ مَوْضِعٌ مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ مُشْكِلٌ لِاَنَّهُ يَسْبِقُ اِلَى ٱلْوَهْمِ انَّهُ تَكْرِيرٌ يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ وَهُوَ لَيْسَ كَذٰلِكَ . . . بَلْ يُقْصَدُ بِهِ ٱلتَّأْكِيدُ وَٱلتَّقْرِيرُ وَٱلتَّنَصُّلُ عَمَّا يُرْمَى بِهِ ٱلْمُتَكَلِّمُ . وَمِمَّا

يَنْتَظِمُ بِهٰذَا ٱلسِّلْكِ أَنْ يَكُونَ ٱلتَّكْرِيرُ فِي ٱلْمَعْنَى يَدُلُّ عَلَى مَعْنَيَيْنِ أَحَدُهُمَا خَاصٌّ وَٱلْآخَرُ عَامٌّ كَقَوْلِهِ : وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱللّٰهِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ . فَإِنَّ ٱلْأَمْرَ بِٱلْمَعْرُوفِ دَاخِلٌ تَحْتَ ٱلدُّعَاءِ إِلَى ٱلْخَيْرِ . لِأَنَّ ٱلْأَمْرَ بِٱلْمَعْرُوفِ خَاصٌّ وَٱلْخَيْرَ عَامٌّ فَكُلُّ أَمْرٍ بِٱلْمَعْرُوفِ خَيْرٌ وَلَيْسَ كُلُّ خَيْرٍ أَمْرًا بِٱلْمَعْرُوفِ . وَذَاكَ أَنَّ ٱلْخَيْرَ أَنْوَاعٌ كَثِيرَةٌ مِنْ جُمْلَتِهَا ٱلْأَمْرُ بِٱلْمَعْرُوفِ . فَفَائِدَةُ ٱلتَّكْرِيرِ هٰهُنَا أَنَّهُ ذَكَرَ ٱلْخَاصَّ بَعْدَ ٱلْعَامِّ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى فَضْلِهِ . وَكَقَوْلِهِ : حَافِظُوا عَلَى ٱلصَّلَوَاتِ وَٱلصَّلَاةِ ٱلْوُسْطَى . وَكَقَوْلِهِ : فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ . وَكَقَوْلِهِ : إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا . فَإِنَّ ٱلْجِبَالَ دَاخِلَةٌ فِي جُمْلَةِ ٱلْأَرْضِ . لٰكِنَّ لَفْظَ ٱلْأَرْضِ عَامٌّ وَٱلْجِبَالِ خَاصٌّ . وَفَائِدَتُهُ هٰهُنَا تَعْظِيمُ شَأْنِ ٱلْأَمَانَةِ ٱلْمُشَارِ إِلَيْهَا وَتَفْخِيمُ أَمْرِهَا . . . وَهُوَ مَوْضِعٌ يَرِدُ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْبَلِيغِ وَيُظَنُّ أَنْ لَا فَائِدَةَ فِيهِ . (ٱلْفَرْعُ ٱلثَّانِي) إِذَا كَانَ ٱلتَّكْرِيرُ فِي ٱلْمَعْنَى يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ لَا غَيْرُ . وَقَدْ سَبَقَ مِثَالُ ذٰلِكَ فِي أَوَّلِ هٰذَا ٱلْبَابِ كَقَوْلِكَ : أَطِعْنِي وَلَا تَعْصِنِي . فَإِنَّ ٱلْأَمْرَ بِٱلطَّاعَةِ نَهْيٌ عَنِ ٱلْمَعْصِيَةِ وَٱلْفَائِدَةُ فِي ذٰلِكَ تَثْبِيتُ ٱلطَّاعَةِ فِي نَفْسِ ٱلْمُخَاطَبِ . وَٱلْكَلَامُ فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ كَٱلْكَلَامِ فِي ٱلْمَوْضِعِ ٱلَّذِي قَبْلَهُ مِنْ تَكْرِيرِ ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى إِذَا كَانَ ٱلْغَرَضُ بِهِ شَيْئًا وَاحِدًا . وَلَا تَجِدُ شَيْئًا مِنْ ذٰلِكَ يَأْتِي فِي ٱلْكَلَامِ إِلَّا لِتَأْكِيدِ ٱلْغَرَضِ ٱلْمَقْصُودِ بِهِ كَقَوْلِهِ : إِنَّ مِنْ أَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ ٱللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . فَإِنَّهُ إِنَّمَا كَرَّرَ

ٱلعفوَ وَٱلصَّفحَ وَٱلمغفرَةَ وَٱلجميعُ بمعنًى وَاحِدٍ للزِيَادَةِ فِي تحسِينِ عفوِ ٱلوَالِدِ عَنْ وَلَدِهِ . وَهٰذا وَامثالُهُ يُنظرُ فِي ٱلغرضِ ٱلمقصودِ بِهِ . وَهُوَ مَوضِعٌ يَكونُ ٱلتَّكرِيرُ فِيهِ أوجزُ مِنْ لمحةِ ٱلايجازِ وَاولى بِٱلاستِعمالِ . وَمِمَّا وَرَدَ مِنهُ شِعرًا قولُ بعضِهِمْ فِي أبياتِ ٱلحماسةِ :

نَزَلتُ عَلَى آلِ ٱلمهلَّبِ شَاتِيًا ... بَعِيدًا عَنِ ٱلأوطانِ فِي زَمَنِ ٱلمحلِ

فمَا زالَ بِي إكرامُهُمْ وَٱفتِقادُهُمْ ... وَإحسانُهُمْ حَتَّى حَسِبْتُهُمُ أهلِي

فَإنَّ ٱلإكرامَ وَٱلافتِقادَ دَاخِلانِ تحتَ ٱلاحسانِ وَإنَّمَا كرَّرَ ذٰلِكَ لِلتَّنوِيهِ بِذِكرِ ٱلصَّنِيعِ وَٱلايجابِ لِحَقِّهِ . (ٱلضَّربُ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلقِسمِ ٱلثَّانِي) فِي تكرِيرِ ٱلمعنَى دُونَ ٱللَّفظِ وَهُوَ غيرُ ٱلمفِيدِ فَمِنْ ذٰلِكَ قولُ أبي تمَّام :

قَسَمَ ٱلزَّمانُ رُبُوعَهَا بَيْنَ ٱلصَّبا ... وَقَبُولِهَا وَدَبُورِهَا أثلاثَا

فَإنَّ رِيحَ ٱلصَّبا هِيَ رِيحُ ٱلقبولِ يَشتَمِلُ عَلَى مَعنًى وَاحِدٍ لَا غيرُ . وَهٰذا ٱلضَّربُ مِنَ ٱلتَّكرِيرِ قَدْ خبطَ فِيهِ عُلَمَاءُ ٱلبيانِ خبطًا كثيرًا وَٱلاكثرُ مِنهُمْ اجازهُ . فقالُوا : إذا كانَتِ ٱلالفاظُ مُتغايِرةً وَٱلمعنَى ٱلمعبَّرُ عَنهُ وَاحِدًا فليسَ ٱستعمالُ ذٰلِكَ بمعيبٍ . وَهٰذا ٱلقولُ فِيهِ نظرٌ وَٱلَّذِي عِندِي فِيهِ أنَّ ٱلنَّاثِرَ يُعابُ عَلَى ٱستعمالِهِ مُطلَقًا إذا أتَى لِغَيرِ فَائِدَةٍ . وَأمَّا ٱلنَّاظِمُ فَإنَّهُ يُعابُ عَلَيهِ فِي مَوضِعٍ دُونَ مَوضِعٍ . أمَّا ٱلمَوضِعُ ٱلَّذِي يُعابُ ٱستعمالُهُ فِيهِ فهُوَ صُدُورُ ٱلأبياتِ ٱلشِّعرِيَّةِ وَمَا وَالاهَا . وَأمَّا ٱلموضِعُ ٱلَّذِي لَا يُعابُ ٱستعمالُهُ فِيهِ فهُوَ ٱلأعجازُ مِنَ ٱلأبياتِ لِمكانِ ٱلقافِيَةِ . وَإنَّمَا جازَ ذٰلِكَ وَلَمْ يَكُنْ عيبًا لِأنَّهُ قافِيَةٌ

وَٱلشَّاعِرُ مُضْطَرٌّ إِلَيْهَا وَٱلْمُضْطَرُّ يَحِلُّ لَهُ مَا حُرِّمَ عَلَيْهِ كَقَوْلِ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ فِي قَصِيدَتِهِ ٱللَّامِيَّةِ ٱلَّتِي مَطْلَعُهَا :

أَلَا ٱنْعِمْ صَبَاحًا أَيُّهَا ٱلطَّلَلُ ٱلْبَالِي

فَقَالَ :

وَهَلْ يَنْعَمَنْ إِلَّا سَعِيدٌ مُخَلَّدٌ　　قَلِيلُ ٱلْهُمُومِ لَا يَبِيتُ بِأَوْجَالِ

وَإِذَا كَانَ قَلِيلَ ٱلْهُمُومِ فَإِنَّهُ لَا يَبِيتُ بِأَوْجَالٍ . وَهٰذَا تَكْرِيرٌ لِلْمَعْنَى إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ بِمَعِيبٍ لِأَنَّهُ قَافِيَةٌ . وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَوْلُ ٱلْحُطَيْئَةِ :

قَالَتْ إِمَامَةُ لَا تَجْزَعْ فَقُلْتُ لَهَا　　إِنَّ ٱلْعَزَاءَ وَإِنَّ ٱلصَّبْرَ قَدْ غُلِبَا

هَلَّا ٱلْتَمَسْتِ لَنَا إِنْ كُنْتِ صَادِقَةً　　مَالًا نَعِيشُ بِهِ فِي ٱلنَّاسِ أَوْ نَشَبَا

فَٱلْبَيْتُ ٱلْأَوَّلُ مَعِيبٌ لِأَنَّهُ كَرَّرَ ٱلْعَزَاءَ وَٱلصَّبْرَ إِذْ مَعْنَاهُمَا وَاحِدٌ وَلَمْ يَرِدَا قَافِيَةً لِأَنَّ ٱلْقَافِيَةَ هِيَ ٱلْبَاءُ . وَأَمَّا ٱلْبَيْتُ ٱلثَّانِي فَلَيْسَ بِمَعِيبٍ لِأَنَّ ٱلتَّكْرِيرَ جَاءَ فِي ٱلنَّشَبِ وَهُوَ قَافِيَةٌ

البحث السادس عشر

في حقيقة التشبيه وتحديده

(عن خزانة الادب للحموي وعن كتاب الصناعتين)

(راجع صفحة ٤٨ من علم الادب)

إِعْلَمْ أَنَّ أَصْحَابَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ أَطْلَقُوا أَعِنَّةَ ٱلْكَلَامِ فِي مَيَادِينِ حُدُودِ ٱلتَّشْبِيهِ وَتَقَادِيرِهَا وَهُوَ عِنْدَهُمُ ٱلدَّلَالَةُ عَلَى مُشَارَكَةِ أَمْرٍ لِأَمْرٍ فِي مَعْنًى . وَقَالَ ٱلرُّمَّانِيُّ : ٱلتَّشْبِيهُ هُوَ ٱلْعَقْدُ عَلَى أَحَدِ ٱلشَّيْئَيْنِ

يسدُّ احدهما مسدَّ الآخرِ في حالٍ. وهذا هو التشبيهُ العامُّ الذي يدخل تحتهُ التشبيهُ البليغ وغيرهُ . والتشبيهُ البليغ هو اخراجُ الاغمض الى الاوضح مع حسنِ التأليف . ومنهم من قال : التشبيهُ هو الدلالةُ على اشتراك شيئين في وصفٍ هو من اوصاف الشيء الواحد . وقال ابنُ رشيق في العمدة : التشبيهُ صفةُ الشيء بما قاربهُ وشاكلهُ من جهةٍ واحدةٍ لانهُ لو ناسبهُ مناسبةً كليةً كان اياهُ . الا ترى الى قولهم : خدٌّ كالوردِ انما مرادهم احمرارُ اوراقهِ وطراوتها لا ما سوى ذلك من صفرةِ وسطهِ وخضرةِ كمائمهِ (اه) . وقيل : التشبيهُ الحاقُ ادنى الشيئين باعلاهما في صفةٍ اشتركا في اصلها واختلفا في كيفيتها قوةً وضعفًا . قلتُ : وهذا حدٌّ مفيدٌ . واوردَ ابنُ ابي الاصبع في كتابهِ تحرير التحبير حدًّا زاد في حسنهِ على الحدِّ وهو : انَّ التشبيه تشبيهان (الاول) منهما تشبيهُ شيئين متفقين بانفسهما كتشبيهِ الجوهر بالجوهر مثل قولك : ماء النيل كماء الفراتِ . وتشبيهِ العرَض بالعرض كقولك : حمرةُ الخدِّ كحمرةِ الوردِ . وتشبيهِ الجسم بالجسم كقولك : الزبرجدُ مثلُ الزمردِ . (والثاني) تشبيهُ شيئين مختلفين بالذات يجمعهما معنًى واحدٌ مشتركٌ . كقولك : حاتمٌ كالغمام وعنترةُ كالضرغام . وتشبيهُ الاتفاق وهو الاول تشبيهٌ حقيقيٌّ . وتشبيهُ الاختلاف وهو الثاني تشبيهٌ مجازيٌّ والمرادُ المبالغةُ . والتشبيهُ ركنٌ من اركان البلاغةِ لاخراجهِ الخفيَّ الى الجليِّ وادنائهِ البعيدَ من القريبِ . وهو حكمٌ اضافيٌّ لا يوجدُ الا بين الشيئين بخلاف الاستعارةِ وليس الحكمُ

أَنَّهُ إِذَا صَحَّتِ ٱلِاسْتِعَارَةُ حَسُنَ ٱلتَّصْرِيحُ بِٱلتَّشْبِيهِ فَإِنَّ ٱلْمُشَابَهَةَ إِذَا قُرِنَتْ بَيْنَ ٱلشَّيْئَيْنِ بِٱلِاسْتِعَارَةِ قَبُحَ ٱلتَّصْرِيحُ بِٱلتَّشْبِيهِ . فَلَا تَقُولُ: كَأَنَّكَ أَوْقَعْتَنِي فِي ظُلْمَةٍ إِذَا أَوْقَعَكَ فِي شُبْهَةٍ . وَفَهِمْتُ ٱلْمَسْأَلَةَ فَكَأَنَّهُ ٱنْشَرَحَ صَدْرِي أَوْ كَأَنَّ نُورًا حَصَلَ فِي قَلْبِي . لِتَمَكُّنِ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ حَتَّى كَأَنَّهَا صَارَتْ حَقِيقِيَّةً

البحث السابع عشر

في اركان التشبيه ومحاسنه وفوائده

(من المثل السائر لابن الاثير بتصرّف)

(راجع صفحة ٤٩ من علم الادب)

وَٱعْلَمْ أَنَّ لِلتَّشْبِيهِ أَدَوَاتٍ كَنَحْوِ وَكَأَنَّ وَشِبْهٍ وَمِثْلٍ . فَرُبَّمَا ظَهَرَتْ وَرُبَّمَا أُضْمِرَتْ . (وَمِنَ ٱلْمُظْهَرِ ٱلْأَدَاةُ) مَا قِيلَ فِي وَصْفِ حَالِ ٱلْمُنَافِقِينَ : مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ ٱللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ . وَكَقَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

خُلُقٌ مِنْهُمُ تَرَدَّدَ فِيهِمْ ... وَلِيَتْهُ عِصَابَةٌ عَنْ عِصَابَهْ
كَٱلْحُسَامِ ٱلْجُرَازِ يَبْقَى عَلَى ٱلدَّهْـ ... ـرِ وَيُفْنِي فِي كُلِّ حِينٍ قِرَابَهْ

وَمِنَ ٱللَّطِيفِ ٱلْبَدِيعِ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُ ٱلْعَبَّاسِ بْنِ ٱلْأَحْنَفِ :

لَا جَزَى ٱللهُ دَمْعَ عَيْنِي خَيْرًا ... وَجَزَى ٱللهُ كُلَّ خَيْرٍ لِسَانِي
نَمَّ دَمْعِي فَلَيْسَ يَكْتُمُ شَيْئًا ... وَوَجَدْتُ ٱللِّسَانَ ذَا كِتْمَانِ
كُنْتُ مِثْلَ ٱلْكِتَابِ أَخْفَاهُ طَيٌّ ... فَٱسْتَدَلُّوا عَلَيْهِ بِٱلْعُنْوَانِ

(وَمِنَ ٱلْمُضمَرِ ٱلْأَدَاةِ) قَوْلُهُ : وَجَعَلْنَا ٱللَّيْلَ لِبَاسًا . فَشَبَّهَ ٱللَّيْلَ بِٱللِّبَاسِ . وَذَاكَ أَنَّهُ يَسْتُرُ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُمْ عَنْ بَعْضٍ لِمَنْ أَرَادَ هَرَبًا مِنْ عَدُوٍّ أَوْ ثَبَاتًا لِعَدُوٍّ أَوْ إِخْفَاءَ لِمَا لَا يُحِبُّ ٱلْإِطِّلَاعَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِهِ وَقَدْ وَرَدَ فِي ٱلْأَمْثَالِ مِثْلُهُ : أَللَّيْلُ جُنَّةُ ٱلْهَارِبِ . وَمِمَّا وَرَدَ شِعْرًا قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

وَإِذَا ٱهْتَزَّ لِلنَّدَى كَانَ بَحْرًا ۞ وَإِذَا ٱهْتَزَّ لِلْوَغَى كَانَ نَصْلَا
وَإِذَا ٱلْأَرْضُ أَظْلَمَتْ كَانَ شَمْسًا ۞ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ أَمْحَلَتْ كَانَ وَبْلَا

وَكُلُّ ذٰلِكَ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْمُضْمَرِ ٱلْأَدَاةِ . وَإِنَّ هٰذَا ٱلتَّشْبِيهَ أَبْلَغُ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْمُظْهَرِ ٱلْأَدَاةِ وَأَوْجَزُ . أَمَّا كَوْنُهُ أَبْلَغَ فَلِجَعْلِ ٱلْمُشَبَّهِ مُشَبَّهًا بِهِ مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةِ أَدَاةٍ فَيَكُونُ هُوَ إِيَّاهُ . فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ : زَيْدٌ أَسَدٌ . كُنْتَ قَدْ جَعَلْتَهُ أَسَدًا مِنْ غَيْرِ إِظْهَارِ أَدَاةِ ٱلتَّشْبِيهِ . وَأَمَّا كَوْنُهُ أَوْجَزَ فَلِحَذْفِ أَدَاةِ ٱلتَّشْبِيهِ مِنْهُ . وَعَلَى هٰذَا فَإِنَّ ٱلْقِسْمَيْنِ مِنَ ٱلْمُظْهَرِ وَٱلْمُضْمَرِ كِلَيْهِمَا فِي فَضِيلَةِ ٱلْبَيَانِ سَوَاءٌ فَإِنَّ ٱلْغَرَضَ ٱلْمَقْصُودَ مِنْ قَوْلِنَا : زَيْدٌ أَسَدٌ . أَنْ يَتَبَيَّنَ حَالُ زَيْدٍ فِي ٱتِّصَافِهِ بِشَهَامَةِ ٱلنَّفْسِ وَقُوَّةِ ٱلْبَطْشِ وَجَرَاءَةِ ٱلْإِقْدَامِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يَجْرِي مَجْرَاهُ . إِلَّا أَنَّا لَمْ نَجِدْ شَيْئًا نَدُلُّ بِهِ عَلَيْهِ سِوَى أَنْ جَعَلْنَاهُ شَبِيهًا بِٱلْأَسَدِ حَيْثُ كَانَتْ هٰذِهِ ٱلصِّفَاتُ مُخْتَصَّةً بِهِ . فَصَارَ مَا قَصَدْنَاهُ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ أَكْشَفَ وَأَبْيَنَ مِنْ أَنْ لَوْ قُلْنَا : زَيْدٌ شَهْمٌ شُجَاعٌ قَوِيُّ ٱلْبَطْشِ جَرِيءُ ٱلْجَنَانِ وَأَشْبَاهُ ذٰلِكَ . لِمَا قَدْ عُرِفَ وَعُهِدَ مِنِ ٱجْتِمَاعِ هٰذِهِ ٱلصِّفَاتِ فِي ٱلْمُشَبَّهِ بِهِ أَعْنِي ٱلْأَسَدَ . وَأَمَّا زَيْدٌ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْمُشَبَّهُ فَلَيْسَ مَعْرُوفًا بِهَا

وَإِنْ كَانَتْ مَوْجُودَةً فِيهِ. وَكِلَا هٰذَيْنِ ٱلْقِسْمَيْنِ أَيضًا يَخْتَصُّ بِفَضِيلَةِ ٱلْإِيجَازِ وَإِنْ كَانَ ٱلْمُضْمَرُ أَوْجَزَ مِنَ ٱلْمُظْهَرِ لِأَنَّ قَوْلَنَا: زَيْدٌ أَسَدٌ أَوْ كَالْأَسَدِ. يَسُدُّ مَسَدَّ قَوْلِنَا: زَيْدٌ مِنْ حَالِهِ كَيْتَ وَكَيْتَ. وَهُوَ مِنَ ٱلشَّجَاعَةِ وَٱلشِّدَّةِ عَلَى كَذَا وَكَذَا مِمَّا يَطُولُ ذِكْرُهُ. فَٱلتَّشْبِيهُ إِذًا يَجْمَعُ صِفَاتٍ ثَلَاثَةً هِيَ: ٱلْمُبَالَغَةُ. وَٱلْبَيَانُ. وَٱلْإِيجَازُ كَمَا أَرَيْتُكَ. إِلَّا أَنَّهُ نَوْعٌ مِنْ بَيْنِ أَنْوَاعِ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ مُسْتَوْعَرُ ٱلْمَذْهَبِ وَهُوَ مَقْتَلٌ مِنْ مَقَاتِلِ ٱلْبَلَاغَةِ. وَسَبَبُ ذٰلِكَ أَنَّ حَمْلَ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُمَاثَلَةِ إِمَّا صُورَةً وَإِمَّا مَعْنًى يَعِزُّ صَوَابُهُ وَتَعْسُرُ ٱلْإِجَادَةُ فِيهِ. وَقَلَّمَا أَكْثَرَ مِنْهُ أَحَدٌ إِلَّا عَثَرَ كَمَا فَعَلَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ مِنْ أُدَبَاءِ ٱلْعِرَاقِ وَٱبْنُ وَكِيعٍ مِنْ أُدَبَاءِ مِصْرَ. فَإِنَّهُمَا أَكْثَرَا مِنْ ذٰلِكَ لَاسِيَّمَا فِي وَصْفِ ٱلرِّيَاضِ وَٱلْأَشْجَارِ وَٱلْأَزْهَارِ وَٱلثِّمَارِ. لَاجَرَمَ أَنَّهُمَا أَتَيَا بِٱلْغَثِّ ٱلْبَارِدِ ٱلَّذِي لَا يَثْبُتُ عَلَى مِحَكِّ ٱلصَّوَابِ فَعَلَيْكَ أَنْ تَتَوَقَّى مَا أَشَرْتُ إِلَيْهِ. وَأَمَّا فَائِدَةُ ٱلتَّشْبِيهِ مِنَ ٱلْكَلَامِ فَهِيَ: أَنَّكَ إِذَا أَمْثَلْتَ ٱلشَّيْءَ بِٱلشَّيْءِ فَإِنَّمَا تَقْصِدُ فِيهِ إِثْبَاتَ ٱلْخَيَالِ فِي ٱلنَّفْسِ بِصُورَةِ ٱلْمُشَبَّهِ بِهِ أَوْ بِمَعْنَاهُ وَذٰلِكَ أَوْكَدُ فِي طَرَفَيِ ٱلتَّرْغِيبِ فِيهِ أَوِ ٱلتَّنْفِيرِ عَنْهُ. أَلَا تَرَى أَنَّكَ إِذَا أَشْبَهْتَ صُورَةً بِصُورَةٍ هِيَ أَحْسَنُ مِنْهَا كَانَ ذٰلِكَ مُثْبِتًا فِي ٱلنَّفْسِ خَيَالًا حَسَنًا يَدْعُو إِلَى ٱلتَّرْغِيبِ فِيهَا. وَكَذٰلِكَ إِذَا أَشْبَهْتَهَا بِصُورَةِ شَيْءٍ أَقْبَحَ مِنْهَا كَانَ ذٰلِكَ مُثْبِتًا فِي ٱلنَّفْسِ خَيَالًا قَبِيحًا يَدْعُو إِلَى ٱلتَّنْفِيرِ عَنْهَا وَهٰذَا لَا نِزَاعَ فِيهِ. وَلْنَضْرِبْ لَهُ مِثَالًا يُوضِحُهُ فَنَقُولُ: قَدْ وَرَدَ عَنِ ٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ فِي مَدْحِ ٱلْعَسَلِ وَذَمِّهِ بَيْتٌ مِنَ ٱلشِّعْرِ وَهُوَ:

تقولُ هذا مُجاجُ ٱلنَّحلِ تمدحُهُ وَإِنْ تَعِبْ قُلتَ ذا قيءُ ٱلزَّنابيرِ

ألا ترى كيفَ مدحَ وذمَّ ٱلشَّيءَ ٱلواحِدَ بتصريفِ ٱلتَّشبيهِ ٱلمجازيِّ ٱلمُضمرِ ٱلأداةِ ٱلَّذي خيَّلَ بهِ إلى ٱلسَّامعِ خيالًا يُحسِّنُ ٱلشَّيءَ عِندَهُ تارةً ويُقبِّحُهُ أُخرى . ولَوْلا ٱلتَّوصُّلُ بطريقِ ٱلتَّشبيهِ على هذا ٱلوَجهِ لَما أمكنَهُ ذلكَ . وهذا ٱلمِثالُ كافٍ فيما أردناهُ . وٱعلَمْ أنَّ مِن محاسنِ ٱلتَّشبيهِ أنْ يجيءَ مَصدريًّا كقولِنا : أقدمَ إقدامَ ٱلأسدِ وفاضَ فيضَ ٱلبحرِ . وهوَ أحسنُ ما ٱستُعمِلَ في بابِ ٱلتَّشبيهِ . كقولِ أبي نُوَّاسٍ في وصفِ ٱلخمرِ :

وإذا ما مزجوها وثبَتْ وثبَ ٱلجرادْ
وإذا ما شربوها أخذَتْ أخذَ ٱلرُّقادْ

وقيلَ : إنَّ مِن شرطِ بلاغةِ ٱلتَّشبيهِ أنْ يُشبَّهَ ٱلشَّيءُ بما هوَ أكبرُ مِنهُ وأعظمُ . وٱلقولُ ٱلسَّديدُ في ذلكَ هوَ ما أذكُرُهُ : وهوَ أنَّ إطلاقَ مَن أطلقَ قولَهُ في أنَّ مِن شروطِ بلاغةِ ٱلتَّشبيهِ أنْ يُشبَّهَ ٱلأصغرُ بٱلأكبرِ قولٌ غيرُ حاصرٍ للغرضِ ٱلمقصودِ . لأنَّ ٱلتَّشبيهَ يأتي تارةً في معرضِ ٱلمدحِ وتارةً في معرضِ ٱلذَّمِّ . وتارةً في غيرِ معرضِ مدحٍ ولا ذمٍّ . وإنَّما يأتي قصدًا للإبانةِ وٱلإيضاحِ . ولا يكونُ تشبيهُ أصغرَ بأكبرَ كما ذهبَ إليهِ مَن ذهبَ . بلِ ٱلقولُ ٱلجامعُ في ذلكَ أنْ يُقالَ : إنَّ ٱلتَّشبيهَ لا يُعمَدُ إليهِ إلَّا لِضربٍ مِنَ ٱلمبالغةِ فإمَّا أنْ يكونَ مدحًا أو ذمًّا أو بيانًا أو إيضاحًا ولا يخرجُ عن هذهِ ٱلمعاني ٱلثَّلاثةِ . وإذا كانَ ٱلأمرُ

كَذٰلِكَ فَلَا بُدَّ فِيهِ مِنْ تَقْدِيرِ لَفظَةِ أَفعَلَ (يُرِيدُ أَفعَلَ ٱلتَّفضِيلِ) . فَإِنْ لَمْ تُقَدَّرْ فِيهِ لَفظَةُ (أَفعَلَ) فَلَيسَ بِتَشْبِيهٍ بَلِيغٍ . أَلَا تَرَى أَنَّا نَقُولُ فِي ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْمُضمَرِ ٱلأَدَاةِ : زَيْدٌ أَسَدٌ . فَقَدْ شَبَّهْنَا زَيْدًا بِٱلأَسَدِ ٱلَّذِي هُوَ أَشْجَعُ مِنْهُ . فَإِنْ لَمْ يَكُنِ ٱلْمُشَبَّهُ بِهِ فِي هٰذَا ٱلْمَقَامِ أَشْجَعَ مِنْ زَيْدٍ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْمُشَبَّهُ وَإِلَّا كَانَ ٱلتَّشْبِيهُ نَاقِصًا إِذْ لَا مُبَالَغَةَ فِيهِ . وَكَذٰلِكَ فِي ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْمُظْهَرِ ٱلأَدَاةِ كَقَوْلِهِ : وَلَهُ ٱلْجَوَارِي ٱلْمُنْشَآتُ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلأَعْلَامِ . وَهٰذَا تَشْبِيهُ كَبِيرٍ بِمَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ . لِأَنَّ خَلْقَ ٱلسُّفُنِ ٱلْبَحْرِيَّةِ كَبِيرٌ وَخَلْقَ ٱلْجِبَالِ أَكْبَرُ مِنْهُ . وَمِثْلُهُ : إِذَا شُبِّهَ شَيْءٌ حَسَنٌ بِشَيْءٍ حَسَنٍ فَإِنَّهُ إِذَا لَمْ يُشَبَّهْ بِمَا هُوَ أَحْسَنُ مِنْهُ فَلَيْسَ هُوَ بِوَارِدٍ عَلَى طَرِيقِ ٱلْبَلَاغَةِ . وَهٰكَذَا : إِنْ شُبِّهَ قَبِيحٌ بِقَبِيحٍ فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ ٱلْمُشَبَّهُ بِهِ أَقْبَحَ وَإِنْ قُصِدَ ٱلْبَيَانُ وَٱلإِيضَاحُ فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ ٱلْمُشَبَّهُ بِهِ أَبْيَنَ وَأَوْضَحَ . فَتَقْدِيرُ لَفظَةِ (أَفْعَلَ) لَا بُدَّ مِنْهُ فِيمَا يُقْصَدُ بِهِ بَلَاغَةُ ٱلتَّشْبِيهِ وَإِلَّا كَانَ ٱلتَّشْبِيهُ نَاقِصًا فَٱعْلَمْ ذٰلِكَ وَقِسْ عَلَيْهِ

البحث الثامن العاشر

في اقسام التشبيه

(عن صناعة الترسّل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

(راجع صفحة ٤٩ من علم الادب)

(اَلتَّشْبِيهُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ) : اَلأَوَّلُ تَشْبِيهُ مَحْسُوسٍ بِمَحْسُوسٍ لِٱشْتِرَاكِهِمَا إِمَّا فِي ٱلْمَحْسُوسَاتِ ٱلأُولَى وَهِيَ مُدْرَكَاتُ ٱلسَّمْعِ

وَٱلْبَصَرِ وَٱلذَّوْقِ وَٱلشَّمِّ وَٱللَّمْسِ . كَتَشْبِيهِ ٱلْخَدِّ بِٱلْوَرْدِ . وَٱلْوَجْهِ بِٱلنَّهَارِ . وَٱلْفَوَاكِهِ ٱلْحُلْوَةِ بِٱلسُّكَّرِ وَٱلْعَسَلِ . وَرَائِحَةِ بَعْضِ ٱلرَّيَاحِينِ بِٱلْكَافُورِ وَٱلْمِسْكِ . وَٱللَّيِّنِ ٱلنَّاعِمِ بِٱلْخَزِّ . وَٱلْخَشِنِ بِٱلْمِسْحِ . أَوْ فِي ٱلْمَحْسُوسَاتِ ٱلثَّانِيَةِ وَهِيَ: ٱلْأَشْكَالُ ٱلْمُسْتَقِيمَةُ وَٱلْمُسْتَدِيرَةُ وَٱلْمَقَادِيرُ وَٱلْحَرَكَاتُ كَتَشْبِيهِ ٱلْمُسْتَوِي ٱلْمُنْتَصِبِ بِٱلرُّمْحِ . وَٱلْقَدِّ ٱللَّطِيفِ بِٱلْغُصْنِ . وَٱلشَّيْءِ ٱلْمُسْتَدِيرِ بِٱلْكُرَةِ وَٱلْحَلْقَةِ . وَعِظَمِ ٱلْجُثَّةِ بِٱلْجَبَلِ . وَٱلذَّاهِبِ عَلَى ٱلِٱسْتِقَامَةِ بِنُفُوذِ ٱلسَّهْمِ . أَوْ فِي ٱلْكَيْفِيَّاتِ ٱلْجُثْمَانِيَّةِ كَٱلصَّلَابَةِ وَٱلرَّخَاوَةِ . أَوْ فِي ٱلْكَيْفِيَّاتِ ٱلنَّفْسَانِيَّةِ كَٱلْغَرَائِزِ وَٱلْأَخْلَاقِ . أَوْ فِي حَالَةٍ إِضَافِيَّةٍ كَقَوْلِكَ: هٰذِهِ حُجَّةٌ كَٱلشَّمْسِ . وَٱلْجَامِعُ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُزِيلٌ لِلْحِجَابِ وَكَقَوْلِكَ: ٱلْفَاظُهُ كَٱلْمَاءِ فِي ٱلسَّلَاسَةِ . وَكَٱلنَّسِيمِ فِي ٱلرِّقَّةِ . وَكَٱلْعَسَلِ فِي ٱلْحَلَاوَةِ . وَٱلْجَامِعُ سُرْعَةُ وُصُولِهِ إِلَى ٱلنَّفْسِ وَٱهْتِزَازُهَا بِهِ . وَرُبَّمَا كَانَ ٱلتَّشْبِيهُ بِوَجْهٍ عَقْلِيٍّ كَقَوْلِ فَاطِمَةَ بِنْتِ ٱلْخُرْشُبِ ٱلْأَنْمَارِيَّةِ حِينَ وَصَفَتْ بَنِيهَا: هُمْ كَٱلْحَلْقَةِ ٱلْمُفْرَغَةِ لَا يُدْرَى أَيْنَ طَرَفَاهَا . فَإِنَّهُ لَا يَفْهَمُ ٱلْمَقْصُودَ إِلَّا مَنْ لَهُ ذِهْنٌ يَتَرَفَّعُ عَنْ طَبَقَةِ ٱلْعَامَّةِ بِخِلَافِ مَا سَبَقَ . وَمِنَ ٱلْفَرْقِ ٱلظَّاهِرِ بَيْنَهُمَا أَنَّ جَعْلَ ٱلْفَرْعِ أَصْلًا وَٱلْأَصْلِ فَرْعًا يَجِيءُ فِيمَا تَقَدَّمَ مَجِيئًا وَاسِعًا كَقَوْلِهِمْ فِي ٱلنُّجُومِ: كَأَنَّهُمْ مَصَابِيحُ . وَفِي ٱلْمَصَابِيحِ: كَأَنَّهَا نُجُومٌ . وَإِنْ حَاوَلْتَ ذٰلِكَ فِي ٱلثَّانِي لَمْ يَكَدْ يَنْقَادُ ٱنْقِيَادَ ٱلْأَوَّلِ . (ٱلثَّانِي) تَشْبِيهُ ٱلْمَعْقُولِ بِٱلْمَعْقُولِ كَتَشْبِيهِ ٱلْوُجُودِ ٱلْعَارِي عَنِ ٱلْفَوَائِدِ بِٱلْعَدَمِ وَتَشْبِيهِ ٱلْفَوَائِدِ ٱلَّتِي تَبْقَى بَعْدَ عَدَمِ ٱلشَّيْءِ بِٱلْوُجُودِ كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ:

رُبَّ حَيٍّ كَمَيْتٍ لَيسَ فِيهِ أَمَلٌ يُرْتَجَى لِنَفعٍ وَضُرِّ
وَعِظَامٍ تَحتَ ٱلتُّرَابِ وَفَوقَ ٱلأَرْضِ مِنْهَا آثارُ حَمْدٍ وَشُكْرِ

(ٱلثَّالِثُ) تَشبِيهُ ٱلْمَعْقُولِ بِٱلمَحْسُوسِ كَقَوْلِهِ: وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ. وَكَقَوْلِهِ: وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ. (ٱلرَّابِعُ) تَشبِيهُ ٱلْمَحْسُوسِ بِٱلْمَعْقُولِ وَهُوَ غَيرُ جَائِزٍ لِأَنَّ ٱلعُلُومَ مُسْتَفَادَةٌ مِنَ ٱلْحَوَاسِّ وَمُنْتَهِيَةٌ إِلَيْهَا وَلِذٰلِكَ قِيلَ: مَنْ فَقَدَ حِسًّا فَقَدْ فَقَدَ عِلْمًا. فَإِذَا كَانَ ٱلْمَحْسُوسُ أَصْلًا لِلْمَعْقُولِ فَتَشْبِيهُهُ بِهِ يَكُونُ جَعْلًا لِلْفَرْعِ أَصْلًا وَٱلأَصْلِ فَرْعًا. وَلِذٰلِكَ لَوْ حَاوَلَ مُحَاوِلٌ ٱلْمُبَالَغَةَ فِي وَصْفِ ٱلشَّمْسِ بِٱلظُّهُورِ وَٱلْمِسْكِ بِٱلثَّنَاءِ فَقَالَ: ٱلشَّمْسُ كَٱلْحُجَّةِ فِي ٱلظُّهُورِ. وَٱلْمِسْكُ كَٱلثَّنَاءِ فِي ٱلطِّيبِ. كَانَ سَخِيفًا مِنَ ٱلْقَوْلِ. فَأَمَّا مَا جَاءَ فِي ٱلأَشْعَارِ مِنْ تَشْبِيهِ ٱلْمَحْسُوسِ بِٱلْمَعْقُولِ فَوَجْهُهُ أَنْ يُقَدَّرَ ٱلْمَعْقُولُ مَحْسُوسًا وَيُجْعَلَ كَٱلأَصْلِ ٱلْمَحْسُوسِ عَلَى طَرِيقِ ٱلْمُبَالَغَةِ فَيَصِحُّ ٱلتَّشْبِيهُ حِينَئِذٍ. وَذٰلِكَ كَمَا قَالَ ٱلشَّاعِرُ:

وَكَأَنَّ ٱلنُّجُومَ بَيْنَ دُجَاهَا سُنَنٌ لَاحَ بَيْنَهُنَّ ٱبْتِدَاعُ

فَإِنَّهُ لَمَّا شَاعَ وَصْفُ ٱلسُّنَّةِ بِٱلْبَيَاضِ وَٱلإِشْرَاقِ عَلَى مَا قِيلَ: أَتَيْتُكُمْ بِٱلْحَنِيفِيَّةِ ٱلْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا. وَٱشْتَهَرَتِ ٱلْبِدْعَةُ وَكُلُّ مَا لَيسَ بِحَقٍّ بِٱلظُّلْمَةِ تَخَيَّلَ ٱلشَّاعِرُ أَنَّ ٱلسُّنَنَ كَأَنَّهَا مِنَ ٱلأَجْنَاسِ ٱلَّتِي لَهَا إِشْرَاقٌ وَنُورٌ وَأَنَّ ٱلْبِدَعَ نَوْعٌ مِنَ ٱلأَنْوَاعِ ٱلَّتِي لَهَا ٱخْتِصَاصٌ بِٱلسَّوَادِ وَٱلظُّلْمَةِ. فَصَارَ ذٰلِكَ عِنْدَهُ كَتَشْبِيهِ مَحْسُوسٍ بِمَحْسُوسٍ فَجَازَ لَهُ ٱلتَّشْبِيهُ. وَبِٱلْجُمْلَةِ فَهٰذَا ٱلتَّشْبِيهُ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِتَخَيُّلِ مَا لَيسَ بِمُتَلَوِّنٍ مُتَلَوِّنًا. ثُمَّ

يُتخيَّلُ أَصْلًا فَيُشبَّهُ بِهِ. وَهٰذَا هُوَ ٱلتَّأْوِيلُ فِي قَوْلِ أَبِي طَالِبٍ ٱلرَّقِّيِّ :

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَٱلظَّلَامُ كَأَنَّهُ   يَوْمُ ٱلنَّوَى وَفُؤَادُ مَنْ لَمْ يَرْفُقِ

فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَتِ ٱلْأَوْقَاتُ ٱلَّتِي تَحْدُثُ فِيهَا ٱلْمَكَارِهُ تُوصَفُ بِٱلسَّوَادِ (يُقَالُ: ٱسْوَدَّتِ ٱلدُّنْيَا فِي عَيْنَيْهِ). جَعَلَ يَوْمَ ٱلنَّوَى كَأَنَّهُ أَشْهَرُ وَأَعْرَفُ بِٱلسَّوَادِ مِنَ ٱلظَّلَامِ فَعَرَّفَهُ بِهِ وَشَبَّهَهُ. ثُمَّ عَطَفَ عَلَيْهِ فُؤَادَ مَنْ لَا يَرْفُقُ تَظَرُّفًا. وَٱلْقَلْبُ ٱلْقَاسِي يُوصَفُ بِشِدَّةِ ٱلسَّوَادِ. فَصَارَ هٰذَا ٱلْقَلْبُ أَصْلًا عِنْدَهُ فِي ٱلسَّوَادِ فَقِيسَ عَلَيْهِ. وَكَذٰلِكَ قَوْلُ ٱلصَّاحِبِ بْنِ عَبَّادٍ حِينَ أَهْدَى لِلْقَاضِي أَبِي ٱلْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْجُرْجَانِيِّ عِطْرًا :

يَا أَيُّهَا ٱلْقَاضِي ٱلَّذِي نَفْسِي لَهُ   فِي قُرْبِ عَهْدِ لِقَائِهِ مُشْتَاقَهْ

أَهْدَيْتُ عِطْرًا مِثْلَ طِيبِ ثَنَائِهِ   فَكَأَنَّمَا أُهْدِي لَهُ أَخْلَاقَهْ

وَٱلْعَادَةُ تَشْبِيهُ ٱلثَّنَاءِ بِٱلْعِطْرِ وَهُوَ عَكْسُ ٱلْأَمْرِ عَلَى جِهَةِ ٱلْمُبَالَغَةِ كَمَا بَيَّنَّا. وَقُلْتُ فِي تَشْبِيهِ حِصْنٍ :

كَأَنَّهُ وَكَأَنَّ ٱلْجَوَّ يَكْنُفُهُ   وَهْمٌ تُمَثِّلُهُ فِي طَيِّهَا ٱلْفِكَرُ

لِأَنَّهُ لَمَّا ٱرْتَفَعَ ٱلْحِصْنُ فِي ٱلْجَوِّ حَتَّى صَارَ كَٱلْوَهْمِ فَيَكُونُ مِنْ تَشْبِيهِ ٱلْمَحْسُوسِ بِمَا تُخُيِّلَ أَنَّهُ مَحْسُوسٌ لِإِظْلَامِهِ فِي ٱلْعَيْنِ أَوْ فُرِضَ لَهُ ٱلْخَفَاءُ حَتَّى صَارَ يُشْبِهُ مَعْقُولًا بِمَعْقُولٍ. وَيَقْرُبُ مِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ تَشْبِيهُ ٱلْوُجُودِ بِٱلتَّخَيُّلِ ٱلَّذِي لَا وُجُودَ لَهُ فِي ٱلْأَعْيَانِ كَتَشْبِيهِ ٱلْجَمْرِ بَيْنَ ٱلرَّمَادِ بِبَحْرٍ مِنَ ٱلْمِسْكِ مَوْجُهُ ٱلذَّهَبُ. وَذٰلِكَ إِنَّمَا يَتِمُّ إِذَا فَرَضَ ٱلْمُتَخَيِّلُ أُمُورًا كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا مَوْجُودٌ فِي ٱلْأَعْيَانِ. فَحِينَئِذٍ يَكُونُ ٱلتَّشْبِيهُ حَسَنًا لَطِيفًا كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ فِي ٱلنَّرْجِسِ :

كَأَنَّ عُيونَ ٱلنَّرْجِسِ ٱلْغَضِّ بَيْنَنا   مَداهِنُ دُرٍّ حَشْوُهُنَّ عَقِيقُ

وَكَقَوْلِ آخَرَ فِي تَشْبِيهِ ٱلشَّقَائِقِ :

وَكَأَنَّ مُحْمَرَّ ٱلشَّقِيـقِ م   إِذَا تَصَوَّبَ اَوْ تَصَعَّدْ

اَعْلَامُ يَاقُوتٍ نُشِرْ   نَ عَلَى رِمَاحٍ مِنْ زَبَرْجَدْ

وَيَقْرُبُ مِنْ هٰذَا ٱلْجِنْسِ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ :

اَيَقْتُلُنِي وَٱلْمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي   وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَأَنْيَابِ اَغْوَالِ

فَإِنَّهُمْ لَمْ يُشَاهِدُوا اَنْيَابَ ٱلْأَغْوَالِ بَلِ ٱعْتَقَـدُوا اَنَّهَا فِي غَايَةِ ٱلْحِدَّةِ فَحَسُنَ ٱلتَّشْبِيهُ . وَعَلَيْهِ جَاءَ قَوْلُهُ : طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ ٱلشَّيَاطِينِ. لِتَنَاهِي رُؤُوسِ ٱلشَّيَاطِـينِ فِي ٱلْكَرَاهَةِ وَلِٱعْتِقَادِهِمِ ٱلْغَايَةَ فِي قُبْحِ ٱلشَّيْطَانِ وَكَرَاهِيَتِهِ يُشَبِّهُونَ بِهِ ٱلْوَجْهَ ٱلْقَبِيحَ . وَلِٱعْتِقَادِهِمِ ٱلْغَايَةَ فِي خَيْرِ ٱلْمَلَكِ وَاَنَّهُ لَا شَرَّ فِيهِ يُشَبِّهُونَ بِهِ ٱلصُّوَرَ ٱلْحَسَنَـةَ كَمَا قَالَ : مَا هٰذَا بَشَرًا إِنْ هٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ . وَٱعْلَمْ اَنَّ مَا بِهِ ٱلْمُشَابَهَةُ قَدْ يَكُونُ مُقَيَّدًا بِٱلِٱنْتِسَابِ إِلَى ٱلشَّيْءِ وَذٰلِكَ إِمَّا إِلَى ٱلْمَفْعُولِ بِهِ وَهُوَ لِلْجَارِّ وَٱلْمَجْرُورِ كَقَوْلِهِمْ لِمَنْ يَفْعَلُ مَا لَا يُفِيدُ : كَٱلرَّاقِمِ عَلَى ٱلْمَاءِ . وَإِمَّا إِلَى ٱلْحَالِ كَقَوْلِهِمْ : كَٱلْحَادِي وَلَيْسَ لَهُ بَعِيرٌ (ٱلْوَاوُ لِلْحَالِ). وَإِمَّا إِلَى ٱلْمَفْعُولِ بِهِ وَٱلْجَارِّ وَٱلْمَجْرُورِ كَقَوْلِهِمْ : هُوَ كَمَنْ يَجْمَعُ ٱلسَّيْفَيْنِ فِي غِمْدٍ وَكَمُبْتَغِي ٱلصَّيْدَ فِي عِرِّيسَةِ ٱلْأَسَدِ . وَكَقَوْلِ لَبِيدٍ :

وَمَا ٱلنَّاسُ إِلَّا كَٱلدِّيَارِ وَاَهْلِهَا   بِهَا يَوْمَ حَلُّوهَا وَغَدْوًا بَلَاقِعُ

فَإِنَّهُ لَمْ يُشَبِّهِ ٱلنَّاسَ بِٱلدِّيَارِ وَإِنَّمَا شَبَّهَ وُجُودَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَسُرْعَةَ زَوَالِهِمْ بِحُلُولِهِمِ ٱلدِّيَارَ وَوَشْكِ رَحِيلِهِمْ مِنْهَا . وَكُلَّمَا كَانَتِ ٱلْمُقَدِّمَاتُ

اكثر كان التشبيه اوغل في كونه عقليًا كقوله : إنّما مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض مما يأكل الناس والانعام حتى اذا اخذت الارض زخرفها وازّينت وظنّ اهلها انهم قادرون عليها اتاها امرنا ليلًا او نهارًا فجعلناها حصيدًا كأن لم تغن بالامس . فانّ التشبيه منتزع من مجموع هذه الجمل من غير ان يمكن فصل بعضها من بعض . فانك لو حذفت منها جملة واحدة من اي موضع كان اخلّ ذلك بالمقصود من التشبيه . ثمّ ما به المشابهة ان كان مركّبًا فانه على قسمين : (الاول) ما لا يمكن إفراد احد اجزائه بالذكر كقوله :

كأنّ سهيلًا والنجوم وراءه   صفوف صلاة قام فيها إمامها

فانه لا يمكن إفراد اجزاء هذا التشبيه اذ لو قلت : كأنّ سهيلًا إمام وكأنّ النجوم صفوف صلاة . ذهبت فائدة هذا التشبيه . (الثاني) ما يمكن إفراده بالذكر ويكون اذا ازيل منه التركيب صحيح التشبيه في طرفيه إلّا انّ المعنى مغيّر كقول ابي طالب الرقّيّ :

وكأنّ اجرام النجوم لوامعًا   درر نثرن على بساط ازرق

فلو قلت : كأنّ النجوم درر وكأنّ السماء بساط ازرق وجدتّ التشبيه مقبولًا . ولكنّ المقصود من الهيئة المشبّه بها قد زال . وربّما كان التشبيه في امور كثيرة ولا يتقيّد بعضها ببعض . وإنّما يكون بعضها مضمومًا الى البعض وكلّ واحد منها منفرد بنفسه

كَقَوْلِكَ: زَيْدٌ كَالْأَسَدِ بَأْسًا وَٱلْبَحْرِ جُودًا وَٱلسَّيْفِ مَضَاءً وَٱلْبَدْرِ بَهَاءً. وَكَقَوْلِكَ: هُوَ يَصْفُو وَيَكْدُرُ وَيَحْلُو وَيَمُرُّ. وَلَهُ خَاصَّتَانِ (إِحْدَاهُمَا) أَنَّهُ لَا يَجِبُ فِيهِ ٱلتَّرْتِيبُ. (وَٱلثَّانِيَةُ) إِذَا أُسْقِطَ ٱلْبَعْضُ لَا يَتَغَيَّرُ حُكْمُ ٱلْبَاقِي. وَمِنْهُ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ:

كَأَنَّ قُلُوبَ ٱلطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا ... لَدَى وَكْرِهَا ٱلْعُنَّابُ وَٱلْحَشَفُ ٱلْبَالِي

وَفِيهِ نَظَرٌ

البحث التاسع عشر

في التشابيه المستعملة عند العرب

(من كتاب الصناعتين للعسكري وعن البديعيات)

أَمَّا ٱلطَّرِيقَةُ ٱلْمَسْلُوكَةُ فِي ٱلتَّشْبِيهِ وَٱلنَّهْجُ ٱلْقَاصِدُ فِي ٱلتَّمْثِيلِ عَنِ ٱلْقُدَمَاءِ وَٱلْمُحْدَثِينَ فَتَشْبِيهُ ٱلْجَوَادِ بِٱلْبَحْرِ وَٱلْمَطَرِ. وَٱلشُّجَاعِ بِٱلْأَسَدِ. وَٱلْحَسَنِ بِٱلشَّمْسِ وَٱلْقَمَرِ. وَٱلْفَهِمِ ٱلْمَاضِي بِٱلسَّيْفِ. وَٱلْعَالِي ٱلرُّتْبَةِ بِٱلنَّجْمِ. وَٱلْحَلِيمِ ٱلرَّزِينِ بِٱلْجَبَلِ. وَٱلْحَيِيِّ بِٱلْبِكْرِ. ثُمَّ يُشَبِّهُونَ ٱللَّئِيمَ بِٱلْكَلْبِ. وَٱلْجَبَانَ بِٱلصِّفْرِدِ. وَٱلطَّائِشَ بِٱلْفَرَاشِ. وَٱلذَّلِيلَ بِٱلنَّقَدِ وَٱلنَّعْلِ. وَٱلنَّفْعَ بِٱلْوَتَدِ. وَٱلْقَاسِيَ بِٱلْحَدِيدِ وَٱلصَّخْرِ. وَٱلْبَلِيدَ بِٱلْجَمَادِ. وَشُهِرَ قَوْمٌ بِخِصَالٍ مَحْمُودَةٍ فَصَارُوا فِيهَا أَعْلَامًا فَجَرَوْا مَجْرَى مَا قَدَّمْنَاهُ كَٱلسَّمَوْءَلِ فِي ٱلْوَفَاءِ. وَحَاتِمٍ فِي ٱلسَّخَاءِ. وَٱلْأَحْنَفِ فِي ٱلْحِلْمِ. وَسَحْبَانَ فِي ٱلْبَلَاغَةِ. وَقُسٍّ فِي ٱلْخَطَابَةِ. وَلُقْمَانَ فِي ٱلْحِكْمَةِ. وَشُهِرَ آخَرُونَ بِأَضْدَادِ هٰذِهِ ٱلْخِصَالِ فَشُبِّهَ بِهِمْ فِي حَالِ ٱلذَّمِّ كَبَاقِلٍ فِي ٱلْعِيِّ. وَهَبَنَّقَةَ فِي ٱلْحُمْقِ. وَٱلْكُسَعِيِّ فِي ٱلنَّدَامَةِ. وَمَادِرٍ فِي ٱلْبُخْلِ

وَٱلتَّشبِيهُ يَزِيدُ ٱلْمَعْنَى وُضُوحًا وَيُكْسِبُهُ تَأْكِيدًا . وَقَدْ يَأْتِي تَارَةً لِبَيَانِ إِمْكَانِ وُجُودِ ٱلشَّيْءِ عِنْدَ ٱدِّعَاءِ مَا لَا يَكُونُ إِمْكَانُهُ بَيِّنًا . كَقَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي:

فَإِنْ تَفُقِ ٱلْأَنَامَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ   فَإِنَّ ٱلْمِسْكَ بَعْضُ دَمِ ٱلْغَزَالِ

وَيَكُونُ لِبَيَانِ مِقْدَارِ ٱلشَّيْءِ كَمَا إِذَا حَاوَلْتَ نَفْيَ ٱلْفَائِدَةِ مِنْ فِعْلِ ٱلْإِنْسَانِ قُلْتَ: هُوَ كَٱلْقَابِضِ عَلَى ٱلْمَاءِ. وَقَدْ أَطْبَقَ جَمِيعُ ٱلْمُتَكَلِّمِينَ مِنَ ٱلْعَرَبِ وَٱلْعَجَمِ عَلَى فَوَائِدِ ٱلتَّشْبِيهِ . وَلَمْ يَسْتَغْنِ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْهُ . وَقَدْ جَاءَ عَنِ ٱلْقُدَمَاءِ وَأَهْلِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ مِنْ كُلِّ جِيلٍ مَا يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى شَرَفِهِ وَفَضْلِهِ وَمَوْقِعِهِ مِنَ ٱلْبَلَاغَةِ بِكُلِّ لِسَانٍ . فَمِنْ ذٰلِكَ مَا قَالَ صَاحِبُ كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ : ٱلدُّنْيَا كَٱلْمَاءِ كُلَّمَا ٱزْدَدْتَّ مِنْهُ شُرْبًا ٱزْدَدْتَّ مِنْهُ عَطَشًا . وَقَالَ : صُحْبَةُ ٱلْأَشْرَارِ تُورِثُ ٱلشَّرَّ كَٱلرِّيحِ إِذَا مَرَّتْ عَلَى ٱلْمُنْتِنِ حَمَلَتْ نَتْنًا . وَإِذَا مَرَّتْ عَلَى ٱلطِّيبِ حَمَلَتْ طِيبًا . وَقَالَ : مَنْ أَنْعَمَ لِمَنْ لَا يَشْكُرُ كَانَ كَمَنْ نَثَرَ بَذْرَهُ فِي ٱلسِّبَاخِ . وَقَدْ نَظَمْتُ هٰذَا ٱلْمَعْنَى :

أَلَا إِنَّمَا ٱلنُّعْمَى تُجَازَى بِمِثْلِهَا   إِذَا كَانَ مُسْدَاهَا إِلَى مَاجِدٍ حُرِّ

فَأَمَّا إِذَا كَانَتْ إِلَى غَيْرِ مَاجِدٍ   فَقَدْ ذَهَبَتْ فِي غَيْرِ حَمْدٍ وَلَا شُكْرِ

إِذَا ٱلْمَرْءُ أَلْقَى فِي ٱلسِّبَاخِ بُذُورَهُ   أَضَاعَ فَلَمْ يَرْجِعْ بِزَرْعٍ وَلَا بَذْرِ

وَقَالَ أَيْضًا : لَا يَخْفَى فَضْلُ ذِي ٱلْعِلْمِ وَإِنْ أَخْفَاهُ كَٱلْمِسْكِ يُخْبَأُ وَيُسْتَرُ ثُمَّ لَا يَمْنَعُ ذٰلِكَ رَائِحَتَهُ أَنْ تَفُوحَ. أَخَذَهُ ٱلصَّاحِبُ فَكَتَبَ: أَنْتَ أَدَامَ ٱللّٰهُ عِزَّكَ .وَإِنْ طَوَيْتَ عَنَّا خَبَرَكَ .وَجَعَلْتَ وَطَنَكَ وَطَرَكَ.

فأنباؤك تأتينا كما وشى بالمسك رياه . ونمّ على الصباح محياه .
وقال : الرجل ذو المروءة يكرم على غير مال . كالاسد يهاب وان كان رابضاً . والرجل الذي لا مروءة له يهان وان كان غنياً . كالكلب يهون على الناس وان طوق . وقال : لا يجب للمذنب ان يفحص عن امره لقبح ما ينكشف منه كالشيء المنتن كلما اثير ازداد نتناً . وقال ايضاً : من يصنع المعروف لعاجل الجزاء فهو كملقي الحب للطير لا لينفعها بل ليصيدها به . وقال ايضاً : المال اذا اجتمع ولم يصرف في الحقوق اسرع اليه الهلاك من كل وجه كالماء اذا اجتمع في موضع ولم يكن له طريق الى النفوذ تفجر من جوانبه فضاع . وقال ايضاً : يبقى الصالح من الرجال صالحاً حتى يصاحب فاسداً فاذا صاحبه فسد مثل مياه الانهار تكون عذبة حتى تخالط ماء البحر فاذا خالطته ملحت . ومن التشابيه الحسنة قول جعفر بن محمد : الادب عند الاحمق كالماء العذب في اصول الحنظل كلما ازداد رياً ازداد مرارة . ومن التشابيه الشعرية البديعة قول لبيد :

وما المرء الا كالشهاب وضوئه ... يحور رماداً بعد اذ هو ساطع
وما المال والاهلون الا وديعة ... ولا بد يوماً ان ترد الودائع

ثم قال :

واصبحت مثل السيف اخلق جفنه ... تقادم عهد القين والنصل قاطع

وكقول صالح بن جناح العبسي :

الا انما الانسان غمد لقلبه ... ولا خير في غمد اذا لم يكن نصل

وَقَالَ مُتَمِّمٌ :

وَبَعْضُ ٱلرِّجَالِ نَخْلَةٌ لَاجَنَى لَهَا   وَلَاظِلَّ إِلَّا أَنْ يُعَدَّ مِنَ ٱلنَّخْلِ

وَقَالَ ٱلْأَخْطَلُ ٱلنَّصْرَانِيُّ :

وَإِذَا ٱفْتَقَرْتَ إِلَى ٱلذَّخَائِرِ لَمْ تَجِدْ   ذُخْرًا يَكُونُ كَصَالِحِ ٱلْأَعْمَالِ

وَكَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ فِي ٱلنُّعْمَانِ :

فَإِنَّكَ شَمْسٌ وَٱلْأَنَامُ كَوَاكِبُ   إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

وَمِنْ بَدِيعِ تَشَابِيهِ ٱلْمُحْدَثِينَ قَوْلُ مُسْلِمِ بْنِ ٱلْوَلِيدِ :

وَإِنِّي وَإِسْمَاعِيلَ يَوْمَ وَدَاعِهِ   فَكَٱلْغِمْدِ يَوْمَ ٱلرَّوْعِ فَارَقَهُ ٱلنَّصْلُ

وَكَقَوْلِ بَدِيعِ ٱلزَّمَانِ ٱلْهَمَذَانِيِّ :

قَدْ كَادَ يَحْكِيكَ صَوْبُ ٱلْغَيْثِ مُنْسَكِبًا

لَوْ كَانَ طَلْقَ ٱلْمُحَيَّا يُمْطِرُ ٱلذَّهَبَا

وَٱلدَّهْرُ لَوْ لَمْ يَخُنْ وَٱلشَّمْسُ لَوْ نَطَقَتْ

وَٱللَّيْثُ لَوْ لَمْ يُصَدْ وَٱلْبَحْرُ لَوْ عَذُبَا

وَلِلْمُتَنَبِّي فِي وَصْفِ ظَبْيٍ :

أَغْنَاهُ حُسْنُ ٱلْجِيدِ عَنْ لُبْسِ ٱلْحُلِيِّ   وَعَادَةُ ٱلْعُرْيِ عَنِ ٱلتَّفَضُّلِ

كَأَنَّهُ مُضَمَّخٌ بِصَنْدَلِ

وَكَقَوْلِهِ فِي سُرْعَةِ ٱلْأَوْبَةِ وَتَقَايِيلِ ٱللُّبْثِ :

وَمَا أَنَا غَيْرَ سَهْمٍ فِي هَوَاءٍ   يَعُودُ وَلَمْ يَجِدْ فِيهِ ٱمْتِسَاكَا

وَلَهُ قَوْلُهُ :

وَأَنْتَ حُسَامُ ٱلْمُلْكِ وَٱللهُ ضَارِبٌ   وَأَنْتَ لِوَاءُ ٱلدِّينِ وَٱللهُ عَاقِدُ

وَلَهُ ايضًا وهو من جنسِ الإبداعِ :

مَلِكٌ سِنانُ قناتِهِ وبنانُهُ يَتَبارَيانِ دمًا وعرفًا ساكِبَا
كالبدرِ من حيثُ التفتَّ رأيتَهُ يُهدِي الى عينيكَ نورًا ثاقِبَا
كالشمسِ في كبدِ السماء وضوءُها يَغشى البلادَ مشارقًا ومغارِبَا
كالبحرِ يقذِفُ للقريبِ جواهِرًا جودًا ويبعثُ للبعيدِ سحائِبَا

وكثيرًا ما يتلطَّفُ الشعراءُ بالتشبيهِ فيُشَبِّهونَ الشيءَ الواحِدَ بشيئَينِ وثلاثةٍ . وربما شبَّهوا شيئَينِ بشيئَينِ وثلاثةً بثلاثةٍ واربعةً باربعةٍ. ومن ذلكَ قولُ امرئِ القيسِ في الفرسِ :

لَهُ ايطَلا ظبيٍ وساقا نعامةٍ وارخاءُ سِرحانٍ وتقريبُ تتفُلِ

وكقولِ بشارِ بنِ بُردٍ :

كأنَّ مُثارَ النقعِ فوقَ رؤوسِنا واسيافِنا ليلٌ تهاوى كواكِبُهُ

ولابنِ المعتزِّ في تشبيهِ حُبابِ الراحِ :

يجولُ حُبابُ الراحِ في جنباتِها كما جالَ دمعٌ فوقَ خدٍّ مُورَّدِ

ولآخرَ قد شبَّهَ اربعةَ اشياءَ باربعةٍ :

للهِ طِرسٌ عن سُطورٍ جادَها م الفكرُ السليمُ بصوبِ مِسكٍ اذفرِ
فكأنَّما هو روضةٌ او جدولٌ او سِمطُ دُرٍّ او قِلادةُ عنبرِ

ومن انواعِ التشبيهِ التمثيلُ وهو الذي يكونُ تشبيهًا واحدًا مُقيَّدًا بقيودٍ ويُظَنُّ انَّها تشبيهاتٌ مجموعةٌ كقولِهِ :

كما ابرقتْ قومًا عِطاشًا غمامةٌ فلمَّا رجوها اقشعتْ وتجلَّتِ

فانَّ مجرَّدَ قولِهِ : ابرقتْ قومًا عِطاشًا غمامةٌ ليسَ تشبيهًا مستقلًّا

بِذاتِهِ. لِأَنَّ مَقْصُودَ ٱلشَّاعِرِ أَنْ يَصِفَ ٱبْتِدَاءَ مُطْمِعٍ أَدَّى إِلَى ٱنْتِهَاءِ مُؤْيِسٍ . وَذٰلِكَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِجُمْلَةٍ فَإِنَّ تَأْدِيَةَ ٱلشَّيْءِ إِلَى غَيْرِهِ حُكْمٌ زَائِدٌ عَلَى ذَاتِهِ

وَٱعْلَمْ أَنَّ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ ضَرْبًا يُسَمَّى ٱلطَّرْدَ وَٱلْعَكْسَ. وَهُوَ أَنْ يُجْعَلَ ٱلْمُشَبَّهُ بِهِ مُشَبَّهًا وَٱلْمُشَبَّهُ مُشَبَّهًا بِهِ. وَبَعْضُهُمْ يُسَمِّيهِ: غَلَبَةَ ٱلْفُرُوعِ عَلَى ٱلْأُصُولِ. وَلَا تَجِدُ شَيْئًا مِنْ ذٰلِكَ إِلَّا وَٱلْغَرَضُ بِهِ ٱلْمُبَالَغَةُ . كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ:

وَبَدَا ٱلصَّبَاحُ كَأَنَّ غُرَّتَهُ وَجْهُ ٱلْخَلِيفَةِ حِينَ يُمْتَدَحُ

فَجَعَلَ ٱلْأَصْلَ فَرْعًا وَٱلْفَرْعَ أَصْلًا . وَهٰذَا أَبْلَغُ وَأَحْسَنُ وَأَمْدَحُ مِنْ تَشْبِيهِ ٱلْوَجْهِ بِٱلصَّبَاحِ . لِأَنَّ تَشْبِيهَ ٱلْوَجْهِ بِٱلصَّبَاحِ أَصْلٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ لَا يُنْكَرُ وَلَا يُسْتَنْكَرُ . وَإِنَّمَا ٱلَّذِي يُسْتَنْكَرُ تَشْبِيهُ ٱلصَّبَاحِ بِٱلْوَجْهِ

البحث العشرون

في معايب التشبيه

(من المثل السائر لابن الاثير باختصار وتصرّف)

وَإِذْ ذَكَرْنَا أَقْسَامَ ٱلتَّشْبِيهِ وَبَيَّنَّا ٱلْمَحْمُودَ مِنْهَا ٱلَّذِي يَنْبَغِي ٱقْتِفَاءُ أَثَرِهِ وَٱتِّبَاعُ مَذْهَبِهِ فَلْنُتْبِعْهُ بِضِدِّهِ مِمَّا يَنْبَغِي ٱجْتِنَابُهُ وَٱلْإِضْرَابُ عَنْهُ. عَلَى أَنَّهُ قَدْ قَدَّمْنَا ٱلْقَوْلَ بِأَنَّ حَدَّ ٱلتَّشْبِيهِ هُوَ أَنْ يُثْبَتَ لِلْمُشَبَّهِ حُكْمٌ مِنْ أَحْكَامِ ٱلْمُشَبَّهِ بِهِ . فَإِذَا لَمْ يَكُنْ بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ أَوْ كَانَ بَيْنَ ٱلْمُشَبَّهِ وَٱلْمُشَبَّهِ بِهِ بُعْدٌ فَذٰلِكَ ٱلَّذِي يُطْرَحُ وَلَا يُسْتَعْمَلُ . وَٱلَّذِي يَرِدُ مِنْهُ مُضْمَرَ ٱلْأَدَاةِ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي ٱلتَّوَسُّعِ . كَقَوْلِ أَبِي نُوَاسٍ :

مَا لِرِجلِ ٱلْمَالِ ٱمسَتْ تَشْتَكِي مِنْكَ ٱلْكَلاَلا

فَجعَلَ لِلْمَالِ رِجلًا وَذٰلِكَ تَشبِيهٌ بَعِيدٌ. وَمِنْ اَقبَحِ مَا سَمِعْتُهُ مِن ذٰلِكَ قَولُ اَبِي تَمَّام :

وَتَعَلَّمَ ٱلنَّاسُ ٱلسَّخَاءَ مُجَزَّاً وَذَهَبتَ اَنتَ بِرَأْسِهِ وَسَنَامِهِ

وَتَرَكْتَ لِلنَّاسِ ٱلْإِهَابَ وَمَا بَقِي مِنْ فَرْثِهِ وَعُرُوقِهِ وَعِظَامِهِ

وَٱلْقُبْحُ ٱلْفَاحِشُ فِي ٱلْبَيتِ ٱلثَّانِي وَكُلُّ هٰذَا ٱلتَّعَسُّفُ فِي ٱلتَّشبِيهِ ٱلْبَعِيدِ دَندَنَةٌ حَولَ مَعْنًى لَيسَ بِطَائِلٍ. فَإِنَّ غَرَضَهُ اَنْ يَقُولَ: ذَهَبتَ بِٱلْاَعْلَى وَتَرَكْتَ لِلنَّاسِ ٱلْاَدْنَى. اَو: ذَهَبتَ بِٱلْجَيِّدِ وَتَرَكْتَ لِلنَّاسِ ٱلرَّدِيءَ. وَاَمَّا (ٱلتَّشبِيهُ ٱلْمُظْهَرُ ٱلْاَدَاةِ) فَهٰذِهِ اَمثَالٌ اَورَدتُّهَا لِتَستَدِلَّ بِهَا عَلَى اَشبَاهِهِ فَإِنَّ لِذِكرِ ٱلْمِثَالِ فَائِدَةً لَا تَكُونُ لِذِكرِ ٱلْحَدِّ وَحدَهُ. فَمِنْ ذٰلِكَ قَولُ بَعضِهِمْ :

عَلَا حَاجِبَيكَ ٱلشَّيبُ حَتَّى كَأَنَّهُ ظِبَاءٌ جَرَتْ مِنهَا سَنِيحٌ وَبَارِحُ

وَكَذٰلِكَ قَولُ ٱلْآخَرِ يَصِفُ ٱلسِّهَامَ فَشَبَّهَهَا بِاَعنَاقِ ٱلظِّبَاءِ. وَذٰلِكَ مِنْ اَبعَدِ ٱلتَّشبِيهَاتِ :

كَسَاهَا رَطِيبُ ٱلرِّيشِ فَٱعْتَدَلَتْ لَهُ قِدَاحٌ كَاَعنَاقِ ٱلظِّبَاءِ ٱلْفَوَارِقِ

وَعَلَى نَحوٍ مِنْ ذٰلِكَ قَولُ ٱلْفَرَزْدَقِ :

يَمْشُونَ فِي حَلَقِ ٱلْحَدِيدِ كَمَا مَشَتْ جُرْبُ ٱلْجِمَالِ بِهَا ٱلْكَحِيلُ ٱلْمُشعَلُ

فَشَبَّهَ ٱلرِّجَالَ فِي دُرُوعِ ٱلزَّرَدِ بِٱلْجِمَالِ ٱلْجُربِ. وَهٰذَا مِنَ ٱلتَّشبِيهِ ٱلْبَعِيدِ ٱلسَّخِيفِ فَضلًا عَنْ اَنْ لَا مُقَارَبَةَ بَينَهُمَا فِي ٱللَّونِ. وَمِنَ ٱلتَّشبِيهَاتِ ٱلْبَارِدَةِ قَولُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

وجَرَى عَلَى ٱلْوَرَقِ ٱلنَّجِيعُ ٱلْقَانِي ... فَكَأَنَّهُ ٱلنَّارَنْجُ فِي ٱلْأَغْصَانِ

وَهٰذَا تَشْبِيهٌ يُنْكِرُهُ اهلُ ٱلتَّجْسِيمِ . وَقَدْ عَدُّوا مِنَ ٱلتَّشَابِيهِ ٱلَّتِي هِيَ غَيْرُ بَلِيغَةٍ قَوْلَ ٱلشَّاعِرِ فِي وَصْفِ ٱلرَّوْضِ :

كَأَنَّ شَقَائِقَ ٱلنُّعْمَانِ فِيهِ ... ثِيَابٌ قَدْ رَوِينَ مِنَ ٱلدِّمَاءِ

فَهٰذَا وَإِنْ كَانَ تَشْبِيهًا مُصِيبًا فَإِنَّ فِيهِ بَشَاعَةَ كَثْرَةِ ٱلدِّمَاءِ ٱلَّتِي تَعَافُ ٱلْأَنْفُسُ ٱللَّطِيفَةُ رُؤْيَتَهَا . وَفِي اقْوَالِ ٱلْعَرَبِ تَشَابِيهُ تَمُجُّهَا ٱلْأَذْوَاقُ ٱلصَّحِيحَةُ وَتَنْفُرُ مِنْهَا ٱلطِّبَاعُ ٱلسَّلِيمَةُ . فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ ٱلنَّابِغَةِ وَقَدْ عَابَهُ ٱلْأَصْمَعِيُّ بَيْنَ يَدَيِ ٱلرَّشِيدِ :

نَظَرَتْ إِلَيْكَ بِحَاجَةٍ لَمْ تَقْضِهَا ... نَظَرَ ٱلْمَرِيضِ إِلَى وُجُوهِ ٱلْعُوَّدِ

قَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ : قَدْ يُكْرَهُ تَشْبِيهُ ٱلْمَمْدُوحِ بِٱلْمَرِيضِ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ أَبِي مِحْجَنٍ ٱلثَّقَفِيِّ فِي قَيْنَةٍ :

وَتُرَجِّعُ ٱلْعُودَ أَحْيَانًا وَتَخْفِضُهُ ... كَمَا يَطِيرُ ذُبَابُ ٱلرَّوْضَةِ ٱلْغَرِدُ

فَإِنَّ ٱلْقَيْنَةَ لَمْ تَرْضَ أَنْ تُشَبَّهَ نَفْسَهَا بِٱلذُّبَابِ . وَلِذٰلِكَ رَغِبَ ٱلْمُوَلَّدُونَ عَنْ تَشَابِيهِ ٱلْعَرَبِ لِأَنَّهَا مَعَ عَقَادَةِ ٱلتَّرْكِيبِ لَمْ تُسْفِرْ عَنْ كَبِيرِ أَمْرٍ فَخَالَفُوهَا فِي كَثِيرٍ مِنَ ٱلشِّعْرِ إِلَى مَا هُوَ أَلْيَقُ بِٱلْوَقْتِ وَأَمَسُّ بِأَهْلِهِ



البحث الحادي والعشرون

في المذهب الكلامي

(من شرح بديعيَّة العميان لابن جابر الاندلسي باختصار)

(راجع صفحة ٢٨ من علم الادب)

اَلْمَذْهَبُ ٱلْكَلَامِيُّ عِنْدَ اَهْلِ ٱلْبَيَانِ هُوَ اِيرَادُ حُجَّةٍ لِلْمَطْلُوبِ عَلَى طَرِيقَةِ اَهْلِ ٱلْكَلَامِ . وَهُوَ اَنْ يَكُونَ بَعْدَ تَسْلِيمِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ مُقَدِّمَةٌ مُسْتَلْزِمَةٌ لِلْمَطْلُوبِ . وَقِيلَ : هُوَ اَنْ يَأْتِيَ ٱلْبَلِيغُ فِي صِحَّةِ دَعْوَاهُ وَاِبْطَالِ دَعْوَى خَصْمِهِ بِحُجَّةٍ قَاطِعَةٍ عَقْلِيَّةٍ تَصِحُّ نِسْبَتُهَا اِلَى عِلْمِ ٱلْكَلَامِ . اِذْ عِلْمُ ٱلْكَلَامِ عِبَارَةٌ عَنْ اِثْبَاتِ أُصُولِ ٱلدِّينِ بِٱلْبَرَاهِينِ ٱلْعَقْلِيَّةِ ٱلْقَاطِعَةِ . وَمِنْ اَوْضَحِ ٱلشَّوَاهِدِ فِي هٰذَا ٱلنَّوْعِ قَوْلُ ٱلْقُرْآنِ : لَوْ كَانَ فِي ٱلْاَرْضِ وَٱلسَّمَاءِ آلِهَةٌ اِلَّا ٱللّٰهُ لَفَسَدَتَا . فَهٰذَا دَلِيلٌ قَاطِعٌ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ جَلَّ جَلَالُهُ . وَتَمَامُ ٱلدَّلِيلِ اَنْ تَقُولَ لٰكِنَّهُمَا لَمْ تَفْسُدَا فَلَيْسَ اِذًا فِيهِمَا آلِهَةٌ غَيْرَ ٱللّٰهِ . وَمِنْ اَمْثِلَةِ هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُ اَعْرَابِيٍّ لِرَجُلٍ : اِنِّي لَمْ اَرُدَّ وَجْهِي عَنِ ٱلطَّلَبِ اِلَيْكَ فَصُنْ نَفْسَكَ عَنْ رَدِّي وَضَعْنِي مِنْ كَرَمِكَ بِحَيْثُ وَضَعْتُ نَفْسِي مِنْ رَجَائِكَ . وَمِنْهُ قَوْلُ ٱلنَّابِغَةِ يَعْتَذِرُ اِلَى ٱلنُّعْمَانِ :

حَلَفْتُ فَلَمْ اَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً ... وَلَيْسَ وَرَاءَ ٱللّٰهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبُ
لَئِنْ كُنْتَ قَدْ بُلِّغْتَ عَنِّي خِيَانَةً ... لَمُبْلِغُكَ ٱلْوَاشِي اَغَشُّ وَاَكْذَبُ
وَلٰكِنَّنِي كُنْتُ ٱمْرَءًا لِيَ جَانِبٌ ... مِنَ ٱلْاَرْضِ فِيهِ مُسْتَرَادٌ وَمَذْهَبُ

مُلُوكٌ وَإِخْوَانٌ إِذَا مَا مَدَحْتُهُمْ أُحَكَّمُ فِي أَمْوَالِهِمْ وَأُقَرَّبُ
كَفِعْلِكَ فِي قَوْمٍ أَرَاكَ اصْطَنَعْتَهُمْ فَلَمْ تَرَهُمْ فِي مَدْحِهِمْ لَكَ أَذْنَبُوا

يَقُولُ لِهٰذَا ٱلْمَلِكِ : أَنْتَ أَحْسَنْتَ إِلَى قَوْمٍ فَمَدَحُوكَ . وَأَنَا أَحْسَنَ إِلَيَّ قَوْمٌ فَمَدَحْتُهُمْ . فَكَمَا أَنَّ مَدْحَ مَنْ أَحْسَنْتَ إِلَيْهِ لَكَ لَا يُعَدُّ ذَنْبًا فَكَذَا مَدْحِي لِمَنْ أَحْسَنَ إِلَيَّ لَا يُعَدُّ ذَنْبًا . قَالَ ٱبْنُ أَبِي ٱلْأَصْبَعِ : وَمِنْ شَوَاهِدِ هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ :

لِكُلِّ ٱمْرِئٍ نَفْسَانِ نَفْسٌ كَرِيمَةٌ وَنَفْسٌ يُعَاصِيهَا ٱلْفَتَى وَيُطِيعُهَا
وَنَفْسُكَ مِنْ نَفْسَيْكَ تَشْفَعُ لِلنَّدَى إِذَا قَلَّ مِنْ أَحْرَارِهِنَّ شَفِيعُهَا

يَقُولُ : لِكُلِّ إِنْسَانٍ نَفْسٌ مُطْمَئِنَّةٌ تَأْمُرُ بِٱلْخَيْرِ . وَنَفْسٌ أَمَّارَةٌ تَأْمُرُ بِٱلسُّوءِ . وَٱلْإِنْسَانُ يُعَاصِي ٱلْأَمَّارَةَ مَرَّةً وَيُطِيعُهَا أُخْرَى . وَأَنْتَ إِذَا أَمَرَتْكَ ٱلْأَمَّارَةُ بِتَرْكِ ٱلنَّدَى شَفَعَتِ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ إِلَيْهَا فِي ٱلنَّدَى فِي ٱلْحَالَةِ ٱلَّتِي يَقِلُّ فِيهَا ٱلشَّفِيعُ فِي ٱلنَّدَى مِنَ ٱلنُّفُوسِ . فَأَنْتَ أَكْرَمُ ٱلنَّاسِ

وَٱعْلَمْ أَنَّ قِيَاسَ ٱلْمَذْهَبِ ٱلْكَلَامِيِّ إِمَّا حَمْلِيٌّ . وَإِمَّا شَرْطِيٌّ . فَٱلْأَقْيِسَةُ ٱلْحَمْلِيَّةُ قَدِ ٱسْتَنْبَطُوهَا عَلَى صُوَرٍ : مِنْهَا مَا يُرْوَى أَنَّ أَبَا دُلَفَ قَصَدَهُ شَاعِرٌ تَمِيمِيٌّ . فَقَالَ لَهُ : مِمَّنْ أَنْتَ . فَقَالَ مِنْ تَمِيمٍ . فَقَالَ أَبُو دُلَفَ :

تَمِيمٌ بِطُرْقِ ٱللُّؤْمِ أَهْدَى مِنَ ٱلْقَطَا وَلَوْ سَلَكَتْ سُبُلَ ٱلْهِدَايَةِ ضَلَّتِ

فَقَالَ لَهُ ٱلتَّمِيمِيُّ : نَعَمْ بِتِلْكَ ٱلْهِدَايَةِ جِئْتُ إِلَيْكَ . فَأَفْحَمَهُ بِدَلِيلٍ حَمْلِيٍّ . ٱلزَّمَهُ فِيهِ أَنَّ ٱلْمَجِيءَ إِلَيْهِ ضَلَالٌ . وَلَعَمْرِي إِنَّ ٱلْقِيَاسَ ٱلشَّرْطِيَّ

اوضح دلالة في هذا الباب من غيره واعذب في الذوق واسهل في التركيب. فانه جملة واقعة بعد (لو) وجوابها. وهذه الجملة على اصطلاحهم مقدمة شرطية متصلة يستدل بها على ما تقدم من الحكم كما جاء: لو تعلمون ما اعلم (يريد امور الآخرة) لضحكتم قليلا وبكيتم كثيرا. وتمام الدليل ان يقال: لكنكم ضحكتم كثيرا وبكيتم قليلا فلم تعلموا ما اعلم

ولقد زادوا على هذين القياسين القياس الفقهي وذلك ان يقاس فرع على اصل بجامع بينهما فيلزم للتساوي في الحكم. كما يحكى ان الوليد قال لبعضهم: انشد من قولك في الخمر. فانشده:

كميت اذا شجت وفي الكأس وردها
لها في عظام الشاربين دبيب
تريك القذى من دونها وهي دونه
لوجه اخيها في الاناء قطوب

فقال له الوليد: شربتها ورب الكعبة. فقال: لئن كان وصفي لها رابك لقد رابني معرفتك بها. (يقول): كما ان معرفتي بوصفها رابتك كذلك معرفتك بها رابتني



الفصل الخامس

في محاسن الانشاء ومعايبه

البحث الاوَّل

في تمييز الكلام جيّدهِ من رديئهِ ونادرهِ من باردهِ

(عن كتاب الصناعتين للعسكري باختصار)

(راجع صفحة ٥١ من علم الادب)

اَلْكَلَامُ اَيَدكَ ٱللهُ يَحْسُنُ بِسَلَاسَتِهِ وَسُهُولَتِهِ وَنَصَاعَتِهِ وَتَحْسِينِ لَفْظِهِ وَاِصَابَةِ مَعْنَاهُ وَجُودَةِ مَقَاطِعِهِ وَلِينِ مَعَاطِفِهِ وَٱسْتِوَاءِ تَقَاسِيمِهِ وَتَعَادُلِ اَطْرَافِهِ وَتَشَبُّهِ اَعْجَازِهِ بِهَوَادِيهِ وَمُوَافَقَةِ مَآخِيرِهِ لِمَبَادِئِهِ مَعَ قِلَّةِ ضَرُورَاتِهِ بَلْ عَدَمِهَا اَصْلًا حَتَّى لَا يَكُونَ لَهَا فِي ٱلْاَلْفَاظِ اَثَرٌ. فَتَجِدُ ٱلْمَنْظُومَ مِثْلَ ٱلْمَنْثُورِ فِي سُهُولَةِ مَطْلَعِهِ وَجُودَةِ مَقْطَعِهِ وَحُسْنِ رَصْفِهِ وَتَأْلِيفِهِ وَكَمَالِ صَوْغِهِ وَتَرْكِيبِهِ. فَاِذَا كَانَ ٱلْكَلَامُ كَذٰلِكَ كَانَ بِٱلْقَبُولِ حَقِيقًا وَبِٱلتَّحَفُّظِ خَلِيقًا كَقَوْلِ ٱلْاَوَّلِ :

هُمُ ٱلْأُولَى وَهَبُوا لِلْمَجْدِ اَنْفُسَهُمْ فَمَا يُبَالُونَ مَا نَالُوا اِذَا حُمِدُوا

وَقَوْلِ مَعْنِ بْنِ اَوْسٍ :

لَعَمْرُكَ مَا اَهْدَيْتُ كَفِّي لِرِيبَةٍ وَلَا حَمَلَتْنِي نَحْوَ فَاحِشَةٍ رِجْلِي
وَلَا قَادَنِي سَمْعِي وَلَا بَصَرِي لَهَا وَلَا دَلَّنِي رَأْيِي عَلَيْهَا وَلَا عَقْلِي
وَاَعْلَمُ اَنِّي لَمْ تُصِبْنِي مُصِيبَةٌ مِنَ ٱلدَّهْرِ اِلَّا قَدْ اَصَابَتْ فَتًى قَبْلِي

وَلَسْتُ بِعَاشٍ مَا حَيِيتُ لِمُنْكَرٍ ... مِنَ ٱلْأَمْرِ لَا يَمْشِي إِلَى مِثْلِهِ مِثْلِي
وَلَا مُؤْثِرٍ نَفْسِي عَلَى ذِي قَرَابَةٍ ... وَأُوثِرُ ضَيْفِي مَا أَقَامَ عَلَى أَهْلِي

وَقَوْلِ ٱلْآخَرِ :

وَلَسْتُ بِنَظَّارٍ إِلَى جَانِبِ ٱلْغِنَى ... إِذَا كَانَتِ ٱلْعَلْيَاءُ فِي جَانِبِ ٱلْفَقْرِ

وَقَالَ ٱلْآخَرُ :

ذَرِينِي أَسِيرُ فِي ٱلْبِلَادِ لَعَلَّنِي ... أُصِيبُ غِنًى فِيهِ لِذِي ٱلْحَقِّ مُحْمَلُ
فَإِنْ نَحْنُ لَمْ نَسْطِعْ دِفَاعًا لِحَادِثٍ ... تَجِيءُ بِهِ ٱلْأَيَّامُ فَٱلصَّبْرُ أَجْمَلُ
أَلَيْسَ كَثِيرًا أَنْ تُلِمَّ مُلِمَّةٌ ... وَلَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْحُقُوقِ مُعَوَّلُ

وَمِمَّا هُوَ فَصِيحٌ فِي لَفْظِهِ جَيِّدٌ فِي رَصْفِهِ قَوْلُ ٱلشَّنْفَرَى :

أُطِيلُ مِطَالَ ٱلْجُوعِ حَتَّى أُمِيتَهُ ... وَأَضْرِبُ عَنْهُ ٱلْقَلْبَ صَفْحًا فَيَذْهَلُ
وَلَوْلَا ٱجْتِنَابُ ٱلْعَارِ لَمْ يُلْفَ مَشْرَبٌ ... يُعَاشُ بِهِ إِلَّا لَدَيَّ وَمَأْكَلُ
وَلٰكِنَّ نَفْسًا مُرَّةً لَا تُقِيمُنِي ... عَلَى ٱلضَّيْمِ إِلَّا رَيْثَمَا أَتَحَوَّلُ

وَقَوْلُ آخَرَ :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرَارًا عَلَى ٱلْقَذَى ... ظَمِئْتَ وَأَيُّ ٱلنَّاسِ تَصْفُو مَشَارِبُهْ

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ :

وَمَا إِنْ قَتَلْنَاهُمْ بِأَكْثَرَ مِنْهُمُ ... وَلٰكِنْ بِأَوْفَى لِلطِّعَانِ وَأَكْرَمَا

وَقَوْلُ ٱلنَّابِغَةِ :

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أَخًا لَا تَلُمُّهُ ... عَلَى شَعَثٍ أَيُّ ٱلرِّجَالِ ٱلْمُهَذَّبُ

وَلَيْسَ لِهٰذَا ٱلْبَيْتِ نَظِيرٌ فِي كَلَامِ ٱلْعَرَبِ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : نَظِيرُهُ قَوْلُ أَوْسِ بْنِ حَجَرٍ :

وَلَسْتُ بِجَائِيٍّ ابدًا طَعَامًا   حِذَارَ غَدٍ لِكُلِّ غَدٍ طَعَامُ

وَهٰذَا وَإِنْ كَانَ نَظِيرَهُ فِي ٱلتَّأْلِيفِ فَإِنَّهُ دُونَهُ لِمَا تَكَرَّرَ فِيهِ مِنْ لَفْظِ غَدٍ . فَإِنْ كَانَ ٱلْكَلَامُ قَدْ جَمَعَ ٱلْعُذُوبَةَ وَٱلْجَزَالَةَ وَٱلسُّهُولَةَ وَٱلرَّصَانَةَ مَعَ ٱلسَّلَاسَةِ وَٱلنَّصَاعَةِ . وَٱشْتَمَلَ عَلَى ٱلرَّوْنَقِ وَٱلطُّلَاوَةِ . وَسَلِمَ مِنْ سُخْفِ ٱلتَّأْلِيفِ . وَبَعُدَ مِنْ سَمَاجَةِ ٱلتَّرْكِيبِ . وَرَدَ عَلَى ٱلْفَهْمِ ٱلثَّاقِبِ فَقَبِلَهُ وَلَمْ يَرُدَّهُ . وَعَلَى ٱلسَّمْعِ ٱلْمُصِيبِ ٱسْتَوْعَبَهُ وَلَمْ يَمُجَّهُ . وَٱلنَّفْسُ تَقْبَلُ ٱللَّطِيفَ وَتَنْبُو عَنِ ٱلْغَلِيظِ وَتَقْلَقُ مِنَ ٱلْجَاسِئِ ٱلْبَشِعِ . وَجَمِيعُ جَوَارِحِ ٱلْبَدَنِ وَحَوَاسِّهِ يَسْكُنُ إِلَى مَا يُوَافِقُهُ وَيَنْفِرُ عَمَّا يُضَادُّهُ وَيُخَالِفُهُ . وَٱلْعَيْنُ تَأْلَفُ ٱلْحَسَنَ وَتَقْذَى بِٱلْقَبِيحِ . وَٱلْأَنْفُ يَرْتَاحُ لِلطَّيِّبِ وَيَنْفِرُ لِلْمُنْتِنِ . وَٱلْفَمُ يَلْتَذُّ بِٱلْحُلْوِ وَيَمُجُّ ٱلْمُرَّ . وَٱلسَّمْعُ يَتَشَوَّقُ لِلصَّوَابِ ٱلرَّائِعِ وَيَنْزَوِي عَنِ ٱلْجَهِيرِ ٱلْهَائِلِ . وَٱلْيَدُ تَنْعَمُ بِٱللَّيِّنِ وَتَتَأَذَّى بِٱلْخَشِنِ . وَٱلْفَهْمُ يَأْنَسُ مِنَ ٱلْكَلَامِ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَسْكُنُ إِلَى ٱلْمَأْلُوفِ وَيُصْغِي إِلَى ٱلصَّوَابِ وَيَهْرُبُ مِنَ ٱلْمُحَالِ وَيَنْقَبِضُ عَنِ ٱلْوَخِمِ وَيَتَأَخَّرُ عَنِ ٱلْجَافِي ٱلْغَلِيظِ . وَلَا يَقْبَلُ ٱلْكَلَامَ ٱلْمُضْطَرِبَ إِلَّا ٱلْفَهْمُ ٱلْمُضْطَرِبُ وَٱلرَّوِيَّةُ ٱلْفَاسِدَةُ . وَلَيْسَ ٱلشَّأْنُ فِي إِيرَادِ ٱلْمَعَانِي لِأَنَّ ٱلْمَعَانِيَ يَعْرِفُهَا ٱلْعَرَبِيُّ وَٱلْعَجَمِيُّ وَٱلْقَرَوِيُّ وَٱلْبَدَوِيُّ وَإِنَّمَا هُوَ فِي جُودَةِ ٱللَّفْظِ وَصَفَائِهِ وَحُسْنِهِ وَبَهَائِهِ وَنَزَاهَتِهِ وَنَقَائِهِ وَكَثْرَةِ طُلَاوَتِهِ وَمَائِهِ مَعَ صِحَّةِ ٱلسَّبْكِ وَٱلتَّرْكِيبِ وَٱلْخُلُوِّ مِنْ اوَدِ ٱلنَّظْمِ وَٱلتَّأْلِيفِ . وَلَيْسَ يُطْلَبُ مِنَ ٱلْمَعْنَى إِلَّا انْ يَكُونَ صَوَابًا . وَلَا يُقْنَعُ مِنَ ٱللَّفْظِ بِذٰلِكَ حَتَّى يَكُونَ عَلَى مَا وَصَفْنَاهُ مِنْ نُعُوتِهِ ٱلَّتِي تَقَدَّمَتْ . الَا تَرَى

إلى قولِ حبيبٍ :

مُسْتَسْلِمٌ للهِ سائسُ أُمَّةٍ ... بذوي تَجَهْضُمِها لهُ استسلامُ

فيهِ صوابُ اللفظِ وليسَ هو بحسنٍ ولا مقبولٍ . ومنَ الدليلِ على أنَّ مدارَ البلاغةِ على تحسينِ اللفظِ أنَّ الخطبَ الرائعةَ والأشعارَ الرائقةَ ما عُمِلَتْ لإفهامِ المعاني فقط لأنَّ الرديءَ منَ الألفاظِ يقومُ مقامَ جيّدِها في الإفهامِ وإنّما يدلُّ حُسْنُ الكلامِ وإحكامُ صنعتِهِ ورونقُ ألفاظِهِ وجودةُ مطالعِهِ وحُسْنُ مقاطعِهِ وبديعُ مبادئِهِ وغريبُ مبانيهِ على فضلِ قائلِهِ وفهمِ مُنشئِهِ . وأكثرُ هذهِ الأوصافِ ترجعُ إلى الألفاظِ دونَ المعاني . وتوخّي صوابِ المعنى أحسنُ من توخّي هذهِ الأمورِ في الألفاظِ . فلهذا تأنّقَ الكاتبُ في الرسالةِ والخطيبُ في الخطبةِ والشاعرُ في القصيدةِ وهم يبالغونَ في تجويدِها . ويغلونَ في ترتيبِها ليدلّوا على براعتِهم وحذقِهم بصناعتِهم . ولو كانَ الأمرُ في المعاني لطرحوا أكثرَ ذلكَ فربحوا كدًّا كثيرًا وأسقطوا عن أنفسِهم تعبًا طويلًا . ولهذا دليلٌ آخرُ : أنَّ الكلامَ إذا كانَ لفظُهُ حلوًا عذبًا وسلسًا سهلًا ومعناهُ وسطًا دخلَ في جملةِ الجيّدِ وجرى مع الرائعِ النادرِ كقولِ الشاعرِ :

ولمّا قضينا من منًى كلَّ حاجةٍ ... ومسّحَ بالأركانِ من هو ماسحُ

وشُدَّتْ على حُدْبِ المهاري رحالُنا ... ولم ينظرِ الغادي الذي هو رائحُ

أخذنا بأطرافِ الأحاديثِ بيننا ... وسالتْ بأعناقِ المطيِّ الأباطحُ

وليسَ تحتَ هذهِ الألفاظِ كبيرُ معنًى وهي رائقةٌ مُعجِبةٌ . وإنّما

هيَ : وَلَمَّا قَضَينا ٱلحَجَّ وَمَسَّحنا ٱلأَرْكانَ وَشُدَّتْ رِحالُنا على مَهازِيلِ ٱلإِبلِ وَلَمْ يَنتَظِرْ بَعضُنا بَعضاً جَعَلنا نَتَحدَّثُ وَتَسيرُ بِنا ٱلإِبلُ في بُطُونِ ٱلأَوْدِيَةِ . وَإِذا كانَ ٱلمَعنى صَوابًا وَٱللَّفظُ بارِدًا وَفاتِرًا وَٱلفاتِرُ شَرٌّ مِنَ ٱلبارِدِ كانَ مُستَهجَنًا مَلفُوظًا وَمَذمُومًا مَرْدُودًا . وَٱلبارِدُ مِنَ ٱلشِّعرِ كَقَوْلِ عَمرِو بنِ مَعدِي كَرِبَ :

قَدْ عَلِمَتْ سَلمى وَجارَاتُها　　　مَا قَطَّــرَ ٱلفارِسُ إِلَّا أَنا
شَكَكتُ بِٱلرُّمحِ سَرابِيلَهُ　　　وَٱلخَيلُ تَعــدُو زِيَمًا حَولَنا

وَقَوْلِ أَبِي ٱلعَتاهِيَةِ :

مَاتَ وَٱللهِ سَعِيدُ بنُ وَهبِ　　　رَحِمَ ٱللهُ سَعِيدَ بنَ وَهبِ
يا أَبا عُثمانَ أَبكَيتَ عَيني　　　يا أَبا عُثمانَ أَوجَعتَ قَلبي

وَلا خَيرَ فِي ٱلمَعانِي إِذا ٱستُكرِهَتْ قَهرًا وَفِي ٱلأَلفاظِ إِذا جَرَتْ قَسرًا . وَلا خَيرَ فِيما أُجِيدَ لَفظُهُ إِذا سَخُفَ مَعناهُ . وَلا فِي غَرابَةِ ٱلمَعنى إِلَّا إِذا شَرُفَ لَفظُهُ مَعَ وُضُوحِ ٱلمَغزى وَظُهُورِ ٱلمَقصَدِ . وَقَدْ غَلَبَ ٱلجَهلُ عَلى قَوْمٍ فَصارُوا يَستَجِيدُونَ ٱلكَلامَ إِذا لَمْ يَقِفُوا عَلى مَعناهُ بِكَدٍّ وَيَستَفصِحُونَهُ إِذا وَجَدُوا أَلفاظَهُ كَزَّةً غَلِيظَةً وَجاسِئَةً غَرِيبَةً . وَيَستَحقِرُونَ ٱلكَلامَ إِذا رَأَوهُ سَلِسًا عَذبًا وَسَهلًا حُلوًا . وَلَمْ يَعلَمُوا أَنَّ ٱلسَّهلَ أَمنَعُ جانِبًا وَأَعَزُّ مَطلَبًا وَهُوَ أَحسَنُ مَوقِعًا وَأَعذَبُ مُستَمَعًا وَلِهٰذا قِيلَ : أَجوَدُ ٱلكَلامِ ٱلسَّهلُ ٱلمُمتَنِعُ . وَصَفَ ٱلفَضلُ بنُ سَهلٍ عَمرَو ٱبنَ مَسعَدَةَ فَقالَ : هُوَ أَبلَغُ ٱلنّاسِ . وَمِن بَلاغَتِهِ أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَظُنُّ أَنْ يَكتُبَ مِثلَ كُتُبِهِ فَإِذا رآها تَعَذَّرَ عَلَيــهِ . حَدَّثَنا ٱلحَسَنُ بنُ

مُخَلَّدٍ قَالَ: أَنْشَدَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ ٱلْعَبَّاسِ لِخَالِهِ ٱلْعَبَّاسِ بْنِ ٱلْأَحْنَفِ:

إِنْ قَالَ لَمْ يَفْعَلْ وَإِنْ سُئِلْ لَمْ م يَبْذُلْ وَإِنْ عُوتِبَ لَمْ يُعْتِبِ

صَبٌّ بِعِصْيَانِي وَلَوْ قَالَ لِي لَا تَشْرَبِ ٱلْبَارِدَ لَمْ أَشْرَبِ

ثُمَّ قَالَ: هٰذَا ٱلشِّعْرُ ٱلْحَسَنُ ٱلْمَعْنَى ٱلسَّهْلُ ٱللَّفْظِ ٱلْعَذْبُ ٱلْمُسْتَمَعِ ٱلْقَلِيلُ ٱلنَّظِيرِ ٱلْعَزِيزُ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْمُطْمِعُ ٱلْمُمْتَنِعُ ٱلْبَعِيدُ مَعَ قُرْبِهِ ٱلصَّعْبُ فِي سُهُولَتِهِ. (قَالَ) فَجَعَلْنَا نَقُولُ: هٰذَا ٱلْكَلَامُ أَحْسَنُ مِنْ شِعْرِهِ. وَمِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْمَطْبُوعِ ٱلسَّهْلِ مَا وَقَّعَ بِهِ عَلِيُّ بْنُ عِيسَى: قَدْ بَلَّغْتُكَ أَقْصَى طِلْبَتِكَ وَأَنَلْتُكَ غَايَةَ بُغْيَتِكَ وَأَنْتَ مَعَ ذٰلِكَ تَسْتَقِلُّ كَثِيرِي لَكَ وَتَسْتَقْبِحُ حَسَنِي فِيكَ. فَأَنْتَ كَمَا قَالَ رُؤْبَةُ:

كَٱلْحُوتِ لَا يَكْفِيهِ شَيْءٌ يَلْهَمُهْ يُصْبِحُ ظَمْآنَ وَفِي ٱلْبَحْرِ فَمُهْ

وَمِنَ ٱلْمَنْظُومِ ٱلْمُطْمِعِ قَوْلُ ٱلْبُحْتُرِيِّ:

أَيُّهَا ٱلرَّاغِبُ ٱلَّذِي طَلَبَ ٱلْجُو دَ فَأَبْلَى كُومَ ٱلْمَطَايَا وَأَنْضَى

رِدْ حِيَاضَ ٱلْإِمَامِ تَلْقَ نَوَالًا يَسَعُ ٱلرَّاغِبِينَ طُولًا وَعَرْضَا

هُوَ أَنْدَى مِنَ ٱلْغَمَامِ وَأَوْحَى وَقَعَاتٍ مِنَ ٱلْحُسَامِ وَأَمْضَى

يَتَوَخَّى ٱلْإِحْسَانَ قَوْلًا وَفِعْلًا وَيُطِيعُ ٱلْإِلٰهَ بَسْطًا وَقَبْضَا

فَضَّلَ ٱللّٰهُ جَعْفَرًا بِخِلَالٍ جَعَلَتْ حُبَّهُ عَلَى ٱلنَّاسِ فَرْضَا

وَأَرَى ٱلْمَجْدَ بَيْنَ عَارِفَةٍ مِنْكَ م تُرَجَّى وَعَزْمَةٍ مِنْكَ تُمْضَى

وَقَوْلُهُ:

خَلَقَ ٱللّٰهُ جَعْفَرًا قَيِّمَ ٱلدُّنْيَا م سَدَادًا وَقَيِّمَ ٱلدِّينِ رُشْدَا

أَكْرَمُ ٱلنَّاسِ شِيمَةً وَأَتَمُّ م ٱلنَّاسِ حِلْمًا وَأَكْثَرُ ٱلنَّاسِ رِفْدَا

هُوَ بَحْرُ ٱلسَّمَاحِ وَٱلْجُودِ فَازْدَدْ … مِنْهُ قُرْبًا تَزْدَدْ مِنَ ٱلْفَقْرِ بُعْدَا
يَا ثِمَالَ ٱلدُّنْيَا عَطَاءً وَبَذْلًا … وَكَمَالَ ٱلدُّنْيَا سَنَاءً وَمَجْدَا
اِبْقَ عُمْرَ ٱلزَّمَانِ حَتَّى نُؤَدِّي … شُكْرَ إِحْسَانِكَ ٱلَّذِي لَا يُؤَدَّى

وَأَمَّا ٱلْجَزْلُ ٱلْمُخْتَارُ مِنَ ٱلْكَلَامِ فَهُوَ ٱلَّذِي تَعْرِفُهُ ٱلْعَامَّةُ إِذَا سَمِعَتْهُ وَلَا تَسْتَعْمِلُهُ فِي مُحَاوَرَاتِهَا. فَمِنَ ٱلْجَزْلِ ٱلْجَيِّدِ ٱلْمُخْتَارِ قَوْلُ مُسْلِمٍ:

وَرَدْنَا رِوَاقَ ٱلْفَضْلِ فَضْلِ بْنِ جَعْفَرٍ … فَحَطَّ إِلَيْنَا ٱلْجَزْلَ نَائِلُهُ ٱلْجَزْلُ
بِكَفَّيْ أَبِي ٱلْعَبَّاسِ يُسْتَمْطَرُ ٱلْغِنَى … وَيُسْتَنْزَلُ ٱلنُّعْمَى وَيُسْتَرْعَفُ ٱلنَّصْلُ
وَيُسْتَعْطَفُ ٱلْأَمْرُ ٱلْأَبِيُّ بِحَزْمِهِ … إِذَا ٱلْأَمْرُ لَمْ يَعْطِفْهُ نَقْضٌ وَلَا فَتْلُ

وَمِمَّا هُوَ خَيْرٌ مِنْ هٰذَا قَوْلُ ٱلْمَرَّارِ ٱلْفَقْعَسِيِّ:

لَا تَسْأَلِي ٱلْقَوْمَ عَنْ مَالِي وَكَثْرَتِهِ … قَدْ يُقْتِرُ ٱلْمَرْءُ يَوْمًا وَهْوَ مَحْمُودُ
أَمْضِي عَلَى سُنَّةٍ مِنْ وَالِدِي سَلَفَتْ … وَفِي أَرُومَتِهِ مَا يُنْبِتُ ٱلْعُودُ

فَهٰذَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ كَلَامِ ٱلْعَامَّةِ فَإِنَّهُمْ يَعْرِفُونَ ٱلْغَرَضَ وَيَقِفُونَ عَلَى أَكْثَرِ مَعَانِيهِ لِحُسْنِ تَرْتِيبِهِ وَجُودَةِ نَسْجِهِ

وَمِنَ ٱلنَّثْرِ قَوْلُ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ: أَعْطَانَا ٱلدَّهْرُ فَأَسْرَفَ. ثُمَّ عَطَفَ عَلَيْنَا فَعَسَفَ. وَقَوْلُ سَعِيدِ بْنِ حُمَيْدٍ: وَأَنَا مَنْ لَا يُحَاجُّكَ عَنْ نَفْسِهِ. وَلَا يُغَالِطُكَ عَنْ جُرْمِهِ. وَلَا يَلْتَمِسُ رِضَاكَ إِلَّا مِنْ جِهَتِهِ. وَلَا يَسْتَدْعِي بِرَّكَ إِلَّا مِنْ طَرِيقَتِهِ. وَلَا يَسْتَعْطِفُكَ إِلَّا بِٱلْإِقْرَارِ بِٱلذَّنْبِ. وَلَا يَسْتَمِيلُكَ إِلَّا بِٱلِٱعْتِرَافِ. نَبَتْ بِي عَنْكَ غِرَّةُ ٱلْحَدَاثَةِ. وَرَدَّتْنِي إِلَيْكَ ٱلْحُنْكَةُ. وَبَاعَدَتْنِي مِنْكَ ٱلثِّقَةُ بِٱلْأَيَّامِ فَأَدَّتْنِي إِلَيْكَ ٱلضَّرُورَةُ. فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَسْتَقْبِلَ ٱلصَّنِيعَةَ بِقَبُولِ ٱلْعُذْرِ

وَتُجَدِّدَ ٱلنِّعْمَةَ بِٱطِّرَاحِ ٱلْحِقْدِ فَإِنَّ قَدِيمَ ٱلْحُرْمَةِ وَحَدِيثَ ٱلتَّوْبَةِ يَمْحَقَانِ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ ٱلْإِسَاءَةِ . فَإِنَّ أَيَّامَ ٱلْقُدْرَةِ وَإِنْ طَالَتْ قَصِيرَةٌ وَٱلْمُتْعَةَ بِهَا وَإِنْ كَثُرَتْ قَلِيلَةٌ فَعَلْتَ . وَفِي هٰذَا ٱلْكَلَامِ وَمَا قَبْلَهُ قُوَّةٌ فِي سُهُولَةٍ . وَمِمَّا هُوَ أَجْزَلُ مِنْ هٰذَا قَوْلُ ٱلشَّعْبِيِّ لِلْحَجَّاجِ وَأَرَادَ قَتْلَهُ لِخُرُوجِهِ عَلَيْهِ مَعَ ٱبْنِ ٱلْأَشْعَثِ : أَجْدَبَ بِنَا ٱلْجَنَابُ وَأَحْزَنَ بِنَا ٱلْمَنْزِلُ وَٱسْتَحْلَسْنَا ٱلْحَذَرَ وَٱكْتَحَلْنَا ٱلسَّهَرَ . وَأَصَابَتْنَا فِتْنَةٌ وَلَمْ نَكُنْ فِيهَا بَرَرَةً أَتْقِيَاءَ وَلَا فَجَرَةً أَقْوِيَاءَ . فَعَفَا عَنْهُ . وَأَجْوَدُ ٱلْكَلَامِ مَا يَكُونُ جَزْلًا سَهْلًا لَا يَنْغَلِقُ مَعْنَاهُ وَلَا يُسْتَبْهَمُ مَغْزَاهُ . وَلَا يَكُونُ مَكْدُودًا مُسْتَكْرَهًا وَمُتَوَعِّرًا مُتَقَعِّرًا . وَيَكُونُ بَرِيئًا مِنَ ٱلْغَثَاثَةِ عَارِيًا مِنَ ٱلرَّثَاثَةِ . وَٱلْكَلَامُ إِذَا كَانَ لَفْظُهُ غَثًّا وَمَعْرِضُهُ رَثًّا كَانَ مَرْدُودًا وَلَوِ ٱحْتَوَى عَلَى أَجَلِّ مَعْنًى وَأَنْبَلِهِ وَأَرْفَعِهِ وَأَفْضَلِهِ كَقَوْلِهِ :

لَمَّا أَطَعْنَاكُمْ فِي سُخْطِ خَالِقِنَا لَا شَكَّ سُلَّ عَلَيْنَا سَيْفُ نِقْمَتِهِ

وَقَوْلِ ٱلْآخَرِ :

أَرَى رِجَالًا بِأَدْنَى ٱلدِّينِ قَدْ قَنِعُوا وَلَا أَرَاهُمْ رَضُوا فِي ٱلْعَيْشِ بِٱلدُّونِ
فَٱسْتَغْنِ بِٱلدِّينِ عَنْ دُنْيَا ٱلْمُلُوكِ كَمَا ٱسْتَغْنَى ٱلْمُلُوكُ بِدُنْيَاهُمْ عَنِ ٱلدِّينِ

وَلَا يَدْخُلُ هٰذَا فِي جُمْلَةِ ٱلْمُخْتَارِ وَمَعْنَاهُ كَمَا تَرَى نَبِيلٌ فَاضِلٌ جَلِيلٌ . وَأَمَّا ٱلْجَزْلُ ٱلرَّدِيءُ ٱلْفَجُّ ٱلَّذِي يَنْبَغِي تَرْكُ ٱسْتِعْمَالِهِ فَمِثْلُ قَوْلِ تَأَبَّطَ شَرًّا وَكَانَ خَرَجَ مَعَ صَاحِبَيْنِ لَهُ فَقُتِلَا فِي ٱلْغَزْوِ وَرَجَعَ هُوَ سَالِمًا :

إِذَا مَا تَرَكْتُ صَاحِبِيَّ لِثَلَاثَةٍ أَوِ ٱثْنَيْنِ مِثْلَيْنَا فَلَا أُبْتُ آمِنَا
وَلَمَّا سَمِعْتُ ٱلْعُوصَ تَدْعُو تَنَفَّرَتْ عَصَافِيرُ رَأْسِي مِنْ غُوَاةٍ فَرَاتِنَا

وَخَشْخَشْتُ مَشْغُوفَ ٱلنَّجَاءِ كَأَنَّنِي هِجَفٌّ رَأَى قَصْرًا سِمَاكًا وَدَاجِنَا
مِنَ ٱلْحُصِّ هُزْرُوفٌ كَأَنَّ عِفَاءَهُ إِذَا ٱسْتَدْرَجَ ٱلْفَيْفَا وَمَدَّ ٱلْمَغَابِنَا
أَزَجُّ زَلُوجٌ هُزْرُفِيٌّ زَفَازِفٌ هِزَفٌّ يَبِذُّ ٱلنَّاجِيَاتِ ٱلصَّوَافِنَا

فَهٰذَا مِنَ ٱلْجَزْلِ ٱلْبَغِيضِ ٱلْجِلْفِ ٱلْفَاسِدِ ٱلنَّسْجِ ٱلْقَبِيحِ ٱلرَّصْفِ ٱلَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُتَجَنَّبَ مِثْلُهُ وَتَمْيِيزُ ٱلْأَلْفَاظِ شَدِيدٌ . وَلَوْلَا كَرَاهَةُ ٱلْإِطَالَةِ وَتَخَوُّفُ ٱلْإِمْلَالِ لَزِدْتُ مِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ وَلٰكِنْ يَكْفِي مِنَ ٱلْبَحْرِ جَرْعَةٌ . قَالُوا : وَخَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا قَلَّ وَجَلَّ وَدَلَّ وَلَمْ يُمَلَّ

البحث الثاني

في التنبيه على خطإ المعاني وصوابها

(من كتاب الصناعتين للعسكري)

إِنَّ ٱلْكَلَامَ أَلْفَاظٌ تَشْتَمِلُ عَلَى مَعَانٍ تَدُلُّ عَلَيْهَا وَتُعَبِّرُ عَنْهَا فَيَحْتَاجُ صَاحِبُ ٱلْبَلَاغَةِ إِلَى إِصَابَةِ ٱلْمَعْنَى كَحَاجَتِهِ إِلَى تَحْسِينِ ٱللَّفْظِ . لِأَنَّ ٱلْمَدَارَ بَعْدَ ٱللَّفْظِ عَلَى إِصَابَةِ ٱلْمَعْنَى . وَٱلْمَعَانِي تَحُلُّ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَحَلَّ ٱلْأَبْدَانِ وَٱلْأَلْفَاظُ تَجْرِي مَعَهَا مَجْرَى ٱلْكُسْوَةِ . وَمَرْتَبَةُ إِحْدَاهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَى مَعْرُوفَةٌ وَمَنْ عَرَفَ تَرْتِيبَ ٱلْمَعَانِي وَٱسْتِعْمَالَ ٱلْأَلْفَاظِ عَلَى وُجُوهِهَا بِلُغَةٍ مِنَ ٱللُّغَاتِ ثُمَّ ٱنْتَقَلَ إِلَى لُغَةٍ أُخْرَى تَهَيَّأَ لَهُ فِيهَا مِنْ صَنْعَةِ ٱلْكَلَامِ مِثْلُ مَا تَهَيَّأَ لَهُ مِنَ ٱلْأُولَى . أَلَا تَرَى أَنَّ عَبْدَ ٱلْحَمِيدِ ٱلْكَاتِبَ ٱسْتَخْرَجَ أَمْثِلَةَ ٱلْكِتَابَةِ ٱلَّتِي رَسَمَهَا لِمَنْ بَعْدَهُ مِنَ ٱللِّسَانِ ٱلْفَارِسِيِّ فَحَوَّلَهَا إِلَى ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ . فَلَا يَكْمُلُ لِصِنَاعَةِ ٱلْكَلَامِ إِلَّا مَنْ يَكْمُلُ لِإِصَابَةِ ٱلْمَعْنَى وَتَصْحِيحِ ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْرِفَةِ بِوُجُوهِ ٱلْاِسْتِعْمَالِ .

وَٱلْمَعَانِي عَلَى ضَرْبَيْنِ : ضَرْبٌ يَبْتَدِعُهُ صَاحِبُ ٱلصِّنَاعَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لَهُ إِمَامٌ يَقْتَدِي بِهِ فِيهِ أَوْ رُسُومٌ قَائِمَةٌ فِي أَمْثِلَةٍ مَاثِلَةٍ يَعْمَلُ عَلَيْهَا . وَهٰذَا ٱلضَّرْبُ رُبَّمَا يَقَعُ عَلَيْهِ عِنْدَ ٱلْخُطُوبِ ٱلْحَادِثَةِ وَيُتَنَبَّهُ لَهُ عِنْدَ ٱلْأُمُورِ ٱلطَّارِئَةِ .وَٱلْآخَرُ مَا يَحْتَذِيهِ عَلَى مِثَالٍ تَقَدَّمَ وَرَسْمٍ فُرِضَ. وَيَنْبَغِي أَنْ تُطْلَبَ ٱلْإِصَابَةُ فِي جَمِيعِ ذٰلِكَ وَتُتَوَخَّى فِيهِ ٱلصُّورَةُ ٱلْمَقْبُولَةُ وَٱلْعِبَارَةُ ٱلْمُسْتَحْسَنَةُ وَلَا يَتَّكِلَ فِيمَا ٱبْتَكَرَهُ عَلَى فَضِيلَةِ ٱبْتِكَارِهِ إِيَّاهُ . وَلَا يَغُرُّهُ ٱبْتِدَاعُهُ لَهُ فَيُسَاهِلَ نَفْسَهُ فِي تَهْجِينِ صُورَتِهِ فَيَذْهَبَ حُسْنُهُ وَيُطْمَسُ نُورُهُ وَيَكُونُ فِيهِ أَقْرَبَ إِلَى ٱلذَّمِّ مِنْهُ إِلَى ٱلْحَمْدِ . وَٱلْمَعَانِي بَعْدَ ذٰلِكَ عَلَى وُجُوهٍ: مِنْهَا مَا هُوَ مُسْتَقِيمٌ حَسَنٌ نَحْوُ قَوْلِكَ : رَأَيْتُ زَيْدًا . وَمِنْهَا مَا هُوَ مُسْتَقِيمٌ قَبِيحٌ نَحْوُ قَوْلِكَ : قَدْ زَيْدًا رَأَيْتُ. وَإِنَّمَا قَبُحَ لِأَنَّكَ أَفْسَدتَّ ٱلنِّظَامَ بِٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ. وَمِنْهَا مَا هُوَ مُسْتَقِيمُ ٱلنَّظْمِ وَهُوَ كَذِبٌ مِثْلُ قَوْلِكَ : حَمَلْتُ ٱلْجَبَلَ وَشَرِبْتُ مَاءَ ٱلْبَحْرِ. وَمِنْهَا مَا هُوَ مُحَالٌ كَقَوْلِكَ: آتِيكَ أَمْسِ وَأَتَيْتُكَ غَدًا . وَكُلُّ ذٰلِكَ مُحَالٌ فَاسِدٌ . وَلَيْسَ كُلُّ فَاسِدٍ مُحَالًا. أَلَا تَرَى أَنَّ قَوْلَكَ : قَامَ زَيْدٍ. فَاسِدٌ وَلَيْسَ بِمُحَالٍ . وَٱلْمُحَالُ مَا لَا يَجُوزُ كَوْنُهُ أَلْبَتَّةَ كَقَوْلِكَ: ٱلدُّنْيَا فِي بَيْضَةٍ . وَأَمَّا قَوْلُكَ: حَمَلْتُ ٱلْجَبَلَ وَأَشْبَاهُهُ وَأَمْثَالُهُ فَكَذِبٌ . وَلَيْسَ بِمُحَالٍ إِنْ جَازَ أَنْ يَزِيدَ ٱللّٰهُ فِي قُدْرَتِكَ فَتَحْمِلَهُ . وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ٱلْكَلَامُ ٱلْوَاحِدُ كَذِبًا مُحَالًا وَهُوَ قَوْلُكَ : رَأَيْتُ قَاعِدًا قَائِمًا وَمَرَرْتُ بِيَقْظَانَ نَائِمٍ . فَتَصِلُ كَذِبًا بِمُحَالٍ فَصَارَ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْكَذِبُ هُوَ ٱلْمُحَالَ بِٱلْجَمْعِ بَيْنَهُمَا . وَإِنْ كَانَ لِكُلٍّ

منهما معنى على حياله . وذلك لأن بعضها عقد ببعض حتى صارا كلاما واحدا. ومنها الغلط وهو ان تقول: ضربني زيدٌ. وانت تريد: ضربت زيدا. فغلطت. فان تعمدت ذلك كان كذبا. وللخطإ صور مختلفة نبّهت على اشياء منها في هذا الفصل وبيّنت وجوهها وشرحت ابوابها لتقف عليها فتتجنبها كما عرّفتك بمواضع الصواب لتعتمدها. وليكون فيما اوردت دلالة على امثاله مما تركت . ومن لا يعرف الخطأ كان جديرا بالوقوع فيه . فمن ذلك قول امرئ القيس :

الم تسأل الربع القديم بعسعسا كأني أنادي او أكلم اخرسا

هذا من التشبيه الفاسد لانه لا يقال : كلمت حجرا فلم يجب فكأنه كان حجرا . والذي جاء به امرؤ القيس مقلوب. والجيد قول كثيّر في امرأة :

فقلت لها يا عزّ كل مصيبة اذا وطنت يوما لها النفس ذلّت

كأني أنادي صخرة حين اعرضت من الصمّ لو تمشي بها العصم زلّت

فشبه المرأة عند السكوت والتغافل بالصخرة. ومثله قول ابن احمر :

لم يدر ما نسج اليرندج قبلها ودراس اعوص دارس متجدد

ظن ان اليرندج ينسج . واليرندج جلد اسود يعمل منها الخفاف فارسي معرب واصله : رنده . ومثله قول اوس بن حجر :

ومن انابيب تفاح ورمان

ظن ان الرمان والتفاح انابيب . وقيل: ان الانابيب الطرائق التي في الرمان . واذا حمل على هذا الوجه صح المعنى . ومما اخذ على

امرئ القيس قوله في الفرس :

فللسوط الهوب وللساق درة ... وللزجر منه وقع اخرج مهذب

فلو وصف اخس حمار واضعفه ما زاد على ذلك . والجيد قوله :

على سابح يعطيك قبل سؤاله ... افانين جري غير كز ولا واني

وما سمعنا اجود ولا ابلغ من قوله : افانين جري . وقول علقمة :

فادركهن ثانيا من عنانه ... يمر كمر الرائح المتحلب

فادرك طريدته وهو ثان من عنانه لم يضربه بسوط ولم يمره بساق ولم يزجره بصوت ومما يعاب قول الاخطل :

وقد جعل الله الخلافة منهم ... لابلج لا عاري الخوان ولا جدب

يقوله في عبد الملك . ومثل هذا لا يمدح به الملوك . وانما تمدح الملوك بمثل قول الشاعر :

له همم لا منتهى لكبارها ... وهمته الصغرى اجل من الدهر

له راحة لو ان معشار جودها ... على البر كان البر اندى من البحر

ومن الخطا قول جنادة :

من حبه اتمنى ان يلاقيني ... من نحو بلدته ناع فينعاه

لكي يكون فراق لا لقاء له ... وتضمر النفس يأسا ثم تسلاه

فاذا تمنى المحب لحبيبه الموت فما عسى ان يتمنى المبغض لبغيضه . وشتان ما بين هذا وبين من يقول :

الا ليتنا عشنا جميعا وكان بي ... من الداء ما لا يعرف الناس ما بيا

فهذا اقرب الى الصواب ولو ان جنادة كان يتمنى وصله ولقاءه

لَكَانَ قَدْ قَضَى وَطَرًا مِنَ ٱلْمُنَى وَلَمْ تَلْزَمْهُ ٱلْهُجْنَةُ . كَمَا قَالَ ٱلْعَبَّاسُ ٱبْنُ ٱلْأَحْنَفِ :

فَإِنْ تَبْخَلُوا عَنِّي بِبَذْلِ نَوَالِكُمْ وَبِٱلْوَصْلِ مِنْكُمْ كَيْ أُصَبَّ وَأَحْزَنَا
فَإِنِّي بِلَذَّاتِ ٱلْمُنَى وَنَعِيمِهَا أَعِيشُ إِلَى أَنْ يَجْمَعَ ٱللّٰهُ بَيْنَنَا

وَمِنْ وَضْعِ ٱلشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ قَوْلُ ٱلشَّاعِرِ :

يَمْشِي بِهَا كُلُّ مَوْشِيٍّ أَكَارِعُهُ مَشْيَ ٱلْهَرَابِذِ حَجُّوا بِيعَةَ ٱلزُّورِ

فَٱلْغَلَطُ فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ : أَحَدُهَا أَنَّ ٱلْهَرَابِذَ ٱلْمَجُوسُ لَا ٱلنَّصَارَى . وَٱلثَّانِي أَنَّ ٱلْبِيعَةَ لِلنَّصَارَى لَا لِلْمَجُوسِ . وَٱلثَّالِثُ أَنَّ ٱلنَّصَارَى لَا يَعْبُدُونَ ٱلْأَصْنَامَ وَلَا ٱلْمَجُوسُ . وَمِنَ ٱلْمُحَالِ ٱلَّذِي لَا وَجْهَ لَهُ قَوْلُ ٱلْقَسِّ :

وَإِنِّي إِذَا مَا ٱلْمَوْتُ حَلَّ بِنَفْسِهَا يُزَالُ بِنَفْسِي قَبْلَ ذَاكَ فَأُقْبَرُ

وَهٰذَا شَبِيهٌ بِقَوْلِ قَائِلٍ لَوْ قَالَ : اذَا دَخَلَ زَيْدٌ ٱلدَّارَ دَخَلَ عَمْرٌو قَبْلَهُ وَهٰذَا عَيْنُ ٱلْمُحَالِ ٱلْمُمْتَنِعِ ٱلَّذِي لَا يَجُوزُ كَوْنُهُ . وَمِنْ عُيُوبِ ٱلْمَعْنَى مُخَالَفَةُ ٱلْعُرْفِ وَذِكْرُ مَا لَيْسَ فِي ٱلْعَادَةِ كَقَوْلِ ٱلْمَرَّارِ :

وَخَالٍ عَلَى خَدَّيْهِ يَبْدُو كَأَنَّهُ سَنَا ٱلْبَدْرِ فِي دَعْجَاءَ بَادٍ دُجُونُهَا

وَٱلْمَعْرُوفُ أَنَّ ٱلْخِيلَانَ سُودٌ أَوْ سُمْرٌ وَٱلْخُدُودَ ٱلْحَسَنَةَ إِنَّمَا هِيَ ٱلْبِيضُ . فَأَتَى هٰذَا ٱلشَّاعِرُ بِقَلْبِ ٱلْمَعْنَى . وَمِنَ ٱلْمَعَانِي مَا يَكُونُ مُقَصِّرًا غَيْرَ بَالِغٍ مَبْلَغَ غَيْرِهِ فِي ٱلْإِحْسَانِ . وَمِنْ عُيُوبِ ٱلْمَدِيحِ عُدُولُ ٱلْمَادِحِ عَنِ ٱلْفَضَائِلِ ٱلَّتِي تَخْتَصُّ بِٱلنَّفْسِ مِنَ ٱلْعَقْلِ وَٱلْعِفَّةِ وَٱلْعَدْلِ وَٱلشَّجَاعَةِ إِلَى مَا يَلِيقُ بِأَوْصَافِ ٱلْجِسْمِ مِنَ ٱلْحُسْنِ وَٱلْبَهَاءِ وَٱلزِّينَةِ . كَمَا قَالَ

ٱبْنُ قَيْسِ ٱلرَّقِيَّاتِ فِي عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ :

يَأْتَلِقُ ٱلتَّاجُ فَوْقَ مَفْرِقِهِ   عَلَى جَبِينٍ كَأَنَّهُ ٱلذَّهَبُ

فَغَضِبَ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ وَقَالَ : قَدْ قُلْتَ فِي مُصْعَبٍ :

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شِهَابٌ مِنَ ٱللهِ   تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ ٱلظَّلْمَاءُ

فَأَعْطَيْتَهُ ٱلْمَدْحَ بِكَشْفِ ٱلْغُمَمِ وَجَلَاءِ ٱلظُّلَمِ وَأَعْطَيْتَنِي مَا لَا فَخْرَ فِيهِ وَهُوَ ٱعْتِدَالُ ٱلتَّاجِ فَوْقَ جَبِينِي ٱلَّذِي هُوَ كَالذَّهَبِ فِي ٱلنَّضَارَةِ .

وَمِثْلُ ذٰلِكَ قَوْلُ أَيْمَنَ بْنِ خُزَيْمٍ فِي بِشْرِ بْنِ مَرْوَانَ :

يَا ٱبْنَ ٱلْمَكَارِمِ مِنْ قُرَيْشٍ كُلِّهَا   وَٱبْنَ ٱلْخَلَائِفِ وَٱبْنَ كُلِّ قَلَمَّسِ

مِنْ فَرْعِ آدَمَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ   حَتَّى ٱنْتَهَيْتَ إِلَى أَبِيكَ ٱلْعَنْبَسِ

مَرْوَانَ إِنَّ قَنَاتَهُ خَطِّيَّةٌ   غُرِسَتْ أَرُومَتُهَا أَعَزَّ ٱلْمَغْرِسِ

وَبَنَيْتَ عِنْدَ مَقَامِ رَبِّكَ قُبَّةً   خَضْرَاءَ كُلِّلَ تَاجُهَا بِٱلْفُسْفُسِ

فَسَمَاؤُهَا ذَهَبٌ وَأَسْفَلُ أَرْضِهَا   وَرِقٌ يُلَأْلَأُ فِي صَمِيمِ ٱلْحِنْدِسِ

فَمَا فِي هٰذِهِ ٱلْأَبْيَاتِ شَيْءٌ يَتَعَلَّقُ بِٱلْمَدْحِ ٱلَّذِي يَخْتَصُّ بِٱلنَّفْسِ وَإِنَّمَا ذِكْرُ سُؤْدَدِ ٱلْآبَاءِ وَفِيهِ فَخْرٌ لِلْأَبْنَاءِ . وَلٰكِنْ لَيْسَ ٱلْعِصَامِيُّ كَٱلْعِظَامِيِّ . وَرُبَّمَا كَانَ سُؤْدَدُ ٱلْوَالِدِ وَفَضِيلَتُهُ نَقِيصَةً لِلْوَلَدِ إِذَا تَأَخَّرَ عَنْ رُتْبَةِ ٱلْوَالِدِ . وَيَكُونُ ذِكْرُ ٱلْوَالِدِ ٱلْفَاضِلِ تَقْرِيعًا لِلْوَلَدِ ٱلنَّاقِصِ . وَقِيلَ لِبَعْضِهِمْ : لِمَ لَا تَكُونُ كَأَبِيكَ . فَقَالَ : لَيْتَ أَبِي لَمْ يَكُنْ ذَا فَضْلٍ فَإِنَّ فَضْلَهُ صَارَ نَقْصًا لِي . وَقَدْ قَالَ ٱلْأَوَّلُ :

إِنَّمَا ٱلْمَجْدُ مَا بَنَى وَالِدُ ٱلصِّدْ   قِ وَأَحْيَا فَعَالَهُ ٱلْمَوْلُودُ

وَقَالَ غَيْرُهُ فِي خِلَافِهِ :

لَـئِنْ فَخَرْتَ بِآبَاءٍ ذَوِي شَرَفٍ   لَقَدْ صَدَقْتَ وَلٰكِنْ بِئْسَ مَا وَلَدُوا

وَقَالَ آخَرُ :

عَلَتْ مَقَابِحُ أَخْلَاقٍ خُصِصْتَ بِهَا   عَلَى مَحَاسِنَ أَبْقَاهَا أَبُوكَ لَكَا
لَئِنْ تَقَدَّمَ أَبْنَاءُ الْكِرَامِ بِهِ   لَقَدْ تَقَدَّمَ آبَاءُ اللِّئَامِ بِكَا

ثُمَّ ذَكَرَ أَيْمَنُ بِنَاءَ قُبَّةٍ حَسَنَةٍ وَلَيْسَ بِنَاءُ الْقِبَابِ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى جُودٍ وَكَرَمٍ . بَلْ يَجُوزُ أَنْ يَبْنِيَ اللَّئِيمُ الْبَخِيلُ الْأَبْنِيَةَ النَّفِيسَةَ وَيَتَوَسَّعَ فِي النَّفَقَةِ عَلَى الدُّورِ الْحَسَنَةِ مَعَ مَنْعِ الْحَقِّ وَرَدِّ السَّائِلِ وَلَيْسَ الْيَسَارُ مِمَّا يُمْدَحُ بِهِ مَدْحًا حَقِيقِيًّا . أَلَا تَرَى كَيْفَ يَقُولُ أَشْجَعُ السُّلَمِيُّ :

يُرِيدُ الْمُلُوكُ مَدَى جَعْفَرٍ   وَلَا يَصْنَعُونَ كَمَا يَصْنَعُ
وَلَيْسَ بِأَوْسَعِهِمْ فِي الْغِنَى   وَلٰكِنَّ مَعْرُوفَهُ أَوْسَعُ

وَالْجَيِّدُ فِي الْمَدِيحِ قَوْلُ زُهَيْرٍ :

هُنَالِكَ إِنْ يُسْتَخْوَلُوا الْمَالَ يُخْوِلُوا   وَإِنْ يُسْئَلُوا يُعْطُوا وَإِنْ يَيْسِرُوا يُغْلُوا
وَفِيهِمْ مَقَامَاتٌ حِسَانٌ وُجُوهُهُمْ   وَأَنْدِيَةٌ يَنْتَابُهَا الْقَوْلُ وَالْفِعْلُ

فَلَمَّا اسْتَتَمَّ وَصْفَهُمْ بِحُسْنِ الْمَقَالِ وَتَصْدِيقِ الْقَوْلِ بِالْفِعْلِ وَصَفَهُمْ بِحُسْنِ الْوُجُوهِ ثُمَّ قَالَ :

عَلَى مُكْثِرِيهِمْ حَقُّ مَنْ يَعْتَرِيهِمِ   وَعِنْدَ الْمُقِلِّينَ السَّمَاحَةُ وَالْبَذْلُ

فَلَمْ يُخْلِ مُكْثِرًا مِنْهُمْ وَلَا مُقِلًّا مِنْ بِرٍّ وَفَضْلٍ . ثُمَّ قَالَ :

وَإِنْ جِئْتَهُمْ أَلْفَيْتَ حَوْلَ بُيُوتِهِمْ   مَجَالِسَ قَدْ يُشْفَى بِأَحْلَامِهَا الْجَهْلُ

فَوَصَفَهُمْ بِالْحِلْمِ ثُمَّ قَالَ :

وَإِنْ قَامَ مِنْهُمْ قَائِمٌ قَالَ قَاعِدٌ   رَشَدْتَ فَلَا غُرْمٌ عَلَيْكَ وَلَا خَذْلُ

فوصفهم ايضاً بالتضافر والتعاون فلما اتى بهذه الصفات النفيسة ذكر فضل آبائهم فقال :

وما يك من فضل اتوه فانما تَوارثه آباء آبائهم قبلُ
وهل ينبت الخطيّ الا وشيجه وتُغرس الّا في منابتها النخلُ

وقول مروان بن ابي حفصة :

بنو مطرٍ يوم اللقاء كأنهم أُسودٌ لهم في غيل خفّان اشبلُ
هم المانعون الجار حتى كأنما لجارهم فوق السماكين منزلُ
بهاليل في الاسلام سادوا ولم يكن كأوّلهم في الجاهلية اوّلُ
هم القوم ان قالوا اصابوا وان دُعوا اجابوا وان أُعطوا اطابوا واجزلوا
ولا يستطيع الفاعلون فعالهم وان احسنوا في النائبات واجملوا
ثلاثٌ بامثال الجبال حباهم واحلامهم منها لدى الوزن اثقلُ

وكقول الآخر :

علّم الغيثَ الندى حتى اذا ما حكاه علّم البأسَ الاسدْ
فله الغيث مقرٌّ بالندى وله الليث مقرٌّ بالجلَدْ

ومع ما ذكرناه فانه لا ينبغي ان يخلو المدح من مناقب آباء الممدوح وتقريظ من يعرف به وينسب اليه . وانشد مروان ابن ابي حفصة :

نقرت فلا شلّت يدٌ خالديّةٌ رتقت بها الفتق الذي بين هاشمِ

فقال له الفضل قل : برمكيّةٌ . فقد يشركنا في خالد بشرٌ كثيرٌ ولا يشركنا في برمك احدٌ

وَٱلْهِجَاء أَيضًا إِذَا لَمْ يَكُنْ بِسَلْبِ ٱلصِّفَاتِ ٱلْمُسْتَحْسَنَةِ ٱلَّتِي تَخْتَصُّهَا ٱلنَّفسُ وَإِثْبَاتِ ٱلصِّفَاتِ ٱلْمُسْتَهْجَنَةِ ٱلَّتِي تَخْتَصُّهَا أَيضًا لَمْ يَكُنْ مُخْتَارًا. وَٱلِاخْتِيَارُ أَنْ تَنْسُبَ ٱلْمَهْجُوَّ إِلَى ٱللُّؤْمِ وَٱلْبُخْلِ وَٱلشَّرَهِ وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ. وَلَيسَ بِٱلْمُخْتَارِ فِي ٱلْهِجَاء أَنْ يَنْسُبَهُ إِلَى قُبْحِ ٱلْوَجْهِ وَصِغَرِ ٱلْحَجْمِ وَضُؤُولَةِ ٱلْجِسْمِ وَيَدُلُّ عَلَى ذٰلِكَ ٱلْقَائِلُ:

فَقُلْتُ لَهَا لَيسَ ٱلشُّحُوبُ عَلَى ٱلْفَتَى بِعَارٍ وَلَا خَيْرُ ٱلرِّجَالِ سَمِينُهَا

وَقَولُ ٱلْآخَرِ:

تَنَالُ ٱلْخَيْرَ مِمَّنْ تَزْدَرِيهِ وَيُخْلِفُ ظَنَّكَ ٱلرَّجُلُ ٱلطَّرِيرُ

وَقَولُ ٱلْآخَرِ:

رَأَوهُ فَازْدَرَوهُ وَهُوَ حِذْقٌ وَيَنْفَعُ أَهْلَهُ ٱلرَّجُلُ ٱلْقَبِيحُ

وَذَكَرَ ٱلسَّمَوْأَلُ أَنَّ قِلَّةَ ٱلْعَدَدِ لَيسَ بِعَيْبٍ فَقَالَ:

تُعَيِّرُنَا أَنَّا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا فَقُلْتُ لَهَا إِنَّ ٱلْكِرَامَ قَلِيلُ

وَمِنَ ٱلْهِجَاء ٱلْجَيِّدِ قَولُ بَعْضِهِمْ:

أَللُّؤْمُ أَكْرَمُ مِنْ وَبْرٍ وَوَالِدِهِ وَٱللُّؤْمُ أَكْرَمُ مِنْ وَبْرٍ وَمَا وَلَدَا

قَوْمٌ إِذَا مَا جَنَى جَانِيهِمِ أَمِنُوا مِنْ لُؤْمِ أَحْسَابِهِمْ أَنْ يُقْتَلُوا قَوَدَا

وَقَولُ أَعْشَى بَاهِلَةَ:

بَنُو تَيمٍ قَرَارَةُ كُلِّ لُؤْمٍ كَذَاكَ لِكُلِّ سَائِلَةٍ قَرَارُ

وَقَولُ ٱلْآخَرِ:

لَوْ كَانَ يَخْفَى عَلَى ٱلرَّحْمَانِ خَافِيَةٌ مِنْ خَلْقِهِ خَفِيَتْ عَنْهُ بَنُو أَسَدِ

وَمِنْ خَبِيثِ ٱلْهِجَاء قَولُ ٱلْآخَرِ:

إِنْ يَغْدِرُوا أَوْ يَجْبُنُوا أَوْ يَبْخَلُوا لَا يَحْفِلُوا

يَغْدُوا عَلَيْكَ مُرَجَّلِينَ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ :

لَوِ ٱطَّلَعَ ٱلْغُرَابُ عَلَى تَمِيمٍ وَمَا فِيهَا مِنَ ٱلسَّوْءَاتِ شَابَا

وَمِنْ خَطَإِ ٱللَّفْظِ قَوْلُ ٱلْآخَرِ :

ذَكَرْتُ أَخِي فَعَاوَدَنِي صُدَاعُ ٱلرَّأْسِ وَٱلْوَصَبُ

فَذِكْرُ ٱلرَّأْسِ مَعَ ٱلصُّدَاعِ فَضْلٌ لِأَنَّ ٱلصُّدَاعَ لَا يَكُونُ فِي ٱلرِّجْلِ وَلَا فِي غَيْرِهَا مِنَ ٱلْأَعْضَاءِ . وَفِيهِ وَجْهٌ آخَرُ مِنَ ٱلْعَيْبِ : وَهُوَ أَنَّ ٱلذَّاكِرَ لِمَا قَدْ فَاتَ مِنْ مَحْبُوبٍ يُوصَفُ بِأَلَمِ ٱلْقَلْبِ وَٱحْتِرَاقِهِ لَا بِٱلصُّدَاعِ . وَمِنْ عُيُوبِ ٱللَّفْظِ ٱرْتِكَابُ ٱلضَّرُورَاتِ فِيهِ كَمَا قَالَ ٱلْمُتَلَمِّسُ :

إِنْ تَسْلُكِي سُبُلَ ٱلْمَنَجَاةِ مُنْجِدَةً مَا عَاشَ عَمْرٌو وَمَا عُمِّرَتْ قَابُوسُ

أَرَادَ (وَمَا عُمِّرَ قَابُوسُ) . وَقَوْلُ ٱلْأَعْشَى حَكَاهُ بَعْضُ ٱلْأُدَبَاءِ وَعَابَهُ

مِنَ ٱلْقَاصِرَاتِ سُجُوفُ ٱلْحِجَالِ فَلَمْ تَرَ شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرَا

قَالَ : لَا تُوضَعُ ٱلشَّمْسُ مَعَ ٱلزَّمْهَرِيرِ (قَالَ :) وَكَانَ يَجِبُ أَنْ يَقُولَ : لَمْ تَرَ شَمْسًا وَلَا قَمَرًا وَلَمْ يُصِبْهَا حَرٌّ وَلَا قُرٌّ وَقَدْ أَخْطَأَ . وَكَقَوْلِ عَلْقَمَةَ :

يَحْمِلْنَ أُتْرُجَّةً نَضْحُ ٱلْعَبِيرِ بِهَا كَأَنَّ تَطْيَابَهَا فِي ٱلْأَنْفِ مَشْمُومُ

وَٱلتَّطْيَابُ هَا هُنَا عَلَى غَايَةِ ٱلسَّمَاجَةِ وَٱلطِّيبُ أَيْضًا مَشْمُومٌ لَا مَحَالَةَ

فَقَوْلُهُ : (كَأَنَّهُ مَشْمُومٌ) هُجْنَةٌ وَقَوْلُهُ : (فِي ٱلْأَنْفِ أَهْجَنُ). لِأَنَّ ٱلشَّمَّ لَا يَكُونُ بِٱلْعَيْنِ . وَمِنَ ٱلْمُتَنَاقِضِ قَوْلُ عُرْوَةَ بْنِ أُذَيْنَةَ :

نَزَلُوا ثَلَاثَ مِنًى بِمَنْزِلِ غِبْطَةٍ ... وَهُمُ عَلَى غَرَضٍ لَعَمْرُكَ مَا هُمُ
مُتَجَاوِرِينَ بِغَيْرِ دَارِ إِقَامَةٍ ... لَوْ قَدْ أَجَدَّ رَحِيلُهُمْ لَمْ يَنْدَمُوا

(فَقَالَ) لَبِثُوا فِي دَارِ غِبْطَةٍ ثُمَّ قَالَ : لَوْ رَحَلُوا لَمْ يَنْدَمُوا . وَمِمَّا جَاءَ فِي ذٰلِكَ مِنْ أَشْعَارِ ٱلْمُحْدَثِينَ قَوْلُ بَشَّارٍ :

وَإِذَا أَدْنَيْتَ مِنْهَا بَصَلًا ... غَلَبَ ٱلْمِسْكُ عَلَى رِيحِ ٱلْبَصَلْ

وَمِنَ ٱلْمَعَانِي ٱلْبَشِعَةِ قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ :

بِأَحْمَدَ ٱلْمُرْتَجَى فِي كُلِّ نَائِبَةٍ ... قُمْ سَيِّدِي نَعْصِ جَبَّارَ ٱلسَّمَاوَاتِ

فَهٰذَا مَعَ كُفْرِهِ مَمْقُوتٌ . وَمِنَ ٱلْخَطَإِ قَوْلُ أَبِي ٱلْعَتَاهِيَةِ :

غَنِيتَ عَلَى ٱلْوَمْلِ ٱلْقَدِيمِ غَنِيتَا ... وَضَيَّعْتَ وُدًّا كَانَ لِي وَنَسِيتَا
وَمِنْ أَعْجَبِ ٱلْأَشْيَاءِ أَنْ مَاتَ مَأْلَفِي ... وَمَا كُنْتَ تَرْعَانِي لَهُ وَبَقِيتَا
تَجَاهَلْتَ عَمَّا كُنْتَ تُحْسِنُ وَصْفَهُ ... وَمُتَّ عَنِ ٱلْإِحْسَانِ حِينَ حَيِيتَا

وَلَيْسَ مِنَ ٱلْعَجَبِ أَنْ يَمُوتَ إِنْسَانٌ وَيَبْقَى بَعْدَهُ إِنْسَانٌ آخَرُ . بَلْ هٰذِهِ عَادَةُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْمَعْهُودُ مِنْ أَمْرِهَا وَلَوْ قَالَ : (مِنْ ظُلْمِ ٱلْأَيَّامِ) كَانَ ٱلْمَعْنَى مُسْتَوِيًا . وَسَمِعْتُ بَعْضَ ٱلْأُدَبَاءِ يَقُولُ : وَمِنَ ٱلْمَعَانِي ٱلْبَارِدَةِ قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ فِي صِفَةِ ٱلْبَازِي :

فِي هَامَةٍ عَلْبَاءَ تُهْدِي مِنْسَرَا ... كَعَطْفَةِ ٱلْجِيمِ بِكَفٍّ أَعْسَرَا

ثُمَّ قَالَ :

يَقُولُ مَنْ فِيهَا بِعَقْلٍ فَكَّرَا ... لَوْ زَادَهَا عَيْنًا إِلَى فَاءٍ وَرَا

فَاتَّصَلَتْ بِالْجِيمِ صَارَ جَعْفَرَا

فَمَنْ يَجْهَلُ أَنَّ الْجِيمَ إِذَا أُضِيفَ إِلَيْهَا الْعَيْنُ وَالْفَاءُ وَالرَّاءُ يَصِيرُ (جَعْفَرَا) وَمَا يَدْخُلُ فِي صِفَةِ الْبَازِي مِنْ هٰذَا الْقَوْلِ شَيْءٌ. وَتَبِعَهُ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ:

هُنَّ الْحَمَامُ فَإِنْ كَسَرْتَ عِيَافَةً مِنْ حَائِهِنَّ فَإِنَّهُنَّ حِمَامُ

فَمَنْ ذَا الَّذِي جَهِلَ أَنَّ الْحَمَامَ إِذَا كُسِرَتْ حَاؤُهَا صَارَ حِمَامًا. وَإِنَّمَا أَرَادَ أَبُو نُوَاسٍ أَنَّهُ يُشَبِّهُ الْجِيمَ لَا يُغَادِرُ مِنْ شَبَهِهَا شَيْئًا حَتَّى لَوْ زِدْتَ عَلَيْهَا هٰذِهِ الْأَحْرُفَ صَارَتْ جَعْفَرًا لِشِدَّةِ شَبَهِهَا بِهِ وَهُوَ عِنْدِي صَوَابٌ. إِلَّا أَنَّهُ لَوِ اكْتَفَى بِقَوْلِهِ: (كَعَطْفَةِ الْجِيمِ بِكَفٍّ أَعْسَرَا) وَلَمْ يَزِدِ الزِّيَادَةَ الَّتِي بَعْدَهَا كَانَ أَجْوَدَ وَأَرْشَقَ وَأَدْخَلَ فِي مَذَاهِبِ الْفُصَحَاءِ وَأَشْبَهَ بِالشِّعْرِ الْقَدِيمِ. وَأَمَّا قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ: فَلَهُ مَعْنًى خِلَافُ مَا ذَكَرَهُ وَذٰلِكَ أَنَّهُ أَرَادَ أَنَّكَ إِذَا أَرَدْتَ الزَّجْرَ وَالْعِيَافَةَ أَدَّاكَ الْحَمَامُ إِلَى الْحِمَامِ كَمَا أَنَّ صَوْتَهَا الَّذِي تَظُنُّ أَنَّهُ بُكَاءٌ إِنَّمَا هُوَ طَرَبٌ وَيُؤَدِّيكَ إِلَى الْبُكَاءِ الْحَقِيقِيِّ وَهٰذَا مَعْنًى صَحِيحٌ. إِلَّا أَنَّ الْمَعْنَى إِذَا صَارَ بِهٰذِهِ الْمَنْزِلَةِ مِنَ الدِّقَّةِ كَانَ كَالْمُعَمَّى وَالتَّعْمِيَةُ حَيْثُ يُرَادُ الْبَيَانُ عِيٌّ. وَمِنْ عُيُوبِ الْمَعْنَى قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ فِي صِفَةِ الْأَسَدِ:

كَأَنَّمَا عَيْنُهُ إِذَا نَظَرَتْ بَارِزَةَ الْجَفْنِ عَيْنُ مَخْنُوقِ

فَوَصَفَ عَيْنَ الْأَسَدِ بِالْجُحُوظِ وَهِيَ تُوصَفُ بِالْغُؤُورِ كَقَوْلِ أَبِي زُبَيْدٍ:

وَعَيْنَانِ كَالْوَقْبَيْنِ فِي قَلْبِ صَخْرَةٍ تَرَى فِيهِمَا كَالْجَمْرَتَيْنِ تَسَعَّرَا

وَمِنَ الْغَلَطِ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ:

رَقِيقُ حَوَاشِي ٱلْحِلْمِ لَوْ أَنَّ حِلْمَهُ   بِكَفَّيْكَ مَا مَارَيْتَ فِي أَنَّهُ بُرْدُ

وَمَا وَصَفَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَلَا أَهْلِ ٱلْإِسْلَامِ ٱلْحِلْمَ بِٱلرِّقَّةِ وَإِنَّمَا يُوصَفُ بِٱلرُّجْحَانِ وَٱلرَّزَانَةِ كَمَا قَالَ أَبُو ذُؤَيْبٍ :

وَصَبْرٌ عَلَى حَدَثِ ٱلنَّائِبَاتِ   وَحِلْمٌ رَزِينٌ وَعَقْلٌ ذَكِي

وَمِثْلُ هٰذَا كَثِيرٌ وَإِذَا ذَمُّوا ٱلرَّجُلَ قَالُوا : خَفَّ حِلْمُهُ وَطَاشَ .

وَمِنَ ٱلْخَطَإِ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ :

ظَعَنُوا فَكَانَ بُكَايَ حَوْلًا بَعْدَهُمْ   ثُمَّ ٱرْعَوَيْتُ وَذَاكَ حِلْمُ لَبِيدِ

أَجْدِرْ بِجَمْرَةِ لَوْعَةٍ إِطْفَاؤُهَا   بِٱلدَّمْعِ أَنْ تَزْدَادَ طُولَ وُقُودِ

هٰذَا خِلَافُ مَا يَعْرِفُهُ ٱلنَّاسُ لِأَنَّهُمْ قَدْ أَجْمَعُوا أَنَّ ٱلْبُكَاءَ يُطْفِئُ ٱلْغَلِيلَ وَيُبَرِّدُ حَرَارَةَ ٱلْحُزْنِ وَيُزِيلُ شِدَّةَ ٱلْوَجْدِ . وَقَدْ شَهِدَ أَبُو تَمَّامٍ بِصِحَّةِ مَا ذَكَرْنَاهُ وَخَالَفَ قَوْلَهُ ٱلْأَوَّلَ فَقَالَ :

نَثَرَتْ فَرِيدَ مَدَامِعٍ لَمْ يُنْظَمِ   وَٱلدَّمْعُ يَحْمِلُ بَعْضَ ثِقْلِ ٱلْمُغْرَمِ

وَمِنَ ٱلْخَطَإِ قَوْلُ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

بَدَتْ صُفْرَةٌ فِي لَوْنِهِ إِنَّ حَمْدَهُمْ   مِنَ ٱلدُّرِّ مَا ٱصْفَرَّتْ حَوَاشِيهِ فِي ٱلْعِقْدِ

وَإِنَّمَا يُوصَفُ ٱلدُّرُّ بِشِدَّةِ ٱلْبَيَاضِ وَإِذَا أُرِيدَ ٱلْمُبَالَغَةُ فِي وَصْفِهِ وُصِفَ بِٱلنُّصُوعِ . وَمِنْ أَعْيَبِ عُيُوبِهِ ٱلصُّفْرَةُ . وَقَالُوا : كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ لِبَيَاضِهِ . وَإِذَا ٱصْفَرَّ ٱحْتِيلَ فِي إِزَالَةِ صُفْرَتِهِ لِيَتَضَوَّأَ وَٱسْتِعْمَالُ ٱلْحَوَاشِي فِي ٱلدُّرِّ أَيْضًا خَطَأٌ . وَلَوْ قَالَ : (نَوَاحِيهِ) لَكَانَ أَجْوَدَ . وَٱلْحَاشِيَةُ لِلْبُرْدِ وَٱلثَّوْبِ . فَأَمَّا حَاشِيَةُ ٱلدُّرِّ فَغَيْرُ مَعْرُوفٍ . وَفِيهَا :

وَحَرَّتْ عَلَى ٱلْأَيْدِي مَجَسَّةُ جِسْمِهِ   كَذٰلِكَ مَوْجُ ٱلْبَحْرِ مُلْتَهِبُ ٱلْوَقْدِ

وَهٰذَا غَلَطٌ لِأَنَّ ٱلْبَحْرَ غَيْرُ مُلْتَهِبِ ٱلْمَوْجِ وَلَا مُتَّقِدِ ٱلْمَاءِ . وَلَوْ كَانَ مُتَّقِدًا لَمَا أَمْكَنَ رُكُوبُهُ. وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يُعَظِّمَ أَمْرَ ٱلْمَمْدُوحِ فَجَاءَ بِمَا لَا يُعْرَفُ . وَفِيهَا :

وَلَسْتَ تَرَى شَوْكَ ٱلْقَتَادَةِ خَائِفًا سَمُومَ رِيَاحِ ٱلْقَادِحَاتِ مِنَ ٱلزَّنْدِ

وَهٰذَا خَطَأٌ لِأَنَّهُ شَبَّهَ ٱلْعَلِيلَ بِشَوْكِ ٱلْقَتَادِ لَا يَخَافُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُقْدَحُ بِٱلزِّنَادِ . وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ ٱلنَّارَ تَفْلِقُ ٱلصَّخْرَ وَتُلِينُ ٱلْحَدِيدَ فَكَيْفَ يَسْلَمُ مِنْهَا ٱلْقَتَادُ . وَلَيْسَ لِذِكْرِ ٱلسَّمُومِ وَٱلرِّيَاحِ أَيْضًا فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ فَائِدَةٌ وَلَا مَوْقِعٌ . وَنُورِدُ هٰهُنَا جُمْلَةً تَتِمُّ بِهَا مَعَانِي هٰذَا ٱلْبَابِ : يَنْبَغِي أَنْ تَعْرِفَ أَنَّ أَجْوَدَ ٱلْوَصْفِ مَا يَسْتَوْعِبُ أَكْثَرَ مَعَانِي ٱلْمَوْصُوفِ حَتَّى كَأَنَّهُ يُصَوِّرُ ٱلْمَوْصُوفَ لَكَ فَتَرَاهُ نُصْبَ عَيْنِكَ وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ يَزِيدَ بْنِ عَمْرٍو ٱلطَّائِيِّ :

أَلَا مَنْ رَأَى قَوْمِي كَأَنَّ رِجَالَهُمْ نَخِيلٌ أَتَاهَا عَاضِدٌ فَأَمَالَهَا

فَهٰذَا ٱلتَّشْبِيهُ كَأَنَّهُ يُصَوِّرُ لَكَ ٱلْقَتْلَى مُصَرَّعِينَ . وَقَوْلِ ٱلْعَتَابِيِّ فِي ٱلسَّحَابِ :

وَٱلْغَيْمُ كَٱلثَّوْبِ فِي ٱلْآفَاقِ مُنْتَشِرٌ مِنْ فَوْقِهِ طَبَقٌ مِنْ تَحْتِهِ طَبَقُ
إِنْ مَعْمَعَ ٱلرَّعْدُ فِيهِ قُلْتَ مُنْخَرِقٌ أَوْ لَأْلَأَ ٱلْبَرْقُ فِيهِ قُلْتَ مُحْتَرِقُ

وَلَمَّا كَانَتْ أَغْرَاضُ ٱلشُّعَرَاءِ كَثِيرَةً وَمَعَانِيهَا مُتَشَعِّبَةً جَمَّةً لَا يَبْلُغُهَا ٱلْإِحْصَاءُ. كَانَ مِنَ ٱلْوَجْهِ أَنْ نَذْكُرَ مَا هُوَ أَكْثَرُ ٱسْتِعْمَالًا وَأَطْوَلُ مُدَاوَمَةً وَهُوَ ٱلْمَدْحُ . وَٱلْهِجَاءُ . وَٱلْوَصْفُ . وَٱلْمَرَاثِي. وَٱلْفَخْرُ . وَقَدْ ذَكَرْتُ قَبْلَ هٰذَا ٱلْمَدِيحَ وَٱلْهِجَاءَ وَمَا يَنْبَغِي ٱسْتِعْمَالُهُ فِيهِمَا . ثُمَّ

ذَكَرْتُ ٱلْآنَ ٱلْوَصْفَ وَتَرَكْتُ ٱلْمَرَاثِيَ وَٱلْفَخْرَ . لِأَنَّهُمَا دَاخِلَانِ فِي ٱلْمَدِيحِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْفَخْرَ مَدْحُكَ نَفْسَكَ بِٱلطَّهَارَةِ وَٱلْعَفَافِ وَٱلْحِلْمِ وَٱلْعِلْمِ وَٱلْحَسَبِ وَمَا يَجْرِي مَجْرَى ذٰلِكَ . وَٱلْمَرْثِيَةُ مَدْحُ ٱلْمَيْتِ وَٱلْفَرْقُ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ ٱلْمَدِيحِ أَنْ تَقُولَ : كَانَ كَذَا وَكَذَا . وَتَقُولُ فِي ٱلْمَدِيحِ : هُوَ كَذَا وَأَنْتَ كَذَا . فَيَنْبَغِي أَنْ يُتَوَخَّى فِي ٱلْمَرْثِيَةِ مَا يُتَوَخَّى فِي ٱلْمَدِيحِ . إِلَّا أَنَّكَ إِذَا أَرَدتَّ أَنْ تَذْكُرَ ٱلْمَيْتَ بِٱلْجُودِ وَٱلشَّجَاعَةِ تَقُولُ : مَاتَ ٱلْجُودُ وَهَلَكَتِ ٱلشَّجَاعَةُ . وَلَا تَقُولُ : كَانَ فُلَانٌ جَوَادًا وَشُجَاعًا فَإِنَّ ذٰلِكَ بَارِدٌ غَيْرُ مُسْتَحْسَنٍ . وَكَذٰلِكَ مَا كَانَ ٱلْمَيْتُ يَرْكَبُهُ فِي حَيَاتِهِ . فَيَنْبَغِي أَنَّهُ لَا يُذْكَرَ أَنَّهُ يَبْكِي عَلَيْهِ مِثْلُ ٱلْخَيْلِ وَٱلْإِبِلِ وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهُمَا وَإِنَّمَا يُذْكَرُ ٱغْتِبَاطُهُمَا بِمَوْتِهِ . وَقَدْ أَحْسَنَتِ ٱلْخَنْسَاءُ حَيْثُ تَقُولُ :

فَقَدْ فَقَدَتْكَ طَلْقَةُ وَٱسْتَرَاحَتْ ‌ ‌ ‌ فَلَيْتَ ٱلْخَيْلَ فَارِسُهَا يَرَاهَا

بَلْ يُوصَفُ بِٱلْبُكَاءِ عَلَيْهِ مَنْ كَانَ يُحْسِنُ إِلَيْهِ فِي حَيَاتِهِ . كَمَا قَالَ ٱلْغَنَوِيُّ :

لِيَبْكِكَ شَيْخٌ لَمْ يَجِدْ مَنْ يُعِينُهُ ‌ ‌ ‌ وَطَاوِي ٱلْحَشَى نَائِي ٱلْمَزَارِ غَرِيبُ

فَهٰذِهِ جُمْلَةٌ إِذَا تَدَبَّرَهَا صَانِعُ ٱلْكَلَامِ ٱسْتَغْنَى بِهَا عَنْ غَيْرِهَا . وَبِٱللّٰهِ ٱلتَّوْفِيقُ



البحث الثالث

في كيفية نظم الكلام وما ينبغي استعماله في تأليفه

(عن كتاب الصناعتين باختصار)

إِذَا أَردتَ أَنْ تَصنعَ كَلاماً فَأَخطِرْ معانيَهُ بِبالكَ وتنوَّقْ لهُ كَرائِمَ ٱللَّفظِ وَٱجعلها عَلَى ذِكرٍ مِنكَ لِيَقرُبَ عَلَيكَ تَناوُلُها وَلَا يُتعِبَكَ تَطَلُّبُها . وَٱعمَلْهُ ما دُمتَ فِي شَبابِ نَشاطِكَ فَإِذَا غَشِيَكَ ٱلفُتُورُ وَتَخَوَّنَكَ ٱلمَلالُ فَأَمسِكْ . فَإِنَّ ٱلكَثيرَ مَعَ ٱلمَلالِ قَليلٌ وَٱلنَّفيسَ مَعَ ٱلضَّجَرِ خَسِيسٌ وَٱلخَواطِرَ كَٱلينابيعِ يُسقَى مِنها شَيءٌ بَعدَ شَيءٍ فَتَجِدُ حَاجَتَكَ مِنَ ٱلرِّيِّ وَتَنالُ أَرَبَكَ مِنَ ٱلمَنفَعَةِ.فَإِذَا أَكثَرتَ عَلَيها نَضَبَ ماؤُها وَقَلَّ عَنكَ غَناؤُها.وَيَنبَغِي أَنْ تَجرِيَ مَعَ ٱلكَلامِ مُعارَضَةً فَإِذَا مَرَرتَ بِلَفظٍ حَسَنٍ أَخَذتَ بِرَقَبَتِهِ أَو بِمَعنًى بَديعٍ تَعَلَّقتَ بِذَيلِهِ . وَتَحذَرُ أَنْ يَسبِقَكَ فَإِنَّهُ إِنْ سَبَقَكَ تَعِبتَ فِي تَتَبُّعِهِ وَنَصِبتَ فِي طَلَبِهِ وَلَعَلَّكَ لَا تَلحَقُهُ عَلَى طُولِ ٱلطَّلَبِ وَمُواصَلَةِ ٱلدَّأبِ وَقَدْ قالَ ٱلشَّاعِرُ :

إِذَا ضَيَّعتَ أَوَّلَ كُلِّ أَمرٍ   أَبَتْ أَعجازُهُ إِلَّا ٱلتِواءَ

وَقالُوا : يَنبَغِي لِصانِعِ ٱلكَلامِ أَنْ لَا يَتَقَدَّمَ ٱلكَلامَ تَقَدُّماً وَلَا يَتبَعَ ذُنابَاهُ تَتَبُّعاً وَلَا يَحمِلَهُ عَلَى لِسانِهِ حَملاً فَإِنَّهُ إِنْ تَقَدَّمَ ٱلكَلامَ لَمْ تَتبَعْهُ حَقيقَتُهُ وَهَزِيلُهُ وَٱعجَفُهُ وَٱلشَّارِدُ مِنهُ.وَإِنْ تَتَبَّعَهُ فَاتَتهُ سَوابِقُهُ وَلَواحِقُهُ وَتَباعَدَتْ عَنهُ جِيادُهُ وَغُرَرُهُ . وَإِنْ حَمَلَهُ عَلَى لِسانِهِ ثَقُلَتْ عَلَيهِ أَوساقُهُ وَأَعباؤُهُ وَدَخَلَتْ مَساوِيهِ فِي مَحاسِنِهِ وَلٰكِنَّهُ يَجرِي مَعَهُ

فَلَا تَنِدُّ عَنْهُ نَادَّةٌ مُعْجِبَةٌ سَهْمَاءُ إِلَّا كَبَحَهَا وَلَا تَتَخَلَّفُ عَنْهُ مُثْقَلَةٌ هَزِيلَةٌ إِلَّا أَرْهَقَهَا فَطَوْرًا تُفَرِّقُهُ لِيَخْتَارَ أَحْسَنَهُ وَطَوْرًا تَجْمَعُهُ لِتُقَرِّبَ عَلَيْكَ خُطْوَةَ الْفِكْرِ وَيَتَنَاوَلَ اللَّفْظَ مِنْ تَحْتِ لِسَانِهِ وَلَا يُسَلِّطُ الْمَلَلَ عَلَى قَلْبِهِ وَالْإِكْثَارَ عَلَى تَفَكُّرِهِ فَيَأْخُذُ عَفْوَهُ وَلَا يَسْتَغْزِرُ دَرَّهُ وَلَا يُكْرِهُ آبِيًا وَلَا يَدْفَعُ آتِيًا . وَقَالَ بِشْرُ بْنُ الْمُعْتَمِرِ : خُذْ مِنْ نَفْسِكَ سَاعَةَ نَشَاطِكَ وَفَرَاغِ بَالِكَ وَإِجَابَتِهَا لَكَ . فَإِنَّ تِلْكَ السَّاعَةَ أَكْرَمُ جَوْهَرًا وَأَشْرَفُ حُسْنًا وَأَحْسَنُ فِي الْأَسْمَاعِ وَأَحْلَى فِي الصُّدُورِ وَأَسْلَمُ مِنْ فَاحِشِ الْخَطَإِ وَأَجْلَبُ لِكُلِّ عَيْنٍ وَغُرَّةٍ مِنْ لَفْظٍ كَرِيمٍ وَمَعْنًى بَدِيعٍ . وَاعْلَمْ إِنَّ ذٰلِكَ أَجْدَى عَلَيْكَ مِمَّا يُعْطِيكَ يَوْمُكَ الْأَطْوَلُ بِالْكَدِّ وَالْمُطَالَبَةِ وَالْمُجَاهَدَةِ وَالتَّكَلُّفِ وَالْمُعَاوَدَةِ . وَمَهْمَا أَخْطَاكَ لَمْ يُخْطِئْكَ أَنْ يَكُونَ مَقْبُولًا قَصْدًا أَوْ خَفِيفًا عَلَى اللِّسَانِ سَهْلًا وَكَمَا خَرَجَ مِنْ يَنْبُوعِهِ وَنَجَمَ عَنْ مَعْدِنِهِ . وَإِيَّاكَ وَالتَّوَعُّرَ فَإِنَّ التَّوَعُّرَ يُسْلِمُكَ إِلَى التَّعْقِيدِ وَالتَّعْقِيدُ هُوَ الَّذِي يَسْتَهْلِكُ مَعَانِيَكَ وَيَشِينُ أَلْفَاظَكَ . وَمَنْ أَرَادَ مَعْنًى كَرِيمًا فَلْيَلْتَمِسْ لَفْظًا كَرِيمًا فَإِنَّ حَقَّ الْمَعْنَى الشَّرِيفِ اللَّفْظُ الشَّرِيفُ وَمِنْ حَقِّهِمَا أَنْ يَصُونَهُمَا عَمَّا يُدَنِّسُهُمَا وَيُفْسِدُهُمَا وَيُهَجِّنُهُمَا فَيَصِيرُ بِهِمَا إِلَى حَدٍّ يَكُونُ فِيهِ أَسْوَأَ حَالًا مِنْكَ قَبْلَ أَنْ تَلْتَمِسَ الْبَلَاغَةَ وَتَرْتَهِنَ نَفْسَكَ فِي مَلَابِسِهَا . فَكُنْ فِي ثَلَاثِ مَنَازِلَ . فَأَوَّلُ الثَّلَاثِ : أَنْ يَكُونَ لَفْظُكَ شَرِيفًا عَذْبًا وَفَخْمًا سَهْلًا وَيَكُونَ مَعْنَاكَ ظَاهِرًا مَكْشُوفًا وَقَرِيبًا مَعْرُوفًا . فَإِنْ كَانَتْ هٰذِهِ لَا تُوَاتِيكَ وَلَا تَسْنَحُ لَكَ عِنْدَ أَوَّلِ خَاطِرٍ وَتَجِدُ اللَّفْظَةَ لَمْ تَقَعْ مَوْقِعَهَا

وَلَمْ تَصِلْ إِلَى مَرْكَزِهَا وَلَمْ تَتَّصِلْ بِسِلْكِهَا وَكَانَتْ قَلِقَةً فِي مَوْضِعِهَا نَافِرَةً عَنْ مَكَانِهَا فَلَا تُكْرِهْهَا عَلَى اغْتِصَابِ الْأَمَاكِنِ وَالنُّزُولِ فِي غَيْرِ أَوْطَانِهَا . فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَتَعَاطَ قَرِيضَ الشِّعْرِ الْمَنْظُومِ وَلَمْ تَتَكَلَّفِ اخْتِيَارَ الْكَلَامِ الْمَنْثُورِ لَمْ يَعِبْكَ بِذَلِكَ أَحَدٌ . وَإِنْ تَكَلَّفْتَهُ وَلَمْ تَكُنْ حَاذِقًا مَطْبُوعًا وَلَا مُحْكِمًا لِشَأْنِكَ بَصِيرًا عَابَكَ مَنْ أَنْتَ أَقَلُّ عَيْبًا مِنْهُ وَزَرَى عَلَيْكَ مَنْ هُوَ دُونَكَ . فَإِنِ ابْتُلِيتَ بِتَكَلُّفِ الْقَوْلِ وَتَعَاطِي الصِّنَاعَةِ وَلَمْ تَسْمَحْ لَكَ الطَّبِيعَةُ فِي أَوَّلِ وَهْلَةٍ وَتَعَصَّى عَلَيْكَ بَعْدَ إِجَالَةِ الْفِكْرَةِ فَلَا تَعْجَلْ وَدَعْهُ سَحَابَةَ يَوْمِكَ وَلَا تَضْجَرْ وَأَمْهِلْهُ سَوَادَ لَيْلَتِكَ وَعَاوِدْهُ عِنْدَ نَشَاطِكَ فَإِنَّكَ لَا تَعْدَمُ الْإِجَابَةَ وَالْمُؤَاتَاةَ . وَإِنْ كَانَتْ هُنَاكَ طَبِيعَةٌ وَأُجْرِيتَ مِنَ الصِّنَاعَةِ عَلَى عِرْقٍ فَهِيَ الْمَنْزِلَةُ الثَّانِيَةُ . فَإِنْ تَمَنَّعَ عَلَيْكَ بَعْدَ ذَلِكَ مَعَ تَرْوِيحِ الْخَاطِرِ وَطُولِ الْإِمْهَالِ فَالْمَنْزِلَةُ الثَّالِثَةُ . أَيْ أَنْ تَتَحَوَّلَ مِنْ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ إِلَى أَشْهَى الصِّنَاعَاتِ إِلَيْكَ وَأَخَفِّهَا عَلَيْكَ فَإِنَّكَ لَمْ تَشْتَهِهَا إِلَّا وَبَيْنَكُمَا نَسَبٌ . وَالشَّيْءُ لَا يَحِنُّ إِلَّا إِلَى مَا شَاكَلَهُ وَإِنْ كَانَتِ الْمُشَاكَلَةُ قَدْ تَكُونُ فِي طَبَقَاتٍ فَإِنَّ النُّفُوسَ لَا تَجُودُ بِمَكْنُونِهَا وَلَا تَسْمَحُ بِمَخْزُونِهَا مَعَ الرَّهْبَةِ كَمَا تَجُودُ مَعَ الرَّغْبَةِ وَالْمَحَبَّةِ . وَيَنْبَغِي أَنْ تَعْرِفَ أَقْدَارَ الْمَعَانِي فَتُوَازِنَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَوْزَانِ الْمُسْتَمِعِينَ وَبَيْنَ أَقْدَارِ الْحَالَاتِ فَتَجْعَلَ لِكُلِّ طَبَقَةٍ كَلَامًا وَلِكُلِّ حَالٍ مَقَامًا حَتَّى تُقَسِّمَ أَقْدَارَ الْمَعَانِي عَلَى أَقْدَارِ الْمَقَامَاتِ وَأَقْدَارَ الْمُسْتَمِعِينَ عَلَى أَقْدَارِ الْحَالَاتِ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْمَنْفَعَةَ مَعَ مُوَافَقَةِ الْحَالِ وَمَا يَجِبُ لِكُلِّ مَقَامٍ

مِنَ ٱلْمَقَالِ . فَإِنْ كُنْتَ مُتَكَلِّمًا أَوِ ٱحْتَجْتَ إِلَى عَمَلِ خُطْبَةٍ لِبَعْضِ مَنْ تَصْلُحُ لَهُ ٱلْخُطَبُ أَوْ قَصِيدَةٍ لِبَعْضِ مَا يُرَادُ لَهُ ٱلْقَصْدُ فَتَخَطَّ أَلْفَاظَ ٱلْمُتَكَلِّمِينَ مِثْلَ ٱلْجِسْمِ وَٱلْعَرَضِ وَٱلْكَوْنِ وَٱلتَّأْلِيفِ وَٱلْجَوْهَرِ فَإِنَّ ذٰلِكَ هُجْنَةٌ ...

البحث الرابع

في خواص الكلام الحرّ

(عن ابن المعتز والرمّاني)

قِيلَ إِنَّ أَحْسَنَ ٱلْكَلَامِ مَا كَانَ تَرْجُمَانًا لِلْقُلُوبِ وَصَيْقَلًا لِلْعُقُولِ وَمَجْلِيًّا لِلشُّبْهَةِ وَمُوجِبًا لِلْحُجَّةِ . وَٱلْحَاكِمَ عِنْدَ ٱخْتِصَاصِ ٱلظُّنُونِ وَٱلْمُفَرِّقَ بَيْنَ ٱلشَّكِّ وَٱلْيَقِينِ . يَنْقَادُ بِهِ ٱلْمُسْتَصْعَبُ وَيَسْتَقِيمُ لَهُ ٱلْأَصْيَدُ . وَخَيْرُ ٱلْبَيَانِ مَا كَانَ مُصَرِّحًا عَنِ ٱلْمَعْنَى لِيُسْرِعَ إِلَى ٱلْفَهْمِ تَلَقِّيهِ . وَمُوجَزًا لِيَخِفَّ عَلَى ٱللَّفْظِ تَعَاطِيهِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْمُبْلِغُ ٱلَّذِي لَا يُمَلُّ وَٱلْجَدِيدُ ٱلَّذِي لَا يَخْلَقُ . وَٱلْحَقُّ ٱلسَّاطِعُ . وَٱلْمَاحِي لِظُلَمِ ٱلضَّلَالِ . وَلِسَانُ ٱلصِّدْقِ ٱلنَّافِي لِلْكَذِبِ . إِنْ أَوْجَزَ كَانَ كَافِيًا وَإِنْ أَكْثَرَ كَانَ مُذَكِّرًا . وَإِنْ أَوْمَا كَانَ مُقْنِعًا . وَإِنْ أَطَالَ كَانَ مُفْهِمًا . وَإِنْ أَمَرَ فَنَاصِحًا . وَإِنْ حَكَمَ فَعَادِلًا . وَإِنْ أَخْبَرَ فَصَادِقًا . وَإِنْ بَيَّنَ فَشَافِيًا . سَهْلٌ عَلَى ٱلْفَهْمِ . صَعْبٌ عَلَى ٱلْمُتَعَاطِي . قَرِيبُ ٱلْمَأْخَذِ بَعِيدُ ٱلْمَرَامِ . سِرَاجٌ تَسْتَضِيءُ بِهِ ٱلْقُلُوبُ حُلْوٌ إِذَا تَذَوَّقَتْهُ ٱلْعُقُولُ . وَقَدْ قِيلَ : أَبْلَغُ ٱلْكَلَامِ مَا حَطَّ ٱلتَّكَلُّفَ عَنْهُ وَبُنِيَ عَلَى ٱلتَّبْيِينِ وَكَانَتِ ٱلْفَائِدَةُ أَغْلَبَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْقَافِيَةِ بِأَنْ جَمَعَ مَعَ ذٰلِكَ سُهُولَةَ ٱلْمَخْرَجِ

مَعَ قُرْبِ ٱلْمُتَنَاوَلِ . وَعُذُوبَةَ ٱللَّفظِ مَع رَشَاقَةِ ٱلْمَعْنَى . وَأَنْ يَكُونَ حُسْنُ ٱلِٱبْتِدَاءِ كَحُسْنِ ٱلِٱنْتِهَاءِ . وَحُسْنُ ٱلْوَصْلِ كَحُسْنِ ٱلْقَطْعِ فِي ٱلْمَعْنَى وَٱلسَّمْعِ . وَكَانَتْ كُلُّ كَلِمَةٍ قَدْ وَقَعَتْ فِي حَقِّهَا وَإِلَى جَنْبِ أُخْتِهَا حَتَّى لَا يُقَالَ : لَوْ كَانَ كَذَا فِي مَوْضِعِ كَذَا لَكَانَ أَوْلَى حَتَّى لَا يَكُونَ فِيهِ لَفظٌ مُخْتَلِفٌ وَلَا مَعْنًى مُسْتَكْرَهٌ . ثُمَّ أُلْبِسَ بَهَاءَ ٱلْحِكْمَةِ وَنُورَ ٱلْمَعْرِفَةِ وَشَرَفَ ٱلْمَعْنَى وَجَزَالَةَ ٱللَّفظِ وَكَانَتْ حَلَاوَتُهُ فِي ٱلصَّدْرِ وَجَلَالَتُهُ فِي ٱلنَّفْسِ تَفْتُقُ ٱلْفَهْمَ وَتَنْثُرُ دَقَائِقَ ٱلْحِكَمِ وَكَانَ ظَاهِرَ ٱلنَّفْعِ شَرِيفَ ٱلْقَصْدِ مُعْتَدِلَ ٱلْوَزْنِ جَمِيلَ ٱلْمَذْهَبِ كَرِيمَ ٱلْمَطْلَبِ . فَصِيحًا فِي مَعْنَاهُ بَيِّنًا فِي فَحْوَاهُ . . . وَجَاءَ أَيْضًا فِي كُتُبِ ٱلْأَدَبِ: إِنَّ لَحْظَةَ ٱلْقَلْبِ أَسْرَعُ خَطْرَةً مِنْ لَحْظَةِ ٱلْعَيْنِ وَأَبْعَدُ مَجَالًا وَهِيَ ٱلْغَائِصَةُ فِي أَعْمَاقِ أَوْدِيَةِ ٱلْفِكْرِ وَٱلْمُتَأَمِّلَةُ لِوُجُوهِ ٱلْعَوَاقِبِ . وَٱلْجَامِعَةُ بَيْنَ مَا غَابَ وَحَضَرَ . وَٱلْمِيزَانُ ٱلشَّاهِدُ عَلَى مَا نَفَعَ وَضَرَّ . وَٱلْقَلْبُ كَٱلْمُمْلِي لِلْكَلَامِ عَلَى ٱللِّسَانِ إِذَا نَطَقَ وَٱلْيَدِ إِذَا كَتَبَتْ . وَٱلْعَاقِلُ يَكْسُو ٱلْمَعَانِيَ وَشْيَ ٱلْكَلَامِ فِي قَلْبِهِ ثُمَّ يُبْدِيهَا بِأَلْفَاظٍ كَتِيسَةٍ بِأَحْسَنِ زِينَةٍ . وَٱلْجَاهِلُ يَسْتَعْجِلُ بِإِظْهَارِ ٱلْمَعَانِي قَبْلَ ٱلْعِنَايَةِ بِتَزْيِينِ مَعَارِضِهَا وَٱسْتِكْمَالِ مَحَاسِنِهَا . قِيلَ لِبَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ : بِمَ فُقْتَ أَهْلَ عَصْرِكَ فِي حُسْنِ مَعَانِي ٱلشِّعْرِ وَتَهْذِيبِ أَلْفَاظِهِ . فَقَالَ : لِأَنِّي لَمْ أَقْبَلْ كُلَّ مَا تُورِدُهُ عَلَيَّ قَرِيحَتِي وَيُنَاجِينِي بِهِ طَبْعِي وَيَبْعَثُهُ فِكْرِي . وَنَظَرْتُ إِلَى مَغَارِسِ ٱلْفِطَنِ وَمَعَادِنِ ٱلْحَقَائِقِ وَلَطَائِفِ ٱلتَّشْبِيهَاتِ فَسِرْتُ إِلَيْهَا بِفَهْمٍ جَيِّدٍ وَغَرِيزَةٍ قَوِيَّةٍ فَأَحْكَمْتُ سَبْرَهَا وَٱنْتَقَيْتُ حُرَّهَا

وَكَشَفْتُ عَنْ حَقَائِقِهَا وَاحْتَرَزْتُ عَنْ مُتَكَلَّفِهَا . وَمَا مَلَكَ قَطُّ قِيَادِي الْإِعْجَابُ بِشَيْءٍ مِمَّا آتِي بِهِ . قَالَ الْجَاحِظُ : إِنَّ الْمَعْنَى إِذَا كَانَ شَرِيفًا وَكَانَ اللَّفْظُ بَلِيغًا وَكَانَ صَحِيحَ الطَّبْعِ بَعِيدًا مِنَ الْاِسْتِكْرَاهِ مُنَزَّهًا عَنِ الْاِخْتِلَالِ مَصُونًا عَنِ التَّكَلُّفِ صَنَعَ فِي الْقَلْبِ صَنِيعَ الْغَيْثِ فِي التُّرْبَةِ الْكَرِيمَةِ . وَمَتَى فُصِّلَتِ الْكَلِمَةُ عَلَى هٰذِهِ الشَّرِيطَةِ وَنَفَذَتْ مِنْ قَائِلِهَا عَلَى هٰذِهِ الصِّفَةِ كَسَاهَا اللهُ مِنَ التَّوْفِيقِ وَمَنَحَهَا مِنَ التَّأْيِيدِ مَا لَا يَمْتَنِعُ مِنْ تَعْظِيمِهَا بِهِ صُدُورُ الْجَبَابِرَةِ وَلَا يَذْهَلُ عَنْ فَهْمِهَا مَعَهُ عُقُولُ الْجَهَلَةِ

البحث الخامس

في تهذيب الكلام وتنقيحه

(عن خزانة الادب للحموي وزهر الآداب للحصري)

وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ تَرْدَادِ النَّظَرِ فِي الْكَلَامِ بَعْدَ عَمَلِهِ وَالشُّرُوعِ فِي تَهْذِيبِهِ وَتَنْقِيحِهِ نَظْمًا كَانَ أَوْ نَثْرًا وَتَغْيِيرِ مَا يَجِبُ تَغْيِيرُهُ وَحَذْفِ مَا يَنْبَغِي حَذْفُهُ وَإِصْلَاحِ مَا يَتَعَيَّنُ إِصْلَاحُهُ وَكَشْفِ مَا يُشْكِلُ عَنْ غَرِيبِهِ وَإِعْرَابِهِ . وَتَحْرِيرِ مَا يَدِقُّ مِنْ مَعَانِيهِ . وَاطِّرَاحِ مَا يَتَجَافَى عَنْ مَضَاجِعِ الرِّقَّةِ مِنْ غَلِيظِ أَلْفَاظِهِ لِتُشْرِقَ شُمُوسُ التَّهْذِيبِ فِي سَمَاءِ بَلَاغَتِهِ وَتَرْشُفَ الْأَسْمَاعُ عَلَى الطَّرَبِ رَقِيقَ سُلَافَتِهِ . فَإِنَّ الْكَلَامَ إِذَا كَانَ مَوْصُوفًا بِالْمُهَذَّبِ مَنْعُوتًا بِالْمُنَقَّحِ عَلَتْ رُتْبَتُهُ . وَإِنْ كَانَتْ مَعَانِيهِ غَيْرَ مُبْتَكَرَةٍ . وَكُلُّ كَلَامٍ قِيلَ فِيهِ : لَوْ كَانَ مَوْضِعَ هٰذِهِ

ٱلـكَلِمَةِ غيرُهَا . ولَوْ نَقدَّمَ هٰذَا ٱلْمتَاخِرُ وَتَاخَّرَ هٰذا ٱلْمُتقَدِّمُ . اَوْ لَوْ تُتمِمَ هٰذَا ٱلنَّقصَ بِكَذَا . اَوْ لَوْ تَـكَمَّلَ هٰذَا ٱلْوَصْفُ بِكَذَا . اَوْلَوْ حُذِفَتْ هٰذِهِ ٱللَّفظَةُ . اَوْ لَوِ ٱتَّضَحَ هٰذَا ٱلْمَقْصِدُ وَسَهُلَ هٰذَا ٱلْمَطْلَبُ لَـكَانَ ٱلـكَلَامُ اَحسَنَ وَٱلْمعْنَى اَبيَنَ . كَانَ ذٰلِـكَ ٱلـكَلَامُ غَيْرَ مُنتَظِمٍ فِي سِلكِ نَوْعِ ٱلتَّهْـذِيبِ وَٱلتَّأْدِيبِ . وَكَانَ زُهَيرُ بْنُ اَبِي سلْمى مَعْرُوفًا بِٱلتَّنقِيحِ وَٱلتَّهذِيبِ . وَلَهُ قَصَائِـدُ تُعْرَفُ بِٱلْحَوْلِيَّاتِ . قِيلَ : اِنَّهُ كَانَ يَنْظِمُ ٱلْقَصِيدَةَ فِي اَرْبَعَةِ اَشْهُرٍ وَيهَذِّبهَا وَيُنَقِّحهَا فِي اَرْبَعَةِ اَشْهُرٍ وَيَعرِضُهَا عَلَى عُلَمَاءِ قَبِيلَتِهِ اَرْبَعَةَ اَشْهُرٍ . وَيُرْوَى : اَنَّهُ كَانَ يَعمَلُ ٱلْقَصِيدَةَ فِي شَهْرٍ وَيُنَقِّحهَا وَيهَذِّبهَا فِي اَحدَ عشَرَ شَهْرًا وَلَا جَرَمَ اَنَّهُ قَلَّمَا يَسقُطُ مِنْهُ شَيْءٌ . وَلِهٰـذَا كَانَ ٱلْاِمَامُ عُمرُ بْنُ ٱلْخطَّابِ مَعَ جَلَالَتِهِ فِي ٱلعِلْمِ وَتَقَدُّمِهِ فِي ٱلنَّقْدِ يُقَدِّمُهُ عَلَى سَائِرِ ٱلْفُحُولِ مِنْ طَبقَتِهِ . وَمَا اَحسَنَ مَا اَشَارَ اَبُو ٱلتَّمَّامِ اِلَى ٱلتَّهْذِيبِ بِقَوْلِهِ :

خُذْهَا ٱبْنَةَ ٱلْفِكْرِ ٱلْمهَذَّبِ فِي ٱلدُّجَى ... وَٱللَّيلُ اَسوَدُ رُقْعَةِ ٱلْجِلْبَـابِ

فَاِنَّهُ خَصَّ تَهذِيبَ ٱلْفِكْرِ بِٱلدُّجَى لِـكَوْنِ ٱللَّيْلِ تَهْدَاُ فِيهِ ٱلْاَصْوَاتُ وَتَسـكُنُ ٱلْحرَكَاتُ فَيكُونُ ٱلْفِـكْرُ فِيهِ مُجْتَمِعًا وَمِرْآةُ ٱلتَّهْذِيبِ فِيهِ صَقِيلَةً لِخُلُوِّ ٱلْخاطِرِ وَصَفَاءِ ٱلْقَرِيحَةِ . لَا سِيَّمَا وَسَطَ ٱللَّيلِ وَٱلنَّفسُ قَدْ اَخَذَتْ حَظَّهَا مِنَ ٱلرَّاحَةِ بَعْدَ نَيلِ قِسطِهَا مِنَ ٱلنَّوْمِ وَخَفَّ عَلَيْهَا ثِقَلُ ٱلغِذَاءِ وَصَحَّ ذِهْنُهَا وَصَارَ صَدْرُهَا مُنْشَرِحًا وَقَلْبُهَا بِٱلتَّأْلِيفِ مُنْبَسِطًا . وَمَا قَدَّمُوا وَسَطَ ٱللَّيْلِ فِي ٱلتَّأْلِيفِ عَلَى ٱلسَّحَرِ مَعَ مَا فِيهِ مِنِ ٱنْتِبَاهِ اَكْثَرِ ٱلْحَيَوانِ ٱلنَّاطِقِ وَٱرْتِفَاعِ ٱلْاَصْوَاتِ وَجَرْسِ ٱلْحَرَكَاتِ وَتَقَشُّعِ

الظَّلْماء بطلائع الانواء . وبدون ذلك ينقسم الفكر ويشتغل القلب ووسط الليل خالٍ مما ذكرناه . ولهذا خصّ ابو تمام تهذيب الفكر بالدجى عادلًا عن الطرفين لما فيهما من الشواغل المذكورة. وحكت الثقات عن ابي عبادة البحتري قال: كنتُ في حداثتي اروم الشعر وكنتُ ارجع فيه الى طبع سليم ولم اكن وقفتُ له على تسهيل مأخذ ووجوه اقتضاب حتى قصدتُ ابا تمام وانقطعتُ اليه واتكلتُ في تعريفه عليه فكان اول ما قال لي : يا ابا عبادة تخيّر الاوقات وانت قليل الهموم صفرٌ من الغموم . واعلم انّ العادة في الاوقات اذا قصد الانسان تأليف شيء او حفظه ان يختار وقت السحر . وذلك انّ النفس تكون قد اخذت حظها من الراحة وقسطها من النوم وخفّ عنها ثقل الغذاء . وصفا من اكثر الابخرة والادخنة جسم الهواء . وسكنت الغمائم . ورقّت النسائم . وتغنّت الحمائم . واذا شرعت في التأليف تغنَّ بالشعر فانّ الغناء مضماره الذي يجري فيه . واجتهد في ايضاح معانيه . فان اردتّ ذكر الاحباب فاجعل اللفظ رقيقًا والمعنى رشيقًا واكثر فيه من بيان الكآبة . وقلق الاشواق . ولوعة الفراق والتعلّل باستنشاق النسائم . وغناء الحمائم . والبروق اللامعة . والنجوم الطالعة . والتبرّم من العذّال . والوقوف على الاطلال . واذا اخذت في مدح سيد فاشهر مناقبه واظهر مناسبه وارهب من عزائمه وارغب في مكارمه . واحذر المجهول من المعاني واياك ان تشين شعرك بالعبارة والالفاظ

ٱلْوَحْشِيَّةِ وَنَاسِبْ بَيْنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱلْمَعَانِي فِي تَأْلِيفِ ٱلْكَلَامِ وَكُنْ كَأَنَّكَ خَيَّاطٌ تُقَدِّرُ ٱلثِّيَابَ عَلَى مَقَادِيرِ ٱلْأَجْسَامِ . وَإِذَا عَارَضَكَ ٱلضَّجَرُ فَأَرِحْ نَفْسَكَ وَلَا تَعْمَلْ إِلَّا وَأَنْتَ فَارِغُ ٱلْقَلْبِ وَلَا تَنْظِمْ إِلَّا بِشَهْوَةٍ فَإِنَّ ٱلشَّهْوَةَ نِعْمَ ٱلْمُعِينُ عَلَى حُسْنِ ٱلنَّظْمِ . وَجُمْلَةُ ٱلْحَالِ أَنْ تَعْتَبِرَ شِعْرَكَ بِمَا سَلَفَ مِنْ أَشْعَارِ ٱلْمَاضِينَ فَمَا ٱسْتَحْسَنَ ٱلْعُلَمَاءُ فَٱقْصِدْهُ وَمَا ٱسْتَقْبَحُوهُ فَٱجْتَنِبْهُ

وَأَوْرَدَ ٱلْعَلَّامَةُ زَكِيُّ ٱلدِّينِ بْنُ أَبِي ٱلْإِصْبَعِ فِي كِتَابِهِ ٱلْمُسَمَّى بِتَحْرِيرِ ٱلتَّحْبِيرِ وَصِيَّةً لِنَفْسِهِ أَوْرَدَهَا أَيْضًا عَلَى نَوْعِ ٱلتَّهْذِيبِ وَٱلتَّأْدِيبِ فَٱخْتَرْتُ مِنْهَا مَا هُوَ ٱللَّائِقُ بِٱلْحَالِ وَأَوَّلُهَا : يَنْبَغِي لَكَ أَيُّهَا ٱلرَّاغِبُ فِي ٱلْعَمَلِ ٱلسَّائِلُ عَنْ أَوْضَحِ ٱلسُّبُلِ أَنْ تُحَصِّلَ ٱلْمَعْنَى قَبْلَ ٱلشُّرُوعِ فِي ٱلنَّظْمِ وَٱلْقَوَافِيَ قَبْلَ ٱلْأَبْيَاتِ (قُلْتُ وَهٰذَا مَذْهَبُنَا) . ثُمَّ قَالَ أَيْضًا : وَلَا تُكْرِهِ ٱلْخَاطِرَ عَلَى وَزْنٍ مَخْصُوصٍ وَرَوِيٍّ مَقْصُودٍ وَتَوَخَّ ٱلْكَلَامَ ٱلْجَزْلَ دُونَ ٱلرَّذْلِ وَٱلسَّهْلَ دُونَ ٱلصَّعْبِ وَٱلْعَذْبَ دُونَ ٱلْمُسْتَكْرَهِ وَٱلْمُسْتَحْسَنَ دُونَ ٱلْمُسْتَهْجَنِ . وَلَا تَعْمَلْ نَظْمًا وَلَا نَثْرًا عِنْدَ ٱلْمَلَلِ فَإِنَّ ٱلْكَثِيرَ مَعَهُ قَلِيلٌ وَٱلنَّفِيسَ مَعَهُ خَسِيسٌ . وَٱلْخَوَاطِرُ يَنَابِيعُ إِذَا رُفِقَ بِهَا جَمَّتْ وَإِذَا كَثُرَ ٱسْتِعْمَالُهَا نُزِحَتْ . وَٱكْتُبْ كُلَّ مَعْنًى يَسْنَحُ وَقَيِّدْ كُلَّ فَائِدَةٍ تَعْرِضُ فَإِنَّ نَتَائِجَ ٱلْأَفْكَارِ كَلَمْعَةِ ٱلْبَرْقِ وَلَمْحَةِ ٱلطَّرْفِ إِنْ لَمْ تُقَيِّدْهَا شَرَدَتْ وَنَدَّتْ وَإِنْ لَمْ تَسْتَعْطِفْ بِٱلتَّكْرَارِ عَلَيْهَا صَدَّتْ وَٱلتَّرَنُّمُ بِٱلشِّعْرِ مِمَّا يُعِينُ عَلَيْهِ . فَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

تَغَنَّ بِٱلشِّعْرِ إِمَّا كُنْتَ قَائِلَهُ ... إِنَّ ٱلْغِنَاءَ لِقَوْلِ ٱلشِّعْرِ مِضْمَارُ

البحث السادس

في شروط الكلام

(عن ادب الدنيا والدين للماوردي)

اِعلَمْ اَنَّ لِلْكَلَامِ شُرُوطًا لَا يَسْلَمُ ٱلْمُتَكَلِّمُ مِنَ ٱلزَّلَلِ اِلَّا بِهَا وَلَا يَعرَى مِنَ ٱلنَّقْصِ اِلَّا بَعْدَ اَنْ يَسْتَوْفِيَهَا وَهِيَ اَرْبَعَةٌ: (فَٱلشَّرْطُ ٱلْاَوَّلُ) اَنْ يَكُونَ ٱلْكَلَامُ لِدَاعٍ يَدْعُو اِلَيْهِ اِمَّا فِي ٱجْتِلَابِ نَفْعٍ اَوْ فِي دَفْعِ ضَرَرٍ. (وَٱلشَّرْطُ ٱلثَّانِي) اَنْ يَأْتِيَ بِهِ فِي مَوْضِعِهِ وَيَتَوَخَّى بِهِ اِصَابَةَ فُرْصَتِهِ. (وَٱلشَّرْطُ ٱلثَّالِثُ) اَنْ يَقْتَصِرَ مِنْهُ عَلَى قَدْرِ حَاجَتِهِ. (وَٱلشَّرْطُ ٱلرَّابِعُ) اَنْ يَتَخَيَّرَ ٱللَّفْظَ ٱلَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ. فَهٰذِهِ اَرْبَعَةُ شُرُوطٍ مَتَى اَخَلَّ ٱلْمُتَكَلِّمُ بِشَرْطٍ مِنْهَا فَقَدْ اَوْهَنَ فَضِيلَةَ بَاقِيهَا. وَسَنَذْكُرُ تَعْلِيلَ كُلِّ شَرْطٍ مِنْهَا بِمَا يُنْبِئُ عَنْ لُزُومِهِ. فَاَمَّا ٱلشَّرْطُ ٱلْاَوَّلُ وَهُوَ ٱلدَّاعِي اِلَى ٱلْكَلَامِ فَلِاَنَّ مَا لَا دَاعِيَ لَهُ هَذَيَانٌ وَمَا لَا سَبَبَ لَهُ هُجْرٌ وَمَنْ سَامَحَ نَفْسَهُ فِي ٱلْكَلَامِ اِذَا عَنَّ وَلَمْ يُرَاعِ صِحَّةَ دَوَاعِيهِ وَاِصَابَةَ مَعَانِيهِ كَانَ قَوْلُهُ مَرْذُولًا وَرَأْيُهُ مَعْلُولًا. كَٱلَّذِي حَكَى ٱبْنُ عَائِشَةَ: اِنَّ شَابًّا كَانَ يُجَالِسُ ٱلْاَحْنَفَ وَيُطِيلُ ٱلصَّمْتَ فَاَعْجَبَ ذٰلِكَ ٱلْاَحْنَفَ فَخَلَتِ ٱلْحَلْقَةُ يَوْمًا فَقَالَ لَهُ ٱلْاَحْنَفُ: تَكَلَّمْ يَا ٱبْنَ اَخِي. فَقَالَ: يَا عَمُّ لَوْ اَنَّ رَجُلًا سَقَطَ مِنْ شَرَفِ هٰذَا ٱلْمَسْجِدِ هَلْ كَانَ يَضُرُّهُ شَيْءٌ. فَقَالَ: يَا ٱبْنَ اَخِي لَيْتَنَا تَرَكْنَاكَ مَسْتُورًا. ثُمَّ تَمَثَّلَ ٱلْاَحْنَفُ بِقَوْلِ ٱلْاَعْوَرِ ٱلشَّنِّيِّ:

كَأَيِّنْ تَرَى مِنْ صَاحِبٍ لَكَ مُعْجِبٍ زِيَادَتُهُ اَوْ نَقْصُهُ فِي ٱلتَّكَلُّمِ
لِسَانُ ٱلْفَتَى نِصْفٌ وَنِصْفٌ فُؤَادُهُ فَلَمْ يَبْقَ اِلَّا صُورَةُ ٱللَّحْمِ وَٱلدَّمِ

وَكَالَّذِي حُكِيَ عَنْ اَبِي ٱلْفَقِيهِ : اِنَّ رَجُلًا كَانَ يَجْلِسُ اِلَيْهِ فَيُطِيلُ ٱلصَّمْتَ فَقَالَ لَهُ اَبُو يُوسُفَ : اَلَا تَسْاَلُ . قَالَ : بَلَى مَتَى يُفْطِرُ ٱلصَّائِمُ . قَالَ : اِذَا غَرَبَتِ ٱلشَّمْسُ . قَالَ : فَاِنْ لَمْ تَغْرُبْ اِلَى نِصْفِ ٱللَّيْلِ . (قَالَ) فَتَبَسَّمَ اَبُو يُوسُفَ وَتَمَثَّلَ بِبَيْتَيِ ٱلْخَطَفِيِّ جَدِّ جَرِيرٍ :

عَجِبْتُ لِاِزْرَاءِ ٱلْعَيِيِّ بِنَفْسِهِ وَصَمْتِ ٱلَّذِي قَدْ كَانَ بِٱلْعِلْمِ اَعْلَمَا
وَفِي ٱلصَّمْتِ سِتْرٌ لِلْغَبِيِّ وَاِنَّمَا صَحِيفَةُ لُبِّ ٱلْمَرْءِ اَنْ يَتَكَلَّمَا

فَٱنْظُرْ اِلَى هٰؤُلَاءِ كَيْفَ اَبَانُوا بِٱلْكَلَامِ عَنْ جَهْلِهِمْ وَاَعْرَبُوا بِٱلسُّؤَالِ عَنْ نَقْصِهِمْ اِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ دَاعٍ اِلَيْهِ وَلَا رَوِيَّةٌ فِيمَا تَكَلَّمُوا بِهِ وَلَوْ صَدَرَ عَنْ رَوِيَّةٍ دَعَا اِلَيْهَا دَاعٍ لَسَلِمُوا مِنْ شَيْنِهِ وَبَرِئُوا مِنْ عَيْبِهِ . وَلِذٰلِكَ قِيلَ : لِسَانُ ٱلْعَاقِلِ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهِ فَاِذَا اَرَادَ ٱلْكَلَامَ رَجَعَ اِلَى قَلْبِهِ فَاِنْ كَانَ لَهُ تَكَلَّمَ وَاِنْ كَانَ عَلَيْهِ اَمْسَكَ . وَقَلْبُ ٱلْجَاهِلِ مِنْ وَرَاءِ لِسَانِهِ يَتَكَلَّمُ بِكُلِّ مَا عَرَضَ لَهُ . وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ : مَنْ لَمْ يَعُدَّ كَلَامَهُ مِنْ عَمَلِهِ كَثُرَتْ خَطَايَاهُ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : عَقْلُ ٱلْمَرْءِ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِهِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : اَحْبِسْ لِسَانَكَ قَبْلَ اَنْ يُطِيلَ حَبْسَكَ اَوْ يُتْلِفَ نَفْسَكَ فَلَا شَيْءَ اَوْلَى بِطُولِ حَبْسٍ مِنْ لِسَانٍ يُقَصِّرُ عَنِ ٱلصَّوَابِ وَيُسْرِعُ اِلَى ٱلْجَوَابِ . وَقَالَ اَبُو تَمَّامٍ ٱلطَّائِيُّ :

وَمِمَّا كَانَتِ ٱلْحُكَمَاءُ قَالَتْ   لِسَانُ ٱلْمَرْءِ مِنْ تَبَعِ ٱلْفُؤَادِ

وَكَانَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ يَحْسِمُ ٱلرُّخْصَةَ فِي ٱلْكَلَامِ وَيَقُولُ: إِذَا جَالَسْتَ ٱلْجُهَّالَ فَأَنْصِتْ لَهُمْ وَإِذَا جَالَسْتَ ٱلْعُلَمَاءَ فَأَنْصِتْ لَهُمْ. فَإِنَّ فِي إِنْصَاتِكَ لِلْجُهَّالِ زِيَادَةً فِي ٱلْحِلْمِ وَفِي إِنْصَاتِكَ لِلْعُلَمَاءِ زِيَادَةً فِي ٱلْعِلْمِ. وَأَمَّا (ٱلشَّرْطُ ٱلثَّانِي) فَهُوَ أَنْ يَأْتِيَ بِٱلْكَلَامِ فِي مَوْضِعِهِ لِأَنَّ ٱلْكَلَامَ فِي غَيْرِ حِينِهِ لَا يَقَعُ مَوْقِعَ ٱلْاِنْتِفَاعِ بِهِ وَمَا لَا يَنْفَعُ مِنَ ٱلْكَلَامِ فَقَدْ تَقَدَّمَ ٱلْقَوْلُ بِأَنَّهُ هَذَيَانٌ وَهُجْرٌ. فَإِنْ قَدَّمَ مَا يَقْتَضِي ٱلتَّأْخِيرَ كَانَ عَجَلَةً وَخُرْقًا. وَإِنْ أَخَّرَ مَا يَقْتَضِي ٱلتَّقْدِيمَ كَانَ تَوَانِيًا وَعَجْزًا لِأَنَّ لِكُلِّ مَقَامٍ قَوْلًا وَفِي كُلِّ زَمَانٍ عَمَلًا. وَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ:

يَضَعُ ٱلْحَدِيثَ عَلَى مَوَاضِعِهِ   وَكَلَامُهُ مِنْ بَعْدِهَا نَزْرُ

وَأَمَّا (ٱلشَّرْطُ ٱلثَّالِثُ) وَهُوَ أَنْ يَقْتَصِرَ مِنْهُ عَلَى قَدْرِ حَاجَتِهِ. فَإِنَّ ٱلْكَلَامَ إِنْ لَمْ يَنْحَصِرْ بِٱلْحَاجَةِ وَلَمْ يُقَدَّرْ بِٱلْكِفَايَةِ لَمْ يَكُنْ لِحَدِّهِ غَايَةٌ وَلَا لِقَدْرِهِ نِهَايَةٌ وَمَا لَمْ يَكُنْ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَحْصُورًا كَانَ حَصَرًا وَإِنْ قَصُرَ وَهَذَرًا وَإِنْ كَثُرَ. وَرُوِيَ: أَنَّ أَعْرَابِيًّا تَكَلَّمَ عِنْدَ بَعْضِهِمْ وَطَوَّلَ فَقَالَ لَهُ: كَمْ دُونَ لِسَانِكَ مِنْ حِجَابٍ. قَالَ: شَفَتَايَ وَلِسَانِي. قَالَ: فَإِنَّ ٱللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَكْرَهُ ٱلْاِنْبِعَاقَ فِي ٱلْكَلَامِ فَنَضَّرَ ٱللهُ وَجْهَ ٱمْرِئٍ أَوْجَزَ فِي كَلَامِهِ فَٱقْتَصَرَ عَلَى حَاجَتِهِ. وَيُحْكَى أَنَّ بَعْضَ ٱلْحُكَمَاءِ رَأَى رَجُلًا يُكْثِرُ ٱلْكَلَامَ وَيُقِلُّ ٱلسُّكُوتَ فَقَالَ: إِنَّ ٱللهَ تَعَالَى إِنَّمَا خَلَقَ لَكَ أُذُنَيْنِ وَلِسَانًا وَاحِدًا لِيَكُونَ مَا تَسْمَعُهُ ضِعْفَ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ: مَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ

كَثُرَتْ آثَامُهُ . وَقَالَ ٱبْنُ مَسْعُودٍ : أُنذِرُكُمْ فُضُولَ ٱلْمَنْطِقِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : كَلَامُ ٱلْمَرْءِ بَيَانُ فَضْلِهِ وَتَرْجُمَانُ عَقْلِهِ فَٱقْصِرْهُ عَلَى ٱلْجَمِيلِ وَٱقْتَصِرْ مِنْهُ عَلَى ٱلْقَلِيلِ وَإِيَّاكَ مَا يُسْخِطُ سُلْطَانَكَ وَيُوحِشُ إِخْوَانَكَ . فَمَنْ أَسْخَطَ سُلْطَانَهُ تَعَرَّضَ لِلْمَنِيَّةِ . وَمَنْ أَوْحَشَ إِخْوَانَهُ تَبَرَّأَ مِنَ ٱلْحُرِّيَّةِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ :

وَزِنِ ٱلْكَلَامَ إِذَا نَطَقْتَ فَإِنَّمَا يُبْدِي عُيُوبَ ذَوِي ٱلْعُيُوبِ ٱلْمَنْطِقُ

وَلِمُخَالَفَةِ قَدْرِ ٱلْحَاجَةِ مِنَ ٱلْكَلَامِ حَالَتَانِ : تَقْصِيرٌ يَكُونُ حَصَرًا وَتَكْثِيرٌ يَكُونُ هَذَرًا . وَكِلَاهُمَا شَيْنٌ وَشَيْنُ ٱلْهَذَرِ أَشْنَعُ وَرُبَّمَا كَانَ فِي ٱلْغَالِبِ أَخْوَفَ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : مَقْتَلُ ٱلرَّجُلِ بَيْنَ فَكَّيْهِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : ٱلْحَصَرُ خَيْرٌ مِنَ ٱلْهَذَرِ لِأَنَّ ٱلْحَصَرَ يُضْعِفُ ٱلْحُجَّةَ وَٱلْهَذَرَ يُتْلِفُ ٱلْمُهْجَةَ . وَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

رَأَيْتُ ٱللِّسَانَ عَلَى أَهْلِهِ إِذَا سَاسَهُ ٱلْجَهْلُ لَيْثًا مُغِيرَا

وَقَالَ بَعْضُ ٱلْأُدَبَاءِ : يَا رُبَّ أَلْسِنَةٍ كَٱلسُّيُوفِ تَقْطَعُ أَعْنَاقَ أَصْحَابِهَا وَمَا يَنْقُصُ مِنْ هَيْئَاتِ ٱلرِّجَالِ يَزِيدُ فِي بَهَائِهَا وَأَلْبَابِهَا . وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّ ٱلْكَلَامَ إِذَا كَثُرَ عَنْ قَدْرِ ٱلْحَاجَةِ وَزَادَ عَلَى ٱلْكِفَايَةِ وَكَانَ صَوَابًا لَا يَشُوبُهُ خَطَلٌ وَسَلِيمًا لَا يَتَعَوَّدُهُ زَلَلٌ فَهُوَ ٱلْبَيَانُ وَٱلسِّحْرُ ٱلْحَلَالُ . وَقَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ وَقَدْ ذُمَّ ٱلْكَلَامُ فِي مَجْلِسِهِ : كَلَّا إِنَّ مَنْ تَكَلَّمَ فَأَحْسَنَ قَدَرَ عَلَى أَنْ يَسْكُتَ فَيُحْسِنَ وَلَيْسَ مَنْ سَكَتَ فَأَحْسَنَ قَدَرَ عَلَى أَنْ يَتَكَلَّمَ فَيُحْسِنَ . وَوَصَفَ بَعْضُهُمُ ٱلْكَاتِبَ فَقَالَ : مَنْ إِذَا أَخَذَ شِبْرًا كَفَاهُ وَإِذَا وَجَدَ طُومَارًا

أَمْلاهُ . وَأَنْشَدَ بَعْضُهُمْ فِي خُطَبَاءِ إِيَادٍ :

يَرْمُونَ بِالْخُطَبِ الطِّوَالِ وَتَارَةً وَحْيَ الْمَلاحِظِ خِيفَةَ الرُّقَبَاءِ

وَقَالَ الْهَيْثَمُ بْنُ صَالِحٍ لِابْنِهِ : يَا بُنَيَّ إِذَا أَقْلَلْتَ مِنَ الْكَلَامِ أَكْثَرْتَ مِنَ الصَّوَابِ . فَقَالَ : يَا أَبَتِ فَإِنْ أَنَا أَكْثَرْتُ وَأَكْثَرْتُ (يَعْنِي كَلَامًا وَصَوَابًا) . فَقَالَ : يَا بُنَيَّ مَا رَأَيْتُ مَوْعُوظًا أَحَقَّ بِأَنْ يَكُونَ وَاعِظًا مِنْكَ . وَأَنْشَدتُّ لِأَبِي الْفَتْحِ الْبُسْتِيِّ :

تَكَلَّمْ وَسَدِّدْ مَا اسْتَطَعْتَ فَإِنَّمَا كَلَامُكَ حَيٌّ وَالسُّكُوتُ جَمَادُ

فَإِنْ لَمْ تَجِدْ قَوْلًا سَدِيدًا تَقُولُهُ فَصَمْتُكَ عَنْ غَيْرِ السَّدَادِ سَدَادُ

وَقِيلَ لِإِيَاسِ بْنِ مُعَاوِيَةَ : مَا فِيكَ عَيْبٌ إِلَّا كَثْرَةُ الْكَلَامِ . فَقَالَ : أَفَتَسْمَعُونَ صَوَابًا أَوْ خَطَأً . قَالُوا : لَا بَلْ صَوَابًا . قَالَ : فَالزِّيَادَةُ مِنَ الْخَيْرِ خَيْرٌ . وَقَالَ أَبُو عُثْمَانَ الْجَاحِظُ : لِلْكَلَامِ غَايَةٌ وَلِنَشَاطِ السَّامِعِينَ نِهَايَةٌ وَمَا فَضَلَ عَنْ مِقْدَارِ الْاحْتِمَالِ وَدَعَا إِلَى الِاسْتِثْقَالِ وَالْمَلَالِ فَذَلِكَ الْفَاضِلُ هُوَ الْهَذَرُ . وَصَدَقَ أَبُو عُثْمَانَ لِأَنَّ الْإِكْثَارَ مِنْهُ وَإِنْ كَانَ صَوَابًا يُمِلُّ السَّامِعَ وَيُكِلُّ الْخَاطِرَ وَهُوَ صَادِرٌ عَنْ إِعْجَابٍ بِهِ لَوْلَاهُ قَصُرَ عَنْهُ . وَمَنْ أُعْجِبَ بِكَلَامِهِ اسْتَرْسَلَ فِيهِ وَالْمُسْتَرْسِلُ فِي الْكَلَامِ كَثِيرُ الزَّلَلِ دَائِمُ الْعِثَارِ . وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ : مَنْ أُعْجِبَ بِقَوْلِهِ أُصِيبَ بِعَقْلِهِ وَلَيْسَ لِكَثْرَةِ الْهَذَرِ رَجَاءٌ يُقَابِلُ خَوْفَهُ وَلَا نَفْعٌ يُوَازِي ضَرَّهُ لِأَنَّهُ يَخَافُ مِنْ نَفْسِهِ الزَّلَلَ وَمِنْ سَامِعِيهِ الْمَلَلَ وَلَيْسَ فِي مُقَابَلَةِ هَذَيْنِ حَاجَةٌ دَاعِيَةٌ وَلَا نَفْعٌ مَرْجُوٌّ . قَالَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى : إِذَا كَانَ الْإِيجَازُ كَافِيًا كَانَ الْإِكْثَارُ عِيًّا وَإِنْ

كَانَ ٱلْإِكْثَارُ وَاجِبًا كَانَ ٱلتَّقْصِيرُ عَجْزًا. وَقِيلَ فِي مَنْثُورِ ٱلْحِكَمِ: إِذَا تَمَّ ٱلْعَقْلُ نَقَصَ ٱلْكَلَامُ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْأُدَبَاءِ : مَنْ أَطَالَ صَمْتَهُ ٱجْتَلَبَ مِنَ ٱلْهَيْبَةِ مَا يَنْفَعُهُ وَمِنَ ٱلْوَحْشَةِ مَا لَا يَضُرُّهُ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : عِيٌّ تَسْلَمُ مِنْهُ خَيْرٌ مِنْ مَنْطِقٍ تَنْدَمُ عَلَيْهِ فَٱقْتَصِرْ مِنَ ٱلْكَلَامِ عَلَى مَا يُقِيمُ حُجَّتَكَ وَيُبْلِغُ حَاجَتَكَ وَإِيَّاكَ وَفُضُولَهُ فَإِنَّهُ يُزِلُّ ٱلْقَدَمَ وَيُورِثُ ٱلنَّدَمَ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْفُصَحَاءِ : فَمُ ٱلْعَاقِلِ مُلْجَمٌ إِذَا هَمَّ بِٱلْكَلَامِ أَحْجَمَ وَفَمُ ٱلْجَاهِلِ مُطْلَقٌ كُلَّمَا شَاءَ أَطْلَقَ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ :

إِنَّ ٱلْكَلَامَ يُعِدُّ ٱلْقَوْمُ جِلْوَتَهُ   حَتَّى يَلِجَّ بِهِ عِيٌّ وَإِكْثَارُ

وَأَمَّا (ٱلشَّرْطُ ٱلرَّابِعُ) وَهُوَ ٱخْتِيَارُ ٱللَّفْظِ ٱلَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ فَلِأَنَّ ٱللِّسَانَ عُنْوَانُ ٱلْإِنْسَانِ يُتَرْجِمُ عَنْ مَجْهُولِهِ وَيُبَرْهِنُ عَنْ مَحْصُولِهِ فَيَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ بِتَهْذِيبِ أَلْفَاظِهِ حَرِيًّا وَتَقْوِيمِ لِسَانِهِ مَلِيًّا. وَقَالَ خَالِدُ ٱبْنُ صَفْوَانَ : مَا ٱلْإِنْسَانُ لَوْلَا ٱللِّسَانُ هَلْ إِلَّا بَهِيمَةٌ مُهْمَلَةٌ . أَوْ صُورَةٌ مُمَثَّلَةٌ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : ٱللِّسَانُ وَزِيرُ ٱلْإِنْسَانِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : يُسْتَدَلُّ عَلَى عَقْلِ ٱلرَّجُلِ بِقَوْلِهِ وَعَلَى أَصْلِهِ بِفِعْلِهِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ :

وَإِنَّ لِسَانَ ٱلْمَرْءِ مَا لَمْ تَكُنْ لَهُ   حَصَاةٌ عَلَى عَوْرَاتِهِ لَدَلِيلُ

وَلَيْسَ يَصِحُّ ٱخْتِيَارُ ٱلْكَلَامِ إِلَّا لِمَنْ أَخَذَ نَفْسَهُ بِٱلْبَلَاغَةِ وَكَلَّفَهَا لُزُومَ ٱلْفَصَاحَةِ حَتَّى يَصِيرَ مُتَدَرِّبًا بِهَا مُعْتَادًا لَهَا فَلَا يَأْتِي بِكَلَامٍ مُسْتَكْرَهِ ٱللَّفْظِ وَلَا مُخْتَلِّ ٱلْمَعْنَى لِأَنَّ ٱلْبَلَاغَةَ لَيْسَتْ عَلَى مَعَانٍ

مُفْرَدَةٍ وَلَا لِأَلْفَاظِهَا غَايَةٌ . وَإِنَّمَا ٱلْبَلَاغَةُ أَنْ تَكُونَ بِٱلْمَعَانِي ٱلصَّحِيحَةِ مُسْتَوْدَعَةً فِي أَلْفَاظٍ فَصِيحَةٍ فَتَكُونُ فَصَاحَةُ ٱلْأَلْفَاظِ مَعَ صِحَّةِ ٱلْمَعَانِي هِيَ ٱلْبَلَاغَةَ

البحث السابع

في عيوب الكلام

(عن الجاحظ والعسكري)

(راجع صفحة ٢٨ من علم الادب)

قَالَ بَعْضُ ٱلْأَوَائِلِ : لَا تَكْمُلُ آلَةُ ٱلْبَلِيغِ إِلَّا إِذَا خَلَا كَلَامُهُ مِنَ ٱلتَّكَلُّفِ وَسُوءِ ٱلصَّنْعَةِ وَكَانَ غَنِيًّا عَنِ ٱلتَّأَمُّلِ مُتَبَاعِدًا عَنِ ٱلْحَشْوِ . فَقَوْلُهُ : (يَكُونُ سَلِيمًا مِنَ ٱلتَّكَلُّفِ) فَٱلتَّكَلُّفُ طَلَبُ ٱلشَّيْءِ بِصُعُوبَةٍ لِلْجَهْلِ بِطَرَائِقِ طَلَبِهِ بِٱلسُّهُولَةِ . فَٱلْكَلَامُ إِذَا جُمِعَ بِتَعَبٍ وَجَهْدٍ وَتُنُوِّلَتْ أَلْفَاظُهُ مِنْ بُعْدٍ فَهُوَ مُتَكَلَّفٌ . وَقَالُوا : لَيْسَ ٱلْفِقْهُ بِٱلتَّفَقُّهِ وَلَا ٱلْفَصَاحَةُ بِٱلتَّفَصُّحِ لِأَنَّهُ لَا يَزِيدُ مُتَزَيِّدٌ فِي كَلَامِهِ إِلَّا لِنَقْصٍ يَجِدُهُ فِي نَفْسِهِ . وَمِمَّا ٱتَّفَقَتْ عَلَيْهِ ٱلْعَرَبُ وَٱلْعَجَمُ قَوْلُهُمْ : ٱلطَّبْعُ أَمْلَكُ . قَالَ ٱلْعَرْجِيُّ :

يَا أَيُّهَا ٱلْمُتَحَلِّي غَيْرَ شِيمَتِهِ ... وَمَنْ شَمَائِلُهُ ٱلتَّبْدِيلُ وَٱلْمَلَقُ
اِرْجِعْ إِلَى خُلْقِكَ ٱلْمَعْرُوفِ دَيْدَنُهُ ... إِنَّ ٱلتَّخَلُّقَ يَأْتِي دُونَهُ ٱلْخُلُقُ

وَقَالَ آخَرُ :

وَمَنْ يَبْتَدِعْ مَا لَيْسَ مِنْ سُوسِ نَفْسِهِ ... يَدَعْهُ وَيَغْلِبْهُ عَلَى ٱلنَّفْسِ خِيمُهَا

وَقَالَ آخَرُ :

كُلُّ آمْرِئٍ رَاجِعٌ يَوْمًا لِشِيمَتِهِ ... وَإِنْ تَخَلَّقَ أَخْلَاقًا إِلَى حِينِ

وَمِثَالُ ٱلتَّكَلُّفِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ فِي دُعَائِهِ : اَللَّهُمَّ رَبَّنَا وَإِلٰهَنَا مَنْ أَرَادَ بِنَا سُوءًا فَأَحِطْ ذٰلِكَ ٱلسُّوءَ بِهِ وَأَرْسِخْهُ فِيهِ كَرُسُوخِ ٱلسِّجِّيلِ فِي أَصْحَابِ ٱلْفِيلِ . وَٱنْصُرْنَا عَلَى كُلِّ بَاغٍ وَحَسُودٍ كَمَا ٱنْتَصَرْتَ لِنَاقَةِ ثَمُودٍ . ثُمَّ قَالَ : (بَرِيئًا مِنْ سُوءِ ٱلصَّنْعَةِ) فَسُوءُ ٱلصَّنْعَةِ يَتَصَرَّفُ عَلَى وُجُوهٍ مِنْهَا : سُوءُ ٱلتَّقْسِيمِ وَفَسَادُ ٱلتَّفْسِيرِ وَقُبْحُ ٱلِٱسْتِعَارَةِ وَٱلتَّطْبِيقِ وَفَسَادُ ٱلنَّسْجِ وَٱلسَّبْكِ . فَإِذَا أَخَلَّ ٱلْكَاتِبُ بِذٰلِكَ فَاتَتْهُ فَضِيلَتُهُ وَعَلِقَتْ بِهِ رَذِيلَةُ فَوْتِهِ فَعَفَّى عَلَى جَمِيعِ مَحَاسِنِهِ وَعَمَّى سَائِرَ فَضَائِلِهِ . لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ كَلَامٍ جَيِّدٍ وَآخَرَ رَدِيءٍ وَلَفْظٍ حَسَنٍ وَآخَرَ قَبِيحٍ وَشِعْرٍ نَادِرٍ وَآخَرَ بَارِدٍ بَانَ جَهْلُهُ وَظَهَرَ نَقْصُهُ . وَهُوَ أَيْضًا إِذَا أَرَادَ أَنْ يَصْنَعَ قَصِيدَةً أَوْ يُنْشِئَ رِسَالَةً وَقَدْ فَاتَهُ هٰذَا ٱلْعِلْمُ مَزَجَ ٱلصَّفْوَ بِٱلْكَدَرِ وَخَلَطَ ٱلْغُرَرَ بِٱلْعُرَرِ وَٱسْتَعْمَلَ ٱلْوَحْشِيَّ ٱلْعَكِرَ فَجَعَلَ نَفْسَهُ مَهْزَأَةً لِلْجَاهِلِ وَعِبْرَةً لِلْعَاقِلِ . وَإِذَا أَرَادَ أَيْضًا تَصْنِيفَ كَلَامٍ مَنْثُورٍ أَوْ تَأْلِيفَ شِعْرٍ مَنْظُومٍ وَتَخَطَّى حُسْنَ ٱلصَّنْعَةِ سَاءَ ٱخْتِيَارُهُ لَهُ وَقَبُحَتْ آثَارُهُ فِيهِ فَأَخَذَ ٱلرَّدِيءَ ٱلْمَرْذُولَ وَتَرَكَ ٱلْجَيِّدَ ٱلْمَقْبُولَ فَدَلَّ عَلَى قُصُورِ فَهْمِهِ وَتَأَخُّرِ مَعْرِفَتِهِ وَعِلْمِهِ . وَقَدْ قِيلَ : ٱخْتِيَارُ ٱلرَّجُلِ قِطْعَةٌ مِنْ عِلْمِهِ . وَمَا أَكْثَرَ مَا وَقَعَ مِنْ عُلَمَاءِ ٱلْعَرَبِيَّةِ فِي هٰذِهِ ٱلرَّذِيلَةِ . وَقَوْلُهُ : (بَرِيئًا مِنَ ٱلتَّعْقِيدِ) فَٱلتَّعْقِيدُ وَٱلْإِغْلَاقُ سَوَاءٌ وَهُوَ ٱسْتِعْمَالُ ٱلْوَحْشِيِّ وَشِدَّةُ تَعْلِيقِ ٱلْكَلَامِ بَعْضِهِ بِبَعْضٍ حَتَّى يَسْتَبْهِمَ ٱلْمَعْنَى .

قَالَ حَبِيبٌ ٱلطَّائِيُّ :

فَمَا لَكَ بِٱلْغَرِيبِ يَدٌ وَلٰكِنْ تَعَاطِيكَ ٱلْغَرِيبَ مِنَ ٱلْغَرِيبِ
أَمَا لَوْ أَنَّ جَهْلَكَ عَادَ عِلْمًا إِذًا لَرَسَخْتَ فِي عِلْمِ ٱلْغُيُوبِ

قَالَ آخَرُ يَمْدَحُ رَجُلًا بِٱسْتِسْهَالِ ٱللَّفْظِ :

قَوْلٌ كَأَنَّ فَرِنْدَهُ سَحْرٌ عَلَى ذِهْنِ ٱللَّبِيبِ
لَمْ يَسْمُ نَزْرًا عَلَى ٱللِّسَا نِ وَلَا يَشُذُّ عَلَى ٱلْقُلُوبِ
لَمْ يَغْلُ فِي شَنْعِ ٱللُّغَا تِ وَلَا يُوَحَّشُ بِٱلْغَرِيبِ

وَقَوْلُهُ : (غَنِيًّا عَنِ ٱلتَّأَمُّلِ) أَيْ هُوَ مُسْتَغْنٍ لِوُضُوحِهِ عَنْ تَأَمُّلِ مَعَانِيهِ وَتَرْدِيدِ ٱلنَّظَرِ فِيهِ. قَالَ ٱلْجَاحِظُ : إِنَّ مَنْ أَعَارَهُ ٱللهُ مِنْ مَعُونَتِهِ نَصِيبًا وَأَفْرَغَ عَلَيْهِ مِنْ مَحَبَّتِهِ ذَنُوبًا حَبَّبَ إِلَيْهِ ٱلْمَعَانِي وَسَلَّسَ لَهُ نِظَامَ ٱللَّفْظِ وَكَانَ قَبْلُ قَدْ أَعْفَى ٱلْمُسْتَمِعَ مِنْ كَدِّ ٱلتَّلَطُّفِ وَأَرَاحَ قَارِئَ ٱلْكِتَابِ مِنْ كَدِّ ٱلتَّفَهُّمِ . وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ ٱلْبَلَاغَةَ ٱلتَّقَرُّبُ مِنَ ٱلْمَعْنَى ٱلْبَعِيدِ وَٱلتَّبَاعُدُ مِنْ حَشْوِ ٱلْكَلَامِ وَقُرْبُ ٱلْمَأْخَذِ وَإِيجَازٌ فِي صَوَابٍ وَقَصْدٌ إِلَى ٱلْحُجَّةِ وَحُسْنُ ٱلِٱسْتِعَارَةِ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ ٱلْآخَرِ : ٱلْبَلَاغَةُ تَقْرِيبُ مَا بَعُدَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ بِأَيْسَرِ ٱلْخِطَابِ وَٱلتَّقَرُّبُ مِنَ ٱلْمَعْنَى ٱلْبَعِيدِ . وَهُوَ أَنْ يَعْمِدَ إِلَى ٱلْمَعْنَى ٱللَّطِيفِ فَيَكْشِفَهُ وَيَنْفِيَ ٱلشَّوَاغِلَ عَنْهُ فَيُفْهِمَهُ ٱلسَّامِعَ مِنْ غَيْرِ فِكْرٍ فِيهِ وَتَدَبُّرٍ لَهُ . وَقَوْلُهُ : (مُتَبَاعِدًا مِنَ ٱلْحَشْوِ) فَٱلْحَشْوُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَضْرُبٍ : ٱثْنَانِ مِنْهَا مَذْمُومَانِ وَوَاحِدٌ مَحْمُودٌ . فَأَحَدُ ٱلْمَذْمُومَيْنِ هُوَ : إِدْخَالُكَ فِي ٱلْكَلَامِ لَفْظًا لَوْ أَسْقَطْتَهُ لَكَانَ ٱلْكَلَامُ تَامًّا . مِثْلُ قَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

اَعْنِي فَتًى لَمْ تَذُرَّ ٱلشَّمْسُ طَالِعَةً   يَوْمًا مِنَ ٱلدَّهْرِ إِلَّا ضَرَّ اَوْ نَفَعَا

فَقَوْلُهُ: (يَوْمًا مِنَ ٱلدَّهْرِ) حَشْوٌ لَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ لِأَنَّ ٱلشَّمْسَ لَا تَطْلُعُ لَيْلًا . وَٱلضَّرْبُ ٱلْآخَرُ ٱلْعِبَارَةُ عَنِ ٱلْمَعْنَى بِكَلَامٍ طَوِيلٍ لَا فَائِدَةَ فِي طُولِهِ وَيُمْكِنُ اَنْ يُعَبَّرَ بِاَقْصَرَ مِنْهُ كَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ :

تَبَيَّنْتُ آيَاتٍ لَهَا فَعَرَفْتُهَا   لِسِتَّةِ اَعْوَامٍ وَذَا ٱلْعَامُ سَابِعُ

فَكَانَ يَنْبَغِي اَنْ يَقُولَ : لِسَبْعَةِ اَعْوَامٍ . وَيُتِمَّ ٱلْبَيْتَ بِكَلَامٍ آخَرَ يَكُونُ فِيهِ فَائِدَةٌ فَعَجَزَ عَنْ ذٰلِكَ فَحَشَا ٱلْبَيْتَ بِمَا لَا وَجْهَ لَهُ . وَاَمَّا ٱلضَّرْبُ ٱلْمَحْمُودُ فَكَقَوْلِ كُثَيِّرٍ :

لَوْ اَنَّ ٱلْبَاخِلِينَ وَاَنْتَ مِنْهُمْ   رَاَوْكَ تَعَلَّمُوا مِنْكَ ٱلْمِطَالَا

قَوْلُهُ : (وَاَنْتَ مِنْهُمْ) حَشْوٌ إِلَّا اَنَّهُ مَلِيحٌ وَيُسَمِّي اَهْلُ ٱلصَّنْعَةِ هٰذَا ٱلْجِنْسَ ٱعْتِرَاضَ كَلَامٍ فِي كَلَامٍ . وَمِنْهُ قَوْلُ ٱلْآخَرِ :

إِنَّ ٱلثَّمَانِينَ وَبُلِّغْتَهَا   قَدْ اَحْوَجَتْ سَمْعِي إِلَى تَرْجُمَانْ

البحث الثامن

في الالتباس والاسباب المانعة من فهم المعاني

(عن الماوردي باختصار)

إِنْ لَمْ يَفْهَمِ ٱلْعَاقِلُ مَعَانِيَ مَا سَمِعَ كَشَفَ عَنِ ٱلسَّبَبِ ٱلْمَانِعِ مِنْهَا لِيَعْلَمَ ٱلْعِلَّةَ فِي تَعَذُّرِ فَهْمِهَا فَإِنَّ بِمَعْرِفَةِ اَسْبَابِ ٱلْأَشْيَاءِ وَعِلَلِهَا يَصِلُ إِلَى تَلَافِي مَا شَذَّ وَصَلَاحِ مَا فَسَدَ وَلَيْسَ يَخْلُو ٱلسَّبَبُ ٱلْمَانِعُ مِنْ ذٰلِكَ مِنْ ثَلَاثَةِ اَقْسَامٍ : إِمَّا اَنْ يَكُونَ بِعِلَّةٍ فِي ٱلْكَلَامِ

ٱلْمُتَرْجِمِ عَنْهَا. وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ لِعِلَّةٍ فِي ٱلْمُسْتَوْدَعِ فِيهَا. وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ لِعِلَّةٍ فِي ٱلسَّامِعِ ٱلْمُسْتَخْرِجِ . فَإِنْ كَانَ ٱلسَّبَبُ ٱلْمَانِعُ مِنْ فَهْمِهَا لِعِلَّةٍ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْمُتَرْجِمِ عَنْهَا لَمْ يَخْلُ ذٰلِكَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَحْوَالٍ: (أَحَدُهَا) أَنْ يَكُونَ لِتَقْصِيرِ ٱللَّفْظِ عَنِ ٱلْمَعْنَى فَيَصِيرَ تَقْصِيرُ ٱللَّفْظِ عَنْ ذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى سَبَبًا مَانِعًا مِنْ فَهْمِ ذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى . وَهٰذَا يَكُونُ مِنْ أَحَدِ وَجْهَيْنِ: إِمَّا مِنْ حَصَرِ ٱلْمُتَكَلِّمِ وَعِيِّهِ. وَإِمَّا مِنْ بَلَادَتِهِ وَقِلَّةِ فَهْمِهِ . (ٱلْحَالُ ٱلثَّانِي) أَنْ يَكُونَ لِزِيَادَةِ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى فَتَصِيرَ ٱلزِّيَادَةُ عِلَّةً مَانِعَةً مِنْ فَهْمِ ٱلْمَقْصُودِ مِنْهُ وَهٰذَا قَدْ يَكُونُ مِنْ أَحَدِ وَجْهَيْنِ : إِمَّا مِنْ هَذَرِ ٱلْمُتَكَلِّمِ وَإِكْثَارِهِ . وَإِمَّا لِسُوءِ ظَنِّهِ بِفَهْمِ سَامِعِهِ . (وَٱلْحَالُ ٱلثَّالِثُ) أَنْ يَكُونَ لِمُوَاضَعَةٍ يَقْصِدُهَا ٱلْمُتَكَلِّمُ بِكَلَامِهِ فَإِذَا لَمْ يَعْرِفْهَا ٱلسَّامِعُ لَمْ يَفْهَمْ مَعَانِيَهَا . وَأَمَّا تَقْصِيرُ ٱللَّفْظِ وَزِيَادَتُهُ فَمِنَ ٱلْأَسْبَابِ ٱلْخَاصَّةِ دُونَ ٱلْعَامَّةِ لِأَنَّكَ لَسْتَ تَجِدُ ذٰلِكَ عَامًّا فِي كُلِّ ٱلْكَلَامِ وَإِنَّمَا تَجِدُهُ فِي بَعْضِهِ فَإِذَا عَدَلْتَ عَنِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُقَصِّرِ إِلَى ٱلْكَلَامِ ٱلْمُسْتَوْفِي وَعَنِ ٱلزَّائِدِ إِلَى ٱلْكَافِي أَرَحْتَ نَفْسَكَ مِنْ تَكَلُّفِ مَا يَكُدُّ خَاطِرَكَ وَإِنْ أَقَمْتَ عَلَى ٱسْتِخْرَاجِهِ إِمَّا لِضَرُورَةٍ دَعَتْكَ إِلَيْهِ عِنْدَ إِعْوَازِ غَيْرِهِ أَوْ لِحَمِيَّةٍ دَاخَلَتْكَ عِنْدَ تَعَذُّرِ فَهْمِهِ فَٱنْظُرْ فِي سَبَبِ ٱلزِّيَادَةِ وَٱلتَّقْصِيرِ . فَإِنْ كَانَ ٱلتَّقْصِيرُ لِحَصَرٍ وَٱلزِّيَادَةُ لِهَذَرٍ سَهُلَ عَلَيْكَ ٱسْتِخْرَاجُ ٱلْمَعْنَى لِأَنَّ مَا لَهُ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَحْصُولٌ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ٱلْمُخْتَلُّ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنَ ٱلصَّحِيحِ وَفِي ٱلْأَكْثَرِ عَلَى ٱلْأَقَلِّ دَلِيلٌ . وَإِنْ كَانَتْ زِيَادَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى

دَلِيلًا بِسُوءِ ظَنِّ ٱلْمُتَكَلِّمِ بِفَهْمِ ٱلسَّامِعِ كَانَ ٱسْتِخْرَاجُهُ اَسْهَل . وَإِنْ كَانَ تَقْصِيرًا لِلَّفْظِ عَنِ ٱلْمَعْنَى لِسُوءِ فَهْمِ ٱلْمُتَكَلِّمِ فَهُوَ اَصْعَبُ ٱلْأُمُورِ حَالًا وَاَبْعَدُهَا ٱسْتِخْرَاجًا لِاَنَّ مَا لَمْ يَفْهَمْهُ مُكَلِّمُكَ فَاَنْتَ مِنْ فَهْمِهِ اَبْعَدُ إِلَّا اَنْ يَكُونَ بِفَرْطِ ذَكَائِكَ وَجُودَةِ خَاطِرِكَ تَتَنَبَّهُ بِإِشَارَتِهِ عَلَى ٱسْتِنْبَاطِ مَا عَجَزَ عَنْهُ وَٱسْتِخْرَاجِ مَا قَصَّرَ فِيهِ فَتَكُونُ فَضِيلَةُ ٱلْاِسْتِيفَاءِ لَكَ وَحَقُّ ٱلتَّقَدُّمِ لَهُ . وَاَمَّا ٱلْمُوَاضَعَةُ فَضَرْبَانِ : عَامَّةٌ وَخَاصَّةٌ . (اَمَّا ٱلْعَامَّةُ) فَهِيَ مُوَاضَعَةُ ٱلْعُلَمَاءِ فِيمَا جَعَلُوهُ اَلْقَابًا لِمَعَانٍ لَا يَسْتَغْنِي ٱلْمُتَعَلِّمُ عَنْهَا وَلَا يَقِفُ عَلَى مَعْنَى كَلَامِهِمْ إِلَّا بِهَا كَمَا جَعَلَ ٱلْمُتَكَلِّمُونَ ٱلْجَوَاهِرَ وَٱلْاَعْرَاضَ وَٱلْاَجْسَامَ اَلْقَابًا تَوَاضَعُوهَا لِمَعَانٍ ٱتَّفَقُوا عَلَيْهَا . وَلَسْتَ تَجِدُ مِنَ ٱلْعُلُومِ عِلْمًا يَخْلُو مِنْ هٰذَا . وَهٰذِهِ ٱلْمُوَاضَعَةُ ٱلْعَامَّةُ تُسَمَّى عُرْفًا . (وَاَمَّا ٱلْخَاصَّةُ) فَمُوَاضَعَةُ ٱلْوَاحِدِ يَقْصِدُ بِبَاطِنِ كَلَامِهِ غَيْرَ ظَاهِرِهِ . فَإِذَا كَانَتْ فِي ٱلْكَلَامِ كَانَتْ رَمْزًا . وَإِنْ كَانَتْ فِي ٱلشِّعْرِ كَانَتْ لُغْزًا . فَاَمَّا ٱلرَّمْزُ فَلَسْتَ تَجِدُهُ فِي عِلْمٍ مَعْنَوِيٍّ . وَلَا فِي كَلَامٍ لُغَوِيٍّ . وَإِنَّمَا يَخْتَصُّ غَالِبًا بِاَحَدِ شَيْئَيْنِ : إِمَّا بِمَذْهَبٍ شَنِيعٍ يُخْفِيهِ مُعْتَقِدُهُ وَيَجْعَلُ ٱلرَّمْزَ سَبَبًا لِتَطَلُّعِ ٱلنُّفُوسِ إِلَيْهِ وَٱحْتِمَالَ ٱلتَّأْوِيلِ فِيهِ سَبَبًا لِدَفْعِ ٱلتُّهْمَةِ عَنْهُ . وَإِمَّا لِمَا يَدَّعِي اَرْبَابُهُ اَنَّهُ عِلْمٌ مُعْوِزٌ . وَاَنَّ إِدْرَاكَهُ بَدِيعٌ مُعْجِزٌ كَالصَّنْعَةِ ٱلَّتِي وَضَعَهَا اَرْبَابُهَا ٱسْمًا لِعِلْمِ ٱلْكِيمِيَاءِ فَرَمَزُوا بِاَوْصَافِهِ وَاَخْفَوْا مَعَانِيَهُ لِيُوهِمُوا ٱلشُّحَّ بِهِ وَٱلْاَسَفَ عَلَيْهِ خَدِيعَةً لِلْعُقُولِ ٱلْوَاهِيَةِ وَٱلْآرَاءِ ٱلْفَاسِدَةِ . وَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَى ٱلْإِنْسَانِ مَا مُنِعَا ... مُنِعَتْ شَيْئًا فَأَكْثَرَتْ ٱلْوُلُوعَ بِهِ

ثُمَّ لِيَكُونُوا بُرَاءَ مِنْ عُهْدَةِ مَا قَالُوهُ إِذَا جُرِّبَ وَلَوْ كَانَ مَا تَضَمَّنَ هٰذَيْنِ ٱلنَّوْعَيْنِ وَأَشْبَاهَهُمَا مِنَ ٱلرُّمُوزِ مَعْنًى صَحِيحًا وَعِلْمًا مُسْتَفَادًا لَخَرَجَ مِنَ ٱلرَّمْزِ ٱلْخَفِيِّ إِلَى ٱلْعِلْمِ ٱلْجَلِيِّ . فَإِنَّ أَغْرَاضَ ٱلنَّاسِ مَعَ ٱخْتِلَافِ أَهْوَائِهِمْ لَا تَتَّفِقُ عَلَى سَتْرِ سَلِيمٍ وَإِخْفَاءِ مُفِيدٍ . وَقَدْ قَالَ زُهَيْرٌ :

ٱلسِّتْرُ دُونَ ٱلْفَاحِشَاتِ وَلَا ... يَلْقَاكَ دُونَ ٱلْخَيْرِ مِنْ سِتْرِ

وَرُبَّمَا ٱسْتُعْمِلَ ٱلرَّمْزُ مِنَ ٱلْكَلَامِ فِيمَا يُرَادُ تَفْخِيمُهُ مِنَ ٱلْمَعَانِي وَتَعْظِيمُهُ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ لِيَكُونَ أَحْلَى فِي ٱلْقَلْبِ مَوْقِعًا . وَأَجَلَّ فِي ٱلنُّفُوسِ مَوْضِعًا . فَيَصِيرَ بِٱلرَّمْزِ سَائِرًا وَفِي ٱلصُّحُفِ مُخَلَّدًا . كَالَّذِي حُكِيَ عَنْ فِيثَاغُورُسَ فِي وَصَايَاهُ ٱلْمَرْمُوزَةِ إِنَّهُ قَالَ : ٱحْفَظْ مِيزَانَكَ مِنَ ٱلْبَذَى وَأَوْزَانَكَ مِنَ ٱلصَّدَى . يُرِيدُ بِحِفْظِ ٱلْمِيزَانِ مِنَ ٱلْبَذَى حِفْظَ ٱللِّسَانِ مِنَ ٱلْخَنَا وَبِحِفْظِ ٱلْأَوْزَانِ مِنَ ٱلصَّدَى حِفْظَ ٱلْعَقْلِ مِنَ ٱلْهَوَى. فَصَارَ بِهٰذَا ٱلرَّمْزِ مُسْتَحْسَنًا وَمُدَوَّنًا وَلَوْ قَالَهُ بِٱللَّفْظِ ٱلصَّرِيحِ وَٱلْمَعْنَى ٱلصَّحِيحِ لَمَا سَارَ عَنْهُ وَلَا ٱسْتُحْسِنَ مِنْهُ . وَعِلَّةُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْمَحْجُوبَ عَنِ ٱلْأَفْهَامِ كَالْمَحْجُوبِ عَنِ ٱلْأَبْصَارِ فِيمَا يَحْصُلُ لَهُ فِي ٱلنُّفُوسِ مِنَ ٱلتَّعْظِيمِ . وَفِي ٱلْقُلُوبِ مِنَ ٱلتَّفْخِيمِ . وَمَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلَمْ يَحْتَجِبْ هَانَ وَٱسْتُرْذِلَ . وَهٰذَا إِنَّمَا يَصِحُّ ٱسْتِحْلَاؤُهُ فِيمَا قَلَّ وَهُوَ بِٱللَّفْظِ ٱلصَّرِيحِ مُسْتَقِلٌّ . فَأَمَّا ٱلْعُلُومُ ٱلْمُنْتَشِرَةُ ٱلَّتِي تَتَطَلَّعُ ٱلنُّفُوسُ إِلَيْهَا فَقَدِ ٱسْتَغْنَتْ بِقُوَّةِ ٱلْبَاعِثِ عَلَيْهَا. وَشِدَّةِ ٱلدَّاعِي إِلَيْهَا . عَنِ ٱلِٱسْتِدْعَاءِ إِلَيْهَا بِرَمْزٍ مُسْتَحْلًى وَلَفْظٍ مُسْتَغْرَبٍ. بَلْ ذٰلِكَ مُنَفِّرٌ لِمَا فِي ٱلتَّشَاغُلِ بِٱسْتِخْرَاجِ

رُمُوزِهَا مِنَ ٱلْاِبْطَاءِ عَنْ دَرْكِهَا فَهٰذَا حَالُ ٱلرَّمْزِ . وَامَا ٱللُّغْزُ فَهُوَ تَحَرِّي اَهْلِ ٱلْفَرَاغِ وَشُغْلُ ذَوِي ٱلْبَطَالَةِ لِيَتَنَافَسُوا فِي تَبَايُنِ قَرَائِحِهِمْ وَيَتَفَاخَرُوا فِي سُرْعَةِ خَوَاطِرِهِمْ فَيَسْتَكِدُّوا خَوَاطِرَ قَدْ مُنِحُوا صِحَّتَهَا فِيمَا لَا يُجْدِي نَفْعًا وَلَا يُفِيدُ عِلْمًا كَاَهْلِ ٱلصِّرَاعِ ٱلَّذِينَ قَدْ صَرَفُوا مَا مُنِحُوهُ مِنْ صِحَّةِ اَجْسَامِهِمْ اِلَى صِرَاعٍ كَدُودٍ يَصْرَعُ عُقُولَهُمْ وَيَهُدُّ اَجْسَامَهُمْ وَلَا يُكْسِبُهُمْ حَمْدًا وَلَا يُجْدِي عَلَيْهِمْ نَفْعًا . اُنْظُرْ اِلَى قَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

رَجُلٌ مَاتَ وَخَلَّفَ رَجُلًا ٱبْنَ اُمِّ ٱبْنِ اَبِي اُخْتِ اَبِيهِ
مَعَهُ اُمُّ بَنِي اَوْلَادِهِ وَاَبَا اُخْتِ بَنِي عَمِّ اَخِيهِ

اَخْبِرْنِي عَنْ هٰذَيْنِ ٱلْبَيْتَيْنِ وَقَدْ رَوَّعَكَ صُعُوبَةُ مَا تَضَمَّنَهُمَا مِنَ ٱلسُّؤَالِ اِذَا ٱسْتَكْدَيْتَ ٱلْفِكْرَ فِي ٱسْتِخْرَاجِهِ فَعَلِمْتَ اَنَّهُ اَرَادَ مَيْتًا خَلَّفَ اَبًا وَزَوْجَةً وَعَمًّا . مَا ٱلَّذِي اَفَادَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ وَنَفَى عَنْكَ مِنَ ٱلْجَهْلِ . اَلَسْتَ بَعْدَ عِلْمِهِ تَجْهَلُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا مِنْ قَبْلِهِ وَلَوْ اَنَّ ٱلسَّائِلَ قَلَبَ لَكَ ٱلسُّؤَالَ فَاَخَّرَ مَا قَدَّمَ وَقَدَّمَ مَا اَخَّرَ لَكُنْتَ فِي ٱلْجَهْلِ بِهِ قَبْلَ ٱسْتِخْرَاجِهِ كَمَا كُنْتَ فِي ٱلْجَهْلِ ٱلْاَوَّلِ وَقَدْ كَدَدْتَ نَفْسَكَ وَاَتْعَبْتَ خَاطِرَكَ . ثُمَّ لَا تَعْدَمُ اَنْ يَرِدَ عَلَيْكَ مِثْلُ هٰذَا مِمَّا تَجْهَلُهُ فَتَكُونُ فِيهِ كَمَا كُنْتَ قَبْلَهُ . فَاَصْرِفْ نَفْسَكَ تَوَلَّى ٱللّٰهُ رُشْدَكَ عَنْ عُلُومِ ٱلنَّوْكَى وَتَكَلُّفِ ٱلْبَطَّالِينَ . ثُمَّ ٱجْعَلْ مَا مَنَّ ٱللّٰهُ بِهِ عَلَيْكَ مِنْ صِحَّةِ ٱلْقَرِيحَةِ وَسُرْعَةِ ٱلْخَاطِرِ مَصْرُوفًا اِلَى عِلْمِ مَا يَكُونُ اِنْفَاقُ خَاطِرِكَ فِيهِ مَذْخُورًا وَكَدُّ فِكْرِكَ فِيهِ مَشْكُورًا . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : مَنْ اَمْضَى يَوْمَهُ بِغَيْرِ حَقٍّ قَضَاهُ . اَوْ فَرْضٍ اَدَّاهُ . اَوْ مَجْدٍ اَثَّلَهُ .

اَوْ حَمْدٍ حَصَّلَهُ . اَوْ خَيْرٍ اَسَّسَهُ اَوْ عِلْمٍ اَقْتَبَسَهُ . فَقَدْ عَقَّ يَوْمَهُ وَظَلَمَ نَفْسَهُ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ :

لَقَدْ هَاجَ ٱلْفَرَاغُ عَلَيْكَ شُغْلًا وَاَسْبَابُ ٱلْبَلَاءِ مِنَ ٱلْفَرَاغِ

فَهٰذَا تَعْلِيلُ مَا فِي ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلْاَسْبَابِ ٱلْمَانِعَةِ مِنْ فَهْمِ مَعَانِيهِ حَتَّى خَرَجَ بِنَا ٱلْاِسْتِيفَاءُ وَٱلْكَشْفُ اِلَى ٱلْاِغْمَاضِ . (وَاَمَّا ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي) وَهُوَ اَنْ يَكُونَ ٱلسَّبَبُ ٱلْمَانِعُ مِنْ فَهْمِ ٱلسَّامِعِ لِعِلَّةٍ فِي ٱلْمَعْنَى ٱلْمُسْتَوْدَعِ فَلَا يَخْلُو حَالُ ٱلْمَعْنَى مِنْ ثَلَاثَةِ اَقْسَامٍ : اِمَّا اَنْ يَكُونَ مُسْتَقِلًّا بِنَفْسِهِ اَوْ يَكُونَ مُقَدِّمَةً لِغَيْرِهِ اَوْ يَكُونَ نَتِيجَةً مِنْ غَيْرِهِ . فَاَمَّا ٱلْمُسْتَقِلُّ بِنَفْسِهِ فَضَرْبَانِ : جَلِيٌّ وَخَفِيٌّ . فَاَمَّا ٱلْجَلِيُّ فَهُوَ يَسْبِقُ اِلَى فَهْمِ مُتَصَوِّرِهِ مِنْ اَوَّلِ وَهْلَةٍ . وَلَيْسَ هُوَ مِنْ اَقْسَامِ مَا يُشْكِلُ عَلَى مَنْ تَصَوَّرَهُ . وَاَمَّا ٱلْخَفِيُّ فَيَحْتَاجُ فِي اِدْرَاكِهِ اِلَى زِيَادَةِ تَاَمُّلٍ وَفَضْلِ مُعَانَاةٍ لِيَنْجَلِيَ عَمَّا اَخْفَى وَيَنْكَشِفَ عَمَّا اَغْمَضَ . وَبِٱسْتِعْمَالِ ٱلْفِكْرِ فِيهِ يَكُونُ ٱلْاِرْتِيَاضُ بِهِ وَبِٱلْاِرْتِيَاضِ بِهِ يَسْهُلُ مِنْهُ مَا ٱسْتَصْعَبَ وَيَقْرُبُ مِنْهُ مَا بَعُدَ . فَاِنَّ لِلرِّيَاضَةِ جَرَاءَةً وَلِلدِّرَايَةِ تَاْثِيرًا . وَاَمَّا مَا كَانَ مُقَدِّمَةً لِغَيْرِهِ فَضَرْبَانِ : اَحَدُهُمَا اَنْ تَقُومَ ٱلْمُقَدِّمَةُ بِنَفْسِهَا وَاِنْ تَعَدَّتْ اِلَى غَيْرِهَا فَتَكُونَ كَٱلْمُسْتَقِلِّ بِنَفْسِهِ فِي تَصَوُّرِهِ وَفَهْمِهِ مُسْتَدْعِيًا لِنَتِيجَتِهِ . وَٱلثَّانِي اَنْ يَكُونَ مُفْتَقِرًا اِلَى نَتِيجَةٍ فَيَتَعَذَّرَ فَهْمُ ٱلْمُقَدِّمَةِ اِلَّا بِمَا يَتْبَعُهَا مِنَ ٱلنَّتِيجَةِ لِاَنَّهَا تَكُونُ بَعْضًا . وَتَبْعِيضُ ٱلْمَعْنَى اَشْكَلُ لَهُ وَبَعْضُهُ لَا يُغْنِي عَنْ كُلِّهِ . وَاَمَّا مَا كَانَ نَتِيجَةً لِغَيْرِهِ فَهُوَ لَا يُدْرَكُ اِلَّا بِاَوَّلِهِ وَلَا يُتَصَوَّرُ عَلَى حَقِيقَتِهِ

إِلَّا بِمُقَدِّمَتِهِ وَٱلِاشْتِغَالُ بِهِ قَبْلَ ٱلْمُقَدِّمَةِ عَنَاءٌ . وَإِتْعَابُ ٱلْفِكْرِ فِي ٱسْتِنْبَاطِهِ قَبْلَ قَاعِدَتِهِ أَذًى . فَهٰذَا يُوضِحُ تَعْلِيلَ مَا فِي ٱلْمَعَانِي مِنَ ٱلْأَسْبَابِ ٱلْمَانِعَةِ مِنْ فَهْمِهَا . (وَأَمَّا ٱلْقِسْمُ ٱلثَّالِثُ) وَهُوَ أَنْ يَكُونَ ٱلسَّبَبُ ٱلْمَانِعُ لِعِلَّةٍ فِي ٱلْمُسْتَمِعِ فَذٰلِكَ ضَرْبَانِ : أَحَدُهُمَا مِنْ ذَاتِهِ . وَٱلثَّانِي مِن طَارٍ عَلَيْهِ . (فَأَمَّا مَا كَانَ مِنْ ذَاتِهِ) فَيَتَنَوَّعُ نَوْعَيْنِ: أَحَدُهُمَا مَا كَانَ مَانِعًا مِنْ تَصَوُّرِ ٱلْمَعْنَى . وَٱلثَّانِي مَا كَانَ مَانِعًا مِنْ حِفْظِهِ بَعْدَ تَصَوُّرِهِ وَفَهْمِهِ . فَأَمَّا مَا كَانَ مَانِعًا مِنْ تَصَوُّرِ ٱلْمَعْنَى وَفَهْمِهِ فَهُوَ ٱلْبَلَادَةُ وَقِلَّةُ ٱلْفِطْنَةِ وَهُوَ ٱلدَّاءُ ٱلْعَيَاءُ . وَقَدْ قَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : إِذَا فَقَدَ ٱلْعَالِمُ ٱلذِّهْنَ قَلَّ عَلَى ٱلْأَضْدَادِ ٱحْتِجَاجُهُ . وَكَثُرَ إِلَى ٱلْكُتُبِ ٱحْتِيَاجُهُ . وَلَيْسَ لِمَنْ بُلِيَ بِهِ إِلَّا ٱلصَّبْرُ وَٱلْإِقْلَالُ . لِأَنَّهُ عَلَى ٱلْقَلِيلِ أَقْدَرُ . وَبِٱلصَّبْرِ أَحْرَى أَنْ يَنَالَ وَيَظْفَرَ . وَأَمَّا ٱلْمَانِعُ مِنْ حِفْظِهِ بَعْدَ تَصَوُّرِهِ وَفَهْمِهِ فَهُوَ ٱلنِّسْيَانُ ٱلْحَادِثُ عَنْ غَفْلَةِ ٱلتَّقْصِيرِ وَإِهْمَالِ ٱلتَّوَانِي فَيَنْبَغِي لِمَنْ بُلِيَ بِهِ أَنْ يَسْتَدْرِكَ تَقْصِيرَهُ بِكَثْرَةِ ٱلدَّرْسِ وَيُوقِظَ غَفْلَتَهُ بِإِدَامَةِ ٱلنَّظَرِ . فَقَدْ قِيلَ: لَا يُدْرِكُ ٱلْعِلْمَ مَنْ لَا يُطِيلُ دَرْسَهُ وَيَكُدُّ نَفْسَهُ . وَكَثْرَةُ ٱلدَّرْسِ كُدُودٌ لَا يَصْبِرُ عَلَيْهِ إِلَّا مَنْ يَرَى ٱلْعِلْمَ مَغْنَمًا وَٱلْجَهَالَةَ مَغْرَمًا . فَيَحْتَمِلُ تَعَبَ ٱلدَّرْسِ لِيُدْرِكَ رَاحَةَ ٱلْعِلْمِ وَيَنْفِيَ عَنْهُ مَعَرَّةَ ٱلْجَهْلِ . فَإِنَّ نَيْلَ ٱلْعَظِيمِ بِأَمْرٍ عَظِيمٍ . وَعَلَى قَدْرِ ٱلرَّغْبَةِ تَكُونُ ٱلْمَطَالِبُ وَبِحَسَبِ ٱلرَّاحَةِ يَكُونُ ٱلتَّعَبُ . وَقَدْ قِيلَ: طَلَبُ ٱلرَّاحَةِ قِلَّةُ ٱلِاسْتِرَاحَةِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : أَكْمَلُ ٱلرَّاحَةِ مَا كَانَتْ عَنْ كَدِّ ٱلتَّعَبِ وَأَعَزُّ ٱلْعِلْمِ مَا كَانَ عَنْ ذُلِّ ٱلطَّلَبِ . . .

وَقَالَ بَعضُ ٱلبُلَغَاءِ : إِنَّ هٰذِهِ ٱلآدَابَ نَوَافِرُ تَنِدُّ عَنْ أَهْلِ ٱلأَذْهَانِ فَٱجْعَلُوا ٱلْكُتُبَ عَنْهَا حُمَاةً . وَٱلأَقْلَامَ لَهَا رُعَاةً . (وَأَمَّا ٱلطَّوَارِئُ) فَنَوْعَانِ : (أَحَدُهُمَا) شُبْهَةٌ تَعْتَرِضُ ٱلْمَعْنَى فَتَمْنَعُ عَنْ نَفْسِ تَصَوُّرِهِ وَتَدْفَعُ عَنْ إِدْرَاكِ حَقِيقَتِهِ . فَيَنْبَغِي أَنْ يُزِيلَ تِلْكَ ٱلشُّبْهَةَ عَنْ نَفْسِهِ بِٱلسُّؤَالِ أَوِ ٱلنَّظَرِ لِيَصِلَ إِلَى تَصَوُّرِ ٱلْمَعْنَى وَإِدْرَاكِ حَقِيقَتِهِ . وَلِذٰلِكَ قَالَ بَعْضُ ٱلْعُلَمَاءِ : لَا تُخْلِ قَلْبَكَ مِنَ ٱلْمُذَاكَرَةِ فَتَعُودَ عَقِيمًا . وَلَا تُعْفِ طَبْعَكَ مِنَ ٱلْمُنَاظَرَةِ فَيَعُودَ سَقِيمًا . وَقَالَ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ :

شِفَاءُ ٱلْعَمَى طُولُ ٱلسُّؤَالِ وَإِنَّمَا
دَوَامُ ٱلْعَمَى طُولُ ٱلسُّكُوتِ عَلَى ٱلْجَهْلِ
فَكُنْ سَائِلًا عَمَّا عَنَاكَ فَإِنَّمَا
دُعِيتَ أَخَا عَقْلٍ لِتَبْحَثَ بِٱلْعَقْلِ

(وَٱلثَّانِي) أَفْكَارٌ تُعَارِضُ ٱلْخَاطِرَ فَيَذْهَلُ عَنْ تَصَوُّرِ ٱلْمَعْنَى . وَهٰذَا سَبَبٌ قَلَّ مَا يَعْرَى مِنْهُ أَحَدٌ لَا سِيَّمَا فِيمَنِ ٱنْبَسَطَتْ آمَالُهُ وَٱتَّسَعَتْ أَمَانِيُّهُ . وَقَدْ يَقِلُّ فِيمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي غَيْرِ ٱلْعِلْمِ أَرَبٌ وَلَا فِيمَا سِوَاهُ هِمَّةٌ فَإِنْ طَرَأَتْ عَلَى ٱلْإِنْسَانِ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى مُكَابَرَةِ نَفْسِهِ عَلَى ٱلْفَهْمِ وَغَلَبَةِ قَلْبِهِ عَلَى ٱلتَّصَوُّرِ لِأَنَّ ٱلْقَلْبَ مَعَ ٱلْإِكْرَاهِ أَشَدُّ نُفُورًا وَأَبْعَدُ قَبُولًا . وَقَدْ جَاءَ فِي ٱلْأَثَرِ : بِأَنَّ ٱلْقَلْبَ إِذَا أُكْرِهَ عَمِيَ . وَلٰكِنْ يُعْمِلُ فِي دَفْعِ مَا طَرَأَ عَلَيْهِ مِنْ هَمٍّ مُذْهِلٍ أَوْ فِكْرٍ قَاطِعٍ لِيَسْتَجِيبَ لَهُ ٱلْقَلْبُ مُطِيعًا . وَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

وَلَيْسَ بِمُغْنٍ فِي ٱلْمَوَدَّةِ شَافِعٌ
إِذَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَ ٱلضُّلُوعِ شَفِيعُ

وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : إِنَّ لِهٰذِهِ ٱلْقُلُوبِ تَنَافُرًا كَتَنَافُرِ ٱلْوَحْشِ

فتاَلّفوها بالاقتصاد في التعليم والتوسّط في التقديم لتحسن طاعتها ويدوم نشاطها . فهذا تعليل ما في المستمع من الاسباب المانعة من فهم المعاني

البحث التاسع

في المعاظلة

(من المثل السائر لابن الاثير باختصار وتصرُّف)

انّ المعاظلة مأخوذة من قولهم: تعاظلت الجرادتان اذا ركبت احداهما الاخرى. فسمّي الكلام المتراكب في الفاظه وفي معانيه المعاظلة مأخوذًا من ذلك وهو اسم لائق بمسمّاه . ووصف عمرُ بن الخطّاب زهيرَ بن ابي سلمى فقال: كان لا يعاظل بين الكلام . وقد اختلف علماء البيان في حقيقة المعاظلة فقال قدامة ابن جعفر الكاتب: التعاظل في الكلام هو ان يدخل بعض الكلام فيما ليس من جنسه ولا اعرف ذلك الّا فاحش الاستعارة. كقول اوس بن حجر:

وذات هدم عارٍ نواشرها تُصمِت بالماء تولبا جدعا

فسمّى الظبي تولبًا والتولب ولد الحمار. وهذا ما ذكره قدامة ابن جعفر وهو خطأٌ اذ لو كان ما ذهب اليه صوابا لكانت حقيقة المعاظلة دخول الكلام فيما ليس من جنسه. وليست حقيقتها هذه بل حقيقتها ما تقدّم وهو التراكب من قولهم: تعاظلت الجرادتان

اِذَا رَكِبَتْ اِحدَاهُمَا ٱلأُخرَى . وَهٰذَا ٱلمِثَالُ ٱلَّذِي مَثَّلَ بِهِ قُدَامَةُ لَا تَرَاكُبَ فِي أَلفَاظِهِ وَلَا فِي مَعَانِيهِ . وَأَمَّا غَيرُ قُدَامَةَ فَإِنَّهُ خَالَفَهُ فِيمَا ذَهَبَ اِلَيهِ اِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَقسِمِ ٱلمُعَاظَلَةَ اِلَى لَفظِيَّةٍ وَمَعنَوِيَّةٍ وَلٰكِنَّهُ ضَرَبَ لَهَا مَثَلًا . كَقَولِ ٱلفَرَزدَقِ :

وَمَا مِثْلُهُ فِي ٱلنَّاسِ اِلَّا مُمَلَّكًا ... أَبُو أُمِّهِ حَيٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهْ

وَهٰذَا مِنَ ٱلقِسمِ ٱلمَعنَوِيِّ لَا مِنَ ٱلقِسمِ ٱللَّفظِيِّ . أَلَا تَرَى اِلَى تَرَاكُبِ مَعَانِيهِ بِتَقدِيمِ مَا كَانَ يَجِبُ تَأْخِيرُهُ وَتَأْخِيرِ مَا كَانَ يَجِبُ تَقدِيمُهُ لِأَنَّ ٱلأَصلَ فِي مَعنَاهُ : وَمَا مِثْلُهُ فِي ٱلنَّاسِ حَيٌّ يُقَارِبُهُ اِلَّا مُمَلَّكًا أَبُو أُمِّهِ أَبُوهُ . وَاِذْ حَقَّقْتُ ٱلقَولَ فِي بَيَانِ ٱلمُعَاظَلَةِ وَٱلكَشفِ عَنْ حَقِيقَتِهَا فَأَقُولُ : اِنَّ ٱلمُعَاظَلَةَ مُعَاظَلَتَانِ لَفظِيَّةٌ وَمَعنَوِيَّةٌ (فَٱلمَعنَوِيَّةُ) أَنْ يُقَدَّمَ مَا ٱلأَولَى بِهِ ٱلتَّأْخِيرُ وَهُوَ مِنْ عُيُوبِ ٱلكَلَامِ لِأَنَّ ٱلمَعنَى مُختَلٌّ بِذٰلِكَ وَمُضطَرِبٌ وَذٰلِكَ كَتَقدِيمِ ٱلصِّفَةِ أَوْ مَا يَتَعَلَّقُ بِهَا عَلَى ٱلمَوصُوفِ وَتَقدِيمِ ٱلصِّلَةِ عَلَى ٱلمَوصُولِ وَغَيرِ ذٰلِكَ . كَقَولِ بَعضِهِمْ :

فَقَدْ وَٱلشَّكُّ بَيَّنَ لِي عَنَاءٌ ... بِوَشْكِ فِرَاقِهِمْ صُرَدٌ يَصِيحُ

فَإِنَّهُ قَدَّمَ قَولَهُ (بِوَشْكِ فِرَاقِهِمْ) . وَهُوَ مَعمُولُ يَصِيحُ وَيَصِيحُ صِفَةٌ لِصُرَدٍ عَلَى صُرَدٍ وَذٰلِكَ قَبِيحٌ . أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ : هٰذَا مِنْ مَوضِعِ كَذَا رَجُلٌ وَرَدَ ٱليَومَ . وَاِنَّمَا يَجُوزُ وُقُوعُ ٱلمَعمُولِ بِحَيثُ يَجُوزُ وُقُوعُ ٱلعَامِلِ فَكَمَا لَا يَجُوزُ تَقدِيمُ ٱلصِّفَةِ عَلَى مَوصُوفِهَا فَكَذٰلِكَ لَا يَجُوزُ تَقدِيمُ مَا ٱتَّصَلَ بِهَا عَلَى مَوصُوفِهَا . وَمِنْ هٰذَا ٱلنَّحوِ

قَوْلُ ٱلْآخَرِ :

فَأَصْبَحَتْ بَعْدَ خَطَّ بَهْجَتِهَا   كَأَنَّ قَفْرًا رُسُومَهَا قَلَمَا

فَإِنَّهُ قَدَّمَ خَبَرَ كَانَ عَلَيْهَا وَهُوَ قَوْلُهُ : خَطَّ . وَهٰذَا وَأَمْثَالُهُ مِمَّا لَا يَجُوزُ قِيَاسٌ عَلَيْهِ وَٱلْأَصْلُ فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ (فَأَصْبَحَتْ بَعْدَ بَهْجَتِهَا قَفْرًا كَأَنَّ قَلَمًا خَطَّ رُسُومَهَا) إِلَّا أَنَّهُ عَلَى تِلْكَ ٱلْحَالَةِ ٱلْأُولَى فِي ٱلشِّعْرِ مُخْتَلٌّ مُضْطَرِبٌ . وَٱلْمُعَاظَلَةُ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ تَتَفَاوَتُ دَرَجَاتُهَا فِي ٱلْقُبْحِ وَهٰذَا ٱلْبَيْتُ ٱلْمُشَارُ إِلَيْهِ مِنْ أَقْبَحِهَا لِأَنَّ مَعَانِيَهُ قَدْ تَدَاخَلَتْ وَرَكِبَ بَعْضُهَا بَعْضًا . وَمِمَّا يَجْرِي هٰذَا ٱلْمَجْرَى قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ :

إِلَى مَلِكٍ مَا أُمُّهُ مِنْ مُحَارِبٍ   أَبُوهُ وَلَا كَانَتْ كُلَيْبٌ تُصَاهِرُهْ

(وَهُوَ يُرِيدُ إِلَى مَلِكٍ أَبُوهُ مَا أُمُّهُ مِنْ مُحَارِبٍ) . وَهٰذَا أَقْبَحُ مِنَ ٱلْأَوَّلِ وَأَكْثَرُ ٱخْتِلَالًا . . . وَقَدِ ٱسْتَعْمَلَ ٱلْفَرَزْدَقُ مِنَ ٱلتَّعَاظُلِ كَثِيرًا كَأَنَّهُ كَانَ يَقْصِدُ ذٰلِكَ وَيَتَعَمَّدُهُ . لِأَنَّ مِثْلَهُ لَا يَجِيءُ إِلَّا مُتَكَلَّفًا مَقْصُودًا وَإِلَّا فَإِذَا تَرَكَ مُؤَلِّفُ ٱلْكَلَامِ نَفْسَهُ تَجْرِي عَلَى سَجِيَّتِهَا وَطَبْعِهَا فِي ٱلْإِسْتِرْسَالِ لَمْ يَعْرِضْ لَهُ شَيْءٌ مِنْ هٰذَا ٱلتَّعْقِيدِ . أَلَا تَرَى أَنَّ ٱلْمَقْصُودَ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَعْدُومٌ فِي هٰذَا ٱلضَّرْبِ ٱلْمُشَارِ إِلَيْهِ إِذِ ٱلْمَقْصُودُ مِنَ ٱلْكَلَامِ إِنَّمَا هُوَ ٱلْإِيضَاحُ وَٱلْإِبَانَةُ وَإِفْهَامُ ٱلْمَعْنَى . فَإِذَا ذَهَبَ هٰذَا ٱلْوَصْفُ ٱلْمَقْصُودُ مِنَ ٱلْكَلَامِ ذَهَبَ ٱلْمُرَادُ بِهِ وَلَا فَرْقَ عِنْدَ ذٰلِكَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ مِنَ ٱللُّغَاتِ كَٱلْفَارِسِيَّةِ وَٱلْهِنْدِيَّةِ وَغَيْرِهِمَا . وَٱعْلَمْ أَنَّ هٰذَا ٱلضَّرْبَ مِنَ ٱلْكَلَامِ هُوَ ضِدُّ ٱلْفَصَاحَةِ لِأَنَّ ٱلْفَصَاحَةَ هِيَ ٱلظُّهُورُ وَٱلْبَيَانُ وَهٰذَا عَارٍ عَنْ هٰذَا ٱلْوَصْفِ . وَأَمَّا ٱلْقِسْمُ

أ للّفظيّ مِنَ ٱلمعاظلةِ) فإنّي تأمّلتُهُ بالاستقراء مِنَ ٱلأشعارِ قديمِها ومُحدَثِها ومِنَ ٱلنظرِ في حقيقتِها نفسِها فوجدتُّها تنقسِمُ إلى خمسةِ أقسامٍ : (ٱلأوّلُ) منها يختصُّ بأدواتِ ٱلكلامِ . مِنْ وإلى وعَنْ وعلى وأشباهِها . فإنَّ منها ما يسهلُ ٱلنُّطقُ بِهِ إذا وردَ معَ أخواتِهِ . ومنها ما لا يسهلُ بل يردُ ثقيلًا على ٱللّسانِ ولكلِّ موضعٍ يخصُّهُ مِنَ ٱلسَّبكِ . فممّا جاءَ مِنهُ قولُ أبي تمّامٍ :

إلى خالدٍ راحتْ بنا أرحبيَّةٌ　　مرافقُها مِنْ عَنْ كراكرِها نُكْبُ

فقولُهُ : (مِنْ عَنْ كراكرِها) مِنَ ٱلكلامِ ٱلمتعاظِلِ ٱلّذي يثقُلُ ٱلنُّطقُ بِهِ على أنّهُ قد وردتْ هاتانِ ٱللّفظتانِ وهُما : مِنْ وعَنْ في موضعٍ آخرَ فلم يثقُلِ ٱلنُّطقُ بهما كقولِ ٱلقائلِ : مِنْ عَنْ يمينِ ٱلطّريقِ. وٱلسَّببُ في ذلكَ أنّهما وردَتا في بيتِ أبي تمّامٍ مضافتينِ إلى لفظةِ ٱلكراكرِ فثقُلتْ منهما وجعلتْهُما مكروهتينِ كما ترى وإلّا فقد وردَتا في شعرِ قطريّ بنِ ٱلفُجاءةِ فكانتا خفيفتينِ كقولِهِ :

ولقد أراني للرِّماحِ دريئةً　　مِنْ عَنْ يميني مرّةً وأمامي

وٱلأصلُ في ذلكَ راجعٌ إلى ٱلسَّبكِ فإذا سُبِكتْ هاتانِ ٱللّفظتانِ أو ما يجري مجراهُما معَ ألفاظٍ تسهلُ منهما لم يكنْ بهما مِنْ ثِقلٍ كما جاءتا في بيتِ قطريّ . وإذا سُبِكتا معَ ألفاظٍ تثقُلُ منهما جاءتا كما جاءتا في بيتِ أبي تمّامٍ . ومِنْ هذا ٱلقسمِ قولُ أبي تمّامٍ أيضًا :

كأنّهُ لاجتماعِ ٱلرُّوحِ فيهِ لهُ　　في كلِّ جارحةٍ مِنْ جسمِهِ رُوحُ

فَقَوْلُهُ (فِي) بَعْدَ قَوْلِهِ (فِيهِ لَهُ) مِمَّا لَا يَحْسُنُ وُرُودُهُ. وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَوْلُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

وَتُسْعِدُنِي فِي غَمْرَةٍ بَعْدَ غَمْرَةٍ   سَبُوحٌ لَهَا مِنْهَا عَلَيْهَا شَوَاهِدُ

فَقَوْلُهُ : (لَهَا مِنْهَا عَلَيْهَا) مِنَ ٱلثَّقِيلِ ٱلثَّقِيلِ ٱلثَّقِيلِ . . . .

(اَلْقِسْمُ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلْمُعَاظَلَةِ ٱللَّفْظِيَّةِ) تَخْتَصُّ بِتَكْرِيرِ ٱلْحُرُوفِ وَلَيْسَ ذٰلِكَ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِتَكْرِيرِ ٱلْأَلْفَاظِ وَلَا بِتَكْرِيرِ ٱلْمَعَانِي مِمَّا يَأْتِي ذِكْرُهُ فِي بَابِ ٱلتَّكْرِيرِ فِي ٱلْمَقَالَةِ ٱلثَّانِيَةِ . وَاِنَّمَا هُوَ تَكْرِيرُ حَرْفٍ وَاحِدٍ اَوْ حَرْفَيْنِ فِي كُلِّ لَفْظَةٍ مِنْ اَلْفَاظِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمَنْثُورِ اَوِ ٱلْمَنْظُومِ فَيَثْقُلُ حِينَئِذٍ ٱلنُّطْقُ بِهِ . فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ :

وَقَبْرُ حَرْبٍ فِي مَكَانٍ قَفْرُ   وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ

فَهٰذِهِ ٱلْقَافَاتُ وَٱلرَّاآتُ كَأَنَّهَا فِي تَتَابُعِهَا سِلْسِلَةٌ وَلَا خَفَاءَ بِمَا فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلثِّقَلِ . وَكَذَا وَرَدَ قَوْلُ ٱلْحَرِيرِيِّ فِي مَقَامَاتِهِ :

وَٱزْوَرَّ مَنْ كَانَ لَهُ زَائِرًا   وَعَافَ عَافِي ٱلْعُرْفِ عُرْفَانَهُ

فَقَوْلُهُ : (وَعَافَ عَافِي ٱلْعُرْفِ عُرْفَانَهُ) مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ ٱلْمُشَارِ اِلَيْهِ . وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَوْلُهُ اَيْضًا فِي رِسَالَتَيْهِ ٱللَّتَيْنِ صَاغَهُمَا عَلَى حَرْفَيِ ٱلسِّينِ وَٱلشِّينِ : فَاِنَّهُ اَتَى فِي اِحْدَاهُمَا بِٱلسِّينِ فِي كُلِّ لَفْظَةٍ مِنْ اَلْفَاظِهَا . وَاَتَى بِٱلْأُخْرَى بِٱلشِّينِ فِي كُلِّ لَفْظَةٍ مِنْ اَلْفَاظِهَا فَجَاءَتَا كَأَنَّهُمَا رُقَى ٱلْعَقَارِبِ اَوْ خُذْرُوفَةُ ٱلْعَزَائِمِ . وَمَا اَعْلَمُ كَيْفَ خَفِيَ مَا فِيهِمَا مِنَ ٱلْقُبْحِ عَلَى مِثْلِ ٱلْحَرِيرِيِّ مَعَ مَعْرِفَتِهِ بِٱلْجَيِّدِ وَٱلرَّدِيِّ مِنَ ٱلْكَلَامِ . . . وَٱعْلَمْ اَنَّ ٱلْعَرَبَ ٱلَّذِينَ هُمُ ٱلْأَصْلُ فِي هٰذِهِ ٱللُّغَةِ قَدْ عَدَلُوا عَنْ

تَكْرِيرِ ٱلْحُرُوفِ فِي كَثِيرٍ مِنْ كَلَامِهِمْ. وَذَاكَ أَنَّهُ إِذَا تَكَرَّرَ ٱلْحَرْفُ عِنْدَهُمْ أَدْغَمُوهُ ٱسْتِحْسَانًا فَقَالُوا فِي: (جَعَلَ لَكَ) جَعَلَّكَ. وَفِي: (تَضْرِبُونَنِي) تَضْرِبُونِي. وَكَذٰلِكَ قَالُوا: ٱسْتَعَدَّ فُلَانٌ لِلْأَمْرِ إِذَا تَأَهَّبَ لَهُ وَٱلْأَصْلُ فِيهِ ٱسْتَعْدَدَ. وَٱسْتَتَبَّ ٱلْأَمْرُ إِذَا تَهَيَّأَ. وَٱلْأَصْلُ فِيهِ ٱسْتَتْبَبَ. وَأَشْبَاهُ ذٰلِكَ فِي كَلَامِهِمْ حَتَّى أَنَّهُمْ لِشِدَّةِ كَرَاهَتِهِمْ لِتَكْرِيرِ ٱلْحُرُوفِ أَبْدَلُوا أَحَدَ ٱلْحَرْفَيْنِ ٱلْمُكَرَّرَيْنِ حَرْفًا آخَرَ غَيْرَهُ فَقَالُوا: أَمْلَيْتُ ٱلْكِتَابَ. وَٱلْأَصْلُ فِيهِ أَمْلَلْتُ. فَأَبْدَلُوا ٱللَّامَ يَاءً طَلَبًا لِلْخِفَّةِ وَفِرَارًا مِنَ ٱلثِّقَلِ. وَإِذَا كَانَ قَدْ فَعَلُوا ذٰلِكَ فِي ٱللَّفْظَةِ ٱلْوَاحِدَةِ فَمَا ظَنُّكَ بِٱلْأَلْفَاظِ ٱلْكَثِيرَةِ ٱلَّتِي يَتْبَعُ بَعْضُهَا بَعْضًا

(ٱلْقِسْمُ ٱلثَّالِثُ مِنَ ٱلْمُعَاظَلَةِ) أَنْ تَرِدَ أَلْفَاظٌ عَلَى صِيغَةِ ٱلْفِعْلِ يَتْبَعُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَمِنْهَا مَا يَخْتَلِفُ بَيْنَ مَاضٍ وَمُسْتَقْبَلٍ. وَمِنْهَا مَا لَا يَخْتَلِفُ. فَٱلْأَوَّلُ كَقَوْلِ ٱلْقَاضِي ٱلْأَرَّجَانِيِّ فِي أَبْيَاتٍ يَصِفُ فِيهَا ٱلشَّمْعَةَ فَقَالَ:

بِٱلنَّارِ فَرَّقَتِ ٱلْحَوَادِثُ بَيْنَنَا ... وَبِهَا نَذَرْتُ أَعُودُ أَقْتُلُ رُوحِي

فَقَوْلُهُ: (نَذَرْتُ أَعُودُ) مِنَ ٱلْمُعَاظَلَةِ ٱلْمُشَارِ إِلَيْهَا. وَأَمَّا مَا يَرِدُ عَلَى نَهْجٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلصِّيغَةِ ٱلْفِعْلِيَّةِ. فَكَقَوْلِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي:

أَقِلْ أَنِلْ أَقْطِعِ ٱحْمِلْ عَلِّ سَلِّ أَعِدْ ... زِدْ هِشَّ بِشَّ تَفَضَّلْ أَدْنِ سُرَّ صِلِ

فَهٰذِهِ أَلْفَاظٌ جَاءَتْ عَلَى صِيغَةٍ وَاحِدَةٍ وَهِيَ صِيغَةُ ٱلْأَمْرِ كَأَنَّهُ قَالَ: (ٱفْعَلِ ٱفْعَلْ) هٰكَذَا إِلَى آخِرِ ٱلْبَيْتِ. وَهٰذَا تَكْرِيرٌ لِلصِّيغَةِ

وَإِنْ لَمْ يَكُنْ تَكْرِيرًا لِلْحُرُوفِ إِلَّا أَنَّهُ أَخُوهُ وَلَا أَقُولُ : ٱبْنُ عَمِّهِ. وَهٰذِهِ أَلْفَاظٌ مُتَرَاكِبَةٌ مُتَدَاخِلَةٌ وَلَوْ عَطَفَهَا بِٱلْوَاوِ لَكَانَتْ أَقْرَبَ حَالًا . كَمَا قَالَ عَبْدُ ٱلسَّلَامِ بْنُ رَغْبَانَ :

فَسَدَ ٱلنَّاسُ فَٱطْلُبِ ٱلرِّزْقَ بِٱلسَّيْفِ م وَإِلَّا فَمُتْ شَدِيدَ ٱلْهُزَالِ
حِلَّ وَٱمْرِ وَضُرَّ وَٱنْفَعْ وَلِنْ وَٱخْشُنْ م وَٱبْرِزْ ثُمَّ ٱنْتَدِبْ لِلْمَعَالِي

أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَمَّا عَطَفَ هٰهُنَا بِٱلْوَاوِ لَمْ تَتَرَاكَبِ ٱلْأَلْفَاظُ كَتَرَاكُبِهَا فِي بَيْتِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَقَدِّمِ ذِكْرُهُ

(ٱلْقِسْمُ ٱلرَّابِعُ مِنَ ٱلْمُعَاظَلَةِ) وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَضَمَّنُ مُضَافَاتٍ كَثِيرَةً كَقَوْلِهِمْ : سَرْجُ فَرَسِ غُلَامِ زَيْدٍ . وَإِنْ زِيدَ عَلَى ذٰلِكَ قِيلَ : لِبْدُ سَرْجِ فَرَسِ غُلَامِ زَيْدٍ . وَهٰذَا أَشَدُّ قُبْحًا وَأَثْقَلُ عَلَى ٱللِّسَانِ . وَعَلَيْهِ وَرَدَ قَوْلُ ٱبْنِ بَابَكَ ٱلشَّاعِرِ فِي مُفْتَتَحِ قَصِيدَةٍ لَهُ :

حَمَامَةَ جَرْعَا حَوْمَةِ ٱلْجَنْدَلِ ٱسْجَعِي فَأَنْتِ بِمَرْأًى مِنْ سُعَادَ وَمَسْمَعِ

(ٱلْقِسْمُ ٱلْخَامِسُ مِنَ ٱلْمُعَاظَلَةِ) أَنْ تَرِدَ صِفَاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ عَلَى نَحْوٍ وَاحِدٍ . كَقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ مِنْ قَصِيدَةٍ يَصِفُ رُمْحًا :......

وَمَرَّ تَهْفُو ذُؤَابَتَاهُ عَلَى أَسْمَرَ مَتْنٍ يَوْمَ ٱلْوَغَى جَسَدِهْ
مَارِنُهُ لَدْنُهُ مُثَقَّفُهُ عِرَاضُهُ فِي ٱلْأَكُفِّ مُطَّرِدَهْ

وَهٰذَا كَٱلْأَوَّلِ فِي قُبْحِهِ وَثِقَلِهِ فَقَاتَلَهُ ٱللّٰهُ مَا أَمْتَنَ شِعْرَهُ وَمَا أَسْخَفَهُ فِي بَعْضِ ٱلْأَحْوَالِ . . . وَعَلَى هٰذَا وَرَدَ قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

دَانٍ بَعِيدٍ مُحِبٍّ مُبْغِضٍ بَهِجٍ أَغَرَّ حُلْوٍ مُمِرٍّ لَيِّنٍ شَرِسِ

نَدٍ اَبِيٍّ غَرٍ وَافٍ لَخِيٍ ثِقَةٍ جَعْدٍ سَرِيٍّ نَهٍ نَدْبٍ رَضٍ نَدُسٍ

وَهٰذَا كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ بِلَا شَكٍّ وَقَلِيلًا مَا يُوجَدُ فِي اَشْعَارِ ٱلشُّعَرَاءِ. وَلَمْ اَجِدْهُ كَثِيرًا اِلَّا فِي شِعْرِ ٱلْفَرَزْدَقِ وَتِلْكَ مُعَاظَلَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ وَهٰذِهِ مُعَاظَلَةٌ لَفْظِيَّةٌ وَهِيَ تُوجَدُ فِي شِعْرِ اَبِي ٱلطَّيِّبِ كَثِيرًا

البحث العاشر

في المنافرة بين الالفاظ في السبك

(عن المثل السائر لابن الاثير باختصار)

وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ لَمْ يُحَقِّقْ اَحَدٌ مِنْ عُلَمَاءِ ٱلْبَيَانِ ٱلْقَوْلَ فِيهِ . وَغَايَةُ مَا يُقَالُ : اِنَّهُ يَنْبَغِي اَنْ لَا تَكُونَ ٱلْاَلْفَاظُ نَافِرَةً عَنْ مَوَاضِعِهَا ثُمَّ يُكْتَفَى بِهٰذَا ٱلْقَوْلِ مِنْ غَيْرِ بَيَانٍ وَلَا تَفْصِيلٍ حَتَّى اِنَّهُ قَدْ خُلِطَ هٰذَا ٱلنَّوْعُ بِٱلْمُعَاظَلَةِ وَكُلٌّ مِنْهَا نَوْعٌ مُفْرَدٌ بِرَأْسِهِ لَهُ حَقِيقَةٌ تَخُصُّهُ . اِلَّا اَنَّهُمَا قَدِ ٱشْتَبَهَا عَلَى عُلَمَاءِ ٱلْبَيَانِ فَكَيْفَ عَلَى جَاهِلٍ لَا يَعْلَمُ. وَقَدْ بَيَّنْتُ هٰذَا ٱلنَّوْعَ وَفَصَّلْتُهُ فِي فَصْلِ ٱلْمُعَاظَلَةِ وَضَرَبْتُ لَهُ اَمْثِلَةً يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى اَخَوَاتِهَا وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهَا. وَجُمْلَةُ ٱلْاَمْرِ اَنَّ مَدَارَ سَبْكِ ٱلْاَلْفَاظِ عَلَى هٰذَا ٱلنَّوْعِ وَٱلَّذِي قَبْلَهُ دُونَ غَيْرِهِمَا مِنْ تِلْكَ ٱلْاَنْوَاعِ ٱلْمَذْكُورَةِ . لِاَنَّ هٰذَيْنِ ٱلنَّوْعَيْنِ اَصْلَا سَبْكِ ٱلْاَلْفَاظِ وَمَا عَدَاهُمَا فَرْعٌ عَلَيْهِمَا . وَاِذَا لَمْ يَكُنِ ٱلنَّاثِرُ اَوِ ٱلنَّاظِمُ عَارِفًا بِهِمَا فَاِنَّ مَقَاتِلَهُ كَثِيرَةٌ . وَحَقِيقَةُ هٰذَا ٱلنَّوْعِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْمُنَافَرَةُ اَنْ يُذْكَرَ لَفْظٌ اَوْ اَلْفَاظٌ يَكُونُ غَيْرُهَا مِمَّا هُوَ فِي مَعْنَاهَا اَوْلَى بِٱلذِّكْرِ . وَعَلَى هٰذَا

فَإِنَّ ٱلْفَرْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْمُعَاظَلَةِ أَنَّ ٱلْمُعَاظَلَةَ هِيَ ٱلتَّرَاكُبُ وَٱلتَّدَاخُلُ إِمَّا فِي ٱلْأَلْفَاظِ أَوْ فِي ٱلْمَعَانِي عَلَى مَا أَشَرْتُ إِلَيْهِ . وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ لَا تَرَاكُبَ فِيهِ وَإِنَّمَا هُوَ إِيرَادُ أَلْفَاظٍ غَيْرِ لَا ئِقَةٍ بِمَوْضِعِهَا ٱلَّذِي تَرِدُ فِيهِ . وَهُوَ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : أَحَدُهُمَا يُوجَدُ فِي ٱللَّفْظَةِ ٱلْوَاحِدَةِ وَٱلْآخَرُ فِي ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُتَعَدِّدَةِ . (فَأَمَّا ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱللَّفْظَةِ ٱلْوَاحِدَةِ) فَإِنَّهُ إِذَا وَرَدَ فِي ٱلْكَلَامِ أَمْكَنَ تَبْدِيلُهُ بِغَيْرِهِ مِمَّا هُوَ فِي مَعْنَاهُ سَوَاءٌ كَانَ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامُ نَثْرًا أَوْ نَظْمًا . وَأَمَّا ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُتَعَدِّدَةِ فَإِنَّهُ لَا يُمْكِنُ تَبْدِيلُهُ بِغَيْرِهِ فِي ٱلشِّعْرِ بَلْ يُمْكِنُ ذٰلِكَ فِي ٱلنَّثْرِ خَاصَّةً لِأَنَّهُ يَعْسُرُ فِي ٱلشِّعْرِ مِنْ أَجْلِ ٱلْوَزْنِ . فَمِمَّا جَاءَ مِنَ ٱلْقِسْمِ ٱلْأَوَّلِ قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

فَلَا يُبْرَمُ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي هُوَ حَالِلٌ   وَلَا يُحْلَلُ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي هُوَ يُبْرِمُ

فَلَفْظَةُ حَالِلٌ نَافِرَةٌ عَنْ مَوْضِعِهَا وَكَانَتْ لَهُ مَنْدُوحَةٌ عَنْهَا لِأَنَّهُ لَوِ ٱسْتَعْمَلَ عِوَضًا عَنْهَا لَفْظَةَ (نَاقِضٌ) لَجَاءَتِ ٱللَّفْظَةُ قَارَّةً فِي مَكَانِهَا غَيْرَ قَلِقَةٍ وَلَا نَافِرَةٍ . وَبَلَغَنِي عَنْ أَبِي ٱلْعَلَاءِ : أَنَّهُ كَانَ يَتَعَصَّبُ لِأَبِي ٱلطَّيِّبِ حَتَّى أَنَّهُ كَانَ يُسَمِّيهِ ٱلشَّاعِرَ وَيُسَمِّي غَيْرَهُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ بِٱسْمِهِ وَكَانَ يَقُولُ : لَيْسَ فِي شِعْرِهِ لَفْظَةٌ يُمْكِنُ أَنْ يَقُومَ عَنْهَا مَا هُوَ فِي مَعْنَاهَا فَيَجِيءَ حَسَنًا مِثْلَهَا . فَيَا لَيْتَ شِعْرِي أَمَا وَقَفَ عَلَى هٰذَا ٱلْبَيْتِ ٱلْمُشَارِ إِلَيْهِ لٰكِنَّ ٱلْهَوَى كَمَا يُقَالُ أَعْمَى . وَكَانَ أَبُو ٱلْعَلَاءِ أَعْمَى ٱلْعَيْنِ خِلْقَةً وَأَعْمَاهَا عَصَبِيَّةً فَٱجْتَمَعَ لَهُ ٱلْعَمَى مِنْ جِهَتَيْنِ . وَهٰذِهِ ٱللَّفْظَةُ ٱلَّتِي هِيَ (حَالِلٌ) وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهَا قَبِيحَةُ ٱلْأَسْتِعْمَالِ وَهِيَ فَكُّ

ٱلْإِدْغَامِ فِي ٱلْفِعْلِ ٱلثُّلَاثِيِّ وَنَقْلُهُ إِلَى ٱسْمِ ٱلْفَاعِلِ . وَعَلَى هٰذَا فَلَا يَحْسُنُ أَنْ يُقَالَ : بَلَّ ٱلثَّوْبَ فَهُوَ بَالِلٌ . وَلَا : سَلَّ ٱلسَّيْفَ فَهُوَ سَالِلٌ . وَهٰذَا لَوْ عُرِضَ عَلَى مَنْ لَا ذَوْقَ لَهُ لَأَدْرَكَهُ وَفَهِمَهُ فَكَيْفَ مَنْ لَهُ ذَوْقٌ صَحِيحٌ كَأَبِي ٱلطَّيِّبِ . لٰكِنْ لَا بُدَّ لِكُلِّ جَوَادٍ مِنْ كَبْوَةٍ . وَأَنْشَدَ بَعْضُ ٱلْأُدَبَاءِ بَيْتًا لِدِعْبِلٍ وَهُوَ :

شَفِيعُكَ فَٱشْكُرْ فِي ٱلْحَوَائِجِ إِنَّهُ ... يَصُونُكَ عَنْ مَكْرُوهِهَا وَهُوَ يَخْلُقُ

فَقُلْتُ لَهُ : عَجُزُ هٰذَا ٱلْبَيْتِ حَسَنٌ وَأَمَّا صَدْرُهُ فَقَبِيحٌ . لِأَنَّ سَبْكَهُ قَلِقٌ نَافِرٌ . وَتِلْكَ ٱلْفَاءُ ٱلَّتِي فِي قَوْلِهِ : شَفِيعَكَ فَٱشْكُرْ كَأَنَّهَا رُكْبَةُ ٱلْبَعِيرِ وَهِيَ فِي زِيَادَتِهَا كَزِيَادَةِ ٱلْكَرِشِ . . . وَمِثْلُ هٰذِهِ ٱلدَّقَائِقِ ٱلَّتِي تَرِدُ فِي ٱلْكَلَامِ نَظْمًا كَانَ أَوْ نَثْرًا لَا يَتَفَطَّنُ لَهَا إِلَّا ٱلرَّاسِخُ فِي عِلْمِ ٱلْفَصَاحَةِ وَٱلْبَلَاغَةِ . وَمِنْ هٰذَا ٱلْقِسْمِ وَصْلَةُ هَمْزَةِ ٱلْقَطْعِ وَهِيَ مَحْسُوبَةٌ مِنْ جَائِزَاتِ ٱلشِّعْرِ ٱلَّتِي لَا تَجُوزُ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْمَنْثُورِ . وَكَذٰلِكَ قَطْعُ هَمْزَةِ ٱلْوَصْلِ لٰكِنَّ وَصْلَ هَمْزَةِ ٱلْقَطْعِ أَقْبَحُ لِأَنَّهُ أَثْقَلُ عَلَى ٱللِّسَانِ . فَمِمَّا وَرَدَ مِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

يُوَسِّطُهُ ٱلْمَفَاوِزَ كُلَّ يَوْمٍ ... طِلَابُ ٱلطَّالِبِينَ لَا ٱلِانْتِظَارُ

فَقَوْلُهُ : (لَا ٱلِانْتِظَارُ) كَلَامٌ نَافِرٌ مِنْ مَوْضِعِهِ . وَمِنْ هٰذَا ٱلْقِسْمِ أَنْ يُفَرَّقَ بَيْنَ ٱلْمَوْصُوفِ وَٱلصِّفَةِ بِضَمِيرِ مَنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ . كَقَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

حَلَفْتُ لَهُ بِٱللّٰهِ يَوْمَ ٱلتَّفَرُّقِ ... وَبِٱلْوَجْدِ مِنْ قَلْبِي بِهِ ٱلْمُتَعَلِّقِ

تَقْدِيرُهُ (مِنْ قَلْبِي ٱلْمُتَعَلِّقِ بِهِ) فَلَمَّا فَصَلَ بَيْنَ ٱلْمَوْصُوفِ ٱلَّذِي هُوَ (قَلْبِي)وَٱلصِّفَةِ ٱلَّتِي هِيَ (ٱلْمُتَعَلِّقُ) بِٱلضَّمِيرِ ٱلَّذِي هُوَ(بِهِ) قَبُحَ ذٰلِكَ . وَلَوْ كَانَ قَالَ مِنْ قَلْبٍ بِهِ مُتَعَلِّقٍ لَزَالَ ذٰلِكَ ٱلْقُبْحُ وَذَهَبَتْ تِلْكَ ٱلْهُجْنَةُ . وَمِنْ هٰذَا ٱلْقِسْمِ اَيضًا اَنْ تُزَادَ ٱلْاَلِفُ وَٱللَّامُ فِي ٱسْمِ ٱلْفَاعِلِ وَيُقَامَ ٱلضَّمِيرُ فِيهِ مُقَامَ ٱلْمَفْعُولِ . كَقَوْلِ اَبِي تَمَّامٍ :

فَلَوْ عَايَنْتَهُمْ وَٱلزَّائِرِيهِمْ لَمَا مِزْتَ ٱلْبَعِيدَ مِنَ ٱلْحَمِيمِ

فَقَوْلُهُ : (ٱلزَّائِرِي) ٱسْمُ فَاعِلٍ . وَقَوْلُهُ : (وَٱلزَّائِرِيهِمْ) هُوَ ٱلضَّمِيرُ فِي مَوْضِعِ ٱلْمَفْعُولِ . تَقْدِيرُهُ :(ٱلزَّائِرِينَ اَرْضَهُمْ اَوْ دَارَهُمْ اَوِ ٱلزَّائِرِينَ اِيَّاهُمْ) فَٱسْتِعْمَالُ هٰذَا مَعَ ٱلْاَلِفِ وَٱللَّامِ قَبِيحٌ جِدًّا . وَاِذَا حَذَفْتَا زَالَ ذٰلِكَ ٱلْقُبْحُ . وَقَدِ ٱسْتَعْمَلَهَا ٱلشُّعَرَاءُ ٱلْمُتَقَدِّمُونَ كَثِيرًا

(وَمِمَّا جَاءَ مِنَ ٱلْقِسْمِ ٱلثَّانِي) ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱلْاَلْفَاظِ ٱلْمُتَعَدِّدَةِ قَوْلُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ اَيضًا :

لَاخَلْقَ اَكْرَمُ مِنْكَ اِلَّا عَارِفٌ بِكَ رَاءَ نَفْسَكَ لَمْ يَقُلْ لَكَ هَاتِهَا

فَاِنَّ عَجُزَ هٰذَا ٱلْبَيْتِ نَافِرٌ عَنْ مَوَاضِعِهِ . وَاَمْثَالُ هٰذَا فِي ٱلْاَشْعَارِ كَثِيرٌ .



الفصل السادس

في وجوه الكلام

(راجع صفحة ٦٦ من علم الادب)

البحث الاوّل

في وجوه البلاغة وطبقات الكلام

(من العقد الفريد لابن عبد ربه)

اَلْبَلَاغَةُ تَكُونُ عَلَى اَرْبَعَةِ اَوْجُهٍ : تَكُونُ بِاللَّفْظِ وَالْخَطِّ وَالْاِشَارَةِ وَالدَّلَالَةِ . وَكُلٌّ مِنْهَا لَهُ حَظٌّ مِنَ الْبَلَاغَةِ وَالْبَيَانِ وَمَوْضِعٌ لَا يَجُوزُ فِيهِ غَيْرُهُ . وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ : لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ وَلِكُلِّ كَلَامٍ جَوَابٌ . وَرُبَّ اِشَارَةٍ اَبْلَغُ مِنْ لَفْظٍ . فَامَّا الْخَطُّ وَالْاِشَارَةُ فَمَفْهُومَانِ عِنْدَ الْخَاصَّةِ وَاَكْثَرِ الْعَامَّةِ . وَاَمَّا الدَّلَالَةُ فَكُلُّ شَيْءٍ دَلَّكَ عَلَى شَيْءٍ فَقَدْ اَخْبَرَكَ بِهِ . . . . وَقَالَ اَبْرَوِيزُ لِكَاتِبِهِ : اَعْلَمْ اَنَّ دَعَائِمَ الْمَقَالَاتِ اَرْبَعٌ : اِنِ الْتُمِسَ لَهَا خَامِسٌ لَمْ يُوجَدْ فَاِنْ نَقَصَ مِنْهَا وَاحِدٌ لَمْ تَتِمَّ وَهِيَ : سُؤَالُكَ الشَّيْءَ وَاَمْرُكَ بِالشَّيْءِ وَاِخْبَارُكَ عَنِ الشَّيْءِ وَسُؤَالُكَ عَنِ الشَّيْءِ . فَاِذَا طَلَبْتَ فَاَسْجِحْ . وَاِذَا سَاَلْتَ فَاَوْضِحْ وَاِذَا اَمَرْتَ فَاَحْكِمْ . وَاِذَا اَخْبَرْتَ فَحَقِّقْ . وَاجْمَعِ الْكَثِيرَ مِمَّا تُرِيدُ فِي الْقَلِيلِ مِمَّا تَقُولُ (يُرِيدُ الْكَلَامَ الَّذِي تَقِلُّ حُرُوفُهُ وَتَكْثُرُ مَعَانِيهِ) . وَقَالَ رَبِيعَةُ : الرَّأْيُ اَنْ لَا اَسْمَعَ الْحَدِيثَ عُطْلًا فَاَشْنُفَهُ وَاُقَرِّطَهُ فَيَحْسُنُ وَمَا زِدْتُ فِيهِ شَيْئًا وَلَا غَيَّرْتُ

له معنى . وقالوا : خير الكلام ما لم يحتج بعده الى كلام وللعرب من موجز اللفظ ولطيف المعنى فصول عجيبة وبدائع غريبة . قال ابراهيم بن محمد الشيباني : اذا احتجت الى مخاطبة الملوك والوزراء والعلماء والكتاب والخطباء والأدباء والشعراء واوساط الناس وسوقتهم فخاطب كلا على قدر ابهته وجلالته وعلوه وارتفاعه وفطنته وانتباهه واجعل طبقات الكلام على ثمانية اقسام : منها الطبقات العلية اربع والطبقات الاخر وهي دونها اربع لكل طبقة منها درجة ولكل قسمة . لا ينبغي للكاتب البليغ ان يقصر باهلها عنها ويقلب معناها الى غيرها . (فالحد الاول) الطبقات العليا وغايتها القصوى الخلافة التي اجل الله قدرها واعلى شأنها عن مساواتها باحد من ابناء الدنيا في التعظيم والتوقير . (والطبقة الثانية) لوزرائها وكتابها الذين يخاطبون الخلفاء بعقولهم والسنتهم ويرتقون الفتوق بآرائهم . (والطبقة الثالثة) أمراء ثغورهم وقواد جنودهم فانه يجب مخاطبة كل احد منهم على قدره وموضعه وحظه وغنائه وجزائه واضطلاعه بما حمل من اعباء أمورهم وجلائل اعمالهم . (والرابعة) القضاة فانهم وان كان لهم تواضع العلماء وحلية الفضلاء فمعهم أبهة السلطنة وهيبة الامراء . واما الطبقات الاربع الاخر فهم الملوك الذين اوجبت نعمهم تعظيمهم في الكتب اليهم وافضالهم تفضلهم فيها . (والثانية) وزراؤهم وكتابهم واتباعهم الذين تقرع ابوابهم وبعنايتهم تستماح اموالهم . (والثالثة) هم العلماء

يجبُ نوقيرُهم في الكُتُبِ بشرفِ العلمِ وعُلوِّ درجةِ أهلِهِ .
(والطَّبقةُ الرَّابعةُ) لأهلِ القدرِ والجلالةِ والحلاوةِ والطَّلاوةِ والظَّرفِ والأدبِ فإنَّهم يضطرُّونك بجدَّةِ اذهانهم وشدَّةِ تمييزهم وانتقادِهم وادبِهم وتصفُّحِهم الى الاستقصاءِ على نفسِك في مكاتبتِهم واستغنينا عن الترتيبِ للسُّوقةِ والعوامِّ والتجَّارِ باستغنائهم بمهاناتِهم من هذه الآلاتِ واشتغالِهم بمهاناتِهم عن هذهِ الادواتِ . ولكلِّ طبقةٍ من هذه الطبقاتِ معانٍ ومذاهبُ يجبُ عليك ان ترعاها في مراسلتِك اياهم في كتبِك فتزنَ كلامَك في مخاطبتِهم بميزانِه وتعطيَهُ قسمَهُ وتوفيَهُ نصيبَهُ . فإنك متى اهملتَ ذلك واضعتَهُ لم آمنْ عليك ان تعدلَ بهم عن كلامِك في غيرِ مسلكِهِ فلا تعتدَّ بالمعنى الجزلِ ما لم تلبسْهُ لفظاً لائقاً بمن كاتبتَهُ وملبساً بمن راسلتَهُ . فإنَّ إلباسَك المعنى وإنْ صحَّ وصرفَ لفظاً مختلفاً على قدرِ المكتوبِ اليهِ لم تجرِ بهِ عادتُهم تهجينٌ للمعنى واخلالٌ بقدرِهِ وظلمٌ بحقِّ المكتوبِ اليهِ ونقصٌ بما يجبُ لهُ كما انَّ في اتباعِ تعارفِهم وما انتشرتْ بهِ عاداتُهم وجرتْ بهِ ألسنتُهم قطعاً لعذرِهم وخروجاً من حقوقِهم وبلوغاً الى غايةِ مرادِهم واسقاطاً لحجَّةِ ادبِهم . فمنَ الالفاظِ المرغوبِ عنها والصدورِ المستوحشِ منها في كتبِ السَّاداتِ والملوكِ والأمراءِ على اتفاقِ المعاني مثلُ : ابقاكَ اللهُ طويلاً وعمَّرك مليّاً . وإن كنَّا نعلمُ ان لا فرقَ بينَ قولِهم : اطالَ اللهُ بقاءَكَ . وبينَ قولِهم : ابقاكَ اللهُ طويلاً . ولكنَّهم جعلوا هذا

أرجح وزنًا وأنبه قدرًا في المخاطبة كما أنهم جعلوا: أكرمك الله وأبقاك. أحسن منزلًا في كتب الفضلاء والأدباء من جعلت فداك على اشتراك معناه واحتمال أن يكون فداه من الخير كما يحتمل أن يكون فداه من الشر. على أن كتّاب العسكر وعوامّهم قد ولعوا بهذه اللفظة حتى استعملوها في جميع محاوراتهم وجعلوها هجّيراهم في مخاطبة الشريف والوضيع والكبير والصغير. ولذلك قال محمود الورّاق:

كلُّ من حلّ سرَّ من را من النا س ومن قد يداخل الأملاكا
لو رأى الكلب مائلًا بطريق قال للكلب يا جعلت فداكا

وكذلك لم يجيزوا أن يكتبوا بمثل أبقاك الله وأمتع بك إلّا في الابن والخادم المنقطع إليك. وأمّا في كتب الإخوان فغير جائز بل مذموم مرغوب عنه... ولكلّ مكتوب إليه قدرٌ ووزنٌ ينبغي للكاتب أن لا يجاوزه عنه ولا يقصّر به دونه. وقد رأيتهم عابوا الأحوص حين خاطب الملوك خطاب العوام في قوله:

وأراك تفعل ما تقول وبعضهم مذق الحديث يقول ما لا يفعل

وهذا معنى صحيح في المدح ولكنّهم أجلّوا قدر الملوك أن يمدح بما تمدح به العوامّ لأنّ صدق الحديث وإنجاز الوعد وإن كان من المدح فهو واجب على العامّة. والملوك لا يمدحون بالفرائض الواجبة. إنّما يحسن مدحهم بالنوافل لأنّ المادح لو قال لبعض الملوك: إنّك لا تخون ما استودعت وإنّك لتصدق في وعدك وتفي

بعهدك . فكأنه قد أثنى بما يجب ولو قصد بثنائه إلى مقصده كان أشبه بالملوك . ونحن نعلم أن كل أمير يتولى من أمير المؤمنين شيئاً فهو أمير المؤمنين غير أنهم لم يطلقوا هذه اللفظة إلا في الخلفاء خاصة . ونحن نعلم أن الكيس هو العقل . ولكن إن وصفت رجلاً فقلت : إنه لعاقل . كنت مدحته عند الناس . وإن قلت : إنه لكيس كنت قد قصرت به عن وصفه وصغرت من قدره . إلا عند أهل العلم باللغة لأن العامة لا تلتفت إلى معنى الكلمة ولكن إلى ما جرت به العادة من استعمالها في الظاهر إذ كان استعمال العامة لهذه الكلمة مع الحداثة والغرة وخساسة القدر وصغر السن . . . فامتثل هذه المذاهب وأجر على هذه القوام وتحفظ في صدور كتبك وفصولها وخواتمها وضع كل معنى في موضعه يليق به وتخير لكل لفظة معنى يشاكلها وليكن ما تختم به فصولك في موضع ذكر البلوى بمثل : (نسأل الله دفع المحذور وصرف المكروه) وأشباه هذا . وفي موضع ذكر المصيبة : إنا لله وإنا إليه راجعون . وفي موضع ذكر النعمة : (الحمد لله خالصاً والشكر لله واجباً) . فإن هذه المواضع يجب على الكاتب أن يتفقدها ويتحفظ بها . فإن الكاتب إنما يصير كاتباً بأن يضع كل معنى في موضعه فيعلق كل لفظة على طبقها من المعنى . واعلم أنه لا يجوز في الرسائل استعمال الاقتصار والحذف ومخاطبة الخاص بالعام والعام بالخاص . وكذلك ينبغي للكاتب

انْ يَجْتَنِبَ ٱللَّفظَ ٱلْمُشْتَرَكَ وَٱلْمَعْنَى ٱلْمُلْتَبِسَ . . . وَكَذٰلِكَ لَا يَجُوزُ ايْضاً فِي ٱلرَّسَائِلِ وَٱلْبَلَاغَاتِ ٱلْمَشْهُورَةِ مَا يَجُوزُ فِي ٱلْاَشْعَارِ ٱلْمَوْزُونَةِ لِاَنَّ ٱلشَّاعِرَ مُضْطَرٌّ وَٱلشِّعْرَ مَقْصُودٌ مُقَيَّدٌ بِٱلْوَزْنِ وَٱلْقَوَافِي. فَلِذٰلِكَ اجَازُوا لَهُمْ صَرْفَ مَا لَا يَنْصَرِفُ مِنَ ٱلْاَسْمَاءِ وَحَذْفَ مَا لَا يُحْذَفُ مِنْهَا وَٱغْتُفِرَ فِيهِ سُوءُ ٱلتَّظَلُّمِ وَاجَازُوا فِيهِ ٱلتَّقْدِيمَ وَٱلتَّاخِيرَ وَٱلْاِضْمَارَ فِي مَوْضِعِ ٱلْاِظْهَارِ وَذٰلِكَ كُلُّهُ غَيْرُ سَائِغٍ فِي ٱلرَّسَائِلِ وَلَا جَائِزٌ فِي ٱلْبَلَاغَاتِ . . . وَكَذٰلِكَ لَا يَنْبَغِي فِي ٱلرَّسَائِلِ انْ يُصَغَّرَ ٱلْاسْمُ فِي مَوْضِعِ ٱلتَّعْظِيمِ وَإِنْ كَانَ ذٰلِكَ جَائِزًا مِثْلُ قَوْلِهِمْ : دُوَيْهِيَّةٌ تَصْغِيرُ دَاهِيَةٍ . وَجُذَيْلٌ تَصْغِيرُ جِذْلٍ . وَعُذَيْقٌ تَصْغِيرُ عِذْقٍ . وَقَالَ لَبِيدٌ :

وَكُلُّ أُنَاسٍ سَوْفَ تَدْخُلُ بَيْنَهُمْ دُوَيْهِيَّةٌ تَصْفَرُّ مِنْهَا ٱلْاَنَامِلُ

وَقَالَ ٱلْحُبَابُ بْنُ ٱلْمُنْذِرِ يَوْمَ سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ : انَا عُذَيْقُهَا ٱلْمُرَجَّبُ وَجُذَيْلُهَا ٱلْمُحَكَّكُ . وَقَالَ سَرْحَةُ ابُو عُبَيْدَةَ : وَمِمَّا لَا يَجُوزُ فِي ٱلرَّسَائِلِ وَكَرِهُوهُ فِي ٱلْكَلَامِ ايْضاً مِثْلُ قَوْلِهِمْ : كَلَّمْتُ إِيَّاكَ وَاَعْنِي إِيَّاكَ وَهُوَ جَائِزٌ فِي ٱلشِّعْرِ . قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

وَاَحْمِلْ وَاَحْسِنْ فِي اسِيرِكَ إِنَّهُ ضَعِيفٌ وَلَمْ يَأْسِرْ كَإِيَّاكَ آسِرُ

فَتَخَيَّرْ مِنَ ٱلْاَلْفَاظِ ارْجَحَهَا لَفْظاً وَاَجْزَلَهَا وَاَشْرَفَهَا جَوْهَرًا وَاَكْرَمَهَا حَسَباً وَاَلْيَقَهَا فِي مَكَانِهَا وَاَشْكَلَهَا فِي مَوْضِعِهَا فَإِنْ حَاوَلْتَ صَنْعَةَ رِسَالَةٍ فَزِنِ ٱللَّفْظَةَ قَبْلَ انْ تُخْرِجَهَا بِمِيزَانِ ٱلتَّصْرِيفِ إِذَا عَرَضَتْ . وَعَايِرِ ٱلْكَلِمَةَ بِمِعْيَارٍ إِذَا سَنَحَتْ . فَإِنَّهُ رُبَّمَا مَرَّ بِكَ مَوْضِعٌ يَكُونُ مَخْرَجُ ٱلْكَلَامِ إِذَا كَتَبْتَ : انَا فَاعِلٌ . احْسَنُ مِنْ انْ

تكتب : انا افعل . وموضع آخر يكون فيه (استفعلت) احلى من (فعلت) فادر الكلام على اعكانه وقلبه على جميع وجوهه فاي لفظة رايتها في المكان الذي ندبتها اليه فانزعها الى المكان الذي اوردتها عليه واوقعها فيه . ولا تجعل اللفظة قلقة في موضعها نافرة عن مكانها فانك متى فعلت هجنت الموضع الذي حاولت تحسينه وافسدت المكان الذي اردت اصلاحه فان وضع الالفاظ في غير اماكنها وقصدك بها الى غير مصابها انما هو كترقيع الثوب الذي لم يشابهه رقاعه ولم تتقارب اجزاؤه وخرج من حد الجدة وتغير حسنه . كما قال الشاعر :

ان الجديد اذا ما زيد في خلق … يبين للناس ان الثوب مرقوع

كذلك كلما احلولى الكلام وعذب وراق وسهلت مخارجه كان اسهل وارجى في الاسماع واشد اتصالا بالقلوب واخف على الافواه لا سيما ان كان المعنى البديع مترجما بلفظ مونق شريف ومعايرا بكلام عذب لم يسمه التكليف بميسمه ولم يفسده التعقيد باستهلاكه . . . وقد رايتهم شبهوا المعنى الخفي بالروح الخفي . واللفظ الظاهر بالجثمان الظاهر . واذا لم ينهض بالمعنى الشريف الجزل لفظ شريف جزل لم تكن العبارة واضحة ولا النظام متسقا . وتضاءل المعنى الحسن تحت اللفظ القبيح كتضاؤل الحسناء في الاطمار الرثة . وانما يدل على المعنى اربعة اصناف : لفظ واشارة وعقد وخط . وقد ذكر له ارسطاطاليس صنفا خامسا في كتاب

المنطق وهو الذي يسمى النصبة . والنصبة الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الاصناف الاربعة وهي الناطقة بغير لفظ ومشيرة اليك بغير يد وذلك ظاهر في خلق السماوات والارض وكل صامت وناطق. وجميع هذه الاصناف الخمسة كاشفة عن اعيان المعاني وسافرة عن وجوهها واوضح هذه الدلائل وافصح هذه الاصناف صنفان : هما القلم واللسان وكلاهما ترجمان . فاما اللسان فهو الآلة التي يخرج الانسان بها عن حد الاستبهام الى حد الانسانية بالكلام . ولذلك قال صاحب المنطق : حد الانسان الحي الناطق

البحث الثاني

في بيان المطبوع من الكلام والمصنوع (١)

(من مقدمة ابن خلدون باختصار)

اعلم ان الكلام الذي هو العبارة والخطاب انما سره وروحه في افادة المعنى . واما اذا كان مهملا فهو كالموات الذي لا عبرة به وكمال الافادة هو البلاغة على ما عرفت من حدها عند اهل البيان لانهم يقولون : هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال . ومعرفة الشروط والاحكام التي بها تطابق التراكيب اللفظية مقتضى الحال هو فن البلاغة . وتلك الشروط والاحكام تؤخذ من علمي

(١) ان هذا الفصل لا يوجد في نسخة مقدمة ابن خلدون المطبوعة في مصر وبيروت بل في طبعة باريز

ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ فَعِلْمُ ٱلْمَعَانِي وَعِلْمُ ٱلْبَيَانِ هُمَا جُزْءَا ٱلْبَلَاغَةِ وَبِهِمَا كَمَالُ ٱلْإِفَادَةِ وَٱلْمُطَابَقَةُ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ. فَٱلْبَلَاغَةُ عَلَى هٰذَا هِيَ أَصْلُ ٱلْكَلَامِ ٱلْعَرَبِيِّ وَسَجِيَّتُهُ وَرُوحُهُ وَطَبِيعَتُهُ . ثُمَّ ٱعْلَمْ أَنَّهُمْ إِذَا قَالُوا ٱلْكَلَامَ ٱلْمَطْبُوعَ فَإِنَّهُمْ يَعْنُونَ بِهِ ٱلْكَلَامَ ٱلَّذِي كَمَلَتْ طَبِيعَتُهُ وَسَجِيَّتُهُ مِنْ إِفَادَةِ مَدْلُولِهِ ٱلْمَقْصُودِ مِنْهُ لِأَنَّهُ عِبَارَةٌ وَخِطَابٌ لَيْسَ ٱلْمَقْصُودُ مِنْهُ ٱلنُّطْقُ فَقَطْ . بَلِ ٱلْمُتَكَلِّمُ يَقْصِدُ بِهِ أَنْ يُفِيدَ سَامِعَهُ مَا فِي ضَمِيرِهِ إِفَادَةً تَامَّةً وَيَدُلُّ بِهِ عَلَيْهِ دَلَالَةً وَثِيقَةً. ثُمَّ يَتْبَعُ تَرَاكِيبَ ٱلْكَلَامِ فِي هٰذِهِ ٱلسَّجِيَّةِ ٱلَّتِي لَهُ بِٱلْأَصَالَةِ ضُرُوبٌ مِنَ ٱلتَّحْسِينِ وَٱلتَّزْيِينِ بَعْدَ كَمَالِ ٱلْإِفَادَةِ وَكَأَنَّهَا تُعْطِيهَا رَوْنَقَ ٱلْفَصَاحَةِ مِنْ تَنْمِيقِ ٱلْأَسْجَاعِ وَٱلْمُوَازَنَةِ بَيْنَ جُمَلِ ٱلْكَلَامِ وَتَقْسِيمِهِ بِٱلْأَقْسَامِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ ٱلْأَحْكَامِ وَٱلتَّوْرِيَةِ بِٱللَّفْظِ ٱلْمُشْتَرَكِ عَنِ ٱلْخَفِيِّ مِنْ مَعَانِيهِ وَٱلْمُطَابَقَةِ بَيْنَ ٱلْمُتَضَادَّاتِ لِيَقَعَ ٱلتَّجَانُسُ بَيْنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱلْمَعَانِي فَيَحْصُلَ لِلْكَلَامِ رَوْنَقٌ وَلَذَّةٌ فِي ٱلْأَسْمَاعِ وَحَلَاوَةٌ وَجَمَالٌ كُلُّهَا زَائِدَةٌ عَلَى ٱلْإِفَادَةِ . وَهٰذِهِ ٱلصَّنْعَةُ مَوْجُودَةٌ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْمُعْجِزِ فِي مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ مِثْلُ : وَٱللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى . وَمِثْلُ : فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَٱتَّقَى وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَى إِلَى آخِرِ ٱلتَّقْسِيمِ . وَكَذَا : فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا إِلَى آخِرِهِ . وَكَذَا : وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا . وَأَمْثَالُهُ كَثِيرٌ . وَذٰلِكَ بَعْدَ كَمَالِ ٱلْإِفَادَةِ فِي أَصْلِ هٰذِهِ ٱلتَّرَاكِيبِ قَبْلَ وُقُوعِ هٰذَا ٱلْبَدِيعِ فِيهَا . وَكَذَا وَقَعَ فِي كَلَامِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ مِنْهُ لٰكِنْ عَفْوًا مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ وَلَا تَعَمُّدٍ . وَيُقَالُ

إِنَّهُ وَقَعَ فِي شِعْرِ زُهَيْرٍ . وَأَمَّا ٱلْإِسْلَامِيُّونَ فَوَقَعَ لَهُمْ عَفْوًا وَقَصْدًا وَأَتَوْا مِنْهُ بِٱلْعَجَائِبِ . وَأَوَّلُ مَنْ أَحْكَمَ طَرِيقَتَهُ حَبِيبُ بْنُ أَوْسٍ وَٱلْبُحْتُرِيُّ وَمُسْلِمُ بْنُ ٱلْوَلِيدِ فَقَدْ كَانُوا مُولَعِينَ بِٱلصَّنْعَةِ وَيَأْتُونَ مِنْهَا بِٱلْعَجَبِ . وَقِيلَ إِنَّ أَوَّلَ مَنْ ذَهَبَ إِلَى مُعَانَاتِهَا بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ وَٱبْنُ هَرْمَةَ وَكَانَا آخِرَ مَنْ يُسْتَشْهَدُ بِشِعْرِهِ فِي ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ . ثُمَّ ٱتَّبَعَهُمَا كُلْثُومُ بْنُ عَمْرٍو وَٱلْعَتَّابِيُّ وَمَنْصُورُ ٱلنَّمَرِيُّ وَمُسْلِمُ بْنُ ٱلْوَلِيدِ وَأَبُو نُوَاسٍ . وَجَاءَ عَلَى آثَارِهِمْ حَبِيبٌ وَٱلْبُحْتُرِيُّ . ثُمَّ ظَهَرَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ فَخَتَمَ عَلَى ٱلْبَدِيعِ وَٱلصِّنَاعَةِ أَجْمَعَ

فَتَأَمَّلْ قَوْلَهُمُ ٱلْمَطْبُوعُ ٱلْفَقِيدُ ٱلصَّنْعَةِ فِي إِحْكَامِ تَأْلِيفِهِ وَثَقَافَةِ تَرْكِيبِهِ فَلَوْ جَاءَتْ فِيهِ ٱلصَّنْعَةُ مِنْ بَعْدِ هٰذَا ٱلْأَصْلِ زَادَتْهُ حُسْنًا . وَأَمَّا ٱلْمَصْنُوعُ فَكَثِيرٌ مِنْ لَدُنْ بَشَّارٍ ثُمَّ حَبِيبٍ وَطَبَقَتِهِمَا ثُمَّ ٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ خَاتِمِ ٱلصَّنْعَةِ ٱلَّذِينَ جَرَى ٱلْمُتَأَخِّرُونَ بَعْدَهُمْ فِي مَيْدَانِهِمْ وَنَسَجُوا عَلَى مِنْوَالِهِمْ . وَقَدْ تَعَدَّدَتْ أَصْنَافُ هٰذِهِ ٱلصَّنْعَةِ عِنْدَ أَهْلِهَا وَٱخْتَلَفَتِ ٱصْطِلَاحَاتُهُمْ فِي أَلْقَابِهَا . وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَجْعَلُهَا مُنْدَرِجَةً فِي ٱلْبَلَاغَةِ عَلَى أَنَّهَا غَيْرُ دَاخِلَةٍ فِي ٱلْإِفَادَةِ وَإِنَّمَا هِيَ تُعْطِي ٱلتَّحْسِينَ وَٱلرَّوْنَقَ . وَأَمَّا ٱلْمُتَقَدِّمُونَ مِنْ أَهْلِ ٱلْبَدِيعِ فَهِيَ عِنْدَهُمْ خَارِجَةٌ عَنِ ٱلْبَلَاغَةِ وَلِذٰلِكَ يَذْكُرُونَهَا فِي ٱلْفُنُونِ ٱلْأَدَبِيَّةِ ٱلَّتِي لَا مَوْضُوعَ لَهَا . وَهِيَ رَأْيُ ٱبْنِ رَشِيقٍ فِي كِتَابِ ٱلْعُمْدَةِ لَهُ وَأُدَبَاءِ ٱلْأَنْدَلُسِ . وَذَكَرُوا فِي ٱسْتِعْمَالِ هٰذِهِ ٱلصَّنْعَةِ شُرُوطًا مِنْهَا أَنْ تَقَعَ مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ وَلَا ٱكْتِرَاثٍ فِيمَا يُقْصَدُ مِنْهَا . وَأَمَّا ٱلْعَفْوُ فَلَا كَلَامَ فِيهِ

لِأَنَّهَا إِذَا بَرِئَتْ مِنَ ٱلتَّكَلُّفِ سَلِمَ ٱلْكَلَامُ مِنْ عَيْبِ ٱلِٱسْتِهْجَانِ لِأَنَّ تَكَلُّفَهَا وَمُعَانَاتَهَا يَصِيرُ إِلَى ٱلْغَفْلَةِ عَنِ ٱلتَّرَاكِيبِ ٱلْأَصْلِيَّةِ لِلْكَلَامِ فَتُخِلُّ بِٱلْإِفَادَةِ مِنْ أَصْلِهَا وَتَذْهَبُ بِٱلْبَلَاغَةِ رَأْسًا وَلَا يَبْقَى فِي ٱلْكَلَامِ إِلَّا تِلْكَ ٱلتَّحْسِينَاتُ. وَهٰذَا هُوَ ٱلْغَالِبُ ٱلْيَوْمَ عَلَى أَهْلِ ٱلْعَصْرِ وَأَصْحَابِ ٱلْأَذْوَاقِ فِي ٱلْبَلَاغَةِ يَسْخَرُونَ مِنْ كَلَفِهِمْ بِهٰذِهِ ٱلْفُنُونِ وَيَعُدُّونَ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْقُصُورِ عَنْ سِوَاهُ. ثُمَّ مِنْ شُرُوطِ ٱسْتِعْمَالِهَا عِنْدَهُمْ ٱلْإِقْلَالُ مِنْهَا وَأَنْ تَكُونَ فِي بَيْتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ مِنَ ٱلْقَصِيدِ فَتَكْفِي فِي زِينَةِ ٱلشِّعْرِ وَرَوْنَقِهِ وَٱلْإِكْثَارُ مِنْهَا عَيْبٌ. قَالَهُ ٱبْنُ رَشِيقٍ وَغَيْرُهُ. وَكَانَ شَيْخُنَا أَبُو ٱلْقَسَمِ ٱلشَّرِيفُ ٱلسَّبْتِيُّ مُنْفِقُ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ بِٱلْأَنْدَلُسِ لِوَقْتِهِ يَقُولُ: هٰذِهِ ٱلْفُنُونُ ٱلْبَدِيعَةُ إِذَا وَقَعَتْ لِلشَّاعِرِ أَوْ لِلْكَاتِبِ فَيَقْبُحُ أَنْ يُسْتَكْثَرَ مِنْهَا لِأَنَّهَا مِنْ مُحَسِّنَاتِ ٱلْكَلَامِ وَمُزَيِّنَاتِهِ فَهِيَ بِمَثَابَةِ ٱلْخِيلَانِ فِي ٱلْوَجْهِ يَحْسُنُ بِٱلْوَاحِدِ وَٱلِٱثْنَيْنِ مِنْهَا وَيَقْبُحُ بِتَعْدَادِهَا وَعَلَى نِسْبَةِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمَنْظُومِ هُوَ ٱلْكَلَامُ ٱلْمَنْثُورُ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَٱلْإِسْلَامِ كَانَ أَوَّلًا مُرْسَلًا مُعْتَبَرَ ٱلْمُوَازَنَةِ بَيْنَ جُمَلِهِ وَتَرَاكِيبِهِ. مُشَاهِدَةً مُوَازَنَتُهُ بِفَوَاصِلِهِ مِنْ غَيْرِ ٱلْتِزَامِ سَجْعٍ وَلَا ٱكْتِرَاثٍ بِصَنْعَةٍ. حَتَّى نَبَغَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ هِلَالٍ ٱلصَّابِئُ كَاتِبُ بَنِي بُوَيْهِ فَتَعَاطَى ٱلصَّنْعَةَ وَٱلتَّقْفِيَةَ وَأَتَى مِنْ ذٰلِكَ بِٱلْعَجَبِ وَعَابَ ٱلنَّاسُ عَلَيْهِ كَلَفَهُ بِذٰلِكَ فِي ٱلْمُخَاطَبَاتِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ. وَإِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَيْهِ مَا كَانَ فِي مُلُوكِهِ مِنَ ٱلْعُجْمَةِ وَٱلْبُعْدِ عَنْ صَوْلَةِ ٱلْخِلَافَةِ ٱلْمُنْفِقَةِ لِسُوقِ ٱلْبَلَاغَةِ. ثُمَّ ٱنْتَشَرَتِ ٱلصِّنَاعَةُ فِي مَنْثُورِ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ وَنُسِيَ عَهْدُ ٱلتَّرْسِيلِ وَتَشَابَهَتِ ٱلسُّلْطَانِيَّاتُ

وَٱلإخوانيّاتُ وَٱلعربيّاتُ بِٱلسُّوقيّاتِ وَٱختلطَ ٱلمَرْعِيُّ بِٱلهَمَلِ . وَهٰذا كُلُّهُ يدُلُّكَ على انَّ ٱلكلامَ ٱلمصنوعَ بِٱلمُعاناةِ وَٱلتَّكليفِ قاصِرٌ عَنِ ٱلكلامِ ٱلمطبوعِ لِقلَّةِ ٱلاكتراثِ فيهِ بِأصلِ ٱلبلاغةِ. وَٱلحاكِمُ في ذٰلكَ ٱلذَّوْقُ

البحث الثالث

في السجع وانواعهِ

(عن صناعة الترسُّل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

(راجع صفحة ٧٢ من علم الادب)

كَلِماتُ ٱلأسجاعِ مَوضُوعةٌ على انْ تكونَ ساكِنةَ ٱلأعجازِ مَوقُوفًا عليها لِأنَّ ٱلغرَضَ انْ يُجانِسَ بَيْنَ ٱلقرائِنِ وَيُزاوِجَ بينَها وَلا يَتِمُّ ذٰلكَ إلَّا بِٱلوَقفِ . ألا ترى انَّ قولَهم: ما ابعدَ ما فاتْ . وما اقربَ ما هوَ آتْ. لَوْ أُعطِيَ اواخِرُ ٱلقرائِنِ ما يقتضيهِ حُكمُ ٱلإعرابِ لَٱختلَفَ اواخِرُ ٱلقرائِنِ وفاتَ ٱلسَّاجِعَ غرضُهُ. وَإذا رأيناهُم يُخرِجُونَ ٱلكلِمةَ عَنْ اوضاعِها لِلازدِواجِ فيقولونَ آتيكَ بِٱلغدَاياءِ او بِٱلعشاءِ . وهنأني ٱلطَّعامُ ومرأني . وَٱنصرِفنَ مأزوراتٍ غيرَ مأجوراتٍ يُريدونَ : ٱلغدَواتِ وَٱمرأني وموزوراتٍ . معَ انَّ فيهِ ارتكابًا لِمُخالَفةِ ٱللُّغةِ . وكذٰلكَ : أعطِ ٱلقوسَ باريها . وفيهِ تركُ ٱلإعرابِ مِنْ اثناءِ ٱلكلِمةِ فما ٱلظَّنُّ بِأواخِرِ ٱلكلِمِ ٱلمُشبَّهةِ بِٱلقوافي . وَٱلأولى انْ يُقالَ في اواخِرِ ٱلأبياتِ ٱلفواصِلُ .إذا عُرِفَ هٰذا

فَالأَسجاعُ اربعَةُ انواعٍ : ٱلتَّرصِيعُ وٱلمتوازِي وٱلمُطرَّفُ وٱلمُتاوزِنُ . اما (ٱلتَّرصِيعُ) فهوَ انْ تكونَ ٱلالفاظُ مُستوِيَةَ ٱلاوزانِ مُتفِقَةَ ٱلاعجازِ كقَولِهِ: إِنَّ إِلَينا إِيابَهُمْ . ثُمَّ إِنَّ علَينا حِسابَهُمْ . وقَولِهِ : إِنَّ ٱلأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ . وَإِنَّ ٱلفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ . وقَولِهِ: ٱللّهُمَّ اقْبَلْ تَوبَتِي وَٱغسِلْ حَوبَتِي . وقولِهِمْ : فُلانٌ يَفتخِرُ بِٱلهِمَمِ ٱلعالِيَةِ . لا بِٱلرِّمَمِ ٱلبالِيَةِ. وقَولِهِمْ: حَتَّى عادَ تَعرِيضُكَ وَتَمرِيضُكَ تَصحِيحًا . وَمِنَ ٱلنَّظمِ قولُ ٱلخنساءِ :

حامِي ٱلحقِيقَةِ مَحمُودِ ٱلخَلِيقَةِ مَهدِيِّ ٱلطَّرِيقَةِ نَفَّاعٍ وَضَرَّارِ
جَوَّابِ قاصِيَةٍ جَزَّازِ ناصِيَةٍ عَقَّادِ ٱلوِيَةٍ لِلخَيلِ جَرَّارِ

وكَقَولِ ابِي فِراسٍ :

وَافعالُنا لِلرَّاغِبِينَ كَرِيمَةٌ وَاموالُنا لِلطَّالِبِينَ نِهابُ

وَقولِ ٱلابِيوَرْدِيِّ :

يَرُوحُ إِلَيهِمْ عازِبُ ٱلحَمْدِ وافِيًا وَيَغدُو عَلَيهِمْ طالِبُ ٱلرِّفْدِ عافِيًا

وقَدْ يَجِيءُ مَعَ ٱلتَّجنِيسِ كقَولِهِمْ : إِذا قَلَّتِ ٱلأَنصارُ كَلَّتِ ٱلأَبصارُ . وَما وَراءَ ٱلخَلْقِ ٱلدَّمِيمِ إِلَّا ٱلخُلُقُ ٱلذَّمِيمُ . وَمِنَ ٱلنَّظمِ قولُ ٱلمُطرِّزِيِّ :

وَدَرُّ جَلالِهِ ابَدًا ثَمِينٌ وَدَرُّ نَوالِهِ ابَدًا غَزِيرُ

(وَٱلمُتوازِي) وهُوَ انْ يُراعَى فِي ٱلكَلِمَتَينِ ٱلاخِيرَتَينِ مِنَ ٱلقَرِينَتَينِ وَٱلوَزنِ مَعَ ٱتِّفاقِ ٱلحَرفِ ٱلآخِرِ مِنهُما كَقَولِهِ: فِيها سُرُرٌ مَرفُوعَةٌ . وَاكوابٌ مَوضُوعَةٌ . وَقولِهِ : ٱللّهُمَّ اعطِ مُنفِقًا خَلَفًا .

وَاعطِ تمسكًا تلفًا. وقول الحريري: الجاني حكمُ دهرٍ قاسطٍ. الى ان انتجع ارض واسطٍ. وقوله: واودى الناطق والصامت. ورثى لنا الحاسد والشامت. (والمطرف) وهو ان يراعى الحرف الاخير في كلتا قرينتيه من غير مراعاة الوزن. كقوله: مالكم لا ترجعون لله وقارا. وقد خلقكم اطوارا. وقولهم: خيامُهُ محطّ الرحال. ومخيم الآمال. (والمتوازن) وهو ان يراعى في الكلمتين الاخيرتين من القرينتين الوزن مع اختلاف الحرف الآخر منهما. كقوله: ونمارق مصفوفة. وزرابي مبثوثة. وقولهم: اصبر على حرّ القتال. ومضض النزال. وشدة المصاع ومداومة المراس. فان راعى الوزن في جميع كلمات القرائن او اكثرها وقابل الكلمة منها بما تعادلها وزنًا كان احسن. كقوله: وآتيناهما الكتاب المستبين. وهديناهما الصراط المستقيم. وقول الحريري: اسودّ يومي الابيض وابيضّ يومي الاسود. ويسمى هذا في الشعر الموازنة. كقول البحتري:

فقف مسعدًا فيهنّ ان كنت غادرًا
وسر مبعدًا عنهنّ ان كنت عادلا

ومما هو شرط الحسن في هذا المحافظة على تناسبه وهو اسم جامع للملاءمة والتناسب. فالملاءمة تأليف الالفاظ الموافقة بعضها لبعض في ضرب الاعتدال. كقول لبيد:

وما المرء الا كالشهاب وضوئه يعود رمادًا بعد اذ هو ساطع

وَمَا ٱلْمَالُ وَٱلْأَهْلُونَ إِلَّا وَدِيعَةٌ وَلَا بُدَّ يَوْمًا أَنْ تُرَدَّ ٱلْوَدَائِعُ

وَبَعْضُهُمْ يَعُدُّ ٱلتَّأْنِيقَ مِنْ بَابِ ٱلْمُلَاءَمَةِ وَهُوَ أَنْ يَضُمَّ إِلَى ذِكْرِ ٱلشَّيْءِ مَا يَلِيقُ بِهِ وَيَجْرِي مَجْرَاهُ وَأَنْ يَجْمَعَ ٱلْأُمُورَ ٱلْمُتَنَاسِبَةَ وَيُقَالُ لَهُ مُرَاعَاةُ ٱلنَّظِيرِ أَيْضًا. وَٱلتَّنَاسُبُ هُوَ تَرْتِيبُ ٱلْمَعَانِي ٱلْمُتَآخِيَةِ ٱلَّتِي تَتَلَاءَمُ وَلَا تَتَنَافَرُ. كَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ:

وَٱلرِّفْقُ يُمْنٌ وَٱلْأَنَاةُ سَعَادَةٌ فَتَأَنَّ فِي رِفْقٍ تَنَالُ نَجَاحَا

وَٱلْيَأْسُ مِمَّا فَاتَ يُعْقِبُ رَاحَةً وَلَرُبَّ مَطْعَمَةٍ تَعُودُ ذُبَاحَا

وَيُسَمَّى ٱلتَّشَابُهَ أَيْضًا. وَقِيلَ ٱلتَّشَابُهُ أَنْ تَكُونَ ٱلْأَلْفَاظُ غَيْرَ مُتَبَايِنَةٍ بَلْ مُتَقَارِبَةً فِي ٱلْجَزَالَةِ وَٱلرِّقَّةِ وَٱلْمَتَانَةِ وَٱلسَّلَاسَةِ وَتَكُونُ ٱلْمَعَانِي مُنَاسِبَةً لِأَلْفَاظِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يُكْسَى ٱللَّفْظُ ٱلشَّرِيفُ ٱلْمَعْنَى ٱلسَّخِيفَ أَوْ عَلَى ٱلضِّدِّ بَلْ يُصَاغَانِ مَعًا صِيَاغَةً تَنَاسُبٍ وَتَلَاؤُمٍ حَتَّى لَا يَكُونَ ٱلْكَلَامُ كَمَا قِيلَ:

وَبَعْضُ قَرِيضِ ٱلْمَرْءِ أَوْلَادُ عِلَّةٍ يَكُدُّ لِسَانَ ٱلنَّاطِقِ ٱلْمُتَحَفِّظِ

البحث الرابع

في اقسام السجع وضروبه

(عن المثل السائر لابن الاثير باختصار)

(راجع صفحة ٧٣ من علم الادب)

اعْلَمْ أَنَّ ٱلسَّجْعَ قَدْ يَنْقَسِمُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: ٱلْأَوَّلُ أَنْ يَكُونَ ٱلْفَصْلَانِ مُتَسَاوِيَيْنِ لَا يَزِيدُ أَحَدُهُمَا عَلَى ٱلْآخَرِ كَقَوْلِهِ:

وَٱلْعَادِيَاتِ ضَبْحًا . فَٱلْمُورِيَاتِ قَدْحًا . فَٱلْمُغِيرَاتِ صُبْحًا . فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا . فَوَسَطْنَا بِهِ جَمْعًا . أَلَا تَرَى كَيْفَ جَاءَتْ هٰذِهِ ٱلْفُصُولُ مُتَسَاوِيَةَ ٱلْأَجْزَاءِ حَتَّى كَأَنَّهَا أُفْرِغَتْ فِي قَالَبٍ وَاحِدٍ . وَأَمْثَالُ ذٰلِكَ كَثِيرَةٌ وَهُوَ أَشْرَفُ ٱلسَّجْعِ مَنْزِلَةً لِلْاِعْتِدَالِ ٱلَّذِي فِيهِ

ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي أَنْ يَكُونَ ٱلْفَصْلُ ٱلثَّانِي أَطْوَلَ مِنَ ٱلْأَوَّلِ لَا طُولًا يَخْرُجُ بِهِ عَنِ ٱلْاِعْتِدَالِ خُرُوجًا كَثِيرًا فَإِنَّهُ يَقْبُحُ عِنْدَ ذٰلِكَ وَيُسْتَكْرَهُ وَيُعَدُّ عَيْبًا . فَمِمَّا جَاءَ مِنْ ذٰلِكَ قَوْلُهُ : بَلْ كَذَّبُوا بِٱلسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا . إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا . وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا . أَلَا تَرَى أَنَّ ٱلْفَصْلَ ٱلْأَوَّلَ ثَمَانِي لَفَظَاتٍ وَٱلْفَصْلَ ٱلثَّانِيَ وَٱلثَّالِثَ تِسْعٌ تِسْعٌ . وَيُسْتَثْنَى مِنْ هٰذَا ٱلْقِسْمِ مَا كَانَ مِنَ ٱلسَّجْعِ عَلَى ثَلَاثِ فِقَرٍ فَإِنَّ ٱلْفِقْرَتَيْنِ ٱلْأُولَيَيْنِ تُحْسَبَانِ فِي عِدَّةٍ وَاحِدَةٍ . ثُمَّ تَأْتِي ٱلثَّالِثَةُ فَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ طَوِيلَةً طُولًا يَزِيدُ عَلَيْهَا فَإِذَا كَانَتِ ٱلْأُولَى وَٱلثَّانِيَةُ أَرْبَعَ لَفَظَاتٍ تَكُونُ ٱلثَّالِثَةُ عَشَرَ لَفَظَاتٍ أَوْ إِحْدَى عَشْرَةَ . إِلَّا أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ تَجْعَلَ ذٰلِكَ قِيَاسًا مُطَّرِدًا فِي ٱلسَّجَعَاتِ ٱلثَّلَاثِ أَيْنَ وَقَعَتْ مِنَ ٱلْكَلَامِ بَلْ تَعْلَمُ أَنَّ ٱلْجَوَازَ يَعُمُّ ٱلْجَانِبَيْنِ مِنَ ٱلتَّسَاوِي فِي ٱلسَّجَعَاتِ ٱلثَّلَاثِ وَمِنْ زِيَادَةِ ٱلسَّجْعَةِ ٱلثَّالِثَةِ . أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَدْ وَرَدَ ثَلَاثُ سَجَعَاتٍ مُتَسَاوِيَاتٍ كَقَوْلِهِ : وَأَصْحَابُ ٱلْيَمِينِ . مَا أَصْحَابُ ٱلْيَمِينِ . فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ . وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ . وَظِلٍّ مَمْدُودٍ . فَهٰذِهِ ٱلسَّجَعَاتُ كُلُّهَا مِنْ لَفْظَتَيْنِ لَفْظَتَيْنِ وَلَوْ جُعِلَتْ

ٱلثَّالِثَةُ مِنْهَا خَمسَ لَفَظَاتٍ اوْ سِتاً لمَا كَانَ ذٰلِكَ معيباً

اَلْقِسْمُ ٱلثَّالِثُ اَنْ يَكُونَ ٱلْفَصْلُ ٱلآخَرُ اَقْصَرَ مِنَ ٱلاَوَّلِ وَهُوَ عِنْدِي عَيْبٌ فَاحِشٌ . وَسَبَبُ ذٰلِكَ : اَنَّ ٱلسَّجْعَ يَكُونُ قَدِ ٱسْتَوْفَى اَمَدَهُ مِنَ ٱلْفَصْلِ ٱلاَوَّلِ بِحُكْمِ طُولِهِ . ثُمَّ يَجِيءُ ٱلْفَصْلُ ٱلثَّانِي قَصِيرًا عَنِ ٱلاَوَّلِ فَيَكُونُ كَٱلشَّيْءِ ٱلْمَبْتُورِ فَيَبْقَى ٱلاِنسَانُ عِنْدَ سَمَاعِهِ كَمَنْ يُرِيدُ ٱلاِنْتِهَاءَ اِلَى غَايَةٍ فَيَعْثُرُ دُونَهَا

وَاِذَا ٱنْتَهَيْنَا اِلَى هٰهُنَا وَبَيَّنَا اَقْسَامَ ٱلسَّجْعِ وَلُبَّهُ وَقُشُورَهُ فَسَنَقُولُ فِيهِ قَوْلًا كُلِّيًّا وَهُوَ اَنَّ ٱلسَّجْعَ عَلَى ٱخْتِلَافِ اَقْسَامِهِ ضَرْبَانِ : اَحَدُهُمَا يُسَمَّى ٱلسَّجْعَ ٱلْقَصِيرَ وَهُوَ اَنْ تَكُونَ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنَ ٱلسَّجْعَتَيْنِ مُؤَلَّفَةً مِنْ اَلْفَاظٍ قَلِيلَةٍ وَكُلَّمَا قَلَّتِ ٱلاَلْفَاظُ كَانَ اَحْسَنَ لِقُرْبِ ٱلْفَوَاصِلِ ٱلْمَسْجُوعَةِ مِنْ مَسْمَعِ ٱلسَّامِعِ . وَهٰذَا ٱلضَّرْبُ اَوْعَرُ ٱلسَّجْعِ مَذْهَبًا وَاَبْعَدُهُ مُتَنَاوَلًا وَلَا يَكَادُ ٱسْتِعْمَالُهُ يَقَعُ اِلَّا نَادِرًا . وَٱلضَّرْبُ ٱلآخَرُ يُسَمَّى ٱلسَّجْعَ ٱلطَّوِيلَ وَهُوَ ضِدُّ ٱلاَوَّلِ لِاَنَّهُ اَسْهَلُ مُتَنَاوَلًا . وَاِنَّمَا كَانَ ٱلْقَصِيرُ مِنَ ٱلسَّجْعِ اَوْعَرَ مَسْلَكًا مِنَ ٱلطَّوِيلِ لِاَنَّ ٱلْمَعْنَى اِذَا صِيغَ بِاَلْفَاظٍ قَصِيرَةٍ عَزَّ مُؤَاتَاةُ ٱلسَّجْعِ فِيهِ لِقِصَرِ تِلْكَ ٱلاَلْفَاظِ وَضِيقِ ٱلْمَجَالِ فِي ٱسْتِجْلَابِهِ . وَاَمَّا ٱلطَّوِيلُ فَاِنَّ ٱلاَلْفَاظَ تَطُولُ فِيهِ وَيُسْتَجْلَبُ لَهُ ٱلسَّجْعُ مِنْ حَيْثُ لَيْسَ كَمَا يُقَالُ وَكَانَ ذٰلِكَ سَهْلًا . وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذَيْنِ ٱلضَّرْبَيْنِ تَتَفَاوَتُ دَرَجَاتُهُ فِي عِدَّةِ ٱلاَلْفَاظِ . اَمَّا ٱلسَّجْعُ ٱلْقَصِيرُ فَاَحْسَنُهُ مَا كَانَ مُؤَلَّفًا مِنْ لَفْظَتَيْنِ لَفْظَتَيْنِ كَقَوْلِهِ : وَٱلْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا . فَٱلْعَاصِفَاتِ عَصْفًا . وَقَوْلِهِ : يَا اَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ . قُمْ

فَأَنْذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ . وَمِنْهُ مَا يَكُونُ مُؤَلَّفًا مِنْ ثَلَاثَةِ أَلْفَاظٍ وَأَرْبَعَةٍ وَخَمْسَةٍ وَكَذٰلِكَ الْعَشَرَةُ . وَمَا زَادَ عَلَى ذٰلِكَ فَهُوَ مِنَ ٱلسَّجْعِ ٱلطَّوِيلِ . فَمِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُهُ: وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا: سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ. وَكَذَّبُوا وَٱتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ .
وَأَمَّا ٱلسَّجْعُ ٱلطَّوِيلُ فَإِنَّ دَرَجَاتِهِ تَتَفَاوَتُ فِي ٱلطُّولِ أَيْضًا فَمِنْهُ مَا يَقْرُبُ مِنَ ٱلسَّجْعِ ٱلْقَصِيرِ. وَهُوَ أَنْ يَكُونَ تَأْلِيفُهُ مِنْ إِحْدَى عَشْرَةَ إِلَى ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ لَفْظَةً . وَأَكْثَرُهُ خَمْسَ عَشْرَةَ لَفْظَةً كَقَوْلِهِ : وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ . وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ. فَٱلْأُولَى إِحْدَى عَشْرَةَ لَفْظَةً .وَٱلثَّانِيَةُ ثَلَاثَ عَشْرَةَ لَفْظَةً . وَمِنَ ٱلسَّجْعِ ٱلطَّوِيلِ مَا يَكُونُ تَأْلِيفُهُ مِنَ ٱلْعِشْرِينَ لَفْظَةً فَمَا حَوْلَهَا كَقَوْلِهِ: إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَلٰكِنَّ ٱللهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ . وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ ٱللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ . وَمِنَ ٱلسَّجْعِ ٱلطَّوِيلِ أَيْضًا مَا يَزِيدُ عَلَى هٰذِهِ ٱلْعِدَّةِ ٱلْمَذْكُورَةِ وَهُوَ غَيْرُ مَضْبُوطٍ



البحث الخامس

في الايجاز

(عن المثل السائر وكتاب الصناعتين وغيرهما)

(راجع صفحة ٧٥ من علم الادب)

اَلايجازُ حذفُ زِيادَاتِ ٱلْاَلفَاظِ وَهٰذَا نَوعٌ مِنَ ٱلكَلَام شَرِيفٌ لَا يَتعَلّقُ بِهِ اِلَّا فُرسَانُ ٱلبَلَاغَةِ مَنْ سَبَقَ اِلَى غَايَتِهَا وَمَا صَلَّى. وَضَرَبَ فِي اَعلَى دَرَجَاتِهَا بِٱلقِدحِ ٱلمُعلَّى . وَذٰلِكَ لِعُلُوِّ مَكَانِهِ. وَتَعذُّرِ اِمكَانِهِ وَٱلنّظَرُ فِيهِ اِنَّمَا هُوَ اِلَى ٱلمَعَانِي لَا اِلَى ٱلاَلفَاظِ . وَلَستُ اَعنِي بِذٰلِكَ اَنْ تُهمِلَ ٱلاَلفَاظَ بِحَيثُ تَعرَى عَنْ اَوصَافِهَا ٱلحَسَنَةِ بَلْ اَعنِي اَنَّ مَدَارَ ٱلنّظَرِ فِي هٰذَا ٱلنّوعِ اِنَّمَا يَختَصُّ بِٱلمَعَانِي . فَرُبَّ لَفظٍ قَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَى مَعنًى كَثِيرٍ . وَرُبَّ لَفظٍ كَثِيرٍ يَدُلُّ عَلَى مَعنًى قَلِيلٍ . وَمِثَالُ هٰذَا كَٱلجَوهَرَةِ ٱلوَاحِدَةِ بِٱلنِّسبَةِ اِلَى ٱلدَّرَاهِمِ . فَمَنْ يَنظُرُ اِلَى طُولِ ٱلاَلفَاظِ يُؤْثِرُ ٱلدَّرَاهِمَ لِكَثرَتِهَا .وَمَنْ يَنظُرُ اِلَى شَرَفِ ٱلمَعَانِي يُؤْثِرُ ٱلجَوهَرَةَ ٱلوَاحِدَةَ لِنَفَاسَتِهَا . قَالَ اَصحَابُ ٱلايجَازِ : ٱلايجَازُ قُصُورُ ٱلبَلَاغَةِ عَلَى ٱلحَقِيقَةِ وَمَا تَجَاوَزَ مِقدَارَ ٱلحَاجَةِ فَهُوَ فَضلٌ دَاخِلٌ فِي بَابِ ٱلهَذَرِ وَٱلخَطَلِ وَهُمَا مِنْ اَعظَمِ اَدوَاءِ ٱلكَلَامِ وَفِيهِمَا دَلَالَةٌ عَلَى بَلَادَةِ صَاحِبِ ٱلصِّنَاعَةِ . وَفِي تَفضِيلِ ٱلايجَازِ يَقُولُ جَعفَرُ بنُ يَحيَى لِكُتَّابِهِ : اِنْ قَدَرتُمْ اَنْ تَجعَلُوا كُتُبَكُمْ تَوقِيعَاتٍ فَٱفعَلُوا . وَقَالَ

بَعضُهم : ٱلزِّيادَةُ فِي ٱلحَدِّ نُقصانٌ . وَقالَ مُحَمَّدٌ ٱلأَمِينُ : عَلَيكُمْ بِٱلإِيجازِ فَإِنَّ لَهُ إِفهاماً وَلِلإِطالَةِ ٱستِبهاماً. وَقالَ شَبِيبُ بنُ شَيبَةَ : ٱلقَلِيلُ ٱلكافِ خَيرٌ مِنْ كَثِيرٍ غَيرِ شافٍ. وَقالَ آخَرُ : إِذا طالَ ٱلكَلامُ عَرَضَتْ لَهُ أَسبابُ ٱلتَّكَلُّفِ وَلا خَيرَ فِي شَيْءٍ يَأْتِي بِهِ ٱلتَّكَلُّفُ. وَقِيلَ لِبَعضِهِمْ : ما ٱلبَلاغَةُ . فَقالَ : ٱلإِيجازُ . قِيلَ : وَما ٱلإِيجازُ . قالَ : حَذفُ ٱلفُضُولِ وَتَقرِيبُ ٱلبَعِيدِ . وَقِيلَ لِبَعضِهِمْ : لِمَ لا تُطِيلُ ٱلشِّعرَ . فَقالَ : حَسبُكَ مِنَ ٱلقِلادَةِ ما أَحاطَ بِٱلعُنُقِ . وَقِيلَ ذٰلِكَ لِآخَرَ . فَقالَ : لَستُ أَبِيعُهُ مُذارَعَةً . وَقِيلَ لِلفَرَزدَقِ : ما صَيَّرَكَ إِلَى ٱلقِصارِ بَعدَ ٱلطِّوالِ . قالَ : لِأَنِّي رَأَيتُها فِي ٱلصُّدُورِ أَوقَعَ وَفِي ٱلمَحافِلِ أَجوَلَ . وَقالَتْ بِنتُ ٱلحُطَيئَةِ لِأَبِيها : ما بالُ قِصارِكَ أَكثَرُ مِنْ طِوالِكَ . قالَ : لِأَنَّها بِٱلآذانِ أَولَجُ وَبِٱلأَفواهِ أَعلَقُ. وَقالَ أَبُو سُفيانَ لِٱبنِ ٱلزِّبَعرَى : قَصَّرتَ فِي شِعرِكَ . قالَ : حَسبُكَ مِنَ ٱلشِّعرِ غُرَّةٌ لائِحَةٌ وَسِمَةٌ واضِحَةٌ . وَقِيلَ لِلنّابِغَةِ ٱلذُّبيانِيِّ : أَلا تُطِيلُ ٱلقَصائِدَ كَما أَطالَ صاحِبُكَ ٱبنُ حُجرٍ. قالَ : مَنِ ٱنتَحَلَ ٱنتَقَرَ. وَقِيلَ لِبَعضِ ٱلمُحَدِّثِينَ : ما لَكَ لا تَزِيدُ عَلَى أَربَعَةٍ وَٱثنَينِ . قالَ : هِيَ بِٱلقُلُوبِ أَوقَعُ وَإِلَى ٱلحِفظِ أَسرَعُ وَبِٱلأَلسُنِ أَعلَقُ وَلِلمَعانِي أَجمَعُ وَصاحِبُها أَبلَغُ وَأَوجَزُ . وَقِيلَ لِٱبنِ حازِمٍ : أَلا تُطِيلُ ٱلقَصائِدَ. فَقالَ :

أَبَى لِي أَنْ أُطِيلَ ٱلشِّعرَ قَصدِي ... إِلَى ٱلمَعنَى وَعِلمِي بِٱلصَّوابِ

وَإِيجازِي بِمُختَصَرٍ قَرِيبٍ ... حَذَفتُ بِهِ ٱلفُضُولَ مِنَ ٱلجَوابِ

فَأَبعثُهنّ أَربعةً وستاً مُثقّفةً بألفاظٍ عِذابِ
وهنّ إذا وَسمتُ بهنّ قوماً كأطواقِ الحمائمِ في الرقابِ

وقال عليٌّ: ما رأيتُ بليغاً قطُّ إلّا وله في القولِ إيجازٌ وفي المعاني إطالةٌ. وقيل لإياسِ بن معاويةَ: ما فيكَ عيبٌ غيرَ أنّك كثيرُ الكلامِ. قال: أفتسمعونَ صواباً أم خطأً. قالوا بل صواباً. قال: فالزيادةُ من الخيرِ خيرٌ. وليس كما قال لأنّ للكلامِ غايةً ولنشاطِ السامعينَ نهايةً. وما فضلَ عن مقدارِ الاحتمالِ ودعا إلى الاستثقالِ وصار سبباً للملالِ فذلك الهذرُ والإسهابُ والخطلُ وهو معيبٌ عند كلّ لبيبٍ. وقال بعضهم: البلاغةُ بالإيجازِ أنجعُ من البيانِ بالإطنابِ. وقالوا: المكثارُ كحاطبِ الليلِ. ومثلُ الإيجازِ الحسنِ كقولهِ: وخذِ العفوَ وأمرْ بالعرفِ وأعرضْ عن الجاهلينَ. فجمعَ جميعَ مكارمِ الأخلاقِ بأسرها. لأنّ في العفوِ صلةَ القاطعينَ والصفحَ عن الظالمينَ وإعطاءَ المانعينَ. وفي الأمرِ بالعرفِ تقوى اللهِ وصلةَ الرحمِ وصونَ اللسانِ عن الكذبِ وغضَّ الطرفِ عن الحرماتِ والتبرؤَ من كلّ قبيحٍ لأنّه لا يجوزُ أن يأمرَ بالمعروفِ وهو يلابسُ شيئاً من المنكرِ. وفي الإعراضِ عن الجاهلينَ الصبرُ والحلمُ وتنزيهُ النفسِ عن مقابلةِ السفيهِ بما يوتغُ الدينَ ويُسقطُ القدرةَ. وقولهُ: حبُّكَ الشيءَ يُعمي ويُصمّ. وقولهُ إنّ من البيانِ لسحراً. وقولهُ: نيّةُ المؤمنِ خيرٌ من عملهِ. وقولهُ: تركُ الشرّ صدقةٌ. فمعاني هذا الكلامِ أكثرُ من ألفاظهِ. وإذا أردتَ أن تعرفَ صحّةَ ذلك

فحلّها وأبنها بناء آخر فإنك تجدها تجيء في أضعاف هذه الألفاظ .
وقوله : إذا أعطاك الله خيرًا فليبن عليك وابدأ بمن تعول وارتضخ من الفضل ولا تلم على الكفاف ولا تعجز عن نفسك . فقوله : (فليبن عليك) أي فليظهر أثره عليك بالصدقة والمعروف ودلّ على ذلك بقوله : (وابدأ بمن تعول وارتضخ من الفضل) أي اكسر من مالك وأعطه) والاسم الشيء الرضيخة (ولا تعجز عن نفسك) أي لا تجمع لغيرك وتبخل عن نفسك فلا تقدم خيرًا .
وقول أعرابي : أولئك قوم جعلوا أموالهم مناديل لأعراضهم فالخير بهم زائد والمعروف لهم شاهد . أي يقون أعراضهم بأموالهم .
وقيل لأعرابي يسوق مالًا كثيرًا : لمن هذا المال . فقال : لله في يدي . وقال أعرابي لرجل يمدحه : إنه ليعطي عطاء من يعلم أن الله مادّته . وقول آخر : أما بعد فعظ الناس بفعلك ولا تعظهم بقولك واستحي من الله بقدر قربه منك . وخفه بقدر قدرته عليك .
وقال آخر : إن شككت فيّ فاسأل قلبك عني

واعلم أن جماعة من مدّعي علم البيان ذهبوا إلى أن الكلام ينقسم قسمين : فمنه ما يحسن فيه الإيجاز كالأشعار والمكاتبات . ومنه ما يحسن فيه التطويل كالخطب والتقليدات وكتب الفتوح التي تقرأ في ملإ من عوام الناس . فإن الكلام إذا طال في مثل ذلك أثّر عندهم وأفهمهم ولو اقتصر فيه على الإيجاز والإشارة لم يقع لأكثرهم حتى يقال في ذكر الحرب : التقى الجمعان وتطاعن

ٱلْفَرِيقَانِ وَٱشْتَدَّ ٱلْقِتَالُ وَحَمِيَ ٱلنِّصَالُ وَمَا جَرَى هٰذَا ٱلْمَجْرَى. وَٱلْمَذْهَبُ عِنْدِي فِي ذٰلِكَ مَا اَذْكُرُهُ : وَهُوَ اَنَّ فَهْمَ ٱلْعَامَّةِ لَيْسَ شَرْطًا مُعْتَبَرًا فِي ٱخْتِيَارِ ٱلْكَلَامِ .لِاَنَّهُ لَوْ كَانَ شَرْطًا لَوَجَبَ عَلَى قِيَاسِهِ اَنْ يَسْتَعْمِلَ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْاَلْفَاظَ ٱلْعَامِيَّةَ ٱلْمُبْتَذَلَةَ عِنْدَهُمْ لِيَكُونَ ذٰلِكَ اَقْرَبَ اِلَى فَهْمِهِمْ. لِاَنَّ ٱلْعِلَّةَ فِي ٱخْتِيَارِ تَطْوِيلِ ٱلْكَلَامِ اِذَا كَانَتْ فَهْمُ ٱلْعَامَّةِ اِيَّاهُ فَكَذٰلِكَ تُجْعَلُ تِلْكَ ٱلْعِلَّةُ بِعَيْنِهَا فِي ٱخْتِيَارِ ٱلْمُبْتَذَلِ مِنَ ٱلْكَلَامِ فَاِنَّهُ لَاخِلَافَ فِي اَنَّ ٱلْعَامَّةَ اِلَى فَهْمِهِ اَقْرَبُ مِنْ فَهْمِ مَا يَقِلُّ ٱبْتِذَالُهُمْ اِيَّاهُ . وَهٰذَا شَيْءٌ مَدْفُوعٌ وَاَمَّا ٱلَّذِي يَجِبُ تَوَخِّيهِ وَٱعْتِمَادُهُ فَهُوَ اَنْ يُسْلَكَ ٱلْمَذْهَبُ ٱلْقَوِيمُ فِي تَرْكِيبِ ٱلْاَلْفَاظِ عَلَى ٱلْمَعَانِي بِحَيْثُ لَا تَزِيدُ هٰذِهِ عَلَى هٰذِهِ مَعَ ٱلْاِيضَاحِ وَٱلْاِبَانَةِ وَلَيْسَ عَلَى مُسْتَعْمِلِ ذٰلِكَ اَنْ يَفْهَمَ ٱلْعَامَّةُ كَلَامَهُ فَاِنَّ نُورَ ٱلشَّمْسِ اِذَا لَمْ يَرَهُ ٱلْاَعْمَى لَا يَكُونُ ذٰلِكَ نَقْصًا فِي ٱسْتِنَارَتِهِ وَاِنَّمَا ٱلنَّقْصُ فِي بَصَرِ ٱلْاَعْمَى حَيْثُ لَمْ يَسْتَطِعِ ٱلنَّظَرَ اِلَيْهِ :

عَلَيَّ نَحْتُ ٱلْقَوَافِي مِنْ مَعَادِنِهَا ... وَمَا عَلَيَّ بِاَنْ لَا تَفْهَمَ ٱلْبَقَرُ

وَحَيْثُ ٱنْتَهَى بِنَا ٱلْقَوْلُ اِلَى هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ فَلْنَرْجِعْ اِلَى مَا هُوَ غَرَضُنَا وَمُهِمُّنَا مِنَ ٱلْكَلَامِ عَلَى ٱلْاِيجَازِ وَحَدِّهِ وَاَقْسَامِهِ وَنُوضِحُ ذٰلِكَ اِيضَاحًا جَلِيًّا وَٱللّٰهُ ٱلْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ فَنَقُولُ :حَدُّ ٱلْاِيجَازِ هُوَ دَلَالَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى مِنْ غَيْرِ اَنْ يَزِيدَ عَلَيْهِ . وَٱلتَّطْوِيلُ هُوَ ضِدُّ ذٰلِكَ وَهُوَ اَنْ يَدُلَّ عَلَى ٱلْمَعْنَى بِلَفْظٍ يَكْفِيكَ بَعْضُهُ فِي ٱلدَّلَالَةِ عَلَيْهِ. كَقَوْلِ ٱلْعُجَيْرِ ٱلسَّلُولِيِّ مِنْ اَبْيَاتِ ٱلْحَمَاسَةِ :

طُلُوعُ ٱلثَّنَايَا بِٱلمَطَايَا وَسَابِقٌ   إِلَى غَايَةٍ مَنْ يَبْتَدِرْهَا يُقَدَّمِ

فَصَدْرُ هٰذَا ٱلْبَيْتِ فِيهِ تَطْوِيلٌ لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ وَعَجْزُهُ مِنْ مَحَاسِنِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُتَوَاصِفَةِ . وَمَوْضِعُ ٱلتَّطْوِيلِ مِنْ صَدْرِهِ أَنَّهُ قَالَ : (طُلُوعُ ٱلثَّنَايَا بِٱلمَطَايَا) فَإِنَّ لَفْظَةَ ٱلْمَطَايَا فَضْلَةٌ لَا حَاجَةَ إِلَيْهَا . وَبَيَانُ ذٰلِكَ أَنَّهُ لَا يَخْلُو ٱلْأَمْرُ فِيهَا مِنْ وَجْهَيْنِ : إِمَّا أَنْ يُرِيدَ أَنَّهُ سَابِقُ ٱلْهِمَّةِ إِلَى مَعَالِي ٱلْأُمُورِ كَمَا قَالَ ٱلْحَجَّاجُ عَلَى ٱلْمِنْبَرِ عِنْدَ وُصُولِهِ ٱلْعِرَاقَ : أَنَا ٱبْنُ جَلَا وَطَلَّاعُ ٱلثَّنَايَا . أَيْ أَنَا ٱلرَّجُلُ ٱلْمَشْهُورُ ٱلسَّابِقُ إِلَى مَعَالِي ٱلْأُمُورِ . فَإِنْ أَرَادَ ٱلْبُحْتُرِيُّ بِقَوْلِهِ : (طُلُوعُ ٱلثَّنَايَا) مَا أَشَرْتُ إِلَيْهِ فَذِكْرُ ٱلْمَطَايَا يُفْسِدُ ذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى لِأَنَّ مَعَالِيَ ٱلْأُمُورِ لَا يُرْقَى إِلَيْهَا بِٱلْمَطَايَا . وَإِنْ أَرَادَ ٱلْوَجْهَ ٱلْآخَرَ وَهُوَ أَنَّهُ كَثِيرُ ٱلْأَسْفَارِ فَٱخْتِصَاصُهُ ٱلثَّنَايَا بِٱلذِّكْرِ دُونَ ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْمَفَاوِزِ وَغَيْرِهَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ . وَعَلَى كِلَا ٱلْوَجْهَيْنِ فَإِنَّ ذِكْرَ ٱلْمَطَايَا لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ وَهُوَ تَطْوِيلٌ بَارِدٌ غَثٌّ . فَقِسْ عَلَى هٰذَا ٱلْمِثَالِ مَا يَجْرِي مَجْرَاهُ مِنَ ٱلتَّطْوِيلَاتِ ٱلَّتِي إِذَا أُسْقِطَتْ مِنَ ٱلْكَلَامِ بَقِيَ عَلَى حَالِهِ لَمْ يَتَغَيَّرْ شَيْءٌ . وَكَذٰلِكَ يَجْرِي ٱلْأَمْرُ فِي أَلْفَاظٍ يُوصَلُ بِهَا ٱلْكَلَامُ فَتَارَةً تَجِيءُ لِفَائِدَةٍ وَذٰلِكَ قَلِيلٌ وَتَارَةً تَجِيءُ لِغَيْرِ فَائِدَةٍ وَذٰلِكَ كَثِيرٌ . وَأَكْثَرُ مَا تَرِدُ فِي ٱلْأَشْعَارِ لِيُوزَنَ بِهَا ٱلْأَبْيَاتُ ٱلشِّعْرِيَّةُ وَذٰلِكَ نَحْوُ قَوْلِهِمْ : لَعَمْرِي وَلَعَمْرُكَ وَنَحْوُ : أَصْبَحَ وَأَمْسَى وَظَلَّ وَأَضْحَى وَبَاتَ وَأَشْبَاهِ ذٰلِكَ . وَنَحْوُ : يَاصَاحِبِي وَيَاخَلِيلِي وَمَا يَجْرِي هٰذَا ٱلْمَجْرَى . فَمِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ :

اَقَرُّوا لَعَمْرِي لِحُكْمِ ٱلسُّيُوفِ وَكَانَتْ اَحَقَّ بِفَصْلِ ٱلْقَضَاءِ

فَاِنَّ قَوْلَهُ: (لَعَمْرِي) زِيَادَةٌ لَاحَاجَةَ لِلْمَعْنَى اِلَيْهَا وَهِيَ حَشْوٌ فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ لَا فَائِدَةَ فِيهِ اِلَّا اِصْلَاحُ ٱلْوَزْنِ لَا غَيْرُ. اَلَا تُرَى اَنَّهَا مِنْ بَابِ ٱلْقَسَمِ وَاِنَّمَا يَرِدُ ٱلْقَسَمُ فِي مَوْضِعٍ يُؤَكَّدُ بِهِ ٱلْمَعْنَى ٱلْمُرَادُ اِمَّا لِاَنَّهُ يُشَكُّ فِيهِ اَوْ مِمَّا يَعِزُّ وُجُودُهُ اَوْ مَا جَرَى هٰذَا ٱلْمَجْرَى. وَهٰذَا ٱلْبَيْتُ ٱلشِّعْرِيُّ لَا يَفْتَقِرُ مَعْنَاهُ اِلَى تَوْكِيدٍ قَسَمِيٍّ اِذْ لَا شَكَّ اَنَّ ٱلسُّيُوفَ حَاكِمَةٌ وَاَنَّ كُلَّ اَحَدٍ يُقِرُّ لِحُكْمِهَا وَيُذْعِنُ لِطَاعَتِهَا. وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُ اَيْضًا:

اِذَا اَنَا لَمْ اَلُمْ عَثَرَاتِ دَهْرٍ بُلِيتُ بِهِ ٱلْغَدَاةَ فَمَنْ اَلُومُ

فَقَوْلُهُ: (ٱلْغَدَاةَ) زِيَادَةٌ لَا حَاجَةَ لِلْمَعْنَى اِلَيْهَا لِاَنَّهُ يَتِمُّ بِدُونِهَا لِاَنَّ عَثَرَاتِ ٱلدَّهْرِ لَمْ تَنَلْهُ ٱلْغَدَاةَ وَلَا ٱلْعَشِيَّ وَاِنَّمَا نَالَتْهُ وَنَيْلُهَا اِيَّاهُ لَا بُدَّ اَنْ يَقَعَ فِي زَمَنٍ مِنَ ٱلْاَزْمِنَةِ كَائِنًا مَا كَانَ وَلَا حَاجَةَ اِلَى تَعْيِينِهِ بِٱلذِّكْرِ. وَعَلَى هٰذَا وَرَدَ قَوْلُ ٱلْبُحْتُرِيِّ:

مَا اَحْسَنَ ٱلْاَيَّامَ اِلَّا اَنَّهَا يَا صَاحِبَيَّ اِذَا مَضَتْ لَمْ تَرْجِعِ

فَقَوْلُهُ: (يَا صَاحِبَيَّ) زِيَادَةٌ لَاحَاجَةَ بِٱلْمَعْنَى اِلَيْهَا اِلَّا اَنَّهَا وَرَدَتْ لِتَصْحِيحِ ٱلْوَزْنِ لَا غَيْرَ. وَهٰذِهِ ٱلْاَلْفَاظُ ٱلَّتِي تَرِدُ فِي ٱلْاَبْيَاتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ لِتَصْحِيحِ ٱلْوَزْنِ لَا عَيْبَ فِيهَا. لِاَنَّا لَوْ عِبْنَاهَا عَلَى ٱلشُّعَرَاءِ لَتَحَجَّرْنَا عَلَيْهِمْ وَضَيَّقْنَا ٱلْوَزْنَ وَيُضْطَرُّ فِي بَعْضِ ٱلْاَحْوَالِ اِلَى مِثْلِ ذٰلِكَ لٰكِنْ اِذَا وَرَدَتْ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْمَنْثُورِ فَاِنَّهَا اِنْ وَرَدَتْ حَشْوًا وَلَمْ تَرِدْ لِفَائِدَةٍ كَانَتْ عَيْبًا. وَقَدْ تَرِدُ فِي ٱلْاَبْيَاتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ وَيَكُونُ

وُرُودُهَا لِفَائِدَةٍ . . . فَاعْلَمْ اَيُّهَا ٱلنَّاظِرُ فِي كِتَابِي هٰـذَا اَنَّ ٱلتَّطْوِيلَ هُوَ زِيَادَاتُ ٱلْاَلْفَاظِ فِي ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلْمَعَانِي وَمَهْمَا اَمْكَنَكَ حَذْفُ شَيْءٍ مِنَ ٱللَّفْظِ فِي ٱلدَّلَالَةِ عَلَى مَعْنًى مِنَ ٱلْمَعَانِي فَإِنَّ ذٰلِكَ ٱللَّفْظَ هُوَ ٱلتَّطْوِيلُ بِعَيْنِهِ . وَاَمَّا ٱلْاِيجَازُ فَقَدْ عَرَّفْتُكَ اَنَّهُ دَلَالَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى مِنْ غَيْرِ اَنْ يَزِيدَ عَلَيْهِ . وَهُوَ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : (اَحَدُهُمَا) ٱلْاِيجَازُ بِٱلْحَذْفِ وَهُوَ مَا يُحْذَفُ مِنْهُ ٱلْمُفْرَدُ وَٱلْجُمْلَةُ لِدَلَالَةِ فَحْوَى ٱلْـكَلَامِ عَلَى ٱلْمَحْذُوفِ وَلَا يَكُونُ اِلَّا فِيمَا زَادَ مَعْنَاهُ عَلَى لَفْظِهِ . (وَٱلْقِسْمُ ٱلْآخَرُ) مَا لَا يُحْذَفُ مِنْهُ شَيْءٌ وَهُوَ ضَرْبَانِ : (اَحَدُهُمَا) مَا سَاوَى لَفْظُهُ مَعْنَاهُ وَيُسَمَّى ٱلتَّقْـدِيرَ . (وَٱلْآخَرُ) مَا زَادَ مَعْنَاهُ عَلَى لَفْظِهِ وَيُسَمَّى ٱلْقَصْرَ . وَٱعْلَمْ اَنَّ ٱلْقِسْمَ ٱلْاَوَّلَ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْاِيجَازُ بِٱلْحَذْفِ يُتَنَبَّهُ لَهُ مِنْ غَيْرِ كَبِيرِ كُلْفَةٍ فِي ٱسْتِخْرَاجِهِ لِمَكَانِ ٱلْمَحْذُوفِ مِنْهُ . وَاَمَّا ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي فَإِنَّ ٱلتَّنَبُّهَ لَهُ عَسِرٌ لِاَنَّهُ يَحْتَاجُ اِلَى فَضْلِ تَاَمُّلٍ وَطُولِ فِكْرَةٍ لِخَفَاءِ مَا يُسْتَدَلُّ عَلَيْهِ وَلَا يَسْتَنْبِطُ ذٰلِكَ اِلَّا مَنْ رَسَتْ قَدَمُهُ فِي مُمَارَسَةِ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ وَصَارَ لَهُ خَلِيقَةً وَمَلَـكَةً . وَلَمْ اَجِدْ اَحَدًا عَلَّمَ هٰذَيْنِ ٱلْقِسْمَيْنِ بِعَلَامَةٍ وَلَا قَيَّدَهُمَا بِقَيْدٍ . . . فَنَقُولُ اَمَّا ٱلْاِيجَازُ بِٱلْحَذْفِ فَإِنَّهُ عَجِيبُ ٱلْاَمْرِ شَبِيـهٌ بِٱلسِّحْرِ وَذَاكَ اَنَّكَ تَرَى فِيهِ تَرْكَ ٱلذِّكْرِ اَفْصَحَ مِنَ ٱلذِّكْرِ وَٱلصَّمْتَ عَنِ ٱلْاِفَادَةِ اَزْيَدَ لِلْاِفَادَةِ وَتَجِدُكَ اَنْطَقَ مَا تَـكُونُ اِذَا لَمْ تَنْطِقْ وَاَتَمَّ مَا تَـكُونُ مُبَيِّنًا اِذَا لَمْ تُبَيِّنْ وَهٰذِهِ جُمْلَةٌ تُنْـكِرُهَا حَتَّى تُخْبَرَ وَتَدْفَعُهَا حَتَّى تَنْظُرَ . وَٱلْاَصْلُ فِي ٱلْمَحْذُوفَاتِ جَمِيعِهَا عَلَى ٱخْتِلَافِ ضُرُوبِهَا

انْ يَكُونَ فِي ٱلْكَلَامِ مَا يَدُلُّ عَلَى ٱلْمَحْذُوفِ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ دَلِيلٌ عَلَى ٱلْمَحْذُوفِ فَإِنَّهُ لَغْوٌ مِنَ ٱلْحَدِيثِ لَا يَجُوزُ بِوَجْهٍ وَلَا سَبَبٍ . وَمِنْ شَرْطِ ٱلْمَحْذُوفِ فِي حُكْمِ ٱلْبَلَاغَةِ انَّهُ مَتَى أُظْهِرَ صَارَ ٱلْكَلَامُ إِلَى شَيْءٍ غَثٍّ لَا يُنَاسِبُ مَا كَانَ عَلَيْهِ اوَّلًا مِنَ ٱلطَّلَاوَةِ وَٱلْحُسْنِ وَقَدْ يَظْهَرُ ٱلْمَحْذُوفُ بِٱلْاعْرَابِ كَقَوْلِنَا : اَهْلًا وَسَهْلًا . فَإِنَّ نَصْبَ ٱلْاَهْلِ وَٱلسَّهْلِ يَدُلُّ عَلَى نَاصِبٍ مَحْذُوفٍ وَلَيْسَ لِهٰذَا مِنَ ٱلْحُسْنِ مَا لِلَّذِي لَا يَظْهَرُ بِٱلْاعْرَابِ وَإِنَّمَا يَظْهَرُ بِٱلنَّظَرِ إِلَى تَمَامِ ٱلْمَعْنَى كَقَوْلِنَا : فُلَانٌ يَحُلُّ وَيَعْقِدُ فَإِنَّ ذٰلِكَ لَا يَظْهَرُ ٱلْمَحْذُوفُ بِهِ بِٱلْاعْرَابِ وَإِنَّمَا يَظْهَرُ بِٱلنَّظَرِ إِلَى تَمَامِ ٱلْمَعْنَى اَيْ إِنَّهُ يَحُلُّ ٱلْأُمُورَ وَيَعْقِدُهَا . وَٱلَّذِي يَظْهَرُ فِي ٱلْاعْرَابِ يَقَعُ فِي ٱلْمُفْرَدَاتِ مِنَ ٱلْمَحْذُوفَاتِ كَثِيرًا وَٱلَّذِي لَا يَظْهَرُ بِٱلْاعْرَابِ يَقَعُ فِي ٱلْجُمَلِ مِنَ ٱلْمَحْذُوفَاتِ كَثِيرٌ

البحث السادس

في المساواة

(عن كتاب الصناعتين باختصار)

(راجع صفحة ٧٥ من علم الادب)

اَلْمُسَاوَاةُ هِيَ اَنْ تَكُونَ ٱلْمَعَانِي بِقَدْرِ ٱلْاَلْفَاظِ وَٱلْاَلْفَاظُ بِقَدْرِ ٱلْمَعَانِي لَا يَزِيدُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ وَهُوَ ٱلْمَذْهَبُ ٱلْمُتَوَسِّطُ بَيْنَ ٱلْايجَازِ وَٱلْاطْنَابِ وَإِلَيْهِ اَشَارَ ٱلْقَائِلُ بِقَوْلِهِ : كَانَّ اَلْفَاظَهُ قَوَالِبُ لِمَعَانِيهِ

اي لايزيد بعضها على بعض . فمما جاء من ذلك قوله : لا تزال امتي بخير ما لم ترَ الامانة مغنماً والزكاة مغرماً . وقوله : اياك والمشاورة فانها تميت الغرة وتحيي العزة . ومن الفاظ هذه الفصول ما كانت معانيه اكثر من الفاظه وانما يكره تميزها كراهة الاطالة . ومن نثر الكتاب قول بعضهم : سألت عن خبري وانا في عافية لا عيب فيها الا فقدك ونعمة لا مزيد فيها الا بك . وقوله : علمتني نبوتك سلوتك واسلمني يأسي منك الى الصبر عنك . وقوله : فحفظ الله النعمة عليك وفيك وتولى اصلاحك والاصلاح اليك واجزل من الخير حظك والحظ منك ومنّ عليك وعلينا بك . وقال آخر يئست من صلاحك بي واخاف فسادي بك وقد اطنب في ذم الحمار من شبهك به . ومن المنظوم قول طرفة :

ستبدي لك الايام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالاخبار من لم تزوّدِ

وقول الآخر :

تهدا الامور باهل الرأي ما صلحت فان تابت فبالاشرار تنقادُ

وقول الآخر :

اما الذي يحصيهم فمكثّرٌ اما الذي يطريهم فمقلّلُ

وقول الآخر :

اهابك اجلالاً وما بك قدرةٌ عليّ ولكن ملء عين حبيبها
وما هجرتك النفس انك عندها قليلٌ ولكن قلّ منك نصيبها

البحث السابع

في الاطناب

(من كتاب الصناعتين للعسكري)

(راجع صفحة ٧٦ من علم الادب)

قَالَ اَصحَابُ ٱلاِطْنَابِ: ٱلْمَنطِقُ اِنَّمَا هُوَ بَيَانٌ وَٱلْبَيَانُ لَا يَكُونُ اِلَّا بِإِشْبَاعِ وَٱلشِّفَاءُ لَا يَقَعُ اِلَّا بِٱلاِقْنَاعِ . وَأَفْضَلُ ٱلْكَلَامِ اَبْيَنُهُ وَاَبْيَنُهُ اَشَدُّهُ اِحَاطَةً بِٱلْمَعَانِي وَلَا يُحَاطُ بِٱلْمَعَانِي اِحَاطَةً تَامَّةً اِلَّا بِٱلاَسْتِقْصَاءِ. وَٱلْاِيجَازُ لِلْخَوَاصِّ وَٱلْاِطْنَابُ مُشْتَرِكٌ فِيهِ ٱلْخَاصَّةُ وَٱلْعَامَّةُ وَٱلْعَيِيُّ وَٱلْفَطِنُ وَٱلرَّيِّضُ وَٱلْمُرْتَاضُ وَلِمَعْنًى مَا اُطِيلَتِ ٱلْكُتُبُ ٱلسُّلْطَانِيَّةُ فِي اِفْهَامِ ٱلرَّعَايَا. وَٱلْقَوْلُ ٱلْقَصْدُ اَنَّ ٱلْاِيجَازَ وَٱلْاِطْنَابَ يُحْتَاجُ اِلَيْهِمَا فِي جَمِيعِ ٱلْكَلَامِ وَكُلِّ نَوْعٍ مِنْهُ وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَوْضِعٌ فَٱلْحَاجَةُ اِلَى ٱلْاِيجَازِ فِي مَوْضِعِهِ كَٱلْحَاجَةِ اِلَى ٱلْاِطْنَابِ فِي مَكَانِهِ. فَمَنْ اَزَالَ ٱلتَّدْبِيرَ فِي ذٰلِكَ عَنْ وَجْهِهِ فَٱسْتَعْمَلَ ٱلْاِطْنَابَ فِي مَوْضِعِ ٱلْاِيجَازِ وَٱسْتَعْمَلَ ٱلْاِيجَازَ فِي مَوْضِعِ ٱلْاِطْنَابِ اَخْطَاَ . كَمَا رُوِيَ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى اَنَّهُ قَالَ مَعَ عُجْبِهِ بِٱلْاِيجَازِ : مَتَى كَانَ ٱلْاِيجَازُ اَبْلَغَ كَانَ ٱلْاِكْثَارُ عِيًّا وَمَتَى كَانَتِ ٱلْكِتَابَةُ فِي مَوْضِعِ ٱلْاِكْثَارِ كَانَ ٱلْاِيجَازُ تَقْصِيرًا . وَاَمَرَ خَالِدُ بْنُ يَحْيَى ٱثْنَيْنِ اَنْ يَكْتُبَا كِتَابًا وَاحِدًا فِي مَعْنًى وَاحِدٍ فَاَطَالَ اَحَدُهُمَا وَٱخْتَصَرَ ٱلْآخَرُ . فَقَالَ لِلْمُخْتَصِرِ وَقَدْ نَظَرَ فِي كِتَابِهِ : مَا اَرَى مَوْضِعَ مَزِيدٍ . وَقَالَ لِلْمُطِيلِ : مَا

اَرَى مَوْضِعَ نُقْصَانٍ . وَقَالَ غَيْرُهُ : اَلْبَلَاغَةُ ٱلْإِيجَازُ فِي غَيْرِ عَجْزٍ وَٱلْإِطْنَابُ فِي غَيْرِ خَطَلٍ . وَلَا شَكَّ فِي اَنَّ ٱلْكُتُبَ ٱلصَّادِرَةَ عَنِ ٱلسَّلَاطِينِ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْجَسِيمَةِ وَٱلْفُتُوحِ ٱلْجَلِيلَةِ وَتَفْخِيمِ ٱلنِّعَمِ ٱلْحَادِثَةِ اَوِ ٱلتَّرْغِيبِ فِي ٱلطَّاعَةِ وَٱلنَّهْيِ عَنِ ٱلْمَعْصِيَةِ . سَبِيلُهَا اَنْ تَكُونَ مُشْبَعَةً مُسْتَقْصَاةً تَمْلَأُ ٱلصُّدُورَ وَتَأْخُذُ بِمَجَامِعِ ٱلْقُلُوبِ . فَٱلْإِطْنَابُ بَلَاغَةٌ وَٱلتَّطْوِيلُ عِيٌّ . لِاَنَّ ٱلتَّطْوِيلَ بِمَنْزِلَةِ سُلُوكِ مَا يَبْعُدُ جَهْلًا بِمَا يَقْرُبُ . وَٱلْإِطْنَابُ بِمَنْزِلَةِ سُلُوكِ طَرِيقٍ بَعِيدٍ نَزِهٍ يَحْتَوِي عَلَى زِيَادَةِ فَائِدَةٍ . وَقَالَ ٱلْخَلِيلُ : يُخْتَصَرُ ٱلْكِتَابُ لِيُحْفَظَ وَيُبْسَطُ لِيُفْهَمَ . وَقِيلَ لِاَبِي عَمْرِو ٱبْنِ ٱلْعَلَاءِ هَلْ كَانَتِ ٱلْعَرَبُ تُطِيلُ . قَالَ : نَعَمْ كَانَتْ تُطِيلُ لِيُسْمَعَ مِنْهَا وَتُوجِزُ لِيُحْفَظَ عَنْهَا . وَٱلْإِطْنَابُ اِذَا لَمْ يَكُنْ مِنْهُ بُدٌّ اِيجَازٌ وَهُوَ فِي ٱلْمَوَاعِظِ خَاصَّةً مَحْمُودٌ كَمَا اَنَّ ٱلْإِيجَازَ فِي ٱلْإِفْهَامِ مَحْمُودٌ مَمْدُوحٌ . وَٱلْمَوْعِظَةُ كَقَوْلِهِ : اَفَاَمِنَ اَهْلُ ٱلْقُرَى اَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ . اَوَ اَمِنَ اَهْلُ ٱلْقُرَى اَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ اَفَاَمِنُوا مَكْرَ ٱللّٰهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللّٰهِ اِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَاسِرُونَ . فَتَكْرِيرُ مَا كُرِّرَ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ هَاهُنَا فِي غَايَةِ حُسْنِ ٱلْمَوْقِعِ . وَقِيلَ لِبَعْضِهِمْ : مَتَى يُحْتَاجُ اِلَى ٱلْإِكْثَارِ . قَالَ : اِذَا عَظُمَ ٱلْخَطْبُ وَاَنْشَدَ :

صَمُوتٌ اِذَا مَا ٱلدَّهْرُ زَيَّنَ اَهْلَهُ وَفَتَّاقُ اَبْكَارِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُحَبَّرِ

وَقَالَ آخَرُ :

يَرْمُونَ بِٱلْخُطَبِ ٱلطِّوَالِ وَتَارَةً وَحْيِ ٱلْمَلَاحِظِ خَشْيَةَ ٱلرُّقَبَاءِ

وَقَالَ بَعْضُهُمْ :

إِذَا مَا ٱبْتَدَى خَاطِبًا لَمْ يُقَلْ ... لَهُ أَطِلِ ٱلْقَوْلَ أَوْ قَصِّرِ
طَبِيبٌ بِدَاءِ فُنُونِ ٱلْكَلَا ... مِ لَمْ يَعْيَ يَوْمًا وَلَمْ يَهْذِرِ
فَإِنْ هُوَ أَطْنَبَ فِي خُطْبَةٍ ... قُضِي لِلْمُطِيلِ عَلَى ٱلْمُقْصِرِ
وَإِنْ هُوَ أَوْجَزَ فِي خُطْبَةٍ ... قُضِي لِلْمُقِلِّ عَلَى ٱلْمُكْثِرِ

وَوَجَدَ ٱلنَّاسَ إِذَا خَطَبُوا فِي ٱلصُّلْحِ بَيْنَ ٱلْعَشَائِرِ أَطَالُوا . وَإِذَا أَنْشَدُوا ٱلشِّعْرَ بَيْنَ ٱلسِّمَاطَيْنِ فِي مَدِيحِ ٱلْمُلُوكِ أَطْنَبُوا . وَٱلْإِطَالَةُ وَٱلْإِطْنَابُ فِي هٰذِهِ ٱلْمَوَاضِعِ إِيجَازٌ . وَقِيلَ لِقَيْسِ بْنِ خَارِجَةَ : مَا عِنْدَكَ فِي حَمَالَاتِ دَاحِسٍ . قَالَ : عِنْدِي قِرَى كُلِّ نَازِلٍ وَرِضَى كُلِّ سَاخِطٍ وَخُطْبَةٌ مِنْ لَدُنْ مَطْلَعِ ٱلشَّمْسِ إِلَى أَنْ تَغْرُبَ آمُرُ فِيهَا بِٱلتَّوَاصُلِ وَأَنْهَى عَنِ ٱلتَّقَاطُعِ . فَقِيلَ لِأَبِي يَعْقُوبَ ٱلْخُرَيْمِيِّ : هَلَّا ٱكْتَفَى بِقَوْلِهِ : آمُرُ فِيهَا بِٱلتَّوَاصُلِ فَقَالَ : وَأَنْهَى عَنِ ٱلتَّقَاطُعِ) . قَالَ : أَوَ مَا عَلِمْتَ أَنَّ ٱلْكِنَايَةَ وَٱلتَّعْرِيضَ لَا تَعْمَلُ عَمَلَ ٱلْإِطْنَابِ وَٱلتَّكْشِيفِ . وَقَدْ رَأَيْنَا فِي ٱلْقُرْآنِ أَنَّهُ : إِذَا خَاطَبَ ٱلْعَرَبَ وَٱلْأَعْرَابَ أَخْرَجَ ٱلْكَلَامَ مُخْرَجَ ٱلْإِشَارَةِ . وَإِذَا خَاطَبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَوْ حَكَى عَنْهُمْ جَعَلَ ٱلْكَلَامَ مَبْسُوطًا . وَقَلَّ مَا تَجِدُ قِصَّةً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فِي ٱلْقُرْآنِ إِلَّا مُطَوَّلَةً مَشْرُوحَةً وَمُكَرَّرَةً فِي مَوَاضِعَ مُعَادَةً لِبُعْدِ فَهْمِهِمْ وَتَأَخُّرِ مَعْرِفَتِهِمْ . وَكَلَامُ ٱلْفُصَحَاءِ إِنَّمَا هُوَ شَوْبُ ٱلْإِيجَازِ بِٱلْإِطْنَابِ . وَٱلْفَصِيحُ ٱلْعَالِي مَا دُونَ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْقَصْدِ ٱلْمُتَوَسِّطِ لِيُسْتَدَلَّ بِٱلْقَصْدِ عَلَى ٱلْعَالِي وَلِيَخْرُجَ ٱلسَّامِعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ فَيَزْدَادَ

نَشَاطُهُ وَتَتَوَفَّرَ رَغْبَتُهُ فَيَتَصَرَّفُوا فِي وُجُوهِ ٱلْكَلَامِ إِيجَازِهِ وَإِطْنَابِهِ حَتَّى ٱسْتَعْمَلُوا ٱلتَّكْرَارَ لِتَوَكُّدِ ٱلْقَوْلِ لِلسَّامِعِ . وَقَدْ جَاءَ فِي ٱلْقُرْآنِ وَفِي فَصِيحِ ٱلشِّعْرِ مِنْهُ شَيْءٌ كَثِيرٌ فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُهُ : كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . وَقَدْ جَاءَ مِثْلُ ذٰلِكَ عَنْ أَهْلِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ . قَالَ مُهَلْهِلٌ :

عَلَى أَنْ لَيْسَ عَدْلًا مِنْ كُلَيْبٍ

فَكَرَّرَهَا فِي أَكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ بَيْتًا . وَهٰكَذَا قَوْلُ ٱلْحَرْثِ ٱبْنِ عَبَّادٍ :

قَرِّبَا مَرْبَطَ ٱلنَّعَامَةِ مِنِّي

كَرَّرَهَا فِي أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ هٰذَا لَمَّا كَانَتِ ٱلْحَاجَةُ إِلَى تَكْرِيرِهَا مَاسَّةً وَٱلضَّرُورَةُ إِلَيْهِ دَاعِيَةً لِعِظَمِ ٱلْخَطْبِ وَشِدَّةِ مَوْقِعِ ٱلْفَجِيعَةِ فَهٰذَا يَدُلُّكَ عَلَى أَنَّ ٱلْإِطْنَابَ فِي مَوْضِعِهِ عِنْدَهُمْ مُسْتَحْسَنٌ . كَمَا أَنَّ ٱلْإِيجَازَ فِي مَكَانِهِ مُسْتَحَبٌّ وَلَا بُدَّ لِلْكَاتِبِ فِي أَكْثَرِ أَنْوَاعِ مُكَاتَبَاتِهِ مِنْ شُعْبَةٍ مِنَ ٱلْإِطْنَابِ يَسْتَعْمِلُهَا إِذَا أَرَادَ ٱلْمُزَاوَجَةَ بَيْنَ ٱلْفَصْلَيْنِ وَلَا يُعَاقَبُ ذٰلِكَ مِنْهُ. وَذٰلِكَ مِثْلُ أَنْ يَكْتُبَ عَظُمَتْ نِعَمُنَا عَلَيْهِ وَتَظَاهَرَ إِحْسَانُنَا لَدَيْهِ فَيَكُونُ ٱلْفَصْلُ ٱلْأَخِيرُ دَاخِلًا فِي مَعْنَاهُ فِي ٱلْفَصْلِ ٱلْأَوَّلِ وَهُوَ مُسْتَحْسَنٌ لَا يَعِيبُهُ أَحَدٌ . وَلَمَّا أُحِيطَ بِمَرْوَانَ قَالَ خَادِمُهُ بَاسِلٌ : مَنْ أَغْفَلَ ٱلْقَلِيلَ حَتَّى يَكْثُرَ وَٱلصَّغِيرَ حَتَّى يَكْبُرَ وَٱلْخَفِيَّ حَتَّى يَظْهَرَ أَصَابَهُ مِثْلُ هٰذَا . وَهٰذَا كَلَامٌ فِي غَايَةِ ٱلْحُسْنِ وَإِنْ كَانَ مَعْنَى ٱلْفَصْلَيْنِ ٱلْأَخِيرَيْنِ دَاخِلًا فِي ٱلْفَصْلِ ٱلْأَوَّلِ .

وَهٰكَذَا قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ حَبِيبِ بْنِ أَوْسٍ :

رُبَّ خَفْضٍ تَحْتَ ٱلسُّرَى وَغَنَاءٍ مِنْ عَنَاءٍ وَنَضْرَةٍ مِنْ شُحُوبِ

وَٱلْغَنَاءُ دَاخِلٌ فِي ٱلْخَفْضِ وَٱلْعَنَاءُ دَاخِلٌ فِي ٱلسُّرَى . وَهٰذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مُعْظَمَ ٱلْمَدَارِ فِي ٱلْبَلَاغَةِ عَلَى تَحْسِينِ ٱللَّفْظِ لِأَنَّ ٱلْمَعَانِيَ إِذَا دَخَلَ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ هٰذَا ٱلضَّرْبَ مِنَ ٱلدُّخُولِ وَكَانَتِ ٱلْأَلْفَاظُ مُخْتَارَةً حَسُنَ ٱلْكَلَامُ . وَإِذَا كَانَتِ ٱلْمَعَانِي مُرَتَّبَةً حَسَنَةً وَٱلْمَعَارِضُ سَيِّئَةً كَانَ ٱلْكَلَامُ مَرْدُودًا فَٱعْتَمِدْ عَلَى مَا مَثَّلْتُهُ لَكَ وَقِسْ عَلَيْهِ

البحث الثامن

في مواقع الاطناب

(من المثل السائر لابن الاثير باختصار وتصرُّف)

هٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْكَلَامِ أَنْعَمْتُ نَظَرِي فِيهِ وَفِي ٱلتَّكْرِيرِ وَفِي ٱلتَّطْوِيلِ فَمَلَكَتْنِي حَيْرَةُ ٱلشَّبَهِ بَيْنَهُمَا طَوِيلًا . ثُمَّ وَجَدْتُهُ إِنَّهُ ضَرْبٌ مُفْرَدٌ بِرَأْسِهِ لَا يُشَارِكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ . لِأَنَّ مِنَ ٱلتَّأْكِيدِ مَا يَتَعَلَّقُ بِٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ كَمَا مَرَّ وَهٰذَا ٱلضَّرْبُ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْإِطْنَابُ لَيْسَ كَذٰلِكَ . وَرَأَيْتُ عُلَمَاءَ ٱلْبَيَانِ قَدِ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَلْحَقَهُ بِٱلتَّطْوِيلِ ٱلَّذِي هُوَ ضِدُّ ٱلْإِيجَازِ وَهُوَ عِنْدَهُ قِسْمٌ غَيْرُهُ فَأَخْطَأَ مِنْ حَيْثُ لَا يَدْرِي كَأَبِي هِلَالٍ ٱلْعَسْكَرِيِّ وَٱلْغَانِمِيِّ حَتَّى أَنَّهُ قَالَ : إِنَّ كُتُبَ ٱلْفُتُوحِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهَا مِمَّا يُقْرَأُ عَلَى عَوَامِّ ٱلنَّاسِ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ مُطَوَّلَةً مُطْنَبًا فِيهَا . وَهٰذَا ٱلْقَوْلُ فَاسِدٌ لِأَنَّهُ إِنْ عَنَى

بذلك انها تكون ذات معانٍ متعددة قد استقصي فيها شرح تلك الحادثة من فتح او غيره فذلك مسلّم . وان عنى بذلك انها تكون مكرّرة المعاني مطوّلة الألفاظ قصدًا لإفهام العامة فهذا غير مسلّم . وهو مما لا يذهب اليه من عنده ادنى معرفة بعلم الفصاحة والبلاغة . وعلى هذا فينبغي ان تكون الكتب جميعها مما يقرأ على عوامّ الناس وخواصّهم ذات الفاظ سهلة مفهومة . وكذلك الاشعار والخطب ومن ذهب الى غير ذلك فانه بنجوة عن هذا الفن . وعلى هذا فانّ الاطناب لا يختصّ به عوامّ الناس وانما هو للخواصّ كما هو للعوامّ . وسأبيّن حقيقته وأحقق القول فيه بحيث تزول الشبهة التي خبط ارباب علم البيان من اجلها وقالوا اقوالا لا تعرب عن فائدة . والذي عندي فيه : انه اذا رجعنا الى الاسماء واشتقاقها وجدنا هذا الاسم مناسبا لمسمّاه وهو في اصل اللغة مأخوذ (من اطنب في الشيء) اذا بالغ فيه . ويقال : اطنبت الريح اذا اشتدّت في هبوبها . واطنب في السير اذا اشتدّ فيه . وعلى هذا فان حملناه على مقتضى مسمّاه كان معناه المبالغة في ايراد المعاني . وهذا لا يختصّ بنوع واحد من انواع علم البيان وانما يوجد فيها جميعا اذ ما من نوع منها الا ويمكن المبالغة فيه . واذا كان الامر كذلك فينبغي ان يفرد هذا النوع من بينها ولا يتحقق افراده الا بذكر حدّه الدالّ على حقيقته . والذي يحدّ به ان يقال : هو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة فهذا حدّه الذي يميّزه

عَنِ ٱلتَّطْوِيلِ إِذِ ٱلتَّطْوِيلُ هُوَ زِيَادَةُ ٱللَّفْظِ عَنِ ٱلْمَعْنَى لِغَيْرِ فَائِدَةٍ . وَأَمَّا ٱلتَّكْرِيرُ فَإِنَّهُ دَلَالَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى مُرَدَّدًا كَقَوْلِكَ لِمَنْ تَسْتَدْعِيهِ : أَسْرِعْ أَسْرِعْ . فَإِنَّ ٱلْمَعْنَى مُرَدَّدٌ وَٱللَّفْظَ وَاحِدٌ . وَٱلتَّكْرِيرُ جُزْءٌ مِنَ ٱلْإِطْنَابِ وَهُوَ أَخَصُّ مِنْهُ فَيُقَالُ حِينَئِذٍ : إِنَّ كُلَّ تَكْرِيرٍ يَأْتِي لِفَائِدَةٍ فَهُوَ إِطْنَابٌ وَلَيْسَ كُلُّ إِطْنَابٍ تَكْرِيرًا يَأْتِي لِفَائِدَةٍ . وَأَمَّا ٱلَّذِي يَأْتِي مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ لِغَيْرِ فَائِدَةٍ فَهُوَ جُزْءٌ مِنَ ٱلتَّطْوِيلِ وَهُوَ أَخَصُّ مِنْهُ . فَيُقَالُ حِينَئِذٍ : إِنَّ كُلَّ تَكْرِيرٍ يَأْتِي لِغَيْرِ فَائِدَةٍ تَطْوِيلٌ وَلَيْسَ كُلُّ تَطْوِيلٍ تَكْرِيرًا يَأْتِي لِغَيْرِ فَائِدَةٍ . وَكُنْتُ قَدَّمْتُ ٱلْقَوْلَ فِي بَابِ ٱلْإِيجَازِ بِأَنَّ ٱلْإِيجَازَ هُوَ دَلَالَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ عَلَيْهِ . وَإِذَا تَقَرَّرَتْ هٰذِهِ ٱلْحُدُودُ ٱلثَّلَاثَةُ ٱلْمُشَارُ إِلَيْهَا فَإِنَّ مِثَالَ ٱلْإِيجَازِ وَٱلْإِطْنَابِ وَٱلتَّطْوِيلِ مِثَالُ مَقْصِدٍ يُسْلَكُ إِلَيْهِ فِي ثَلَاثَةِ طُرُقٍ : فَٱلْإِيجَازُ هُوَ أَقْرَبُ ٱلطُّرُقِ ٱلثَّلَاثَةِ إِلَيْهِ وَٱلْإِطْنَابُ وَٱلتَّطْوِيلُ هُمَا ٱلطَّرِيقَانِ ٱلْمُتَسَاوِيَانِ فِي ٱلْبُعْدِ إِلَيْهِ . إِلَّا أَنَّ طَرِيقَ ٱلْإِطْنَابِ تَشْتَمِلُ عَلَى مُتَنَزَّهٍ مِنَ ٱلْمَنَازِهِ لَا يُوجَدُ فِي طَرِيقِ ٱلتَّطْوِيلِ وَٱلْإِطْنَابُ يُوجَدُ تَارَةً فِي ٱلْجُمْلَةِ ٱلْوَاحِدَةِ مِنَ ٱلْكَلَامِ وَيُوجَدُ تَارَةً فِي ٱلْجُمَلِ ٱلْمُتَعَدِّدَةِ وَٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱلْجُمَلِ ٱلْمُتَعَدِّدَةِ أَبْلَغُ لِٱتِّسَاعِ ٱلْمَجَالِ . وَعَلَى هٰذَا فَإِنَّهُ بِجُمْلَتِهِ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : (ٱلْقِسْمُ ٱلْأَوَّلُ) ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱلْجُمْلَةِ ٱلْوَاحِدَةِ مِنَ ٱلْكَلَامِ وَهُوَ يَرِدُ حَقِيقَةً وَمَجَازًا . أَمَّا (ٱلْحَقِيقَةُ) فَمِثْلُ قَوْلِهِمْ : رَأَيْتُهُ بِعَيْنِي وَقَبَضْتُهُ بِيَدِي وَوَطِئْتُهُ بِقَدَمِي وَذُقْتُهُ بِفَمِي . وَكُلُّ هٰذَا يَظُنُّ ٱلظَّانُّ أَنَّهُ زِيَادَةٌ لَا حَاجَةَ

إِلَيْهَا وَيَقُولُ : إِنَّ ٱلرُّؤْيَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا بِٱلْعَيْنِ وَٱلْقَبْضَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِٱلْيَدِ وَٱلْوَطْءَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِٱلْقَدَمِ وَٱلذَّوْقَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِٱلْفَمِ . وَلَيْسَ ٱلْأَمْرُ كَذٰلِكَ بَلْ هٰذَا يُقَالُ فِي كُلِّ شَيْءٍ يَعْظُمُ مِثَالُهُ وَيَعِزُّ ٱلْوُصُولُ إِلَيْهِ فَيُؤَكَّدُ ٱلْأَمْرُ فِيهِ عَلَى هٰذَا ٱلْوَجْهِ دَلَالَةً عَلَى نَيْلِهِ وَٱلْحُصُولِ عَلَيْهِ . وَأَمَّا مَا جَاءَ مِنْهُ (عَلَى سَبِيلِ ٱلْمَجَازِ) فَقَوْلُهُ : فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَارُ وَلٰكِنْ تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ . فَفَائِدَةُ ذِكْرِ ٱلصُّدُورِ هٰهُنَا أَنَّهُ قَدْ تُعُورِفَ وَعُلِمَ أَنَّ ٱلْعَمَى عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ مَكَانُهُ ٱلْبَصَرُ وَهُوَ أَنْ تُصَابَ ٱلْحَدَقَةُ بِمَا يَطْمِسُ نُورَهَا . وَٱسْتِعْمَالُهُ فِي ٱلْقَلْبِ تَشْبِيهٌ وَمَثَلٌ فَلَمَّا أُرِيدَ إِثْبَاتُ مَا هُوَ خِلَافُ ٱلْمُتَعَارَفِ مِنْ نِسْبَةِ ٱلْعَمَى إِلَى ٱلْقُلُوبِ حَقِيقَةً وَنَفْيُهُ عَنِ ٱلْأَبْصَارِ ٱحْتَاجَ هٰذَا ٱلْأَمْرُ إِلَى زِيَادَةِ تَصْوِيرٍ وَتَعْرِيفٍ لِيَتَقَرَّرَ أَنَّ مَكَانَ ٱلْعَمَى إِنَّمَا هُوَ ٱلْقُلُوبُ لَا ٱلْأَبْصَارُ . وَهٰذَا مَوْضِعٌ مِنْ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ كَثِيرَةٌ مَحَاسِنُهُ وَافِرَةٌ لَطَائِفُهُ وَٱلْمَجَازُ فِيهِ أَحْسَنُ مِنَ ٱلْحَقِيقَةِ لِمَكَانِ زِيَادَةِ ٱلتَّصْوِيرِ فِي إِثْبَاتِ وَصْفِ ٱلْحَقِيقِيِّ لِلْمَجَازِيِّ وَنَفْيِهِ عَنِ ٱلْحَقِيقِيِّ . (وَأَمَّا ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي) ٱلْمُخْتَصُّ بِٱلْجُمَلِ فَإِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عَلَى ضُرُوبٍ أَرْبَعَةٍ : (ٱلْأَوَّلُ) مِنْهَا أَنْ يُذْكَرَ ٱلشَّيْءُ فَيُؤْتَى فِيهِ بِمَعَانٍ مُتَدَاخِلَةٍ . إِلَّا أَنَّ كُلَّ مَعْنًى يَخْتَصُّ بِخَصِيصَةٍ لَيْسَتْ لِلْآخَرِ . وَذٰلِكَ كَقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ :

قَطَعَتْ إِلَيَّ ٱلزَّابِيَيْنِ هِبَاتُهُ ... وَٱلْتَاثَ مَأْمُورُ ٱلسَّحَابِ ٱلْمُسْبِلِ
مِنْ مِنَّةٍ مَشْهُورَةٍ وَصَنِيعَةٍ ... بِكْرٍ وَإِحْسَانٍ أَغَرَّ مُحَجَّلِ

فَقَوْلُهُ : (مِنْ مِنَّةٍ مَشْهُورَةٍ وَصَنِيعَةٍ بِكْرٍ وَإِحْسَانٍ أَغَرَّ مُحَجَّلِ)

تَداخلتْ معانِيهِ إذِ ٱلْمِنَّةُ وَٱلصَّنِيعةُ وَٱلْإِحسانُ مُتقارِبٌ بَعضُهُ مِنْ بَعضٍ ولَيسَ ذٰلكَ بتكريرٍ لِأَنَّهُ لو ٱقتصرَ على قولِهِ : مِنَّةٍ وَصَنِيعَةٍ وَإِحسانٍ لَجازَ أنْ يَكونَ تَكريرًا . ولٰكنَّهُ وَصَفَ كُلَّ واحِدةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلثَّلاثِ بِصِفةٍ أَخرجَتْها عَنْ حُكمِ ٱلتَّكريرِ فقالَ : (وِمنَّةٍ مَشهُورةٍ) فَوصفَها بِٱلاشتِهارِ لِعِظَمِ شأْنِها . (وَصَنِيعةٍ بِكْرٍ) فَوَصفَها بِٱلْبَكارةِ أيْ أنَّها لَمْ يُؤْتَ بِمِثْلِها مِنْ قَبلُ . (وَإِحسانٍ أَغَرَّ مُحَجَّلٍ) فَوَصفَهُ بِٱلغُرَّةِ وَٱلتَّحجيلِ أيْ هُوَ ذُو مَحاسِنَ مُتَعَدِّدةٍ . فَلَمَّا وَصَفَ هٰذِهِ ٱلْمَعانِيَ ٱلْمُتَداخِلةَ ٱلَّتي تَدُلُّ عَلَى شَيْءٍ واحِدٍ بِأَوْصافٍ مُتَبايِنةٍ صارَ ذٰلكَ إطنابًا وَلَمْ يَكُنْ تَكرِيرًا . وَلَمْ أَجِدْ في ضُرُوبِ ٱلْإِطنابِ أَحسَنَ مِنْ هٰذا ٱلْمَوْضِعِ وَلَا أَلْطَفَ . وَقَدِ ٱسْتَعمَلَهُ أَبُو تَمَّامٍ في شِعرِهِ كَثيرًا بِخِلافِ غَيرِهِ مِنَ ٱلشُّعَراءِ كَقَوْلِهِ :

ذَكِيٌّ سَجاياهُ تُضِيفُ ضُيُوفُهُ ... وَيُرْجَى مُرَجِّيهِ وَيُسْأَلُ سائِلُهْ

فَإِنَّ غَرَضَهُ مِنْ هٰذا ٱلْقَوْلِ إِنَّما هُوَ ذِكْرُ ٱلْمَمدُوحِ بِٱلْكَرَمِ وَكَثْرَةِ ٱلْعَطاءِ إِلَّا أَنَّهُ وَصَفَهُ بِصِفاتٍ مُتَعَدِّدةٍ فَجَعَلَ ضُيُوفَهُ تُضِيفُ وَراجِيَهُ يُرَجَّى وَسائِلَهُ يُسْأَلُ . وَلَيسَ هٰذا تَكرِيرًا لِأَنَّهُ لا يَلزَمُ مِنْ كَونِ ضُيُوفِهِ تُضِيفُ أَنْ تَكُونَ راجِيهِ مَرْجُوًّا وَلا أَنْ يَكُونَ سائِلُهُ مَسْئُولًا لِأَنَّ ضَيْفَهُ يَسْتَصْحِبُ ضَيفًا طَمَعًا فِي كَرَمِ مُضِيفِهِ وَسائِلَهُ يُسْئَلُ أَنْ يُعطِيَ ٱلسّائِلَ عَطاءً كَثيرًا يَصِيرُ بِهِ مُعطِيًا . وَراجِيهِ يُرَجَّى أَيْ أَنَّهُ إِذا تَعَلَّقَ بِهِ رَجاءُ راجٍ فَقَدْ أَيقَنَ بِٱلفَلاحِ وَٱلنَّجاحِ فَهُوَ حَقِيقٌ بِأَنْ يُرَجَّى لِمَكانِ رَجائِهِ إِيّاهُ . وَهٰذا أَبلَغُ ٱلْأَوْصافِ ٱلثَّلاثةِ . (ٱلضَّرْبُ

ٱلثَّانِي) يُسمَّى ٱلنَّفيَ وَٱلإِثبَاتَ وَهُوَ ان يُذكَرَ ٱلشَّيْء عَلَى سَبِيلِ ٱلنَّفيِ ثُمَّ يُذكَرَ عَلَى سَبِيلِ ٱلإِثبَاتِ اوْ بِٱلعَكسِ . وَلَا بُدَّ ان يَكُونَ فِي احَدِهِمَا زِيَادَةٌ لَيسَت فِي ٱلآخرِ وَإِلَّا كَانَ تَكرِيرًا . وَٱلغَرَضُ بِهِ تَأكِيدُ ذٰلِكَ ٱلمَعنَى ٱلمَقصُودِ . فَمِمَّا جَاءَ مِنهُ قَولُهُ : لَا يَستَأذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللهِ وَٱليَومِ ٱلآخِرِ ان يُجَاهِدُوا بِأَموَالِهِم وَانفُسِهِم وَٱللهُ عَلِيمٌ بِٱلمُتَّقِينَ . إِنَّمَا يَستَأذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللهِ وَٱليَومِ ٱلآخِرِ وَٱرتَابَت قُلُوبُهُم فَهُم فِي رَيبِهِم يَتَرَدَّدُونَ . وَٱعلَم انَّ لِهٰذَا ٱلضَّربِ مِنَ ٱلإِطنَابِ فَائِدَةً كَبِيرَةً وَهُوَ اوكَدُ وُجُوهِهِ أَلَا تَرَى انَّهُ قَالَ : لَا يَستَأذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللهِ وَٱليَومِ ٱلآخِرِ ان يُجَاهِدُوا بِأَموَالِهِم وَانفُسِهِم . ثُمَّ قَالَ : إِنَّمَا يَستَأذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللهِ وَٱليَومِ ٱلآخِرِ . وَٱلمَعنَى فِي ذٰلِكَ سَوَاءٌ إِلَّا انَّهُ زَادَ فِي ٱلثَّانِيَةِ قَولَهُ : وَٱرتَابَت قُلُوبُهُم فَهُم فِي رَيبِهِم يَتَرَدَّدُونَ . وَلَولَا هٰذِهِ ٱلزِّيَادَةُ لَكَانَ حُكمُ هٰذَينِ ٱلقَولَينِ حُكمَ ٱلتَّكرِيرِ . وَهٰذَا ٱلمَوضِعُ يَنبَغِي ان يُتَأَمَّلَ وَيُنعَمَ ٱلنَّظَرُ فِيهِ . (ٱلضَّربُ ٱلثَّالِثُ) هُوَ ان يُذكَرَ ٱلمَعنَى ٱلوَاحِدُ تَامًّا لَا يَحتَاجُ إِلَى زِيَادَةٍ ثُمَّ يُضرَبَ لَهُ مِثَالٌ مِنَ ٱلتَّشبِيهِ . كَقَولِ ٱلبُحتُرِيِّ :

تَرَدَّدَ فِي خُلقَي سُؤدَدٍ ... سَمَاحًا مُرَجًّى وَبَأسًا مَهِيبَا

فَكَالسَّيفِ إِن جِئتَهُ صَارِخًا ... وَكَالبَحرِ إِن جِئتَهُ مُستَثِيبَا

فَٱلبَيتُ ٱلثَّانِي يَدُلُّ عَلَى ٱلأَوَّلِ لِأَنَّ ٱلبَحرَ وَٱلسَّيفَ لِلبَأسِ ٱلمَهِيبِ إِلَّا انَّ فِي ٱلثَّانِي زِيَادَةَ ٱلتَّشبِيهِ ٱلَّتِي تُفِيدُ تَخيِيلًا وَتَصوِيرًا .

(اَلضَّرْبُ ٱلرَّابِعُ) اَنْ يَستَوْفِيَ مَعَانِيَ ٱلغَرَضِ ٱلْمَقصُودِ مِنْ كِتَابٍ اَوْ خُطْبَةٍ اَوْ قَصِيدَةٍ . وَهٰذَا اَصعَبُ ٱلضُّرُوبِ ٱلْاَرْبَعَةِ طَرِيقًا اَوْ اَضيَقُهَا بَابًا لِاَنَّهُ يَتَفَرَّعُ اِلَى اَسَالِيبَ كَثِيرَةٍ مِنَ ٱلْمَعَانِي وَاَرْبَابُ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ يَتَفَاوَتُونَ فِيهِ وَلَيسَ ٱلْخَاطِرُ ٱلَّذِي يَقْذِفُ بِٱلدُّرَرِ فِي مِثْلِهِ اِلَّا مَعْدُومَ ٱلْوُجُودِ وَمِثَالُهُ وَمِثَالُ ٱلْاِيجَازِ مِثَالُ مُجْمَلٍ وَمُفَصَّلٍ . وَقَدْ تَقَدَّمَ ٱلقَوْلُ بِاَنَّ ٱلْاِيجَازَ وَٱلْاِطْنَابَ وَٱلتَّطْوِيلَ بِمَنْزِلَةِ مَقْصَدٍ يُسْلَكُ اِلَيْهِ بِثَلَاثَةِ طُرُقٍ : وَقَدْ اَوْرَدتُّ هٰهُنَا مِثَالًا لِهٰذِهِ ٱلْاَسَالِيبِ ٱلثَّلَاثَةِ وَجَعَلْتُهَا عَلَى هَيْئَةِ ٱلْمَقْصَدِ ٱلَّذِي تُسْلَكُ اِلَيْهِ ٱلطُّرُقُ ٱلثَّلَاثَةُ ... فَاَقُولُ : قَدْ وَرَدَ فِي بَابِ ٱلْاِيجَازِ كِتَابٌ كَتَبَهُ طَاهِرُ بْنُ ٱلْحُسَيْنِ اِلَى ٱلْمَاْمُونِ يُخْبِرُهُ بِهَزِيمَةِ عِيسَى بْنِ مَاهَانَ وَقَتْلِهِ اِيَّاهُ وَهُوَ : كِتَابِي اِلَى اَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَرَاْسُ عِيسَى بْنِ مَاهَانَ بَيْنَ يَدَيَّ وَخَاتَمُهُ فِي يَدِي وَعَسْكَرُهُ مُصَرَّفٌ تَحْتَ اَمْرِي وَٱلسَّلَامُ . وَهٰذَا كِتَابٌ جَامِعٌ لِلْمَعْنَى شَدِيدُ ٱلْاِخْتِصَارِ . وَاِذَا كُتِبَ مَا هُوَ مَعْنَاهُ عَلَى وَجْهِ ٱلْاِطْنَابِ قِيلَ فِيهِ مَا اَذْكُرُهُ وَهُوَ مَا اَنْشَاْتُهُ مِثَالًا فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ لِيُعْلَمَ بِهِ ٱلْفَرْقُ بَيْنَ ٱلْاِيجَازِ وَٱلْاِطْنَابِ وَهُوَ : اَصْدَرَ كِتَابَهُ هٰذَا وَقَدْ نُصِرَ بِٱلْفِئَةِ ٱلْقَلِيلَةِ عَلَى ٱلْفِئَةِ ٱلْكَثِيرَةِ وَٱنْقَلَبَ بِاَيْدِ ٱلْمَلَاْىَ وَٱلْعَيْنِ ٱلْقَرِيرَةِ وَكَانَ ٱنْتِصَارُهُ بِجَدِّ اَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَا بِجَدِّ نَصْلِهِ وَٱلْجَدُّ اَغْنَى مِنَ ٱلْجَيْشِ . وَاِنْ كَثُرَتْ اَمْدَادُ خَيْلِهِ وَرَجْلِهِ وَجِيءَ بِرَاْسِ عِيسَى بْنِ مَاهَانَ وَهُوَ عَلَى جَسَدٍ غَيْرِ جَسَدِهِ وَلَيْسَ لَهُ قَدَمٌ فَيُقَالَ اِنَّهُ يَسْعَى بِقَدَمِهِ . وَلَا يَدٌ فَيُقَالَ اِنَّهُ يَبْطُشُ بِيَدِهِ . وَلَقَدْ طَالَ وَطُولُهُ

مُؤْذِنٌ بِقِصَرِ شَأْنِهِ وَحَسَدَتِ ٱلضِّبَاعُ ٱلطَّائِرَ عَلَى مَكَانِهَا مِنْهُ وَهُوَ غَيْرُ مَحْسُودٍ عَلَى مَكَانِهِ. وَأُحْضِرَ خَاتَمُهُ وَهُوَ ٱلْخَاتَمُ ٱلَّذِي كَانَ ٱلْأَمْرُ يَجْرِي عَلَى نَقْشِ أَسْطُرِهِ. وَكَانَ يَرْجُو أَنْ يُصَدِّرَ كِتَابَ ٱلْفَتْحِ بِخَتْمِهِ فَحَالَ وُرُودُ ٱلْمَنِيَّةِ دُونَ مَصْدَرِهِ. وَكَذٰلِكَ ٱلْبَغْيُ مَرْتَعُهُ وَبِيلٌ. وَمَصْرَعُهُ جَلِيلٌ وَسَيْفُهُ وَإِنْ مَضَى فَإِنَّهُ عِنْدَ ٱلضَّرْبِ كَلِيلٌ. وَٱلْعَسَاكِرُ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَى أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرْبًا صَارَتْ لَهُ سِلْمًا وَأَعْطَتْهُ ٱلْبَيْعَةَ عِلْمًا بِفَضْلِهِ وَلَيْسَ مَنْ تَابَعَ تَقْلِيدًا كَمَنْ هُوَ تَابِعٌ عِلْمًا. وَهُمُ ٱلْآنَ مُصَرَّفُونَ تَحْتَ ٱلْأَوَامِرِ مُمْتَحَنُونَ بِكَشْفِ ٱلسَّرَائِرِ مُطِيعُونَ بِٱللِّوَاءِ ٱلَّذِي خَصَّهُ ٱللهُ بِٱسْتِفْتَاحِ ٱلْمَقَالِدِ وَٱسْتِيطَاءِ ٱلْمَنَابِرِ وَعَلَى ٱللهِ إِتْمَامُ ٱلنِّعَمِ ٱلَّتِي ٱفْتَتَحَهَا وَإِجَابَةُ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِلَى مُقْتَرَحَاتِهِ ٱلَّتِي ٱقْتَرَحَهَا وَٱلسَّلَامُ. وَهٰذَا ٱلْكِتَابُ يَشْتَمِلُ عَلَى مَا ٱشْتَمَلَ عَلَيْهِ كِتَابُ طَاهِرِ بْنِ ٱلْحُسَيْنِ مِنَ ٱلْمَعْنَى إِلَّا أَنَّهُ فَصَّلَ ذٰلِكَ ٱلْإِجْمَالَ. وَلَوْ كُتِبَتْ عَلَى وَجْهِ ٱلتَّطْوِيلِ ٱلَّذِي لَا فَائِدَةَ فِيهِ لَقِيلَ: أُصْدِرَ كِتَابُهُ فِي يَوْمِ كَذَا مِنْ شَهْرِ كَذَا وَٱلْتَقَى عَسْكَرُ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَعَسْكَرُ عَدُوِّ ٱلْبَاغِي. وَتَطَاعَنَ ٱلْفَرِيقَانِ وَتَزَاحَفَ ٱلْجَمْعَانِ. وَحَمِيَ ٱلْقِتَالُ وَٱشْتَدَّ ٱلنِّزَالُ. وَتَرَادَفَتِ ٱلْكَتَائِبُ وَتَلَاحَقَتِ ٱلْمَقَانِبُ. وَقُتِلَ عِيسَى بْنُ مَاهَانَ وَٱحْتُزَّ رَأْسُهُ وَنُزِعَ ٱلْخَاتَمُ مِنْ يَدِهِ وَخُلِعَ وَتُرِكَ جَسَدُهُ طَعَامًا لِلطُّيُورِ وَٱلسِّبَاعِ وَٱلذِّئَابِ وَٱلضِّبَاعِ. وَٱنْجَلَتِ ٱلْوَقْعَةُ عَنْ غَلَبِ ٱلْخَلِيفَةِ وَنَصْرِهِ وَخِذْلَانِ عَدُوِّهِ وَقَهْرِهِ وَٱلسَّلَامُ. فَهٰذَا ٱلْكِتَابُ يَشْتَمِلُ عَلَى تَطْوِيلٍ لَا فَائِدَةَ فِيهِ لِأَنَّهُ كَرَّرَ فِيهِ مَعَانِيَ يَتِمُّ ٱلْغَرَضُ بِدُونِهَا. فَٱنْظُرْ إِلَى هٰذِهِ ٱلْكُتُبِ ٱلثَّلَاثَةِ وَتَأَمَّلْهَا وَقِسْ عَلَيْهَا مَا يَأْتِي مِنْهَا

الفصل السابع

في البديع

البحث الاول

في حقيقة علم البديع

(عن ابن جابر الاندلسي والحاج خلفا)

(راجع صفحة ٦٦ من علم الادب)

اَلْبَدِيعُ مَأْخُوذٌ مِنْ بَدَعَ ٱلشَّيْءَ يَبْدَعُهُ بَدْعًا إِذَا أَنْشَأَهُ وَبَدَأَهُ. وَيُقَالُ ٱبْتَدَعَ ٱلشَّيْءَ إِذَا ٱخْتَرَعَهُ مِنْ غَيْرِ مِثَالٍ . وَٱلْبَدِيعُ يُطْلَقُ بِإِزَاءِ مَعَانٍ يُقَالُ هٰذَا بَدِيعٌ أَيْ مُحْدَثٌ عَجِيبٌ فَيَكُونُ فِي صِيغَةِ ٱلْمَفْعُولِ وَيَكُونُ أَيْضًا مِنْ صِيغَةِ ٱلْفَاعِلِ. وَمِنْهُ ٱلْبَدِيعُ فِي أَسْمَاءِ ٱللهِ تَعَالَى لِإِبْدَاعِهِ ٱشْيَاءَ وَإِحْدَاثِهِ إِيَّاهَا مِنْ غَيْرِ مِثَالٍ. وَٱلْبَدِيعُ أَيْضًا ٱلْجَدِيدُ يُقَالُ : سِقَاءٌ بَدِيعٌ وَحَبْلٌ بَدِيعٌ أَيْ جَدِيدَانِ. وَيُقَالُ : أَبْدَعَ ٱلشَّاعِرُ إِذَا صَنَعَ ٱلْبَدِيعَ فِي شِعْرِهِ . وَأَمَّا ٱلْبَدِيعُ ٱصْطِلَاحًا فَهُوَ عِلْمٌ يُعْرَفُ بِهِ وُجُوهُ تَحْسِينِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُطَابِقِ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ ٱلْمَعْلُومَةِ كَيْفِيَّةُ طُرُقِهِ فِي ٱلدَّلَالَةِ وُضُوحًا وَخَفَاءً . فَقَوْلُهُ : (عِلْمٌ) جِنْسٌ دَخَلَ تَحْتَهُ كُلُّ عِلْمٍ . وَقَوْلُهُ : (يُعْرَفُ بِهِ وُجُوهُ تَحْسِينِ ٱلْكَلَامِ) فَصْلٌ أَخْرَجَ بِهِ ٱلْعُلُومَ كُلَّهَا مَا عَدَا عِلْمَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ وَمَا تَرَكَّبَ مِنْهَا لِأَنَّ غَيْرَهُمَا مِنَ ٱلْعُلُومِ لَا يُعْرَفُ بِهِ وُجُوهُ تَحْسِينِ ٱلْكَلَامِ. وَقَوْلُهُ :

(ٱلْمُطَابِقُ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ) فَصْلٌ اَخْرَجَ بِهِ ٱلْعِلْمَ بِوُجُوهِ تَحْسِينِ ٱلْكَلَامِ ٱلَّذِي لَمْ يُطَابِقْ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ فَاِنَّ هٰذَا لَا يُسَمَّى بَدِيعًا . وَقَوْلُهُ : (ٱلْمَعْلُومَةِ كَيْفِيَّةُ طُرُقِهِ اِلَى آخِرِهِ) فَصْلٌ اَخْرَجَ بِهِ ٱلْعِلْمَ بِوُجُوهِ تَحْسِينِ ٱلْكَلَامِ ٱلَّذِي يُطَابِقُ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ وَلَمْ يَذْكُرْ كَيْفِيَّاتِ طُرُقِ دَلَالَتِهِ فَاِنَّ هٰذَا لَا يُسَمَّى بَدِيعًا . فَتَحَصَّلَ مِنْ هٰذَا ٱلْحَدِّ اَنَّ ٱلْعِلْمَ بِوُجُوهِ تَحْسِينِ ٱلْكَلَامِ لَا يُسَمَّى بَدِيعًا اِلَّا بِشَرْطَيْنِ : اَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامُ مُطَابِقًا لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ . وَاَنْ تَكُونَ كَيْفِيَّاتُ طُرُقِ دَلَالَتِهِ مَعْلُومَةَ ٱلْوُضُوحِ وَٱلْخَفَاءِ . فَٱلشَّرْطُ ٱلْاَوَّلُ هُوَ عِلْمُ ٱلْمَعَانِي. وَٱلشَّرْطُ ٱلثَّانِي هُوَ عِلْمُ ٱلْبَيَانِ فَاِنْ عُدِمَ ٱلشَّرْطَانِ اَوْ اَحَدُهُمَا مِنَ ٱلْكَلَامِ لَمْ يَكُنِ ٱلْعِلْمُ بِوُجُوهِ تَحْسِينِ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامِ بَدِيعًا . اَمَّا (مَرْتَبَةُ) هٰذَا ٱلْعِلْمِ فَبَعْدَ مَرْتَبَةِ عِلْمَيِ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ حَتَّى اِنَّ بَعْضَهُمْ لَمْ يَجْعَلْهُ عِلْمًا عَلَى حِدَةٍ فَتَأَمَّلْ . وَظَهَرَ مِنْ هٰذَا مَوْضُوعُهُ وَغَرَضُهُ وَغَايَتُهُ . وَاَمَّا مَنْفَعَتُهُ فَاِظْهَارُ رَوْنَقِ ٱلْكَلَامِ حَتَّى يَلِجَ ٱلْاُذُنَ بِغَيْرِ اَذًى وَيَتَعَلَّقَ بِٱلْقَلْبِ مِنْ غَيْرِ كَدٍّ وَاِنَّمَا دَوَّنُوا هٰذَا ٱلْعِلْمَ لِاَنَّ ٱلْاَصْلَ وَاِنْ كَانَ ٱلْحُسْنَ ٱلذَّاتِيَّ وَكَانَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانُ مِمَّا يَكْفِي فِي تَحْصِيلِهِ لٰكِنَّهُمْ اعْتَنَوْا بِشَأْنِ ٱلْحُسْنِ ٱلْعَرَضِيِّ اَيْضًا لِاَنَّ ٱلْحُسْنَ اِذَا عَرِيَ مِنَ ٱلْمُزَيِّنَاتِ رُبَّمَا يَذْهَلُ بَعْضُ ٱلْقَاصِرِينَ عَنْ تَتَبُّعِ مَحَاسِنِهِ فَيَفُوتُ ٱلتَّمَتُّعُ بِهِ



البحث الثاني

في ان البديع احد علوم الادب الستة

(عن بديعية العميان)

وَذٰلِكَ اَنَّكَ اِذَا نَظَرْتَ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْعَرَبِيِّ اِمَّا اَنْ تَبْحَثَ عَنِ ٱلْمَعْنَى ٱلَّذِي وُضِعَ لَهُ ٱللَّفْظُ وَهُوَ عِلْمُ ٱللُّغَةِ . وَاِمَّا اَنْ تَبْحَثَ عَنْ ذَاتِ ٱللَّفْظِ بِحَسَبِ مَا يَعْتَرِيهِ مِنَ ٱلْحَذْفِ وَٱلْقَلْبِ وَٱلْبَدَلِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ وَهُوَ عِلْمُ ٱلتَّصْرِيفِ . وَاِمَّا اَنْ تَبْحَثَ عَنِ ٱلْمَعْنَى ٱلَّذِي يُفْهَمُ مِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُرَكَّبِ بِحَسَبِ ٱخْتِلَافِ اَوَاخِرِ ٱلْكَلِمِ وَهُوَ عِلْمُ ٱلْعَرَبِيَّةِ . وَاِمَّا اَنْ تَبْحَثَ عَنْ مُطَابَقَةِ ٱلْكَلَامِ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ بِحَسَبِ ٱلْوَضْعِ ٱللُّغَوِيِّ وَهُوَ عِلْمُ ٱلْمَعَانِي . وَاِمَّا اَنْ تَبْحَثَ عَنْ طُرُقِ دَلَالَةِ ٱلْكَلَامِ اِيضَاحًا وَخَفَاءً بِحَسَبِ ٱلدَّلَالَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ وَهُوَ عِلْمُ ٱلْبَيَانِ . وَاِمَّا اَنْ تَبْحَثَ عَنْ وُجُوهِ تَحْسِينِ ٱلْكَلَامِ وَهُوَ عِلْمُ ٱلْبَدِيعِ . فَٱلْعُلُومُ ٱلثَّلَاثَةُ ٱلْاُوَلُ لَا يُسْتَشْهَدُ عَلَيْهَا اِلَّا بِكَلَامِ ٱلْعَرَبِ نَظْمًا وَنَثْرًا . لِاَنَّ ٱلْمُعْتَبَرَ فِيهَا اَلْفَاظُهُ . وَٱلْعُلُومُ ٱلثَّلَاثَةُ ٱلْآخِرَةُ يُسْتَشْهَدُ عَلَيْهَا بِكَلَامِ ٱلْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ ٱلْمُوَلَّدِينَ لِاَنَّهَا رَاجِعَةٌ اِلَى ٱلْمَعَانِي وَلَا فَرْقَ فِيهَا فِي ذٰلِكَ بَيْنَ ٱلْعَرَبِ وَٱلْمُوَلَّدِينَ اِذْ هُوَ اَمْرٌ رَاجِعٌ اِلَى ٱلْعَقْلِ وَلِذٰلِكَ قُبِلَ مِنْ اَهْلِ هٰذَا ٱلْفَنِّ ٱلْاِسْتِشْهَادُ بِكَلَامِ ٱلْبُحْتُرِيِّ وَاَبِي تَمَّامٍ وَاَبِي ٱلطَّيِّبِ وَاَبِي ٱلْعَلَاءِ وَهَلُمَّ جَرًّا . (وَهُنَا تَنْبِيهٌ) وَهُوَ اَنَّ اَنْوَاعَ ٱلْبَدِيعِ فِي ٱلْكَلَامِ كَٱلْمِلْحِ فِي ٱلطَّعَامِ وَٱلْخَالِ

فِي ٱلْوَجَنَاتِ وَٱلشِّيَةِ فِي ٱلْخَيلِ ٱلْمُسَوَّمَاتِ . وَإِذَا كَثُرَ ٱلْمِلْحُ فِي ٱلطَّعَامِ وَٱلْخِيلَانُ فِي ٱلْخَدِّ وَٱلشِّيَةُ فِي ٱلْخَيلِ قَبُحَ ذٰلِكَ وَخَرَجَ عَنْ بَابِ ٱلِٱسْتِحْسَانِ فَكَذٰلِكَ ٱلْبَدِيعُ إِذَا كَثُرَ وَتُكُلِّفَ تَمُجُّهُ ٱلطِّبَاعُ وَإِنَّمَا يُسْتَحْسَنُ إِذَا وَقَعَ فِي ٱلْكَلَامِ سَهْلًا عَلَى ٱلطِّبَاعِ مُسْتَعْذَبًا فِي ٱلْأَسْمَاعِ عَارِيًا مِنَ ٱلتَّكَلُّفِ ٱلَّذِي يَذْهَبُ بِٱلْحُسْنِ وَاقِعًا مَوْقِعَ ٱلزَّهْرِ مِنَ ٱلْغُصْنِ فَإِذَا فَرَطَ فِي ٱلزِّيَادَةِ خَاطَبَتْهُ ٱلطِّبَاعُ :

لَوِ ٱخْتَصَرْتُمْ مِنَ ٱلْإِحْسَانِ زُرْتُكُمُ ... وَٱلْعَذْبُ يُهْجَرُ لِلْإِفْرَاطِ فِي ٱلْخَصَرِ

البحث الثالث

في نسبة علم البديع الى علمي المعاني والبيان

(من شرح بديعيَّة العميان ايضًا)

وَإِذَا تَأَمَّلْتَ مَا قَرَّرْنَاهُ مِنْ أَنَّ عِلْمَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ دَاخِلَانِ فِي حَدِّ ٱلْبَدِيعِ عَلِمْتَ أَنَّ نِسْبَتَهُ إِلَيْهِمَا نِسْبَةُ ٱلْمُرَكَّبِ إِلَى مُفْرَدَاتِهِ إِذْ لَا يَدْخُلُ فِي ٱلْحَدِّ إِلَّا مَا هُوَ مِنْ مُفْرَدَاتِ ٱلْمَحْدُودِ ٱلَّتِي تَرَكَّبَ مِنْهَا . فَكَمَا أَنَّ ٱلْمُرَكَّبَ لَا يَسْتَقِيمُ وُجُودُهُ إِلَّا بِوُجُودِ مُفْرَدَاتِهِ كَذٰلِكَ ٱلْبَدِيعُ لَا يَسْتَقِيمُ إِلَّا بِوُجُودِ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ فَإِذَا عُدِمَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانُ مِنَ ٱلْكَلَامِ عُدِمَ ٱلْبَدِيعُ مِنْهُ لِأَنَّ ٱلْمُرَكَّبَ يُعْدَمُ بِعَدَمِ مُفْرَدَاتِهِ فَلَوْ وُجِدَ كَلَامٌ خَالٍ مِنْ سَابِقَةِ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ ٱلَّذِي هُوَ عِلْمُ ٱلْمَعَانِي أَوْ مِنَ ٱلْعِلْمِ بِكَيْفِيَّةِ طُرُقِ ٱلدَّلَالَةِ فِي ٱلظُّهُورِ وَٱلْخَفَاءِ ٱلَّذِي هُوَ عِلْمُ ٱلْبَيَانِ لَمْ يَكُنِ ٱلْعِلْمُ بِوُجُوهِ تَحْسِينِ ٱلْكَلَامِ بَدِيعًا . وَٱعْلَمْ أَنَّ أَعَمَّ هٰذِهِ ٱلْفُنُونِ ٱلثَّلَاثَةِ عِلْمُ

ٱلْمَعَانِي وَٱخَصُّهَا عِلْمُ ٱلْبَدِيعِ لِأَنَّهُ مُتَرَكِّبٌ مِنَ ٱلْفَنَّيْنِ ٱلْآخَرَيْنِ وَزِيَادَةٍ وَٱلْقَاعِدَةُ أَنَّ ٱلْأَخَصَّ يَتَرَكَّبُ مِنَ ٱلْأَعَمِّ وَزِيَادَةٍ . وَعِلْمُ ٱلْبَيَانِ مُتَوَسِّطٌ بَيْنَهُمَا فَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى ٱلْمَعَانِي مُنْدَرِجٌ تَحْتَ ٱلْبَدِيعِ وَكُلُّ بَدِيعٍ مُسْتَلْزِمٌ لِلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ لِأَنَّهُمَا جُزْءَاهُ . وَكُلُّ بَيَانٍ مُسْتَلْزِمٌ لِلْمَعَانِي لِأَنَّهُ جُزْؤُهُ وَلَيْسَتِ ٱلْمَعَانِي مُسْتَلْزِمَةً لِلْبَيَانِ وَلَا لِلْبَدِيعِ إِذْ يُوجَدُ بِدُونِهِمَا وَذَلِكَ فِي كَلَامٍ طَابَقَ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ وَلَمْ تُعْلَمْ كَيْفِيَّةُ طُرُقِ دَلَالَتِهِ وَلَا وُجُوهُ تَحْسِينِهِ . وَلَا ٱلْبَيَانُ مُسْتَلْزِمٌ لِلْبَدِيعِ إِذْ يُوجَدُ بِدُونِهِ فِي كَلَامٍ طَابَقَ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ وَعُلِمَتْ كَيْفِيَّةُ طُرُقِ دَلَالَتِهِ وَوُجُوهُ تَحْسِينِهِ . وَإِذَا عَلِمْتَ مَا قَرَّرْنَاهُ فَٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانُ بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلْبَدِيعِ كَٱلْحَيَوَانِ وَٱلنُّطْقِ بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلْإِنْسَانِ فَلَا يُوجَدُ ٱلْبَدِيعُ بِدُونِهِمَا كَمَا لَا يُوجَدُ ٱلْإِنْسَانُ بِدُونِ ٱلْحَيَاةِ . وَٱلنُّطْقُ وَٱلْمَعَانِي بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلْبَيَانِ كَٱلْحَيَوَانِ بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلنُّطْقِ فَتُوجَدُ ٱلْمَعَانِي بِلَا بَيَانٍ كَمَا يُوجَدُ ٱلْحَيَوَانُ بِلَا نُطْقٍ . وَلَا يُوجَدُ ٱلْبَيَانُ بِلَا مَعَانٍ كَمَا لَا يُوجَدُ ٱلنُّطْقُ بِدُونِ ٱلْحَيَوَانِ . وَهَذَا بَسْطُ مَا يُوجَدُ فِي بَيَانِ هَذِهِ ٱلْفُنُونِ ٱلثَّلَاثَةِ وَٱللهُ أَعْلَمُ . وَٱلْفَرْقُ بَيْنَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ أَنَّ ٱلْمَعَانِيَ رَاجِعَةٌ إِلَى مُطَابَقَةِ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ فِي ٱلدَّلَالَةِ ٱلْوَضْعِيَّةِ وَٱلْبَيَانَ رَاجِعٌ إِلَى مُقْتَضَى ٱلْحَالِ فِي ٱلدَّلَالَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ . فَكَمَا أَنَّ ٱلْبَدِيعَ لَا بُدَّ لَهُ فِي ٱلْمَعَانِي مِنْ مُطَابَقَةِ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ بِٱعْتِبَارِ ٱلدَّلَالَةِ ٱلْوَضْعِيَّةِ . كَذَلِكَ فِي ٱلْبَيَانِ لَا بُدَّ لَهُ أَيْضًا مِنْ مُطَابَقَةِ ٱلْحَالِ بِٱعْتِبَارِ ٱلدَّلَالَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ فَلَوْ قَالَ فِي ٱلْمَعَانِي : (زَيْدٌ قَائِمٌ) وَٱلْحَالُ تَقْتَضِي (إِنَّ زَيْدًا قَائِمٌ) . أَوْ

قَالَ : (إِنَّ زَيْدًا قَائِمٌ) وَالْحَالُ تَقْتَضِي (زَيْدٌ قَائِمٌ) كَانَ خَطَأً . كَذٰلِكَ الْبَيَانُ لَوْ قَالَ : (زَيْدٌ جَوَادٌ) وَالْحَالُ تَقْتَضِي (زَيْدٌ كَثِيرُ الرَّمَادِ) اَوْ قَالَ : (زَيْدٌ كَثِيرُ الرَّمَادِ) وَالْحَالُ تَقْتَضِي (زَيْدٌ جَوَادٌ) كَانَ خَطَأً

البحث الرابع

في اقسام البديع

(عن شرح بديعية العميان)

اِعْلَمْ اَنَّ الْبَدِيعِيِّينَ نَصُّوا عَلَى اَنْوَاعِ الْبَدِيعِ اَنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِبَابَيْنِ : بَابِ الْبَلَاغَةِ وَبَابِ الْفَصَاحَةِ . فَمَا كَانَ مِنْهُمَا مُتَعَلِّقًا بِالْمَعْنَى اَوْ بِالْمَعْنَى وَاللَّفْظِ مَعًا فَهُوَ مِنْ بَابِ الْبَلَاغَةِ . وَمَا كَانَ مِنْهُمَا مُتَعَلِّقًا بِاللَّفْظِ فَقَطْ فَهُوَ مِنْ بَابِ الْفَصَاحَةِ . فَهِيَ ثَلَاثَةُ اَقْسَامٍ : قِسْمٌ يَتَعَلَّقُ بِالْمَعْنَى فَقَطْ كَالتَّوْرِيَةِ وَتَجَاهُلِ الْعَارِفِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهُمَا مِمَّا لَا تَعَلُّقَ لَهُ بِاللَّفْظِ . وَقِسْمٌ بِاللَّفْظِ فَقَطْ كَالتَّجْنِيسِ وَرَدِّ الْعَجُزِ عَلَى الصَّدْرِ وَنَحْوِهِمَا مِمَّا لَا تَعَلُّقَ لَهُ بِالْمَعْنَى . وَقِسْمٌ يَتَعَلَّقُ بِاللَّفْظِ وَالْمَعْنَى كَالْمُطَابَقَةِ وَالْمُقَابَلَةِ وَمَا اَشْبَهَهُمَا مِمَّا لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى فِيهِ حَظٌّ . وَاَسْقَطَ صَاحِبُ الْاِيضَاحِ هٰذَا الْقِسْمَ وَجَعَلَ الْبَدِيعَ قِسْمَيْنِ : قِسْمٌ يَتَعَلَّقُ بِاللَّفْظِ وَقِسْمٌ يَتَعَلَّقُ بِالْمَعْنَى وَهُوَ الْاَبْيَنُ



البحث الخامس

في تاريخ علم البديع وفي اصحاب البديعيَّات

(عن كشف الظنون باختصار وتصرُّف)

اِعلَمْ انَّ قُدَمَاءَ ٱلْمُصَنِّفِينَ كَانُوا يَذْكُرُونَ هٰذَا ٱلفَنَّ فِي آخِرِ عِلمِ ٱلبَيَانِ . اِلَّا انَّ ٱلْمُتَاخِّرِينَ زَادُوا عَلَيْهِ شَيْئًا كَثِيرًا وَنَظَمُوا فِيهِ قَصَائِدَ وَاَلَّفُوا كُتُبًا. وَمِنَ ٱلْكُتُبِ ٱلْمُخْتَصَّةِ بِعِلْمِ ٱلْبَدِيعِ كِتَابٌ لِاَبِي ٱلعَبَّاسِ عَبدِاللّٰهِ بْنِ ٱلْمُعتَزِّ ٱلعَبَّاسِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٢٩٦ هـ (٩٠٩ م) وَهُوَ اوَّلُ مَنْ صَنَّفَ فِيهِ . وَكَانَ جُمْلَةُ مَا جَمَعَ مِنهَا سَبْعَةَ عَشَرَ نَوعًا اَلَّفَهُ سَنَةَ ٢٧٤ هـ (٨٨٧ م). وَعَاصَرَهُ قُدَامَةُ بْنُ جَعفَرٍ ٱلْكَاتِبُ فَجَمَعَ مِنهَا عِشرِينَ نَوعًا تَوَارَدَ مَعَهُ عَلَى سَبْعَةٍ مِنهَا فَتَكَامَلَ لَهُمَا ثَلَاثُونَ نَوعًا وَيُعرَفُ كِتَابُهُ بِنَقْدِ ٱلشِّعْرِ . امَّا ٱلسَّكَّاكِيُّ فَلَمْ يَذْكُرْ مِنْ انْوَاعِ ٱلْبَدِيعِ سِوَى تِسْعَةٍ وَعِشرِينَ نَوعًا. ثُمَّ ٱقْتَدَى ٱلنَّاسُ بِقُدَامَةَ وَٱبْنِ ٱلْمُعتَزِّ فَكَانَ غَايَةُ مَا جَمَعَ مِنهَا ابُو هِلَالٍ ٱلعَسْكَرِيُّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٣٩٥ هـ (١٠٠٥ م) سَبْعَةً وَثَلَاثِينَ نَوعًا وَيُعرَفُ كِتَابُهُ بِكِتَابِ ٱلصِّنَاعَتَيْنِ. ثُمَّ جَمَعَ فِيهَا ٱبْنُ ٱلرَّشِيقِ ٱلقَيْرَوَانِيُّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٤٥٦ هـ (١٠٦٣ م) فِي ٱلعُمْدَةِ مِثْلَهَا وَاضَافَ اِلَيْهَا خَمْسَةً وَسِتِّينَ بَابًا فِي احْوَالِ ٱلشِّعْرِ وَاغرَاضِهِ . وَتَلَاهُمَا شَرَفُ ٱلدِّينِ ٱلتِّيفَاشِيُّ فَبَلَغَ بِهَا ٱلسَّبْعِينَ. ثُمَّ تَصَدَّى لَهَا ٱلشَّيْخُ زَكِيُّ ٱلدِّينِ بْنُ ابِي ٱلاِصْبَعِ فَاوْصَلَهَا اِلَى ٱلتِّسْعِينَ وَاضَافَ اِلَيْهَا مِنْ مُسْتَخْرَجَاتِهِ ثَلَاثِينَ سُلِّمَ لَهُ مِنهَا عِشْرُونَ . وَاجْرَى تِلْكَ ٱلانْوَاعَ فِي ٱلآيَاتِ ٱلقُرْآنِيَّةِ

وسماهُ التحرير وهو اصحُّ كتابٍ صُنِّفَ فيهِ لانَّهُ لم يتَّكِل على النقلِ دونَ النقدِ . وذكر انَّهُ وقف على اربعينَ كتابًا في هذا العلمِ . والبديعيات المشتهرة هي بديعيَّةُ الشيخِ الاديبِ صفيِّ الدينِ الحلّيِّ سماها كافية البديعيَّةِ وشرحها شرحًا حسنًا . حذا حذوهُ الشيخُ عبدُ الرحمانِ الحميديُّ . وبديعيَّةُ ابي جعفرٍ احمدَ الرعينيِّ المتوفى سنة ٧٧٩هـ (١٣٧٧ م) وهذهِ البديعيَّةُ تُعرَفُ ببديعيَّةِ العميانِ . وبديعيَّةُ الشيخِ شمسِ الدينِ ابي عبدِ اللهِ محمدِ بن جابرٍ الاندلسيِّ المتوفى سنة ٧٨٠ هـ (١٣٧٨ م) وبديعيَّةُ الشيخِ عزِّ الدينِ الموصليِّ ووجيهِ الدينِ اليمنيِّ المتوفى في حدودِ سنة ٨٠٠ هـ (١٣٩٨ م) وبديعيَّةُ الشيخِ تقيِّ الدينِ بن حجَّةَ الحمويِّ المتوفى سنة ٨٣٧ هـ (١٤٣٣ م) وسمَّاها التقديمَ تشتملُ على مئةٍ وستةٍ وثلاثينَ نوعًا ثمَّ شرحها شرحًا مفيدًا وهو مجموعُ ادبٍ قلَّ ان يوجدَ في غيرهِ . وبديعيَّةُ الشيخِ جلالِ الدينِ السيوطيِّ المتوفى سنة ٩١١ هـ (١٥٠٠ م) وتُسمَّى نظمَ البديعِ ثمَّ شرحها . وبديعيَّةُ الفاضلةِ عائشةَ الباعونيَّةِ نظمتها على مثالِ قصيدةِ الحمويِّ معَ عدمِ تسميةِ النوعِ . واتى بعدها الشيخُ عبدُ الغنيِّ النابلسيُّ ونظم قصيدتينِ التزمَ باحداهما تسميةَ النوعِ



بديعيّة الخوري الفاضل ارسانيوس الفاخوري

مدح بها السيد المسيح ورسلهُ الاطهار

وهي مشتملة على مائة وثمانين نوعًا مع التزام تسمية النوع

براعة المطالع

بَرَاعَةُ ٱلْمَدْحِ فِي نَجْمٍ ضِيَاهُ سَمِي   تَهْدِي بِمَطْلَعِهَا مَنْ عَنْ سَنَاهُ عَمِي

الجناس المطلق والمركب

تَطْلِيقُ هَمِّي بِتَرْكِيبِ ٱلْمَدِيحِ لَهُ   رُحْ لِي اِلَيْهِ بِهِ رُحْبِي كَذَا هِمَمِي

الجناس المذيّل

سَنَاهُ فِي ٱلْكَوْنِ بَاهٍ بَاهِرٌ عَجِبٌ   وَذَيَّلَ ٱلْكَوْنَ نُورًا مَاحِقَ ٱلظُّلَمِ

الجناس اللاحق

دَرْبُ ٱلْهُدَى مَنْ بِهِ قَدْ سَارَ ٱلْحَقَهُ   كَمْ حَائِرٍ بَائِرٍ بِٱلرُّشْدِ مِنْهُ رُمِي

الجناس التام والمطرف

اَتَمَّ بَدْرَ ٱلسَّمَا مِصْبَاحُهُ وَسَمَا   فَاِنْ هَوِيتُ بِهِ ٱلتَّطْرِيفَ لَمْ اُلَمِ

الجناس المصحف والمحرف

اَرَاحَ تَصْحِيفُهُ ذِهْنًا اَزَاحَ لَهُ   تَحْرِيفَ قَوْلٍ غَدَا فِي ٱلْحُكْمِ وَٱلْحِكَمِ

الافتنان

فَاقَ ٱفْتِنَانِي وَمَدْحِي فِي مَحَاسِنِهِ   يَا تَعْسَ عُمْرٍ مَضَى بِٱلْمَدْحِ لَمْ يَقُمِ

المطابقة

فَلَمْ اُطَابِقْ عَلَى بُعْدِ ٱلْاَحِبَّةِ بَلْ   اِنِّي اُطَابِقُ فِي قُرْبِي لِخِدْرِهِمِ

سلامة الاختراع

سَلَامَتِي فِي ٱخْتِرَاعِي نَظْمَ قَافِيَةٍ   اَرْجُو بِهَا ٱلنَّظْمَ فِي اَجْزَاءِ سِلْكِهِمِ

الاستعارة

اِنّي اَستعَرتُ جيادَ الدَّمعِ في سَفَري جَريًا وراءَ مَتابٍ في سَبيلِهِمِ

الجناس المعنوي

وعُدتُ بِاَسمِ ابنِ رَعدٍ ثُمَّ بِاَسمِ اَبي اِنحقَ يامعنَويٌّ في الهوى بِهِمِ

الاستطراد

مُستَطرِدًا في هَواهُم خَيلَ مُنعطِفي كادُمعي قد جرت شوقًا لِقُربِهِمِ

الاستخدام

سَقى الالهُ الحَيا خيلًا رعَتهُ قَدِ اسْ تَخدَمتُها قَصدَ اِدراكٍ لِوَصلِهِمِ

التخيير

بِرَبعِهِم قد تَخيَّرتُ العَناءَ وَلَا مِ البَقاءَ في سَعَةٍ في غَيرِ رَبعِهِمِ

التذييل

اَذُمُّ تَذييلَ عَذلٍ طالَ مِنكَ كَفى يا عاذِلي العَذلُ مَذمومٌ مِنَ الأُمَمِ

الايداع

وَعِندَ اِيداعِهِ سَمعي مَلامَتَهُ مَزَجتُ دَمعًا جَرى مِن مُقلَتي بِدَمِ

الجناس اللفظي وجناس القلب

قَد ضَلَّ رَأيًا بِطَعنٍ ظَلَّ يَلفِظُهُ فَالقَلبُ ما حالَ مِن لاحٍ عَنِ الذِّمَمِ

الاكتفاء

لَم يَكتَفِ العاذِلُ النَّمّامُ مِن حِيَلٍ فَكَم لِذاكَ خَبا لِلعاشِقِينَ كَمِي

التفويف

اِرحَم وَدَع وَاَنتَدِ وَاشفَق وَلِن وَاَرِح وَفِ وَوَشِّ وَجُد وَانظِم وَمِق وَهِمِ

الملفق

اَبى نَوالِيَ بِالتَّلفيقِ مِنهُ كَما اَبانَ والِيَ وَجدٍ عَن وَلائِهِمِ

الارقط

قَدْ خَابَ مَنْ مِنْهُ يَرْجُو خُطَّةَ وَجَدَى ‌ ‌ ‌ ‌ وَشَانَ رَقْطٌ بِهِ قَدْ بَانَ مِنْ اَضَمِ

الالتفات

فَمَا ٱلتَفَتُّ اِلَى مَكْرٍ بِتَوْشِيَةٍ ‌ ‌ ‌ ‌ عَرِّجْ رِكَابَكَ عَنْ تِيهٍ اِلَى ٱللَّقَمِ

الجناس المقلوب المستوي

حَرِّفْ اَخَا كُرَبٍ بِرَّكَ اَخَا فَرَحٍ ‌ ‌ ‌ ‌ فَيَسْتَوِي ٱلْقَلْبُ بِٱلْاَفْرَاحِ لَا ٱلْغُمَمِ

الموازنة

يَا لَائِمِي خَلِّ قَوْلًا فِي مُوَازَنَةٍ ‌ ‌ ‌ ‌ فَعَاقِلٌ اَنْتَ يَا ذَا ٱلْعَذْلِ فَٱسْتَقِمِ

الالتزام

اِنِّي لَمُلْتَزِمٌ خُلْدًا بِحُبِّهِمِ ‌ ‌ ‌ ‌ حَتَّى ٱلْمَنَايَا بِهَا عَيْشٌ لِصَبِّهِمِ

رد العجز على الصدر

بِهِمْ اَرُدُّ عَلَى صَدْرِ ٱلْمُخَاصِمِ عَجْـ ‌ ‌ ‌ ‌ زَهُ وَاُخْزِي ٱلْعِدَى يَوْمَ ٱلْوَغَى بِهِمِ

المقابلة

اِنْ رُحْتُ مُنْزَعِجًا خَوْفًا بِمَسْئَلَةٍ ‌ ‌ ‌ ‌ فَقَابِلُوا بِٱلشِّفَا وَٱلْاَمْنِ وَٱلنِّعَمِ

المراجعة

قَالَ اَسْلُهُمْ قُلْتُ حَاشَا لِي فَرَاجَعَنِي ‌ ‌ ‌ ‌ فَقَالَ دَعْهُمْ فَقُلْتُ ٱلسَّمْعُ فِي صَمَمِ

الهزل الذي يراد به الجد

بِٱلْجِدِّ هَازَلَنِي وَٱلدَّمْعُ مُنْسَجِمٌ ‌ ‌ ‌ ‌ فَقَالَ اَرْوِ ٱلظَّمَا مِنْ مَنْهَلٍ شَبِمِ

القول بالموجب

قَوْلِي لَهُ مُوجَبٌ اِذْ قَالَ اَنْتَ لَهُمْ ‌ ‌ ‌ ‌ سَالٍ فَقُلْتُ لِجِسْمِي مِنْ سَعِيرِهِمِ

المتراكم

قَدْ قَدَّ قَدَّ فُؤَادِي عَضْبُ غَيْبَتِهِ ‌ ‌ ‌ ‌ مِنْهَا تَرَاكَمَتِ ٱلْاَحْزَانُ مِنْ اَلَمِي

الاستدراك

فَقَالَ مَكْرًا بِسُقْمٍ أَنْتَ بَلْ شُغُلٍ فَقُلْتُ مُسْتَدْرِكاً لٰكِنْ بِعِشْقِهِمِ

المناقضة

إِنِّي أُنَاقِضُ عَهْدِي لِلْمُحِبِّ إِذَا مَا شِبْتُ أَوْ عُدْتُ طِفْلًا بَعْدَ مَا هَرِمِ

حسن الاتباع

حُسْنُ ٱتِّبَاعٍ لَهُمْ قَلْبِي ٱصْطَفَاهُ هَوًى فَٱلْقَلْبُ عِنْدِي لِغَيْرِ ٱلْعِشْقِ لَمْ يَقُمِ

تشابه الاطراف

تَشْبِيهُ أَطْرَافِ أَقْوَالِي سَمَا بِهِمِ بِهِمْ مَدِيحِي غَدَا فِي أَبْلَغِ ٱلْحِكَمِ

السهولة

سُهُولَةُ ٱلنَّظْمِ تَحْلُو فِي مَدِيحِهِمِ لَا فِي مَدِيحِ ٱلظِّبَا وَٱلْغِيدِ لِلْحُشُمِ

الجناس الحالي او المعجم

نَبَذْتُ تَفْنِينَ تَشْبِيبٍ بِذِي شَغَفٍ يَفْتَنُّ فِي غُنْجِ جَفْنٍ جُنَّ بِٱلْعَجَمِ

التهكم

بِهِمْ رَأَى عِزَّهُ تِيهًا فَذَلَّ بِهِمْ تَهَكُّمًا قُلْتُ يَا بُشْرَاكَ بِٱلنَّدَمِ

الهجاء في معرض المدح

بِمَعْرِضِ ٱلْمَدْحِ قَدْ يَهْجُوكَ قَائِلُهُ مَا مِثْلُكُمْ بِٱحْتِمَالِ ٱلضُّرِّ وَٱلرَّغَمِ

الابهام

كَمْ زَادَ إِبْهَامَ نُصْحِي ذَا ٱلْعَذُولُ وَكَمْ يَا لَيْتَ إِبْهَامَهُ فِي حَيِّزِ ٱلْعَدَمِ

النزاهة

تَنَزَّهَتْ سَمْعِي بِحَقٍّ عَنْ نَصَائِحِهِ إِذْ لَمْ أَرَ ٱلْحَقَّ فِي قَوْلٍ وَلَا كَلِمِ

المغايرة

أُغَايِرُ ٱلنَّاسَ فِي حُبِّي لِذِي عَذَلٍ مُسْتَنْطِقًا فَمُهُ حُبًّا لِذِكْرِهِمِ

الجناس الموصّل

نَفْسِي لَهُمْ عَشِقَتْ حُبَابِهِمْ شُغِفَتْ   فَحُبُّهُمْ صِلَةٌ تُنْفَى بِهَا غُمَمِي

الاستثناء

اَهْوَى ٱلْخُطُوبَ بِلَا ٱسْتِثْنَا لِحُبِّهِمِ   اِلَّا مَــلَامَ عَذُولِي لِي لِاَجْلِهِمِ

الجناس المهمل

كَلَا ٱلْاِلٰهُ ٱمْرَءًا رَامَ ٱلْوِدَادَ لَهُ   وَاَهْمَــلَ ٱلْوُدَّ لِلْاَسْوَاءِ وَٱلْحُرَمِ

الجناس الاخيف

اَحَلَّهُ خَيْفَ سَعْدٍ فِي لِوَا نُجُبٍ   كَسَا شَبِيبَةَ عُمْرٍ جُبَّــةَ ٱلسَّلَمِ

الالغاز

مِنْ مَرْمَرِ ٱلرُّشْدِ خُذْ شَطْرًا بِشَطْرِ م   يَمِينِ ٱللّٰهِ مُنْتَحِيًا لِلُّغْزِ تَفْتَهِمِ

الجناس المقطع

وَاِنْ اَرَدتَّ دَوَاءً زُرْ ذُرَاهُ وَرُدْ   وَاِنْ اَرَدتَّ رِوًى دَعْ وِرْدَ ذِي زَامِ

المحاجاة

وَٱسْتَشْفِهِ فِي ٱلتَّحَاجِي مُمْعِنًا نَظَرًا   بِقَوْلِهِ فَٱلْاِسَا مِلْكِي وَمِنْهُ رُمِ

الكلام الجامع

جَمْعُ ٱلْــكَلَامِ اِذَا لَمْ يَشْتَمِلْ حِكَمًا   لَمْ يُلْفِ مَنْ ذَاقَ فِيهِ لَذَّةَ ٱلدَّسَمِ

الاقتباس

مِنْ مَجْمَعِ ٱلشَّوْكِ هَلْ مَنْ يَجْتَنِي عِنَبًا   لَمْ تُقْتَبَسْ لَذَّةٌ مِنْ عَاطِلِ ٱلْــكَلِمِ

التوجيه

وَجِّهْ اِلَى ٱلرَّبِّ نَعْتًا اَنْتَ تَابِعُهُ   يَرْفَعْكَ مِنْ خَفْضِ رُتْبَاتٍ اِلَى ٱلْعِظَمِ

عكس الاشارة

بِحَقِّ بِرٍّ فَقُمْ لَا فِي اِشَارَتِــهِ   فَاِنَّ عَــكْسَ ٱسْمِهِ مَعْنَاهُ كَٱلْعَلَمِ

المطمَّع

قد طابَ لِلنَّفسِ فِي ٱلأَسوَاءِ مطمَعُهَا بَلْ طَالَ فِيهَا وَلَمْ تَعدِلْ إِلَى ٱلنَّدَمِ

الرجوع

مَا لِي رُجُوعٌ إِلَى حَالِي لِأُصْلِحَهَا بَلَى إِذَا مَعْ هُدَى رَبِّي سَعَى قَدَمِي

عتاب النفس

يَا نَفسِ عِي وَٱرْعَوِي وَأَصْغِي إِلَى عَتَبِي حَتَّامَ أَنْتِ بِجَهْلٍ غَيْرِ مُنْصَرِمِ

التسليم

هِيِ لِزَعْمِكِ قَدْ سَلَّمتُ مُرْتَضِيًا فَمَا يَكُونُ جَوَابِي يَوْمَ مُحْتَكَمِي

القسم

فَلَا أُنِلْتُ ٱلْمُنَى إِنْ مِلْتُ مُتَّبِعًا هَوَاكِ فِي غَيْرِ مَا أَهْوَى وَذَا قَسَمِي

حسن التخلص

فَرَغْبَتِي وَٱلْهَوَى حُسْنُ ٱلتَّخَلُّصِ مِنْ إِثْمِي بِمَدْحِ وَسِيطِ ٱلنَّاسِ كُلِّهِمِ

الاطراد

يَسُوعُ بِكْرُ ٱلْإِلٰهِ ٱبْنُ ٱلْبَتُولِ سُلَا لَةُ ٱلْمُلُوكِ وَرَبٌّ فِي أَطِّرَادِهِمِ

حصر الجزئي والحاقه بالكلي

فَرْدٌ بِهِ تُحْصَرُ ٱلْأَنْصَارُ أَجْمَعُهُمْ فَٱلْجُزْءُ يُلْحَقُ بِٱلْكُلِّيِّ لِلْعِظَمِ

العكس

نَفْسُ ٱلْجَمَالِ جَمَالُ ٱلنَّفْسِ فِيهِ بَدَا يَا عَكْسَ مَنْ عَنْ سَنَا هٰذَا ٱلْجَمَالِ عَمِي

المماثلة

فَٱلْآبُ مَاثَلَهُ وَٱلرُّوحُ وَافَقَهُ وَٱلْكُنْهُ شَارَكَهُ بِٱلْعِظَمِ وَٱلْقِدَمِ

التفسير

كُنْهُهُ ثُلَاثِيُّ أُقْنُومٍ يُفَسِّرُهُ آبٌ وَٱبْنٌ وَرُوحٌ فِي وَحِيدِهِمِ

المذهب الكلامي

فَمَذهبي فِي كَلَامي مِنهُ مُنقِذُنَا لَوْ لَمْ يَصِرْ بَشَرًا لَمْ نَنجُ مِنْ ضَرَمِ

المناسبة

لَاهُوتُهُ كَامِلٌ وَٱلطُّهْرُ نَاسَبَهُ نَاسُوتُهُ فَاضِلٌ فِي ٱلْخَلْقِ وَٱلشِّيَمِ

ارسال المثل

فَٱلْحُسنُ فِي ٱلْخَلقِ ارْبَى فِيهِ عَنْ مَثَلٍ وَٱلْفَضلُ اشْهَرُ مِنْ نَارٍ عَلَى عَلَمِ

الترديد

فَهوَ ٱلْبَدِيعُ لَنَا هٰذَا ٱلْبَدِيعُ سَنًى بِهِ ٱلْبَدِيعُ حَلَا تَرْدِيدُهُ بِفَمِي

التكرار

تَكْرَارُ مَدْحِي بِمَا بِٱلْوَاهِبِ ٱلنِّعَمِ م ٱبْنِ ٱلْوَاهِبِ ٱلنِّعَمِ ٱبْنِ ٱلْوَاهِبِ ٱلنِّعَمِ

الترتيب

لَهُ ٱلْمَلَائِكُ وَٱلْإِنْسَانُ اجْمَعُهُ وَمَا سِوَاهُمْ فِي ٱلتَّرْتِيبِ كَٱلْخَدَمِ

التشريع

لَمَّا ٱنْحَنَى وَبِتَشْرِيعِ ٱلْفِدَاءِ بَدَا نِلْنَا ٱلْمُنَى فَنَجَوْنَا مِنْ رَدَى ٱلْعَرِمِ

التكميل

اَوْفَى اَبَاهُ تَمَامًا دَيْنَ آدَمِهِ حَمْدًا لَهُ فَاقَ تَكْمِيلًا بِذَا ٱلْكَرَمِ

الجناس المرفوّ

هَيَّا مَدَارَ نَعِيمٍ قَدْ رَفَاهُ بِهِ وَطَمَّ دَارَ جَحِيمٍ حَالِكِ ٱلظُّلَمِ

الجناس المشتق

هَدَى اِلَى ٱلْمَنْهَجِ ٱلْهَادِي بُغَاةَ هُدًى وَمِنْ هُدَاهُ ٱلْخَلَاصُ ٱشْتُقَّ لِلْأُمَمِ

النقل

تَمَّتْ نُقُولُ نُبُوَّاتٍ بِهِ وَمَضَتْ بِهِ ٱلْخَلِيلُ نَجَا مِنْ وَابِلِ ٱلضَّرَمِ

تشبيه شيئين بشيئين

شَأْنَانِ قَدْ اَشْبَهَا شَيْئَيْنِ فِيهِ لَنَا   تَعَطُّفٌ وَنَدًى كَٱلْبَحْرِ وَٱلدِّيَمِ

التشطير

تَشْطِيرُ نِعْمَتِهِ مَا بَيْنَ اُمَّتِـهِ   كَٱلنَّجِ فِي عِظَمٍ قَدْ كَانَ فِي ٱلْقِسَمِ

الطيّ والنشر

فَٱلطَّيُّ وَٱلنَّشْرُ وَٱلتَّبْدِيلُ مَعْ كَرَمٍ   لِلْعُسْرِ وَٱلْيُسْرِ وَٱلْاَحْوَالِ وَٱلشِّيَمِ

الايغال

فِي ٱلسَّعْيِ اَوْغَلَ فِي تَمْهِيدِهِ سُبُلًا   اِلَى ٱلْخَلَاصِ بِحُبٍّ غَيْرِ مُنْكَتِمِ

الاشارة

وَمِنْ اِشَارَاتِهِ بِٱلْوَعْظِ كَمْ نَجَحَتْ   لَهُمْ فُنُونٌ بِهَا زَادُوا بِبِرِّهِمِ

الايجاز

وَقَوْلُهُ مُوجَزٌ فِي صُنْعِ مُعْجِزَةٍ   اِنْ قَالَ اَشْفَى وَاَحْيَا بَالِيَ ٱلرِّمَمِ

التوشيع

تَوْشِيعُ مَذْهَبِهِ فِي فَضْلِ سُنَّتِـهِ   مُثْبِتُ ٱلْاَمْجَدَيْنِ ٱلْعَهْدِ وَٱلذِّمَمِ

التورية

وَكَمْ عُقُودٍ لَهُمْ حَلَّتْ فَوَائِـدُهُ   بِحُسْنِ تَوْرِيَةٍ حَلَّتْ لِسَـانَ فَمِي

النوادر

كَمْ مِنْ نَوَادِرِ بَذْلٍ مَارَسَتْ يَدُهُ   حَتَّى جَرَى دَمُهَا لِلْبَـذْلِ كَٱلدِّيَمِ

البسط

تَعَوَّدَ ٱلْجُودَ مَعْ بَسْطٍ لِرَاحَتِـهِ   لِلْعُـودِ جَادَ بِهَا مَدًّا بِلَا سَقَمِ

الجمع مع التقسيم

جَمْعٌ تَقَسَّمَ يَوْمَ ٱلصَّلْبِ فِي فِرَقٍ   مِنْ قَاتِـلٍ وَمُهِينٍ ثُمَّ مُنْتَقِمِ

الجمع

فَٱلْجَلْدُ وَٱلْهَزْؤُ وَٱلتَّشْتِيمُ مَعْ عَذَلٍ ... اِهَانَــةٌ نَالَهَا مِنْ بَغْيِ جَمْعِهِمِ

جناس البعض

بَعْضٌ حَمَاقَتُهُمْ زَادَتْ حَمَاسَتَهُمْ ... جَوْرًا وَبَعْضٌ كَكَلْبٍ كَالِبٍ نَهِمِ

المشوَّش

وَشَوَّشُوا ٱلْفَرْعَ مِنْ خَدْشٍ بِهَامَتِهِ ... وَٱلْقَدْغُ فِي ٱلْجِسْمِ وَٱلْكَفَّيْنِ وَٱلْقَدَمِ

التشبيه

وَٱلْجِسْمُ اِنْ جِئْتُ تَشْبِيهًا لِحَالَتِهِ ... قُلْ كَٱلْخِلَالِ نُحُولًا مِنْ نَكَالِهِمِ

تجاهل العارف

تَجَاهَلَ ٱلنَّاسُ فِي عِرْفَانِ صُورَتِهِ ... قَالُوا اَسُقْمٌ بِهِ اَمْ بِٱلنَّكَالِ رُمِي

المساواة

بِٱلْمَوْتِ سَاوَى ٱلْمَلَا اَمَّا قِيَامَتُهُ ... فَاَوْضَحَتْ قُدْرَةَ ٱللَّاهُوتِ كَٱلْعَلَمِ

التوهيم

تَوْهِيمُ قَلْبٍ جَلَتْ بُشْرَى قِيَامَتِهِ ... جَلَّتْ بِنَصْرٍ وَعَزَّتْ سَاعَةَ ٱلْغُمَمِ

الجناس الكامل

وَبَعْدَمَا قَدْ قَضَى فِعْلَ ٱلْجَمِيلِ اِلَى ... مُ ٱلْعَلَا ارْتَقَى ذَا ٱلْجَمِيلُ ٱلْكَامِلُ ٱلشِّيَمِ

الانسجام

وَمِنْ لَدُنْهُ ٱلْمُعَزِّي حَلَّ مُنْسَجِمًا ... عَلَى تَلَامِيذِهِ كَٱلْلُّسْنِ مِنْ ضَرَمِ

التسهيم

تَسَهَّمُوا ٱلْاَرْضَ لِلْبُشْرَى فَقَالَ لَهُمْ ... وَتَلْمِذُوا عَمِّدُوا كُلًّا مِنَ ٱلْاُمَمِ

التمكين

جَالُوا بِتَمْكِينِ عَزْمٍ فِي بِشَارَتِهِمْ ... وَلَمْ يُبَالُوا بِتَعْذِيبٍ وَسَفْكِ دَمِ

الجناس المركب المجموع

جَادُوا بِأَنْفُسِهِمْ حُبّاً كَمَالِهِمِ ... وَجَمْعُ تَرْكِيبِ فَضْلٍ فِي كَمَالِهِمِ

الإرداف

وَارْدَفُوا الْعَزْمَ بَأْساً اَسْكَنُوهُ مُحَلَّ م الْحُبِّ فِي السَّيْرِ لِلْبُشْرَى بِرَبِّهِمِ

الاتساع

بِيضُ الْمَفَارِقِ بَلْ طُهْرُ النُّفُوسِ هُمُ ... وَبِاتِّسَاعِ الْحِجَى فَازُوا بِقَصْدِهِمِ

الاستتباع

يَسْتَتْبِعُونَ بِمَحْضِ النُّصْحِ فِعْلَ هُدًى ... وَيَحْفَظُونَ تُقَاهُمْ حِفْظَ دِينِهِمِ

المردَّد

وَمِنْ مُرَدَّدِ إِنْذَارٍ حَكَوْهُ فَذُو م الْهَوَى هَوَى كَذَاكَ الْعَابِدُ الصَّنَمِ

الترصيع

هُمْ رَصَّعُوا اَدَباً مِنْ دُرِّ لَفْظِهِمِ ... كَمْ اَبْدَعُوا خُطَباً فِي سِرِّ وَعْظِهِمِ

ايتلاف اللفظ مع الوزن

تَاَلَّفَ اللَّفْظُ مَعْ وَزْنٍ بِمَدْحِهِمِ ... لِرَبِّهِمْ ضِمْنَ نَظْمٍ فِيهِ مُنْسَجِمِ

ايتلاف اللفظ مع المعنى

اَللَّفْظُ فِي الْمَدْحِ مَعْ مَعْنَاهُ مُؤْتَلِفٌ ... فَلِلْمَعَانِي تَرَى الْاَلْفَاظَ كَالْخَدَمِ

الفرائد

وَكَمْ مِنْ فَرَائِدِ دُرٍّ فِيهِ قَدْ نَظَمُوا ... عِقْدَ التَّشِيدِ فَاعْجَبْ بِانْتِظَامِهِمِ

ايتلاف المعنى مع الوزن

تُؤَلِّفُ الْوَزْنَ وَالْمَعْنَى نَشَائِدُهُمْ ... صَحِيحَةً عَذْبَةً فِي اللَّحْنِ وَالنَّغَمِ

التسميط

تَسْمِيطُهُمْ دُرَرًا اَضْحَى بِهِ غُرَرًا ... اَمْسَى لَنَا قَمَرًا فِي لَيْلَةِ الْغُمَمِ

ايتلاف اللفظ مع اللفظ

وَٱللَّفظُ لِلحَمدِ فِي ٱلْأَفوَاهِ مُؤتَلِفٌ ... مَعْ لَفظِ مَدحٍ بَدَا مِنْ أَلسُنِ ٱلدِّيَمِ

الابداع

إِبدَاعُ نَظمِهِمِ دَمعِي جَلَا وَحَلَا ... إِيدَاعُ نَثرِهِمِ سَمعِي كَمُنتَظِمِ

التفريع

يَا نَسمَةٌ حَمَلَتْ مِسكًا لَطَائِفُهَا ... يَومًا بِأَطيَبَ مِنْ تَفرِيعِ فَضلِهِمِ

المدح في معرض الذم

فِي مَعرِضِ ٱلذَّمِّ مَدحًا قَدْ خَصَصتُ بِهِمْ ... لَا عَيبَ فِيهِمْ سِوَى ٱلْإِيفَاءِ بِٱلذِّمَمِ

الجناس المرفل

وَبِٱلْأَيَادِي أَيَادِيهِمْ سَمَتْ كَرَمًا ... فَرَاحَ يَرفُلُ بِٱلْإِثرَاءِ ذُو ٱلْعَدَمِ

الكناية

تَزَاحُمُ لِعُفَاةٍ يُسرِعُونَ إِلَى ... فِرَاتِهِمْ ذَا يُكَنِّي عَنْ سَخَائِهِمِ

التوزيع

عَلَى ٱلْعُفَاةِ جَمِيعًا وَزَّعُوا نِعَمًا ... فَعَادَ أَعوَزُهُمْ بِٱلْعِزِّ وَٱلْعِظَمِ

الاشتراك

سَادُوا بِصَدرٍ غَدَا بِٱلْعِزِّ مُشتَرَكًا ... صَدرِ ٱلْجُلُوسِ عَلَى كُرسِي قَضَائِهِمِ

الموازنة

مُوَازِنٍ وَاتِنٍ مُستَرْكِنٍ حَسَنٍ ... مُستَعْلِنٍ فَاتِنٍ مُستَمْكِنٍ فَخِمِ

المؤتلف والمختلف

فَجَمعُ مُؤتَلِفٍ فِيهِمْ وَمُختَلِفٍ ... حُكمًا وَفَضلًا فَسِمعَانٌ بِذَاكَ سُمِي

الايضاح

مَا بَينَهُمْ صَخرَةٌ لِلحَقِّ مُوضِحَةٌ ... بَنَى ٱلمَسِيحُ عَلَيهَا بَيتَ جَمعِهِمِ

الطاعة والعصيان

مَنْ يُطِعْ حُكْمَهُ يُرْحَمْ لَدَى شَجَبٍ وَمَنْ عَصَى أَمْرَهُ يُحْرَمْ مِنَ ٱلنِّعَمِ

حسن النسق

نَثْرِي يُنَاسِقُهُمْ شِعْرِي يُطَابِقُهُمْ ثَغْرِي يُوَافِقُهُمْ فِي مَدْحِ رَبِّهِمِ

التجزئة

أَرْبَيْتُ فِي هَمِّي جَزَّأْتُ فِي كَلِمِي رَوَّيْتُ فِي قَلَمِي أَرْوَيْتُ كُلَّ ظَمِي

المتوازن

تَوَازَنَتْ حِكَمِي حَمْدًا لِمُنْمَسِحٍ مُلَازِمًا مَدْحَهُ نَظْمًا بِمُنْسَجِمِ

التسجيع

تَسْجِيعِي وَمُنْتَظَمِي مَدْحًا حَلَا بِفَمِي حَاكَيْتُ فِي رَنَمِي ٱلشُّحْرُورَ بِٱلنَّغَمِ

الاتفاق

يَسُوعُ وَٱسْمُهُ فِي تَخْلِيصِنَا ٱتَّفَقَا فَهْوَ ٱلْمُخَلِّصُ لِلْإِنْسَانِ مِنْ نِقَمِ

الاعتراض

فَلَا ٱعْتِرَاضَ عَلَيْنَا فِي عِبَادَتِهِ وَهْوَ ٱلْإِلٰهُ وَمَنْ يَعْبُدْهُ يَعْتَصِمِ

العنوان

بِهِ ٱلسَّفِينَةُ نَجَتْ نُوحٍ وَهْيَ غَدَتْ عُنْوَانَ بِيعَتِهِ تُوقِي مِنَ ٱلْعَرِمِ

الترشيح

فَحَلَّ مَرْكَبَ تِيهٍ حِينَ رَكِبَهَا فَكَمْ تَرَشَّحَ مِنْهَا ٱلرُّشْدُ فِي ٱلظُّلَمِ

التلميح

تَلْمِيحُ تَعْلِيمِهَا ذَاكَ ٱلسِّرَاجُ بِهِ يُهْدَى وَفِي ٱلسُّرْجِ إِرْشَادٌ إِلَى ٱللَّقَمِ

التتميم

تَتْمِيمَ سِرِّ ٱلْفِدَا وَٱلْحُبِّ سَلَّمَهَا يَا سَعْدَهَا وَٱضْمَحَلَّ ٱلْبُؤْسُ بِٱلنِّعَمِ

التصريع

تَصْرِيعُ أَبْوَابِهَا يُوقِي مِنَ الْخَصِمِ فَالْمَرْءُ دَاخِلُهَا كَالْمَرْءِ فِي الْأُطُمِ

التجريد

يَنَالُ صَوْبَ الْحَيَا مِنْ بَسْطِ رَاحَتِهَا مَنْ قَدْ تَجَرَّدَ عَنْ كُفْرٍ بِرَبِّهِمِ

المعمَّى

حَوَى أَرِيجَ بَهَارٍ قَلْبُهُ وَسَمَا مِنْ شَخِّهِ يَهْتَدِي مَنْ عَنْ غِنَاهُ عَمِي

التعريض

تَطْوِيلُ تَعْرِيضِ هَاجِيهَا يُعَظِّمُهَا وَالْبُغْضُ لِلْحَقِّ مَكْرُوهٌ كَذِي أَضَمِ

التنكيت

دَعِ الْمُنَكِّتَ إِذْ فِي ذِي الْكَنِيسَةِ وَحْدَهَا نَجَاةٌ مِنَ الطُّوفَانِ وَالضَّرَمِ

التوشيح

فَالرَّبُّ وَشَّحَهَا مِنْ عِصْمَةٍ حُلَلًا أَوْقَتْ خُطَى حُكْمِهَا مِنْ زَلَّةِ الْقَدَمِ

تنسيق الصفات

فَاسْجُدْ لَهُ عِنْدَ تَنْسِيقِ الصِّفَاتِ وَقُلْ رَبٌّ إِلٰهٌ قَدِيرٌ كَامِلُ الشِّيَمِ

التعطف

فَاخْتَارَ ذَاكَ الصَّفَا رَأْسًا وَقَالَ لِذَا الْمُخْتَارِ كُنْ رَاعِيًا وَاعْطِفْ عَلَى الْغَنَمِ

العقد

مَهْمَا تَحُلُّ بِأَرْضٍ يَنْحَلِلْ بِسَمَا وَمَا رَبَطْتَ بِعَقْدِ الرَّبْطِ مِنْكَ رُمِي

التعليل

لَوْ لَمْ يَجِئْنَا بِتَعْلِيلٍ تَجَسُّدُهُ مِنْ مَرْيَمٍ مَا شُفِينَا مِنْ ضَنَى السَّقَمِ

المجاز

هِيَ الْمَجَازُ لِإِدْرَاكِ الشِّفَاءِ هِيَ م الْعَرْشُ الرَّفِيعُ وَبُرْجُ الْبَارِئِ النَّسَمِ

المبالغة

بِهَا خَلَاصُ جَمِيعِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِنْ   اَرَدتَّ بَالِغْ وَقُلْ بَلْ سَائِرِ ٱلْأُمَمِ

التوليد

لِكُلِّ هَوْلٍ طَرَا تُرْجَى شَفَاعَتُهَا   نَالَ ٱلْعِبَادُ بِهَا تَوْلِيدَ اَمْنِهِمِ

الاغراق

لَوْ تَابَ اِبْلِيسُ يَبْغِي مَاءَ نِعْمَتِهَا   لَاَغْرَقَتْهُ بِتَيَّارٍ مِنَ ٱلنِّعَمِ

الغلوّ

فَقَطْرَةٌ مِنْ نَدَاهَا لَا غُلُوَّ بِهَا   تَكَادُ تُحْيِي رَمِيمًا صَارَ كَٱلْعَدَمِ

التضمين

وَخَلْقُهَا فَاقَ فِي حُسْنٍ تَضَمَّنَهُ   وَاِنَّهُ خَيْرُ خَلْقِ ٱللّٰهِ كُلِّهِمِ

المدح المفرّغ

يَسْمُو ٱلْمَدِيحُ بِتَفْرِيغٍ لِطَلْعَتِهَا   سُمُوَّ خُلْقٍ حَوَتْ بِٱلْحِلْمِ مُلْتَثِمِ

التعديد

تَعْدِيدُ اَفْضَالِهَا يُبْدِي لِسَامِعِهِ   طُهْرًا وَبِرًّا وَحِلْمًا مَعْ عُلَى ٱلشِّيَمِ

التهذيب والتأديب

تَهْذِيبُ تَأْدِيبِهَا قَدْ زَادَنَا عَجَبًا   بِصَبْرِهَا حِينَ تَعْذِيبِ ٱبْنِهَا ٱلْعَلَمِ

التفصيل

فِي شَرْحِ آلَامِهِ ٱلتَّفْصِيلُ مُتَّسِعٌ   يَكِلُّ عَنْ شَرْحِهَا ذُو ٱلْفَهْمِ وَٱلْحِكَمِ

ايتلاف المعنى مع المعنى

وَصْلٌ وَفَصْلٌ لَهُ لِلْمُعْنِيِينَ غَدَا   تَاَلُّفٌ نَحْوَ صِدِّيقٍ وَمُجْتَرِمِ

التوكيد

لَهُ ٱلْقَضَاءُ بِتَوْكِيدٍ يَدِينُ بِهِ   اَمَا تَعِي اَنَّهُ ٱلدَّيَّانُ لِلْاُمَمِ

صناعة التنويع

تَنْوِيعُ سَطْوَتِهِ يَوْمًا يُجَاحِمُهُمْ   كَٱللَّيْثِ كَٱلسَّيْفِ كَٱلْجَبَّارِ كَٱلضَّرِمِ

المشاكلة

يَجْزِي إِسَاءَةَ شَانِيهِ بِسَيِّئَتِهِ   يُشَاكِلُ ٱلْخَيْرَ خَيْرًا حُفَّ بِٱلْكَرَمِ

مجنح القلب

مُدْنٍ ٱلصَّفْحِ جَنَاحَ ٱلْقَلْبِ عَاطِفُهُ   إِذَا رَأَى تَوْبَةً وَٱلدَّمْعُ فِي نَدَمِ

الجمع مع التفريق

فِي وَجْهِهِ ٱلنُّورُ لِلْأَصْحَابِ يَشْمَلُهُمْ   وَلِلْعِدَا ٱلنَّارُ فِي تَفْرِيقِ جَمْعِهِمِ

مراعاة النظير

وَجْهُ ٱلسَّمَاءِ بِهِ كَٱلْبَرْقِ مُلْتَمِعٌ   رَاعَى ٱلنَّظِيرَ بِوَجْهٍ لِلظِّبَاءِ سَبِي

التفريق

قَالُوا هُوَ ٱلْمَلِكُ وَٱلتَّفْرِيقُ يَظْهَرُ لِي   فَذَاكَ فَانٍ وَهٰذَا غَيْرُ مُنْعَدِمِ

السلب والايجاب

لَا يُوجِبُ ٱلسَّلْبَ فِي إِعْزَازِ عُصْبَتِهِ   وَيُوجِبُ ٱلذُّلَّ لِلْأَشْرَارِ فِي ٱلنِّقَمِ

المتقارب

أَرْجُو ٱلتَّقَارُبَ مِنْ أَعْدَادِ زُمْرَتِهِ   لَا مِنْ عَدِيدِ ٱلْعِدَا فِي ٱلْحَشْرِ وَٱلزَّحَمِ

حسن البيان

حُسْنُ ٱلْبَيَانِ بِنُورٍ مِنْهُ أَرْشَدَنِي   إِلَى ٱلتَّقَرُّبِ مِنْ أُولَئِكَ ٱلْخَدَمِ

المزاوجة

إِذَا تَزَاوَجَ هَمِّي وَٱلنَّجَاةُ لَهُ   بِٱلْمَدْحِ فُزْتُ وَوَقَّانِي مِنَ ٱلْغُمَمِ

الاستعانة

مَا سَامَنِي ٱلدَّهْرُ ضَيْمًا وَٱسْتَعَنْتُ بِهِ   إِلَّا وَنِلْتُ جِوَارًا مِنْهُ لَمْ يُضَمِ

التقسيم

فَالْكَوْنُ قَدْ عَمَّهُ تَقْسِيمُ أَنْعُمِهِ جِنْسًا وَنَوْعًا وَفَرْدًا وَهُوَ فِي شَمَمِ

التمثيل

تُرْبِي عَلَى ٱلنِّيلِ فِي ٱلتَّمْثِيلِ نِعْمَتُهُ شَتَّانَ مَا بَيْنَ طَلٍّ وَٱلْحَيَا ٱلْعَرِمِ

نفي الشيء بإيجابه

لَا يَنْتَفِي ٱلْجُودُ مِنْ إِيجَابِهِ أَبَدًا وَلَا يَشِينُ بِمَنٍّ رَوْنَقَ ٱلنِّعَمِ

مختوم الطرفين

مِنْ فَضْلِهِ أَرْتَجِي تَحْتِيمَهُ طَرَفِي قَضِيَّتِي فِي ٱلْقَضَا بِٱلْمَجْدِ وَٱلْعِظَمِ

التضمين المزدوج

تَضْمِينُ حَمْدِي لَهُ لِلْفَضْلِ مُزْدَوِجًا عَقْلًا وَنَقْلًا جَنَانِي جَاهُهُ وَفَمِي

الموارده

تَوَارَدَ ٱلْفِكْرُ فِي مَدْحِ ٱلْأَئِمَّةِ لِمَنْ غَدَا لِخَلَاصِي خَيْرَ مُلْتَزِمِ

التطريز

تَطْرِيزُ حَمْدِي بِمَدْحِي فِيهِ مُلْتَحِمٌ يَا حُسْنَ مُلْتَحِمٍ يَا حُسْنَ مُلْتَحِمِ

الاحتراس

إِلَيْكَ جِئْتُ أَيَا مَوْلَايَ مُنْسَحِقًا قَلْبًا وَمُحْتَرِسًا خُذْنِي مِنَ ٱلْخَدَمِ

المصغر

تُغَيْسَتِي مِنْ زُلَيْلَاتٍ جَنَتْ صَغُرَتْ وَلَى عُزَيْمِي مُهَيْزِيًا وَلَمْ يَقُمِ

التدبيج

فَٱزْرَقَّ أَبْيَضُ وَجْهِي حِينَ دَبَّجَهُ سَوَادُ إِثْمِي بِصِبْغٍ فِيهِ مُتَّسِمِ

المضارع

وَبِٱضْطِرَابِ جَنَانٍ وَٱضْطِرَامِ حَشًا ضَارَعْتُ ذَا زَلَّةٍ فِي يَوْمِ مُحْتَكِمِ

التصريف

فَٱلْقَلْبُ حَرَّقَهُ ٱلتَّصْرِيفُ فِي عِلَلٍ وَٱلْجَفْنُ قَرَّحَهُ ٱلتَّدْمِيعُ فِي نَدَمِ

براعة الطلب

بَرَاعَتِي فِي مَدِيحِي مُنْتَهَى طَلَبِي فَأَسْأَلُ سَخَاكَ فَلَمْ أَحْتَجْ إِلَى ٱلْكَلِمِ

الادماج

ادمجْتُ فِي مَدْحِهِ شَكْوَايَ مِنْ زَلَلِي وَعَسْجَدُ ٱلْخَدِّ مِنْ ذَا ٱلدَّمْعِ كَٱلْعَنَمِ

الحذف

اَرُومُ مِنْهُ ٱنْتِصَارًا حَاذِفًا هَلَعًا وَعَاضِدًا وَقْتَ هَوْلِ ٱلْحَشْرِ وَٱلنِّقَمِ

التاريخ

بِهِ ٱلْآثِمُ جَنَى بِرًّا فَقُلْتُ بِهِ مُذْ اَرَّخُوهُ لَنَا بِٱلْبِرِّ مُغْتَنِمِي *

حسن الختام

بِهِ غَدَا فِي عَلَاءٍ حُسْنُ مُبْتَدَايِ هَبْنِي بِهِ يَا إِلٰهِي حُسْنَ مُخْتَتَمِي

ختام الختام

وَأَخْتِمُ خِتَامِي بِأَنْ أَحْظَى بِمَطْلَمِكَ م ٱلْبَاهِي بِجِذْرِ ٱلسَّنَى يَا مُرْشِدَ ٱلْأُمَمِ



* قوله : (لنا بالبر مغتنمي) تاريخ بحساب الجُمَّل للسنة التي فيها نظمت هذه البديعيَّة وهي سنة ١٨٥٨

البحث السادس

في المطابقة

(من المثل السائر لابن الاثير باختصار وتصرُّف)

(راجع صفحة ٩٤ من علم الادب)

هٰذَا ٱلنَّوعُ هُوَ فِي ٱلْمَعَانِي ضِدُّ ٱلتَّجْنِيسِ فِي ٱلْأَلفَاظِ لِأَنَّ ٱلتَّجْنِيسَ هُوَ أَنْ يَتَّحِدَ ٱللَّفظُ مَعَ ٱخْتِلَافِ ٱلْمَعْنَى وَهٰذَا هُوَ أَنْ يَكُونَ ٱلْمَعْنَيَانِ ضِدَّيْنِ. وَقَدْ أَجْمَعَ أَرْبَابُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ عَلَى أَنَّ ٱلْمُطَابَقَةَ فِي ٱلْكَلَامِ هِيَ ٱلْجَمْعُ بَيْنَ ٱلشَّيْءِ وَضِدِّهِ كَٱلسَّوَادِ وَٱلْبَيَاضِ وَٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ. وَخَالَفَهُمْ فِي ذٰلِكَ قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ ٱلْكَاتِبُ فَقَالَ ٱلْمُطَابَقَةُ إِيرَادُ لَفْظَيْنِ مُتَسَاوِيَيْنِ فِي ٱلْبِنَاءِ وَٱلصِّيغَةِ مُخْتَلِفَيْنِ فِي ٱلْمَعْنَى. وَهٰذَا ٱلَّذِي ذَكَرَهُ هُوَ ٱلتَّجْنِيسُ بِعَيْنِهِ. غَيْرَ أَنَّ ٱلْأَسْمَاءَ لَا مُشَاحَّةَ فِيهَا إِلَّا إِذَا كَانَتْ مُشْتَقَّةً. وَلْنَنْظُرْ نَحْنُ فِي ذٰلِكَ وَهُوَ أَنْ نَكْشِفَ عَنْ أَصْلِ ٱلْمُطَابَقَةِ فِي وَضْعِ ٱللُّغَةِ وَقَدْ وَجَدْنَا ٱلطِّبَاقَ فِي ٱللُّغَةِ مِنْ طَابَقَ ٱلْبَعِيرُ فِي سَيْرِهِ إِذَا وَضَعَ رِجْلَهُ مَوْضِعَ يَدِهِ وَهٰذَا يُؤَكِّدُ مَا ذَكَرَهُ قُدَامَةُ لِأَنَّ ٱلْيَدَ غَيْرُ ٱلرِّجْلِ لَا ضِدُّهَا وَٱلْمَوْضِعُ ٱلَّذِي يَقَعَانِ فِيهِ وَاحِدٌ وَكَذٰلِكَ ٱلْمَعْنَيَانِ يَكُونَانِ مُخْتَلِفَيْنِ وَٱللَّفظُ ٱلَّذِي يَجْمَعُهُمَا وَاحِدٌ. فَقُدَامَةُ سَمَّى هٰذَا ٱلنَّوعَ مِنَ ٱلْكَلَامِ مُطَابَقَةً حَيْثُ كَانَ ٱلِٱسْمُ مُشْتَقًّا مِمَّا سُمِّيَ بِهِ وَذٰلِكَ مُنَاسِبٌ وَوَاقِعٌ فِي مَوْقِعِهِ إِلَّا أَنَّهُ جَعَلَ لِلتَّجْنِيسِ ٱسْمًا آخَرَ وَهُوَ ٱلْمُطَابَقَةُ وَلَا بَأْسَ بِهِ إِلَّا إِنْ كَانَ مِثْلَهُ بِٱلضِّدَّيْنِ كَٱلسَّوَادِ وَٱلْبَيَاضِ فَإِنَّهُ يَكُونُ قَدْ خَالَفَ ٱلْأَصْلَ ٱلَّذِي

اَصَّلَهُ بِالْمِثَالِ الَّذِي مَثَّلَهُ . وَامَّا غَيْرُهُ مِنْ اَرْبَابِ هٰذِهِ الصِّنَاعَةِ فَاِنَّهُمْ سَمَّوْا هٰذَا الضَّرْبَ مِنَ الْكَلَامِ مُطَابِقًا لِغَيْرِ اشْتِقَاقٍ وَلَا مُنَاسَبَةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُسَمَّاهُ . هٰذَا الظَّاهِرُ لَنَا مِنْ هٰذَا الْقَوْلِ اِلَّا اَنْ يَكُونُوا عَلِمُوا لِذٰلِكَ مُنَاسَبَةً لَطِيفَةً لَمْ نَعْلَمْهَا نَحْنُ . وَلْنَرْجِعْ اِلَى ذِكْرِ هٰذَا الْقِسْمِ مِنَ التَّأْلِيفِ وَاِيضَاحِ حَقِيقَتِهِ فَنَقُولُ : الْاَلْيَقُ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى اَنْ يُسَمَّى هٰذَا النَّوْعُ الْمُقَابَلَةَ لِاَنَّهُ لَا يَخْلُو الْحَالُ فِيهِ مِنْ وَجْهَيْنِ : اِمَّا اَنْ يُقَابَلَ الشَّيْءُ بِضِدِّهِ اَوْ يُقَابَلَ بِمَا لَيْسَ بِضِدِّهِ . وَلَيْسَ لَنَا وَجْهٌ ثَالِثٌ . (فَامَّا الْاَوَّلُ) وَهُوَ مُقَابَلَةُ الشَّيْءِ بِضِدِّهِ كَالسَّوَادِ وَالْبَيَاضِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهُمَا فَاِنَّهُ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : اَحَدُهُمَا مُقَابَلَةٌ فِي اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى وَالْآخَرُ مُقَابَلَةٌ فِي الْمَعْنَى دُونَ اللَّفْظِ . اَمَّا الْمُقَابَلَةُ فِي اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى فَكَقَوْلِهِ : فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا . فَقَابَلَ بَيْنَ الضَّحِكِ وَالْبُكَاءِ وَالْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ . وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُ : لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ . وَهٰذَا مِنْ اَحْسَنِ مَا يَجِيءُ فِي هٰذَا الْبَابِ . وَقَالَ اَيْضًا : خَيْرُ الْمَالِ عَيْنٌ سَاهِرَةٌ لِعَيْنٍ نَائِمَةٍ . وَمِنَ الْحَسَنِ الْمَطْبُوعِ الَّذِي لَيْسَ بِمُتَكَلَّفٍ قَوْلُ عَلِيٍّ لِعُثْمَانَ : اِنَّ الْحَقَّ ثَقِيلٌ مَرِيٌّ وَالْبَاطِلَ خَفِيفٌ وَبِيٌّ وَاَنْتَ رَجُلٌ اِنْ صُدِقْتَ سَخِطْتَ وَاِنْ كُذِبْتَ رَضِيتَ . فَقَابَلَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَالثَّقِيلَ الْمَرِيَّ بِالْخَفِيفِ الْوَبِيِّ وَالصِّدْقَ بِالْكَذِبِ وَالسُّخْطَ بِالرِّضَا وَهٰذِهِ خَمْسُ مُقَابَلَاتٍ فِي هٰذِهِ الْكَلِمَاتِ الْقِصَارِ . وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَوْلُهُ لَمَّا قَالَ الْخَوَارِجُ : (لَا حُكْمَ اِلَّا لِلّٰهِ تَعَالَى) : هٰذِهِ كَلِمَةُ حَقٍّ اُرِيدَ بِهَا بَاطِلٌ .

وَقَالَ ٱلْحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفَ لِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَقَدْ أَحْضَرَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ لِيَقْتُلَهُ فَقَالَ لَهُ: مَا ٱسْمُكَ. قَالَ: سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ. قَالَ بَلْ أَنْتَ شَقِيٌّ بْنُ كُسَيْرٍ. وَقَدْ كَانَ ٱلْحَجَّاجُ مِنَ ٱلْفُصَحَاءِ ٱلْمَعْدُودِينَ وَفِي كَلَامِهِ هٰذَا مُطَابَقَةٌ حَسَنَةٌ فَإِنَّهُ نَقَلَ ٱلْإِسْمَيْنِ إِلَى ضِدِّهِمَا فَقَالَ: فِي (سَعِيدٍ) شَقِيٌّ. وَفِي (جُبَيْرٍ) كُسَيْرٌ. وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْكَلَامِ لَمْ تَخْتَصَّ بِهِ ٱللُّغَةُ ٱلْعَرَبِيَّةُ دُونَ غَيْرِهَا مِنَ ٱللُّغَاتِ. وَمِمَّا وَجَدْتُهُ فِي لُغَةِ ٱلْفُرْسِ أَنَّهُ لَمَّا مَاتَ قُبَاذُ أَحَدُ مُلُوكِهِمْ قَالَ وَزِيرٌ: حَرَّكَنَا بِسُكُونِهِ. وَأَوَّلُ كِتَابِ ٱلْفُصُولِ لِبُقْرَاطَ فِي ٱلطِّبِّ قَوْلُهُ: ٱلْعُمْرُ قَصِيرٌ وَٱلصِّنَاعَةُ طَوِيلَةٌ. (وَأَمَّا ٱلْمُقَابَلَةُ فِي ٱلْمَعْنَى دُونَ ٱللَّفْظِ فِي ٱلْأَضْدَادِ) فَمِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُ ٱلْمُقَنَّعِ ٱلْكِنْدِيِّ مِنْ شُعَرَاءِ ٱلْحَمَاسَةِ:

لَهُمْ جُلُّ مَالِي إِنْ تَتَابَعَ لِي غِنًى ... وَإِنْ قَلَّ مَالِي لَمْ أُكَلِّفْهُمْ رِفْدَا

فَقَوْلُهُ: (تَتَابَعَ لِي غِنًى). بِمَعْنَى قَوْلِهِ: كَثُرَ مَالِي فَهُوَ إِذًا مُقَابَلَةٌ مِنْ جِهَةِ ٱلْمَعْنَى لَا مِنْ جِهَةِ ٱللَّفْظِ لِأَنَّ حَقِيقَةَ ٱلْأَضْدَادِ ٱللَّفْظِيَّةِ إِنَّمَا هِيَ فِي ٱلْمُفْرَدَاتِ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ نَحْوُ: قَامَ وَقَعَدَ. وَحَلَّ وَعَقَدَ. وَقَلَّ وَكَثُرَ. فَإِنَّ ٱلْقِيَامَ ضِدُّ ٱلْقُعُودِ. وَٱلْحَلَّ ضِدُّ ٱلْعَقْدِ. وَٱلْقَلِيلَ ضِدُّ ٱلْكَثِيرِ. فَإِذَا تُرِكَ ٱلْمُفْرَدُ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَتُوُصِّلَ إِلَى مُقَابَلَتِهِ بِلَفْظٍ مُرَكَّبٍ كَانَ ذٰلِكَ مُقَابَلَةً مِنْ جِهَةِ ٱلْمَعْنَى لَا مِنْ جِهَةِ ٱللَّفْظِ كَقَوْلِ هٰذَا ٱلشَّاعِرِ: (تَتَابَعَ لِي غِنًى). فِي مَعْنَى (كَثُرَ مَالِي) وَهٰذِهِ مُقَابَلَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ لَا لَفْظِيَّةٌ فَٱعْرِفْ ذٰلِكَ. (وَأَمَّا مُقَابَلَةُ ٱلشَّيْءِ بِمَا لَيْسَ بِضِدِّهِ. فَهِيَ ضَرْبَانِ: (أَحَدُهُمَا) أَنْ لَا يَكُونَ مِثْلًا. (وَٱلْآخَرُ) أَنْ

يَكُونَ مِثْلًا . فَٱلضَّرْبُ ٱلْأَوَّلُ يَتَفَرَّعُ إِلَى فَرْعَيْنِ : (ٱلْأَوَّلُ) مَا كَانَ بَيْنَ ٱلْمُقَابَلِ بِهِ وَٱلْمُقَابَلِ نَوْعُ مُنَاسَبَةٍ وَتَقَارُبٍ . كَقَوْلِ قُرَيْطِ ٱبْنِ أُنَيْفٍ :

يَجْزُونَ مِنْ ظُلْمِ أَهْلِ ٱلظُّلْمِ مَغْفِرَةً ۝ وَمِنْ إِسَاءَةِ أَهْلِ ٱلسُّوءِ إِحْسَانَا

فَقَابَلَ ٱلظُّلْمَ بِٱلْمَغْفِرَةِ وَلَيْسَ هُوَ ضِدًّا لَهَا. إِلَّا أَنَّهُ لَمَّا كَانَتِ ٱلْمَغْفِرَةُ قَرِيبَةً مِنَ ٱلْعَدْلِ حَسُنَتِ ٱلْمُقَابَلَةُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ ٱلظُّلْمِ . (ٱلْفَرْعُ ٱلثَّانِي) مَا كَانَ بَيْنَ ٱلْمُقَابَلِ وَٱلْمُقَابَلِ بِهِ بُعْدٌ وَذَاكَ مِمَّا لَا يَحْسُنُ ٱسْتِعْمَالُهُ . كَقَوْلِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

لِمَنْ يَطْلُبُ ٱلدُّنْيَا إِذَا لَمْ يُرِدْ بِهَا ۝ سُرُورَ مُحِبٍّ أَوْ مَسَاءَةَ مُجْرِمِ

فَإِنَّ ٱلْمُقَابَلَةَ ٱلصَّحِيحَةَ بَيْنَ ٱلْمُحِبِّ وَٱلْمُبْغِضِ لَا بَيْنَ ٱلْمُحِبِّ وَٱلْمُجْرِمِ

وَمِمَّا يَتَّصِلُ بِهٰذَا ٱلضَّرْبِ ضَرْبٌ مِنَ ٱلْكَلَامِ يُسَمَّى ٱلْمُؤَاخَاةَ بَيْنَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْمُؤَاخَاةَ بَيْنَ ٱلْمَبَانِي وَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ نَعْقِدَ لَهُ بَابًا مُفْرَدًا لٰكِنْ إِذْ رَأَيْنَاهُ يَنْظُرُ إِلَى ٱلتَّقَابُلِ مِنْ وَجْهٍ وَصَلْنَاهُ بِهِ. أَمَّا ٱلْمُؤَاخَاةُ بَيْنَ ٱلْمَعَانِي فَهُوَ أَنْ يُذْكَرَ ٱلْمَعْنَى مَعَ أَخِيهِ لَا مَعَ ٱلْأَجْنَبِيِّ . وَمِثَالُهُ أَنْ تَذْكُرَ وَصْفًا مِنَ ٱلْأَوْصَافِ وَتَقْرُنَهُ بِمَا يَقْرُبُ مِنْهُ وَيَلْتَئِمُ بِهِ فَإِنْ ذَكَرْتَهُ مَعَ مَا يَبْعُدُ مِنْهُ كَانَ ذٰلِكَ قَدْحًا فِي ٱلصِّنَاعَةِ وَإِنْ كَانَ جَائِزًا . وَقَدْ رَأَيْتُ أَبَا نُوَاسٍ يَقَعُ فِي هٰذَا ٱلْغَلَطِ كَثِيرًا كَقَوْلِهِ فِي وَصْفِ ٱلدِّيكِ :

لَهُ ٱعْتِدَالٌ وَٱنْتِصَابُ قَدِّ ۝ وَجِلْدُهُ يُشْبِهُ وَشْيَ ٱلْبُرْدِ

كَأَنَّمَا ٱلْهُدَّابُ فِي ٱلْفِرِنْدِ ۝ مُحْدَوْدِبُ ٱلظَّهْرِ كَرِيمُ ٱلْجَدِّ

فَإِنَّهُ ذَكَرَ ٱلظَّهرَ وَقَرَنَهُ بِذِكْرِ ٱلْجَدِّ وَهٰذَا لَا يُنَاسِبُ هٰذَا لِأَنَّ ٱلظَّهرَ فِي جُمْلَةِ ٱلْخَلْقِ وَٱلْجَدَّ فِي ٱلنَّسَبِ . وَأَمَّا (ٱلْمُؤَاخَاةُ بَيْنَ ٱلْمَبَانِي) فَإِنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِمَبَانِي ٱلْأَلْفَاظِ . فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ مُسْلِمِ بْنِ ٱلْوَلِيدِ :

فَأَذْهَبْ كَمَا ذَهَبَتْ غَوَادِي مُزْنَةٍ   يُثْنِي عَلَيْهَا ٱلسَّهْلُ وَٱلْأَوْعَارُ

وَٱلْأَحْسَنُ أَنْ : يُقَالُ ٱلسَّهْلُ وَٱلْوَعْرُ أَوِ ٱلسُّهُولُ وَٱلْأَوْعَارُ . لِيَكُونَ ٱلْبِنَاءُ ٱللَّفْظِيُّ وَاحِدًا أَيْ أَنْ يَكُونَ ٱللَّفْظَانِ وَارِدَيْنِ عَلَى صِيغَةِ ٱلْجَمْعِ أَوِ ٱلْإِفْرَادِ. وَإِذَا أَنْصَفْنَا هٰذَا ٱلْمَوْضِعَ وَجَدْنَا ٱلنَّاثِرَ مُطَالَبًا بِهِ دُونَ ٱلنَّاظِمِ لِمَكَانِ إِمْكَانِهِ مِنَ ٱلتَّصَرُّفِ . (ٱلضَّرْبُ ٱلثَّانِي) هُوَ فِي مُقَابَلَةِ ٱلشَّيْءِ بِمِثْلِهِ وَهُوَ يَتَفَرَّعُ إِلَى فَرْعَيْنِ: (أَحَدُهُمَا) مُقَابَلَةُ ٱلْمُفْرَدِ بِٱلْمُفْرَدِ . (وَٱلْآخَرُ) مُقَابَلَةُ ٱلْجُمْلَةِ بِٱلْجُمْلَةِ . (ٱلْفَرْعُ ٱلْأَوَّلُ) كَقَوْلِهِ: نَسُوا ٱللّٰهَ فَنَسِيَهُمْ . وَقَدْ رُوعِيَ هٰذَا ٱلْمَوْضِعُ فِي ٱلْقُرْآنِ كَثِيرًا فَإِذَا وَرَدَ فِي صَدْرِ آيَةٍ مَا يَحْتَاجُ إِلَى جَوَابٍ كَانَ جَوَابُهُ مُمَاثِلًا كَقَوْلِهِ: مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ . وَإِنْ كَانَ ذٰلِكَ غَيْرَ جَوَابٍ فَإِنَّهُ لَا يَلْتَزِمُ فِيهِ هٰذِهِ ٱلْمُرَاعَاةَ ٱللَّفْظِيَّةَ . (ٱلْفَرْعُ ٱلثَّانِي فِي مُقَابَلَةِ ٱلْجُمْلَةِ بِٱلْجُمْلَةِ) إِعْلَمْ أَنَّهُ إِذَا كَانَتِ ٱلْجُمْلَةُ مِنَ ٱلْكَلَامِ مُسْتَقْبَلَةً قُوبِلَتْ بِمُسْتَقْبَلَةٍ. وَإِنْ كَانَتْ مَاضِيَةً قُوبِلَتْ بِمَاضِيَةٍ وَرُبَّمَا قُوبِلَتِ ٱلْمَاضِيَةُ بِمُسْتَقْبَلَةٍ وَٱلْمُسْتَقْبَلَةُ بِٱلْمَاضِيَةِ إِذَا كَانَتْ إِحْدَاهُمَا بِمَعْنَى ٱلْأُخْرَى فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُهُ : قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي . فَإِنَّ هٰذَا تَقَابُلٌ مِنْ جِهَةِ ٱلْمَعْنَى وَلَوْ كَانَ ٱلتَّقَابُلُ مِنْ جِهَةِ ٱللَّفْظِ لَقَالَ : وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَإِنَّمَا أَهْتَدِي لَهَا

البحث السابع

في حقيقة التجنيس

(عن كتاب جنان الجناس للصفدي وعن الشريشي وابن الاثير)

(راجع صفحة ١١٨ من علم الادب)

اِعلَمْ اَنَّ ٱلتَّجنِيسَ غُرَّةٌ شَادِخَةٌ فِي وَجهِ ٱلكَلَامِ وَقَدْ تَصرَّفَ ٱلعُلَمَاءُ مِنْ اَربَابِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فِيهِ فَغرَّبُوا وَشرَّقُوا لَاسِيَّمَا ٱلمُحدَثِينَ مِنهُم. وَصَنَّفَ ٱلنَّاسُ فِيهِ كُتُبًا كَثِيرَةً وَجعلُوهُ اَبوَابًا مُتعَدِّدَةً وَٱختلَفُوا فِي ذٰلِكَ وَاَدخلُوا بَعضَ تِلْكَ ٱلأَبوَابِ فِي بَعضٍ . وَاِنَّمَا سُمِّي هٰذَا ٱلنَّوعُ مِنَ ٱلكَلَامِ مُجَانِسًا لِاَنَّ حُرُوفَ اَلفَاظِهِ يَكُونُ تَركِيبُهَا مِنْ جِنسٍ وَاحِدٍ . اَمَّا حَقِيقَتُهُ فَٱعلَمْ اَنَّ اَربَابَ ٱلبَلَاغَةِ عَرَّفُوهُ بِحُدُودٍ ٱختلَفَتْ اَقوَالُهُم فِيهَا . فَقَالَ ٱلرُّمَّانِيُّ : هُوَ بَيَانُ ٱلمَعَانِي بِاَنوَاعٍ مِنَ ٱلكَلَامِ يَجمَعُهَا اَصلٌ وَاحِدٌ مِنَ ٱللُّغَةِ . وَقَالَ قُدَامَةُ : هُوَ ٱشتِرَاكُ ٱلمَعَانِي فِي اَلفَاظٍ مُتَجَانِسَةٍ عَلَى جِهَةِ ٱلاِشتِقَاقِ . وَقَالَ ٱبنُ ٱلمُعتَزِّ : هُوَ اَنْ تَجِيءَ بِكَلِمَةٍ تُجَانِسُ اُختَهَا . وَقَالَ ٱبنُ ٱلاَثِيرِ ٱلجَزَرِيُّ : اَلجِنَاسُ هُوَ اَنْ يَكُونَ ٱللَّفظُ وَاحِدًا وَٱلمَعنَى مُختَلِفًا. وَقَالَ بَدرُ ٱلدِّينِ ٱبنُ ٱلنَّحوِيَّةِ فِي ضَوءِ ٱلمِصبَاحِ : هُوَ اَنْ يُؤتَى بِمُتَمَاثِلَينِ فِي ٱلحُرُوفِ اَو بَعضِهَا مُتَغَايِرَينِ فِي اَصلِ ٱلمَعنَى فِي غَيرِ رَدِّ ٱلعَجُزِ عَلَى ٱلصَّدرِ . فَهٰذَا جُملَةُ مَا حَضَرَنِي مِنْ حُدُودِ ٱلقَومِ عِندَ تَعلِيقِ هٰذَا ٱلفَصلِ .

(قُلتُ) اَمَا حَدُّ ٱلرُّمَّانِيِّ فَاِنَّهُ اَسلَمُ مِمَّا بَعدَهُ لٰكِنَّهُ غَيرُ جَامِعٍ

لِأَنَّهُ يَخْرُجُ عَنْهُ جِنَاسُ ٱلتَّصْحِيفِ وَٱلتَّصْرِيفِ وَٱلْمُرَكَّبِ وجِنَاسُ ٱلْمَعْنَى وَٱلْجِنَاسُ ٱلْمُطَمَّعُ . وَامَّا حَدُّ قُدَامَةَ فَإِنَّهُ عَرَّفَ ٱلشَّيْءَ بِنَفْسِهِ وَهٰذَا غَيْرُ جَائِزٍ لِأَنَّ قَوْلَهُ : (فِي أَلْفَاظٍ مُتَجَانِسَةٍ) يُفْضِي إِلَى ٱلدَّوْرِ لِأَنَّنَا بِهٰذَا لَا نَعْرِفُ ٱلْمُتَجَانِسَ إِلَّا بَعْدَ مَعْرِفَةِ ٱلْجِنَاسِ وَلَا نَعْرِفُ ٱلْجِنَاسَ إِلَّا بَعْدَ مَعْرِفَةِ ٱلْمُتَجَانِسِ فَأَدَّى ذٰلِكَ إِلَى ٱلدَّوْرِ وَهُوَ مُحَالٌ . وَيُمْكِنُ ٱلْجَوَابُ عَنْهُ بِأَنْ يُقَالَ : إِنَّهُ مَا ارَادَ ٱلْمُتَجَانِسَ فِي ٱلِاصْطِلَاحِ بَلِ ٱلْمُتَجَانِسَ فِي ٱللُّغَةِ اَيْ فِي ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُتَشَابِهَةِ . وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَهُوَ حَدٌّ مُضْطَرِبٌ إِذْ فِيهِ لَفْظٌ مُوهِمٌ وَٱلْحُدُودُ يُجْتَنَبُ فِيهَا مِثْلُ ذٰلِكَ . وَقَوْلُهُ : (عَلَى جِهَةِ ٱلِاشْتِقَاقِ) يَخْرُجُ عَنْهُ جَمِيعُ أَنْوَاعِ ٱلْجِنَاسِ إِلَّا ٱلْجِنَاسَ ٱلْمُشْتَقَّ . وَامَّا حَدُّ ٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ فَهُوَ اَيْضًا تَعْرِيفٌ دَوْرِيٌّ وَذٰلِكَ غَيْرُ جَائِزٍ فِي صِنَاعَةِ ٱلْحُدُودِ وَٱلرُّسُومِ . وَامَّا حَدُّ ٱبْنِ ٱلْأَثِيرِ فَهُوَ اَيْضًا غَيْرُ جَامِعٍ لِأَنَّهُ يَخْرُجُ عَنْهُ مِثْلُ ٱلْجِنَاسِ ٱلْمُزْدَوِجِ وَٱلْجِنَاسِ ٱلْمُطَمَّعِ وَٱلْجِنَاسِ ٱلْخَطِّيِّ وَٱلْجِنَاسِ ٱلْمَعْنَوِيِّ عَلَى مَا سَيَظْهَرُ لَكَ عِنْدَ كَشْفِ كُلِّ مَاهِيَّةٍ مِنْ أَنْوَاعِهِ . وَامَّا حَدُّ بَدْرِ ٱلدِّينِ ٱبْنِ ٱلنَّحْوِيَّةِ فَإِنَّ قَوْلَهُ : (مُتَمَاثِلَيْنِ) جِنْسٌ يَشْمَلُ ٱلْمُمَاثِلَ مُطْلَقًا سَوَاءٌ كَانَ لَفْظًا اوْ مَعْنًى . وَقَوْلُهُ : (فِي ٱلْحُرُوفِ) فَصْلٌ يُخْرِجُ بِهِ ٱلْمُمَاثِلَ مَعْنًى . وَقَوْلُهُ : (اَوْ بَعْضِهَا) مُدْخِلٌ لِلْجِنَاسِ ٱلْمُطَمَّعِ وَٱلْمُخَالِفِ وَٱلِاشْتِقَاقِ . وَقَوْلُهُ : (مُتَغَايِرَيْنِ فِي اَصْلِ ٱلْمَعْنَى) لَا فَائِدَةَ فِيهِ لِأَنَّ هٰذَا مَعْلُومٌ فِي قَوْلِهِ : (مُتَمَاثِلَيْنِ فِي ٱلْحُرُوفِ) اَيْ دُونَ مَعْنَاهُمَا لٰكِنْ فِيهِ زِيَادَةُ بَيَانٍ . وَقَوْلُهُ : (فِي غَيْرِ رَدِّ ٱلْعَجُزِ

عَلَى ٱلصَّدْرِ) هٰذَا لَاحَاجَةَ إِلَيْهِ وَلَا فَائِدَةَ فِي هٰذَا ٱلْاِحْتِرَازِ كَمَا يَظْهَرُ فِي ٱلتَّمْثِيلِ وَلَوْ زَادَ قَوْلَهُ : بِمُتَمَاثِلَيْنِ فِي ٱلْحُرُوفِ أَوْ بَعْضِهَا أَوْ صُورَتِهَا لَكَانَ أَجْوَدَ لِيَدْخُلَ فِيهِ ٱلْجِنَاسُ ٱلْخَطِّيُّ . وَٱلَّذِي أَخْتَارُهُ أَنَا فِي رَسْمِ ٱلْجِنَاسِ أَنْ أَقُولَ : هُوَ ٱلْإِتْيَانُ بِمُتَمَاثِلَيْنِ فِي ٱلْحُرُوفِ أَوْ بَعْضِهَا أَوْ فِي ٱلصُّورَةِ أَوْ زِيَادَةٍ فِي أَحَدِهِمَا أَوْ بِمُتَخَالِفَيْنِ فِي ٱلتَّرْتِيبِ نَظْمًا أَوِ ٱلْحَرَكَاتِ أَوْ بِمُمَاثِلٍ يُرَادِفُ مَعْنَاهُ مُمَاثِلًا آخَرَ . وَلَعَلَّ هٰذَا ٱلرَّسْمَ أَقْرَبُ إِلَى ٱلسَّلَامَةِ مِمَّا ذُكِرَ . فَقَوْلِي (مُتَمَاثِلَيْنِ) جِنْسٌ يَشْمُلُ ٱلْمُمَاثِلَ لَفْظًا وَمَعْنًى . وَقَوْلِي : (فِي ٱلْحُرُوفِ) فَصْلٌ أَخْرَجَ ٱلْمُمَاثِلَ مَعْنًى كَقَوْلِكَ : زَيْدٌ زَيْدٌ . وَأَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلتَّامَّ كَقَوْلِكَ يَحْيَى يَحْيَا . وَٱلْجِنَاسَ ٱلْمُرَكَّبَ كَقَوْلِكَ : نِعْمَتُهُ ذَاهِبَةٌ . إِنْ لَمْ يَكُنْ ذَا هِبَهْ . وَقَوْلِي : (أَوْ بَعْضِهَا) أَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلْمُطَمَّعَ كَقَوْلِكَ : ٱلْأَمْوَاهُ وَٱلْأَمْوَالُ . وَٱلْجِنَاسَ ٱلْمُقَارِبَ كَقَوْلِكَ : ٱلْهُمُومُ عَلَى قَدْرِ ٱلْهِمَمِ . وَقَوْلِي : (أَوْ فِي ٱلصُّورَةِ) أَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلْخَطِّيَّ كَقَوْلِكَ : لَا تُضِعْ يَوْمَكَ فِي نَوْمِكَ . وَقَوْلِي : (أَوْ زِيَادَةٍ) فِي أَحَدِهِمَا أَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلْمُخَالِفَ كَقَوْلِكَ : ٱلْمَاءُ مِنَ ٱلْأَحْجَارِ جَارٍ . وَقَوْلِي : أَوْ بِمُتَخَالِفَيْنِ فِي ٱلتَّرْتِيبِ أَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلْمُخَالِفَ كَقَوْلِكَ : بِيضُ ٱلصَّحَائِفِ وَٱلصَّفَائِحِ . وَقَوْلِي (أَوِ ٱلْحَرَكَاتِ) أَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلْمُغَايِرَ كَقَوْلِكَ : أَغْتَنِمْ هِبَاتِ ٱلْهَبَاتِ . وَقَوْلِي : (أَوْ بِمُمَاثِلٍ يُرَادِفُ مَعْنَاهُ مُمَاثِلًا آخَرَ نَظْمًا) أَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلْمَعْنَوِيَّ كَقَوْلِكَ : أَمْرٌ عَظِيمٌ تَظْهَرُ ٱللُّوثَةُ فِيهِ بِٱلْأَسَدِ . إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَقُولَ :

(بِٱللَّيثِ) ثُمَّ عدلتَ إِلَى مَا يُرَادِفُهُ وهُوَ ٱلأَسَدُ . وَقَوْلِي : (نَظْمًا) إِعلَامٌ بِأَنَّ هٰذَا ٱلنَّوعَ مِنَ ٱلْجِنَاسِ إِنَّمَا يَجِيءُ فِي ٱلنَّظْمِ دُونَ ٱلنَّثْرِ . وَتَظْهرُ عِلَّةُ هٰذَا فِي مَكَانِهِ . فَتَدَبَّرْ هٰذَا ٱلرَّسمَ تَجِدْهُ مَا أَخلَّ بِنَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ ٱلْجِنَاسِ . وَقَدْ قَالَ عُلَمَاءُ ٱلْبَدِيعِ : إِنَّ ٱلْجِنَاسَ يَحْسُنُ إِذَا قَلَّ وَأَتَى فِي ٱلْكَلَامِ عفوًا مِنْ غَيْرِ كَدٍّ وَلَا ٱستِكْرَاهٍ وَلَا بُعْدٍ وَلَا مَيْلٍ إِلَى جَانِبٍ . وَلَمْ يَخْتَجْ إِلَيْهِ بِكَثْرَةِ ٱسْتِعْمَالِهِ إِلَّا مَنْ قَصُرَتْ هِمَّتُهُ عَنِ ٱخْتِرَاعِ ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي هِيَ كَٱلنُّجُومِ ٱلزَّاهِرَةِ فِي أُفُقِ ٱلأَلْفَاظِ . وَإِذَا خَلَتْ بُيُوتُ ٱلأَلْفَاظِ مِنْ سُكَّانِ ٱلْمَعَانِي تَنَزَّلَتْ مَنْزِلَةَ ٱلأَطْلَالِ ٱلْبَالِيَةِ

البحث الثامن

في ذكر انواع التجنيس

إِعْلَمْ أَنَّ أَنْوَاعَ ٱلْجِنَاسِ كَثِيرَةٌ ٱقْتَصَرْنَا عَلَى ذِكْرِ أَخَصِّهَا وَأَوَّلُهَا ٱلْجِنَاسُ (ٱلْمُرَكَّبُ) وَهُوَ أَنْ يَكُونَ أَحَدُ ٱلرُّكْنَيْنِ كَلِمَةً مُفْرَدَةً وَٱلأُخْرَى مُرَكَّبَةً مِنْ كَلِمَتَيْنِ وَهُوَ عَلَى ضَرْبَيْنِ : فَٱلأَوَّلُ مَا تَشَابَهَ لَفظًا وَخطًّا كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

عَضَّنَا ٱلدهرُ بِنَابِهْ لَيتَ مَا حَلَّ بِنَا بِهْ

وَٱلثانِي مَا هُوَ مُتَشَابِهٌ لَفظًا لَا خطًّا وَيُسَمَّى ٱلْمفرُوقَ كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

لَا تَعرِضَنَّ عَلَى ٱلرُّوَاةِ قَصِيدَةً مَا لَمْ تَكُنْ بَالَغتَ فِي تَهْذِيبِهَا

وَإِذَا عَرَضْتَ ٱلشِّعْرَ غَيْرَ مُهَذَّبٍ　　عَدُّوهُ مِنْكَ وَسَاوِسًا تَهْذِي بِهَا

وَلِلْجِنَاسِ ٱلْمُرَكَّبِ نَوْعٌ يُسَمَّى (ٱلْمَرْفُوَّ) وَهُوَ أَنْ يَكُونَ أَحَدُ ٱلرُّكْنَيْنِ جُزْءًا مُسْتَقِلًّا وَٱلْآخَرُ مُجَزًّأً مِنْ كَلِمَةٍ أُخْرَى كَقَوْلِ ٱلْحَرِيرِيِّ :

وَٱلْمَكْرَ مَهْمَا ٱسْطَعْتَ لَا تَأْتِهِ　　لِتَقْتَنِيَ ٱلسُّؤْدَدَ وَٱلْمَكْرُمَهْ

وَقَوْلِهِ :

وَلَا تَلْهُ عَنْ تَذْكَارِ ذَنْبِكَ وَٱبْكِهِ　　بِدَمْعٍ يُحَاكِي ٱلْمُزْنَ حَالَ مَصَابِهِ
وَمَثِّلْ لِعَيْنَيْكَ ٱلْحِمَامَ وَوَقْعَهُ　　وَرَوْعَةَ مَلْقَاهُ وَمَطْعَمَ صَابِهِ

وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ لَا يَخْلُو مِنْ تَعَسُّفٍ وَتَعْقِيدٍ فِي ٱلتَّرْكِيبِ . وَمِنْ أَنْوَاعِ ٱلْجِنَاسِ (ٱلْمُلَفَّقُ) وَحَدُّهُ أَنْ يَكُونَ كُلٌّ مِنَ ٱلرُّكْنَيْنِ مُرَكَّبًا مِنْ كَلِمَتَيْنِ وَهٰذَا هُوَ ٱلْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْمُرَكَّبِ وَقَلَّ مَنْ أَفْرَدَهُ عَنْهُ كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

وَكَمْ لِجِبَاهِ ٱلرَّاغِبِينَ إِلَيْهِ مِنْ　　مَجَالِ سُجُودٍ فِي مَجَالِسِ جُودِ

وَمِنْ أَنْوَاعِ ٱلْجِنَاسِ (ٱلْمُذَيَّلُ وَٱللَّاحِقُ) . فَٱلْمُذَيَّلُ هُوَ مَا زَادَ أَحَدُ رُكْنَيْهِ عَلَى ٱلْآخَرِ حَرْفًا فِي آخِرِهِ فَصَارَ لَهُ كَٱلذَّيْلِ كَقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ :

يَمُدُّونَ فِي أَيْدٍ عَوَاصٍ عَوَاصِمٍ　　تَصُولُ بِأَسْيَافٍ قَوَاضٍ قَوَاضِبِ

وَقَالَ آخَرُ :

عَذِيرِيَ مِنْ دَهْرٍ مُوَارٍ مُوَارِبٍ　　لَهُ حَسَنَاتٌ كُلُّهُنَّ ذُنُوبُ

وَقَدْ تَأْتِي ٱلزِّيَادَةُ فِي آخِرِ ٱلذَّيْلِ بِحَرْفَيْنِ كَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ فِي رِثَاءٍ :

فَيَا لَكَ مِنْ حَزْمٍ وَعَزْمٍ طَوَاهُمَا جَدِيدُ ٱلرَّدَى تَحْتَ ٱلصَّفَا وَٱلصَّفَائِحِ

وَأَرَقُّ مَا سَمِعْتُ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُ ٱلْقَائِلِ :

إِنَّ ٱلْبُكَاءَ هُوَ ٱلشِّفَاءُ م مِنَ ٱلْجَوَى بَيْنَ ٱلْجَوَانِحْ

وَأَمَّا (ٱللَّاحِقُ) فَهُوَ مَا أُبْدِلَ فِي أَحَدِ رُكْنَيْهِ حَرْفٌ مِنْ غَيْرِ مَخْرَجِهِ كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ فِي جَوَابِ رِسَالَةٍ : وَصَلَ كِتَابُكَ فَتَنَاوَلْتُهُ بِٱلْيَمِينِ وَوَضَعْتُهُ مَكَانَ ٱلْعِقْدِ ٱلثَّمِينِ . وَكَقَوْلِ ٱلْآخَرِ : أَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ . وَأَمَّا ٱلسَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ . وَٱلْفَرْقُ بَيْنَ ٱلْجِنَاسِ ٱللَّاحِقِ وَٱلْجِنَاسِ ٱلْمُضَارِعِ أَنَّ حُرُوفَ ٱللَّاحِقِ لَيْسَتْ مِنْ مَخْرَجٍ وَاحِدٍ كَٱلنُّونِ وَٱلْقَافِ فِي : (تَقْهَرْ وَتَنْهَرْ). وَأَمَّا حُرُوفُ ٱلْمُضَارِعِ فَإِنَّهَا مُتَشَابِهَةٌ فِي ٱلْمَخْرَجِ كَمَا وَرَدَ فِي ٱلْحَدِيثِ : إِنَّ ٱلْخَيْلَ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيهَا ٱلْخَيْرُ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ بَعْضِهِمْ : ٱلْبَرَايَا أَهْدَافُ ٱلْبَلَايَا . فَإِنَّ ٱلرَّاءَ وَٱللَّامَ مِنْ مَخْرَجٍ وَاحِدٍ وَمِنْ أَنْوَاعِ ٱلتَّجْنِيسِ (ٱلتَّامُّ). وَهُوَ مَا تَمَاثَلَ رُكْنَاهُ وَٱتَّفَقَا لَفْظًا وَٱخْتَلَفَا مَعْنًى مِنْ غَيْرِ تَفَاوُتٍ فِي تَصْحِيحِ تَرْكِيبِهِمَا وَٱخْتِلَافِ حَرَكَتِهِمَا سَوَاءٌ كَانَا مِنِ ٱسْمَيْنِ أَوْ مِنْ فِعْلَيْنِ أَوْ مِنِ ٱسْمٍ وَفِعْلٍ فَإِنَّهُمْ قَالُوا : إِذَا ٱنْتَظَمَ رُكْنَاهُ مِنْ نَوْعٍ وَاحِدٍ كَٱسْمَيْنِ أَوْ فِعْلَيْنِ سُمِّيَ مُمَاثِلًا وَإِنِ ٱنْتَظَمَا مِنْ نَوْعَيْنِ كَٱسْمٍ وَفِعْلٍ سُمِّيَ مُسْتَوْفًى . وَجُلُّ ٱلْقَصْدِ تَمَاثُلُ ٱلرُّكْنَيْنِ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْخَطِّ وَٱلْحَرَكَةِ وَٱخْتِلَافُهُمَا فِي ٱلْمَعْنَى . فَمِنْهُ قَوْلُ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ : صَوْلَةُ ٱلْبَاطِلِ سَاعَةٌ وَصَوْلَةُ ٱلْحَقِّ إِلَى ٱلسَّاعَةِ . وَمِنَ ٱلشِّعْرِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ فِي رِثَاءِ صَغِيرٍ ٱسْمُهُ يَحْيَى :

وَسَمَّيْتُهُ يَحْيَى لِيَحْيَا وَلَمْ يَكُنْ   إِلَى رَدِّ أَمْرِ اللّٰهِ فِيهِ سَبِيلُ

وَكَقَوْلِ أَبِي نُوَاسٍ :

عَبَّاسُ عَبَّاسٌ إِذَا احْتَدَمَ الْوَغَى   وَالْفَضْلُ فَضْلٌ وَالرَّبِيعُ رَبِيعُ

وَمِنْهُ الْجِنَاسُ (الْمُطَرَّفُ) وَهُوَ مَا زَادَ أَحَدُ رُكْنَيْهِ عَلَى الْآخَرِ حَرْفًا فِي طَرَفِهِ الْأَوَّلِ . وَهٰذَا هُوَ الْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُذَيَّلِ . فَإِنَّ الزِّيَادَةَ فِي الْمُذَيَّلِ تَكُونُ فِي آخِرِهِ . وَأَمَّا الْمُطَرَّفُ فَتَكُونُ زِيَادَتُهُ فِي أَوَّلِهِ لِتَصِيرَ لَهُ كَالطَّرَفِ وَيُسَمَّى أَيْضًا النَّاقِصَ وَالْمُرْدَفَ وَالْمُزْدَوِجَ وَالْمُكَرَّرَ وَالْمَرْدُودَ وَالْمُجَنَّبَ وَفِي تَسْمِيَتِهِ اخْتِلَافٌ. وَالزِّيَادَةُ تَكُونُ تَارَةً فِي أَوَّلِ الرُّكْنِ الثَّانِي وَتَارَةً فِي أَوَّلِ الرُّكْنِ الْأَوَّلِ كَقَوْلِهِمْ : لَمَّا مَلَأَ الصَّاعَ انْصَاعَ . وَكَقَوْلِ الْآخَرِ :

وَكَمْ سَبَقَتْ مِنْهُ إِلَيَّ عَوَارِفُ   ثَنَائِي عَلَى تِلْكَ الْعَوَارِفِ وَارِفُ

وَكَمْ غُرَرٍ مِنْ بِرِّهِ وَلَطَائِفٍ   لِشُكْرِي عَلَى تِلْكَ اللَّطَائِفِ طَائِفُ

وَمِنْ أَنْوَاعِ الْجِنَاسِ (اللَّفْظِيُّ) وَهُوَ أَنْ يَتَمَاثَلَ رُكْنَانِ وَيَتَجَانَسَا خَطًّا إِلَّا أَنَّ أَحَدَهُمَا يُخَالِفُ الْآخَرَ بِإِبْدَالِ حَرْفٍ مِنْهُ فِيهِ مُنَاسَبَةٌ لَفْظِيَّةٌ كَمَا الَّذِي يُكْتَبُ بِالضَّادِ وَالظَّاءِ كَقَوْلِهِ : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ . وَكَقَوْلِ ابْنِ الْعَفِيفِ :

أَحْسَنُ خَلْقِ اللّٰهِ وَجْهًا وَفَمًا   إِنْ لَمْ يَكُنْ أَحَقَّ بِالْمَدْحِ فَمَنْ

وَمِنْ أَنْوَاعِ الْجِنَاسِ (الْجِنَاسُ الْمَقْلُوبُ) وَسَمَّاهُ قَوْمٌ الْمَعْكُوسَ وَذٰلِكَ ضَرْبَانِ : أَحَدُهُمَا عَكْسُ الْأَلْفَاظِ وَالثَّانِي عَكْسُ الْحُرُوفِ . فَالْأَوَّلُ كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ : عَادَاتُ السَّادَاتِ سَادَاتُ الْعَادَاتِ وَكَقَوْلِ الْآخَرِ :

إِنَّ ٱللَّيَالِي لِلْأَنَامِ مَنَاهِلٌ ... تُطْوَى وَتُنْشَرُ بَيْنَهَا ٱلْأَعْمَارُ
فَقِصَارُهُنَّ مَعَ ٱلْهُمُومِ طَوِيلَةٌ ... وَطِوَالُهُنَّ مَعَ ٱلسُّرُورِ قِصَارُ

وَهٰذَا ٱلضَّرْبُ مِنَ ٱلتَّجْنِيسِ لَهُ حَلَاوَةٌ وَعَلَيْهِ رَوْنَقٌ وَقَدْ سَمَّاهُ قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ ٱلْكَاتِبُ: (ٱلتَّبْدِيلَ) . وَذٰلِكَ ٱسْمٌ مُنَاسِبٌ لِمُسَمَّاهُ لِأَنَّ مُؤَلِّفَ ٱلْكَلَامِ يَأْتِي بِمَا كَانَ مُقَدَّمًا فِي جُزْءِ كَلَامِهِ ٱلْأَوَّلِ مُؤَخَّرًا فِي ٱلثَّانِي وَبِمَا كَانَ مُؤَخَّرًا فِي ٱلْأَوَّلِ مُقَدَّمًا فِي ٱلثَّانِي. وَأَمَّا ٱلضَّرْبُ ٱلثَّانِي مِنْ هٰذَا ٱلْقِسْمِ وَهُوَ عَكْسُ ٱلْحُرُوفِ فَكَقَوْلِ بَعْضِهِمْ :

أَهْدَيْتُ شَيْئًا يَقِلُّ لَوْلَا ... أُحْدُوثَةُ ٱلْفَالِ وَٱلتَّبَرُّكْ
كُرْسِي تَفَاءَلْتُ فِيهِ لَمَّا ... رَأَيْتُ مَقْلُوبَهُ يَسُرُّكْ

وَرُبَّمَا كَانَ ٱلْبَيْتُ كُلُّهُ مَعْكُوسًا يُقْرَأُ طَرْدًا وَعَكْسًا وَٱلْبَيْتُ ٱلثَّانِي مِنْهُ مَعْكُوسٌ كَقَوْلِ ٱلْأَرَّجَانِيِّ :

أُحِبُّ ٱلْمَرْءَ ظَاهِرُهُ جَمِيلٌ ... لِصَاحِبِهِ وَبَاطِنُهُ سَلِيمُ
مَوَدَّتُهُ تَدُومُ لِكُلِّ هَوْلٍ ... وَهَلْ كُلٌّ مَوَدَّتُهُ تَدُومُ

وَمِنْ أَنْوَاعِهِ (ٱلْجِنَاسُ ٱلْمُقَارِبُ) وَمِنْهُمْ مَنْ يُسَمِّيهِ جِنَاسَ ٱلْاِشْتِقَاقِ وَجِنَاسَ ٱلْاِقْتِضَابِ وَهُوَ يَنْقَسِمُ إِلَى أَنْوَاعٍ مِنْهَا أَنْ يَكُونَ ٱلرُّكْنَانِ ٱسْمَيْنِ كَقَوْلِ ٱلصَّاحِبِ: إِنَّ ٱلْهُمُومَ بِقَدْرِ ٱلْهِمَمِ. وَكَقَوْلِ ٱلْقَائِلِ : رَوْحٌ وَرَيْحَانٌ . وَمِنْهَا أَنْ يَكُونَ أَحَدُ ٱلرُّكْنَيْنِ ٱسْمًا وَٱلْآخَرُ فِعْلًا نَحْوُ : وَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَى ٱللّٰهِ. وَمِنْهَا أَنْ يَكُونَ ٱلرُّكْنَانِ فِعْلَيْنِ . كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

اِنْ تَرَ ٱلدُّنيَا اَغارَتْ　　وَنُجُومَ ٱلسَّعْدِ غَارَتْ
فَصُرُوفُ ٱلدَّهْرِ شَتَّى　　كُلَّمَا جَارَتْ لَجَارَتْ

وَمِنْ اَنوَاعِ ٱلجِنَاسِ (ٱلمَعْنَوِيُّ) وَهُوَ اَنْ يَكُونَ اَحَدُ رُكْنَي ٱلجِنَاسِ دَالاً عَلَى مَعْنَى ٱلآخَرِ فِي غَيْرِ اَلفَاظِهِ وَهٰذَا ٱلنَّوعُ ٱسْتَدْرَكَهُ فُضَلَاءُ ٱلمُتَاخِرِينَ وَٱسْتَخْرَجُوهُ وَبَعْضُهُمْ لَا يَعُدُّهُ جِنَاسًا لِاَنَّهُ قَلَّمَا يُوجَدُ فِي ٱلكَلَامِ لِتَوَعُّرِ مَسْلَكِهِ . وَسَبَبُ وُرُودِ هٰذَا ٱلنَّوْعِ فِي ٱلكَلَامِ اَنَّ ٱلشَّاعِرَ يَقْصِدُ ٱلمُجَانَسَةَ فِي كَلَامِهِ بَيْنَ لَفظَتَيْنِ فَلَا يُوَافِقُهُ ٱلوَزْنُ عَلَى اِثْبَاتِ اَحَدِ رُكْنَي ٱلجِنَاسِ فَيَعْدِلُ اِلَى مَا يُوَافِقُهُ مَعْنًى وَيُخَالِفُهُ لَفظًا وَعَلَى هٰذَا لَا وُرُودَ لِهٰذَا ٱلنَّوعِ فِي ٱلكَلَامِ ٱلمَنْثُورِ اِذْ لَا وَزْنَ يَضْطَرُّهُ اِلَى ٱلاِتْيَانِ بِذٰلِكَ . وَمِنْ اَمْثِلَةِ اَرْبَابِ ٱلبَدِيعِ فِي هٰذَا ٱلنَّوْعِ قَوْلُ ٱلشَّاعِرِ يَمْدَحُ ٱلمُهَلَّبَ بْنَ اَبِي صُفْرَةَ وَيَذْكُرُ فِعلَهُ بِقَطَرِيِّ بْنِ ٱلفُجَاءَةِ وَكَانَ قَطَرِيٌّ يُكَنَّى اَبَا نَعَامَةَ :

حَدَا بِاَبِي اُمِّ ٱلرِّئَالِ فَاَجْفَلَتْ　　نَعَامَتُهُ مِنْ عَارِضٍ مُتَلَهِّبِ

اَرَادَ اَنْ يَقُولَ : حَدَا بِاَبِي نَعَامَةَ فَاَجْفَلَتْ نَعَامَتُهُ اَيْ رُوحُهُ فَلَمْ يُسَاعِدْهُ ٱلوَزْنُ فَقَالَ : بِاَبِي اُمِّ ٱلرِّئَالِ لِاَنَّ ٱلرِّئَالَ فِرَاخُ ٱلنَّعَامَةِ. وَٱعْلَمْ اَنَّ ٱلشُّعَرَاءَ عِنْدَ نَظْمِ هٰذِهِ ٱلاَبْيَاتِ مَا نَحَوْا هٰذِهِ ٱلمَقَاصِدَ ٱلبَعِيدَةِ . وَلَا يَخْفَى مَا فِي هٰذَا مِنَ ٱلتَّكَلُّفِ وَٱلتَّعَسُّفِ

الفصل الثامن

في فنون الانشاء

البحث الاوَّل

في المثل وشرفهِ

(عن الميداني)

(راجع صفحة ١٢٦ من علم الادب)

قَالَ ٱلْمُبَرِّدُ: ٱلْمَثَلُ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلْمِثَالِ وَهُوَ قَوْلٌ سَائِرٌ يُشَبَّهُ بِهِ حَالُ ٱلثَّانِي بِٱلْأَوَّلِ وَٱلْأَصْلُ فِيهِ ٱلتَّشْبِيهُ. فَقَوْلُهُمْ: مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ إِذَا ٱنْتَصَبَ مَعْنَاهُ: أَشْبَهَ ٱلصُّورَةَ ٱلْمُنْتَصِبَةَ. وَفُلَانٌ أَمْثَلُ مِنْ فُلَانٍ أَيْ أَشْبَهُ بِمَا لَهُ ٱلْفَضْلُ. وَٱلْمِثَالُ ٱلْقِصَاصُ لِتَشْبِيهِ حَالِ ٱلْمُقْتَصِّ مِنْهُ بِحَالِ ٱلْأَوَّلِ فَحَقِيقَةُ ٱلْمَثَلِ مَا جُعِلَ كَٱلْعَلَمِ لِلتَّشْبِيهِ بِحَالِ ٱلْأَوَّلِ. كَقَوْلِ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ:

كَانَتْ مَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ لَهَا مَثَلًا ... وَمَا مَوَاعِيدُهَا إِلَّا ٱلْأَبَاطِيلُ

فَمَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ عَلَمٌ لِكُلِّ مَا لَا يَصِحُّ مِنَ ٱلْمَوَاعِيدِ. وَقَالَ ٱبْنُ ٱلسِّكِّيتِ: ٱلْمَثَلُ لَفْظٌ يُخَالِفُ لَفْظَ ٱلْمَضْرُوبِ لَهُ وَيُوَافِقُ مَعْنَاهُ مَعْنَى ذٰلِكَ ٱللَّفْظِ. شَبَّهُوهُ بِٱلْمِثَالِ ٱلَّذِي يُعْمَلُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ. وَقَالَ غَيْرُهُمَا: سُمِّيَتِ ٱلْحِكَمُ ٱلْقَائِمُ صِدْقُهَا فِي ٱلْعُقُولِ أَمْثَالًا لِٱنْتِصَابِ صُوَرِهَا

فِي ٱلعُقُولِ مُشْتَقَّةً مِنَ ٱلمُثُولِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلِٱنْتِصَابُ . وَقَالَ اِبْرَاهِيمُ ٱلنَّظَّامُ : يَجْتَمِعُ فِي ٱلْمَثَلِ اَرْبَعَةٌ لَا تَجْتَمِعُ فِي غَيْرِهِ مِنَ ٱلكَلَامِ اِيجَازُ ٱللَّفْظِ وَاِصَابَةُ ٱلْمَعْنَى وَحُسْنُ ٱلتَّشْبِيهِ وَجُودَةُ ٱلكِنَايَةِ فَهُوَ نِهَايَةُ ٱلْبَلَاغَةِ. قَالَ ٱبْنُ ٱلْمُقَفَّعِ : اِذَا جُعِلَ ٱلكَلَامُ مَثَلًا كَانَ اَوْضَحَ لِلْمَنْطِقِ وَآنَقَ لِلسَّمْعِ وَاَوْسَعَ لِشُعُوبِ ٱلحَدِيثِ . قَالَ آخَرُ : اِنَّ ٱلاَمْثَالَ هِيَ وَشْيُ ٱلكَلَامِ وَجَوْهَرُ ٱللَّفْظِ وَحُلَى ٱلْمَعْنَى ٱلَّتِي تَخَيَّرَتْهَا ٱلْعَرَبُ وَقَدَّمَتْهَا ٱلعَجَمُ وَنَطَقَ بِهَا كُلُّ زَمَانٍ وَدَارَتْ عَلَى كُلِّ لِسَانٍ . فَهِيَ اَبْقَى مِنَ ٱلشِّعْرِ وَاَشْرَفُ مِنَ ٱلخَطَابَةِ . لَمْ يَسِرْ شَيْءٌ مَسِيرَهَا وَلَا عَمَّ عُمُومَهَا حَتَّى قِيلَ : اَسْيَرُ مِنْ مَثَلٍ . قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

مَا اَنْتَ اِلَّا مَثَلٌ سَائِرٌ يَعْرِفُهُ ٱلجَاهِلُ وَٱلْعَابِرُ

هٰذَا وَاِنَّ ٱلاَمْثَالَ تَتَحَلَّى بِغَرَائِبِهَا صُدُورُ ٱلمَحَافِلِ وَٱلمَحَاضِرِ . وَتَتَحَلَّى بِفَوَائِدِهَا قُلُوبُ ٱلْبَادِي وَٱلحَاضِرِ . وَتُتَقَيَّدُ اَوَابِدُهَا فِي بُطُونِ ٱلدَّفَاتِرِ وَٱلصَّحَائِفِ . وَتَطِيرُ نَوَاهِضُهَا فِي رُؤُوسِ ٱلشَّوَاهِقِ وَظُهُورِ ٱلتَّنَائِفِ . يَحْتَاجُ ٱلخَطِيبُ وَٱلشَّاعِرُ اِلَى اِدْمَاجِهَا وَاِدْرَاجِهَا لِٱشْتِمَالِهَا عَلَى اَسَالِيبِ ٱلحُسْنِ وَٱلجَمَالِ

وَٱعْلَمْ اَنَّ ٱلحَاجَةَ اِلَى ٱلاَمْثَالِ شَدِيدَةٌ وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلْعَرَبَ لَمْ تَضَعِ ٱلاَمْثَالَ اِلَّا لِاَسْبَابٍ اَوْجَبَتْهَا وَحَوَادِثَ ٱقْتَضَتْهَا . فَصَارَ ٱلْمَثَلُ ٱلمَضْرُوبُ لِاَمْرٍ مِنَ ٱلاُمُورِ عِنْدَهُمْ كَٱلْعَلَامَةِ ٱلَّتِي يُعْرَفُ بِهَا ٱلشَّيْءُ وَلَيْسَ فِي كَلَامِهِمْ اَوْجَزُ مِنْهَا وَلَا اَشَدُّ ٱخْتِصَارًا . وَسَبَبُ ذٰلِكَ مَا اَذْكُرُهُ لَكَ لِتَكُونَ مِنْ مَعْرِفَتِهِ عَلَى يَقِينٍ فَاَقُولُ : قَدْ جَاءَ عَنِ

ٱلْعَرَبِ مِنْ جُمْلَةِ أَمْثَالِهِمْ (إِنْ يَبْغِ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبْغِ عَلَيْكَ ٱلْقَمَرُ) . وَهُوَ مَثَلٌ يُضْرَبُ لِلْأَمْرِ ٱلظَّاهِرِ ٱلْمَشْهُورِ وَٱلْأَصْلُ فِيهِ كَمَا قَالَ ٱلْمُفَضَّلُ بْنُ مُحَمَّدٍ : أَنَّهُ بَلَغَنَا أَنَّ بَنِي ثَعْلَبَةَ بْنِ سَعْدِ بْنِ ضَبَّةَ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ تَرَاهَنُوا عَلَى ٱلشَّمْسِ وَٱلْقَمَرِ لَيْلَةَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِنَ ٱلشَّهْرِ . فَقَالَتْ طَائِفَةٌ : تَطْلُعُ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ يُرَى . وَقَالَتْ طَائِفَةٌ : يَغِيبُ ٱلْقَمَرُ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ ٱلشَّمْسُ فَتَرَاضَوْا بِرَجُلٍ جَعَلُوهُ حَكَمًا . فَقَالَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ : إِنَّ قَوْمِي يَبْغُونَ عَلَيَّ . فَقَالَ ٱلْحَكَمُ : إِنْ يَبْغِ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبْغِ عَلَيْكَ ٱلْقَمَرُ . فَذَهَبَتْ مَثَلًا . وَمِنَ ٱلْمَعْلُومِ أَنَّ قَوْلَ ٱلْقَائِلِ : (إِنْ يَبْغِ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبْغِ عَلَيْكَ ٱلْقَمَرُ) . إِذَا أُخِذَ عَلَى حَقِيقَتِهِ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إِلَى ٱلْقَرَائِنِ ٱلْمَنُوطَةِ بِهِ وَٱلْأَسْبَابِ ٱلَّتِي قِيلَ مِنْ أَجْلِهَا لَا يُعْطِي مِنَ ٱلْمَعْنَى مَا قَدْ أَعْطَاهُ ٱلْمَثَلُ . وَذَاكَ ٱلْمَثَلُ لَهُ مُقَدِّمَاتٌ وَأَسْبَابٌ قَدْ عُرِفَتْ وَصَارَتْ مَشْهُورَةً بَيْنَ ٱلنَّاسِ مَعْلُومَةً عِنْدَهُمْ . وَحَيْثُ كَانَ ٱلْأَمْرُ كَذٰلِكَ جَازَ إِيرَادُ هٰذِهِ ٱللَّفَظَاتِ فِي ٱلتَّعْبِيرِ عَنِ ٱلْمَعْنَى ٱلْمُرَادِ وَلَوْلَا تِلْكَ ٱلْمُقَدِّمَاتُ ٱلْمَعْلُومَةُ وَٱلْأَسْبَابُ ٱلْمَعْرُوفَةُ لَمَا فُهِمَ مِنْ قَوْلِ ٱلْقَائِلِ : (إِنْ يَبْغِ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبْغِ عَلَيْكَ ٱلْقَمَرُ) مَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ ٱلْمَعْنَى ٱلْمَقْصُودِ بَلْ مَا كَانَ يُفْهَمُ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ مَعْنًى مُفِيدٌ . لِأَنَّ ٱلْبَغْيَ هُوَ ٱلظُّلْمُ وَٱلْقَمَرُ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَظْلِمَ أَحَدًا فَكَانَ يَصِيرُ مَعْنَى ٱلْمَثَلِ : إِنْ كَانَ يَظْلِمُكَ قَوْمُكَ لَا يَظْلِمُكَ ٱلْقَمَرُ . وَهٰذَا كَلَامٌ مُخْتَلُّ ٱلْمَعْنَى لَيْسَ بِمُسْتَقِيمٍ . فَلَمَّا كَانَتِ ٱلْأَمْثَالُ كَالرُّمُوزِ وَٱلْإِشَارَاتِ ٱلَّتِي يُلَوَّحُ بِهَا عَلَى ٱلْمَعَانِي

تلويحاً صارت من اوجز الكلام واكثره اختصاراً . ومن اجل ذلك قيل في حد المثل : إنه القول الوجيز المرسل ليعمل عليه وحيث هي بهذه المثابة فلا ينبغي الاخلال بمعرفتها

البحث الثاني

في آداب المثل وشروطه

(عن الماوردي ومقدمة كليلة ودمنة)

(راجع صفحة ١٣٣ من علم الادب)

ومن آداب الحكيم ان يجتنب امثال العامة الغوغاء ويتخصص بامثال العلماء الأدباء فإن لكل صنف من الناس امثالاً تشاكلهم فلا تجد لساقط إلا مثلاً ساقطاً وتشبيهاً مستقبحاً ....

ولذلك علتان : إحداهما ان الامثال من هواجس الهمم وخطرات النفوس ولم يكن لذي الهمة الساقطة إلا مثل مرذول وتشبيه معلول. والثانية ان الامثال مستخرجة من احوال المتمثلين بها فبحسب ما هم عليه تكون امثالهم . فلهاتين العلتين وقع الفرق بين امثال الخاصة وامثال العامة وربما الف المتخصص مثلاً عامياً او تشبيهاً ركيكاً لكثرة ما يطرق سمعه من مخالطة الاراذل فيسترسل في ضربه مثلاً فيصير به مثلاً كالذي حكي عن الاصمعي : ان الرشيد سأله يوماً عن انساب بعض العرب . فقال : على الخبير

سَقَطتُ يا امِيرَ ٱلْمُؤمِنِينَ . فقالَ لَهُ ٱلفضلُ بنُ ٱلرَّبيعِ : اسقطَ ٱللهُ جَنبَيكَ اتُخاطِبُ امِيرَ ٱلْمُؤمِنِينَ بِمِثلِ هٰذا ٱلخِطَابِ . فَكانَ ٱلفضلُ ٱبنُ ٱلرَّبيعِ مَعَ قِلَّةِ عِلمِهِ اعلَمَ بِمَا يُستَعمَلُ مِنَ ٱلكَلامِ فِي مُحاوَرَةِ ٱلخُلَفاءِ مِنَ ٱلاَصمَعِيِّ ٱلَّذِي هُوَ واحِدُ عَصرِهِ وَقرِيعُ دَهرِهِ . وَلِلأَمثالِ مِنَ ٱلكَلامِ مَوقِعٌ فِي ٱلأَسماعِ وتأثِيرٌ فِي ٱلقُلُوبِ لَا يَكادُ ٱلكَلامُ ٱلْمُرسَلُ يَبلُغُ مَبلَغَها وَلَا يُؤَثِّرُ تأثِيرَهَا لِأَنَّ ٱلمَعانِيَ بِهَا لَائِحَةٌ وَٱلشَّواهِدَ بِهَا وَاضِحَةٌ وَٱلنُّفُوسَ بِهَا وَامِقَةٌ وَٱلقُلُوبَ بِهَا وَاثِقَةٌ وَٱلعُقُولَ لَهَا مُوافِقَةٌ . وَلَهَا اربَعَةُ شُرُوطٍ : احَدُها صِحَّةُ ٱلتَّشبِيهِ . وَٱلثَّانِي انْ يَكُونَ ٱلعِلمُ بِهَا سابِقًا وَٱلكُلُّ عَلَيها مُوافِقًا . وَٱلثَّالِثُ انْ يُسرِعَ وُصُولُهَا لِلفَهمِ وَيَعجَلَ تَصَوُّرُهَا فِي ٱلوَهمِ مِنْ غَيرِ ٱرتِيَاءٍ فِي ٱستِخراجِها وَلَا كَدٍّ فِي ٱستِنباطِهَا . وَٱلرَّابِعُ انْ تُنَاسِبَ حالَ ٱلسَّامِعِ لِتَكُونَ ابلَغَ تأثِيرًا وَاحسَنَ مَوقِعًا . فَإِذا ٱجتَمَعَتْ فِي ٱلأَمثالِ ٱلمَضرُوبَةِ هٰذِهِ ٱلشُّرُوطُ ٱلأَربَعَةُ كانَتْ زِينَةً لِلكَلامِ وَجَلاءً لِلمَعانِي وَتَدَبُّرًا لِلأَفهامِ

قالَ صاحِبُ كَلِيلَةَ وَدِمنَةَ : يَجِبُ عَلَى قارِئِ ٱلأَمثالِ انْ يُدِيمَ ٱلنَّظَرَ فِيهَا مِنْ غَيرِ ضَجَرٍ وَيَلتَمِسَ جَواهِرَ مَعانِيهَا وَلَا يَظُنَّ انَّ نَتِيجَتَها إِنَّمَا هِيَ ٱلاِخبارُ عَنْ حِيلَةِ بَهِيمَتَينِ اوْ مُحاوَرَةِ سَبُعٍ لِثَورٍ فَيَنصَرِفَ بِذٰلِكَ عَنِ ٱلغَرَضِ ٱلمَقصُودِ وَيَكُونَ مَثَلُهُ مَثَلَ ٱلصَّيَّادِ ٱلَّذِي كانَ فِي بَعضِ ٱلخُلجانِ يَصِيدُ فِيهِ ٱلسَّمَكَ فِي زَورَقٍ . فَرَاى ذاتَ يَومٍ فِي عَقِيقِ ٱلماءِ صَدَفَةً تَتَلَألَأُ حُسنًا فَتَوَهَّمَها جَوهَرًا لَهُ قِيمَةٌ . وَكانَ قَدْ ٱلقَى

شَبَكَتَهُ فِي ٱلْبَحْرِ فَٱشْتَمَلَتْ عَلَى سَمَكَةٍ كَانَتْ قُوتَ يَوْمِهِ . فَخَلَّاهَا وَقَذَفَ نَفْسَهُ فِي ٱلْمَاءِ لِيَأْخُذَ ٱلصَّدَفَةَ . فَلَمَّا أَخْرَجَهَا وَجَدَهَا فَارِغَةً لَاشَيْءَ فِيهَا مِمَّا ظَنَّ فَنَدِمَ عَلَى تَرْكِ مَا فِي يَدِهِ لِلطَّمَعِ وَتَأَسَّفَ عَلَى مَا فَاتَهُ . فَلَمَّا كَانَ ٱلْيَوْمُ ٱلثَّانِي تَنَحَّى عَنْ ذٰلِكَ ٱلْمَكَانِ وَأَلْقَى شَبَكَتَهُ فَأَصَابَ حُوتًا صَغِيرًا وَرَأَى أَيْضًا صَدَفَةً سَنِيَّةً فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا وَسَاءَ ظَنُّهُ بِهَا فَتَرَكَهَا . وَٱجْتَازَ بِهَا بَعْضُ ٱلصَّيَّادِينَ فَأَخَذَهَا فَوَجَدَ فِيهَا دُرَّةً تُسَاوِي أَمْوَالًا . . . وَكَذٰلِكَ ٱلْجُهَّالُ عَلَى إِغْفَالِ أَمْرِ ٱلتَّفَكُّرِ فِي ٱلْأَمْثَالِ وَٱلْاغْتِرَارِ بِهَا وَتَرْكِ ٱلْوُقُوفِ عَلَى أَسْرَارِ مَعَانِيهَا وَٱلْأَخْذِ بِظَاهِرِهَا دُونَ ٱلْأَخْذِ بِبَاطِنِهَا . وَمَنْ صَرَفَ هِمَّتَهُ إِلَى ٱلنَّظَرِ فِي أَبْوَابِ ٱلْهَزْلِ مِنْهَا فَهُوَ كَرَجُلٍ أَصَابَ أَرْضًا طَيِّبَةً حُرَّةً وَحَبًّا صَحِيحًا فَزَرَعَهَا وَسَقَاهَا حَتَّى إِذَا قَرُبَ خَيْرُهَا تَشَاغَلَ عَنْهَا بِجَمْعِ مَا فِيهَا مِنَ ٱلزَّهْرِ وَقَطْعِ ٱلشَّوْكِ فَأَهْلَكَ بِتَشَاغُلِهِ مَا كَانَ أَحْسَنَ فَائِدَةً وَأَجْمَلَ عَائِدَةً . وَيَنْبَغِي لِلنَّاظِرِ فِي ٱلْأَمْثَالِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهَا تَنْقَسِمُ إِلَى أَرْبَعَةِ أَغْرَاضٍ : أَحَدُهَا مَا قُصِدَ فِيهِ إِلَى وَضْعِهَا عَلَى أَلْسِنَةِ ٱلْبَهَائِمِ غَيْرِ ٱلنَّاطِقَةِ مِنْ مُسَارَعَةِ أَهْلِ ٱلْهَزْلِ مِنَ ٱلشُّبَّانِ إِلَى قِرَاءَتِهَا فَتُسْتَمَالُ بِهِ قُلُوبُهُمْ لِأَنَّ هٰذَا هُوَ ٱلْغَرَضُ بِٱلنَّوَادِرِ مِنْ حِيَلِ ٱلْحَيَوَانَاتِ . وَٱلثَّانِي إِظْهَارُ خَيَالَاتِ ٱلْحَيَوَانَاتِ بِصُنُوفِ ٱلْأَصْبَاغِ وَٱلْأَلْوَانِ لِيَكُونَ أُنْسًا لِقُلُوبِ ٱلْمُلُوكِ وَيَكُونَ حِرْصُهُمْ عَلَيْهَا أَشَدَّ لِلنُّزْهَةِ فِي تِلْكَ ٱلصُّوَرِ . وَٱلثَّالِثُ أَنْ يَكُونَ عَلَى هٰذِهِ ٱلصِّفَةِ فَتَتَّخِذَهَا ٱلْمُلُوكُ وَٱلسُّوقَةُ فَيَكْثُرَ بِذٰلِكَ ٱنْتِسَاخُهَا وَلَا يَبْطُلَ فَيَخْلَقَ عَلَى مُرُورِ ٱلْأَيَّامِ . وَلِيَنْتَفِعَ

بِذلكَ ٱلْمُصَوِّرُ وَٱلنَّاسِخُ ابَدًا . وَٱلْغَرَضُ ٱلرَّابِعُ وَهُوَ ٱلْاَقْصَى مَخْصُوصٌ بِٱلْفَيْلَسُوفِ خَاصَّةً لِتَكُونَ ٱلْاَمْثَالُ رِيَاضَةً لِعَقْلِهِمْ اِذْ فِيهَا يَجِدُونَ مَا يَحْتَاجُ اِلَيْهِ ٱلْاِنْسَانُ مِنْ سِيَاسَةِ نَفْسِهِ وَاَهْلِهِ وَخَاصَّتِهِ وَجَمِيعِ مَا يَحْتَاجُ اِلَيْهِ مِنْ اَمْرِ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ وَاُولَاهُ وَيَحُضُّهُ عَلَى حُسْنِ طَاعَتِهِ لِلْمُلُوكِ وَيُجَنِّبُهُ مَا تَكُونُ مُجَانَبَتُهُ خَيْرًا لَهُ *

البحث الثالث

في آداب المحادثة والرواية

(عن مروج الذهب للمسعودي)

(راجع صفحة ١٦٩ من علم الادب)

قَدْ قَالَتِ ٱلْحُكَمَاءُ : لَاتَحْسُنُ ٱلْمُحَادَثَةُ اِلَّا بِحُسْنِ ٱلْفَهْمِ . وَقَالُوا : تَعَلَّمْ حُسْنَ ٱلِاسْتِمَاعِ كَمَا تَتَعَلَّمُ حُسْنَ ٱلْكَلَامِ . وَحُسْنُ ٱلِاسْتِمَاعِ هُوَ اَشْهَى اِلَى ٱلْمُحَدِّثِ حَتَّى يَنْقَضِيَ حَدِيثُهُ . وَمِنْ اَدَبِ

---

* وقال بعضهم في وصف كليلة ودمنة :

اذا افتخر الرجال بفضل علم ... ومدَّت فيهِ السنة طويلهْ
ففاخر ما استطعت بما حوتهُ ... بطون كتاب دمنةَ مع كليلهْ
كتاب يفرق البلغاء فيهِ ... وألباب الورى منهُ كليلهْ
وكم فيهِ عجائب كامنات ... على دنيا وآخرةٍ دليلهْ
وكم حكم على افواه طير ... وآداب وامثال مقولهْ
يراها الجاهل المأفون هزلًا ... وحسبكها لعالمها فضيلهْ

ٱلْحَدِيثِ وَمُوجِبَاتِهِ أَنْ لَا يُقْتَضَبَ ٱقْتِضَابًا وَلَا يُهْجَمَ عَلَيْهِ وَأَنْ يُتَوَصَّلَ إِلَى إِجْرَائِهِ بِمَا يُشَاكِلُهُ . وَأَنْ يُسْتَنْسَبَ لَهُ مَا يَحْسُنُ أَنْ يَجْرِيَ فِي غَرَضِهِ حَتَّى يَكُونَ بَعْضُ ٱلْمُفَاوَضَةِ مُتَعَلِّقًا بِبَعْضٍ عَلَى حَسَبِ مَا قَالُوا فِي ٱلْمَثَلِ : إِنَّ ٱلْحَدِيثَ ذُو شُجُونٍ يُرِيدُونَ بِذٰلِكَ تَشَعُّبَهُ وَتَفَرُّعَهُ عَنْ أَصْلٍ وَاحِدٍ إِلَى وُجُوهٍ مِنَ ٱلْمَعَانِي كَثِيرَةٍ إِذْ كَانَ ٱلْعَيْشُ كُلُّهُ فِي ٱلْجَلِيسِ ٱلْمُمْتِعِ . وَقَالَ رَجُلٌ : إِنِّي مَا أَمَلُّ ٱلْحَدِيثَ . فَقَالَ ٱلسَّامِعُ : إِنَّمَا يُمَلُّ ٱلْعَتِيقُ لَا ٱلْحَدِيثُ . وَقَدْ أَكْثَرَتِ ٱلشُّعَرَاءُ مِنَ ٱلْإِغْرَاقِ فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى وَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ عَلِيِّ بْنِ ٱلْعَبَّاسِ ٱلرُّومِيِّ :

وَسَئِمْتُ كُلَّ مَآرِبِي ... فَكَأَنَّ أَطْيَبَهَا غَثِيثُ
إِلَّا ٱلْحَدِيثَ فَإِنَّهُ ... مِثْلُ ٱسْمِهِ أَبَدًا حَدِيثُ

وَأَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ ٱلْعَبَّاسِ :

وَضَجِرْتُ إِلَّا مِنْ لِقَاءِ مُحَدِّثٍ ... حَسَنِ ٱلْحَدِيثِ يَزِيدُنِي تَعْلِيمَا

وَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُ ٱلْمُحَدِّثِينَ مِنْ أَهْلِ ٱلْأَدَبِ أَنَّ مِنَ ٱلْأَدَبِ عَدَمَ إِطَالَةِ ٱلْحَدِيثِ مِنَ ٱلنَّدِيمِ وَأَنَّ أَحْلَى لِحَدِيثِهِ وَأَحْسَنَ لِمَوْقِعِهِ أَنْ يَجْتَنِبَ مِنْهُ ٱلْأَحَادِيثَ ٱلطِّوَالَ ذَاتَ ٱلْمَعَانِي ٱلْمُغَلْغَلَةِ وَٱلْأَلْفَاظِ ٱلْحَشْوِيَّةِ ٱلَّتِي ٱفْتَنَّ بِٱقْتِصَاصِهَا سُمَّارُ ٱلْمَجَالِسِ وَتَتَعَلَّقُ بِهَا ٱلنُّفُوسُ وَتُحْتَسَى عَلَى أَوَاخِرِهَا ٱلْكُؤُوسُ . فَإِنَّ ذٰلِكَ بِمَجَالِسِ ٱلْقُصَّاصِ أَشْبَهُ مِنْهُ بِمَجَالِسِ ٱلْخَوَاصِّ . وَقَدْ ذَكَرَ هٰذَا ٱلْمَعْنَى فَأَجَادَ فِيهِ عَبْدُ ٱللّٰهِ بْنُ ٱلْمُعْتَزِّ وَوَصَفَ ذٰلِكَ مِنْ أَوْصَافِ ٱلشَّرَابِ عَلَى ٱلْمُعَاقَرَةِ فَقَالَ :

بَيْنَ أَقْدَاحِهِمْ حَدِيثٌ قَصِيرٌ   هُوَ سِحْرٌ وَمَا سِوَاهُ حَرَامُ

وَهٰذِهِ طَرِيقَةُ مَنْ ذَهَبَ فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى إِلَى ٱسْتِمَاعِ ٱلْمُلَحِ

البحث الرابع

في حقيقة التاريخ وموضوعه

(عن كشف الظنون للحاج خلفا ومروج الذهب للمسعودي)

(راجع صفحة ١٩٤ من علم الادب)

ٱلتَّأْرِيخُ فِي ٱللُّغَةِ تَعْرِيفُ ٱلْوَقْتِ مُطْلَقًا . وَيُقَالُ : أَرَّخْتُ ٱلْكِتَابَ تَأْرِيخًا وَوَرَّخْتُهُ تَوْرِيخًا كَمَا فِي ٱلصِّحَاحِ وَهُوَ مُعَرَّبٌ. وَعُرْفًا هُوَ تَعْيِينُ وَقْتٍ لِيُنْسَبَ إِلَيْهِ زَمَانٌ يَأْتِي عَلَيْهِ أَوْ مُطْلَقًا يَعْنِي سَوَاءٌ كَانَ مَاضِيًا أَوْ مُسْتَقْبَلًا . وَقِيلَ : تَعْرِيفُ ٱلْوَقْتِ بِٱسْتِنَادِهِ إِلَى أَوَّلِ حُدُوثِ أَمْرٍ شَائِعٍ مِنْ ظُهُورِ مِلَّةٍ أَوْ دَوْلَةٍ أَوْ أَمْرٍ هَائِلٍ مِنَ ٱلْآثَارِ ٱلْعُلْوِيَّةِ وَٱلْحَوَادِثِ ٱلسُّفْلِيَّةِ مِمَّا يَنْدُرُ وُقُوعُهُ جُعِلَ ذٰلِكَ مَبْدَأً لِمَعْرِفَةِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَوْقَاتِ ٱلْحَوَادِثِ وَٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي يَجِبُ ضَبْطُ أَوْقَاتِهَا فِي مُسْتَأْنَفِ ٱلسِّنِينَ . وَقِيلَ : عَدَدُ ٱلْأَيَّامِ وَٱللَّيَالِي بِٱلنَّظَرِ إِلَى مَا مَضَى مِنَ ٱلسَّنَةِ وَٱلشُّهُورِ إِلَى مَا بَقِيَ . وَعِلْمُ ٱلتَّأْرِيخِ هُوَ مَعْرِفَةُ أَحْوَالِ ٱلطَّوَائِفِ وَبُلْدَانِهِمْ وَرُسُومِهِمْ وَصَنَائِعِ أَشْخَاصِهِمْ وَأَنْسَابِهِمْ وَوَفَيَاتِهِمْ إِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ . وَمَوْضُوعُهُ أَحْوَالُ ٱلْأَشْخَاصِ ٱلْمَاضِيَةِ مِنَ ٱلْأَنْبِيَاءِ وَٱلْأَوْلِيَاءِ وَٱلْعُلَمَاءِ وَٱلْحُكَمَاءِ وَٱلشُّعَرَاءِ وَٱلْمُلُوكِ وَغَيْرِهِمْ . وَٱلْغَرَضُ مِنْهُ ٱلْوُقُوفُ عَلَى ٱلْأَحْوَالِ ٱلْمَاضِيَةِ . وَفَائِدَتُهُ ٱلْعِبْرَةُ بِتِلْكَ ٱلْأَحْوَالِ

ٱلْمَاضِيَةِ وَٱلتَّنَصُّحُ بِهَا وَحُصُولُ مَلَكَةِ ٱلتَّجَارِبِ بِٱلْوُقُوفِ عَلَى تَقَلُّبَاتِ ٱلزَّمَنِ لِيُحْتَرَزَ عَنْ أَمْثَالِ مَا نُقِلَ مِنَ ٱلْمَضَارِّ وَيُسْتَجْلَبَ نَظَائِرُهَا مِنَ ٱلْمَنَافِعِ . وَهٰذَا ٱلْعِلْمُ كَمَا قِيلَ عُمْرٌ آخَرُ لِلنَّاظِرِينَ وَٱنْتِفَاعٌ (لِلْمُطَالِعِ) فِي مِصْرِهِ بِمَنَافِعَ تَحْصُلُ لِلْمُسَافِرِينَ

وَلَوْلَا تَقْيِيدُ ٱلْعُلَمَاءِ خَوَاطِرَهُمْ عَلَى ٱلدَّهْرِ لَبَطَلَ أَوَّلُ ٱلْعِلْمِ وَضَاعَ آخِرُهُ إِذْ كَانَ كُلُّ عِلْمٍ مِنَ ٱلْأَخْبَارِ يُسْتَنْبَطُ وَٱلْفِقْهُ مِنْهَا يُسْتَثَارُ وَٱلْفَصَاحَةُ مِنْهَا تُسْتَفَادُ وَأَصْحَابُ ٱلْقِيَاسِ مِنْهَا يَبْنُونَ . وَأَهْلُ ٱلْمَقَالَاتِ بِهَا يَحْتَجُّونَ وَمَعْرِفَةُ ٱلنَّاسِ مِنْهَا تُؤْخَذُ وَأَمْثَالُ ٱلْحُكَمَاءِ فِيهَا تُوجَدُ وَمَكَارِمُ ٱلْأَخْلَاقِ وَمَعَالِيهَا مِنْهَا تُقْتَبَسُ . وَآدَابُ سِيَاسَةِ ٱلْمُلْكِ وَٱلْحَرْبِ مِنْهَا تُلْتَمَسُ وَكُلُّ غَرِيبَةٍ مِنْهَا تُعْرَفُ وَكُلُّ أُعْجُوبَةٍ مِنْهَا تُسْتَطْرَفُ . وَهُوَ عِلْمٌ يَسْتَمْتِعُ بِسَمَاعِهِ ٱلْعَالِمُ وَٱلْجَاهِلُ وَيَسْتَعْذِبُ مَوْقِعَهُ ٱلْأَحْمَقُ وَٱلْعَاقِلُ وَيَأْنَسُ بِمَكَانِهِ وَيَنْزِعُ إِلَيْهِ ٱلْخَاصِّيُّ وَٱلْعَامِّيُّ وَيَمِيلُ إِلَى رِوَايَتِهِ ٱلْعَرَبِيُّ وَٱلْعَجَمِيُّ . وَبَعْدُ فَإِنَّهُ يُوصَلُ بِهِ كُلُّ كَلَامٍ وَيُتَزَيَّنُ بِهِ فِي كُلِّ مَقَامٍ وَيُحْتَمَلُ بِهِ فِي كُلِّ مَشْهَدٍ وَيُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ مَحْفِلٍ . فَفَضِيلَةُ عِلْمِ ٱلْأَخْبَارِ بَيِّنَةٌ عَلَى كُلِّ عِلْمٍ وَشَرَفُ مَنْزِلَتِهِ صَحِيحَةٌ فِي كُلِّ فَهْمٍ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى عِلْمِهِ وَتَيَقُّنِ مَا فِيهِ وَإِيرَادِهِ وَإِصْدَارِهِ إِلَّا إِنْسَانٌ قَدْ تَجَرَّدَ لِلْعِلْمِ وَفَهِمَ مَعْنَاهُ وَذَاقَ ثَمَرَتَهُ وَٱسْتَشْعَرَ مِنْ عِزِّهِ وَنَالَ مِنْ سُرُورِهِ



البحث الخامس

في شرف التاريخ

(عن ابن خلدون)

(راجع صفحة ١٩٤ من علم الادب)

اما بعد فإن فن التاريخ من الفنون التي تتداولها الامم والاجيال وتشد اليها الركائب والرحال وتسمو الى معرفتها السوقة والاغفال . وتتنافس فيها الملوك والاقيال . وتتساوى في فهمها العلماء والجهال . اذ هو في ظاهره لا يزيد على اخبار عن الايام والدول . والسوابق من القرون الاول . تنمو فيها الاقوال وتضرب فيها الامثال . وتطرف بها الاندية اذا غصها الاحتفال . وتؤدي لنا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الاحوال . واتسع للدول فيها النطاق والمجال . وعمروا الارض حتى نادى بهم الارتحال . وحان منهم الزوال . وفي باطنه نظر وتحقيق . وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق . وعلم بكيفيات الوقائع واسبابها عميق . فهو لذلك اصيل في الحكمة عريق . وجدير بان يعد في علومها وخليق . وان فحول المؤرخين في الاسلام قد استوعبوا اخبار الايام وجمعوها وسطروها في صفحات الدفاتر واودعوها . وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها وابتدعوها . وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها . واقتفى تلك الآثار الكثير ممن بعدهم واتبعوها . وادوها الينا

كَمَا سَمِعُوهَا . وَلَمْ يُلَاحِظُوا أَسْبَابَ ٱلْوَقَائِعِ وَٱلْأَحْوَالِ وَلَمْ يُرَاعُوهَا . وَلَا رَفَضُوا تُرَّهَاتِ ٱلْأَحَادِيثِ وَلَا دَفَعُوهَا. فَٱلتَّحْقِيقُ قَلِيلٌ. وَطَرْفُ ٱلتَّنْقِيحِ فِي ٱلْغَالِبِ كَلِيلٌ. وَٱلْغَلَطُ وَٱلْوَهْمُ نَسِيبٌ لِلْأَخْبَارِ وَخَلِيلٌ . وَٱلتَّقْلِيدُ عَرِيقٌ فِي ٱلْآدَمِيِّينَ وَسَلِيلٌ. وَٱلتَّطَفُّلُ عَلَى ٱلْفُنُونِ عَرِيضٌ طَوِيلٌ . وَمَرْعَى ٱلْجَهْلِ بَيْنَ ٱلْأَنَامِ وَخِيمٌ وَبِيلٌ. وَٱلْحَقُّ لَا يُقَاوَمُ سُلْطَانُهُ. وَٱلْبَاطِلُ يُقْذَفُ بِشِهَابِ ٱلنَّظَرِ شَيْطَانُهُ. وَٱلنَّاقِلُ إِنَّمَا هُوَ يُمْلِي وَيَنْقُلُ . وَٱلْبَصِيرَةُ تَنْقُدُ ٱلصَّحِيحَ إِذَا تَمَقَّلُ. وَٱلْعِلْمُ يَجْلُو لَهَا صَفَحَاتِ ٱلصَّوَابِ وَيَصْقُلُ . هٰذَا وَقَدْ دَوَّنَ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْأَخْبَارِ وَأَكْثَرُوا . وَجَمَعُوا تَوَارِيخَ ٱلْأُمَمِ وَٱلدُّوَلِ فِي ٱلْعَالَمِ وَسَطَّرُوا . وَٱلَّذِينَ ذَهَبُوا بِفَضْلِ ٱلشُّهْرَةِ وَٱلْإِمَامَةِ ٱلْمُعْتَبَرَةِ. وَٱسْتَفْرَغُوا دَوَاوِينَ مَنْ قَبْلَهُمْ فِي صُحُفِهِمْ ٱلْمُتَأَخِّرَةِ . هُمْ قَلِيلُونَ لَا يَكَادُونَ يُجَاوِزُونَ عَدَدَ ٱلْأَنَامِلِ . وَلَا حَرَكَاتِ ٱلْعَوَامِلِ . مِثْلُ ٱبْنِ إِسْحَقَ وَٱلطَّبَرِيِّ وَٱبْنِ ٱلْكَلْبِيِّ وَمُحَمَّدِ بْنِ عُمَرَ ٱلْوَاقِدِيِّ وَسَيْفِ ٱبْنِ عُمَرَ ٱلْأَسَدِيِّ وَٱلْمَسْعُودِيِّ وَغَيْرِهِمْ مِنَ ٱلْمَشَاهِيرِ. ٱلْمُتَمَيِّزِينَ عَنِ ٱلْجَمَاهِيرِ . وَإِنْ كَانَ فِي كُتُبِ ٱلْمَسْعُودِيِّ وَٱلْوَاقِدِيِّ مِنَ ٱلْمَطْعَنِ وَٱلْمَغْمَزِ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ عِنْدَ ٱلْأَثْبَاتِ. وَمَشْهُورٌ بَيْنَ ٱلْحَفَظَةِ ٱلثِّقَاتِ . إِلَّا أَنَّ ٱلْكَافَّةَ ٱخْتَصَّتْهُمْ بِقَبُولِ أَخْبَارِهِمْ . وَٱقْتِفَاءِ سُنَنِهِمْ فِي ٱلتَّصْنِيفِ وَٱتِّبَاعِ آثَارِهِمْ. وَٱلنَّاقِدُ ٱلْبَصِيرُ قِسْطَاسُ نَفْسِهِ فِي تَزْيِيفِهِمْ فِيمَا يَنْقُلُونَ أَوِ ٱعْتِبَارِهِمْ . فَلِلْعُمْرَانِ طَبَائِعُ فِي أَحْوَالِهِ تَرْجِعُ إِلَيْهَا ٱلْأَخْبَارُ . وَتُحْمَلُ عَلَيْهَا ٱلرِّوَايَاتُ وَٱلْآثَارُ . ثُمَّ إِنَّ أَكْثَرَ ٱلتَّوَارِيخِ لِهٰؤُلَاءِ عَامَّةُ ٱلْمَنَاهِجِ وَٱلْمَسَالِكِ . لِعُمُومِ ٱلدَّوْلَتَيْنِ صَدْرَ ٱلْإِسْلَامِ فِي

ٱلْآفَاقِ وَٱلْمَمَالِكِ وَتَنَاوُلِهَا ٱلْبَعِيدَ مِنَ ٱلْغَايَاتِ فِي ٱلْمَآخِذِ وَٱلْمَتَارِكِ وَمِنْ هٰؤُلَاءِ مَنِ ٱسْتَوْعَبَ مَا قَبْلَ ٱلْمِلَّةِ مِنَ ٱلدُّوَلِ وَٱلْأُمَمِ. وَٱلْأَمْرِ ٱلْعَمَمِ. كَٱلْمَسْعُودِيِّ وَمَنْ نَحَا مَنْحَاهُ. وَجَاءَ مِنْ بَعْدِهِمْ مَنْ عَدَلَ عَنِ ٱلْإِطْلَاقِ إِلَى ٱلتَّقْيِيدِ. وَوَقَفَ فِي ٱلْعُمُومِ وَٱلْإِحَاطَةِ عَنِ ٱلشَّأْوِ ٱلْبَعِيدِ فَقَيَّدَ شَوَارِدَ عَصْرِهِ. وَٱسْتَوْعَبَ أَخْبَارَ أُفُقِهِ وَقُطْرِهِ. وَٱقْتَصَرَ عَلَى أَحَادِيثِ دَوْلَتِــهِ وَمِصْرِهِ. كَمَا فَعَلَ أَبُو حَيَّانَ مُؤَرِّخُ ٱلْأَنْدَلُسِ وَٱلدَّوْلَةِ ٱلْأَمَوِيَّةِ بِهَا. وَٱبْنُ ٱلرَّقِيقِ مُؤَرِّخُ أَفْرِيقِيَّةَ وَٱلدَّوْلَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ بِٱلْقَيْرَوَانِ. ثُمَّ لَمْ يَأْتِ مِنْ بَعْدِ هٰؤُلَاءِ إِلَّا مُقَلِّدٌ. وَبَلِيدُ ٱلطَّبْعِ وَٱلْعَقْلِ أَوْ مُتَبَلِّدٌ. يَنْسِجُ عَلَى ذٰلِكَ ٱلْمِنْوَالِ. وَيَحْتَذِي مِنْهُ بِٱلْمِثَالِ. وَيَذْهَلُ عَمَّا أَحَالَتْهُ ٱلْأَيَّامُ مِنَ ٱلْأَحْوَالِ. وَٱسْتَبْدَلَتْ بِهِ مِنْ عَوَائِدِ ٱلْأُمَمِ وَٱلْأَجْيَالِ. فَيَجْلُبُونَ ٱلْأَخْبَارَ عَنِ ٱلدُّوَلِ. وَحِكَايَاتِ ٱلْوَقَائِعِ فِي ٱلْعُصُورِ ٱلْأُوَلِ. صُوَرًا قَدْ تَجَرَّدَتْ عَنْ مَوَادِّهَا. وَصِفَاحًا ٱنْتُضِيَتْ مِنْ أَغْمَادِهَا وَمَعَارِفَ تُسْتَنْكَرُ لِلْجَهْلِ بِطَارِفِهَا وَتِلَادِهَا. إِنَّمَا هِيَ حَوَادِثُ لَمْ تُعْلَمْ أُصُولُهَا. وَأَنْوَاعٌ لَمْ تُعْتَبَرْ أَجْنَاسُهَا وَلَا تَحَقَّقَتْ فُصُولُهَا. يُكَرِّرُونَ فِي مَوْضُوعَاتِهَا ٱلْأَخْبَارَ ٱلْمُتَدَاوَلَةَ بِأَعْيَانِهَا. ٱتِّبَاعًا لِمَنْ عُنِيَ مِنَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ بِشَأْنِهَا. وَيُغْفِلُونَ أَمْرَ ٱلْأَجْيَالِ ٱلنَّاشِئَةِ فِي دِيوَانِهَا. بِمَا أَعْوَزَ عَلَيْهِمْ مِنْ تَرْجُمَانِهَا فَتَسْتَعْجِمُ صُحُفُهُمْ عَنْ بَيَانِهَا. ثُمَّ إِذَا تَعَرَّضُوا لِذِكْرِ ٱلدَّوْلَةِ نَسَقُوا أَخْبَارَهَا نَسَقًا. مُحَافِظِــينَ عَلَى نَقْلِهَا وَهْمًا أَوْ صِدْقًا. لَا يَتَعَرَّضُونَ لِبِدَايَتِهَا. وَلَا يَذْكُرُونَ ٱلسَّبَبَ ٱلَّذِي رَفَعَ مِنْ رَايَتِهَا وَأَظْهَرَ مِنْ آيَتِهَا. وَلَا عِلَّةَ ٱلْوُقُوفِ عِنْــدَ غَايَتِهَا. فَيَبْقَى ٱلنَّاظِرُ

متطلعا بعد الى انتقاد احوال مبادىء الدول ومراتبها . مفتشا عن اسباب تراحمها او تعاقبها . باحثا عن المقنع في تباينها او في تناسبها . ثم جاء آخرون بإفراط الاختصار . وذهبوا الى الاكتفاء بأسماء الملوك والاقتصار . مقطوعة عن الانساب والاخبار . موضوعة عليها اعداد ايامهم بحروف الغبار . كما فعله ابن رشيق في ميزان العمل ومن اقتفى هذا الاثر من الهمل . وليس يعتبر لهؤلاء مقال . ولا يعد لهم ثبوت ولا انتقال . لما اذهبوا من الفوائد . واخلوا بالمذاهب المعروفة للمؤرخين والعوائد

وقد زلت اقدام كثير من الاثبات والمؤرخين الحفاظ في مثل هذه الاحاديث والآراء . وعلقت بافكارهم ونقلها عنهم الكافة من ضعفة النظر والغفلة عن القياس وتلقوها هم ايضا كذلك من غير بحث ولا روية واندرجت في محفوظاتهم حتى صار فن التاريخ واهيا مختلطا . وناظره مرتبكا وعد من مناحي العامة . فاذا يحتاج صاحب هذا الفن الى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الامم والبقاع والاعصار في السير والاخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الاحوال والاحاطة بالحاضر من ذلك . ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق او بون ما بينهما من الخلاف وتعليل المتفق منها والمختلف . والقيام على اصول الدول والملل ومبادىء ظهورها واسباب حدوثها ودواعي كونها . واحوال القائمين بها واخبارهم حتى يكون مستوعبا لاسباب كل

حَادِثٍ وَاقِفًا عَلَى أُصُولِ كُلِّ خَبَرٍ وَحِينَئِذٍ يَعْرِضُ ٱلْخَبَرَ ٱلْمَنْقُولَ عَلَى مَا عِنْدَهُ مِنَ ٱلْقَوَاعِدِ وَٱلْأُصُولِ . فَإِنْ وَافَقَهَا وَجَرَى عَلَى مُقْتَضَاهَا كَانَ صَحِيحًا وَإِلَّا زَيَّفَهُ وَٱسْتَغْنَى عَنْهُ . وَمَا ٱسْتَكْبَرَ ٱلْقُدَمَاءُ عِلْمَ ٱلتَّارِيخِ إِلَّا لِذٰلِكَ حَتَّى ٱنْتَحَلَهُ ٱلطَّبَرِيُّ وَٱلْبُخَارِيُّ وَٱبْنُ إِسْحَاقَ مِنْ قَبْلِهِمَا وَأَمْثَالُهُمْ مِنْ عُلَمَاءِ ٱلْأُمَّةِ . وَقَدْ ذَهَلَ ٱلْكَثِيرُ عَنْ هٰذَا ٱلسِّرِّ فِيهِ حَتَّى صَارَ ٱنْتِحَالُهُ مَجْهَلَةً وَٱسْتَخَفَّ ٱلْعَوَامُّ وَمَنْ لَا رُسُوخَ لَهُ فِي ٱلْمَعَارِفِ مُطَالَعَتَهُ وَحَمْلَهُ وَٱلْخَوْضَ فِيهِ وَٱلتَّطَفُّلَ عَلَيْهِ فَٱخْتَلَطَ ٱلْمَرْعِيُّ بِٱلْهَمَلِ وَٱللُّبَابُ بِٱلْقِشْرِ وَٱلصَّادِقُ بِٱلْكَاذِبِ وَإِنَّ لِلّٰهِ عَاقِبَةَ ٱلْأُمُورِ

وَٱعْلَمْ أَنَّ فَنَّ ٱلتَّارِيخِ فَنٌّ عَزِيزُ ٱلْمَذْهَبِ جَمُّ ٱلْفَائِدَةِ شَرِيفُ ٱلْغَايَةِ إِذْ هُوَ يُوقِفُنَا عَلَى أَحْوَالِ ٱلْمَاضِينَ مِنَ ٱلْأُمَمِ فِي أَخْلَاقِهِمْ وَٱلْأَنْبِيَاءِ فِي سِيَرِهِمْ وَٱلْمُلُوكِ فِي دُوَلِهِمْ وَسِيَاسَتِهِمْ حَتَّى تَتِمَّ فَائِدَةُ ٱلِٱقْتِدَاءِ فِي ذٰلِكَ لِمَنْ يَرُومُهُ فِي أَحْوَالِ ٱلدِّينِ وَٱلدُّنْيَا فَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى مَآخِذَ مُتَعَدِّدَةٍ وَمَعَارِفَ مُتَنَوِّعَةٍ وَحُسْنِ نَظَرٍ وَتَثَبُّتٍ يُفْضِيَانِ بِصَاحِبِهِمَا إِلَى ٱلْحَقِّ وَيُنَكِّبَانِ بِهِ عَنِ ٱلْمَزَلَّاتِ وَٱلْمَغَالِطِ . لِأَنَّ ٱلْأَخْبَارَ إِذَا ٱعْتُمِدَ فِيهَا مُجَرَّدُ ٱلنَّقْلِ وَلَمْ تُحَكَّمْ أُصُولُ ٱلْعَادَةِ وَقَوَاعِدُ ٱلسِّيَاسَةِ وَطَبِيعَةُ ٱلْعُمْرَانِ وَٱلْأَحْوَالُ فِي ٱلِٱجْتِمَاعِ ٱلْإِنْسَانِيِّ وَلَا قِيسَ ٱلْغَائِبُ مِنْهَا بِٱلشَّاهِدِ وَٱلْحَاضِرُ بِٱلذَّاهِبِ فَرُبَّمَا لَمْ يُؤْمَنْ فِيهَا مِنَ ٱلْعُثُورِ وَمَزَلَّةِ ٱلْقَدَمِ وَٱلْحَيْدِ عَنْ جَادَّةِ ٱلصِّدْقِ . وَكَثِيرًا مَا وَقَعَ لِلْمُؤَرِّخِينَ وَٱلْمُفَسِّرِينَ وَأَئِمَّةِ ٱلنَّقْلِ ٱلْمَغَالِطُ فِي حِكَايَاتِ ٱلْوَقَائِعِ لِٱعْتِمَادِهِمْ فِيهَا عَلَى مُجَرَّدِ ٱلنَّقْلِ غَثًّا أَوْ سَمِينًا . لَمْ يَعْرِضُوهَا عَلَى أُصُولِهَا

وَقَاسُوهَا بِأَشْبَاهِهَا وَلَا سَبَرُوهَا بِمِعْيَارِ ٱلْحِكْمَةِ وَٱلْوُقُوفِ عَلَى طَبَائِعِ ٱلْكَائِنَاتِ وَتَحْكِيمِ ٱلنَّظَرِ وَٱلْبَصِيرَةِ فِي ٱلْأَخْبَارِ فَضَلُّوا عَنِ ٱلْحَقِّ وَتَاهُوا فِي بَيْدَاءِ ٱلْوَهْمِ وَٱلْغَلَطِ سِيَّمَا فِي إِحْصَاءِ ٱلْأَعْدَادِ وَٱلْأَمْوَالِ وَٱلْعَسَاكِرِ إِذَا عَرَضَتْ فِي ٱلْحِكَايَاتِ إِذْ هِيَ مَظِنَّةُ ٱلْكَذِبِ وَمَطِيَّةُ ٱلْهَذْرِ وَلَا بُدَّ مِنْ رَدِّهَا إِلَى ٱلْأُصُولِ وَعَرْضِهَا عَلَى ٱلْقَوَاعِدِ

البحث السادس

في شروط التاريخ

(عن الفخري)

(راجع صفحة ١٩٧ من علم الادب)

وَإِنْ بَاشَرْتَ بِكِتَابَةِ تَارِيخٍ عَامٍّ فَتَكَلَّمْ عَلَى دَوْلَةٍ دَوْلَةٍ بِمَجْمُوعِ مَا حَصَّلَ ذِهْنُكَ مِنَ ٱلْهَيْئَةِ ٱلِٱجْتِمَاعِيَّةِ ٱلَّتِي أَفَادَتْكَهَا مُطَالَعَةُ ٱلسِّيَرِ وَٱلتَّوَارِيخِ وَٱذْكُرْ كَيْفَ كَانَ ٱبْتِدَاؤُهَا وَٱنْتِهَاؤُهَا وَطَرَفًا مُمْتِعًا مِنْ مَحَاسِنِ مُلُوكِهَا وَأَخْبَارِ سَلَاطِينِهَا . ثُمَّ إِذَا ذَكَرْتَ دَوْلَةً فَدَوْلَةً تَكَلَّمْتَ عَلَى كُلِّيَّاتِ أُمُورِهَا ثُمَّ ذَكَرْتَ وَاحِدًا وَاحِدًا مِنْ مُلُوكِهَا وَمَا جَرَى فِي أَيَّامِهِ مِنَ ٱلْوَقَائِعِ ٱلْمَشْهُورَةِ وَٱلْحَوَادِثِ ٱلْمَأْثُورَةِ فَإِذَا ٱنْقَضَتْ أَيَّامُ ذٰلِكَ ٱلْمَلِكِ ذَكَرْتَ وُزَرَاءَهُ وَاحِدًا وَاحِدًا وَطَرَائِقَ مَا جَرَى لَهُمْ .فَإِذَا ٱنْقَضَتْ أَيَّامُ ٱلْمَلِكِ وَوُزَرَائِهِ ٱبْتَدَأْتَ بِٱلْمَلِكِ ٱلَّذِي بَعْدَهُ وَبِمَا جَرَى فِي أَيَّامِهِ وَبِيَسِيرِ وُزَرَائِهِ كَذٰلِكَ إِلَى آخِرِ تِلْكَ ٱلدَّوْلَةِ وَٱلْتَزِمْ فِيهِ أَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنْ لَا تَمِيلَ فِيهِ إِلَّا مَعَ ٱلْحَقِّ

وَلَا تَنطِقَ فِيهِ إِلَّا بِالْعَدْلِ . وَأَنْ تَعزِلَ سُلْطَانَ الْهَوَى وَتَخْرُجَ مِنْ حُكْمِ الْمَنْشَإِ وَالْمَرْبَى وَتَفرِضَ نَفْسَكَ غَرِيبًا عَنْهُمْ وَأَجْنَبِيًّا بَيْنَهُمْ . وَثَانِيهِمَا أَنْ تُعَبِّرَ عَنِ الْمَعَانِي بِعِبَارَاتٍ وَاضِحَةٍ تَقْرُبُ مِنَ الْأَفْهَامِ لِتَنْفَعَ بِهِ كُلَّ أَحَدٍ عَادِلًا عَنِ الْعِبَارَاتِ الْمُسْتَصْعَبَةِ الَّتِي يُقْصَدُ فِيهَا إِظْهَارُ الْفَصَاحَةِ وَإِثْبَاتُ الْبَلَاغَةِ فَطَالَمَا رَأَيْتُ مُصَنِّفِي الْكُتُبِ قَدِ اعْتَرَضَتْهُمْ مَحَبَّةُ إِظْهَارِ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ فَخَفِيَتْ أَغْرَاضُهُمْ وَاعْتَاصَتْ مَعَانِيهِمْ فَقَلَّتِ الْفَائِدَةُ بِمُصَنَّفَاتِهِمْ. هٰذَا وَإِنَّ كُتُبَ التَّوَارِيخِ إِنْ نُظِرَ بِعَيْنِ الْإِنْصَافِ إِلَيْهَا رُئِيَتْ أَنْفَعَ مِنَ الْحَمَاسَةِ الَّتِي لَهِجَ النَّاسُ بِهَا وَأَخَذُوا أَوْلَادَهُمْ بِحِفْظِهَا فَإِنَّ الْحَمَاسَةَ لَا يُسْتَفَادُ مِنْهَا أَكْثَرُ مِنَ التَّرْغِيبِ فِي الشَّجَاعَةِ وَالضِّيَافَةِ وَشَيْءٍ يَسِيرٍ مِنَ الْأَخْلَاقِ فِي الْبَابِ الْمُسَمَّى بَابَ الْأَدَبِ وَالتَّأَنُّسِ بِالْمَذَاهِبِ الشِّعْرِيَّةِ . وَالتَّارِيخُ يُسْتَفَادُ مِنْهُ هٰذِهِ الْخِصَالُ الْمَذْكُورَةُ . وَيُسْتَفَادُ مِنْهُ قَوَاعِدُ السِّيَاسَةِ وَأَدَوَاتُ الرِّئَاسَةِ . فَهٰذَا فِيهِ مَا فِي الْحَمَاسَةِ وَلَيْسَ فِي الْحَمَاسَةِ مَا فِيهِ وَإِنَّهُ يُفِيدُ الْعَقْلَ قُوَّةً وَالذِّهْنَ حِدَّةً وَالْبَصِيرَةَ نُورًا وَهُوَ لِلْخَاطِرِ الذَّكِيِّ بِمَنْزِلَةِ الْمِسَنِّ لِلْفُولَاذِ الْجَيِّدِ وَهُوَ أَيْضًا أَنْفَعُ مِنَ الْمَقَامَاتِ الَّتِي النَّاسُ فِيهَا مُعْتَقِدُونَ وَفِي تَحَفُّظِهَا رَاغِبُونَ إِذِ الْمَقَامَاتُ لَا يُسْتَفَادُ مِنْهَا سِوَى التَّمَرُّنِ عَلَى الْإِنْشَاءِ وَالْوُقُوفِ عَلَى مَذَاهِبِ النَّظْمِ وَالنَّثْرِ . نَعَمْ وَفِيهَا حِكَمٌ وَحِيَلٌ وَتَجَارِبُ إِلَّا أَنَّ ذٰلِكَ مِمَّا يُصَغِّرُ الْهِمَّةَ إِذْ هُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى السُّؤَالِ وَالِاسْتِجْدَاءِ وَالتَّحَيُّلِ الْقَبِيحِ عَلَى تَحْصِيلِ النَّزْرِ الطَّفِيفِ فَإِنْ نَفَعَتْ مِنْ جَانِبٍ ضَرَّتْ مِنْ جَانِبٍ وَبَعْضُ النَّاسِ تَنَبَّهُوا عَلَى هٰذَا مِنَ الْمَقَامَاتِ الْحَرِيرِيَّةِ وَالْبَدِيعِيَّةِ فَعَدَلَ

نَاسٌ إِلَى نَهْجِ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ : فَإِنَّهُ ٱلْكِتَابُ ٱلَّذِي يُتَعَلَّمُ مِنْهُ ٱلْحِكَمُ وَٱلْمَوَاعِظُ وَٱلْخُطَبُ وَٱلشَّجَاعَةُ وَٱلزُّهْدُ وَعُلُوُّ ٱلْهِمَّةِ وَأَدْنَى فَوَائِدِهِ ٱلْفَصَاحَةُ وَٱلْبَلَاغَةُ . وَكَذٰلِكَ كُتُبُ ٱلتَّوَارِيخِ فَإِنَّ ٱلْإِنْسَانَ رُبَّمَا أَضْجَرَتْهُ ٱلْمَهَامُّ وَٱلْأَشْغَالُ فَإِذَا رَوَّحَ فِكْرَهُ بِٱلنَّظَرِ فِيهَا دَفَعَ بِهَا ٱلْمَلَالَ وَتَذَكَّرَ بِهَا مَا أَنْسَتْهُ ٱلْأَشْغَالُ . . .

البحث السابع

في الاصول العشرة التي يعتمدها الكاتب في المكاتبات

(من كتاب صبح الاعشى لابي العبّاس احمد القلقشندي)

(راجع صفحة ٢٠٧ من علم الادب)

(ٱلْأَصْلُ ٱلْأَوَّلُ حُسْنُ ٱلِٱفْتِتَاحِ) ٱلْمَطْلُوبُ فِي سَائِرِ أَنْوَاعِ ٱلْكَلَامِ مِنْ نَثْرٍ وَنَظْمٍ مِمَّا يُوجِبُ ٱلتَّحْسِينَ لِيَكُونَ دَاعِيَةً لِٱسْتِمَاعِ مَا بَعْدَهُ . وَيَرْجِعُ حُسْنُ ٱلِٱفْتِتَاحِ فِي ٱلْمُكَاتَبَةِ إِلَى مَعْنَيَيْنِ : (ٱلْمَعْنَى ٱلْأَوَّلُ) أَنْ يَكُونَ ٱلْحُسْنُ فِيهِ رَاجِعًا إِلَى ٱلْمُبْتَدَإِ بِهِ إِمَّا بِٱلِٱفْتِتَاحِ بِٱلْحَمْدِ لِلّٰهِ كَمَا فِي بَعْضِ ٱلْمُكَاتَبَاتِ لِأَنَّ ٱلنُّفُوسَ تَتَشَوَّقُ إِلَى ٱلثَّنَاءِ عَلَى ٱللّٰهِ تَعَالَى . أَوْ بِٱلسَّلَامِ ٱلَّذِي جَعَلَهُ ٱلشَّارِعُ مُفْتَتَحَ ٱلْخِطَابِ أَوْ نَحْوِ ذٰلِكَ . فَإِنَّ أَمْرَ ٱلْمُكَاتَبَاتِ مَبْنِيٌّ عَلَى ٱلتَّلَطُّفِ وَٱسْتِجْلَابِ ٱلْخَوَاطِرِ وَتَأْلِيفِ ٱلْقُلُوبِ إِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يَجْرِي هٰذَا ٱلْمَجْرَى عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ ٱصْطِلَاحُ كُلِّ زَمَنٍ فِي ٱلِٱبْتِدَاءَاتِ . (ٱلْمَعْنَى ٱلثَّانِي) أَنْ يَكُونَ ٱلْحُسْنُ فِيهِ رَاجِعًا إِلَى مَا يُوجِبُ ٱلتَّحْسِينَ مِنْ سُهُولَةِ ٱللَّفْظِ

وَصِحَّةِ ٱلسَّبْكِ وَوُضُوحِ ٱلْمَعْنَى وَتَجَنُّبِ ٱلْحَشْوِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ .... (الأَصْلُ ٱلثَّانِي) بَرَاعَةُ ٱلِاسْتِهْلَالِ ٱلْمَطْلُوبَةُ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنْ فُنُونِ ٱلْكَلَامِ بِأَنْ يَأْتِيَ فِي صَدْرِ ٱلْمُكَاتَبَةِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى عَجُزِهَا فَإِنْ كَانَ ٱلْكَاتِبُ يُهَنِّئُ أَتَى فِي أَوَّلِ كَلَامِهِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى ٱلتَّهْنِئَةِ . أَوْ كَانَ ٱلصَّدَدُ فِي ٱلتَّعْزِيَةِ أَتَى فِي أَوَّلِهِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى ٱلتَّعْزِيَةِ أَوْ فِي غَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْمَعَانِي أَتَى فِي أَوَّلِهِ بِمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ لِيُعْلَمَ مِنْ مَبْدَإِ ٱلْكَلَامِ مَا ٱلْمُرَادُ ... ثُمَّ مِنَ ٱلْمُكَاتَبَاتِ مَا يَعْسُرُ مَعَهُ ٱلْإِتْيَانُ بِبَرَاعَةِ ٱلِاسْتِهْلَالِ فَيَأْتِي بِهَا فِيمَا يَلِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْكَلَامِ فِي مُقَدَّمَةِ ٱلْمُكَاتَبَةِ قَبْلَ ٱلْخَوْضِ فِي ٱلْمَقْصُودِ ... (ٱلْأَصْلُ ٱلثَّالِثُ) ٱلْمُقَدَّمَةُ ٱلَّتِي يَلْزَمُ أَنْ يَأْتِيَ بِهَا فِي صَدْرِ ٱلْكُتُبِ ٱلْمُشْتَمِلَةِ عَلَى ٱلْمَقَاصِدِ ٱلْجَلِيلَةِ تَأْسِيسًا لِمَا يَأْتِي فِي مُكَاتَبَةٍ . مِثْلَ أَنْ يَأْتِيَ فِي صَدْرِ كُتُبِ ٱلْحَثِّ عَلَى ٱلْجِهَادِ بِذِكْرِ ٱفْتِرَاضِهِ عَلَى ٱلْأُمَّةِ وَمَا وَعَدَ ٱللهُ تَعَالَى بِهِ مِنْ نَصْرِ أَوْلِيَائِهِ وَخِذْلَانِ أَعْدَائِهِ وَإِعْزَازِ ٱلْمُوَحِّدِينَ وَقَمْعِ ٱلْمُلْحِدِينَ . وَفِي صُدُورِ كُتُبِ ٱلْفَتْحِ بِإِنْجَازِ وَعْدِ ٱللهِ ٱلَّذِي وَعَدَهُ أَهْلَ ٱلطَّاعَةِ مِنَ ٱلنَّصْرِ وَٱلظَّفَرِ وَإِظْهَارِ دِينِهِ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ . وَفِي صُدُورِ كُتُبِ جِبَايَةِ ٱلْخَرَاجِ بِحَاجَةِ قِيَامِ ٱلْمُلْكِ إِلَى ٱلِاسْتِعَانَةِ بِمَا يُسْتَخْرَجُ مِنْ حُقُوقِ ٱلسُّلْطَانِ فِي عِمَارَةِ ٱلثُّغُورِ وَتَحْصِينِ ٱلْأَعْمَالِ وَتَقْوِيَةِ ٱلرِّجَالِ وَنَحْوِ ذٰلِكَ مِمَّا يَجْرِي عَلَى هٰذَا ٱلنَّمَطِ . قَالَ فِي مَوَادِّ ٱلْبَيَانِ : وَعَلَى هٰذَا ٱلسَّبِيلِ جَرَتْ سُنَّةُ ٱلْكُتَّابِ فِي جَمِيعِ ٱلْكُتُبِ مِنْ أَيِّ نَوْعٍ مِنَ ٱلْمَعَانِي كَٱلْفُتُوحِ وَٱلتَّهَانِي وَٱلتَّعَازِي وَٱلتَّهَادِي وَٱلِاسْتِخْبَارِ وَٱلِاسْتِبْطَاءِ وَٱلْإِحْمَادِ وَٱلْإِذْمَامِ وَغَيْرِهَا لِيَكُونَ

ذٰلِكَ بِساطًا لِمَا يُرِيدُ ٱلْقَوْلَ فِيهِ وَحُجَّةً يَسْتَظْهِرُ بِهَا ٱلسُّلْطَانُ لِأَنَّ كُلَّ كَلَامٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ فَرْشٍ يُفْرَشُ قَبْلَهُ لِيَكُونَ مِنْهُ بِمَنْزِلَةِ ٱلْأَسَاسِ مِنَ ٱلْبُنْيَانِ . (قَالَ) : وَيُرْجَعُ فِي هٰذِهِ ٱلْمُقَدِّمَاتِ إِلَى مَعْرِفَةِ ٱلْكَاتِبِ مَا يَسْتَحِقُّهُ كُلُّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلَّتِي تُشَاكِلُهَا . (ثُمَّ قَالَ) وَٱلطَّرِيقُ فِي إِصَابَةِ ٱلْمَرْمَى فِي هٰذِهِ ٱلْمُقَدِّمَاتِ أَنْ تُجْعَلَ مُشْتَمِلَةً عَلَى مَا بَعْدَهَا مِنَ ٱلْمَقَاصِدِ وَٱلْأَغْرَاضِ وَأَنْ يُوضَعَ لِلْأَمْرِ ٱلْخَاصِّ مُقَدِّمَةٌ خَاصَّةٌ وَلِلْأَمْرِ ٱلْعَامِّ مُقَدِّمَةٌ عَامَّةٌ وَلَا يُطَوَّلَ فِي مَوْضِعِ ٱلِاقْتِصَارِ وَلَا يُقَصَّرَ فِي مَوْضِعِ ٱلْإِيجَازِ . وَلَا تُجْعَلَ أَغْرَاضُهَا بَعِيدَةَ ٱلْمَآخِذِ مُعْتَاصَةً عَلَى ٱلْمُتَصَفِّحِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْكَاتِبَ رُبَّمَا قَصَدَ إِظْهَارَ ٱلْقُدْرَةِ عَلَى ٱلْكَلَامِ وَٱلتَّصَرُّفِ فِي وُجُوهِ ٱلنُّطْقِ فَخَرَجَ إِلَى ٱلْإِمْلَالِ وَٱلْإِضْجَارِ ٱلَّذِي تَتَبَرَّمُ مِنْهُ ٱلنُّفُوسُ وَذَوُو ٱلْأَخْطَارِ ٱلْجَلِيلَةِ . أَمَّا ٱلْكُتُبُ ٱلَّتِي لَا تَشْتَمِلُ عَلَى ٱلْمَقَاصِدِ ٱلْجَلِيلَةِ كَرِقَاعِ ٱلتُّحَفِ وَٱلْهَدَايَا وَنَحْوِهَا فَلَا تُجْعَلُ لَهَا مُقَدِّمَةٌ فَإِنَّ ذٰلِكَ غَيْرُ جَائِزٍ وَغَيْرُ وَاقِعٍ مَوْقِعَهُ . (ٱلْأَصْلُ ٱلرَّابِعُ) مَوَاقِعُ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلدَّائِرَةِ فِي ٱلْكُتُبِ فَيَلْزَمُ أَنْ يُمَيِّزَ مَوْقِعَ كُلٍّ لِيَضَعَهُ مَكَانَهُ . وَقَالَ فِي ذَخِيرَةِ ٱلْكُتَّابِ : يَجِبُ عَلَى ٱلْكَاتِبِ ٱلرَّئِيسِ أَنْ يَعْرِفَ مَرَاتِبَ ٱلْأَلْفَاظِ وَمَوَاقِعَهَا لِيُرَتِّبَهَا وَيُفَرِّقَ بَيْنَهَا فَرْقًا يَقِفُهُ عَلَى ٱلْوَاجِبِ وَيَنْتَهِي بِهِ إِلَى ٱلصَّوَابِ فَيُخَاطِبُ كُلًّا فِي مُكَاتَبَتِهِ بِمَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ ٱلْخِطَابِ . . وَمَتَى ٱسْتَمَرَّ ٱلْكَاتِبُ عَلَى هٰذِهِ ٱلْمُخَالَفَةِ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱلْمُنَاقَضَةِ نَقَصَتِ ٱلْمَعَانِي وَرَذُلَتِ ٱلْأَلْفَاظُ وَسَقَطَتِ ٱلْمَقَاصِدُ وَكَانَ

ٱلْكَاتِبُ قَدْ اخَلَّ مِنَ ٱلصِّنَاعَةِ بِمُعْظَمِهَا وَتَرَكَ مِنَ ٱلْبَلَاغَةِ غَايَةَ مُحْكَمِهَا بَلْ يَجِبُ إِنْ بَدَا بِخِطَابِ رَئِيسٍ اَوْ نَظِيرٍ اَوْ مَرْؤُوسٍ اَنْ يَكُونَ مَا يَتَخَلَّلُ مُكَاتَبَتَهُ مِنَ ٱلْاَلْفَاظِ عَلَى اتِّسَاقٍ إِلَى آخِرِهَا وَاطِّرَادٍ مِنْ غَيْرِ مُخَالَفَةٍ بَيْنَهَا وَلَا مُضَادَّةٍ وَلَا مُنَاقَضَةٍ. نَعَمْ يَحْسُنُ ذٰلِكَ فِي مُعَاتَبَاتِ ٱلْاِخْوَانِ وَٱلْمُدَاعَبَاتِ ٱلْجَارِيَةِ بَيْنَ ٱلْخِلَّانِ . . . (ٱلْاَصْلُ ٱلْخَامِسُ) ٱلْاَدْعِيَةُ ٱلَّتِي جَرَتْ عَادَةُ ٱلسَّلَفِ وَتَبِعَهُمُ ٱلْخَلَفُ بِٱسْتِعْمَالِهَا فِي ٱلْمُكَاتَبَاتِ. وَٱلنَّظَرُ فِيهَا مِنْ سِتَّةِ اَوْجُهٍ : (ٱلْاَوَّلُ) اَنْ يَعْرِفَ مَرَاتِبَ ٱلدُّعَاءِ لِيُوقِعَهَا فِي مَوَاقِعِهَا وَيُورِدَهَا فِي مَوَارِدِهَا. وَيَأْتِي ذٰلِكَ فِي عِدَّةِ اَدْعِيَةٍ مِنْهَا : ٱلدُّعَاءُ بِإِطَالَةِ ٱلْبَقَاءِ وَٱلدُّعَاءُ بِإِطَالَةِ ٱلْعُمْرِ . فَٱلدُّعَاءُ بِإِطَالَةِ ٱلْبَقَاءِ اَرْفَعُ مِنَ ٱلدُّعَاءِ بِإِطَالَةِ ٱلْعُمْرِ . وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلْبَقَاءَ لَا يَدُلُّ عَلَى مُدَّةٍ تَنْقَضِي لِاَنَّهُ ضِدُّ ٱلْفَنَاءِ وَٱلْعُمْرُ يَدُلُّ عَلَى مُدَّةٍ تَنْقَضِي وَلِذٰلِكَ يُوصَفُ ٱللّٰهُ تَعَالَى بِٱلْبَقَاءِ وَلَا يُوصَفُ بِٱلْعُمْرِ . . (ٱلثَّانِي) اَنْ يَعْرِفَ مَا يُنَاسِبُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ اَرْبَابِ ٱلْمَنَاصِبِ ٱلْجَلِيلَةِ مِنَ ٱلدُّعَاءِ فَيَخُصُّهُ بِهِ فَيَأْتِي بِٱلدُّعَاءِ فِي مُكَاتَبَةِ ٱلْمُلُوكِ بِدَوَامِ ٱلسُّلْطَانِ وَخُلُودِ ٱلْمُلْكِ . وَإِلَى ٱلْاُمَرَاءِ بِٱلدُّعَاءِ بِعِزِّ ٱلنَّصْرِ وَمُدَاوَمَةِ ٱلنِّعْمَةِ . وَإِلَى ٱلْوُزَرَاءِ مِنْ اَرْبَابِ ٱلْاَقْلَامِ بِسُبُوغِ ٱلنَّعْمَاءِ وَتَخْلِيدِ ٱلسَّعَادَةِ وَدَوَامِ ٱلْمَجْدِ. وَإِلَى ٱلْقُضَاةِ وَٱلْحُكَّامِ بِٱلدُّعَاءِ بِعِزِّ ٱلْاَحْكَامِ . وَإِلَى ٱلتُّجَّارِ بِٱلدُّعَاءِ بِمَزِيدِ ٱلْإِقْبَالِ وَشِبْهِ ذٰلِكَ . (وَٱلثَّالِثُ) اَنْ يَعْرِفَ مَا يُنَاسِبُ كُلَّ حَالَةٍ مِنْ حَالَاتِ ٱلْمُكَاتَبَاتِ فَيَأْتِي كُلَّ حَالَةٍ بِمَا يُنَاسِبُهَا مِنَ ٱلدُّعَاءِ فَتَكُونُ ٱلْاَدْعِيَةُ دَالَّةً عَلَى مَقَاصِدِ ٱلْكُتَّابِ

فَإِنْ كَانَ فِي الْهَنَاءِ وَالشُّكْرِ اوِ التَّعْزِيَةِ اَتَى كُلاً بِمَا يُنَاسِبُهُ. (الرَّابِعُ) اَنْ يَعْرِفَ مَوَاضِعَ الدُّعَاءِ عَلَى الْمَكْتُوبِ اِلَيْهِ ... (الْاَصْلُ السَّادِسُ) اَنْ يَعْرِفَ مَا يُنَاسِبُ الْمَكْتُوبَ اِلَيْهِ مِنَ الْاَلْقَابِ فَيُعْطِيَهُ حَقَّهُ مِنْهَا. كَالْمَقَامِ وَالْمَقَرِّ وَالْجَنَابِ وَالنَّادِي وَالْمَجْلِسِ فِي زَمَانِنَا ... وَكَذٰلِكَ النُّعُوتَ. (الْاَصْلُ السَّابِعُ) اَنْ يُرَاعِيَ مَقَاصِدَ الْمُكَاتَبَاتِ فَيَأْتِيَ لِكُلِّ مَقْصَدٍ بِمَا يُنَاسِبُهُ وَمَدَارُ ذٰلِكَ عَلَى اَمْرَيْنِ: (الْاَمْرُ الْاَوَّلُ) اَنْ يَأْتِيَ مَعَ كُلِّ كَلِمَةٍ بِمَا يَلِيقُ بِهَا وَيَتَخَيَّرَ لِكُلِّ لَفْظَةٍ مَا يُشَاكِلُهَا فَإِنْ ذَكَرَ النِّعْمَةَ حَمِدَ اللّٰهَ وَإِنْ ذَكَرَ الْبَلْوَى شَفَعَهَا بِالْاِسْتِعَانَةِ بِاللّٰهِ وَالرُّجُوعِ اِلَيْهِ فِيهَا. وَيَلْتَحِقُ بِذٰلِكَ اَيْضًا اَنَّهُ اِذَا ذَكَرَ الرَّئِيسَ فِي اَثْنَاءِ الْمُكَاتَبَةِ دَعَا لَهُ مِثْلَ اَنْ يَقُولَ عِنْدَ ذِكْرِ السُّلْطَانِ: خَلَّدَ اللّٰهُ مُلْكَهُ وَمِمَّا يَجْرِي هٰذَا الْمَجْرَى. (الْاَمْرُ الثَّانِي) اَنْ يَتَخَطَّى التَّصْرِيحَ اِلَى التَّلْوِيحِ وَالْاِشَارَةِ اِذَا اَلْجَأَتْهُ الْحَالُ اِلَى الْمُكَاتَبَةِ بِمَا لَا يَجُوزُ كَشْفُهُ وَاظْهَارُهُ عَلَى صَرَاحَتِهِ مِمَّا فِي ذِكْرِهِ اِطْرَاحُ مَهَابَةِ السُّلْطَانِ وَاِسَاءَةُ مَا يَلْزَمُ مِنْهُ اِخْلَالُ الْاَدَبِ فِي حَقِّهِ كَمَا لَوْ اَطْلَقَ لِسَانَهُ فِيهِ بِلَفْظٍ قَبِيحٍ يَسُوءُهُ سَمَاعُهُ فَيَحْتَاجُ الْمُنْشِئُ اِلَى اسْتِعْمَالِ التَّوْرِيَةِ فِي هٰذِهِ الْمَوَاضِعِ وَالتَّلَطُّفِ فِي الْعِبَارَةِ عَنْ هٰذِهِ الْمَعَانِي مِنْ غَيْرِ خِيَانَةٍ فِي طَيِّ مَا لَا غِنَى بِهِ عَنْ عِلْمِهِ. وَهٰذَا مِمَّا لَا يَسْتَقِلُّ بِهِ اِلَّا الْمُبَرِّزُ فِي الصِّنَاعَةِ الْمُتَصَرِّفُ فِي تَأْلِيفِ الْكَلَامِ.. (الْاَصْلُ الثَّامِنُ) اَنْ يَعْرِفَ مِقْدَارَ فَهْمِ كُلِّ طَبَقَةٍ مِنَ الْمُخَاطَبِينَ فِي الْمُكَاتَبَاتِ مِنَ اللِّسَانِ فَيُخَاطِبَ كُلَّ اَحَدٍ بِمَا يُنَاسِبُهُ مِنَ اللَّفْظِ وَمَا

يَصِلُ إِلَيهِ فَهمُهُ مِنَ ٱلْخِطَابِ (اِستِشهَادٌ مِنْ كِتَابِ ٱلصِّنَاعَتَينِ)..
(ٱلأَصلُ ٱلتَّاسِعُ) أَنْ يُرَاعِيَ رُتبَةَ ٱلْمَكتُوبِ عَنهُ وَٱلْمَكتُوبِ إِلَيهِ فِي ٱلْخِطَابِ فَيُعَبِّرَ عَنْ كُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِمَا يَلِيقُ بِهِ . وَيُخَاطِبَ ٱلْمَكتُوبَ إِلَيهِ بِمَا يَلِيقُ بِمَقَامِهِ . فَأَمَّا ٱلْمَكتُوبُ عَنهُ فَيَختَلِفُ ٱلْحَالُ فِيهِ بِٱختِلَافِ مَنصِبِهِ وَرُتبَتِهِ فَيُعَبَّرُ فِي ٱلْكُتُبِ ٱلصَّادِرَةِ عَنْ أَبْوَابِ ٱلْخِلَافَةِ بِأَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِثلُ أَنْ يُقَالَ : فَجَرَى أَمْرُ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي كَذَا عَلَى كَذَا . وَأَوعَزَ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِلَى فُلَانٍ بِكَذَا وَٱقْتَضَى رَأْيُ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ كَذَا وَهَلُمَّ جَرًّا.وَكَذٰلِكَ أَنْ يَعْرِفَ قَدرَ ٱلْمَكتُوبِ إِلَيهِ مِنَ ٱلرُّؤَسَاءِ وَٱلنُّظَرَاءِ وَٱلعُلَمَاءِ وَٱلْوُكَلَاءِ لِيَفرُقَ بَينَ مَنْ يَكتُبُ إِلَيهِ.. أَلَا تَرَى أَنَّكَ لَوْ خَاطَبتَ سُلطَانًا أَوْ وَزِيرًا بِٱلتَّعزِيَةِ عَنِ ٱلْمُصِيبَةِ مِنْ مَصَائِبِ ٱلدُّنيَا لَمَا جَازَ أَنْ تَبنِيَ ٱلْكَلَامَ عَلَى وَعظِهِ وَتَبصِيرِهِ وَإِرشَادِهِ وَحَضِّهِ عَلَى ٱلأَخذِ بِحَظٍّ مِنَ ٱلصَّبرِ .. وَإِنَّمَا ٱلصَّوَابُ أَنْ تَبنِيَ ٱلْخِطَابَ عَلَى أَنَّهُ أَعلَى شَأْنًا وَأَرفَعُ مَكَانًا مِنْ أَنْ يُعَزَّى بِخِلَافِ ٱلْمُتَأَخِّرِ فِي ٱلرُّتبَةِ فَإِنَّهُ إِنَّمَا يُعَزَّى تَنبِيهًا وَتَذكِيرًا وَتَبصِيرًا وَتَعرِيفًا لِلوَاجِبِ فِي تَلَقِّي ٱلسَّرَّاءِ بِٱلشُّكرِ وَٱلضَّرَّاءِ بِٱلصَّبرِ ..
(ٱلأَصلُ ٱلعَاشِرُ) أَنْ يُرَاعِيَ مَوَاقِعَ ٱلآيَاتِ وَٱلسَّجعَ فِي ٱلْكُتُبِ وَذِكرَ أَبيَاتِ ٱلشِّعرِ فِي ٱلْمُكَاتَبَاتِ ...



الفصل التاسع

في حل الشعر والاحتذاء

البحث الاوَّل

في حسن الاخذ

(من كتاب الصناعتين للعسكري)

(راجع صفحة ٢٣٩ من علم الادب)

لَيسَ لِاَحَدٍ مِنْ اَصْنَافِ ٱلْقَائِلِينَ غِنًى عَنْ تَنَاوُلِ ٱلْمَعَانِي مِمَّنْ تَقَدَّمَهُ وَٱلصَّبُّ عَلَى قَوَالِبِ مَنْ سَبَقَهُ وَلٰكِنْ عَلَيْهِ اِذَا اَخَذَهَا اَنْ يَكْسُوهَا اَلْفَاظًا مِنْ عِنْدِهِ وَيُبْرِزَهَا فِي مَعَارِضَ مِنْ تَأْلِيفِهِ وَرَصْفِهِ وَيُؤَدِّيَهَا فِي غَيْرِ حِلْيَتِهَا ٱلْاُولَى وَيَزِيدَ فِي حُسْنِ تَأْلِيفِهَا وَجَوْدَةِ تَرْكِيبِهَا وَجَمَالِ حِلْيَتِهَا وَمَعْرِضِهَا . فَاِذَا فَعَلَ ذٰلِكَ فَهُوَ اَوْلَى بِهَا مِمَّنْ سَبَقَ اِلَيْهَا وَلَوْلَا اَنَّ ٱلْقَائِلَ يُؤَدِّي مَا سَمِعَ لَمَا كَانَ فِي طَاقَتِهِ اَنْ يَقُولَ وَاِنَّمَا يَنْطِقُ ٱلطِّفْلُ بَعْدَ ٱسْتِمَاعِهِ مِنَ ٱلْبَالِغِينَ . وَقَالَ اَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ : لَوْلَا اَنَّ ٱلْكَلَامَ يُعَادُ لَنَفِدَ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : كُلُّ شَيْءٍ ثَنَيْتَهُ قَصُرَ اِلَّا ٱلْكَلَامَ فَاِنَّكَ اِذَا ثَنَيْتَهُ طَالَ . عَلَى اَنَّ ٱلْمَعَانِي مُشْتَرِكَةٌ بَيْنَ ٱلْعُقَلَاءِ فَرُبَّمَا وَقَعَ ٱلْمَعْنَى ٱلْجَيِّدُ لِلسُّوقِيِّ وَٱلنَّبَطِيِّ وَٱلزِّنْجِيِّ وَاِنَّمَا يَتَفَاضَلُ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْاَلْفَاظِ وَرَصْفِهَا وَتَأْلِيفِهَا وَنَظْمِهَا . وَقَدْ يَقَعُ لِلْمُتَاخِّرِ مَعْنًى سَبَقَهُ اِلَيْهِ ٱلْمُتَقَدِّمُ مِنْ غَيْرِ اَنْ يُلِمَّ بِهِ وَلٰكِنْ

كَمَا وَقَعَ لِلْاَوَّلِ وقعَ لِلْآخِرِ . وَهٰذَا اَمْرٌ عَرَفْتُهُ مِنْ نَفْسِي فَلَسْتُ اَمْتَرِي فِيهِ . وَقَدْ قِيلَ : اِنَّ مَنْ اَخَذَ مَعْنًى بِلَفْظِهِ كَانَ لَهُ سَالِخًا وَمَنْ اَخَذَهُ فَكَسَاهُ لَفظًا مِنْ عِنْدِهِ اَجْوَدَ مِنْ لَفْظِهِ كَانَ هُوَ اَوْلَى بِهِ مِمَّنْ تَقَدَّمَهُ . وَقَالُوا : اِنَّ اَبَا عُذْرَةِ ٱلْكَلَامِ مَنْ سَبَكَ لَفْظَهُ عَلَى مَعْنَاهُ. وَمَنْ اَخَذَ مَعْنًى بِلَفْظِهِ فَلَيْسَ لَهُ فِيهِ نَصِيبٌ . عَلَى اَنَّ ٱبْتِكَارَ ٱلْمَعْنَى وَٱلسَّبْقَ اِلَيْهِ لَيْسَ هُوَ فَضِيلَةً تَرْجِعُ اِلَى ٱلْمَعْنَى وَاِنَّمَا هُوَ فَضِيلَةٌ تَرْجِعُ اِلَى ٱلَّذِي ٱبْتَكَرَهُ وَسَبَقَ اِلَيْهِ . فَٱلْمَعْنَى ٱلْجَيِّدُ جَيِّدٌ وَاِنْ كَانَ مَسْبُوقًا اِلَيْهِ. وَٱلْوَسَطُ وَسَطٌ وَٱلرَّدِيءُ رَدِيءٌ وَاِنْ لَمْ يَكُنْ مَسْبُوقًا اِلَيْهِمَا . وَقَدْ اَطْبَقَ ٱلْمُتَقَدِّمُونَ وَٱلْمُتَاَخِّرُونَ عَلَى تَدَاوُلِ ٱلْمَعَانِي بَيْنَهُمْ فَلَيْسَ عَلَى اَحَدٍ فِيهِ عَيْبٌ اِلَّا اِذَا اَخَذَهُ بِلَفْظِهِ كُلِّهِ وَاَخَذَهُ فَاَفْسَدَهُ وَقَصَّرَ فِيهِ عَمَّنْ تَقَدَّمَهُ وَرُبَّمَا اَخَذَ ٱلشَّاعِرُ ٱلْقَوْلَ ٱلْمَشْهُورَ وَلَمْ يُبَالِ كَمَا فَعَلَ ٱلنَّابِغَةُ فَاِنَّهُ اَخَذَ قَوْلَ وَهْبِ بْنِ ٱلْحَارِثِ بْنِ زُهَيْرٍ :

تَبْدُو كَوَاكِبُهُ وَٱلشَّمْسُ طَالِعَةٌ

وَقَالَ ٱلنَابِغَةُ

تَبْدُو كَوَاكِبُهُ وَٱلشَّمْسُ طَالِعَةٌ ... لَا ٱلنُّورُ نُورٌ وَلَا ٱلْاِظْلَامُ اِظْلَامُ

وَاَخَذَ قَوْلَ رَجُلٍ مِنْ كِنْدَةَ فِي عَمْرِو بْنِ هِنْدٍ:

هُوَ ٱلشَّمْسُ وَافَتْ يَوْمَ دَجْنٍ فَاَفْضَلَتْ

عَلَى كُلِّ ضَوْءٍ وَٱلْمُلُوكُ كَوَاكِبُ

فَقَالَ :

فَاِنَّكَ شَمْسٌ وَٱلْمُلُوكُ كَوَاكِبٌ ... اِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

وَسَنَتَّبِعُ ٱلْقَوْلَ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ وَٱلْحَاذِقُ يُخْفِي دَبِيبَهُ إِلَى ٱلْمَعْنَى يَأْخُذُهُ فِي سُتْرَةٍ فَيُحْكَمُ لَهُ بِٱلسَّبْقِ إِلَيْهِ . وَذٰلِكَ أَنْ يَأْخُذَ مَعْنًى مِنْ نَظْمٍ فَيُورِدَهُ فِي نَثْرٍ . أَوْ مِنْ نَثْرٍ فَيُورِدَهُ فِي نَظْمٍ أَوْ يَنْقُلَ ٱلْمَعْنَى ٱلْمُسْتَعْمَلَ فِي صِفَةِ خَمْرٍ فَيَجْعَلَهُ فِي مَدِيحٍ أَوْ فِي مَدِيحٍ فَيَنْقُلَهُ إِلَى وَصْفٍ . إِلَّا إِنَّهُ لَا يَكْمُلُ بِهٰذَا إِلَّا ٱلْمُبَرِّزُ وَٱلْكَامِلُ ٱلْمُقَدَّمُ فَمِمَّنْ أَخْفَى دَبِيبَهُ إِلَى ٱلْمَعْنَى وَسَتَرَهُ غَايَةَ ٱلسَّتْرِ أَبُو تَمَّامٍ فِي قَوْلِهِ :

جَمَعْتَ عُرَى أَعْمَالِهَا بَعْدَ فُرْقَةٍ إِلَيْكَ كَمَا ضَمَّ ٱلْأَنَابِيبَ عَامِلُ

قَالُوا هُوَ مِنْ قَوْلِ ٱلْخَبَّالِ ٱلرَّبَعِيِّ :

أُولٰئِكَ إِخْوَانُ ٱلصَّفَاءِ رُزِئْتُهُمْ فَمَا ٱلْكَفُّ إِلَّا إِصْبَعٌ ثُمَّ إِصْبَعُ

وَهٰكَذَا قَوْلُهُ وَقَدْ نَقَلَهُ مِنْ مَعْنًى إِلَى آخَرَ :

مَكَارِمُ لَجَّتْ فِي عُلُوٍّ كَأَنَّمَا تُحَاوِلُ ثَأْرًا عِنْدَ بَعْضِ ٱلْكَوَاكِبِ

قَالُوا هُوَ مِنْ قَوْلِ ٱلْأَخْطَلِ :

عَزُوفٌ لِحَقِّ ٱلسَّائِلِينَ كَأَنَّهُ بِعَقْرِ ٱلْمَتَالِي طَالِبٌ بِذُنُوبِ

وَمِمَّا أَخَذَهُ وَزَادَ فِيهِ عَلَى ٱلْأَوَّلِ قَوْلُهُ :

أَفْنَاهُمُ ٱلصَّبْرُ إِذْ أَبْقَاكُمُ ٱلْجَزَعُ

مِنْ قَوْلِ ٱلسَّمَوْءَلِ :

يُقَرِّبُ حُبُّ ٱلْمَوْتِ آجَالَنَا لَنَا وَتَكْرَهُهُ آجَالُهُمْ فَتَطُولُ

أَوْرَدَهُ أَبُو تَمَّامٍ فِي نِصْفِ بَيْتٍ وَٱسْتَوْفَى ٱلتَّطْبِيقَ وَمِنْ هٰذَا ٱلضَّرْبِ قَوْلُهُ :

عَلَّمَنِي جُودُكَ ٱلسَّمَاحَ فَمَا أَبْقَيْتُ شَيْئًا لَدَيَّ مِنْ صِلَتِكْ

مِنْ قَوْلِ ٱبْنِ ٱلْخَيَّاطِ :

لَمَسْتُ بِكَفِّي كَفَّهُ ٱبْتَغِي ٱلْغِنَى وَلَمْ ادْرِ انَّ ٱلْجُودَ مِنْ كَفِّهِ يُعْدِي

فَلَا ٱنَا مِنْهُ مَا افَادَ ذَوُو ٱلْغِنَى افَدْتُ وَاعْدَانِي فَاتْلَفْتُ مَا عِنْدِي

وَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ مُسْلِمٍ :

أُحِبُّ ٱلرِّيحَ مَا هَبَّتْ شَمَالًا وَاحْسُدُهَا اِذَا هَبَّتْ جَنُوبَا

قَسَّمَ تَقْسِيمًا حَسَنًا وَمَعْنَاهُ : انَّ ٱلشَّمَالَ تَجِيُّ مِنْ نَاحِيَةِ صَدِيقِهِ اِلَيْهِ فَاحَبَّهَا وَٱلْجَنُوبَ تَهِبُّ اِلَى ٱلْحَبِيبِ فَحَسَدَهَا لِمُبَاشَرَتِهَا جِسْمَهُ وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِ جِرَانِ ٱلْعَوْدِ :

إِذَا هَبَّتِ ٱلْأَرْوَاحُ مِنْ نَحْوِ ارْضِكُمْ وَجَدتُّ لِرَيَّاهَا عَلَى كَبِدِي بَرْدَا

وَزَادَ مُسْلِمٌ فِي قَوْلِهِ ايْضًا :

وَيُغْمِدُ ٱلسَّيْفَ بَيْنَ ٱلنَّحْرِ وَٱلْجِيدِ

عَلَى ٱلسَّابِقِ اِلَى هٰذَا ٱلْمَعْنَى وَهُوَ بَعْضُ ٱلْفُرْسَانِ اِذْ يَقُولُ :

جَعَلْتُ ٱلسَّيْفَ بَيْنَ ٱللِّيتِ مِنْهُ وَبَيْنَ سَوَادِ لِحْيَتِهِ عِذَارَا

لِانَّ ٱلْاغْمَادَ فِيهِ اشَدُّ تَأْثِيرًا مِنْ وَضْعِ ٱلْعِذَارِ عَلَيْهِ . وَقَدْ زَادَ ابُو نُوَاسٍ عَلَى جَرِيرٍ فِي قَوْلِهِ :

وَقَدْ اطُولُ نِجَادَ ٱلسَّيْفِ مُحْتَبِيًا مِثْلُ ٱلرُّدَيْنِيِّ هَزَّتْهُ ٱلْانَابِيبُ

فَقَالَ ابُو نُوَاسٍ :

سَبْطُ ٱلْبَنَانِ اِذَا ٱحْتَبَى بِنِجَادِهِ غَمَرُ ٱلْجَمَاجِمِ وَٱلسِّمَاطُ قِيَامُ

قَوْلُهُ : غَمَرُ ٱلْجَمَاجِمِ احْسَنُ مِنْ قَوْلِ جَرِيرٍ مِثْلُ ٱلرُّدَيْنِيِّ .

وَهٰكَذَا قَوْلُهُ :

اَشَمُّ طُوَالُ ٱلسَّاعِدَيْنِ كَأَنَّمَا ... يُلَاثُ نِجَادَا سَيْفِهِ بِلِوَاءِ

اَحْسَنُ لَفظًا وَسَبكًا مِنْ قَوْلِ عَنْتَرَةَ :

بَطَلٌ كَأَنَّ ثِيَابَهُ فِي سَرْحَةٍ ... يُحْذَى نِعَالَ ٱلسِّبْتِ لَيْسَ بِتَوْامِ

وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُ فِي ٱبْنَيْ عُبَيْدِ ٱللهِ بْنِ طَاهِرٍ :

لَهْفِي عَلَى تِلْكَ ٱلْمَخَايِلِ فِيهِمَا ... لَوْ أُمْهِلَتْ حَتَّى تَكُونَ شَمَائِلَا

لَوْ يُنْسَبَانِ لَكَانَ هٰذَا غَارِبًا ... لِلْمَكْرُمَاتِ وَكَانَ هٰذَا كَاهِلَا

إِنَّ ٱلْهِلَالَ إِذَا رَأَيْتَ نُمُوَّهُ ... أَيْقَنْتَ أَنْ سَيَكُونُ بَدْرًا كَامِلَا

اَحْسَنُ وَاَجْوَدُ مِمَّا اَخَذَ مِنْهُ هٰذِهِ ٱلْمَعَانِيَ وَهُوَ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ :

وَفِي جَوْفِهِ مِنْ دَارِمٍ ذُو حَفِيظَةٍ ... لَوَ انَّ ٱلْمَنَايَا اَنْسَأَتْهُ لَيَالِيَا

لَا يَقَعُ بَيْتُ ٱلْفَرَزْدَقِ مَعَ اَبْيَاتِ اَبِي تَمَّامٍ مَوْقِعًا . وَاَخَذَ قَوْلَ ٱلْفَرَزْدَقِ :

وَمَا وَامَرَتْنِي ٱلنَّفْسُ فِي رِحْلَةٍ لَهَا ... اِلَى اَحَدٍ اِلَّا اِلَيْكَ ضَمِيرُهَا

فَشَرَحَهُ وَقَالَ :

وَمَا طَوَّفْتُ فِي ٱلْآفَاقِ اِلَّا ... وَمِنْ جَدْوَاكَ رَاحِلَتِي وَزَادِي

مُقِيمُ ٱلظَّنِّ عِنْدَكَ وَٱلْاَمَانِي ... وَاِنْ قَلِقَتْ رِكَابِي فِي ٱلْبِلَادِ

وَاِلَى بَيْتِ ٱلْفَرَزْدَقِ يُشِيرُ ٱلْقَائِلُ :

مَدَحْتُكَ جَهْدِي بِٱلَّذِي اَنْتَ اَهْلُهُ

فَقَصَّرَ عَمَّا فِيكَ مِنْ صَالِحٍ جَهْدِي

فَمَا كُلُّ مَا فِيهِ مِنَ ٱلْخَيْرِ قُلْتُهُ

وَلَا كُلُّ مَا فِيهِ يَقُولُ ٱلَّذِي بَعْدِي

وَكُنتُ إِذَا هَيَّأْتُ مَدْحًا لِمَاجِدٍ
أَتَانِي ٱلَّذِي فِيهِ بِأَدْنَى ٱلَّذِي عِنْدِي

وَمِنْ هَا هُنَا أَخَذَ أَبُو نُوَاسٍ قَوْلَهُ :

إِذَا نَحْنُ أَثْنَيْنَا عَلَيْكَ بِصَالِحٍ فَأَنْتَ كَمَا نُثْنِي وَفَوْقَ ٱلَّذِي نُثْنِي
وَإِنْ جَرَتِ ٱلْأَلْفَاظُ يَوْمًا بِمِدْحَةٍ لِغَيْرِكَ إِنْسَانًا فَأَنْتَ ٱلَّذِي نَعْنِي

وَيُشِيرُ إِلَى قَوْلِ ٱلْخَنْسَاءِ :

وَمَا بَلَغَ ٱلْمُهْدُونَ فِي ٱلْقَوْلِ مِدْحَةً وَإِنْ أَطْنَبُوا إِلَّا ٱلَّذِي فِيكَ أَفْضَلُ

وَهٰكَذَا قَوْلُهُ :

قَوْمٌ إِذَا لَبِسُوا ٱلدُّرُوعَ لِمَوْقِفٍ لَبِسَتْهُمُ ٱلْأَحْسَابُ فِيهِ دُرُوعَا

أَتَمُّ وَأَجْوَدُ مِنْ قَوْلِ ٱلْأَوَّلِ :

لَبِسُوا ٱلْقُلُوبَ عَلَى ٱلدُّرُو ع مُظَاهِرِينَ لِدَفْعِ ذٰلِكْ

وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ : إِنَّ ٱلنَّدَى حَيْثُ تَرَى ٱلضِّغَاطَا . فَأَخَذَهُ بَشَّارٌ وَقَدْ شَرَحَهُ وَبَيَّنَهُ فَقَالَ :

تَسْقُطُ ٱلطَّيْرُ حَيْثُ يَنْتَثِرُ ٱلْحَبُّ م وَتُغْشَى مَنَازِلُ ٱلْكُرَمَاءِ

وَمِثْلُهُ قَوْلُ ٱلْآخَرِ :

يَزْدَحِمُ ٱلنَّاسُ عَلَى بَابِهِ وَٱلْمَشْرَبُ ٱلْعَذْبُ كَثِيرُ ٱلزِّحَامْ

وَسَمِعَ أَبُو تَمَّامٍ قَوْلَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ لِلْأَشْعَثِ بْنِ قَيْسٍ : إِنَّكَ إِنْ صَبَرْتَ جَرَى عَلَيْكَ قَضَاءُ ٱللهِ وَأَنْتَ مَأْجُورٌ . وَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَسْلُ ٱحْتِسَابًا سَلَوْتَ كَمَا تَسْلُو ٱلْبَهَائِمُ فَحَكَاهُ حِكَايَةً حَسَنَةً فِي قَوْلِهِ :

وَقَالَ عَلِيٌّ فِي ٱلتَّعَازِي لِأَشْعَثٍ وَخَافَ عَلَيْهِ بَعْضَ تِلْكَ ٱلْمَآثِمِ
أَتَصْبِرُ لِلْبَلْوَى حَيَاءً وَحِسْبَةً فَتُؤْجَرَ أَمْ تَسْلُو سُلُوَّ ٱلْبَهَائِمِ
خُلِقْنَا رِجَالًا لِلتَّجَلُّدِ وَٱلْأَسَى وَتِلْكَ ٱلْغَوَانِي لِلْبُكَا وَٱلْمَآتِمِ

وَٱلْبَيْتُ ٱلْأَخِيرُ مِنْ قَوْلِ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ ٱلزُّبَيْرِ لَمَّا قُتِلَ مُصْعَبٌ . وَإِنَّمَا ٱلتَّسْلِيمُ وَٱلسَّلْوَةُ لِحُزَمَاءِ ٱلرِّجَالِ . وَإِنَّ ٱلْهَلَعَ وَٱلْجَزَعَ لِرَبَّاتِ ٱلْحِجَالِ وَسَمِعَ قَوْلَ زِيَادٍ لِأَبِي ٱلْأَسْوَدِ . لَوْ أَنَّكَ ضَعِيفٌ لَاسْتَعْمَلْتُكَ . فَقَالَ أَبُو ٱلْأَسْوَدِ : إِنْ كُنْتَ تُرِيدُنِي لِلصِّرَاعِ فَإِنِّي لَا أَصْلُحُ لَهُ وَإِلَّا فَغَيْرُ شَدِيدٍ أَنْ آمُرَ وَأَنْهَى فَقَالَ أَبُو تَمَّامٍ :

تَعَجَّبُ أَنْ رَأَتْ جِسْمِي نَحِيفًا كَأَنَّ ٱلْمَجْدَ يُدْرَكُ بِٱلصِّرَاعِ

وَلَمَّا قَالَ بَشَّارٌ :

مَنْ رَاقَبَ ٱلنَّاسَ لَمْ يَظْفَرْ بِحَاجَتِهِ وَفَازَ بِٱلطَّيِّبَاتِ ٱلْفَاتِكُ ٱللَّهِجُ

تَبِعَهُ سَلْمٌ ٱلْخَاسِرُ فَقَالَ :

مَنْ رَاقَبَ ٱلنَّاسَ مَاتَ غَمًّا وَفَازَ بِٱللَّذَّةِ ٱلْجَسُورُ

فَلَمَّا سَمِعَ بَشَّارٌ هٰذَا ٱلْبَيْتَ قَالَ : ذَهَبَ ٱلْخَبِيثُ بِبَيْتِي . وَمِنْ حُسْنِ ٱلِٱتِّبَاعِ أَيْضًا قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ ٱلْعَبَّاسِ حَيْثُ كَتَبَ : إِذَا كَانَ لِلْمُحْسِنِ مِنَ ٱلثَّوَابِ مَا يُقْنِعُهُ وَلِلْمُسِيءِ مِنَ ٱلْعِقَابِ مَا يَقْمَعُهُ ٱزْدَادَ ٱلْمُحْسِنُ فِي ٱلْإِحْسَانِ رَغْبَةً وَٱنْقَادَ ٱلْمُسِيءُ لِلْحَقِّ رَهْبَةً . أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ عَلِيٍّ : يَجِبُ عَلَى ٱلْوَالِي أَنْ يَتَعَهَّدَ أُمُورَهُ وَيَتَفَقَّدَ أَعْوَانَهُ حَتَّى لَا يَخْفَى عَلَيْهِ إِحْسَانُ مُحْسِنٍ وَلَا إِسَاءَةُ مُسِيءٍ ثُمَّ لَا يَتْرُكَ وَاحِدًا مِنْهُمَا بِغَيْرِ جَزَاءٍ . فَإِنْ تَرَكَ ذٰلِكَ تَهَاوَنَ ٱلْمُحْسِنُ وَٱجْتَرَأَ ٱلْمُسِيءُ وَفَسَدَ

ٱلْأَمْرُ وَضَاعَ ٱلْعَمَلُ . وَسَمِعَ بَعْضُ ٱلْكُتَّابِ قَوْلَ نُصَيْبٍ :

وَلَوْ سَكَتُوا أَثْنَتْ عَلَيْكَ ٱلْحَقَائِبُ

فَكَتَبَ وَلَوْ أُمْسِكُ لِسَانِي عَنْ شُكْرِكَ لَنَطَقَ أَثَرُكَ عَلَيَّ . وَفِي فَصْلٍ آخَرَ : وَلَوْ جَحَدْتُكَ إِحْسَانَكَ لَأَكْذَبَتْنِي آثَارُهُ وَنَمَّتْ عَلَيَّ شَوَاهِدُهُ . وَقَرِيبٌ مِنْهُ قَوْلُهُمْ : شَاهِدَاتُ ٱلْأَحْوَالِ أَعْدَلُ مِنْ شَهَادَاتِ ٱلرِّجَالِ . أَخَذَهُ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ فَشَرَحَهُ فِي قَوْلِهِ :

حَالُ ٱلسَّدَادُ فِي عَمَّا يُرِيبُكُمْ ... لٰكِنْ فَمُ ٱلْحَالِ مِنِّي غَيْرُ مَسْدُودِ

حَالٌ تَصِيحُ بِمَا أَوْلَيْتَ مُعْلِنَةً ... وَكُلُّ مَا تَدَّعِيهِ غَيْرُ مَرْدُودِ

كُلِّي هِجَاءٌ وَقَتْلِي لَا يَحِلُّ لَكُمْ ... فَمَا يُدَاوِيكُمْ مِنِّي سِوَى ٱلْجُودِ

وَمِمَّنْ أَحْسَنَ ٱلْإِتِّبَاعَ أَيْضًا أَحْمَدُ بْنُ يُوسُفَ وَقَدْ سَمِعَ قَوْلَ عَلِيٍّ : لَا تَكُونَنَّ كَمَنْ يَعْجِزُ عَنْ شُكْرِ مَا أُوتِيَ وَيَلْتَمِسُ ٱلزِّيَادَةَ فِيمَا بَقِيَ . فَكَتَبَ : أَحَقُّ مَنْ أَثْبَتَ لَكَ ٱلْعُذْرَ فِي حَالِ شُغْلِكَ مَنْ لَمْ يَخْلُ سَاعَةً مِنْ بِرِّكَ فِي وَقْتِ فَرَاغِكَ . وَأَخَذَهُ أَخْذًا ظَاهِرًا أَحْمَدُ بْنُ صُبَيْحٍ فَقَالَ : فِي شُكْرِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ إِحْسَانِ ٱلْأَمِيرِ شَاغِلٌ عَنِ ٱسْتِبْطَاءِ مَا تَأَخَّرَ مِنْهُ . وَأَخَذَهُ سَعِيدُ بْنُ حُمَيْدٍ فَقَالَ : لَسْتُ مُسْتَقِلًّا لِشُكْرِ مَا مَضَى مِنْ بَلَائِكَ فَأَسْتَبْطِئَ دَرْكَ مَا أُؤَمِّلُ مِنْ مَزِيدِكَ . وَمِنْ هٰذَا أَيْضًا قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ :

لَا تُسْدِيَنَّ إِلَيَّ عَارِفَةً ... حَتَّى أَقُومَ بِشُكْرِ مَا سَلَفَا

وَأَخْبَرَ ٱلْأَخْفَشُ قَالَ : قَالَ أَبُو تَمَّامٍ لِٱبْنِ أَبِي دُؤَادٍ لَمَّا غَضِبَ عَلَيْهِ : أَنْتَ ٱلنَّاسُ كُلُّهُمْ وَلَا طَاقَةَ لِي بِغَضَبِ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ . فَقَالَ

ٱبنُ أبي رُؤَادٍ : مَا أحسَنَ هٰذَا مِنْ أينَ أخَذْتَهُ . قَالَ : مِنْ قَوْلِ أبي نُوَاسٍ وَلَيسَ عَلَى ٱللهِ بِمُسْتَنْكَرٍ . أنْ يَجْمَعَ ٱلعَالَمَ فِي وَاحِدِ

وَمَنْ سَمِعَ هٰذَا ٱلكَلَامَ يَظُنُّهُ مَسْرُوقًا مِنْ قَوْلِ جَرِيرٍ :

إذَا غَضِبَتْ عَلَيَّ بَنُو تَمِيمٍ رَأَيتُ ٱلنَّاسَ كُلَّهُمُ غِضَابَا

وَسَمِعَ قُلَيبٌ ٱلمُعتَزِلِيُّ أبيَاتًا لِلعُتبِيِّ وَهِيَ :

أَفَلَتْ بَطَالَتُهُ وَرَاجَعَهُ حِلْمٌ وَأَعقَبَهُ ٱلهَوَى نَدَمَا

أَلقَى عَلَيهِ ٱلدَّهرُ كَلْكَلَهُ وَأَعَارَهُ ٱلإقتَارَ وَٱلعَدَمَا

فَإذَا أَلَمَّ بِهِ أَخُو ثِقَةٍ غَضَّ ٱلجُفُونَ وَمَجْمَجَ ٱلكَلِمَا

فَقَالَ لِبَعضِ ٱلمُلُوكِ يَستَعطِفُهُ عَلَى رَجُلٍ مِنْ أَهلِهِ : جَعَلَنِي ٱللهُ فِدَاكَ . لَيسَ هُوَ ٱليَومَ كَمَا كَانَ أَمسِ إنَّهُ وَحَيَاتِكَ أَفَلَتْ بَطَالَتُهُ إِي وَٱللهِ وَرَاجَعَهُ حِلْمُهُ وَأَعقَبَهُ وَحَقِّكَ ٱلهَوَى نَدَمًا أَلقَى ٱلدَّهرُ عَلَيهِ كَلكَلَهُ فَهُوَ ٱليَومَ إِذَا رَأَى أَخَا ثِقَةٍ غَضَّ بَصَرَهُ وَمَجْمَجَ كَلَامَهُ . وَبِهٰذَا يُعرَفُ أَنَّ حَلَّ ٱلمَنظُومِ وَنَظمَ ٱلمَحلُولِ أَسهَلُ مِنِ ٱبتِدَائِهِمَا لِأَنَّ ٱلمَعَانِيَ إِذَا حُلَّتْ مَنظُومًا أَوْ نُظِمَتْ مَنثُورًا حَاضِرَةٌ بَينَ يَدَيكَ تَزِيدُ فِيهَا شَيئًا فَتَنحَلُّ أَوْ تَنقُصُ مِنهَا شَيئًا فَتَنتَظِمُ . وَإِذَا أَرَدتَّ ٱبتِدَاءَ كَلَامٍ وَجَدتَّ ٱلمَعَانِيَ غَائِبَةً عَنكَ فَتَحتَاجُ إِلَى فِكرٍ يُحضِرُكَهَا وَٱلمَحلُولُ مِنَ ٱلشِّعرِ عَلَى أَربَعَةِ أَضرُبٍ : ضَربٌ مِنهَا يَكُونُ بِإِدخَالِ لَفظَةٍ بَينَ أَلفَاظِهِ . وَضَربٌ يَنحَلُّ بِتَأخِيرِ لَفظَةٍ مِنهُ وَتَقدِيمِ أُخرَى فَيَحسُنُ مَحلُولُهُ وَيَستَقِيمُ . وَضَربٌ مِنهُ يَنحَلُّ عَلَى هٰذَا ٱلوَجهِ وَلَا يَحسُنُ وَلَا يَستَقِيمُ . فَأَمَّا ٱلضَّربُ ٱلأَوَّلُ فَمِثَالُهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ

صدرِ كلامِ قُلَيبٍ المعتزليِّ . وأمّا الضربُ الثاني فمثالُهُ ما ذكر بعضُ الكُتّابِ من قولِ البحتريِّ :

نطلبُ الأكثرَ في الدنيا وقد تبلغُ الحاجةُ فيها بالأقلّ

ثمّ قال : فإذا نثرتَ ذلك ولم تزد في ألفاظِهِ شيئًا قلتَ : نطلبُ في الدنيا الأكثرَ ونبلغُ منها الحاجةَ بالأقلِّ . فأمّا الضربُ الثالثُ فهو أن توضعَ ألفاظُ البيتِ في مواضعَ لا يحسنُ وضعُها في غيرِها فيختلُّ إذا نُثِرَ بتأخيرِ لفظٍ وتقديمِ آخرَ فيحتاجُ نثرُهُ إلى النقصانِ منهُ والزيادةِ فيهِ . كقولِ البحتريِّ أيضًا :

يُسرُّ بعمرانِ الديارِ مُضلَّلٌ وعمرانُها مستأنفٌ من خرابِها
ولم أرتضِ الدنيا أوانَ مجيئِها فكيفَ ارتضائيها أوانَ ذهابِها

فإذا نُثِرَ على هذا الوجهِ قيلَ : يُسرُّ مُضلَّلٌ بعمرانِ الدنيا ومن خرابِها عمرانُها مستأنفٌ ولم أرتضِ أوانَ مجيئِها الدنيا فكيفَ أوانَ ذهابِها ارتضائيها . فهذا نثرٌ فاسدٌ فإذا غيّرتَ بعضَ ألفاظِهِ حسُنَ وهو أن تقولَ : يُسرُّ المضلَّلُ بعمرانِ الديارِ وإنّما يُستأنفُ عمرانُها من خرابِها . وما ارتضيتُ الدنيا أوانَ مجيئِها فكيفَ ارتضيها أوانَ ذهابِها . ونحنُ نقولُ إنَّ من النظمِ ما لا يمكنُ حلُّهُ أصلًا بتأخيرِ لفظةٍ وتقديمِ أخرى منهُ حتّى يلحقَ بهِ التغييرُ والزيادةُ والنقصانُ . مثلُ قولِ الشاعرِ :

لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُهُ فلم يبقَ إلّا صورةُ اللحمِ والدمِ

فالمصراعُ الأوّلُ يمكنُ أن تؤخَّرَ ألفاظُهُ وتُقدَّمَ فيصيرُ نثرًا

مُستقيمًا وهوَ انْ تقولَ : فؤادُ الفتى نِصفٌ ولِسانُهُ نِصفٌ . ولا يُمكِنُ في المِصراعِ الثاني ذلكَ حتّى تزيدَ فيهِ او تنقصَ منهُ لانَّ المِصراعَ الثاني انّما هوَ تذييلٌ للمِصراعِ الاوّلِ فاذا اردتَ انْ تحلَّهُ حلًّا مُقتصرًا بغيرِ لفظهِ قلتَ : الانسانُ شطرانِ لِسانٌ وجَنانٌ . وممّا لا يُمكِنُ حلُّهُ بتقديمِ لفظةٍ منهُ وتأخيرِ اخرى ايضًا قولُ ابي نُواسٍ :

الا يا ابنَ الّذينَ فنوا وبادوا   اما واللهِ ما ذهبوا لِتبقى

فتحتاجُ في نثرِهِ الى تغييرِهِ وابدالِ الفاظِهِ فتقولُ : الا يا ابنَ الّذينَ ماتوا ومضوا وظعنوا فناوا فواللهِ ما ظعنوا لتُقيمَ وما راموا الّا لِتريمَ . ولا ماتوا لِتحيا ولا فنوا لِتبقى . وفي هذهِ الالفاظِ طولٌ وليسَ بصائرٍ على ما خبّرتُكَ فانْ اردتَ اختصارَهُ قلتَ : اما واللهِ انَّ الموتَ لم يُصِبكَ في ابيكَ الّا لِيُصيبَكَ فيكَ . والضربُ الرابعُ انْ تكسوَ ما تحلُّهُ منَ المنظومِ الفاظًا منْ عندِكَ . وهذا ارفعُ درجاتِكَ . ومنهُ ما قالَ بعضُهمْ للرّبيعِ بنِ خُثيمٍ وقدْ راى اجتهادَهُ في العبادةِ : قتلتَ نفسَكَ . فقالَ : راحتَها اطلبُ . فقالَ الشّاعرُ :

ساطلبُ بُعدَ الدّارِ منكمْ لِتقرُبوا   وتسكبُ عيناي الدّموعَ لِتجمُدا

ومنهُ ما جاءَ عنِ الحسنِ البصريِّ فقالَ نثرًا : انَّ امرأً لمْ يَعُدَّ بينَهُ وبينَ آدمَ الّا ابًا ميّتًا لَمُعرَقٌ لهُ في الموتِ . فاخذهُ ابو نُواسٍ فقالَ :

وما النّاسُ الّا هالكٌ وابنُ هالكٍ   وذو نسبٍ في الهالكينَ عريقُ

وسمعَ بعضُ الكُتّابِ قولَ ابي تمّامٍ :

فَإِنْ تَجِدْ عِلَّةً نَعُمُّ بِهَا   حَتَّى تَرَانَا نُعَادُ مِنْ مَرَضِهْ

فَكَتَبَ مَنْ تَرَلَ مَنْزِلَتِي مِنْ طَاعَتِكَ وَمُشَارَكَتِكَ كَانَ حَقِيقًا أَنْ يُهَنَّأَ بِالنِّعْمَةِ تَحْدُثُ عِنْدَكَ وَيُعَزَّى عَلَى النَّائِبَةِ تُلِمُّ بِكَ. فَنَقَلَ الْعِيَادَةَ إِلَى الْمُصِيبَةِ وَالتَّعْزِيَةِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْكِتَابَةُ نَقْضُ الشِّعْرِ. وَقِيلَ لِلْعَتَابِيِّ: بِمَ قَدَرْتَ عَلَى الْبَلَاغَةِ. فَقَالَ: بِحَلِّ مَعْقُودِ الْكَلَامِ وَأَحْسَنَ أَبُو تَمَّامٍ فِي قَوْلِهِ:

إِلَيْكَ هَتَكْنَا جُنْحَ لَيْلٍ كَأَنَّمَا   قَدِ اكْتَحَلَتْ مِنْهُ الْبِلَادُ بِإِثْمِدِ

وَزَادَ فِيهِ عَلَى أَبِي نُوَاسٍ وَمِنْهُ أَخَذَ. وَهُوَ قَوْلُهُ:

وَجُنْحُ لَيْلٍ مُكْتَحِلٌ بِقَارِ

لِأَنَّ الْاِكْتِحَالَ يَكُونُ بِالْإِثْمِدِ وَلَا يَكُونُ بِالْقَارِ. وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ ابْنُ الْعَبَّاسِ:

لِفَضْلِ بْنِ سَهْلٍ يَدٌ   تَقَاصَرَ عَنْهَا الْمَثَلْ
فَبَسْطَتُهَا لِلْغِنَى   وَسَطْوَتُهَا لِلْأَجَلْ
وَبَاطِنُهَا لِلنَّدَى   وَظَاهِرُهَا لِلْقُبَلْ

وَأَخَذَ الْمَعْنَى الْأَمِيرُ أَبُو عَزِيزٍ قَتَادَةُ أَمِيرُ مَكَّةَ فَقَالَ مُشِيرًا إِلَى يَدِهِ مِنْ أَبْيَاتٍ:

تَظَلُّ مُلُوكُ الْأَرْضِ تَلْثِمُ ظَهْرَهَا   وَفِي بَطْنِهَا لِلْمُجْدِبِينَ رَبِيعُ

فَاتَّبَعَهُ ابْنُ الرُّومِيِّ فَأَحْسَنَ الْاِتِّبَاعَ فَقَالَ:

أَصْبَحْتُ بَيْنَ خَصَاصَةٍ وَتَجَمُّلٍ   وَالْحُرُّ بَيْنَهُمَا يَمُوتُ هَزِيلَا
فَامْدُدْ إِلَيَّ يَدًا تَعَوَّدَ بَطْنُهَا   بَذْلَ النَّوَالِ وَظَهْرُهَا التَّقْبِيلَا

وَمَا أَلطَفَ قَوْلَ مَنْ قَالَ :

وَمَا ٱلدَّهرُ فِي حَالِ ٱلسُّكُونِ بِسَاكِنٍ
سِوَى أَنَّهُ مُسْتَجْمِعٌ لِوُثُوبِ

وَإِنَّمَا أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ :

وَقُلْتُ يَا قَوْمُ إِنَّ ٱللَّيْثَ مُنْقَبِضٌ   عَلَى بَرَاثِنِهِ لِلْوَثْبَةِ ٱلضَّارِي

وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُ :

كَأَنَّ أَبَاهُ حِينَ سَمَّاهُ صَاعِدًا   رَأَى كَيْفَ يَرْقَى فِي ٱلْمَعَالِي وَيَصْعَدُ

أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

سَمَّاهُ أُسْرَتُهُ ٱلْعَلَاءَ وَإِنَّمَا   قَصَدُوا بِذٰلِكَ أَنْ يَتِمَّ عُلَاهُ

وَزَادَ أَبُو تَمَّامٍ عَلَى ٱلْأَفْوَهِ وَٱلنَّابِغَةِ وَأَبِي نُوَاسٍ وَمُسْلِمٍ فِي مَعْنًى تَدَاوَلُوهُ وَهُوَ قَوْلُ ٱلْأَفْوَهِ :

وَتَرَى ٱلطَّيْرَ عَلَى آثَارِنَا   رَأْيَ عَيْنٍ ثِقَةً أَنْ سَتُمَارْ

وَقَالَ ٱلنَّابِغَةُ :

إِذَا مَا غَزَوْا بِٱلْجَيْشِ حَلَّقَ فَوْقَهُمْ   عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَائِبِ
جَوَانِحُ قَدْ أَيْقَنَّ أَنَّ قَبِيلَهُ   إِذَا مَا ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ أَوَّلُ غَالِبِ

وَقَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ :

تَتَأَيَّا ٱلطَّيْرُ غَزْوَتَهُ   ثِقَةً بِٱلشِّبْعِ مِنْ جَزَرِهْ

وَقَوْلُ مُسْلِمٍ :

قَدْ عَوَّدَ ٱلطَّيْرَ عَادَاتٍ وَثِقْنَ بِهَا   فَهُنَّ يَتْبَعْنَهُ فِي كُلِّ مُرْتَحَلِ

فَقَالَ أَبُو تَمَّامٍ :

اَقَامَتْ مَعَ ٱلرَّايَاتِ حَتَّى كَاَنَّهَا مِنَ ٱلْجَيْشِ اِلَّا اَنَّهَا لَا تُقَاتِلُ

وَقَوْلُــهُ : (اَقَامَتْ مَعَ ٱلرَّايَاتِ زِيَادَةٌ) وَزَادَ عَلَيْهِمْ بَعْضُ ٱلْمُحْدَثِينَ فَقَالَ :

حَتَّى تَكَادَ عَلَى اَحْيَائِهِمْ تَقَعُ

وَقَالَ اَبُو تَمَّامٍ :

هِمَّةٌ تَنْطَحُ ٱلنُّجُومَ وَجَدٌّ آلِفٌ لِلْحَضِيضِ فَهْوَ حَضِيضُ

اَخَذَهُ ٱلْبُحْتُرِيُّ فَحَسَّنَهُ وَهُوَ قَوْلُهُ :

مُتَحَيِّرٌ يَغْدُو بِعَزْمٍ قَائِمٍ فِي كُلِّ نَائِبَةٍ وَجِدٍّ قَاعِدِ

وَمِمَّا اَخَذَهُ مِنْ اَبِي تَمَّامٍ فَقَسَّمَهُ تَقْسِيمًا حَسَنًا قَوْلُهُ :

مَلِكٌ لَهُ فِي كُلِّ يَوْمِ كَرِيهَةٍ اِقْدَامُ غِرٍّ وَٱعْتِزَامُ مُجَرِّبِ

هُوَ مِنْ قَوْلِ اَبِي تَمَّامٍ :

وَمُجَرَّبُونَ سَقَاهُمُ مِنْ بَأْسِهِ فَاِذَا لُقُوا فَكَاَنَّهُمْ اَغْمَارُ

وَقَالَ اَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ :

كَمْ نِعْمَةٍ لَا يُسْتَقَلُّ بِشُكْرِهَا لِلّٰهِ فِي طَيِّ ٱلْمَكَارِهِ كَامِنَهْ

اَخَذَهُ اَبُو تَمَّامٍ فَقَالَ :

قَدْ يُنْعِمُ ٱللّٰهُ بِٱلْبَلْوَى وَاِنْ عَظُمَتْ وَيَبْتَلِي ٱللّٰهُ بَعْضَ ٱلْقَوْمِ بِٱلنِّعَمِ

فَزَادَ عَلَيْهِ لِاَنَّهُ اَتَى بِعَكْسِ ٱلْمَعْنَى وَقَالَ اَبُو تَمَّامٍ :

رَاَيْتُ رَجَائِي فِيكَ وَحْدَكَ هِمَّةً وَلٰكِنَّهُ فِي سَائِرِ ٱلنَّاسِ مَطْمَعُ

فَاَخَذَهُ ٱلْبُحْتُرِيُّ فَٱخْتَصَرَهُ فَقَالَ :

ثَنَى اَمَلِي فَٱحْتَازَهُ عَنْ مَعَاشِرٍ يَبِيتُونَ وَٱلْآمَالُ فِيهِمْ مَطَامِعُ

فَاَخَذَهُ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ فَقَالَ :

بِهِ صَدَقَ ٱللهُ ٱلاَمَانِي حَدِيثَهَا وَقَدْ مَرَّ دَهْرٌ وَٱلاَمَانِي وَسَاوِسُ

وَقَالَ اَبُو تَمَّامٍ :

اَنضَرَتْ اَيْكَتِي عَطَايَاكَ حَتَّى عَادَ غُصْنِي سَاقًا وَكَانَ قَضِيبَا

فَقَالَ ٱلبُحْتُرِيُّ وَزَادَ :

حَتَّى يَعُودَ ٱلذِّئْبُ لَيْثًا ضَيْغَمًا وَٱلغُصْنُ سَاقًا وَٱلقَرَارَةُ نِيقَا

وَمِثْلُ هٰذَا كَثِيرٌ وَفِيمَا اَورَدتُ كِفَايَةٌ

البحث الثاني

في قبح الاخذ

(من كتاب الصناعتين للعسكري)

(راجع صفحة ٢٤٣ من علم الادب)

وَقُبْحُ ٱلاَخْذِ اَنْ تَعْمِدَ اِلَى ٱلمَعْنَى فَتَتَنَاوَلَهُ بِلَفْظِهِ كُلِّهِ اَوْ اَكْثَرِهِ اَوْ تُخْرِجَهُ فِي مَعْرِضٍ مُسْتَهْجَنٍ. وَٱلمَعْنَى اِنَّمَا يَحْسُنُ بِٱلكُسْوَةِ. اَخْبَرَ بَعْضُ اَصْحَابِنَا قَالَ قِيلَ لِلشَّعْبِيِّ : اِنَّا اِذَا سَمِعْنَا ٱلحَدِيثَ مِنْكَ نَسْمَعُهُ بِخِلَافِ مَا نَسْمَعُهُ مِنْ غَيْرِكَ . قَالَ : اِنِّي اَجِدُهُ عَارِيًا فَاَكْسُوهُ مِنْ غَيْرِ اَنْ اَزِيدَ فِيهِ حَرْفًا . اَيْ مِنْ غَيْرِ اَنْ اَزِيدَ فِي مَعْنَاهُ شَيْئًا فَمِمَّا اُخِذَ بِلَفْظِهِ وَمَعْنَاهُ وَادَّعَى آخِذُهُ اَنَّهُ لَمْ يَأْخُذْهُ وَلٰكِنْ وَقَعَ كَمَا وَقَعَ لِلاَوَّلِ كَمَا سُئِلَ اَبُو عَمْرِو بْنُ ٱلعَلَاءِ عَنِ ٱلشَّاعِرَيْنِ يَتَّفِقَانِ عَلَى لَفْظٍ وَاحِدٍ وَمَعْنًى . فَقَالَ : عُقُولُ ٱلرِّجَالِ

تَوَافَتْ عَلَى أَلسِنَتِهَا وَذٰلِكَ قَوْلُ طَرَفَةَ :

وُقُوفًا بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ يَقُولُونَ لَا تَهْلِكْ أَسًى وَتَجَلَّدِ

وَهُوَ قَوْلُ أَمْرِئِ ٱلقَيْسِ :

وُقُوفًا بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ يَقُولُونَ لَا تَهْلِكْ أَسًى وَتَجَمَّلِ

فَغَيَّرَ طَرَفَةُ ٱلقَافِيَةَ . وَقَالَ ٱلبَعِيثُ :

أَتَرْجُو كُلَيْبٌ أَنْ يَجِيءَ حَدِيثُهَا بِخَيْرٍ وَقَدْ أَعْيَا كُلَيْبًا قَدِيمُهَا

وَقَالَ ٱلفَرَزْدَقُ :

أَتَرْجُو رَبِيعٌ أَنْ تَجِيءَ صِغَارُهَا بِخَيْرٍ وَقَدْ أَعْيَا رَبِيعًا كِبَارُهَا

وَمِثْلُ هٰذَا كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِهِمْ جِدًّا وَٱلأَخْذُ إِذَا كَانَ كَذٰلِكَ كَانَ مَعِيبًا وَإِنِ ٱدَّعَى ٱلآخِرُ أَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ قَوْلَ ٱلأَوَّلِ بَلْ وَقَعَ لَهُ كَمَا وَقَعَ لِذَاكَ فَإِنَّ صِحَّةَ ذٰلِكَ لَا يَعْرِفُهَا إِلَّا ٱللّٰهُ عَزَّ وَجَلَّ وَٱلعَيْبُ لَازِمٌ لِلآخِرِ . وَإِذَا كَانَ ٱلقَوْمُ فِي قَبِيلَةٍ وَاحِدَةٍ فَإِنَّ خَوَاطِرَهُمْ تَقَعُ مُتَقَارِبَةً كَمَا أَنَّ أَخلَاقَهُمْ وَشَمَائِلَهُمْ تَكُونُ مُتَضَارِعَةً وَأَنْشَدَتُ ٱلصَّاحِبَ إِسْمَاعِيلَ بْنَ عَبَّادٍ :

كَانَتْ سَرَاةُ ٱلنَّاسِ تَحْتَ أَذِلَّةٍ

فَسَبَقَنِي وَقَالَ :

فَغَدَتْ سَرَاةُ ٱلنَّاسِ فَوْقَ سَرَاتِهِ

وَكَذٰلِكَ كُنْتُ قُلْتُ : فَعَلَى هٰذَا جَائِزٌ مَا يُدَّعَى لَهُمْ وَٱلظَّاهِرُ مَا قُلْنَاهُ فَهٰذَا ضَرْبٌ . وَٱلضَّرْبُ ٱلآخَرُ مِنَ ٱلأَخْذِ ٱلمُسْتَهْجَنِ أَنْ يَأْخُذَ ٱلمَعْنَى فَيُفْسِدَهُ أَوْ يُعَرِّضَهُ أَوْ يُخْرِجَهُ فِي مَعْرِضٍ قَبِيحٍ وَكُسْوَةٍ

مُسْتَرْذَلَةٍ . وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ اَبِي كَرِيمَةَ :

قَفَاهُ وَجْهٌ ثُمَّ وَجْهُ ٱلَّذِي قَفَا ۞ هُ وَجْهٌ يُشْبِهُ ٱلْبَدْرَا

وَإِنَّمَا اَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ اَبِي نُوَاسٍ :

بَزَّ حُسْنَ ٱلْوُجُوهِ حُسْنُ قَفَانَا

وَاَخَذَهُ اَبُو نُوَاسٍ مِنْ قَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ بِقَوْلِهِ لِلنُّعْمَانِ بْنِ ٱلْمُنْذِرِ : اَيُفَاخِرُكَ اَبْنُ جَفْنَةَ وَٱللَّاتِ لَاَمْسُكَ خَيْرٌ مِنْ يَوْمِهِ وَلَقَذَالُكَ اَحْسَنُ مِنْ وَجْهِهِ وَلَيَسَارُكَ اَسْمَحُ مِنْ يَمِينِهِ . وَلَعَبِيدُكَ اَكْثَرُ مِنْ قَوْمِهِ وَلَنَفْسُكَ اَكْبَرُ مِنْ جُنْدِهِ وَلَيَوْمُكَ اَشْرَفُ مِنْ دَهْرِهِ . وَلَوَعْدُكَ اَنْجَزُ مِنْ رِفْدِهِ . وَلَهَزْلُكَ اَصْوَبُ مِنْ جِدِّهِ . وَلَكُرْسِيُّكَ اَرْفَعُ مِنْ سَرِيرِهِ . وَلَفِتْرُكَ اَبْسَطُ مِنْ شِبْرِهِ . وَلَأُمُّكَ خَيْرٌ مِنْ اَبِيهِ . وَسَمِعَ بَعْضُهُمْ قَوْلَ مَحْمُودٍ ٱلْوَرَّاقِ :

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ ٱللهِ نِعْمَةً ۞ عَلَيَّ لَهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ ٱلشُّكْرُ

فَكَيْفَ بُلُوغُ ٱلشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ ۞ وَإِنْ طَالَتِ ٱلْاَيَّامُ وَٱتَّصَلَ ٱلْعُمْرُ

إِذَا مَسَّ بِٱلسَّرَّاءِ عَمَّ سُرُورُهَا ۞ وَإِنْ مَسَّ بِٱلضَّرَّاءِ اَعْقَبَهَا ٱلْاَجْرُ

وَمَا مِنْهُمَا إِلَّا لَهُ فِيهِ نِعْمَةٌ ۞ تَضِيقُ بِهَا ٱلْاَوْهَامُ وَٱلْبَرُّ وَٱلْبَحْرُ

فَقَالَ وَاَسَاءَ :

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ إِنَّ ٱللهَ ذُو نِعَمٍ ۞ لَمْ يُحْصِهَا عَدَدًا بِٱلشُّكْرِ مَنْ حَمِدَا

شُكْرِي لَهُ عَمَلٌ فِيهِ عَلَيَّ لَهُ ۞ شُكْرٌ يَكُونُ لِشُكْرٍ قَبْلَهُ مَدَدَا

فَهٰذَا مِثَالُ قُبْحِ ٱلْاَخْذِ فَٱعْلَمْهُ . وَاَخَذَ اَبْنُ طَبَاطِبَا قَوْلَ عَلِيٍّ قِيمَةُ كُلِّ اَمْرِئٍ مَا يُحْسِنُهُ . فَقَالَ :

فيالَائِمي دَعْني اُغالِي بِقيمَتي ... فقيمَةُ كُلِّ ٱلنَّاسِ مَا يُحْسِنُونَهُ

فَاَخَذَهُ بِلَفْظِهِ وَاَخرَجَهُ بَغِيضًا مُتَكَلِّفًا . وَٱلْجَيِّدُ قَوْلُ ٱلآخَرِ : (فقيمَةُ كُلِّ ٱمرِئٍ عِلْمُهُ) فَهٰذَا وَإِنْ كَانَ اَخَذَهُ بِبَعْضِ لَفْظِهِ فَإِنَّ بَيْتَهُ اَحسَنُ مَوْقِعًا مِنْهُ مِنْ بَيْتِ ٱبْنِ طَبَاطِبَا. وَمِمَّا قَصَّرَ فِيهِ ٱلْبُحْتُرِيُّ قَوْلُهُ :

قَوْمٌ تَرَى اَرْمَاحَهُمْ يَوْمَ ٱلْوَغَى ... مَشْغُوفَةً بِمَوَاطِنِ ٱلْكِتْمَانِ

اَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ عَمْرِو بْنِ مَعْدِي كَرِبَ :

وَٱلضَّارِبِينَ بِكُلِّ اَبْيَضَ مُرْهَفٍ ... وَٱلطَّاعِنِينَ مَجَامِعَ ٱلاَضْغَانِ

فَإِنَّ قَوْلَهُ (مَجَامِعُ ٱلاَضْغَانِ) اَجْوَدُ مِنْ قَوْلِهِ: مَوَاطِنُ ٱلْكِتْمَانِ لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا يُطَاعِنُونَ ٱلأَعْدَاءَ مِنْ اَجْلِ اَضْغَانِهِمْ فَإِذَا وَقَعَ ٱلطَّعْنُ فِي مَوْضِعِ ٱلضِّغْنِ فَذَاكَ غَايَةُ ٱلْمُرَادِ . وَاَنْشَدَ عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ عَنْ عَمِّهِ :

حَرَامٌ عَلَى اَرْمَاحِنَا طَعْنُ مُدْبِرٍ ... وَتَنْدَقُّ قِدْمًا فِي ٱلصُّدُورِ صُدُورُهَا

مُسَلَّمَةٌ اَعْجَازُ خَيْلِي فِي ٱلْوَغَى ... مُكَلَّمَةٌ لَبَّاتُهَا وَنُحُورُهَا

اَخَذَهُ اَبُو تَمَّامٍ فَقَالَ :

اُنَاسٌ إِذَا مَا ٱسْتَحْكَمَ ٱلرَّوْعُ كَسَّرُوا

صُدُورَ ٱلْعَوَالِي فِي صُدُورِ ٱلْكَتَائِبِ

فَاَحْسَنَا جَمِيعًا وَمِثْلُهُ قَوْلُ ٱلآخَرِ :

يَلْقَى ٱلسُّيُوفَ بِنَحْرِهِ وَبِوَجْهِهِ ... وَيُقِيمُ هَامَتَهُ مَقَامَ ٱلْمِغْفَرِ

وَيَقُولُ لِلطِّرْفِ ٱصْطَبِرْ لِشَبَا ٱلْقَنَا ... فَهَدَمْتُ رُكْنَ ٱلْمَجْدِ إِنْ لَمْ يُعْقَرِ

وَمِثْلُهُ قَوْلُ بَكْرِ بْنِ ٱلنَّطَّاحِ :

يَتَلَقَّى ٱلنَّدَى بِوَجْهٍ حَيِيٍّ   وَصُدُورَ ٱلْقَنَا بِوَجْهٍ وَقَاحِ

وَهٰذَا كُلُّهُ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ :

لَا يَقَعُ ٱلطَّعْنُ اِلَّا فِي نُحُورِهِمِ   لَيْسَ لَهُمْ عَنْ حِيَاضِ ٱلْمَوْتِ تَهْلِيلُ

وَهُوَ دُونَ جَمِيعِ مَا تَقَدَّمَ . وَقَدْ اَتَيْتُ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ عَلَى ٱلْكِفَايَةِ . فَقِسْ بِمَا اَوْرَدْتُهُ عَلَى مَا تَرَكْتُهُ فَاِنِّي لَوِ ٱسْتَقْصَيْتُهُ خَرَجَ هٰذَا ٱلْكِتَابُ عَنِ ٱلْمُرَادِ وَزَاغَ عَنِ ٱلْاِيثَارِ وَبِٱللّٰهِ ٱلتَّوْفِيقُ

البحث الثالث

في حلّ الشعر

(عن المثل السائر والوشي المرقوم لابن الاثير)

(راجع صفحة ٢٤٤ من علم الادب)

حَلُّ ٱلْاَبْيَاتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ يَنْقَسِمُ اِلَى ثَلَاثَةِ اَقْسَامٍ : (ٱلْاَوَّلُ) مِنْهَا وَهُوَ اَدْنَاهَا مَرْتَبَةً اَنْ يَأْخُذَ ٱلنَّاثِرُ بَيْتًا مِنَ ٱلشِّعْرِ فَيَنْثُرُهُ بِلَفْظِهِ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَهٰذَا عَيْبٌ فَاحِشٌ . وَمِثَالُهُ كَمَنْ اَخَذَ عِقْدًا قَدْ اُتْقِنَ نَظْمُهُ وَاُحْسِنَ تَأْلِيفُهُ فَاَوْهَاهُ وَبَدَّدَهُ وَكَانَ يَقُومُ عُذْرُهُ فِي ذٰلِكَ اَنْ لَوْ نَقَلَهُ عَنْ كَوْنِهِ عِقْدًا اِلَى صُورَةٍ اُخْرَى مِثْلِهِ اَوْ اَحْسَنَ مِنْهُ . وَاَيْضًا فَاِنَّهُ اِذَا نَثَرَ ٱلشِّعْرَ بِلَفْظِهِ كَانَ صَاحِبُهُ مَشْهُورَ ٱلسَّرِقَةِ فَيُقَالُ : هٰذَا شِعْرُ فُلَانٍ بِعَيْنِهِ لِكَوْنِ اَلْفَاظِهِ بَاقِيَةً لَمْ يَتَغَيَّرْ مِنْهَا شَيْءٌ وَقَدْ سَلَكَ هٰذَا ٱلْمَسْلَكَ بَعْضُ ٱلْعِرَاقِيِّينَ فَجَاءَ مُسْتَهْجَنًا لَا مُسْتَحْسَنًا .

كَقَوْلِهِ فِي بَعْضِ اَبْيَاتِ ٱلْحَمَاسَةِ :

وَاَلَدَّ ذِي حَنَقٍ عَلَيَّ كَاَنَّمَا ... تَغْلِي عَدَاوَةُ صَدْرِهِ فِي مِرْجَلِ

اَرْجَيْتُهُ عَنِّي فَاَبْصَرَ قَصْدَهُ ... وَكَوَيْتُهُ فَوْقَ ٱلنَّوَاظِرِ مِنْ عَلِ

(فَيُقَالُ) فِي نَثْرِ هٰذَيْنِ ٱلْبَيْتَيْنِ : فَكَمْ لَقِيَ ٱلْاَلَدَّ ذَا حَنَقٍ كَاَنَّهُ يَنْظُرُ اِلَى ٱلْكَوَاكِبِ مِنْ عَلٍ وَتَغْلِي عَدَاوَةُ صَدْرِهِ فَكَوَاهُ فَوْقَ نَاظِرَيْهِ وَاَكَبَّهُ لِفَمِهِ وَيَدَيْهِ . فَلَمْ يَزِدْ هٰذَا ٱلنَّاثِرُ عَلَى اَنْ اَزَالَ رَوْنَقَ ٱلْوَزْنِ وَطَلَاوَةَ ٱلنَّظْمِ لَا غَيْرُ . وَمِنْ هٰذَا ٱلْقِسْمِ ضَرْبٌ مَحْمُودٌ لَا عَيْبَ فِيهِ وَهُوَ اَنْ يَكُونَ ٱلْبَيْتُ مِنَ ٱلشِّعْرِ قَدْ تَضَمَّنَ شَيْئًا لَا يُمْكِنُ تَغْيِيرُ لَفْظِهِ فَحِينَئِذٍ يُعْذَرُ نَاثِرُهُ اِذَا اَتَى بِذٰلِكَ ٱللَّفْظِ . وَكَذٰلِكَ ٱلْاَمْثَالُ ٱلسَّائِرَةُ فَاِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ ذِكْرِهَا عَلَى مَا جَاءَتْ فِي ٱلشِّعْرِ . (وَاَمَّا ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي) فَهُوَ وَسَطٌ بَيْنَ ٱلْاَوَّلِ وَٱلثَّالِثِ فِي ٱلْمَرْتَبَةِ وَهُوَ اَنْ يَنْثُرَ ٱلْمَعْنَى ٱلْمَنْظُومَ بِبَعْضِ اَلْفَاظِهِ وَيُعَبِّرَ عَنِ ٱلْبَعْضِ بِاَلْفَاظٍ اُخَرَ وَهُنَاكَ تَظْهَرُ ٱلصَّنْعَةُ فِي ٱلْمُمَاثَلَةِ وَٱلْمُشَابَهَةِ وَمُوَاخَاةِ ٱلْاَلْفَاظِ ٱلْبَاقِيَةِ بِٱلْاَلْفَاظِ ٱلْمُرْتَجَلَةِ فَاِنَّهُ اِذَا اَخَذَ لَفْظًا لِشَاعِرٍ مُجِيدٍ قَدْ نَقَّحَهُ وَصَحَّحَهُ فَقَرَنَهُ بِمَا لَا يُلَائِمُهُ كَانَ كَمَنْ جَمَعَ بَيْنَ لُؤْلُؤَةٍ وَحَصَاةٍ . وَلَا خَفَاءَ بِمَا فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْاِنْتِصَابِ لِلْقَدْحِ وَٱلْاِسْتِهْدَافِ لِلطَّعْنِ وَٱلطَّرِيقُ ٱلْمَسْلُوكُ اِلَى هٰذَا ٱلْقِسْمِ اَنْ تَأْخُذَ بَعْضَ بَيْتٍ مِنَ ٱلْاَبْيَاتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ هُوَ اَحْسَنُ مَا فِيهِ ثُمَّ تُمَاثِلَهُ . وَسَاُورِدُ هٰهُنَا مِثَالًا وَاحِدًا لِيَكُونَ قُدْوَةً لِلْمُتَعَلِّمِ (فَاَقُولُ) : قَدْ وَرَدَ هٰذَا ٱلْبَيْتُ مِنْ شِعْرِ اَبِي تَمَّامٍ فِي وَصْفِ قَصِيدَةٍ لَهُ :

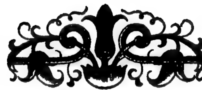
وَحِداء تملأ كل اذن حكمة وبلاغة وتدر كل وريد

فقوله (تملأ كل اذن حكمة) من الكلام الحسن وهو احسن ما في البيت فاذا اردت ان تنثر هذا المعنى فلا بد من استعمال لفظه بعينه لانه في الغاية القصوى من الفصاحة والبلاغة . فعليك ان تؤاخيه بمثله وهذا عسر جدا وهو اصعب مثالا من نثر الشعر بغير لفظه لانه مسلك ضيق لما فيه من التعرض لمماثلة ما هو في غاية الحسن والجودة . واما نثر الشعر بغير لفظه فذلك يتصرف فيه ناثره على حسب ما يراه ولا يكون مقيدا فيه بمثال يضطر الى مؤاخاته . وقد نثرت هذه الكلمات المشار اليها واتيت بها في جملة كتاب فقلت : وكلامي قد عرف بين الناس واشتهر . وفاق مسير الشمس والقمر . واذا عرف الكلام صارت المعرفة له علامة . وامن من سرقته اذ لو سرق لدلت عليه الوسامة . ومن خصائص صفاته ان يملأ كل اذن حكمة . ويجعل فصاحة كل لسان عجمة . واذا جرت نفثاته في الافهام قالت : اهذه بنت فكرة ام بنت كرمة . فانظر كيف فعلت في هذا الموضع فاني لما اخذت تلك الكلمات من البيت الشعري التزمت بان اواخيها بما هو مثلها او احسن منها فجئت بهذا الفصل كما تراه . وكذلك ينبغي ان يفعل فيما هذا سبيله . (واما القسم الثالث) وهو اعلى من القسمين الاولين فهو ان يؤخذ المعنى فيصاغ بالفاظ غير الفاظه . وثم يتبين حذق الصائغ في صياغته ويعلم مقدار تصرفه

فِي صِنَاعَتِهِ فَإِنِ ٱسْتَطَاعَ ٱلزِّيَادَةَ عَلَى ٱلْمَعْنَى فَتِلْكَ ٱلدَّرَجَةُ ٱلْعَالِيَةُ وَإِلَّا أَحْسَنَ ٱلتَّصَرُّفَ وَأَتْقَنَ ٱلتَّأْلِيفَ لِيَكُونَ أَوْلَى بِذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى مِنْ صَاحِبِهِ ٱلْأَوَّلِ . وَٱعْلَمْ أَنَّ مِنْ أَبْيَاتِ ٱلشِّعْرِ مَا يَتَّسِعُ ٱلْمَجَالُ لِنَاثِرِهِ فَيُورِدُهُ بِضُرُوبٍ مِنَ ٱلْعِبَارَاتِ . وَذٰلِكَ عِنْدِي شَبِيهٌ بِٱلْمَسَائِلِ ٱلسَّيَّالَةِ فِي ٱلْحِسَابِ ٱلَّتِي يُجَابُ عَنْهَا بِعِدَّةِ أَجْوِبَةٍ . وَمِنَ ٱلْأَبْيَاتِ مَا يَضِيقُ فِيهِ ٱلْمَجَالُ حَتَّى يَكَادَ ٱلْمَاهِرُ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَنْ لَا يَخْرُجَ عَنْ ذٰلِكَ ٱللَّفْظِ وَإِنَّمَا يَكُونُ هٰذَا لِعَدَمِ ٱلنَّظِيرِ . . . وَإِذَا ٱنْتَهَى بِنَا ٱلْكَلَامُ إِلَى هٰهُنَا فِي ٱلتَّنْبِيهِ عَلَى نَثْرِ ٱلشِّعْرِ وَكَيْفِيَّةِ نَثْرِهِ وَذِكْرِ مَا يَسْهُلُ مِنْهُ وَمَا يَعْسُرُ . فَلْنُتْبِعْ ذٰلِكَ بِقَوْلٍ كُلِّيٍّ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ فَنَقُولُ : مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ كَاتِبًا أَوْ كَانَ عِنْدَهُ طَبْعٌ مُجِيبٌ فَعَلَيْهِ بِحِفْظِ ٱلدَّوَاوِينِ ذَوَاتِ ٱلْعَدَدِ وَلَا يَقْنَعْ بِٱلْقَلِيلِ مِنْ ذٰلِكَ . ثُمَّ يَأْخُذْ فِي نَثْرِ ٱلشِّعْرِ مِنْ مَحْفُوظَاتِهِ . وَطَرِيقُهُ أَنْ يَبْتَدِئَ فَيَأْخُذَ قَصِيدًا مِنَ ٱلْقَصَائِدِ فَيَنْثُرَهُ بَيْتًا بَيْتًا عَلَى ٱلتَّوَالِي . وَلَا يَسْتَنْكِفْ فِي ٱلِٱبْتِدَاءِ أَنْ يَنْثُرَ ٱلشِّعْرَ بِأَلْفَاظِهِ أَوْ بِأَكْثَرِهَا فَإِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ إِلَّا ذٰلِكَ وَإِذَا مَرَنَتْ نَفْسُهُ وَتَدَرَّبَ خَاطِرُهُ ٱرْتَفَعَ عَنْ هٰذِهِ ٱلدَّرَجَةِ وَصَارَ يَأْخُذُ ٱلْمَعْنَى وَيَكْسُوهُ عِبَارَةً مِنْ عِنْدِهِ . ثُمَّ يَرْتَفِعُ عَنْ ذٰلِكَ فَيَكْسُوهُ ضُرُوبًا مِنَ ٱلْعِبَارَاتِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ وَحِينَئِذٍ يَحْصُلُ لِخَاطِرِهِ بِمُبَاشَرَةِ ٱلْمَعَانِي لِقَاحٌ فَيَسْتَنْتِجُ مِنْهَا مَعَانِيَ غَيْرَ تِلْكَ ٱلْمَعَانِي وَسَبِيلُهُ أَنْ يُكْثِرَ ٱلْإِدْمَانَ لَيْلًا وَنَهَارًا وَلَا يَزَالَ عَلَى ذٰلِكَ مُدَّةً طَوِيلَةً حَتَّى يَصِيرَ لَهُ مَلَكَةً . فَإِذَا كَتَبَ كِتَابًا أَوْ خَطَبَ خُطْبَةً تَدَفَّقَتِ ٱلْمَعَانِي فِي

اَثْنَاءِ كَلَامِهِ وَجَاءَتْ اَلْفَاظُهُ مَعْسُولَةً مَغْسُولَةً وَكَانَ عَلَيْهَا حِدَّةٌ حَتَّى تَكَادَ تَرْقُصُ رَقْصًا . وَهٰذَا شَيْءٌ خَبَرْتُهُ بِالتَّجْرِبَةِ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ

تمّ بعونهِ تعالى



فهرس

المقالات

